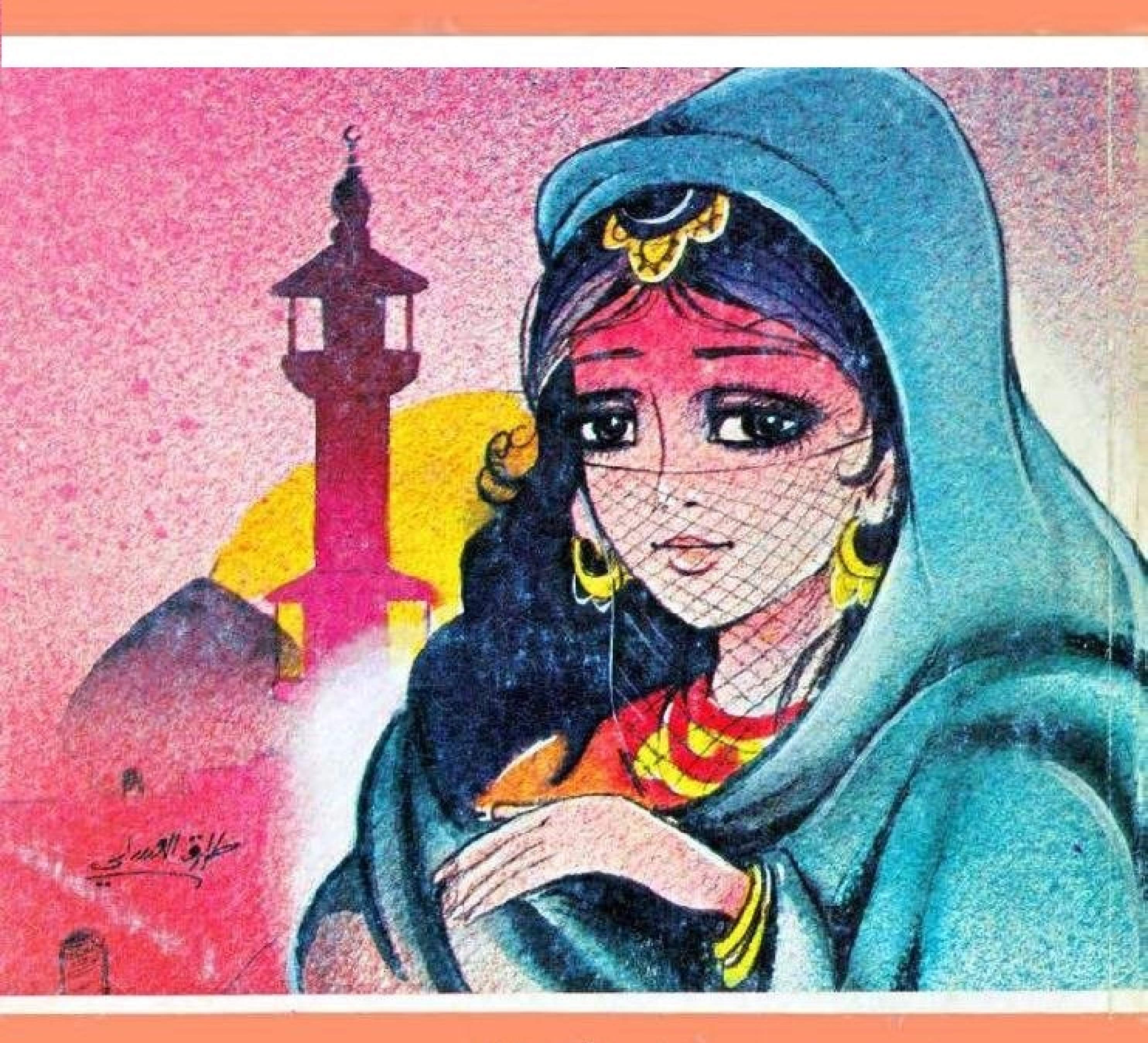
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

اليتيمة الساحرة ١



دار الأندلس


اليتيمة السحارة

تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الأول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

تمهيد

عثمان :

هو عثمان بن عفان ، بن ابي العاص ، بن امية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، ابن قصي . وامه ، اروى بنت كريز ، بن ربيعة ، بن حبيب ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، بن قصيّ . وكان يكنىّ في الجاهلية ، أبا عمر ، فلما كان الاسلام ، ولد له ، من رقية ابنة النبي ، غلام دعي عبدالله ، فكنّاه المسلمون: أبا عبدالله .

وعبدالله هذا لم يعش غير ستة اعوام ، فقد كانت وفاته في جمادى الأولى ، من السنة الرابعة للهجرة . وهذه اسماء ازواج عثمان في الجاهلية والاسلام :

رقية وام كلثوم ابنتا النبي وقد ولدت له رقية عبدالله الذي مرّ ذكره ، وفاختة بنت غزوان من بني قيس عيلان ، وقد ولدت له غلاماً دعاه عبدالله ـ هو عبدالله الاصغر ، وقد هلك ، وأم عمرو بنت جندب ، من الأزد ، وقد ولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم. وفاطمة بنت الوليد ، من بني مخزوم ، ولدت له الوليد ، وسعيداً ، وأم سعيد ، وام البنين بنت عيينة من بني فزارة ، ولدت له عبد الملك وعتبة ، وقد هلك الأول منهما ، ورملة بنت شيبة من بني عبد مناف ، وقد ولدت له عائشة وأم أبان ، وأم عمرو ونائلة ابنة الفرافصة ، من بني كلب ، وقد ولدت له مريم . وقال هشام الكلبي : ولدت نائلة ولداً آخر دعي عنبسة ، وقال الواقدي: ان لعثمان ابنة من نائلة تدعى ام البنين ، وهي التي كانت عند عبدالله بن يزيد بن ابي سيفان .

اسلامه وهجرته :

اسلم عثمان ، قبل دخول رسول الله دار الأرقم ، وكان ممن هاجر من مكة الى الحبشة ، الهجرة الأولى والهجرة الثانية ، ومعه فيها زوجته رقية .

صفته :

كان رجلاً حسن الوجه ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، رقيق البشرة ، عظيم اللحية ، اسمر اللون ، عظيم ما بين المنكبين ، كثير شعر الرأس ، يصفّر لحيته ، وتبدو على وجهه اثار الجدري ، واذا بانت ذراعاه بان الشعر الذي يكسوهما ، وقد تولىّ أمر الخلافة وهو شيخ ، لكن فيه همة الشباب .

***

عندما بايع أهل الشورى عثمان، خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر رسول‌الله فحمد الله ثم خطب قائلاً :

أما بعد ، فاني قد حملت وقد قبلت ، الا واني متّبع ولست بمبتدع ، ألا وان لكم علي بعد كتاب الله وسنّة نبيه ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيا اجتمعتم عليه وسننتم وسنّ سنة أهل الخير فيا لم تسنوا ، والكف عنكم الا فيا استوجبتم، الا وان‌الدنيا خضرة قد شهيت‌الى الناس ومال اليها كثير منهم، فلا تركنوا اليها ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة ، واعلموا انها غير تاركة الا من تركها . الا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة ، 'عتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم ، أين أبنـــاء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة، ثم نزل فجلس في جانب المسجد وقال لمن معه :

لننظر الآن في أمر عبيدالله ، وكان عبيدالله ، بن عمر بن الخطاب ، قد قتل الهرمزان، الذي أسلم وأقام بالمدينة، كما قرأت في رواية هند والمنذر، وقتل رجلاً آخر من نصارى الحيرة يدعى جفينة ، وفتاة صغيرة هي ابنة أبي لؤلؤة ، قاتل أبيه، قتل ثلاثة في المدينة، بعد ان قتل أبوه ، وهذه حكاية القتل : مرّ أبو لؤلؤة قاتل عمربن الخطاب، بالهرمزان، وهو في فناء منزله وعنده جفينة وكان أبولؤلؤة يحمل خنجره الذي طعن به أمير المؤمنين ، فتناول الهرمزان الخنجر وقال له : ما تصنع بهذا يا أبا لؤلؤة ؟

قال: اخوّف‌به الناس ... وبينا الثلاثةيتحدثون، والخنجر في يد الهرمزان،

مرّ رجل آخر من أهل المدينة فرأى الهرمزان يدفع الخنجر الى أبي لؤلؤة ... ثم مرّ في الوقت نفسه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نهض الثلاثة عن مقاعدهم ، وسقط الخنجر ذو الرأسين . وانقضى ذلك اليوم ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، والرجل الآخر ، لا يفكران في ذلك الخنجر الذي رأياه ، فلما كان الصبح ، وقتل عمر ذكر عبد الرحمن ما رآه فقال للقوم :

مررت أمس بأبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وقد رأيت خنجراً يسقط بينهم على الأرض ، وهو ذو راسين نصابه في وسطه . فانظروا بأي شيء قتل عمر ...

ثم قام الرجل الآخر فقال : رايت الهرمزان يدفع الى ابي لؤلؤة خنجراً ذا راسين نصابه في وسطه ... فسمع عبيد الله بن عمر ما قاله الرجلان ، فاشتعلت النار في صدره ، ولكنه اقبل يعالج اباه المحتضر ، وهو ساكت على غلّ ، ثم عثر على الخنجر ومات ابن الخطاب ... فتناول عبيدالله سيفه ، وهو لا يقول كلمة ، وخرج حتى اتى المرزبان فقتله ، ثم مضى الى جفينة وابنة ابي لؤلؤة فقتلها وجعل يقول: والله لاقتلنّ رجالاً ممن شرك في دمابي وهو يعرّض بالمهاجرين والانصار ، فلحق به سعد بن ابي وقاص ، فنزع السيف من يده وجذبه بشعره حتى ادخله داره وجعله سجيناً فيها حتى يرى الخليفة الجديد رايه فيه ، وكان رجل من الانصار يقال له زياد بن لبيد البياضي يحرّض عثمان على قتل عبيدالله ، قال :

الا يا عبيدالله ما لك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
اصبت دماً والله في غير حلّه حراماً وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير ان قال قائلٌ اتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمةٌ نعم اتهمه ، قد اشار وقد امر
وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلّبه والأمر بالأمر يعتبر

فدعاه عثمان فنهاه ، فقال زياد :

ابا عمرو عبيد اللّه رهنٌ فلا تشكك بقتل الهرمزان

فانك ان غفرت الجرم عنه   واسباب الخطا فرسا رهان
اتعفو اذ عفوت بغير حق   فما لك بالذي تحكي يدان

فأمره عثمان بان يكفّ عن مثل ذلك القول ، تلك هي حكاية عبيدالله . فلما جلس عثمان ، في جانب المسجد كما قرات ، امر باخراجه من دار سعد وقال لجماعة من المهاجرين والانصار : اشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق ، فقال علي : ارى ان نقتله ، فقال بعض المهاجرين: قتل عمر امس، ويقتل ابنه اليوم ؟

فقال عمرو بن العاص : يا امير المؤمنين لقد حدث هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان .

قال : انا وليّ المسلمين وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي ، ثم امر فاحضر ابن الهرمزان، فلما مثل بين يديه قال : يا بني، هذا قاتل ابيك وانت اولى به منا فاذهب فاقتله .

فقال للقوم : اتمنعونه ? قالوا : لا ! فلك قتله ، فنهض قائلاً : لقد تركته لله ولكم .. فحمله الرجال، وذهبوا به الى منزله وهو على الرؤوس والأكف.

وقد طابت نفس عثمان لهذا العفو ، الذي منعه من ان يفتتح عهد خلافته بالدماء ... وانصرف الى منزله ، ليبدأ بما يبدأ به الملوك عندما يتربعون في العروش .

* * *

كتابه الى عماله :

هذا اول كتاب كتبه عثمان الى العمال :

اما بعد ، فان الله امر الائمة ان يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباة ... وليوشكن ائمتكم ان يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ... الا وان اعدل السيرة ان تنظروا في

امور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة ، فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم .

كتابه الى القواد :

اما بعد ، فانكم حماة المسلمين وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا . ولا يبلغني عن احد منكم تغيير او تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فاني انظر فيما الزمني الله النظر فيه والقيام عليه.

كتابه الى الجباة :

اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق واعطوا الحق به ... والامانة الامانة قوموا عليها ولا تكونوا اول من يسلبها ... الوفاء الوفاء ... لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ... فان الله خصمٌ لمن ظلمهم ...

كتابه الى العامة :

اما بعد فانكم انما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن امركم ؛ فان امر هذه الامة صائر الى الابتداع ، بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ اولادكم من السبايا، وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن ، فان رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم امرٌ تكلفوا وابتدعوا ...

***

وذكر عثمان ، بعد ان كتب كتبه هذه ، ان عمر بن الخطاب كان يقول :

اوصي الخليفة من بعدي ان يستعمل سعد بن ابي وقاص فاني لم اعزله عن سوء.

فدعا سعداً وقال له : لقد جعلتك عاملاً على الكوفة .

فقال : عامل الكوفة ، المغيرة بن شعبة ، وهو بالمدينة .

قال : عليَّ بالمغيرة ، فلما رآه قال له: لقد عزلناك عن الكوفة وولينا سعداً، ان عمر بن الخطاب لم يعزله عن سوء كما تعلم ، وقد اوصى الخليفة من بعده بان

يجعله من العمال، فخرج المغيرة وهو ينظر الى الارض. ثم قال عثمان: ابن عبدالله ابن عامر ؟ فدعي عبدالله، فقال له:

لقد وليناك امر سجستان ... تذهب اليها حتى تنتهي الى كابل. او تخضع من ذلك القطر الكبير للأسلام ما لم يخضعه عاصم بن عمرو. وكانت ولاية سجستان، اعظم من ولاية خراسان. ثم جعل يستعرض اسماء الولاة والقواد في الاقطار، في العراق وبلاد فارس والشام وفلسطين ومصر، وجعل يقول:

ليبق هؤلاء العمال في اقطارهم وسننظر في أمرهم بعد حين ... فعل ذلك دون ان يتردّد، فكأنه اراد ان يلفت نظر قومه، الى تعجله في قضاء الامر الذي يفكر فيه ... وعثمان، اول خليفة زاد الناس مئة، في أعطياتهم، وهو الذي وضع طعام رمضان.

* * *

كلمة لا بد منها:

نختصر لك الآن اخبار يزدجرد، ملك الفرس، ليسهل عليك فهم ما تقرأ دون أن ترجع الى الروايات السابقة. التي قرأت.

خرج يزدجرد، قبل ان يستولي المسلمون على المدائن، الى جلولاء ثم انصرف منها الى حلوان هارباً من وجه الفاتح العربي وانت تذكر كل ذلك على ما نظن، وسار من حلوان الى الري وعليها أبان جاذويه احد مرازبة الفرس ثم انتقل منها الى اصبهان ثم الى كرمان ثم الى خراسان،

وبنى في خراسان في مدينة تدعى مرو بيتاً لناره وجعل يبعث رسائله الى مرازبته وقواده يوغر بها الصدور على العرب ويدعوهم الى استرجاع المجد، وكان عمر بن الخطاب قد ولى الاحنف بن قيس أمر خراسان فزحف الاحنف الى مرو يريد حرب يزدجرد ففر هذا منها الى مدينة اخرى ثم الى بلخ مستعيناً بخاقان ملك الترك، وقد استعاد هدوءه عندما أقبل ملك الترك بأهل فرغانة يريد ان يحارب المسلمين، ويسترجع عرش فارس، بل قل انه استعاد الامل بالرجوع الى

عرشه. وعلى هذا الامل الخلاب رجع مع خاقان زاحفين الى خراسان وعسكرا في مرو الروذ . وترك يزدجرد خاقان فيها ليحارب الأحنف بن قيس وانصرف هو الى مرو الشاهجان وعليها حارثة بن النعمان ليستخرج منها امواله ... وقد نال في مرو ما أراد واستخرج الأموال . ولكن أهل فارس منعوه من حملها الى ملك الترك ودعوه الى وضع يده في يد القائد العربي ، ولكنه ابى وكره ان تذل نفسه بالخضوع للفاتحين ... فقاتلوه واستولوا على امواله فلم ير الا ان يعبر نهر بلخ مرة ثانية ويلجأ الى الملك التركي الذي سبقه الى فرغانة تاركاً حرب الأحنف . ولم يزل مقيماً بين الاتراك زمن عمر بن الخطاب كله ، حتى كفر اهل خراسان ونكثوا العهد في ايام عثمان كما سيجيء .

***

هذا ما راينا ان نمهد بــه لروايتنا الجديدة وانت ترى ان هذا التمهيد لا بدّ منه .

- ١ -

كانت في قصر كسرى فتنة لأهل القصر . وكانت جارية من جواري بوران بنت كسرى يوم عصبت بوران جبينها بتاج أنوشروان الملك الفارسي العظيم . ولم تكن وحدهـا في ذلك القصر بل كانت هنالك طائفة كبيرة من الجواري جميعهن وصائف ونساء شرف في البلاط الفارسي . على أنها كانت أحسنهن وجهاً وأكرمهن محتداً وأعفهن نفساً.. أبوها شقيق رستم القائد الفارسي الكبير الذي قرأت أخبـاره في رواية هند والمنذر وأمها من سلالة سابور قـاهر العرب الذي يدعى ذا الاكتاف . قتل أبوها في واقعة الجسر في العراق ومـد الموت يده الى امها وهي في مقتبل الحياة .

أسمها جهان روز واسم أبيها أبان زرد، ولا نعرف لأمها اسماً. فلما احس أبوها بالموت، في تلك الواقعة التي كاد المسلمون يضيعون فيها الأمل التفت الى فتى من قومه يدعى شهريار ، هو أمينه وأحد أركان حربه ، وقال له :

احملني الى خيمة بهمن جاذويه ، القائد العام ، فحمله القوم الى تلك الخيمة ، ولم يكن بهمن فيها، بل كان يطوف على فرسه بين صفوف الجيش.فقال ابان زرد لشهريار والقوم يسمعون : سألفظ الروح قبل أن أرى قـائد الفرس واني اريد أن أوصي .

قال : سأنقل اليه ما توصيني به .

– بل أوصيك أنت فقد يعجز القائد عن القيام بما أعهد اليه فيه .

قال : أوص يا مولاي .

قال : انك من اهل خراسان ولا تعرف منزلي في المدائن .

– بل أعرفه يا مولاي فقد دعوتني اليه يوم جلوس بوران الملكة على العرش.

– وتعرف زوجتي ؟

– أجل وقد رأيتها في ذلك اليوم .

– وابنتي جهان روز ؟

– ما رأيت لها وجهاً في منزلك ..

قال : انها في قصر الملكة .

– في قصر بوران ؟..

– نعم ، فقد جعلتها بين الوصائف ، ثم قربتها حتى أمست في نظرها خير من في القصر من النساء .

– سأراها اذن عندما أبلغ المدائن .. قل الآن ما تشاء .

قال : لقد رأيت ان الحرب اشتعلت نارها بيننا وبين العرب .

– نعم .

– ويخيل اليّ ان لهيب هذه النار لا يخمده غير مرّ الزمان .

– تريد ان تقول ان هذه الحرب طويلة العمر ..

– هذا ما أراه .

ثم تنهد قائلاً : ان الجو مكفهر يا شهريار ، وقد تنتهي الحرب باضمحلال هذا الملك الذي ندافع عنه ..

قال : إن العرب أضعف من ان يثبتوا في المجال ، اكثر من هذا العام .

قال : إن القوم الذين يقتحمون الأنهار ، ويصرعون الأفيال يثبتون العمر كله ... ومع ذلك فلتنتصر فارس فهذا ما أتمناه واني لأستعذب الموت مع هذا الامل .

وحنى رأسه للالم المبرح الذي يقطع أحشاءه، فخاف شهريار أن يغمض الموت عينيه قبل ان يوصيه فقال : اوصِ الآن يا مولاي ..

فتعلثم لسانه ... ثم جعل يتمتم قائلاً : جهان روز ... ابنتي ... احمها من حادثات الزمان ... وكن لها أباً ... أو اخاً ... أو زو ... جاً ... واسلم الروح ... فدمعت عينا شهريار الأمين وقال للقوم :

احملوا جثة الأمير الى مدافن القتلى وخبروا بهمن جاذويه بما سمعتموه ، ثم شيع الجثة وهو يقول في نفسه : لقد بدأت اشعر بأن لي في المدائن في قصر الملكة فتاة هي قطعة من الروح ..

وجعل يردد اسم جهان روز ... وأنين الجرحى ، واصوات الاستغاثة تملأ الفضاء ...

* * *

- ٢ -

اضطرب البلاط الفارسي ، في اواخر السنة الثالثة عشرة للهجرة ، وثار القوم في فارس يريدون ملكاً من سلالة كسرى . لقد كرهوا — والعرب على الأبواب ، والعراق غائص في لجة من الدماء — ان تستبد بهم فتاة مثل بوران ، لا تعرف من أحوال الملك غير الجلوس على العرش . واحضروا نساء كسرى ، وسألوهن عن الذكور من ابنائهن، فأرشدتهم إحداهن إلى فتى في الحادية والعشرين من العمر ، هو يزدجرد ، فرفعوه الى العرش ، وألبسوه تاج الملك .

ويزدجرد ، هو الملك الفارسي الذي عرفت ، وقد مرّ ذكر جلوسه على عرش اجداده ، في روايتنا السابقة . ولم يكن يزدجرد من اولئك الفتيان الذين خبروا الزمان، واهل الزمان ..

لقد عاش عند اخواله كما يعيش المنفي الجاني . بل كما يعيش الطريد الخائف من الموت . ولم يخطر له ولأخواله ان الدنيا ستدور وانه سيمسي ملك الملوك ..

أجل ، كان يزدجرد مغضوباً عليه لا يجسر على الظهور ، بل لم يكن له وجود في نظر أهل فارس. وكيف يظن القوم انه موجود، وانه حي ، وسيري احد ملوكهم قتل جميع الذكور الذين يجري فيهم دم شهريار بن كسرى، ليستقيم له امر الملك ويستأثر بنوه بالتاج من بعده ؟! ولم يعلم شيري ، ولم يعلم اهل فارس ، ان ام يزدجرد دفعته إلى اخواله ، قبل حادثة القتل التي جرت في القصر الابيض فنجا من الموت .

انتقل يزدجرد ، من وراء الجدران الى اعظم عرش في ذلك الزمان ، وتلفّت فرأى الناس يحنون الرؤوس ويمرغون الوجوه عند قدمي العرش ، وابصر عظماء الدولة وقواد الجيوش يخاطبونه ساجدين وعيونهم تنظر الى

الأرض . وهو في الحادية والعشرين ... فراشه الديباج والخزّ ... ولباسه الطيالسة المصنوعة بخيوط الذهب! والتاج الذي يضعه على رأسه يشتري بثمنه، اذا باعه نصف الشرق ... والمال بين يديه يعبث به كما يعبث الطفل بحفنة من تراب !!.

وسادة الفرس ووزراؤهم ورؤساء عشائرهم يحرقون بخورهم في المواضع التي تطأها قدماه .. وحسان فارس من جميع نواحي الدولة يتهن عزاً ودلالاً في بلاطه العجيب. كل شيء حول يزدجرد يدعو الى الغرور والزهو وجميع مظاهر البلاط مظاهر فتنة واغراء ...



- ٣ -

خرجت بوران من بلاط الملك تريد ذلك القصر الذي أعده لها يزدجرد . ولم يشأ الملك إن يجود عليها بوصيفة منوصائف القصر .. ! بلى، لقد جاد بجاريتها الخاصة تعيش معها ما طاب لها العيش ! أجل إن الوصائف والجواري اللواتي يغص بهن البلاط ، ملك يزدجرد .. ملك الفتى الخارج من الظلمة الى النور ، ملك الشباب الجامح الوثاب .. ! لا تخرج حسناء من القصر إلا باذنه . واية فتاة تجسر على الخروج او تجسر على طلبه ?? وقد تغيرت حياتهن ، فقد كنّ وصائف للملكة ، فأمسين جواري للملك ... بل قل امسى معظمهن بين ليلة وضحاها حظايا له ، واقبلت الوفود تظهر خضوعها للملك الجديد وتدعو له بالنصر .

وكان شهريار، الذي أوصاه ابان زرد بفتاته، قد شهد معارك كثيرة خرجت العرب ظافرة منها ، فملّ الحرب واستأذن قواده في الرجوع الى المدائن . وشهريار فتى أسمر الوجه جذاب الملامح تبدو على وجهه مظاهر الشرف والاباء . وكانت زوجة ابان زرد قد عرفت ان زوجها قد قتل يوم الجسر، فاستسلمت الى لوعتها ، وقضت لياليها تبكي ذلك الزوج الأمين، الذي عاشت معه عيش الرخاء والهناء ولكنها لم تقل كلمة لجهان روز ، ولم تشأ ان تفاجئها بذكر الموت. وبينا

كان شهريار راجعاً الى المدائن لينقل الى زوجة مولاه وصية زوجها ويبسط ظل حمايته على جهان روز ، مشى الموت بخطى مجنونة الى تلك الزوجة وانشب فيها مخالبه القاسية، فهوت كما تهوي الزهرة النضرة تصفعها العاصفة الهوجاء ، ونقلت جثتها الى مدافن الاشراف محمولة على اكف العظماء والنبلاء ، وقد دلّ الاسى البادي على الوجوه ، على ان القوم يشعرون بان المرأة الذاهبة الى القبر هي الشخص الوحيد الباقي من سلالة سابور . وقد يكون هنالك شعور آخر هو انهم كانوا يعلمون، انها زوجة شقيق رستم ورستم سيد القواد، وكبير رجال السيف . ولكن القوم يتعظون بالموت عندما يرون الموت ... فاذا احتجب موكبه عن العيون انصرفوا الى ما تعودوه من اللذات وضاعت لوعتهم بين مظاهر الحياة . لقد نسوا ، بعد رجوعهم الى المدينة ، حفيدة الملوك التي طواها التراب، وطلقوا دارها ، التي كانت تغص منذ حين بالنبلاء والاشراف فلم يبق في تلك الدار غير الجواري والغلمان اصحاب المروءة والوفاء .

وجهان روز نفسها شيعت جثة امها والدمع في عينيها ، والكآبة في قلبها ...دت تصرعها اللوعة عندما فاجأتها إحدى الجواري بقولها : ان اباها صرعه السيف! مسكينة جهان روز.. لقد جارت عليها الاقدار وهي في زهرة العمر، ودفعتها بيدين حديديتين الى اشداق الهوان والذل . بكت والديها ، وما رافقها في حياتها من هناء وعزّ ، وبكت بهجة الامس وقد ايقنت بأن هذه البهجة ، لن تعود .. واحست بالوحدة .. الوحدة الرهيبة القاتلة .. بل احست بالحاجة الى نصير تحتمي به من غدر الايام وتستعين بعاطفته وحنوه على جور الزمان ..

اجل ان عمها قائد الجنود وفارس كلها تعلق الامل على سيفه .. ويزدجرد نفسه يهش له ويجود عليه بابتسامة الرضى واركان الدولة ، ينظرون اليه نظرهم الى منقذ الوطن .. ولكنه رجل حرب وقد لا تجد فيه ذلك الامل الذي تعلل نفسها به ويزدجرد الملك ??! وماذا يصنع يزدجرد .. انه سيجعلها حظية .. ثم يملها كما يمل سواها ويقذف بها الى هوة العار . وهذا اعظم واشد ما تلاقيه ، من ظلم الاقدار ... لقد اذن لها في تشييع امها ، دون ان يراها ، وأمر رئيس الخصيان ، بان يأمرها بالرجوع الى البلاط ، بعد شهر ... وهذا معناه انها

أسيرة ، وان تكون في القصر الملكي ... وانها عبدة وان تكن أمها من سلالة الملوك !!.

وأي أمل يخفق عليه فؤادها وهي في القصر ؟؟ ! أتحلم بالحرية وهي مقيدة بسلاسل من الذهب ... أم تطمح بالنور وهي داخل نطاق من الظلام ... انها شقية ... وقد لا تجد شقاء أبلغ من الشقاء الذي تحسّ به ... وليس في بلاد فارس ، من يستطيع انقاذها مما هي فيه . ومضت الايام الاولى ، وهي في منزل أبيها ، وليس بين الجواري والغلمان ، من يستطيع ان يخلق لها ظلاً للأمل . وعمها في ساحات الحرب ، بعيد عنها ، وقد يعجز وهو قريب منها ، عن ان يمد اليها يدالمعونة إلا اذا شاء يزدجرد، ويزدجرد بين نسائه وجواريه لايبالي بالنفس المعذبة والقلب الكئيب ... والحرب ، بما فيها من خطر وهول ، لا تخرجه عن استهتاره ولهوه ...

***

– ٤ –

أقبل شهريار الخراساني الى المدائن في ليلة من ليالي الشهر الاخير من السنة الثالثة عشرة ، وكان الليل قد ذهبت طائفة منه ، ولم يشأ ان يصبر الى الصباح.. إن في صدره من عواطف الاخلاص والوفاء ما لا يستطيع معه الصبر .

مشى بخطى متثاقلة الى منزل مولاه . وعندما دنا منه ، رأى من خلال احدى النوافذ نوراً يروح ويجيء ؛ فقال في نفسه : هذه هي غرفة المرأة المنكودة الحظ التي خسرت زوجها ،

واستأذن في الدخول ؛ فبرز له احد الغلمان قائلاً : من انت ايها الفتى ؟

قال : رجل من رجال أبان زرد .

– : وماذا تريد ؟

– احمل من القائد رسالة الى زوجته . فغصّ الغلام بالبكاء ثم قال : ولكنك لا تجد هذه الزوجة .

– وأين هي ؟

– لقد كرهت العيش بعد مولاي وآثرت اللحاق به الى القبر !! فدفعه بيديه ثم دخل وهو يقول : ويلك أتهزأ بي في مثل هذا الموقف ايها اللعين ؟!

قال : لا والله ، وانما انقل اليك ما جرى ، وانا قد كفنت مولاتي بيدي ..

ورفع صوته بالبكاء ؛ فأحس شهريار ان الارض تدور به ، وهو يكاد يسقط على الارض .. لقد جاء ينعي للمرأة زوجها ، فاذا الغلام ينعي له الزوجة! وأي شيء يصنعه في المنزل ، بعد هذه المفاجأة ؟ أيدخل نادباً الضحيتين ، وباكياً الزوجين ، وهو الوصي الذي يحمل العزاء لجهان روز ؟ أم يخرج الى حيث يقضي الليل بالرثاء ، ثم يذهب الى البلاط في الصباح ليبتسم للفتاة قائلاً لها : انك لم تخسري ابويك وأنا حي ؟

وخيل اليه ان الجدران ستنقض على رأسه ... فاستند الى الباب وقد حبس انفاسه ، ثم جعل يمسح دموعه الصامتة وهو ينظر الى الارض نظرات مجنون . ولم يلبث حتى صحا من ذهوله ، ففتح الباب بهدوء وهو يقول : متى كان ذلك ايها الغلام ؟

– منذ عشرة ايام .

قال : لا تنقلوا الخبر الى جهان روز فأنا سأتولى الامر .

– ولكنها عرفت كل شيء .

– ومن خبرها بذلك ؟

– جارية امها واثنان من القواد .

–ولم ترافق امها الى القبر ؟

– بلى ، وستمكث بهذا المنزل شهراً ثم تعود الى البلاط . فتنهد قائلاً : وهي هنا الان ؟

– نعم .

– وأستطيع ان اراها ؟

فتردد الغلام قليلاً ثم قال : سأستأذن لك .. ولكن لا أعلم ماذا أقول .

- تقول لها إن رجلا من رجال الجيش ، قدم الساعة لينقل اليها وصية أبيها.

- وما هو اسم الرجل ؟

قال الا تذكر انه كان لمولاك أمينٌ من خراسان يدعى شهريار ؟

- بلى ، ويخيل اليّ اني أعرفه ، اذا رأيته .

قال : انا هو فانظر الى وجهي ... فتفرس الغلام فيه ثم قال : اجل لقد عرفتك فانت شهريار .

قال : ادخل الآن .

وكانت جهان روز في حجرتها ، وهي تذرف الدموع ، وأمامها جاريتان تسألانها بكآبة وحزن ان تكف عن البكاء ، فمثل الغلام بين يديها قائلاً : بالباب رجل يريد ان يرى مولاتي جهان روز ،

فذعرت الفتاة قائلة : من رجال البلاط ؟

- لا ، بل من رجال مولاي أبان زرد وهو قادم من ساحة الحرب ،فكفكفت دموعها وجعلت تقول : لم يبق لابان زرد رجال.. أنه من رجال الملك وقد جاء يأمرني بالرجوع .

قال: اعرف الرجل يا مولاتي فقد كان أحب الفتيان الى مولاي وهو أمينه.

فقالت احدى الجاريتين : اذكر اسمه .

قال : شهريار .

قالت: وانا اعرف شهريار يا مولاتي فليدخل .

فشعرت جهان روز بشيء من العزاء ، ثم قالت : لينتظرني في قاعة الجلوس.

ودخل شهريار والبكاء يتردد في صدره ؛ ثم اقبلت جهان روز تتهادى بين الجاريتين ، وقد هامستها احداهما قائلة : انه شهريار نفسه ؛ فجثا الخراساني على ركبتيه وقال : ما جئت لأذكر الحادثين الرائعين في هذه الساعة ، بل اتيت لأفي بالوعد الذي عاهدت مولاي ، قبل موته على الوفاء به ؛ فمدت يدها اليه قائلة : يخيل اليّ اني اسمع صوت ابي القتيل يخاطبني الآن ... انهض وخبرني بما سمعت.

فنهض وهو لا يرفع رأسه ثم قال : لقد أراد مولاي ، أن يجعلني على ضعفي حامياً لابنته جهان روز ، التي هي احدى وصائف الملكة ...

ورفع عندئذ عينيه فاضطرب وكأنه لمس قضيب الساحر ... لقد شعر بعد تلك النظرة ، ان عاطفة اخلاصه لمولاه، وعاطفة اشفاقه على ابنته أمستا عاطفة حب !!! وأحسّ بالغرام يتغلل في فؤاده ويدب بين الضلوع ... أجل لقـــد أصابته تانك العينان السوداوان في القلب ... وأوحى اليه الهوى ذلك الوجه الذي تعلوه الكآبة ، وتغمره الاحزان ...

وكانت جهان روز قد استندت الى جاريتها ، وجعلت تتفرس في ذلك الفتى الذي تتردد بين شفتيه تلك الالفاظ التي رددها أبوها قبل أن يلفظ الروح . ثم لجأت الى احد المقاعد وقد تفجرت من عينيها الدموع ، فقال شهريار وصوتـه يرتجف : خير لي ولك ان انصرف الليلة على أن أعود عند الصباح .

– بل تبقى ، فان هذا البكاء الذي تراه ، مظهر من مظاهر العزاء ... قل الآن كيف قتل أبي .

قال : ليس من الرأي ان اذكر الآن ما لا اطيق ذكره . لقد عرفت ذلك من سواي .

– ولكني أريد انتصف لي ذلك البطل، وهو يجود بنفسه في سبيل وطنه...

– لقد مات كما يموت جميع القواد في الحرب! ولكن بعد ان قتل من العرب خمسة رجال .

– وأين كان بهمن جاذويه ؟

– كان بعيداً عن الجسر يدفع الناس الى الساحة التي تهرق فيها الدماء وكان يقول :

اقذفوا بالعرب الى الماء .

فخفضت صوتها قائلة : ولفظ أبي روحه وهو في الساحة ثم ضاعت جثته...

– بل نقلناه وهو جريح الى خيمة بهمن ولم يلبث حتى أغمض عينيه وهو يردد اسم ابنته جهان روز ..

قالت : اذكر الآن وصيته .. فاراد في تلك الساعة ان يكون رجلا ، فـلم

يستطع ، وفضحته دموعه المنحدرة على خديه ، كان ذلك القتيل احب الناس اليه .. فبكت الفتاة مثله ، وايقنت عندئذٍ ان لها شريكاً في مصابها ، بل أيقنت ، وهي بين يدي لوعتها الثائرة ، ان شهريار ، هو المعزي الذي ارسلته اليها الاقدار . وتكلمت الدموع، بتلك البلاغة الصامتة، التي هي همس الروح.. وشهريار ساكت يعالج بكاءه ..

فقالت : الوصية يا شهريار .

قال : انها بعض كلمات ذكر بها مولاي اهل بيته ..

– ولكن اريد ان اسمع هذه الكلمات كما هي :

قال : تمتم القتيل اسم جهان روز ثم قال والروح تحشرج في صدره : انها وصيفة بوران الملكة . فاحمها ، وكن لها أباً ، أو أخاً .. وتردّد شهريار ولم يستطع ان يقول الكلمة الاخيرة : أو زوجاً .. على ان جهان روز عرفت ان هنالك لفظة اخرى اراد الفتى كتمانها .. ولعلها عرفت ان تلك اللفظة تعني الزواج .. فأحست ان في صدرها عاطفة جديدة ، تهدأ معها اللوعة ، فقالت : لقد كنت بين وصائف بوران .. قبل ان يجلس يزدجرد على العرش . وتنهدت تنهد المرأة الخائفة .

فقال : وقد انتهت مهمتك في البلاط ؟

– بل أعود اليه بعد ان يمر الشهر .

– وماذا تصنعين فيه ؟

– ان للملك ثلاث زوجات وقد يمسين أربعاً ..

– وكيف يقولون انه في الحادية والعشرين ؟

– اجل في الحادية والعشرين وقد تزوج النساء الثلاث وهو عند اخواله .

– وانت الآن من وصائفهن ؟؟

– نعم ، ثم ارتجف صوتها قائلة : ومن يعلم فقد يحاول الملك غداً ان يجعلني من حظاياه فأخسر كل شيء ..

فذعر الفتى، وجعل يحدق اليها بعينين ملتهبتين، ثم قال: لا أظن ان يزدجرد يفعل ذلك وانت ابنة ابان زرد !!

– ومن يبالي بأبان زرد وهو في القبر ؟

– اذا نسي الملك ابان زرد فهو لا ينسى قائد جيشه الاكبر ..

– عمي ؟

– نعم فهو اعظم رجال الدولة اليوم .. فجعلت تهز رأسها وتقول : اخشى ان يعمد هذا العم الذي هو القائد الاكبر الى ما لا يخطر لاحد من الناس .

– الى ماذا ؟

– الى ان يحملني بيديه ويقول للملك : هذه ابنة اخي ابان زرد اجعلها عبدة لك !!

قال : اتظنين برستم الظنون ؟

– ولماذا لا اظن وقد لمست بيدي الاثنتين عنايته بي ؟!! قل يا شهريار ألم تكن انت اقرب الناس الى ابي !

– بلى ..

– ألم يمر على موته بضعة اشهر ؟

– بلى

– وعمي رستم الم يبلغه خبر هذا الموت ؟

– لقد بلغه ذلك بعد ثلاثة ايام .

– وماذا فعل ؟؟ أبعث الينا جماعة من اركان حربه ، تحمل الينا تعزيته ام ارسل الى امي كتاباً يظهر فيه لوعته على اخيه ، واهتمامه لامرها وامر جهان روز ؟؟! ان شيئاً من هذا لم يصنعه ولم يخطر له الا ان يكون سيد المحاربين واول المقربين الى الملك .

قال : قد يكون فعل ذلك وانت لا تعلمين ..

– بلى اعلم وتعلم الجواري انه لم يفعل شيئاً مما ذكرت ، فأراد ان يدافع عنه بصفته جندياً فقال : لا تلوميه ، فالعرب اعداؤنا في العراق اليوم ، وهو يعد العدة للقضاء عليهم ليسلم الوطن .

قالت : كنت اظن اني استحق كلمة عزاء من هذا العم الذي تدافع عنه والذي جعلته قساوته شريكاً للقدر الذي جار ..

قال : سيفعل غداً ما لم يفعله اليوم .

– اجل ، وسينتزعني من فم الاسد الذي يتحفز للوثوب .

قال : اراك تنظرين الى الناس كأنهم جميعهم أعداء .

– بل انظر اليهم كأنهم ذئاب .. لقد قتل ابي في ساحة الحرب ، ثم لحقت به امي بعد حين ، فلم ارَ من اولئك الناس الذين غمرهم فضل ابان زرد ، غير الجفـــاء ، ولم يقم بين اهل المدائن ، بل بين اهل فارس ، من يعطف عليّ الا جواريّ اللواتي يضمهنّ هذا القصر !!

– والا فتىً من خراسان هو .. انا .. !! اتريدين ان تثقي بوفائي كما كنت تثقين بمولاي ؟

قالت : انك قادم باسم ابي فلا استطيع الا ان اثق بما تقول .. ولكن هذا الوثوق سيضيع .. !

– لماذا ؟

– لاني اسيرة في قصر يزدجرد وانت في ساحة الحرب !

قال : لي عام كامل اقضيه خارج الساحة .

– وكيف يكون وفاؤك ، وانت لا تراني ، وانا لا اراك ؟

قال : سأطلب الى الملك ان يأذن لك في الخروج من قصره .

– وتجروء على ذلك ؟

– نعم ، وسأقول له ان ابان زرد ، امرني قبل موته ، بان افعل .

– واذا أبى ؟

– اجثو عند قدميه ، واستحلفه بتاجه وعرشه ، ثم اذكره بذلك القتيل الذي اوصاني بابنته ونفسه تحشرج في الصدر ..

– وتظن ان يزدجرد يلين لمثل هذا القول ؟

– بل اعتقد ، وسأمثل غداً بين يديه واطلب جوابه ..

قالت : نفسي تحدثني بان القدر سيتمادى في جوره .

– اما انا فلا اشك في عطف الملك وسترين اني كنت على صواب ... وكان

قلبه يضطرب ، وقد احسّ ان حياته ستكون شقاء اذا لم تكن جهان روز ، بهجة هذه الحياة .. ونهض وهو يهمّ بالذهاب .. ثم تردد كأن في صدره شيئاً آخر تمنعه لوعة جهان روز، من ان يبوح به، ورأت الفتاة هذا التردد فقالت له: اتنصرف الآن ؟

– اجل فلم يبق لي ما اقوله بعد ان وثقتِ بي ..

– ومتى ترجع غداً ؟

– اقابل الملك غداً ثم أعود .

– وتمكث العام كله بالمدائن ام بخراسان ؟

فصبغ الحياء خديه ، وتلعثم لسانه ، ثم ما لبث ان استعاد عزيمته فقال : سأمكث بالبلد الذي تمكثين به ! فغمر العزاء فؤادها فقالت : ان بلدي المدائن كما ترى .

– وأنا سأبقى في المدائن الى الابد ؟

قالت : هب اني بقيت اسيرة في قصر يزدجرد وانت لا تستطيع الدخول اليه عندما تشاء ؟

قال : استحلفك بتراب ابيك وامك الا تذكري هذا الاسر فأنا لا اطيق ان اعترف بوجوده .

– ولكنه موجود .

– بل هو زائل ولا يستطيع يزدجرد نفسه ان يعمد اليه .

قالت حقق الله أملك فأنا لا يطيب لي الا ان اقيم العمر كله بهذا المنزل لأرى فيه المخلصين لي ، من الجواري والغلمان ..

– بل لتري فيه فتى من خراسان لا يعيش الا بهذا الاخلاص الذي تذكرين.. اجل يا جهان روز .. سيكون شهريار الخراساني غلاماً من غلمان هذا القصر ، بل عبداً من عبيده .. وسيبذل دمه ويجود بحياته ، في سبيل الفتاة التي كان ابوها أحب الناس اليه . ثم استطاع ان يقول قبل ان ينصرف : ان شقاء جهان

روز هو شقاء شهريار ، ولوعتها لوعته ، وهناءها هناؤه ، والى اللقاء .. وخرج والدموع تتساقط على خديه .

فقالت لجاريتيها : لقد لمست الوفاء بيديّ وأحسست بالعزاء .

فقالت احداهما : انه كان يريد ان يقول شيئاً آخر .

قالت : أصبتِ ، وأنا قد فهمت كل شيء ..

***

- ٥ -

لم ينم شهريار ليلته ، فقد كان يحلم بوفائه ، ويعلل النفس بالمنى ، فلما طلعت شمس اليوم الثاني ، غدا على قصر كسرى واستأذن على يزدجرد .

وهذا معناه انه استأذن على إله فارس !! نعم ، كان ملك الفرس ، في ذلك الزمان ، في مظاهر عظمته وعزّه ، وجلوسه للناس ، يشبه الآلهة التي تذبح الذبائح على اقدامها المقدسة ! الحياة والموت في فمه ، وهو يهب العز لمن يشاء ، ويقضي بالذل على من يشاء ..

قيل ليزدجرد ، ان رجلاً من رجال الحرب يرغب في المثول بين يديك وهو من الذين شهدوا واقعة الجسر .

قال : ادخلوه فقد يكون رسول احد القواد .. ومشى الى مجلسه الخاص والغلمان بين يديه يحملون المباخر. ودخل شهريار .. ثم سجد متهيباً صامتاً وكاد وجهه يلامس الارض ، فنظر اليه يزدجرد ، كما ينظر الى احقر عبد من عبيد بلاطه ثم قال : ارفع رأسك !! ..

فرفعه .. فقال : من انت ؟

– عبد من خراسان .

– واسمك ؟

– شهريار .

فقهقه قائلاً : ارى عبيد خراسان يحملون اسماء ملوك الفرس !! ان جدّنا يدعى شهريار وقد تكون انت من ولده !!

فاضطرب الفتى لاستخفاف يزدجرد ، ولهذه اللهجة المنفرة يخاطب بها الملك رجال جيشه .

ولكنه لم يجب ، ثم قال يزدجرد : ومن أرسلك الينا ؟

– قائد من قواد فارس صرعه السيف . قـــال : كذبت فقوادنا جميعهم احياء .. فجعل الخراساني يتفرس في هذا الملك الذي رفعته الاقدار الى العرش.. ثم تمتم قائلاً : لم امثل بين يدي مولاي لأنقل اليه الاكاذيب !! قلت اني رسول قائد من قوادك ولم أكن كاذباً .

قال : اذكر اسمه .

– ابان زرد يا مولاي .

فقال دون ان يتردد: لم يذكر امامنا هذا الاسم من قبل .. من هو ابان زرد؟

– شقيق رستم القائد الاكبر ..

– شقيق رستم ولا يعرفه الملك ؟

– نعم يا مولاي .

– ومتى قتل ؟

– قبل ان تجلس يا مولاي على عرش فارس .

– ولكنك تقول انك رسوله الينا .

– اني رسوله الى صاحب التاج الفارسي .. وقد كانت بوران ملكة يوم لفظ ابان زرد روحه في واقعة الجسر التي خسرتها العرب .

قال : وقد كانت بوران ملكة .. نعم .. اذن فأنت رسوله الى بوران وان الملك ليطيب له ان يسمع حكايتك .. قل الآن ما تشاء .

قال : لقد جعلت بوران الملكة بين وصائفها فتاة تدعى جهان روز .

قال : فتاة تدعى جهان روز .. ثم ماذا ؟

– وهذه الفتاة هي ابنة القتيل ابان زرد .

– وهي ابنة القتيل ابان زرد .. وبعد ذلك ؟

– فلما احسّ ابوها بالموت ، دعاني اليه وجعلني أباً لفتاته ، وطلب اليّ ان التمس من الملكة اخراجها من البلاط ، لأستطيع ان اقوم بما عهد اليّ فيه .

فقال هازئاً : وهل قال لك احد ان بوران تقيم اليوم ببلاط الملك ؟

– لا يا مولاي ، فأنا أعلم ان الملك وهب لها قصراً تقيم اليوم به .

– وكان عليك ان تعلم ان الفتاة التي أمست ابنة لك تقيم معها في ذلك القصر .

– بل هي في بلاطك يا مولاي وبين جواريه ..

– ومن قال لك ذلك ؟

– هي نفسها فقد رأيتها أمس في منزل أبيها ، وهي فيه باذن منك ، فجعل يزدجرد ينظر الى غلمانه وهو لا يفهم شيئاً مما يسمعه ، ثم قال : رأيتها انت أمس ؟؟

– نعم .

– وكنت تعرفها من قبل ؟

– لا !

– وماذا تصنع في ذلك المنزل وهي من جواري الملك ؟

– خرجت اليه لتشيّع امها الى القبر !

فوضع يده على جبينه ثم قال لحاجبه : عليّ برئيس الخصيان. ولم يلبث ذلك الرئيس حتى سجد عند قدميه ، فقال له : أتعرف جارية من جواري البلاط تدعى .. جهان روز ؟

– أعرفها يا مولاي ؟

– وأين هي الآن ؟

– خارج البلاط وستعود اليه في آخر هذا الشهر .

– ومن اذن لها في الخروج منه ؟

– انا يا مولاي وقد أمرتني انت ان أفعل !

– وكانت من وصائف بوران ؟

– أجل ، على ان الملك أراد أن تبقى الوصائف جميعهن في بلاطه ، ولم يشأ أن يعطي بوران غير جارية واحدة .

قال: لقد ذكرنا ذلك الآن..ولكننا لا نعرف جهان روز ولم نرَ لها وجهاً.. أتقول انها من الحسان ؟

– بل أقول انها زهرة من ازاهير الربيع ..

– وكيف لا يعرفها الملك ؟

– لان في بلاطه مئة جاريه هنّ أجمل حسان فارس .

فقال لشهريار : لقد وصف لنا هذا الخصي الآن جاريتنا التي ذكرت ، فماذا تلتمس من الملك ؟

– ألتمس منه أن يهبها لعبده شهريار الخراساني .

فقال وكأنه يخاطب نفسه : رآها عبدنا الخراساني فأحبها ، ثم رأى ان الملك لا يليق بها ، فأرادها لنفسه .. !

قال : عفواً يا مولاى فأنا لم يخطر لي غير الوفاء أرضي به نفسي ونفس ذلك القتيل الذي قضى حياته وهو يدافع عن أمته .

– اي انك تريد ان تقوم بواحد من أمرين ، اما ان تعنى بجهـان روز عناية الوالد بولده ، واما أن تجعلها زوجة لك .

قال : اني لم أفكر في الزواج يا مولاي .

– اذن فكرت في الأمر الآخر وملك الفرس يستطيع ان يقوم به كما تقوم به انت .. والتفت الى رئيس الخصيان قائلاً : اريد أن ارى جهان روز الساعة فخرج الرجـل دون أن يتكلم ، وكان شهريار يرتجف من الغضب وهو لا يجسر على ان يقول كلمة .

ثم قال يزدجرد : سننظر في امرك أيها الخراساني عندما تجيء جهان روز .. فقال في نفسه : يريد أن يستعرض الجمال قبل ان يجود بجوابه فالويل له .

ثم خطر ليزدجرد ان يعبث به فقال :

لماذا خصك ابان زرد بوصيته ولم يعهد بها الى أخيه ؟

قال : كان رستم بعيداً عنه ، وكنت أنا من رجال حربه ومن أقرب الناس اليه .

قال : هب ان الملك لم يؤمن بما قلته له .

قال : تشهد لي طائفة من أركان الحرب ويستطيع الملك أن يسأل بهمن جاذويه الذي كان يقود الجيش يوم الجسر .

– ليس لبهمن جاذويه رأي في هذا ، ان الرأي لرستم وحده ، فهو عم الفتاة والقائد الذي نثق به .

– اذا أراد الملك امراً فعله دون أن يشاور الناس !

– ولكننا نريد أن نعمد الى المشورة في مثل هذا الأمر .

قال : استحلفك بدم القتيل يا مولاي .

قال : يقتل كل يوم ألف رجل في الميادين ويتركون بنيهم بين يدي القدر الساخر يفعل بهم ما يشاء، أفلا يطيب لك وللقتيل الذي يخاطبنا باسمه ان تعيش جهان روز بين يدي الملك وفي ظله ؟

– ان فارس كلها تعيش في ظل الملك وليس هذا ما أراده ابان زرد .

قال : تموت ارادة ابان زرد عندما يريد يزدجرد !! لقد طلب اليك ان تكون أباً لابنته يوم كانت بوران ملكة الفرس . اما اليوم فقد صار يزدجرد ملكاً ويزدجرد وحده هو الذي يحمي الضعفاء ويكون أباً للفقراء !

وظل يعبث به وهو بين وسائد الديباج ، وشهريار جاثٍ على ركبتيه ، حتى أقبل رئيس الخصيان وغلمانه ، بينهم جهان روز ، فرأى الملك مظهراً من مظاهر الفتنة وآية من آيات الجمال . وكانت جهان روز تتعثر بخجلها وتكاد من خوفها تسقط على الأرض . تلك هي المرة الاولى التي ترى فيها الملك وجهاً لوجه . وقد قام في ذهنها ورئيس الخصيان يدعوها الى البلاط ، ان الأقدار كتبت لها الشقاء الى الأبد ، في البلاط الفارسي .. فلما توسطت القاعة ، أومأ إله الفرس الى الغلمان بالانصراف وخاطبها قائلاً: لم نكن نعلم من قبل ان اباك قتل في العراق،

ولو عرفنـــا ذلك لاظهرنا لجميع عظماء الدولة انك أمسيت ابنة للملك ، وانك سيدة الوصـــائف والنساء في البلاط ، فجثت بالقرب من شهريار وجعلت تمتم الفاظ الشكر ..

ثم قال الملك : أتعرفين هذا الخراساني ؟

فايقنت عندئذ بأنه يريد ان يتبين صدق الرجل فقالت: ما عرفته إلا أمس.

– وهل كان من رجال أبيك كما يقول ؟

– أجل يا مولاي فغلمان أبي يثبتون ذلك .

قال : متى دخلت البلاط ؟

– بعد مرور الشهر الاول على ملك بوران .

– وطابت لك الاقامة به .

– وأي امرىء لا تطيب له الاقامة بقصر الملك .

قال : والآن ؟

– والآن ماذا يا مولاي ؟

– أتؤثرين البقاء فيه على الخروج منه ، ام تؤثرين الفقر والذل على نعمة الملك وفضله فأحست الفتاة المنكودة الحظ ، انها لم تقف في حياتهـــا موقفاً أصعب من هذا ...

أتقول للملك : خير لي ان اصون شرفي ويكتنفني الفقر خارج قصرك ، من أن أتمرغ بالذهب ولا شرف لي ؟! أم تقول : الموت وأنا في هذا القصر ، خير من الحياة وأنا بعيدة عنه ؟!

الا تعلم جهان روز ، انها اذا أغضبت يزدجرد خسرت حياتها وخسر شهريار حياته وهل تطيق العيش في البلاط ، وهذا الفتى النبيل الذي ارسلته اليها السماء ، يعود الى العراق ؟ مسكينة .. لقد ضعضعهـــا ذلك السؤال الفجائي فهي لا تعلم ماذا تقول ..

وكان الملك يبتسم وعيناه تلمعان .. وقد عرف ان الفتاة تتردد في الجواب ، فقال : قولي يا جهان روز .

– ليس لي ما أقوله يا مولاي .

– ولكن الملك يأمرك بذلك .

لو قتلني الملك الآن عند قدميه لما فعلت ..

قال انهضي فقد اذنّا لك في الجلوس .

ففعلت ما أمرها به وهي ترتجف ، ثم قال : لقد جاء هذا الرجل يسألنا أن نأذن لك في الخروج من البلاط لتعيشي في ظله .!

– ذلك ما أوصاه به أبي يا مولاي .

– وصدقت انت ما يقوله ؟

– نعم يا مولاي .

– إذن فأنت تؤثرين العيش معه على العيش في البلاط .

فسكتت ..

فخيل الى الملك عندئذ انها آثرت عليه هذا الخراساني .

ولم يبق إلا ان يغضب ، ويهيج ، ثم يثور ، فقال : قم يا شهريار .

فوقف الفتى وقد تعبت ركبتاه ، فقال : تستطيع الآن ان تقول لروح القتيل الذي وصّاك ان يزدجرد الملك لم يعبأ بوصيته ، ولم يسلّم اليك ابنته ، وان ارواح القتلى جميعها لا تقدر على اخراجها من هذا القصر .

فحاول ان يستعطفه ، فأسكته قائلا : كلمة واحدة تقولها تبعث بك الى القبر .. احذر ان تخرج هذه الكلمة من فمك واسمع ما نأمرك به . واستوى جالساً وهو يصدر امره : انت تعلم بأي مكان يقيم رستم وجيشه ، فاخرج من المدائن في هذا اليوم،وسر الىهذا الجيش حتى تنتهي اليه بعد بضعة ايام. والويل لك ايها الخراساني اذا خطر لك ان تهزأ بأمر الملك . واومأ الى رئيس الخصيان وهو يقول : واجعل انت هذه الفتاة في القاعات التي هي في الجناح الشرقي فقد اصبحت من حظايا الملك .

ونهض قائلا : إذا مرّت عشرة أيام ولم تكن ايها الخراساني ، في جيش رستم فدمك حلال لكل فارسي .. اخرج.. واذهب انت ايها الخصي بفتاتك الحسناء.

ومشى ، والغرور في برديته ، وهو ينظر كالسكران ، الى جانبيه . ودفع الحجاب شهريار بالحراب حتى أخرجوه من القصر !! ونار الغرام تتأجج في صدره ، ونار الحقد في عينيه ..

* * *

- ٦ -

مرت ثلاثة أعوام، خسر فيها ملك الفرس عرشه ، وأكرهته سيوف المسلمين على ترك عاصمة ملكه ، الى جلولاء ، ومنهـا الى حلوان كا مر ، ومعه نساؤه وحظاياه ، بينهن جهان روز وهي حبلى ، وقد جعلتهـا الاحزان ، وخشونة الخصيان في البلاط جلداً على عظم . وكان يزدجرد قد ملّها ، ولم يكن يطيق وهو في جلولاء ان ينظر اليها كا ينظر الى نسائه.وليس في ذلك شيء من العجب فقلب جهان روز ، قلب فتاة خنقت الأقدار عاطفتها الاولى ، ودهمتها الحادثات وهي في فجر العمر ، وقلب يزدجرد ، قلب فتى عطشان الى العز واللهـو ، تضطرم في صدره نار الشهوة الطائشة ، وتهيج في داخله ثورة الجنون ..

احبها كا يحب كل عذراء حسناء في قصره وملأ حجرتها القريبة من قاعاتـه الخاصة جواهر وذهباً ، وأحاطها بالجواري والغلمان يسجدون لها كا يسجدون له !! على ان حبه كان حباً جانياً كا ترى ؛ هكذا يحب النمر فريسته ، وهكذا يعطف الوحش الضاري على الظبي الضعيف ، الذي تلقيه الاقدار بين مخـالبه الدامية . وجهان روز ، تبكي ابويها ، وتبكي حظها ، وتبكي عاطفتها التي خنقتها يد الظالم ، وتضطرب ، ويستولي عليها الذعر ، كلما نظرت الى الملك المحسن اليها ، وكلما فكرت في احسانه !! ولكن الضعيف المنكود الحظ ، لا يثبت امام القوي المستبدّ، الا كا يثبت الغصن النضير امام العاصفة الهوجاء ! لقد قام في ذهن يزدجرد ان جهان روز ستستسلم ، ولكنها لم تفعل بل كانت تحتجب عن عينيه ، وتستخفي ، ثم تتردّد ، ويتلجلج صوتها ، في خلق الاعذار ، حتى رأى اخيراً ان اللين «بضاعةٌ» لا تليق بالملوك، فعمد الى الشدة. ولم تلبث جهان روز حتى امست ، بفضل شدته ، من حظاياه ... وكان الملل قد تغلّل في قلبه ...

لقد رأى فتاةً متكبرة جاهله .. لا تعرف قدره .. ثم راى جمالهـا يذبل ، ونضارتها تزول . فابتسم ابتسامة الاستهزاء ، وحول وجهه عنها ، حتى خيلّ اليها والى اهل البلاط ، ان ليس لها وجود !!

وكانت الدنيا تدور ... وسعد بن ابي وقاص ، ينتقل فاتحاً من بلد الى آخر ، ويمشي بخطى جبارة الى قمة المجد ... حتى ارتفعت اصوات تكبير المسلمين عـلى شاطىء دجلة . عند المدائن ، وفرّ يزدجرد . ثم سقطت العاصمـة ، وسقطت جلولاء ، وتهيأ القعقاع بن عمرو للحاق بيزدجرد الى حلوان .

* * *

- ٧ -

كان بين جنود الفرس ، الذين نجوا من الموت ايام القادسية ، رجل في مقتبل عمره قطع السيف يده اليمنى ، وشوّهت الجراح جبينه وعنقه . وقـد رأى قواده ورفاقه في الجيش ، انه كان يقتحم الصفوف لتبتلعه لجة الموت ..

والموت لا يدنو منه ، بل عرفوا ان الموت ، كان احب اليه من الحياة ! اجل لقد عرف الجيش ان في صدر هذا الرجل هماً تخور عنده القوى ، ولكنهم رأوا صبره اعظم من همّه ورأوا جلده يحجب لوعة نفسه . كان صادقاً في قوله ، صادقا في حربه ، قضى الشهور والاعوام في ساحات القتال ، لا يتألم ولا يشكو .. ولا يطيب له الا ان يداعب السيف ... وكان يقول اذا سالوه : بي همٌ لا ينسيني اياه الا القبر ، وقـد نقل مع جرحى الفرس الى المدائن ، ثم شفاه الله ففرّ مع ابناء قومه الذين فرّوا الى جلولاء ، ثم الى جلوان ، وكان فيه من المقربين الى الملك الفار . على انه لم يمر شهران على وجود الملك في حلوان ، حتى بلغه نبأ سقوط جلولاء ، وفرار جيشه الى خانقين .

ثم اقبل رسله يقولون : استولى القعقاع بن عمرو على خانقين ، وهـو يهم بالزحف الى حلوان . فقال لرجاله : نسير الى الري فنجمع فيه الجنود ونسترجع العرش ، وأمرهم بأن يتهيأوا للرحيل . وبينا هم يفعلون، ورئيس الخصيان ينظر

في شؤون النساء ، ويعد عدتهن ، اقبلت احـدى الجواري تقول له : ان جهان روز فاجأها المخاض وستلد اليوم ، فتردد الرجل قليلاً ، ثم دخل على الملـك وخبره بما سمع، فقال يزدجرد: اتذكر لنا جهان روز ايها اللعين ونحن لا نطيق ان يذكرها احد ؟

قال : اني مكره على ذلك يا مولاي ، لانك سترحل الى الري في هذا اليوم، وأنا لا أعلم ماذا اصنع .

قال : نرحل وتبقى جهان روز في هذا المنزل !!

– ومن يبقى معها من الجواري ؟

– لا نأذن لاحدى الجواري في البقاء بل يرحلن جميعهن . !

– ولكن المرأة ستلد وهذا المولود هو ابن مولاي الملك .

– ان الملك لا يريد ان يعترف بالطفل الذي تلده جهان روز !! لقد عكرت علينا هذه المرأة صفو الملك ، وجار القدر على الملـك منذ جعلها بين حظاياه . فهي شؤم على التاج الفارسي وعلى يزدجرد .. اخرج وانظر فيما تصنعه لنرحل اليوم.

قال : سأفعل ما يأمرني به مولاي بعد ان اقول كل شيء .

– وهل بقي لك ما تقوله ؟

– نعم يا مولاي ، اني لم انس قط ان جهان روز كانت أحب الناس اليك كما اني لا استطيع ان انسى ، ان الجنين الذي يتململ في احشائهـا سيحمل اسم يزدجرد .

قال : اما الحب الذي ذكرت فقد انتهى امره ، واما ان يحمل الطفل اسم ابيه فذلك ما لا نعبأ به !!

قال : كلمة اخرى يا مولاي !

قال : لقد كثر كلامك واني اخشي ان تخسر عنقك .

– لك ان تضرب عنقي يا مولاي اذا رأيت اني غير مخلص لك .. قلت انك لا تبالي بالطفل الذي لا ذنب له ولكنك تبالي بما يقال عنك غداً عندما يستولي

قائد العرب على هذا القصر

– وماذا يقال غداً ؟

– ستقول العرب : لقد دبّ الذعر في قلب يزدجرد حتى انه ترك زوجته وطفلها بين اشداق الموت وفرّ الى الري .

– بل يقولون : ان المرأة جارية ملّها الملك فألقى بها مختاراً بين يدي عدوه.

قال : هب لها اذن شيئاً من المال يا مولاي .

قال : خير لي ان يقتلها الفقر من ان تعيش .

– هذا ما لا تفعله الملوك يا مولاي .

قال : انصرف واعطها ما شئت .

– وهل رأيت يا مولاي ان المال بين يدي اهبه لمن أشاء ؟ فضحك كما يضحك المجنون ثم قال : ادعُ قهرمان البلاط . فدعاه ، فقال له الملك : اعطِ رئيس الخصيان ما يشاء من المال . فخرج والخصي وراءه ، وكان الرجل ذو اليد الواحدة في الرواق ، وقد سمع كل شيء ، فقال له الخصي : امشِ فلي اليك حاجة ، فتبعه وهو ينظر الى قاعة يزدجرد وعيناه ترسلان شعاعاً من نار ، حتى انتهى الثلاثة الى الحجرة التي جعل فيها مال الملك ، فأخذ رئيس الخصيان منه ما يزيد على حاجة جهان روز ، وانصرف مع الرجل وهو يقول له : ان احدى حظايا الملك ستلد اليوم ونحن مكرهون على الرحيل وهي باقية .

قال : عرفت ذلك من الجواري وهي تدعى جهان روز .

– ولكن الملك سيأخذ جميع خدمه وجواريه لا يبقى احداً منهم في هذا القصر .

– وماذا تريد ان اصنع ؟

– أريد ان اشاورك في هذا الامر فأنت من اصحاب الرأي . فتظاهر الرجل بالتفكير ثم قال : لمن هذا المال ؟

لجهان روز .

– اذن نشتري ببعضه احدى نساء هذا البلد .

– وتجعلها جارية للمرأة ؟

– أجل ، وتكون في الوقت نفسه مرضعاً للطفل ..

قال : هذا هو الرأي، ولكن ماذا نصنع بهذا المال وجهان روز لا تستطيع ان تحتفظ به ؟

– نختار رجلاً نسلمه اليه الآن ، على ان يعطيها اياه بعد شهر .

– واين نجد هذا الرجل ؟

– انه في هذا الرواق ، وانت تراه بيد واحدة ، وقد شوّهت الجراح وجهه .

– انت ؟!

– نعم انا !

– وتبقى في حلوان شهراً ؟

– بل ابقى العمر كله اذا كان في ذلك خدمة لك ..

– والعرب ؟

– سأخضع لقائد العرب عندما تقع عليه العين ، وسيرى هو اني لست من الاعداء لأني لا اصلح لحمل السيف .

قال : لقد نسينا امر آخر لم نفكرّ فيه .

– ما هو ؟

هو ان الملك لا يأذن لك في البقاء .

فابتسم قائلاً : سأظهرَ للملك اني لاحق به ثم استخفي عن العيون ..

– واين تضع هذا الذهب ؟

– أضعه في مكان لا تمتد اليه يد انسان .

– وتقسم لي انك لا تنفق منه درهماً واحداً الا باذن جهان روز ..

– بل اقسم لك اني سأبذل حياتي في سبيل من ذكرت .. والان ارجو ان تجيبني عما أسألك .

قال : اسأل ..

قال : اي شيء يدعوك الى العناية بجهان روز وقد غضب عليها الملك ؟ .

قال : ان لأبيها فضلاً عليّ فهو الذي جعلني من خصيان البلاط ، يوم كان يزدجرد طفلاً يلعب عند اخواله ، وهو الذي سأل بوران الملكة ان ترفعني الى منصب الرياسة ، وقد ذكرت ذلك كله منذ بضعة أشهر ، وكنت قد نسيت !.

ثم قال : ولو لم اكن موجوداً في قصر يزدجرد لماتت الفتاة من القهر .

قال : وفي اي شيء استحقت هذه الشقية غضب مولانا ؟

– لا تذكر هذا فذكره يفطر القلب . كان الملك يحبها وهي تبغضه . وكان يعطف عليها عطفه على احب نسائه اليه وهي تنفر منه ، وعندما كان يبتسم لها ابتسامات الرضى كانت تقابل ابتساماته بالبكاء ..

– يخيل الي ان لها سراً لم يعرفه الملك .

– أجل ، اما انا فقد عرفته .

– وتذكره لي ؟

– نعم ، فقد كان بين رجال ابان زرد فتى من خراسان ، أحبه الرجل ، وأوصاه قبل موته بأن يكون زوجاً لجهان روز ، فلما جاء يسأل الملك اخراج الفتاة من بلاطه، طرده من ذلك البلاط، وأمر فجعلت جهان‌روز بين حظاياه .

– وماذا جرى بعد ذلك ؟

– قضت الفتاة ايامها تبكي ابويها اللذين طواهما الثرى ، وتلوم القدر الجائر الذي منعها من ان تزف الى ذلك الخراساني !

– وهل كانت تحبه ؟

– أحست بالحب يوم حمل اليها الفتى وصية ابيها ، وكانت تشعر بالعزاء عندما يقوم في ذهنها انها ستزف اليه .

– ومن خبرك هذه الاسرار ؟

– هي نفسها ... فقد امست وحيدة في البلاط ، مغضوبا عليها من الملك ، فباحت لي بكل شيء، وكانت تطلب الموت كل يوم لتحتجب عن عيني يزدجرد!

فحوّل وجهه ليخفي دموعه، ثم قال اعطني المال. فناوله ذلك الجراب الذي

نجعلت فيه دنانير كسرى .. وهو يقول : سأرى جهان روز الآن ، وانقل اليها كل شيء ، وأسألها ان تثق بك وبما تقوله كما تثق بي .

– أما انا فسأخرج الساعة واشتري المرآة التي ذكرت ..

قال : تعجل في أمرك قبل ان نرحل ..

قال : سترى المرأة بين يدي جهان روز قبل ان تغادر هذا القصر . ومشى في ذلك الرواق الطويل ، ثم احتجب في الدهاليز . فقال رئيس الخصيان في نفسه : ما رأيت أكرم خلقاً وأعظم نفساً من هذا الرجل المشوه الوجه .. واني لأرحل ، وانا مطمئن قرير العين ..

* * *

– ٨ –

اجتمعت فلول الجيش الفارسي في حلوان ، صفين متقاربين ، عند غروب الشمس .

ثم تقدم صف منها الملك واهل بيته ، وبعض المخلصين من رجاله وسار الصف الآخر وراءه ليحميه من اعدائه !! ان يزدجرد يفر كما يفر الجبان . انه في طريقه الى الري .. ولكن الصفوف التي تفر مثله من ساحات القتال ، لا تستطيع ان تحميه .. مشى ، وعيناه تنظران الى الوراء خوفاً من المسلمين .. وكان يوصي القائدين اللذين جعلهما خليفتيه في حلوان بأن يدافعا عن البلد كما تدافع الابطال ، ولم يخطر له ان يوصيهما بتلك الضحية المنكودة الحظ ، جهان روز ، غير ان رئيس الخصيان اوصاهما بها ولم ينسَ ان يقول لهما كلمة ، عن ذلك الرجل الذي جعل نفسه لها خادماً . ولكن وصيته لم تثمر ، فان الزيني ، احد القائدين ، قتل عند دخول الجيش العربي ، وخسر سنوم ، القائد الآخر ، لجأ الى الفرار قبل ان يريا وجه جهان روز .

احتجبت شمس ذلك اليوم ، وقد امسى يزدجرد خارج المدينة ، فودعها بنظرة كما ودع المدائن ، وكما ودع جلولاء ، وكان يعلل النفس بأمل الرجوع ،

رافع الرأس ظافراً بعدوه !! ولم يبق في القصر الذي كان مقيماً به، غير امرأتين اثنتين ، جهان روز والمرضع ، والرجل الذي عرفت . على انه لم يشأ ان يدخل الحجرة التي تلد فيها زوجها يزدجرد ، بل آثر الرواح والمجيء في الرواق ، حتى تحتاج اليه المراة الاخرى فتدعوه . وكان الهم بادياً على جبينه ، وقد انتقلت به الذكريات الى زمن مضى ولن يعود ، وقد ارخى الليل سدوله ، وبات القصر في ظلام رهيب. وبينا هو يعالج كآبته، سمع صراخ طفل .. فرفع عينيه الى السماء كأنه يشكر الالهة . ثم تمتم قائلاً : ويل لك ايها الزمان الذي تذلّ الاطفال ... ابناء الملوك .. وتجور على الابرياء .. وغاص في لجة من الذهول .. ثم صحا من ذهوله على صوت استغاثة ، هو صوت جهان روز . ثم ساد السكوت .

فدبّ الذعر في قلبه وحبس انفاسه ليسمع ما يقال .. وكانت المراة المرضع تقول : انها طفلة يا مولاتي وهي تشبه الآلهة ... فقالت جهان روز ، وصوتها يرتجف متقطعاً : ليتها لم تولد فسترث من امها الذل والشقاء .. اين الرجل الذي ذكروه لي .

– انه في الرواق .

– ليدخل فانا احسّ بالموت يقترب مني بصورته الرهيبة ..

قالت : لقد فرّ الموت الآن، وسيفر بعد قليل، هذا الألم الذي تشعرين به ..

– ولكن الم النفس لا يزول، وخير لي ان اموت .. ليدخل الرجل في هذه اللحظة فأنا اريد ان اراه ، ففتح الباب بهدوء ، وظهر الرجل على عتبته . فأومأت اليه بان يدنو ، ففعل ، وهو يكاد يسقط على الارض . فجلست تتفرس في عنقه وجبينه المشوهين . . ثم قالت : اانت الرجل الذي عهد اليه في العناية بي ؟ فأرخى نظره الى الارض قائلاً : نعم يا مولاتي الملكة !! فقالت وهي تبتسم هازئة: لو كنت ملكة كما تقول لكان لي فراش اضع عليه هذه الطفلة التي ابصرت الوجود الآن ..

قال : في القصر كل شيء وقد ترك لك الملك ما تحتاجين اليه .

فتنهدت قائلة : لا تقل ملك !! ان هذا الرجل الذي يدعونه يزدجرد ليس

ملكاً وليس له اخلاق الملوك .. انه رجل يمشي الى غايته فوق دماء الابرياء ، وينشر لؤمه ونذالته مستهيناً بجلال التاج وعظمة الملك .

– ولكنك زوجته ..

– بل انا حظيته .. بل انا ضحيته .. بل انا احقر جارية من جواري بلاطه اللواتي يتملقنه كل يوم . والتفت عندئذ الى المراة قائلاً : احملي الطفلة وارضعيها في غير هذا المكان .. فخرجت المراة وهي ساكتة ، فقالت : يظهر لي انك شديد الاخلاص لمولاك .. فكن كيف شئت .. وليبق لك اخلاصك .. ولكني لا ارجع عما اقوله حتى يفاجئني الموت .. قلت ان الملك نذل .. وسأعترف لك بكل شيء لتضمحل من ذهنك صورة الملك النبيل ، وتقوم مقامها صورة الرجل المستهتر العباث بالاعراض !!

قال : لم اكن قط مخلصاً للملك كما تقولين !

– تقول هذا وانت من رجاله ؟

– بل اقوله وانا من جلاديه ؟

قالت لا تخدعني ايها الفتى .

– ان الرجل الذي شوهته الحرب، وصبر على مصيبته صبر الرجال لا يخدع احداً .

– وكيف كنت بين المقربين اليه ، من مرازبة البلاط ؟

– اردت ان يكون لي شأن في بلاطه ، لأعرف ما اريد ان اعرفه ، وقد تمّ لي ما اردت !

– اذن كان اخلاصك من الشفتين .

– نعم ، فهذا الملك الذي تلعنينه ، والذي عبث بك وانت حظيته ، عبث بي وانا جندي من جنوده ، ادافع عن عرشه !

فارسلت اليه نظرة جديدة ، مضطربة ، ثم اشارت الى يده المقطوعة قائلة : وهذا اثر من آثار الدفاع .

– بل هو اثر من آثار الرغبة في الموت ... لقد اقتحمت الصفوف والقيت

بنفسي تحت ظل السيوف ، فلم يشأ القضاء ان يمد اليّ يده ، وكرهت ان اقتل نفسي لاني لست من الجبناء . فارتسم الالم على جبينها الاصفر وجعلت تقـول : انك اذن شقي مثلي ، فاذا اردت ان تعزي نفسي المتألمة ، فقصّ عـليَّ اخبار شقائك .

قال : ليس في هذه الاخبار يا مولاتي الملكة ما يعزّي النفوس . يكفي ان تعلمي ان في الصدور قلوباً تحمل من الهم ما تحملين .

قالت : استحلفك بهذه الطفلة البريئة ان تذكر لي كل شيء .

– خير لي يا مولاتي ان ادفن سري في هذا الصدر حتى ينتهي العمر .

– بل تبوح به لشقية على فراش الموت . فرفع راسه وتلاقت العيون، فجعل قلبها يخفق بشدة ، والرجل يقول : علة شقائي يزدجرد الملك .

فصاحت قائلة : ويلاه .. ان العلة واحدة . وماذا فعل يزدجرد ؟

– استخف بي ثم سلبني الفتاة التي احببت ..

فوضعت يدها على صدرها المضطرب وقالت وأين رأى هذه الفتاة ؟ فتردد ، ثم جالت الدموع في عينيه ، ثم خفض صوته قائلاً : لقد نسيت .. لا .. اني لا اريد أن أذكر شيئاً .

قالت : لا تنسَ اني سأموت في هذا الليل .

– بل تعيشين .. وتخرجين الى النور ..

– ولكن .. لا تتردد فقد أقبل الموت .. قل أين رأى يزدجرد هذه الفتاة ؟

– رآها .. في .. بلاطه !

– وماذا كانت تصنع فيه ؟

– كانت وصيفة .. من وصائف .. بوران الملكة .

– واسمها ؟

– واسمها ... اني لا اطيق ان اذكر هذا الاسم .

– بل .. تذكره قبل أن اختنق ..

قال : جهان .. روز .

– وانت .. ألست .. شهريار ؟

- بلى .. اني شهريار .

فارتجفت شفتاهـــا ، وقد وقف ذلك الاسم العذب ، عند تينك الشفتين الصفراوين ، ثم أحست بيدين حديديتين تحبسان انفاسها ، ثم انتقلت باغماء حاد الى عالم آخر ، فذعر الرجل وجعل يستغيث ؛ فاقبلت المرأة ، وأخذت تعالج ذلك الاغماء ... والطفلة تبكي ... وشهريار يقول : يا خيبة الأمل انهـا قد مـاتت ..

فقالت المرضع : بل هي حية ، وهذا صدرها يعلو وينخفض، ولم تكف عن المعالجة حتى استفاقت جهان روز ، ونظرت الى ما جولها نظرات هي الذهول بجميع صوره . ولم تلبث حتى قالت : لتخرج المرأة مع الطفلة ، فكأنها كانت تريد ان تبوح لحبيبها بما يجول في ذلك الصدر الضعيف ؛

فأومأ الفتى الى المرأة بالانصراف ثم قال : جهان روز .. لقد جمعتنا الأقدار على رغم يزدجرد ...

فغمرت جبينها مظاهر اليأس وتمتمت قائلة : ليتها لم تفعل ! فصاح قائلاً : ويلي ، ماذا أسمع ! فهمت بالجلوس ، فلم تستطع ، وخانتها قواها التي حطمتها الأحزان،فمدت يدها اليسرى، يدها المرتجفة الصفراء التي تشبه ايدي الأموات، ولامست يده المقطوعة وهي تقول : اريد أن أعيش يا شهريار .. ولكن الموت لا يريد ذلك وسينتزع مني هـــذه الحياة قبل أن يبزغ الفجر .. نعم ليت هذه الأقدار لم تجد باللقاء ، وليتني مت وانا في المدائن قبل ان اراك وقبل ان تخرج هذه الطفلة الى عالم يعيش فيه يزدجرد !

فانحنى يقبل تلك اليد الممدودة اليه والدموع تتلألأ في عينيه وكان يقول :

لا تذكري الموت يا جهان روز ، بل اذكري ان الشمل قد اجتمع ، واننا سنقضي ما بقي من العمر ، على شاطىء الفرات، عند الحيرة ، حيث لا نرى ظلاً للملك المستبد ..

قالت . ذلك أملٌ يطيب لنا ان نعلل النفس به ، ولكنه أمل ضائع فالموت سينشب مخالبه ، ويفصلني عمن احببت. وتجلدت، ثم اسودّ جبينها كأنها تصارع

عاطفة الضعف التي جاشت في الصدر ثم قالت وهي تتكلف الهدوء. والآن قص عليّ أخبار هؤلاء العرب الذين يطاردون يزدجرد .

قال : أنتحدث بالحرب في مثل هذه الساعة ايتها الحبيبة ؟

– أجل فحديث الحرب يلذ لي ، واني لأشعر بالراحة وانا في القبر ، عندما تنزع العرب التاج عن رأس الظالم وتجعل عرشه موطئاً للنعال! قل لي يا شهريار. أيستطيع يزدجرد ان يقهر العرب ويستعيد ملكه ؟

قال : لم يبق لأهل فارس امل بالعروش ، ولو بعث سابور وكسرى من قبريها لما استطاعا ان يعيدا العرش الذي حطمه السيف العربي .

– ويزدجرد ؟ أيقتل ام يحمل ماله ونساءه كل شهر من بلد الى آخر هارباً من عدوه ، مستميناً برجال الحرب من قومه ؟

قال : اما اليوم فهو يجد في بلاد فارس موضعاً يلجأ اليه ، ويضع فيه ذهبه واما في الغد ، فالويل من يوم ، تقفل العرب فيه جميع الأبواب وتملأ جنودها جميع الاقطار ..

– آه من لي بمن يحفظ حياتي لأرى يوم يزدجر ! ان ذلك اليوم سيجيء وانا في القبر .

– بل ترين ذلك بعينيك الاثنتين ، وستقولين ليزدجرد وهو في يد عدوه : اذكر ماضيك يا ملك الفرس . وانزل الى قبرك معفراً بالذل ..

قالت : لا تحدثني بالاحلام يا شهريار ... قلت لك اني سأموت ، فاسمع ما أقوله لك ولا تستسلم الى لوعتك .

وكان الفتى قد رأى على وجهها في تلك الساعة صور الموت ، فوضع رأسه بين يديه وجعل يبكي ويرسل الزفرات .

قالت : ان الزمان يا شهريار ، لا يجود علينا بساعة اخرى .. اصغِ الآن الى ما اوصيك به واحلف انك لن تنسى منه كلمة. فارتفع صوته في البكاء ، ثم رفع رأسه وجعل ينظر اليها وعاطفة الحب والوفاء تلمع في عينيه ..

– احلف يا شهريار فقد خـــارت القوى وانا أحس ان الساعة قد دنت .
فحلف انه سيكون وفياً لهـــا وهي في قبرها ، كما كان وفياً وهي في الحياة ؛ فانفرجت شفتاها عن ابتسامة هي ابتسامة اليأس يتلألأ فيها نور الامل ، ثم قالت : لقد جعلك ابي عند موته ، أباً لابنته ، وانا اجعلك الآن في هذه الساعة الرهيبة ، والداً لهذه الطفلة ، فهل ترضى ؟

– اني راضٍ بكل ما تقولين .

قالت : خبرني رئيس الخصيان ان يزدجرد جاد عليّ ببعض المال قبل فراره .

– نعم .

– واين هو ماله ؟

– في هذا القصر .

– وهل رأيت انه يكفي الطفلة ؟

– يكفي الطفلة وامها العمر كله .

– ومتى تنتهي العرب الى حلوان ؟

– يقول أهل البلد ان جيش القعقاع بن عمرو ؛ سيكون هنا بعد يومين .

– وفي اي امر فكّرت .

– فكّرت في امر واحد هو اني سأخضع للقعقاع واسأله ان يجعلني ويجعل جهان روز في حمايته .

– احسنت ، فالعرب خير من قومك . ثم ماذا ؟

– ثم اصبر حتى تمنّ الآلهة بشفاء جهان روز ، فانصرف معها الى البلد الذي يقيم به يزدجرد ، فأوغر عليه فيه الصدور وادل القوم على كل موضع يلجأ اليه .

– ولكن جهان روز لا تنصرف معك ، كما ترى ، بل تبقى في حلوان ..

قال : اذا تمادى القدر في جوره ، عمدت الى شيء آخر .

– ما هو ؟

– هو ان ادفع المال الى هذه المرضع .. وأعهد اليها في حماية الطفلة ، ثم اقتل نفسي وابقى حيث تبقين .. !

فهزت رأسها قائلة : ولكنك أقسمت انك ستكون وفياً لي وانا في القبر .

– نعم .

– واين هو هـــذا الوفاء الذي ذكرت ؟ تموت جهان روز ، فتقذف انت بابنتها الى هوة لا قرار لهـا ثم تقتل نفسك ؟ انه وفاء غريب لا تنطبق الصدور على أغرب منه . !

– وهل تموتين واحيا ؟

– نعم ، فحياتك التي تملكها اليوم لا تملكها غداً .؟ انها لابنتي التي أوصيك بها الآن . ! انها لجهان روز الشقية التي عاهدتها على الوفاء وهي تلفظ الروح ... انها لهذا الحب المقدس الذي خنقه يزدجرد !

وارتجفت شفتاها وهي تبكي ، دون ان تظهر في عينيها الدموع ، اجل ، ان دمعها قد جف، كما جفـّت تلك النضارة في ذلك الوجه الفتان ، فحنى الفتى رأسه للقدر الجائر قائلاً : كفى فسأعيش .

– وتعدني بذلك ؟

– نعم فحياتي منذ الآن ، هي لابنتي ..

وقد أراد ان يقول ، ابنتي .. لتنام جهان روز في قبرهـــا قريرة العين ، فقالت : اما وقد ابتدات ان تكون اباً فليدنُ الموت فانا لا اخافه .. ان هذه الكلمة التي قلتها كانت بلسما لجراح هذا القلب ..

وسكتت قليلاً ثم قالت : اسمع يا شهريار ، لقد كنت اريد ان تحمل جثتي الى المدائن وتوضع في القبر الذي وضعت فيه جثة امي ، ولكن المدائن خرجت من ايدي الفرس الآن ، وجيوش العرب تمتد منهـا الى حلوان فليس من الراي ان تفعل !

فأراد ان يجاريها فيما تفكر فيه، وهو لا يصدق ان القضاء يجسر على انتزاعها من يده .

فقال : وماذا اصنع ؟

– تجمل هذه الجثة في قبر يجاور قبور اهل حلوان ، وتكتب على حجره

هذه الكلمات : هنا ترقد ابنة القائد ابان زرد ، دون ان تذكر اسمي ودون ان تقول اني كنت من نساء يزدجرد ..

– بل اكتب : هنا ترقد جهان روز ، ضحية الظالم ..

– احذر ان تفعل ذلك ايها الحبيب .. فانا لا اريد ان يعلم اهل فارس اني كنت ضحيته ، ولا اريد ان تعلم ابنتي انها ابنته ...

قال : سيقوم في ذهن الطفلة ، عندما تكبر ، انها ابنة شهريار الخرساني ..

– نعم ، وهذا ما اطلبه اليك حتى ، تبلغ الطفلة السنة الخامسة عشرة .

– وعندئذٍ ؟

– عندئذ تقول لها انها ابنة الملك الفارسي الذي خسر ملكه ، وان امها نزلت الى قبرها وهي تلعن هذا الملك ..

– واذا استرجع يزدجرد ملكه ؟

– هذا لا يخطر لي فانا ارى الخراب والدمار ينشران ظلهما فوق فارس ، كما قلت انت ، ومع ذلك ، فاذا استوى النذل في عرشه من جديد ، فأرسل انت من يقول له : ان جهان روز ولدت طفلة ، منذ خمسة عشر عاماً ، وان هذه الطفلة التي تقيم بين العرب لا تريد ان تراك ، وهي تلعنك وتلعن التاج الذي تلبسه ، والعرش الذي تجلس عليه .

– اذن فأنت تريدين ان تمسي الفتاة عربية .

– اجل اريد ان تنشأ بين العرب لا بين اهل فارس، وان تبغض جميع امراء الفرس ، الذين يعيشون في بلاط ملكهم ، هازئين بالضعفاء مستخفين بالاشقياء.. وان لا تثق حياتها كلها بفارسي من هؤلاء .

– وان تتزوج فتى من العرب .

– نعم ، وهذا الفتى تختاره انت او ترضى به .

قال : وان احبّت فتىً من قومها ؟

تذكر لها عندئذ وصيتي هذه ، وتلعنها باسم امها اذا أمعنت في هذا الحب ، ثم تظهر لها نفسك وتتخلى عنها الى الابد !

ثم قالت : والان لنتحدث بأمر يزدجرد ، اني لا اوصيك بقتله لانـك لست سفاكا للدما، ، ولكني اوصي بأن تكون عينا عليه ،في احتجابـه وظهوره ، ورواحه ومجيئه وان تمنعه بالحيلة والدهاء من استرجاع التاج ، ليقضي حياته كلها معذباً ذليلاً خائفا ، كما قضت حياتها في قصره تلـك الفتاة التي كانت بجمالها وعظمة نفسها فتنة المدائن ، والتي كانت تدعى جهان روز .

قال : أما انا فسأقتل هذا الجاني اذا قدرت مستخفا به وبأمرائه، والمخلصين له ولا اذكر عندما يطرحه القدربين يدي إلا انه قاتلي وقاتل احب الناس اليّ .

قالت : انك اذا فعلت تخطفتك السيوف .

– وهذا ما ارغب فيه .

– والطفلة ؟

– اني لا اعرض ليزدجرد ، الا بعد ان تصبح طفلة فتاةً وتجاوز الخـامسة عشرة من العمر .

قالت : افعل ما تشاء ولكن اوصيك خيراً برئيس الخصيان، فقد ذكرفضل أبي وكان مخلصا لي حين لم اجد حولي احداً من المخلصين .

قال : اني لا انسى هذا الرجل ما بقيت .

– وبقي امر آخر اخشى ان ألفظ الروح قبل ان اذكره .

قال : اذكريه .

قالت : أرجو ان تستبدل هذه المرضع الفارسية بمرضع مـن نساء العرب عندما تدخل العرب حلوان . وبينا هي تقول هـذا ، اضطربت فجأة اضطرابا شديداً وخفق قلبها مجنوناً ثائراً وجعلت عيناها تختلجان وقد انطفأ نورهما .

ثم صاحت قائلة : هذا هو الموت اقبل يسألني ان اتخلى عن الروح .. الطفلة يا شهريار .. ضعها على هذا الصدر الذي سيسكت خفقانـه .. واجعل شفتيها تلامس شفتيّ لأحمل معي ذكرى هذه القبلة الى القبر .

الملوث بالعار والذي تباح فيه اعراض النساء . شهريار .. اني اريد ان اراها

قبل ان يختطفني الموت، فدخلت المرأة وقد سمعت صراخها، وجثت عند فراشها وهي تقول : هـــذه هي الطفله يا مولاتي انها تبتسم للنور .. فتناولتها بيديها المرتجفتين وضمتها الى صدرهـا تطبع على جبينهاوخديها قبلات الام ، ثم تمتمت قائلة : العرب .. ابنتي . . يزدجرد .. لا تنس يا شهريار .

وسقطت الطفلة من يديها على الفراش وهي تبكي ، فكأنها شعرت في تلك اللحظة بان امها امست جثة خرساء .

وكان شهريار ذاهلاً .. فلما رأى الطفلة تسقط على صــدر امها انحنى يتفرس في تينك العينين الجامدتين ، وذلك الوجه الحامل صورة الموت ، وهو لا يصدق ما يراه .. ثم عرف انه خسر حبيبته الى الابد ، فأقبل يرثيها كأنها قطعة مــن روحه .. ويبكي ذلك الشباب الغض الذي صرعه القدر الجائر . بل يبكي غرامه الذي كان شقاء . بل يبكي ذلك اللقاء الذي كانت عاقبته الموت ، ثم جعل يقول رحمة يا جهان روز ، واصبري حتى تري قاتلك في ايــــدي قاتليه ، بل اصبري حتى تفتح الطفلة عينيها لفجر الحياة . واخـــذ الطفلة بين ذراعيه يذرف على صدرها دموعــه ، وقضى الليل كله وهو يخاطب الجثة بلغة المحبين . حتى طلع الصبح وقد قرّح البكاء جفنيه . وكانت المرضع قد شاركته في البكاء . ولكنها رأت انه يكاد ينسى نفسه ، فقالت له : الا ترى يا مولاي ان تعد للجثة قبراً ؟

قال : ماذا ؟! أتدفن جثة جهان روز اليوم ؟! اني سأبكيها حتى يدب فيها البلى وحتى يفتح لي الموت ذراعيه . !

ثم ذكر وصيتها فقال : لا . بل ادفنها . في هذه الساعة فقد كتب لي ان ادفن الات منذ ثلاثة اعوام ، ثم ادفن اليوم ابنتها التي احببتها اكثر من الوجود قومي ايتها الحبيبه ، ورافقيني الى القبر ، لأدفن فيها عاطفتي واملي وبهجة الحياة. وكان بكاؤه يشبه بكاء المرأة تخسر وحيدها ، وذراعاه تضمان الطفلة التي جار عليها الزمان . وكان يخاطبها قــائلاً : ابكي امك ايتها الطفلة والعني اباكِ الذي يسمونه ملك الملوك .

ودفنت جهان روز في السنة السادسة عشرة للهجرة، ولم يكن لابنتهـا أسم تعرف به ، كما رأيت .

* * *

- ٩ -

كان عثمان بن عفان ، شديداً على ولاته ، قاسياً على عماله ، يعزل هـذا والناس يرون انه لا يستحق العزل ، ويولي الاخر والناس يرون ان الولاية هبطت عليه من السماء .

وقد لا يسمي الناس ، هذا التعجيل في العزل والتعيين ، قساوةً وشدة .

عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولىً سعد بن ابي وقـاص ، كما قرأت في هذا الجزء . وكان عبدالله بن مسعود ، صاحب بيت المال في الكوفة . فلما قدم سعد استقرض من عبدالله مالا ، ومرت على ذلك سنة وبعض اخرى ، وهو لا يستطيع ان يدفعه ، وعبدالله يتقاضاه ويلح في طلبه وسعد عاجز . حتى كان يوم جلس فيه سعد للناس ، وعنده ابن اخيه هاشم بن عتبة ،

فدخل ابن مسعود وقال له : اذ المال فهو مال المسلمين .

قال : سأفعل عندما يتيسر لي .

- بل تدفعه اليوم .

قال : ما اراك الا ستلقى شراً . هل انت إلا ابن مسعود ، عبد من هذيل .

قال : أجل والله اني لابن مسعود وانك لابن حمينة .

فقال هاشم : انكما لصاحبا رسول الله ينظر اليكما .

وكان في سعد حدّة ، فطرح عوداً كان في يده ورفع يديه قائلاً : اللهمَّ رب السموات والارض .

فقال عبدالله : ويلك ، قل خيراً ولا تلعن .

قال : اما والله لو لا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك .

فخرج عبدالله سريعاً ولم يلبث حتى كتب الى عثمان فغضب عثمان على الاثنين وكتب الى سعد : لقد انتزعنا الولاية منك فتنحّ عنها .

وكان الناس يظنون انه سيعزل عبدالله ، ولكنه لم يفعل ، بل أقره على عمله وكتب الى الوليد بن عقبة : ارحل الى الكوفة فقد وليناك امرها بعد سعد .

وكان الوليد عاملاً لعمر بن الخطاب ، على ربيعة بالجزيرة ، فقدم الكوفة ، ولم يتخذ في ايام ولايته ، باباً لداره .

وجعل ينظر في امور الناس ، وهو احب الولاة الى الرعية حتى بلغه ان أهل أرمينية ترددوا في دفع الجزية التي كانوا يدفعونها منذ السنة الثانية والعشرين . وكان بالكوفة ، في ذلك الحين اربعون الفاً من رجال الحرب يغزو منهم الري واذربيجان ، كل سنة عشرة الاف . فاستأذن الوليد الخليفة في الغزو ، ثم جعل سلمان بن ربيعة الباهلي على مقدمته ، وخرج هو في جماعة الناس يريد ان يمعن في ارمينية حتى دخل اذربيجان . فأمر سلمان بن ربيعة بان يغزو ما يطيب له من الارض ، وبعث بعبدالله بن شبيل في اربعة الاف الى ناحية اخرى يقتل الرجال ، ويسبي النساء والاطفال حتى ترتفع اصوات الاستغاثة من كل قطر ، ويقبل القوم على دفع ما عليهم من المال .

فاغار الرجلان وكان الظفر حليفاً لهما ، ثم طلب اهل اذربيجان ان يصالحوا الوليد على ثمانمائة الف درهم ، وهو ذلك الصلح الذي تمّ يوم غزا القوم حذيفة بن اليمان في خلافة عمر ، بعد حرب نهاوند ، فصالحهم ، ثم انصرف وقد ظفر وأصاب حاجته ، وملأ يديه مالاً حتى دخل ارض الموصل ، ونزل مكاناً يقال له الحديثة . وبينا هو فيها ، أتاه كتاب من أمير المؤمنين يقول فيه :

اما بعد فان معاوية ابن ابي سفيان كتب اليّ يخبرني ان الروم ستغزو المسلمين بجيش عظيم ، وقد رأيت أن يمدهم اخوانهم من اهل الكوفة ، فاذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته واسلامه ، في ثمانية او تسعة او عشرة آلاف ، من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام .

فقام الوليد فقال : ايها الناس لقد ابليتم في هذا الوجه بلاء حسناً وردّ الله عليكم البلاد التي كفرت وفتحتم بلاداً لم تكن قد فتحت ، وقد كتب اليّ امير

المؤمنين يأمرني بأن اندب منكم من الثمانية الى العشرة الاف ، يمدون اخوانهم من اهل الشام ، فقد جاشت عليهم الروم وفي ذلك الأجر العظيم .

فقالوا : سمعنا فأطعنا ، فانتدب من تشاء .

قال : انتدبت سلمان بن ربيعة .

فلم تمر ثلاثة ايام حتى خرج ثمانية الآف رجل مع سلمان ومضوا حتى دخلوا أرض الروم ، مع اهل الشام . وكان على جيش الشام، حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري . واغار الجيشان ، فأظفرهما الله وافتتحا حصوناً كثيرة كان اهلها قد امتنعوا حتى بلغهما ان قائد جيش الروم سيفاجئهما برجاله ، في الموضع الذي كانا فيه .

وكان حبيب بن مسلمة صاحب كيد ودهاء ، فقال لسلمان : مرْ المسلمين بان يمكثوا بمواضعهم حتى يجيء قائد الروم ؛ ففعل القائد الكوفي ذلك ، واقام الجيش لا ينقل احد منه قدماً حتى اقبلت صفوف الروم وخفقت أعلامهم في الفضاء . فقال سلمان عندئذ : والآن ؟

قال حبيب : اما الآن فسنبيتهم وستراني في آخر الليل في سرادق قائدهم !؟

وسمعته امرأته ام عبدالله بنت يزيد الكلبية ، فقالت له : أين موعدك ؟

قال : سرادق القائد الرومي او الجنة . وعندما جنّ الليل ، وآوت الروم الى خيامها لم يبق منهم خارج الخيام غير الحرّاس ، انقض المسلمون على تلك الخيام يقتلون من فيها ويمنعون اصحابها من الفرار ، ومشى حبيب بن مسلمة الى سرادق القائد والسيف في يده يصرع به الرجال القائمين على حراسته، حتى انتهى اليه ؛ فما راعه غير امرأة تدخله قبله واذا هي زوجته ام عبدالله !!. اجل ، لقد كانت تلك المرأة اسبق الرجال الى سرادق الرومي، وكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق .

وسارت الرسل الى المدينة تحمل البشرى الى عثمان ، وكان ذلك في السنة الخامسة والعشرين . على ان عثمان لم يتناول هذه البشرى ، حتى فاجأه ، من الناحية الثانية ، خبر ذعر له ، هو ان الروم في الاسكندرية نقضوا صلحهم ،

وعوّلوا على قتال المسلمين ؛ فكتب الى عمرو بن العاص ، في مصر ، يأمره بأن يؤدبهم .. وكان المقوقس صاحب مصر ، ثابتاً على صلحه ، ولم يشأ ان يشارك أهل الاسكندرية فيما هموّا به . وقـد عرف عمرو بن العاص ، ان الروم في القسطنطينية ، بعثوا بجيش كثير ، يكون عوناً لاخوانهم في ذلك القطر . فقاد جنوده الى الحرب ، والتقى الجيشان ، عند الاسكندرية ، فاقتتلا قتالاً شديداً طاب الموت فيه لكل عربي ، فانهزم الروم ، وتبعهم المسلمون حتى ادخلوهم البلد ودخلوا وراءهم يقتلون ويسبون ، حتى انتهوا الى قائدهم الأكبر فقتلوه . ورأى ابن العاص ان يهدم السور العظيم الذي يحيط بالبلد ، فأمر بهـدمه ، وتركت الاسكندرية بدون سور . وخلا الجوّ بعد ذلك للاسلام ، في بلاد فرعون ، ثم خطر لعبدالله بن سعد بن ابي سرح وهـو من جند مصر ، ان يغزو افريقيا ؛ فاستأذن عثمان ، فاذن له ، ثم أمر عبدالله بن كافح بن عبد القيس ، وعبدالله بن نافع بن الحصين ، بان يلحقا به بالرجال ، ويجتمعا بجيشه في موضع سمّاه لهما .

وخرج الجميع حتى قطعوا أرض مصر ووطأوا ارض افريقية ، وكانوا في جيش يبلغ العشرة آلاف من ابطال المسلمين . فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ورجعوا ، وهم لا يريدون ان يتوغلوا خوفاً من ان تغلبهم في الداخل كثرة الرجال . وكان عثمان قد عزل ابن العاص عن خراج مصر ، وولى أمره عبدالله بن ابي سرح .

وبقي عمرو بن العاص ، عاملاً لعثمان على الجند ، ولكنه كره ان يكون خراج مصر في يد سواه .. ثم حدث بين العاملين ، ما يحدث بين رجلين يتنازعان النفوذ .

فكتب عبدالله بن سعد الى عثمان يقول : ان عمراً كسر الخراج ..

وكتب اليه عمرو يقول : ان عبدالله كسر عليّ حيلة الحرب !.

فكتب عثمان الى عمرو : تنحّ عن الولاية وانصرف ، فقـد وليتّ عبدالله الخراج والجند ..

فغضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان . وكان ابن ابي سرح ، يريد ان

يحدث حدثاً يكون له أثره في الدولة . وكانت افريقيا القريبةمن مصر، موضوع تفكيره ؛ فاستأذن عثمان في الغزو مرة ثانية، والاستكثار من الجيش . فاستشار عثمان من عنده من رجال الصحابة ، فكانوا جميعهم من هذا الرأي . فاختار عندئذٍ اشجع من في المدينة من الرجال ، بينهم جماعة من اعيان الصحابة فيهم عبدالله بن عباس وسواه وامرهم بالمسير الى مصر ومنها الى طرابلس الغرب . فلما انتهوا الى برقة لقيهم من فيها من المسلمين ثم ساروا جميعاً الى طرابلس فنهبوا ما حولها ثم امعنوا في السير الى الداخل .

وكان عامل القيصر على ذلك القطر ، اميراً اسمه جرجير تمتد امارته من طرابلس الى طنجه . وكان يحمل الخراج كل سنة الى مولاه . فلما بلغه خبر المسلمين ، أعدّ عدة الحرب ، وجمع جيشه واهل البلاد حتى أمسى عددهم مئة وعشرين الفاً جميعهم من رجال البأس . وعاصمة الامير مدينة يقال لها سبيطلة فيها داره وبيت ماله ومؤونته وسلاحه ، واركان حربه ، ومعظم ابناء قومه . فقال عبدالله لقومه: الى عاصمة جرجير ايها المسلمون. فردد القوم كلمته، ومشوا مؤمنين بقوتهم ، كما تعودوا أن يفعلوا في الميادين .

على ان امير الروم لم يشأ ان يجعل عاصمته مجالاً للخيل ، بل خرج منها الى مكان بينها وبينه، يوم وليلة، واقام به ينتظر وصول عدوه . واقبل ذلك العدو وعلى رأسه ابن ابي سرح ، ولكنه لم يبرز الى الساحة ولم يشهر سيفاً ، بل عمد الى قلمه يكتب رسالة الى جرجير ..

ذلك دستور لا يغيره قواد المسلمين ، ينزلون ارض العدو ، فيكتبون اليه يدعونه الى الاسلام او الجزية ، قبل ان تسيل الدماء .

فلما انتهى كتاب عبدالله الى جرجير ، هزأ به وبكاتبه واستصغر أمر هؤلاء العربان الاجلاف رعاة النوق ..

ومولاه القيصر نفسه، استصغر امرهم من قبل .. ثم أبى ان يكتب جواباً، بل اكتفى بان يقول للرسول : قل لهذا العربي الذي ارسلك ان الجواب هو الحرب ! واشتعلت نار الحرب غير انها كانت حرباً لم يخطُ المسلمون فيها خطوة

الى الأمام ، ولم يرجعوا الى الوراء . كانوا جيشاً قليلاً ، أمـــام طوائف من الجيوش ... وهم في بـــلاد يجهلون ارضها ولا يرون امامهم فيها ، غير السهول الجرداء ... وقد انقطع خبرهم عن أمير المؤمنين .. فدبّ الذعر في قلبه ، ودعا عبدالله بن الزبير قائلاً له : ترحل الساعة مع طائفة من القوم فتكون عونـــاً لاخوانك ثم تأتيني باخبارهم . فانطلق عبدالله حتى أتى تلك الناحية البعيدة عن الحجاز .. فلما وصل كثرالصياح والتكبير في المسلمين، وارتفعت اصوات الهتاف للخليفة .

فقال امير الروم لقومه : اي شيء هذا ؟

قالوا : اقبل من الحجاز جيش جديد ..

ثم رأى الزبير قتال الجيشين .. تتلاحم السيوف كل يوم من الصباح الى الظهر فاذا أذّن المسلمون الظهر عادوا وعاد الروم الى خيامهم . فلم يعجبه ذلك الصنف من القتال . فلما كان الغد، شهد نزول الجيشين الى الساحة، ولكنه لم يرَ ابن ابي سرح مع رجاله . فسأل عنه فقيل له انه في خيمته !!

قال : وماذا يصنع ؟

– لقد سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن ابي سرح فله مئة ألف دينار وازوجه ابنتي .. فهو يخاف على جيش المسلمين اذا قتل !.

فترك الساحة واقبل على خيمته يقول له : تأمر الآن منادياً ينادي : من أتاني برأس جرجير الرومي أعطيته مئة ألف وزوجته ابنته وجعلته عاملاً عـلى بلاده .. فأمر مناديه ففعل ذلك .. فكان خوف جرجير اشدمن خوف عبدالله. ثم قال ابن الزبير عند المساء : ان امر الحرب على الصورة التي رأيت، يطول مع هؤلاء ، فهم في كثرة ، والبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين .

– ما الرأي ؟

– الرأي ان نترك غداً جماعة من ابطالنا في الخيام ، وهم في لباس الحرب ، ومتهيئون لخوض المجـــال ، ثم نخرج نحن في بقية الجيش فنقاتل الروم حتى يضجروا .

– وبعد ذلك ؟

– يرجع المسلمون والروم بعد ذلك الى خيامهم ، فيركب من في الخيام من المسلمين وعليّ بالباقي .

قال : نستشير اعيان الصحابة .

قال : شاور من تشاء .

فوافقوه في الرأي ، وصبروا الى الصباح . وفعل عبدالله عند الصباح ما ذكره امس ، ترك ابطال المسلمين في الخيام ، وخيولهم مسرجة ، وايديهم على السيوف ، وهم ينتظرون الأمر . ومضى الآخرون يسعّرون النار ، ويبذلون القوى كلها في ذلك اليوم حتى كان الظهر وارتفعت اصوات المؤذنين. فهمّ الروم بالانصراف . فتصدى لهم ابن الزبير واتعبهم في القتال.. ثم عاد عنهم مع قومه، والقى الفريقان السلاح ...

ولكن عبدالله لم يلقِ سلاحه ، بل كان يطوف بين الخيام قائلا : سيوفكم ايها الابطال . وحملوا حملة رجل واحد وكبروا، فلم يشعر الروم بهم حتى خالطوهم . وليس عليهم سلاح وليس امامهم خيل . وجرت الدماء ، وانتشرت الاشياء ، وحصدت سيوف المسلمين رؤوس الاشراف والقواد والابطال حتى ضيع الروم الأمل . وعبدالله بن الزبير يبحث عن جرجير ويقتحم بفرسه الصفوف حتى وقعت العين على العين فضربه ضربة هوى بعدها جثة بدون روح . وتفرقت صفوف القوم تهرب من الموت .

وبعد أن تمّ النصر للمسلمين، خطر لهم ان يفتحوا عاصمة الامارة، فمشو اليها، وفلول الروم تمعن في الصحراء فراراً من الموت ، ثم احاطوا بها من النواحي الاربع فلم تلبث حتى سقطت ، كما سقطت قبلها مدن الشام والعراق وفارس ومصر . وكان نصيب عبدالله بن الزبير ، مئة الف ، وابنة الأمير الرومي . على ان ابن ابي سرح لم يكتفِ بما تمّ له ، بل اراد ان يكون الفتح كاملاً ، فبثّ جيشه في البلاد يسبي ويقتل ، ويضم الارض وراء الارض ، الى ملك الاسلام ، حتى دان لأمير المؤمنين ، ذلك القسم الواسع من ذلك القطر .

وأقبلت طوائف العشائر تستسلم الى الفاتح وتطـــلب الصلح . ثم ارسلت الرسل الى المدينة تحمل اخبار الفتح الى عثمان . وعــاد عبدالله بن ابي سرح الى مصر، وكان مقامه بافريقية سنة وثلاثــة اشهر لم يخسر في خلالها غير القليل من المسلمين . وبعث بالمال الكثير الى أمير المؤمنين وذلك هو المــال الذي غنمه في الحرب ، واقام بمصر .

وقدم عمرو بن العاص المدينة ، ودخل على عثمان ، وعليه جبة يمانية محشوة قطناً ، والغضب في عينيه .

فقال له عثمان : ما حشو جبتك يا عمرو ؟

قال : عمرو !..

قال : قد علمت ان حشوها عمرو وانا لم أرد هذا وانما سألت أقطنٌ هو ام غيره ...

ثم قال : هل تعلم يا عمرو ان تلك اللقاح درّت بعدك ... «وهو يريد ان مصر ازداد خيرها بعد عزله اياه» .

فاجابه قائلاً : وان فصالها ، هلكت .

«وهو يعني ان الاسلام خسر الكثير من رجاله». فآثر عثمان السكوت، ولم يلبث عمرو حتى خرج والحقد يملأ قلبه.. وهو يفكر في تلك الولاية التي انتزعت منه ...

قنسرين وقبرص :

في السنة السابعة والعشرين ، غزا معاوية بن ابي سفيان ، قنسرين ، فكان في غزوه ، قضاء الله على الارض . ثم رجــع الى دمشق ، وهو ينظر الى البحر بشوق وشغف ، كما ينظر الفاتح الى البلد الذي يطمع فيه . لقد سأل معاوية عمر ابن الخطاب ، ان يأذن له في غزو الروم في البحر ، وكان يقول له : ان بـــلداً بالشام يسمع اهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم.. وهو يريد ان للروم داخل البحر ، مدناً قريبة من الشام ، وعمر بن الخطاب لا يصغي الى سؤاله ولا يجود

بالجواب ، حتى لجّ معاوية في الطلب وضمن له النصر ؛ فكتب عمر الى عمرو بن العاص يقول :

صف لي البحر وراكبه ! فكتب اليه عمرو : اني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ان ركن خرّق القلوب، وان تحرك ازاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلةّ ، والشك كثرةّ ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق . فلما قرأه عمر ، كتب الى معاوية : لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وتالله لمسلمٌ واحد احبّ اليّ مما حوت الروم فاياك ان تعرض لي . فصبر معاوية مكرهاً حتى استوى عثمان في مقعد الخلافة . فأعاد رجاءه ، وعثمان يأبى، وهو يلحّ حتى رضي ، ولكنه كتب اليه :

لا تنتخب الناس بل خيّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فأحمله وأعنه . ففعل معاوية ما أمره به ، وخرج معه جماعة من الصحابة منهم ابو ذر ، وابو الدرداء، وعبادة بن الصامت ومعه زوجته ام حرام .

وكان أمير البحر ، عبدالله بن قيس الحارثي ؛ فلما انتهوا الى قبرص ، رأوا ان عبدالله ابن ابي سرح امير مصر ، قد انتهى اليها بسفنه ورجاله . على ان معاوية كان امير الجيشين .. فقتل المسلمون وسبوا ، ثم آثر اهل قبرص الصلح على الحرب ، واقبلوا يعرضون الجزية ، وامراء المسلمين مجتمعون ، بينهم ابو الدرداء ، وجبير بن نفير . وكان أبو الدرداء يبكي !! فقال له جبير : ما يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الاسلام؟ فضرب بيده على منكبيه وقال : ثكلتك امك يا جبير ما أهون الخلق على الله اذا تركوا أمره ، لقد كان هؤلاء أمة ظاهرة قاهرة لها الملك والسلطان ، فلما تركوا أمر الله صاروا الى ما ترى . واذا ذل قوم فليس لله فيه حاجة ...

وقد وقع الصلح على جزية هي سبعة الاف دينار يؤدونها الى المسلمين في كل سنة ويؤدون الى الروم مثلها ، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك ، كما انه ليس لهم ان يغزوهم وعلى الروم ان يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم. وكان ذلك الصلح في السنة الثامنة والعشرين، وقد تزوج عثمان نائله ابنة الفرافصة

وكانت نصرانية ، وبنى داره الزوراء بالمدينة . وكان معاوية أول من غزا الروم في البحر ، وفي عهده بينه وبين اهل قبرص ألا يتزوجوا من الروم الا باذنه .

* * *

- ١٠ -

تصدّى خليفتنا يزدجرد ، في حلوان ، للقعقاع بن عمرو ، عندما اقبل الى المدينة على رأس جيشه الظافر . وقاتلاه عند أسوارها قتال القوم الذين خسروا كل شيء ... ولكن ذلك القتال كان وبالاً ، فقد قتل أحدهما في أول جولة ، ولجأ الآخر الى الفرار لاحقاً بمولاه . وفتحت أبواب حلوان للفاتح العربي ، واقبل الفرس مستسلمين، خاضعين للقوة الجبارة التي أكرهت ملكهم المعظم على التخلي عن العرش . وكان منادي القعقاع ينادي : من لم يخضع مختاراً أخضعه السيف ، فلم يبق رجل من رجال الحرب الا القى سلاحه . ودخل المسلمون عند غروب الشمس وقد أعد لهم القوم المنازل والقصور . فبينا القعقاع في منزله وعنده وجوه قواده ، دخل جندي يقول : ان بالباب رجلاً من اهل حلوان يريد ان يراك ..

قال : لا يطيب لي ان اجلس للناس في هذا الليل .

— ولكنه يلحّ في طلبه ويأبى ان ينصرف الا بعد ان تأذن له في الدخول .

— قال : لم يجيء هذا الرجل في مثل هذه الساعة إلا لأمر .. عليّ به ..

فدخل .. فرأى القعقاع على نور السراج ، فتى اسمر الوجه جذاب الملامح ، على جبينه آثار الكآبة ، والدموع في عينيه ! وليس لهذا الفتى غير يد واحدة ، فقال القائد : فارسي ؟ — نعم يا مولاي .

— ومن أنت ؟ — شهريار الخراساني !

— ويلك ، من خراسان وتقيم بهذه الارض ؟

— أجل وقد دفعتني اليها يد الاقدار ..

— إذن كنت في ساحات القتال .

— لقد شهدت حرب القادسية وخسرت يدي فيها ..

قال : ونحن شهدنا القادسية ولم نرك .

– أما أنا فقد رأيتك يوم قدمت من الشام مع هاشم بن عتبة .

– في يوم أغواث ؟

– نعم ، وقد تقدمت هاشماً وجعلت أصحابك عشرات ..

– قال صدقت ، وماذا صنعت بعد القادسية ؟

– ارسلوني وانا جريح الى المدائن فمكثت بها حتى تركها الملك .

– وبعد ذلك ! – جئت معه الى جلولاء .

قال : يظهر انه جعلك من رجاله ..

بل جعلت نفسي من غلمان قصره بعد ان عجزت عن حمل السيف .

– ثم أتيت حلوان ومكثت بهـــا الى اليوم ... ولكن كيف فرّ يزدجرد وبقيت انت ؟

وجعل ينظر اليه نظرات الغضب ، فقـــال لقد آثرت البقاء بأمر مولاك لتكون عيناً على المسلمين ..

قال : خير لي ان تضرب عنقي من ان تظن الظنون بي.. لقد بقيت لاراك، انت القعقاع بن عمرو ، واسألك قضاء حاجة لي .

– اذكر حاجتك الآن .. فمسح دموعه قائلاً : اريد ان اصير مسلماً !

فضحك وقال : ومتى رغبت في الاسلام ؟

– منذ همّ يزدجرد بالفرار من حلوان .

– والغاية من اسلامك ؟

قال : اما غايتي فهي ان افعل ما تفعلون وأعبد الله الذي تعبدون .

– وليس لك غرض آخر ؟

– لست من اصحاب السيف كما ترى ، لاكون من أصحاب الاغراض .

قال : نحن لا نخاف سيوفكم يا اهــل فارس ، ولكن نخاف ان يغدر احدكم بقائد من القواد ، وهو في فراشه !!

قال : لم يخطر لي قط يا مولاي ، منذ أصبحت رجلاً ، ان أخون احداً أو

أغدر بأحد .. اني من أولئك النـاس الذين يحفظون العهود ويبذلون الحياة في سبيل المروءة والوفاء .

– ولك في حلوان أهل ؟

فتنهد قائلاً : كانت لي زوجة منذ ثلاثة أيام .

– وطلقتهـا ؟

– بل انتزعتها مني يد الموت وهي ترقد الآن في قبر جعلته لهـا بين صخور الوادي .

– ولك بنون ؟

– لي طفلة قذفت بها امها الى الوجود قبل ان تموت ..

– ومتى فر يزدجرد ؟ منذ اربعة ايام .

– أي قبل ان تولد طفلتك . – نعم يا مولاي .

– اذن كنت مكرهاً على البقاء لا لتعتنق الاسلام بل لتكون عند فراش زوجتك .

قال : لو أردت الفرار للجأت اليه، وتركت زوجتي في هذا البلد وانا واثق بان الجيش العربي لا يمد يد السوء الى النساء ..

قال: ألا تعلم ان هذا الجيش يسبي ؟

– بلى ، ولكنه لا يسبي النساء وهنّ في منازلهن الا اذا حمـل ازواجهن السيف وتصدوا له في الميادين .

قال : أراك خبيراً بالحرب أيها الخراساني .

لقد كنت خبيراً يا مولاي ، امـا اليوم فقد نسيت كل شيء ، ولولا الطفلة التي ذكرت ، لاثرت الموت على الحياة !

وفضحته الدموع ، فحنى رأسه يكفكفها بيديه المرتجفتين ، فقـال القعقاع لعبدالله بن قيس شقيق الاحنف بن قيس ، وكان حاضراً : ماذا ترى أيها الامير؟

– أرى ان للرجل سراً يكاد يخنقه ..

قال : ألك سر يا شهريار ؟ – أجل يا مولاي .

– وهل تبوح لنا به ؟

- ليس سري من الاسرار التي ترددها الشفاه ..
- ولكن نعدك بالكتمان ..
قال : وعد صادق لا أشك فيه ولكني لا استطيع ان ابوح بشيء .
فقال عبدالله بن قيس : أهو سرّك ام سرّ زوجتك ؟
- سرّ الاثنين ..
- وهل كان الملك يعلم انك باقٍ في حلوان ؟
- كان يعلم اني لاحق به .
- اذن خدعت ملكك وتركته في الموقف الصعب الذي يحتـــاج فيه الى المخلصين من قواد جيشه ، ورجال بلاطه !
- رأيت زوجتي تصارع الموت ففعلت مافعلت .
قال : لقد قلت الآن انك ستصير مسلماً والمسلمون يفعلون غير ذلك .
- مـــاذا ؟
- انهم يؤثرون ملكهم على نسائهم وكان عليك أن تفعل هذا .
قال : قد يكون للمسلمين ملك يستحق ما تقول !
- ويزدجرد ؟؟
فتردد قليلاً ثم قال : أما يزدجرد فلا يستحق الا اللعنة !
- اذن فانت لا تحبه !
فارتجفت شفتاه وجعل يقول: لا ابذل حبي لرجل لا يحب احداً! اني ابغض يزدجرد وابغض كل فارسي لا يبغضه !!..
قال : لقد فهمت شيئاً من سرك الآن فهو يتعلق بالملك .
- نعم يتعلق بالملك ولكنك لا تعرف اليوم شيئاً عنه .
- ومتى أعلم ذلك ؟
- بعد خمسة عشر عاماً اذا بقيت انا وبقيت انت !
قال نحن رجال الحرب وقد يحصدنا السيف غداً ..
- اذا هلكنا جميعاً دفن السر في قبورنا الى الابد .

فقال عندئذ للقعقاع : سيكون هذا الرجل اصدق ابناء قومه اسلاماً .. اني اضمنه وارضى بأن اسأل عما يفعل ..

قال : اجلس يا شهريار فقد قضينا حاجتك .

– ولكن لي حاجة اخرى ايها الامير .

– ما هي ؟

– هي اني اريد ان تعيش طفلتي المنكودة الحظ .

– ونحن نريد ذلك .

– اذن ارجو ان تجدوا لها مرضعاً من نساء العرب

– ومن يرضعها اليوم ؟

– احدى نساء حلوان .

قال : يكفي ان يكون لها مرضع صالحة .

– أما انا فلا ارضى الا بأن ترضع حب العرب من ثديي عربية ..

قال : انك تغالي بحبك يا شهريار .

– اجل وسيرافقني هذا الغلو الى القبر .

قال : عليك ان تنظر في أمره يا عبدالله .

فابتسم قائلاً : ان الله مع هذا الرجل ومع طفلته .

– وهل تعرف لها مرضعاً ؟

– عرفتها فهي زوجتي أم عامر .

– لقد ذكرت الآن ، فالطفلة التي ولدتها لك في جلولاء ماتت في خانقين . ولكن أترضى بأن تحتضن ابنة الرجل .

قال : انت تعلم انه ليس لي من البنين غير طارق ، وطارق من زوجتي الاولى ، وهو اليوم عند عمه الاحنف ..

– اذن لم يبق الا ان يحمل ابنته الى منزلك .

– ليحملها الليلة اذا شاء فستكون امعامر والدةلطفلته حتى تجاوز العامين.

– على انه يجب ان يكون شهريار بالقرب منها .

قال : سافعل يا مولاي فانا لن اترك الجيش الا عندما تكبر .

– وتنتقل معنا من بلد الى آخر ؟

– وهل تظن اني اعتنقت الاسلام لآوي الى منزلي واعيش فيه كما يعيش الخاملون ؟ اني والله لا ارضى بأن يكون في الجيش العربي رجل أشد اخلاصاً للعرب ، من هذا الرجل الذي يخاطبك الآن .

– ولكنك خسرت يدك في دفاعك عن الفرس ..

– اذا كنت قد خسرت يدي وانا فارسي فسأبذل حياتي وانا عربي ..

– وماذا يستطيع ان يفعله الرجل ذو اليد الواحدة ؟

– ان شهريار الخراساني ، يستطيع ان يفعل ما لا تستطيع ان تفعله طائفة كبيرة من الجيش !!

قال : أتغزو اهل فارس بجند من العرب ؟ – لا ..

– أتقتحم صفوف الفرس في الميادين بصدر فرسك ؟ – لا ..

– اتحمل السيف تبري به رقاب الاعداء او الرمح تطعن به الصدور ؟

– وهل تجمل أبناء خراسان جنوداً للاسلام ؟ – لا !!.

– وما تصنع إذن وانت عاجز كما نرى لا تقدر على خوض الميادين ؟

– أصنع العجائب وابدأ بها الساعة ..!

قال : هات !

قال : قل لي أيها الأمير ، أخرجت من جلولاء غازياً أم ماذا ؟

– لي غرض آخر غير الغزو وهو ان اقبض على يزدجرد الملك .

– ولماذا يريد الجيش العربي ان يقبض عليه ؟

– ليصفو له الجو في دولة فارس ..

– واين هو يزدجرد الآن ؟ لقد قيل لك انه في حلوان فغزوتها ولكنك لم تره وانت لا تعلم أين هو ..

– سأعلم ذلك .

– أجل ، ولكن بعد ان يمر الزمان .. أفلا تشتري بنصف مال حلوان ، رجلاً يدلك على المكان الذي فرّ اليه ؟

– تريد ان تقول انك انت ذلك الرجل .

– نعم وهي الخدمة الاولى التي أخدم بها العرب .

فقال عبدالله : صدقت فليس أحب الى قواد الجيش من هذا ! الى أي بلد لجأ يزدجرد ؟ – الى خراسان .

– ولكن خراسان أرض واسعة كما تعلم فأين ينزل ؟

– في مرو الاولى التي يقال لها الشاهجان .

ثم ينتقل منها الى مدينة اخرى ثم الى غيرها وهو يجمع أنصاره ويبرز ويستخفي حتى ينتهي العمر ...

– يفعل ذلك مرتين أو ثلاثاً أيها الأمير . – وبعد ذلك ؟

– يسقط في الشرك الذي يعدّه له رجل من رجال بلاطه !!

قال : ومن هذا الرجل ؟

– هو انا فقد أقسمت اني سأدفع يزدجرد الى أيدي أعدائه .

– واذا عجزت عن هذا فماذا تصنع ؟

فوضع يده على جبينه قائلاً : خير لي ان لا أرى هذا الملك ، فقد يفاجئني الموت بعد ان أراه .

– إذن لقد عدلت ..

– بل رأيت لي رأياً آخر احفظ معه حياتي التي هي لطفلتي ..

– أي انك ستعيش بعيداً عن الناس حتى تكبر الطفلة .

– لا ، ولكني سأعيش بين العرب الذين أمسيت منهم ، وأحصي على الملك انفاسه ، في اختبائه وظهوره ، ورواحه ومجيئه ، حتى يعلم الجيش كله في أي موضع يضع اللعين قدمه وهذه هي الخدمة الثانية التي أبذلها للجيش الفاتح .

فمدّ يده اليه قائلاً : اذا كان هذا فانا عبدالله بن قيس اعاهدك على الوفاء .

وابتسم القعقاع وقال: وأنا أزيد على هذا انك منا ، وان لك ما لنا وعليك ما علينا وستكون ام عامر منذ الليلة ، اماً لطفلتك .

فأشرق جبينه وجعل يقول : لقد كنت واثقاً من قبل بأني سأجد عزائي بين قواد العرب الذين يطاردون يزدجرد . ونهض وهو يهمّ بالانصراف ، فقال له : اخرج معه يا عبدالله واحمل الطفلة الى منزلك .

فانصرف الاثنان حتى أتيا ذلك المنزل الذي ماتت فيه جهان روز ، فحمل شهريار الطفلة ، وجعل يضمها الى صدره وهو يهامس جهان روز قائلاً : نامي في حلوان ايتها الحبيبة فعين شهريار لا تنام الا بعد ان ينام يزدجرد في حفرته ..

وكانت ام عامر زوجة عبدالله ، من نساء بني أسد ، وقد قتل زوجها الاول وابنها عامر في اول جولة جالتها خيل العرب في العراق . ولم تلد لعبدالله غير طفلة ماتت في خانقين كما مرّ . اما طارق بن عبدالله، فهو في سنته الخامسة، وقد أراد عمه الاحنف ، سيد قومه ان يجعله بين اهل بيته ، ولم يكن يخطو خطوة الا اذا نظر اليه يلعب مع ولده وغلمانه . أجل ، كان وجه الغلام الضاحك ، وجماله الجذاب ، يبعثان الفرح الى قلب الاحنف الفارس العربي الجبار . وكان الاحنف واثقاً بأن طارقاً سيكون له شأن بين العرب .. وكان يقول لاخيه عبدالله : لا يرجع طارق اليك الا عندما يحمل السيف غازياً في سبيل امته . وعبدالله لا يخالف اخاه في امر ولا يستطيع الا ان يرى ما يراه الاحنف، رئيس آل قيس ، ورئيس عشيرته .

* * *

- ١١ -

نحن الآن في السنة التاسعة والعشرين ، وقد اكفهرّ الجو في بعض النواحي التي استولت عليها العرب ، ايام عمر بن الخطاب . كان المسلمون يفتحون هذا البلد ، ثم يرون ان يجعلوا عليها عاملاً مسلماً ، كما كانوا يرون ان يجعلوا على البلد الآخر ، عاملاً من الاعجام . وهم يعالجون بذلك سياسة الدولة ، ويخدّرون بالمناصب أعصاب المتنفذين من اهل فارس ، واصحاب السؤدد والسلطان . وهؤلاء المتنفذون فئتان، فئة تؤثر الهدوء ، في ظل الخليفة، على الثورة والحرب وفئة ترى الراحة والشرف ، في الرجوع الى ظل يزدجرد ، حتى نكث بعضهم

عهده ، وحمل لواء العصيان. ورددت العرب في كل قطر، اخبار عصيانه ؛ فقيل لأبي موسى الاشعري والي البصرة : لقد كفر الاكراد ، وثار من حولهم من اهل الجبل والسهل ؛ فقال لقومه : الى الحرب ، انكم رجالها وخواضّو الغمرات . فعمدوا الى السلاح ، ولكنهم كانوا يحتاجون الى الخيل والنوق ، تحملهم وتنقل اشياءهم الى الميادين ، فقال ابو موسى : الفضل في الجهـاد لمن يسير الى عدوه ، على قدميه ..

فقال بعضهم : لقد طاب لنا السير على الاقدام ؛ وقال آخرون : لا والله لا نعجل حتى نرى ما يصنعه ابو موسى ، فلما تهيأوا للرحيل عن البصرة، خرج من قصر ابي موسى اربعون بغلاً وفرساً تحمل ما يحتاج اليه ، ثم اقبل هو على فرس له . فتعلقوا بعنانه وجعلوا يقولون :

الفضل في الجهاد لمن يمشي .. فارغب فيما رغبتنا فيه ..

وهو راكب ولم يرَ ان يترك فرسه . فانصرفوا الى المدينة يقصون على الخليفة ما سمعوه ورأوه، وبينهم رجل يقال له غيلان بن خرشه. فلما قابلوا الخليفة قال غيلان : يا أمير المؤمنين أنصفنا من ابي موسى .

– وماذا صنع ؟

فخبّره بما صنع ثم قال : انه يهزأ بالمسلمين وما كل ما نعلم نحب ان نقوله .

قال : من تحبون ؟

قال : اما منكم خسيس فترفعوه ، أما منكم فقير فتجبروه ؟ حتى متى يأكل هذا الشيخ الاشعري هذه البلاد !! ان لنا في كل احد عوضاً من هذا العبد الذي أحيا أمر الجاهلية فينا .

فأطرق عثمان ملياً ثم قال : لقد عزلنا ابا موسى وجعلنا عاملنا على البصرة فتى في مقتبل العمر .

فقال القوم : من هو يا أمير المؤمنين ؟

– عبدالله بن عامر الذي وليناه أمر سجستان .

قالوا : لا نعرفه ولكن رضينا به .

فكتب اليه يدعوه الى المدينة ثم أمرّه على البصرة، وصرف عبيدالله بن معمّر الى اقليم فارس ، وعمير بن عثمان بن سعد الى ناحية من نواحي سجستان، وأمين ابن أحمد اليشكري على ناحية اخرى، وعاصم بن عمرو، شقيق القعقاع بن عمرو الى كرمان . وقدم بن عامر البصرة ، وهو من بني عبد شمس ، وابن خال عثمان وعمره خمس وعشرون سنة . وكان من فتيان العرب البسلاء ، فلما انتهى الى البصرة ، وخبر أرضها وأهلها ، نقلوا اليه ان عاصماً بن عمرو مات ، وان اقليم فارس جميعه نكث عهده ، وثار على عبيدالله من معمر الذي مرّ ذكره . فأعدّ عدته للزحف الى ذلك الاقليم ، وقبل أن يغادر البصرة بلغه ان الجيش العربي لجأ الى الفرار من وجه الفرس وان قائده عبيدالله قتل في الميدان ، عند باب بلد يقال له اصطخر. فرأى عبدالله ان ينظر في أمر جيشه من جديد، واستنفر اهل البصرة جميعهم ليزحفوا الى مقر الثورة ، وجعل على مقدمته عثمان بن العاص الثقفي .

وعثمان بن العاص، من اولئك القواد الذين عبروا البحر من عمان والبحرين، مع ابي العلاء الحضرمي ، في خلافة عمر . والتقى الجيشين في اصطخر التي قتل عند بابها ابن معمّر ، ويزدجرد نفسه ، من وراء الستار ينفخ في صدور قومه ، روح التمرد والحرب . ولكن القدر كان قد خان يزدجرد ، فان جيشه تراجع امام القوة الجبارة التي تزعزع الجبال، ثم حصد السيف معظم رجال ذلك الجيش، وفرّ من بقي منه الى نواحي الصحراء وبطون الاودية. وكتب عبدالله الى الخليفة يبشره بالظفر . فأجابه عثمان : اذا اتاك كتابي فاجعل اقليم فارس خمسة اقسام ، وأمّر عليها هؤلاء الرجال، هرم بن حسان اليشكري، وهرم بن حيان العبدي، والخرّيت بن راشد ، والمنجاب بن راشد ، والترجمان الهجيمي، وانت تعرفهم، واجعل اقليم خراسان ستة ، وليكن الاحنف بن قيس على المروين وحبيب بن قرة اليربوعي على بلخ ، وخالد بن عبدالله زهير على هراة ، وامين بن احمر اليشكري على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور ولا تتردد في الرجوع الى البصرة مع من يبقى من الجيش. ففعل الرجل ما أمره به ولم يلبث حتى رجع ،

وانصرف كل رجل من الولاة الى عمله . وكان الاحنف بن قيس اسبق الناس الى ناحيته ، ومعه اخوه عبدالله وطارق ابن اخيه وهو في الثامنة عشرة من العمر .

وتعب المسلمون في البحث عن يزدجرد ، ولكن الارض ابتلعته وجعلت له في جوفها ملجأ يقيم به . واختار الاحنف مرو الاخرى ، التي يقال لهـــا مرو الروذ ، حاضرة لولايته ، وجعل عيونه في كل بلد يبحثون عن ملك الفرس .

* * *

- ١٢ -

بين المروين ، مرو الشاهجان ، ومرو الروذ ، منازل صغيرة ، على شاطيء النهر يقيم بها فريق من العرب والفرس، الذين عجزوا، وقدأطلوّا على الشيخوخة القاسية، عن حمل السيف، بينها منزل هو أكبرها ، تقوم عن جانبه الذي يجاور النهر ، حجرات صغيرة، تمد البهجة حولها رواقها الضاحك وينشر الهدوء فوقها ظله . وانـــك لترى فيه عبدين من عبيد الفرس ، ورجلاً عربياً جاوز الكهولة اسمه سنان من بني سليم ، وزوجته عمرة ، وكهلاً آخر لا ينتمي الى عشيرة من عشائر العرب .. وفتاة في الثالثة عشرة فتانة المحاسن ، السحر في وجههـا وفي عينيها هي ابنته.. وهي سيدة المنزل وصاحبة الامر فيه، وأبوها الذي لا عشيرة له تكفيه ابتسامة تبدو على ثغرها الفتان .. والمنزل واسع رحب، وله فناء ذو سور عال ، اعدّه صاحبه لنزول الغرباء الذين يمرون بين المروين . ولم يكن لتلك الفتاة اسم ، فقد كان ابوها وسنان عمرة ، يدعونها اليتيمة ، واذا ذكرها الغرباء النازلون في دارها قالوا : اليتيمة الساحرة .. أجل، كانت ساحرة في كل شيء، في قامتها الهيفاء وصوتها العذب ، وعينيها الفاترتين، بل كان جمالها أبعد أثراً من السحر .

وكان القوم يتناقلون اخبار ذلك الجمـــال ، ويتحدثون بتلك المظاهر الخلابة التي تبعث الاعجاب الى الصدور.. حتى انتهت تلك الاخبار إلى المروين، وجعل البعض يقول للبعض الآخر : انها ابنة امير عربي يكتم الناس اسمه واسم عشيرته نعم ، ان اباها اليوم عربي ، ولكنه كان فارسياً ، ومن صغار القواد في جيشي

بهمن ورستم ، وكان يدعى شهريار الخراساني ... انه شهريار الخراساني ... انه شهريار بوجهه المشوّه وملامحـــه الجذابة ... وقد جعله الهم المبرّح كهلاً قبل الاوان .. لقد انقضى على موت جهان روز ثلاثة عشر عاماً كانت ايامها كلها ذكريات ، فيها الالم والكآبة ..

كان شهريار المنكود الحظ، يذكر ذلك القصر الذي ماتت فيه حبيبته حظية يزدجرد ، ويذكر تلك الساعة الرهيبة التي لفظت فيها الروح ، بل كان يذكر ، والحزن يملأ فؤاده ، ذلك الملك القاسي الذي حول وجهه عن حظيته وهي على فراش الموت .

ثم ينتقل بالذكرى ، الى العهد الآخر، يوم ألقى باليتيمة ، بين يدي أم عامر، زوجة عبدالله بن قيس ، لترضعها حب العرب. وكان يستعيد ماضيه ، بكل ما فيه ، باكياً غرامه الذي خنقه الملك ، مستعيناً على جور الزمان، بابتسامة الطفلة الطاهرة تجود بها شفتاها من حين الى حين .

ظلت ابنة جهان روز عامين كاملين في حضن ام عـــامر ، عشرة اشهر في حلوان ، واربعة عشر شهراً في الكوفة ، بعد ان انصرف اليهـا سعد بن أبي وقاص والمسلمون .

وشهريار لا يفارقهـا ، كالعبد الامين القائم على خدمـة مولاه . حتى أمست جبال فارس وسهولها ميادين للقتال ، فتفرق شمل العرب في كل قطر ولحق كل قائد بالجيش الذي جعله عمر بن الخطاب قـائداً له ... ثم قتل عمر ، فبدأ أمير المؤمنين عثمان يولي ويعزل كما قرات ، وقضت الحروب المستمرة التي لم تخمد لهـا نار ، بأن يفارق الاخ اخاه ، ويبعد الوالد عن ولده . فاختار الخراساني ، مرو الشاهجان مقاماً له ، وهو بلباس العرب وعليه عمامة العربي والنـاس ينظرون اليه كما ينظرون الى كل غريب،ولا يعلمون اي رجل هو. وقد رأى في مرو سناناً وزوجته عمرة ، وهما فقيران وقد خبرا الزمان ، فضمها اليه وجعلها خادمين لليتيمة، ثم اشترى عبدين من عبيد فارس انس فيهما الاخلاص والوفاء له وللطفلة الساحرة التي يفديها بحياته وقضى ايامه كلها في البحث عن يزدجرد ، يترك منزله

شهراً ويعود اليه فيمكث بضعة أيام ، ثم يعود الى الطواف في أرض خراسان ، ليلمس بيديه الارض التي وضع فيهـــا الملك الظالم قدميه . وكان يزدجرد كثير الخوف ، ينتقل الى هذا البلد في ظلام الليل ، وهو بلباس اهل خراسان ، لينفخ روح الثورة في صدور الزعماء ، ثم يعود منه الى بلدٍ آخر ، وهو بلباس أهـــل العراق ، ليشتري بذهبه الكثير انصاراً للعرش . والارض نفسها لا تحس به .. والقوم الذين يقيم بينهم لا يعلمون من أين يجيء والى اي بـلد يذهب . لقد كره الملك المخلوع أن يسلبه العرش الفارسي اولئك العرب الاجلاف(بزعمه)،فحاربهم برجالهوماله، ولكنهرأى انه أعجز منان يسترد ما خسر فاستولىعليه الخوف. الخوف من الموت، ولم يستطع رغم خوفه ، الا ان يغذّي الثورة بالوعود والذهب فقد يخلق الزمان ما لا يخطر له .. وعلمته التجاريب الخبث والدهاء ، فقد كان يبتسم لعدوه والنار تتأجج في صدره ويغضب على رجاله وهم أحب الرجال اليه وأملت عليه الحادثات ان يحتفظ بسره لا يبوح به لأحد من المقربين، ولا يظهره الا اذا اكره على اظهاره . يمشي فيتبعه القوم ، وهم لا يدرون الا انهم يتبعونه.. فاذا انتهى الى غايته ابتسم لهم كأنه يقول : حسبكم هذا..!!

وابو اليتيمة الساحرة لا يهدأ ولا يمل من الطواف ، ولم يكن يخشى ان تقع عليه عين الملك ، فهو في نظره من المخلصين ! على انه لم يره ، ولم يكتب له ان يسجد عند قدميه كما كان وهو في بلاطه .

كان يعلم انه في هراة ، فيدخلها متحجباً مستخفياً عن العيون وبينا هو يتتبع الآثار ويسمع الاخبار ، يخرج يزدجرد الى نيسابور، فيخرج هو من ناحية اخرى ليقرأ سره ، ولكنه لا يلبث حتى يسمع ان الملك انتقل الى طوس ليمكث بهـا بضع ساعات ، ثم ينصرف منها الى جوف الارض ...

ولو كان هنالك رجل غير شهريار ، لملّ هذا الطواف المضني وآوى آمنا الى منزله للعناية بالفتـاة التي هي قطعة من روحه . ولكن عزيمـة شهريار جبارة لا تلين ، وغرامه الصامت الطاهر لا يموت ... وجثة جهان روز ماثلة أمام عينيه ومـــا هي غاية الخراساني من طوافه ؟ انك لتظن انه سيضع خنجره في صدر ملكه على مرأى من رجاله ثم يقول لهم : اضربوا عنقي فأنا قاتله .. لا .. انه لم

يكن يريد القتل ولو استطاعه ، ولكن كانت له غـاية اخرى هي ان يلبس من جديد لباس المخلصين ويقص على الملك حكاية من حكايات المـاضي كما سيجيء . نعم ، كان يستطيـع ، بالقليل من الصبر ، ان يرى الملك ولو ارتفع الى الغمام ، ثم يطعنه طعنةً تزهق معها روحه ، ولكنه كان يخاف اذا فعل ، ان يخسر حياته ، وهو يريد ان يعيش !! وحياته ليست له ، بل هي لابنته .. وقد عاهد الله على ان يجعل هذه الحياة ملكاً للصغيرة الحسناء . فاذا قتل ، خسرت اليتيمة أباها الذي ارسلته اليها السماء.. وقد تقذف عاصفة العالم الهوجاء الى بحر لا قرار له ... ذلك ما كان يخافه شهريار ، وهو واثق بأنه سيبلغ بصبره ، غايته من يزدجرد .

والزمان لا يرحم صعلوكاً ولا يصفو لملك ...

***

- ١٣ -

مرّت الاعوام وابو اليتيمة لا يجد سبيلاً الى بلوغ الغاية ، حتى ثارت خراسان لورتها ، باغراء يزدجرد ، وقتل عبيدالله بن معمر ، ثم أخمد النار عبدالله بن عامر والي البصرة ، وجعل الاحنف بن قيس عـلى المروين . فرأى شهريار لفكرة خطرت له ، ان يختار له منزلاً بين المروين ، على شاطيء النهر ، ويجعل جانباً منه لأهل بيته ، والآخر للغرباء ، وهو المنزل الذي وصف لك منذ لحظة . وكان قـد عرف ، ان عبدالله بن قيس مقيم بمرو الروذ عنـد أخيه الأحنف وهو من أركان حربه . وعبدالله صاحب الفضل على اليتيمة ، وزوجته أم عامر ، أمهـا بالرضاع . فخطر له أولاً أن يلجـأ اليه وينزل في داره ، ولكن خاف أن يرى فتاته فتىً من فتيان العرب النبلاء ، فيستهويه جمالها ، ويسقط في شرك الغرام ، ثم يسأله ان يجعلها زوجة له ، وهو لا يستطيـع ذلك إلا بعد أن تصبح في الخامسة عشرة من العمر .. وتلك هي وصية جهان روز التي لا تتغير منها كلمة . تعرف اليتيمة سرّها عندما تبلغ السن التي ذكرنا ، ثم تزف الى فتى عربي تختاره هي ، دون ان يكون في زواجها ظل للاكراه .. ذكر شهريار ذلك فآثر البقـاء عند

الشاطيء، على النزول في موضع يعسكر فيه الجيش العربي، ويكثر فيه الناس. وكان قد انتهى الى أهل المروين ، ان على ذلك الشاطىء منزلاً أعـدّه صاحبه للغرباء من الامتين فنزل فيه الراحلون منهم والراجعون وكانوا يصفون لمن يرون جمال تلك الفتـاة الساحرة التي تبتسم للاضياف ... ولم يمر شهران حتى أمسى ذلك المنزل ملجأ يلجأ اليه القوم . ففي احدى الليالي، أبصر شهريار بين أضيافه رجلاً من الفرس عليه طيلسان كأنــه من رجـال الدين ، ومعه فتى هو ولده ، وعبد لهما .. وقد قرأ على وجهي الرجلين سطور النبالة والعز . فخيل اليه انه رآهمـا قبل تلك الساعة ، ثم ذكر صاحب الطيلسان ، وعرف انه من مرازبة فارس وقوادها ويدعى ماهوية. وقد كان بين القواد الذين شهدوا حرب القادسية، وان ولده يقال له براز ؛ فقال في نفسه : قد يكون للرجلين علاقة بالملك، ثم قام في ذهنــه انهما من الجواسيس الذين يطوفون في ذلك القطر لحساب يزدجرد ، فهش لهما مرحباً ، ثم دعاهما الى حجرته ليقضيا ليلتهما فيها دون ان يزعجهما الآخرون، وكان يبتسم لهما كأنهما من اصدقائه.. فآنس فيه ماهويه، ليناً وأدباً، وطاب له ان يحدثه بالفارسية التي يحسنها على رغم لباسه العربي، فقال له: اللباس لباس العرب واللغة لغة الفرس ، فمن أيهم انت ؟

قال : عربي كما ترى ، ولكني احب اهل فارس فامي منهم وقومهـــا احب اليّ من قومي .

– وأبوك حي ؟

– قتل في الموصل وماتت أمي بعد فتح المدائن !

– وهذه الفتاة ؟

– هي ابنتي وقد فاجأ الموت امها يوم ابصرت هي الوجود .

– وأي حرب شهدت مع قومك ؟

– يوم الجسر، وأيام القادسية وجلولاء وحلوان .

ووضع يده على جبينه متظاهراً بالتفكير ثم قـــال : اذكر اني رأيتك في القادسية ، يوم قطعت يدي، وقد كنت بين القواد ..

قال : أصبت فقد قاتلت العرب في ذلك اليوم ، ولكن ذلك القتال انتهى

بالفشل كما انتهت الحروب قبله وبعده .

قال : من حق الفرس ان يدافعوا عن ارضهم ولو خسروا كل شيء .

– وماذا ينفع الدفاع اذا كان هنالك ملك مثل يزدجرد يقرب الخونة من امرائه ويبعد المخلصين .

– ولا اطيق ان اذكر اسمه .

فظن شهريار انها حيلة منه ، فقال : ما سمعت من قبل ان الناس يبغضون ملوكهم !!

– اما انا فقد أبغضت يزدجرد ولست بنادم على ما افعل ..

قال : أيطيب لك ان تذكر لي اسباب هذا البغض ؟

– اذكرها ولا ابالي فهو يفرّ من بلد الى آخر تاركاً عرشه نافخاً في الصدور روح الحرب وهو جبان .

قال : لا تلم الملك الذي يبذل جهده ليسترجع ملكه .

– بل ألومه عندما يخرج من بلاطه خروج الجبناء ، ويقرّب اليه طائفة من الانذال يطوفون معه في الاقاليم ليجمعوا المال ، ويقذفوا برجال فارس الى لجة الفناء والعار ، ويدفعوا البلد الآمن الى اتون النار .

– إذن كان يجب ان يبقى في المدائن ويدافع فيها عن التاج..

– أجل،وكان عليه ان يحمل سيفه امام قومه قائلاً لهم:الموت خيرمن الفرار.

– ولكنه قد فر كما ترى فلم يبقَ إلا ان يعد العدة من جديد ليطرد العرب من بلاده ، ويمحو بقوة السيف عار ماضيه .

– أقسم لك بجميع الآلهة انـه لا يعلم ماذا يصنع .. يثور قومه ، فيخمد العرب نار ثورتهم، ثم يختارون منهم عمالاً على البلاد ، فيجيء يزدجرد ، ويدفع باكاذيبه ووعوده أولئك العمال الى الخيانة فتندلع بين ليلة وضحاها ألسنة النار التي اخمدها الفاتحون .. ثم قال : هذه مرو الشاهجان ، لقد جعل اميركم العربي رجلاً عاملاً له عليها وهو يظن انه مخلص للعرب .

– اعرف هذا الرجل فهو يدعى سنجان ، وقد رأيته في قصره .

قال : انه ابن اخي وقد كنت واثقاً بهدوئه واخلاصه لمن ولاّه .

ولكن يزدجرد لا يريد ان يبقى على اخلاصه، بـل لا يريد ان تحقن الدماء .

– وماذا صنع ؟

– ما يصنعه كل يوم مع جميع العمال . يملأ يديه ذهباً ويدعوه الى العصيان ، ثم يعده بأن يجعله أميراً من امراء البلاط !

– وهل فعل ذلك ؟

– نعم ، ولا يمر شهر حتى يحمل القوم لواء ثورتهم ويخرجوا عن الطاعـة .

– وكيف دخل يزدجرد مرو والعرب حولها وعيونهم على الضفتين ؟

– لم ترَ له مرو وجها ولكنه يرسل رجاله ومعهم الذهب وهم يرددون وعوده ؛ فتبين شهريار الصدق في عيني الرجل ، ولكنه ايقن بأنه لم يكن يبالي بدماء قومه تهرق في سبيل يزدجرد ، بل كان طامعاً بالسلطان . وهو يريـد ان يكون عاملاً للعرب على مرو، بدلاً من ابن اخيه ، فقال له : والى اين أنت ذاهب الآن ؟ – الى مرو الروذ

– وتريد أن تقيم بها بعيداً عن الحرب ؟.

بل أريد أن أرى والي المروين الذي يقال له الاحنف بن قيس .

– وتعرفه ؟

– لا أعرف من رجال العرب غير القواد الذين رأيتهم في الميادين .

– وهل من حاجة يقضيها لك ؟

– اقصّ عليه خبر سنجان ، ومساعي يزدجرد ، ثم أسأله ان يختار له عاملاً من أصحاب الوفاء .

فضحك قائلاً : وهل تظن ان الأحنف يسمع لك وانت من اعدائـه ، ومن القواد الذين حاربوا قومه في العراق ؟

– اذا لم يسمع لي ، رجعت الى بلدي ، ثم احمل اهلي واشيائي وارحل عـن مرو الى ارض ليس فيها ظل ليزدجرد .

قال : لقد رأيت رأياً .   – ما هو ؟

– هو ان تسأل الاحنف أن يوليك .

قال : اتقسم لي انك من المخلصين للعرب ؟

– أقسم لك اني أؤثر الخضوع للعرب على الخضوع ليزدجرد .

قال :ستكون بعد ايام عاملاً على مرو الشاهجان .

– واي شيء اوحى اليك بهذا ؟

– خاطر خطر لي وسترى اني صادق. ولكن للاحنف شروطاً سيذكرها لك وستخسر حياتك اذا نسيت منها شرطاً واحداً .

– وتعلم انت هذه الشروط ؟

– أعلم بعضها فهو سيجعلك عينا على الملك والويل لـك اذا رأيته في مرو ولم تقبض عليه .

قال : اذا جاء فهو لا يجيء وحده .

ولكن العرب لا يبالون برجاله بل يكفيهم ان يسقط هو في الشرك .

قال : اذا عهد اليّ الاحنف في ذلك فعلت .

– وعليك أن تذكر للعرب المكان الذي يلجأ اليه يزدجرد اذا عرفته دون أن تتردد في الامر .

– وأعد اني سأفعل هذا .

اذن بقي علينا أن نقضي الليل ثم نرحل عند الصباح .

وانصرف الى حجرة يصرف فيها ليلته وهو يخاطب نفسه قائـلا : سأجعل هذا الامير الطامع آلة في يـدي وسأذكر كل شيء لعبدالله بن قيس فهو لم ينس شهريار الخراساني ولم تنس ام عامر تلك الطفلة التي احتضنتها عامين كاملين .

* * *

- ١٤ -

هذه أصابع الفتنة تمتد بين المسلمين الى الكوفة ، وعاملها الوليد بن عقبة والى

الشام وعاملها معاوية بن ابي سفيان . وهذه نار الثورة تتأجج في طبرستان وخراسان من جديد يسعرها يزدجرد الذي لا يهدأ الا اذا استرجع عزّه وعرش اجداده ، وكان ذلك في مطلع السنة الثلاثين . في الكوفة والشام ابطال اشداء من العرب وعشائر رفعت الاسم العربي الى العلياء . ولكن الشر بسط ظله فوق البلدين ، وكادت السيوف تخرج من أغمادها ليخضبها المسلمون بدماء المسلمين !! كلمة واحدة يقولها أحدهم تخلق الفتنة الدامية ، وبادرة واحدة من بوادرالطيش تمسي حربا يضطرب لها ركن الملك !

ولولا هيبة الاسلام وهيبة الخليفه ، لكان السيف وحده في ذلك الزمان سيد الاحكام . غضب عثمان على سعيد بن أبي وقاص والي الكوفة ، فنحّاه عن الولاية كما قرأت ، وجعل عليها الوليد بن عقبة ، الذي كان عاملاً على عرب الجزيرة لعمر بن الخطاب في السنة الثانية من خلافته. فقدم الوليد، وكان احب الناس الى الناس وارفقهم بهم ، بل كان اباً لكل عربي مهما تكن منزلته في قومه قضى في الكوفة خمسة اعوام ليس على داره باب !! الناس يحضرون مجلسه ويخرجون في النهار وفي الليل ، في الصباح وعند الفجر دون ان يكون هنالك غلام يستأذن لهم . دار يدخلها من يشاء من القوم ، عندما يشاء ، وكان في الكوفة رجل من اصحاب النبي ، يقال له ابو شريح الخزاعي ، وقد تحول اليها من المدينة ليدنو من الغزو . فبينا هو ليلة على سطح منزله ، استغاث جارٌ له، فأشرف ، فإذا بشباب قد بيتوا ذلك الجار وجعلوا يقولون له: لا تصح ، فانما هي ضربة حتى نريحك من روعة هذا الليل . وكان المستغيث رجلاً من عشيرته ، من خزاعة ، وبينه وبين اولئك الشباب عداوة سببها الزهو والغرور ، وقد خرج اليهم بسيفه ليدافع عن نفسه . فلما رأى كثرتهم استصرخ ، فجعل ابو شريح يصيح بهم ، ولكن السيوف كانت قد غاصت في جسد الفتى المنكود الحظ فهوى قتيلاً على باب داره وليس في الدار من يشاركه في الدفاع. ومشى القوم كما يمشي الظافر ، وسيوفهم مخضبة بدم البريء على رأسهم زهير بن جندب الازدي ومورع بن ابي مورع من بني اسد ، وشبيل بن ابيّ ، وغير هؤلاء من الفتيان . فغدا ابو شريح على الوليد يقص عليه ما رآه .

قال اتشهد ؟

– أجل ويشهد ابني فقد رأى ما رأيت ، وارتفعت اصوات القوم، هــذا يناصر القاتل وهذا يطلب بدم القتيل ، والوليد ينصح لهم بالهدوء ريثما يكتب الى الخليفة يسأله رأيه . وبعث برسوله في اليوم نفسه الى عثمان ،

فكتب اليه عثمان يأمره بقتلهم دون ان يصغي الى الشفاعات . فأمر بهم ابن عقبة ، فقتلوا على باب القصر في الرحبة ، وكان عمرو بن عاصم التميمي حاضراً فجعل يقول :

لا تأكلوا ابداً جيرانكم سرفاً   اهل الدعارة في ملك ابن عفان
ان ابن عفــان الذي جربتم   فطم اللصوص بحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً   في كل عنق منهم وبنان ...

والقتل يبعث الهيبة والخوف ..

فسكت القوم ولكن على غلّ ، وحقدوا على الوليد ووضعوا عليه العيون، ثم جعلوا يتآمرون عليه ليخرجوه من الكوفة ذليلاً معزولاً . وماذا يصنعون مع رجل مثل الوليد ؟

انهم يقولون لأمير المؤمنين : رأينا الوليد يشرب الخمر فينتهي امره .

وهم في ذلك ، اقبل رجل يقول لهم : هل لكم في الوليد يشارب صديقاً له !

فثاروا وجعلوا يقولون لوجوه اهل الكوفة : هذا اميركم عاكف على الخمر يشربها مع رجل من طيء .

فمشى الناس معهم يريدون منزل الوليد وباب المنزل الى المسجد؛ فلما فوجىء بهم ، نحّى شيئاً كان امامه وادخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه والوليد ساكت ، فاذا هو وعاء فيه تفاريق عنب ، وانما نحّاه استحياء ان يروه وليس عليه الا التفاريق .. فقاموا فخرجوا واقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم وقد ستر الوليد عليهم ذلك وطواه عن عثمان اخماداً للنار .. وقد كره ان يتحدث بالأمر ويفسد بين القوم .

اما هم فلم يسكتوا ولكنهم صبروا بضعة ايام ثم اقبلوا يقولون لعبدالله بن مسعود صاحب بيت المال : الوليد يشرب الخمر ، واذاعوا ذلك حتى رددتـه الأفواه ...

فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ..

وبلغ ذلك الوليد ، فأرسل اليه فأتاه ، فعاتبه قائلاً : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً مثل هؤلاء بما أجبت ؟ اي شيء استتر به يا عبدالله ؟

قال : كلمة قلتها لم أرد بها شراً ، وانتهى العتاب الى افتراق الاثنين على تغاضب ولم يكن بينهما اكثر من ذلك .

على ان الحقد ملأ قلوب القوم الذين قتل الوليد ابناءهم وامسوا على حال لا سبيل معها الى الصبر ، فندبوا ابا زينب الأزدي ، وابا مورع الاسدي للشهادة عليه . وجعلوا يحضرون مجلسه ويتظاهرون بنسيان ما مضى . فبينا هم معه يوماً في البيت ،نام الوليد وتفرق القوم . ولكن أبا مورع وأبازينب لم ينصرفا، بل تناول أحدهما خاتمه ثم خرجا وقد تم لهما ما أراداه . وكان للوليد امرأتان في المخدع ، بينها وبين القوم ستر : احداهما بنت ذي الخمار ، والاخرى بنت أبي عقيل .

فلما استيقظ الوليد لم يرَ خاتمه فقال لزوجتيه : اين خاتم الامارة ؟

فلم يجد عندهما منه علماً ، فقال : من بقي في الدار من القوم ؟

فقالت بنت ذي الخمار : رجلان لا نعرفهما .

قال : صفيهما لي .

قالت: على احدهما خميصة وعلى الآخرمطرف وصاحب الخميصة أقربهما اليك.

– أقصير هو ؟

– نعم وقد رأيت يده على يدك .

قال : هذا والله ابو زينب والآخر أبو مورع وقد أرادا أمراً .

ووثب فبعث بمن يبحث عنهما فلم يقدر عليهما، لأنهما كانا قدخرجا من الكوفة يريدان المدينة ومعهما جماعة من اهل الشر . ولم يلبث الوليد حتى رأى رسول امير المؤمنين يأمره بالمجيء اليه ، فخرج حتى اقبل الى مجلس عثمان وفيه وجوه الناس .

فقال عثمان للرجلين : بم تشهدان ؟ أتشهدان انكما رأيتماه يشرب الخمر .

فخافا .. ثم قالا : لا . !

– وماذا اذن ؟

– دخلنا عليه وهو يقيء الخمر وهذا خاتمه اخذناه وهو سكران .

قال : ما يقيء الخمر الا شاربها ...

فقال الوليد : يا امير المؤمنين انشدك الله فوالله انهما لخصمان .

قال: لا يضرّك ذلك فانما نعمل بما ينتهي الينا فمن ظلم الينا فالله وليّ انتقامه، ومن ظُلم فالله وليّ جزائه .

واومأ الى سعيد بن العاص قائلاً : اجلده .

فجلده سعيد ، ونشأت منذ ذلك الحين عداوة بين اهل الاثنين ، ثم قال الخليفة : لقد عزلناك يا ابن عقبة وولينا سعيداً .

قال : افعل ما يطيب لك يا امير المؤمنين . فصرفهم ، وصدر الوليد يغلي ، والمتآمرون يحيطون بسعيد بن العاص ويتملقونه وقد بدأوا يحرقون البخور . وخرج سعيد يريد الكوفة وهم معه ، فلما انتهوا اليها صعد سعيد المنبر فحمدالله ثم قال : والله لقد بعثت اليكم وانا كاره، ولكني لم اجد بداً اذا أُمرت .. الا ان الفتنة قد اطلعت عينيها ووالله لأضربن وجهها حتى اقمعها . ونزل وجعل يسأل عن اهل الكوفة حتى عرف ما أراد ان يعرفه فكتب الى عثمان يقول : ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم فلا ينظر فيهم الى ذي شرف او بلاء ..

فأجابه عثمان اما بعد ففضّل اهل السابقة ممن فتح الله عليهم البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، الا ان يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به ، واحفظ لكل واحد منزلته واعطهم جميعهم بقسطهم من الحق ، فأرسل سعيد الى وجوه الناس من اهل الفتح فقال : انتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبيء الجسد.. فأبلغونا ذي الحاجة لننظر فيها على ما يريد العدل ويريد امير المؤمنين، فارتفعت الاصوات تسفّه هذا الرأي وكأنما الكوفة كانت يبساً شملته نار ... فلم يستطع الوالي الا ان يشاور مولاه فيما رآه. وكان عثمان ينتظر اخباره فلما اتاه كتابه ، نادى مناديه : الصلاة جامعة .

فاجتمع القوم ، فخبرهم بالذي كتبه الى سعيد ، وبالذي كتبه سعيد اليه ، فقالوا له : اصبت فــلا تسعف أهــل الكوفة ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل فانه اذا نهض في الامور من ليس اهلاً لها افسدها.. فقال: يا اهل المدينة: استعدوا واستمسكوا فقد دبت اليكم الفتن ، وقــد صدق الخليفة ، فــان الناس كانوا يتمخضون بالفتنة ، وتلك هي أصابعها في الكوفة . .

واما الشام فكان قد قدمها رجل يدعى ابن السوداء ، وكان رجلاً مقيماً بها يدعى ابا ذر؛ فلقيه ابن السوداء يوماً فقال : ألا تعجب لمعاوية يقول : المال مال الله ، الا ان كل شيء لله ، كأنه يريد ان يحتفظ بــه ويمحو اسم المسلمين ؟! فاتاه ابو ذر فقال : ايها الامير ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟

فقال معاوية : يرحمك الله يا اباذرّ ، السنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والامر أمره؟؟ قال بلى ولكن لا تقل ذلك فان الناس يظنون أنك تستأثر بمالهم ولا تريد ان تعطيهم نصيبهم منه .

قال : سأقول انه مال المسلمين ولكن لا اقول انه ليس لله . .

فخرج أبو ذرّ وطاف في دمشق وجعل يقول : يا معشر الاغنياء ، احسنوا الى الفقراء « بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم» . وما زال حتى ولــع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الاغنياء ، وحتى شكا الاغنياء مــا يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان : ان ابا ذرّ يفسد على المسلمين في الشام امرهم وقــد فعل مـــا نكرهه ويكرهه أمير المؤمنين ... وقصّ عليه حكايته ... وامير المؤمنين لا يرى امام عينيه الا الفتنة، فأجابه قائلاً: لم يبق الاان تشب الفتنة.. جهز ابا ذرّ اليّ وابعث معه دليلا ، وزوده وارفق به وكفكف الناس مـــا استطعت. فبعث به ومعه دليل فلما قدم المدينة وراى المجالس في موضع يقال له سلع قال لدليله : بشر اهل المدينة بغارة شعواء .

ثم دخل على عثمان ، فقال : يا أبا ذرّ ما لأهل الشام يشكونك اليّ ؟

فقال : لا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً .

قال : عليّ أن اقضي ما عليّ واخذ ما على الرعية ولا أكرههم على الزهد .

قال : فتأذن لي في الخروج فان المدينة ليست لي بدار ؟

قال : او تستبدل بها الا شراً منها ؟

قال : أمرني رسول الله ان أخرج منها اذا بلغ البناء موضع سلع .

– افعل ما أمرك به .

فخرج حتى نزل الربذة فخط بها مسجداً واقطعه عثمان طائفة من الابل واعطاه مملوكين وأوصاه بأن يزور المدينة من حين الى آخر حتى لايرتدّ اعرابياً. وتحدث الناس في الشام بما فعله معاوية وعثمان ، وغنى كل فريق على ليلاه ... وكانت نفوس القوم تتهيأ للثورة ..

* * *

لقد بعثت اليك بحذيفة بن اليمان ، وناس من اصحاب رسول الله والحسن والحسين ولدي عليّ وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر الخطاب، وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن الزبير ، فاغزُ بهم وبجيشك اهل خراسان ، واخمد النار التي امتدت السنتها في ذلك الاقليم الذي لا يعرف ان يطيع .. هذا ما كتبه امير المؤمنين الى سعيد بن العاص . وكتب الى عبدالله بن عامر : اما بعد فاذا أتاك كتابي فاجعل من تشاء من الرجال خليفة لك على البصرة واخرج غازياً فان القوم في خراسان لا يخضعهم الا السيف . فانصرف الواليان مع جيشيها ، هذا خرج من ناحية البصرة والآخر من ناحية الكوفة ، وهما واثقان بان يد يزدجرد ، في هذا العصيان . وسبق عبدالله سعيداً فنزل مدينة أبو شهر ، ثم جاء سعيد فنزل قومس ، ولم يلبث ذلك القطر الكبير حتى دان بعد قتال وصلح للمسلمين . وعرف ابن عامر ان يزدجرد مرّ من جور ، فوجه في أثره مجاشع بن مسعود السلمي ، على رأس جيش صغير ، ولكن فاجأه الثلج والبرد ، فضيع ذلك الأثر بين جور وكرمان . ونجا يزدجرد هذه المرة من السيف كما نجا من قبل ، فأوصى عبدالله بن عامر قواد الاقطار بان يحذروه ويجعلوا عيونهم في كل بلد ، ثم رجع ورجع سعيد بن العاص بعد ان استقام الامر لهما ..

* * *

كان الأحنف بن قيس ، مع مجاشع بن مسعود يبحثان عن الملك ، فلما ضيّعا أثره ، عاد الاحنف الى مرو الروذ ، وامر رجاله بالتفتيش عن ذلك الأثر ، في الارض ، وفي الفضـاء .. وكان قد بلغه ان سنجان ، عامله على مرو الاخرى ، من انصار يزدجرد وان الرسل تروح وتجيء بين الاثنين . فهمّ بأن ينحيه ، ويختار له رجلاً آخر من اهل فارس يقيم على الولاء ويحفظ العهد. وقد شاور في ذلك اخاه عبدالله ، فوعده بان ينظر في امر الرجل عند الصباح . وكان شهريار وماهويه وابنه براز قد انتهوا الى مرو في مساء ذلك اليوم . ولشهريار اصدقاء كثار فيها ، ينزل بينهم كأنه احدهم وهم يظنون انه عربي .

فلما انقضى ذلك الليل خرج الثلاثة يريدون منزل الاحنف، وبباب الاحنف طوائف من العرب والفرس ، فقـال شهريار لأحد الغلمان : أنستطيع ان نرى الامير الساعة ؟

– انه ينظر الان في حاجات الناس فارجعوا بعد قليل .

فجعلوا يطوفون حول المنزل وفيالفناء حتى انصرف القوم، فاقبلوا ودخلوا، وعند الاحنف طارق ابن اخيه . وطارق افصح فتيان العرب لساناً وأحسنهم وجهاً .

فقال الاحنف : عربي وأمير من امراء الفرس .. وقد يكون هذا من ولده وأشار الى براز .

ثم قال : من انتم ؟

فقال شهريار : نحن كما ذكرت .. عربي وفارسيان .

– وما هي حاجتكم ؟

– لي حاجة اذكرها للامير وحده اذا شاء .

– إذن كان عليك ان تدخل قبل هذين .. اخرج يا طارق مع الرجلين الى الرواق ولا تنصرف .. فخرج الثلاثة فقال : والان ، من انت ؟

ـ اني فارسي الاصل يا مولاي ولكني مسلم .
ـ عرفت من كلامك انك فارسي وأين تقيم ؟
ـ على شاطيء المرغاب بين المروين .
ـ وهل خسرت يدك في الاسلام ؟
ـ لا يا مولاي بل خسرتها في القادسية وأنا مع رستم .
ـ اذكر الآن ما قدمت لاجله .
قال : أعرف اخاك الامير عبدالله .
ـ ومتى عرفته ؟
ـ يوم فتح المسلمون حلوان .
ـ وكنت فيها مع قومك ؟
ـ بل كنت مع الملك الذي فرّ منها قبل الفتح .
ـ اذن أنت من رجال يزدجرد .
ـ نعم يا مولاي لقد كنت من رجاله ومن المقرّبين اليه .
ـ وكيف بقيت في حلوان ؟
ـ كانت زوجتي تصارع فيها الموت يوم هرب الملك .
ـ ثم ماتت ؟
ـ أجل وقد اوصتني بان اعتنق الاسلام وبان أجعل طفلتها مسلمة .
قال : ارى ان لهذه الوصية سراً اردت ان تقابلني الان لتذكره لي .
قال: ان هنالك سراً كما تقول، ولكني لا أبوح لك به اليوم لاني لست قادراً على ذلك .
ـ ولكن لماذا قدمت ؟
ـ لأرى الأمير عبدالله واسألك ان تنظر في أمر ذلك الفارسي الذي جعلته عاملاً لك على مرو .
ـ سنجان ؟ ـ نعم سنجان نفسه !
ـ وأي امر من اموره أنظر فيه ؟
ـ امر خيانته فهو يخدع العرب !

فاستوى الاحنف جالساً وجعل يقول : اني لا أسمع عن هؤلاء الفرس غير أخبار الخداع .. أعد قولك ايها الرجل .

– قلت ان عامل مرو يخدع العرب يا مولاي .

– وكيف عرفت ذلك ؟

– خبرني به بعض قومه .

قال : احذر فخبرك هذا تهرق له الدماء . فاجابه وهو هادىء: أعرف ذلك وانما أردت ان اقصّه عليك قبل أن يهرق دم رجل واحد من رجال المسلمين .

قال : قل الآن ما تعلم !

قال : لقد وضع سنجان يده في يد يزدجرد !!

– وهل رآه ؟

– لا ولكنه رأى رجاله الذين يوغرون الصدور من وراء الستار ..

– وعاهدهم على ان يخون العرب ؟

– بل عاهدهم على ان يضرم النار حتى تحرق المروين ويمتد لهيبها الى ما وراء طوس ونيسابور !!

– إذن هي ثورة اخرى يسعر نارها الملك !

– نعم، وقد رأى هذا الملك، بفضل سنجان ، رجالاً يطيب لهم ان يشهروا السيف ، في وجه كل عربي .

– وأي موقف يقفه وجوه اهل مرو ؟

– أظن انهم يرغبون فيما يرغب فيه ملكهم اللعين !..

– تظن ؟.. وهل تكون القضية قضية ظنون ؟

– لا يا مولاي ولكني لا أستطيع ان اثبت لك ما لا أعلم ... اني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الوجوه الذين ذكرت .

– ومن يعلم ذلك ؟

– الرجل الذي خبّرني بما يفعله المتآمرون ..

– وأين هو ؟

– في الرواق مع طارق ابن اخيك .

– هذا الفارسي ؟ – نعم !

– إذن نسأله عن كل شيء وهو يجيب عما نسأل .

– وهل تريد ان أدعوه ؟

فأطرق الاحنف يفكر فيما سمع وقد غاص في لجة من الظنون .. في كل يوم حرب تبتلع الرجال وتقضي على ازاهير الشباب العربي ! ومن هو هذا الفارسي المسلم الذي يحمل اليه بشرى الثورة ، ويصف له خيانة سنجان الذي سوّدته العرب وجعلته سيّد قومه ؟

– إنه من اهل فارس، ولكنه يلبس العمامة ويقول انه من المسلمين .. وهو يعرف عبدالله وقد أتى مرو الروذ ليراه .

وكان الاحنف هادئاً صاحب رأي ، فهو لا يستعجل اموره ولا يمضي في واحد منها الا بعد ان يشاور فيه . فنادى غلامه قائلاً : قل لأخي عبدالله ان يجيء .

وبينا الغلام يهمّ بالانصراف ، دخل عبدالله بن قيس ، يجرّ عباءته وفي يده اليسرى جرح لم يبرأ ، فقال الاحنف : لقد جئت قبل ان ادعوك ... اجلس . فجلس وهو ينظر الى شهريار كأنه يعرفه ، ثم قال : يخيل اليّ اني رايت هذا الوجه من قبل .

قال : اردت ان ادعوك لاجل هذه الغاية ... تفرّس فيه واذكر ماضيك فقد تعرف من هو .

قال : اما اني رايت هذا الوجه فنعم .. واما اني اذكر اسمه ، فلا ... اني نسيت الزمان الذي رايت فيه الرجل ونسيت اسمه ..

– لعلك رايته في المدائن ..

– لا اذكر ذلك ..

– ام في جلولاء ..

– ولا اذكر اني رايته فيها .

قال : الم تخرج من جلولاء الى خانقين مع القعقاع بن عمرو ؟

– بلى !

– والى اي بلدٍ ذهبت بعد خانقين ؟

– الى حلوان .

– وبعد ذلك ؟

– الى الكوفة .

– ثم خرجت من الكوفة طائفاً معي في بلاد فارس ولم تره بعد ذلك ..

قال : يكفي اني رأيته .

– اما انا فلا يكفيني هـــذا ... لنفرض انك رأيته في احد الميادين يقاتل قومـك .

قال : العربي لا يقاتل أخاه ..

– ولكنه فارسي وقد صار مسلماً .

فوضع يده على جبينه يستعرض وجوه القوم ، فخانته الذاكرة ولم يعلم شيئاً.

فقال شهريار للاحنف : أيأذن لي مولاي في الكلام الآن ؟

– اجل ولكني سأضرب عنقك اذا كنت كاذباً .

قال رضيت ، ثم قال لعبدالله :

ألا تذكر ايها الامير ، طفلة في حلوان، اخذتها انا بين ذراعي، والقيتها انت بين يدي أم عامر لترضعها عامين ؟!

فوثب قائلاً: اي والله لقد ذكرت..ووالله لقد انستني الحروب اهلي وقومي.. انك .. شهريار .. الخراساني ..

– نعم شهريار، وقد خرجت معك من حلوان الى الكوفة وكنت في منزلك كأني من قومك حتى انصرفت انت الى خراسان ..

فقال لأخيه : صدق والله فهو شهريار .. وانه مسلم .. وله سر لم يبح به لي في ذلك الزمان .

قــال : لقد فتحت حلوان في السنة السادسة عشرة ونحن اليوم في السنة الثلاثــين .

– نعم وقد مرّ على اسلامه أربعة عشر عاماً .. وقد ذكرت الآن ان سره لا يبوح به الا في السنة الخامسة عشرة من عمر ابنته .

ثم قال : وهو يبغض يزدجرد الملك بغضاً لا يخطر لعربي .. أرأيت طارقاً يا شهريار . انه اليوم في عامه التاسع عشر .

– رأيته الساعة في هذه القاعة وقد امره الامير بالخروج مع فـارسين قدما معي امس وهما ينتظران الاذن في الدخول .

– وأين فتاتك ؟ – في منزل لي بين المروين .

– وهل نسيت ان لها في مرو الروذ أماً تريد ان تراها ؟

– ما نسيت شيئاً ايها الأمير وسأحمل ابنتي اليها عندما تشاء .

قال : لقد كانت فتانة في عينيهـا سحر ... ماذا تريد الآن ومن هما هذان الفارسيـان ؟

فقال الاحنف : جاء ينقل الينا نبأ الحرب !

قال : ان سيوف العرب لم تترك في هذا القطر حرباً .

– ولكنها حرب اخرى يتهيأ لها يزدجرد واعوانه ..

– من هم هؤلاء الأعوان ؟

– عاملنا على مرو ومن حوله من الرجال !

– انت يا شهريار تقول هذا ؟

– نعم ، ولو لم يكن يزدجرد حياً لآثرت الموت على البقاء .

فاستغرب الاحنف قائلاً : إذن فحياتك هي للملك !

– نعم يا مولاي !!

– وتعيش من اجله ؟

– أعيش من اجل غاية واحدة هي ان اشيعه الى القبر !!

فقال عبدالله : انها نغمة سمعتها في حلوان وفي الكوفة ، ومن قـال لك ان يزدجرد يتهيأ للحرب ؟

– ماهويه ، احد قواد الفرس الذين فرّوا يوم أغواث .

– وهل تثق بقوله ؟

– اثق بكل رجل فارسي لا يحب ملكه ..!

فقال لأخيه : ذلك رأيك فانظر فيما تصنع ..

قال : اسألك سؤالاً يا عبدالله ، أتثق انت بهذا الرجل ؟

– كما أثق بك .

قال : لقد كان صادقاً يوم تركته في الكوفة ، ولكن مرّ على ذلك اثنتا عشرة سنة ينقلب المرء في خلالها من حال الى حال ..

قال : ان الايام تزيد شهريار وفاءً واخلاصاً ..

– وتضمن ذلك ؟ – اجل !

– قم فادعُ إذن طارقاً ورفيقيه فقد وثقنا بصاحبك .

ودخل طارق وراءه الرجلان ، فقال له أبوه : ألم تقل لك أم عامر انها أرضعت في حلوان والكوفة طفلة فارسية لها عينان ساحرتان ووجه هو آية الجمال ؟ – بلى !

قال : هذا ابوها والفتاة على شاطىء المرغاب . وكان قد قصّ عليه ، من زمن طويل حكاية الرجل وطفلته .

فصافحه طارق وهو يقول : مرحباً فأنت عربي.. وخاطب الاحنف ماهويه قائلاً : خبرنا هذا الرجل بما يعلمه عن خيانة سنجان عامل مرو ، ولكن لا يعلم الاشياء التي تعلمه انت ، فهل نسألك ؟

– سل عما تشاء يا مولاي !

قال : تدّبر امرك قبل ان تبدأ فالاحنف بن قيس لا يصبر على الأكاذيب ..

– وأنا أقسم لمولاي اني سأروي له ما سمعت دون ان أزيد كلمة .

قال : أكنت من قواد الفرس في القادسية ؟

– نعم !

– ولماذا تركت الحرب اليوم وقومك يسعرون نارها في كل مكان ؟

– لانها حرب يعقبها الفناء ولو كنت ملكاً كما هو يزدجرد، لخضعت للعرب الخضوع الذي لا رياء فيه وحقنت دماء الناس ..

قال : ان لك لرأياً ، أتعرف سنجان كما يعرفه الذين حوله ؟

– انه ابن أخي يا مولاي !

– ابن أخيك ؟.. وأين كنت أنت يوم وليناه ؟

– كنت في مرو، ولكني رأيت الخونة من أهلها يحيطون بك وهم يتظاهرون بالاخلاص للعرب ، فآثرت الاحتجاب على الظهور .

– وماذا يصنع سنجان اليوم ؟

– يحمل اليه الرسل ذهب الملك واخباره .

– وتعرف هؤلاء ؟ – لا ، ولكنهم من رجال البلاط .

– وكيف انتهى اليك ذلك ؟

– خبرني به حاجب من حجـاب سنجان وكان يقول لي : لقد ملأ سنجان بيته مالاً وستشعل النار . .

قال : أتعلم يا ماهويه ما هو جزاء الكاذب النمّام ؟

– أرضى بأن يكون جزائي الموت يا مولاي اذا كنت كاذباً .

– بل نقطع لسانك ونقول للعرب والفرس : هذا ما يفعله القائد العربي مع الذين يهزأون به. – واذا رأيت اني لم أكذب ؟

– اعطيك ما تشاء واجعلك من أهل المشورة في هذا الاقليم .

فقال شهريار: ألا ترى يا مولاي ان تجعله عاملاً على مرو؟ فالتفت الى أخيه عبدالله كأنه يسأله رأيه؛ فقال: ان شهريار لا ينصح لك الا بما فيه خير العرب.. عده بالولاية . .

– نعده بذلك ولكن نشترط أن يبقى في ضيافتنا الآن .

– ومتى تأذن له في الرجوع ؟

– بعد أن يجيء سنجان وحاجبه ونسمع اعترافهما. ما هو اسم ذلك الحاجب يا ماهويه ؟ – بزرشير ؟

– ورضيت بالبقاء ريثما يجيء هو ومولاه ؟

– نعم يا مولاي ! – وأنت يا شهريار ؟

– ليس لي الا أن أفعل ما تأمرني به .

فسكت الاحنف قليلاً ثم قال : تركب الساعة يا طارق مع أربعة رجال من قومنا وتذهب الى مرو الشاهجان .

– وماذا أصنع ؟ – تأمر سنجان وبزرجير بالمجيء .

– اذا دعوت سنجان ، عرف ان للامير حـاجة اليه هي حاجة الوالي الى مشاورة عماله في أمر عرض له ؛ ولكنه سيستغرب امر حاجبه وسيسألني عن السبب الذي يدعوك الى طلبه .

– ليس له أن يسألك عن أمرٍ لنا رغبة فيه ولكن لا تذكر له ماهويه ولا تقل انه في مرو الروذ .. قم فانصرف ولا تقبل عذراً للرجل .

وقال لعبدالله : اما انت يا عبدالله فهؤلاء الثلاثة في ضيافتك حتى ننظر في الامر .

ثم جعل يهامسه قائلاً: يخيل اليّ ان هذا الفارسي الذي يسعى بابن أخيه صادق في روايته . – وأنا أرى ما تراه .

– وانه من الرجال الذين يجب ان نثق بهم .

اني لا أعرفه ولكني واثق بشهريار وستلمس بيدك صدق الرجل .

وقال للقوم : أبقي لكم ما تقولونه ؟

قال : لم يبق الا ان تتبين الأمر الذي خبرناك به .

فقام فخرج من باب صغير ينتهي الى دار النساء وانصرف الآخرون من باب الرواق وعبدالله يقول لولده: لا تنسَ يا بني ان لك بين المروين منزلاً تأوي اليه.

وهو يعني منزل شهريار ، ثم قال : من في المنزل من القوم يا شهريار ؟

– ابنتي ، وشيخ عربي مع زوجته ، وعبدان من عبيد فـارس جميعهم خدم اليتيمة .

– ويقبلون طارقاً بين أضيافهم ؟

– كلنا عبيد لطارق وأبيه ..

فابتسم ابتسامة الشكر ، ثم ضم ولده الى صدره قـائلاً له : اركب الآن واستعن بالله على قضاء أمرك ..

فانصرف الفتى ومشوا هم يطوفون في السوق ومعهم عبدالله .

* * *

مـا لجأت الى هذا المـنزل يا سنان لأقضي فيه الليل مع اضيافك ثم انصرف عند الصباح .

وسنان هو ذلك الشيخ الذي ذكرناه لك ...

فقال : ولماذا جئت اذن ؟

ـ لأرى فيه ابنة شهريار التي يقال لها اليتيمة ..

ـ إن مولاتي لا تقابل أحداً وأبوها غير موجود .

ـ ولكن أتعرف من أنا ؟

ـ كن من شئت فأنا لا ابالي ..

قال : اني ابن أخي الاحنف .

فجعل يتفرس فيه ، ثم وضع يده على جبينه كأنه يفكر فيما سمع، ثم قال : ذلك امر لا استطيعه ولو كنت الاحنف نفسه !

قال : ممن أنت ؟ ـ من بني أسد .

ـ ألم يذكر لك شهريار ، فيما مضى ، رجلاً يدعى عبدالله بن قيس .

ـ بلى ذكره لي ولعبدالله فضل عليه .

ـ اذن فاعلم اني ابنه واسمي طارق .

فهمّ بان يعانقه ثم تراجع قائلاً : من اين انت قادم ؟

ـ من مرو الروذ .

ـ ومن رأيت فيها ؟

قال : لقد عرفت الغاية من سؤالك ، تريد أن تسأل عن شهريار .

ـ أجل ، وهل رأيته ؟

ـ نعم ورأيت ماهويه وولده والثلاثة ضيوف على ابي ، عبدالله .

ـ إذن كان شهريار يعلم انك ستجيء .

ـ بل كان يعلم اني سأقضي في الرواح والمجيء ، ليلتين في منزله .

فوثب قائلاً : والله ما كنت لامنع عبدالله مما يريد .. سأدعو مولاتي الساعة على ان يبقى رجالك في الفناء .

وكانت اليتيمة مع عمرة في حجرتها ، فدخل سنان فقال : ألم تكن مرضع مولاتي زوجة لعبدالله بن قيس شقيق الاحنف ؟

– بلى ، وهذا ما يقوله أبي .

– واذكر انه كان يقول ، ان لعبدالله ولداً يدعى طارقاً .

– اجل !

– اذن فاعلمي ان طارقاً في دار الاضياف .. وقد رأى اباك في مرو الروز وهو في ضيافة ابيه ؟

– ومتى قدم ؟

– قبـل غروب الشمس ومعه اربعة فتيان من قومه وهو يعرف الماضي كما نعرفه نحن ويريد ان يراك الآن ؟

فنهضت قائلة : اما انا فليس هنالك شيء احب اليّ من ان اراه .

ومشت وراءه وليس على وجهها حجاب ، فلما اقبلت رأى طـــارق عينين فاترتين ، وثغراً جذاباً ، وجمالا ساحراً يدنو منه .

ثم سمع صوتاً عذباً يقول له : اهلاً بالامير ! ومدت اليه يـدها وهي تبتسم ابتسامة الفرح ، ولكن شفتيها كانتا ترتجفان . فصافحها الفتى وهـو يتفرّس في ذلك الجمال . ثم احسّ ان جمالها ملأ نفسه بهجة وقلبه غراماً . في تلك اللحظة ، عرف الفتى ما هو الحب ، وشعرت هي بعاطفة جديـدة خفق لها القلب . لقد فاجأ الغرام الاثنين دون ان يفكرا فيه ، ودون ان يمهدا اسبابه . وقد اضطربت اليدان ، وهما يتصافحان . وكأن طارقاً ادرك انـه سيفضح نفسه فقال : لم أشأ أن أمر بهذا الشاطىء دون ان ارى وجه الطفلة التي أرضعتها أم عامر زوجة أبي

قالت : لو لم يكن هذا الوجه شؤماً لما مدّ الموت يده الى امي عندما خرجت الى هذا العالم. خبرني سنان ان ابي ضيف على أبيك في مرو الروذ .

– نعم ! – ومتى يجيء ؟

– بعد أن أعود انا من مرو الشاهجان .

– اذن سيغيب بضعة ايام احسّ في خلالها بالوحشة القاتلة .

قال : تستطيعين ان تلحقي به ثم تعودين معه .

قالت : لا أستطيع ان افعل بدون اذنه .

– وام عامر ؟ – اين هي ام عامر اليوم ؟

– مع ابي وهي تريد ان ترى طفلتها الحسناء .

– سأسأل ابي عندما يعود ، ان يأذن لي في الذهاب لأرى أمي .

– اني اضمن رضاه اذا أردت الذهاب اليوم .

فابتسمت قائلة : ليس للفتاة العربية ان تخرج من منزلها مع احد من الناس دون ان يكون لأبيها رأي في ذلك .

والتفتت الى سنان وهي تقول : أليس كذلك يا سنان ؟

قال : اذا خطر لك ان تزوري ام عامر فاصبري حتى يعود مولاي .

وسمع عندئذٍ من الخارج صوت عمرة تنادي زوجها ، فخرج سنان لينظر في امر الاضياف . والتقى النظران بعد خروجه ، بفتور وهدوء وقد اطلّت من العيون عواطف القلبين وظهرت على الشفاه ابتسامة فياضة بالحب . وكان طارق من فتيان الميادين فهو لا يعلم أي شيء هو هذا الشعور الذي أحسّ به ! بلى ، كان يعلم انه نور استضاءت به نفسه ، وانه لذة تغمر احساسه . وقد ظن ان الحب حرب ، وان من الجرأة ان يخوض المجال ، فقال : ألا تخرجين معي الى مرو الروذ وانا طارق بن عبدالله ؟

قالت : لقد علمني ابي ان اؤثر البقاء في المنزل على الخروج منه !

– وماذا تخشين ؟

– اما انا فلا اخشى شيئاً ، ولكن أبي .

– وماذا يخشى أبوك ؟

– كان يقول انه هؤلاء الرجال الذين يشبهون الذئاب !

ولكني لست ذئباً كما تريدين ، ويطيب لي ان ارى ابي في مرو الروذ واقول له : هذه هي الطفلة التي أرضعتها زوجتك !

قالت : سنفعل غدا ما لا نستطيع ان نفعله اليوم .

قال : اريد ان اعلم اي شيء يدعو اباك الى الخوف .

– تقدر ان تسأله عن ذلك بعد رجوعك .

قال : ان الارض بين المروين هي لنا وليس هنالك فارمي يستطيع ان يمد الينا يد سوء .

– ومع ذلك فأنا لا اخرج الا اذا أذن لي .

قال : ظننت ، وقد عرفتِ من انا ، انك تثقين بي .

– ان في الامر خروجا عن الطاعة وهذا ما لا اقدر عليه .

ثم ارادت ، وهي الفتاة التي لم تختبر الرجال ، ان تسمع من فمه كلمة يتنفس معها القلب الذي تتأجج فيه النار . وكان هو بدوره يحاول ان يسمع تلك الكلمة على انها كانت اسبق منه ، فقالت ما هي مهمتك في مرو الشاهجان ؟

– حاجة اقضيها لعمي الاحنف .

– وما هي هذه الحاجة ؟

– آمر عامله الفارسي بالذهاب الى مرو الاخرى وهذا ما يريده ابوكِ شهريار؟

أبي ؟

نعم فقد خبر الأحنف بان عامله الذي ذكرت يخون العرب وهو يريد ان يحمل رفيقه ماهويه عاملاً على مرو !

– وهل يسمع له الاحنف ، ويفعل ما يقوله له ؟

– لا تنسي ان ابي ، هو الذي يحمل اخاه على الاصغاء الى ما يقوله ابو اليتيمة .

قالت : ان لأبي سرّاً ، وهو يطوف في البلاد ، من حين الى آخر ، دون ان أعلم شيئاً عن هذا السر ، متى تذهب انت ؟

– كان قد خطر لي ، عندما لجأت الى هذا المنزل ، ان اقضي فيه الليل ثم انصرف عند الصباح .

– والآن ؟

– اما الان فسأمكث يوماً آخر او يومين !

فاضطربت قائلة : وهل يرضى عمك الاحنف بان تبقى ؟

– ان عمي لا يخاف عليَّ الرجال الذين يشبهون الذئب .

– ولكنه يريد ان تتعجل في قضاء حاجته .

– وانا اريد امراً آخر لا يريده هو .

قالت : انه اميرك وليس لك الا ان تطيعه .

قال : رأيت الآن ان لي آمراً آخر لا استطيع الا ان اخضع له .

قالت : من هو ؟

فخفض صوته قائلاً : هو هذا !

ووضع يده على قلبه !

فازداد اضطرابها وقالت : أيأمرك بان تعصي عامل امير المؤمنين ؟

- بل يأمرني بان اعصي العالم كله واقيم بهذ المنزل ما طابت الاقامة لي .

قالت : خير لي ولك ان تنصرف غداً على ان تعود فتمكث يوماً آخر .

قال : أتطردينني وانا ضيف ؟

- لو أقمت بيننا العمر كله لما خطر لي ان افعل ، ولكني اكره ان يقال غداً انك نسيت الامر الذي ارسلك الاحنف من اجله .

فرفع رأسه قائلاً : قولي لي اي عربي يمر بهذا المنزل ولا ينسى نفسه ؟!

قالت : انك اخي فلا تهزأ بي

قال : اقسم بمن اعطانا ارض فـــارس اني لا اهزأ . لقد كنت منذ لحظة ، اخجل من الاعتراف بما أحسست به . اما الان فلا اخجل من شيء ولا افكر الا في هذه العاطفة التي تتردد في الصدر . اني احببت الطفلة التي وصفت لي وأمسيت اسير هذا الحب . !

فتمتمت قائلة : اعجب لهذا الحب يخلق في لحظة .

- قولي ما تشائين فأنا لا ابالي، ولكن احذري ان تستخفي بحبي الذي بحت به.

قالت : اتحب فتاة في الرابعة عشرة وهي لا تعرف من هذه الحياة غـــير المنزل والفناء ؟

قال : لو كان الامر في يدي لما احببت احداً ولكن يظهر ان هـذه العاطفة التي يسمونها حباً ، لا تعبأ بمثل ما تقولين .

قالت : اخشى ان تندم بعد قليل على ما اعترفت به .

- لماذا ؟

– لانك من امراء العرب واشرافهم وانا من عامة الفرس ، وليس لأبي اهل في خراسان .

– ولكني احببت الفتاة ولم احبّ شرف قومها .

– وعادة العرب ؟

ان للعرب عادات كثيرة فأيها تعنين ؟

– تلك التي لا تجيز للنبلاء ان يتزوجوا الا بنات النبلاء .

قال : لا اهتمّ لعادة أشقى معها الى الابد .

– ولكن اباك يهتم لها وقد لا يرضى بأن تزف اليك فتاة من غير قومه .

قال : لا تنسي انك ابنة زوجته بالرضاع .

– ان أمر الرضاع فعل من افعال الرحمة لا صلة له بما نذكره الآن .

قال : سيرضى ابي بما ارضى انا به .

– إذن يبقى هنالك رجل آخر نحتاج الى رضاه ، هو ابي شهريار !

قال : يخيل اليّ ان هذا الحب سيضيع بين رضى الابوين . ومـا الذي يمنع شهريار من الرضى ، وهو يذكر فضل ام عامر واخلاص عبدالله ؟

لا أعلم ، انه رجل يكتنفه الهمّ فهو لا يبتسم الا اذا نظرت اليه ، ولا يعرف الهدوء في مكان الا اذا نهكته الاسفار .

– وكيف لا تسألينه عن ذلك ؟

– لي في كل يوم سؤال اوجهه اليه .

– وبماذا يجيب ؟ – بكلمة لا تتغير ولا يقول سواها !

اذكريها لي .

– يقول : لي سرّ ستعرفينه عندما تأتي ساعته .

وبكت اليتيمة ... فقد اتعبها سر ابيها وهي لا تجد سبيلاً الى استخراجه من صدره .

قال : سألتمس من ابي ان يسأله عن سره وانا ارى انه لا يكتمه اياه ..

قالت : اخشى ان تمر الايام وهو غائص في لجة الاسرار .. ثم قالت : اظن انك لا تقيم بمرو غير يوم واحد .

– بل يطيب لي ان ارجع مع عاملها في اليوم الذي أراه فيه .
– وتعود على طريق الشاطىء ؟
– أجل فليس لي طريق سواه وقد لا أمرُّ بهذا المنزل .
فاصفرَّ وجهها قائلة : وهل ندمت على ما ظهر منك فيه ؟
– لا ولكني اخشى ان اسيء الى صاحبته ..
– لم أسمع من قبل ان الأخ يسيء الى اخته اذا هو زارها كل يوم .
– وانا لم اسمع ان الاخت تطرد اخاها وتأمره بالانصراف ..
قالت : فعلت ذلك لان عمك يريد أن تتعجل في الرجوع .
– وهذا معناه انك لا تريدين أن أعود .
– بل أريد ذلك وأطلبه الآن ..
– وان لم أفعل ؟
– إن لم تفعل قضيت الزمان كله وأنا اذكر هذا اللقاء القصير العمر ...
فأشرق وجهه وقال : اذن فأنت تشعرين بما أشعر به ..
قالت : صف لي هذا الشعور الذي ذكرت .
– لا استطيع ان اصفه الا بكلمة واحدة هي .. الحب !! وقد اعترفت لك به وانتهى الامر .

فحنت رأسها ولم تجب بجواب، فقال : لقد كنت صريحاً وجريئاً في كل ما أفعل ، قولي .. أتحبينني ؟

فترددت قليلاً ثم قالت : يكفي ان تعلم اني أريد ان ترجع ..
– اما انا فتكفيني كلمة اخرى تقولينها لي .
قالت : لا أعلم .. !!
– بل تعلمين كما علمت، واني لا أخرج من هذا المنزل الا بعد ان اسمع واحدة من كلمتين ، اما أن ترضي بي أو ترديني فارجع كما جئت .
قالت : أدعوك الى الصبر حتى انظر في الأمر ..
– وهل تريدين أن تشاوري أباك ؟
– أجل !

قال : ان العاطفة لا تخضع لاراء الآباء .

- ولكني ما تعودت ان ابغض واحب الا برأيه !!

قال : خير لك أن تقولي انك تحبين سواي !

قالت : لقد رأيت طائفة من فتيان العرب والفرس ولكني لم أحب أحداً

ثم رأت ان تمعن بالدلال فقالت :

أرأيت رجلاً عربياً يفعل ما فعلت انت ؟

- وماذا فعلت ؟

- نزلت ضيفاً علينا منذ ساعة .. ثم أمسيت عاشقاً .. وهذا ما لا تفعله العرب !

- ولكنها تفعل غير ذلك أتعلمين ماذا؟ يمرُّ العربي بحيّ من الاحياء لا يعرف اهله ، فيرى فتاة حسناء يخفق لها قلبه ، فيحملها على فرسه الى بلاد قومه دون أن يسأل احداً وقبل أن يبوح لها بالغرام !!

- ذلك شأن الصعاليك من الناس ..

- بل هو شأن المشاق في كل مكان وزمان ، وقد يعمد طارق بن عبدالله الى مثل هذا الامر ، بعد بضعة أيام !!

- انت ؟

- نعم انا ، احملك على فرسي الى مرو الروذ واقول لقومي :

هذه هي الفتاة التي اخترتها زوجة لي ..

واذا مثلت بين يدي الاحنف بن قيس وقلت له اني لا احب ابن اخيك ولا اريد ان ازف اليه ، فماذا تصنع ؟

- أغمد خنجري في صدرك ثم انزعه لأغمده في هذا القلب ..

قالت : انك ارفع من ان تذل قومك ..

- الفتى الذي يسحقه الحب ينسى قومه وانا احلف لك الآن اني سأفعل هذا ولو تصدّى لي امير المؤمنين نفسه !

- وكيف يطيب لك ان تقتل الفتاة التي أُحببت ؟

- كما يطيب لي ان اقتل نفسي !..

وقرأت الفتاة عزيمته الصادقة في عينيه ، فخفضت صوتهـا قائلة : إذن فاعلم اني أحببت الفتى الذي اعترف لي بهواه ، وسيذهب العمر ولا يذهب أثر هـذا الحب .. ارضيت الآن ؟ فغمر نور الفرح وجهه وتلعثم لسانه فلم يجب ... فمدت اليه يدها وجعلت تقول : قل يا طارق أأنت راض بما سمعت ؟

– بل اخشى ان يقتلني هذا الفرح الذي أحسست به ..

وجعل يتفرس في عينيها الساحرتين والبهجة تملأ نفسه ، وتانك العينان ترسلان السهام الى قلبه الخفاق .. ثم ارسلتا الدموع .. فقال :

اي شيء هو هذا البكاء الآن ؟

قالت : بكاء القلب العاشق ، والنفس المضطربة .. لقد ذكرت الآن امراً يضيق هذا الصدر كلما فكرت فيه ..

– وتكتمينني اياه ؟

– لا ، فهو سر ابي الذي ينغّص عليّ الحياة .

قال : سيبوح به لعمي الاحنف بعد ان اعود ؟

قالت : اخشى ان يحول هذا السر بيني وبين من احب !

فابتسم قائلاً : لا اظن ان في العالم قوة تفصل بين عاشقين .

قالت : من يعلم فقد يخلق الزمان ما لا نعلم فيختنق هذا الغرام .

قال : لا يخنقه الا الموت فاذا مات احدنا لحق به الآخر ..

وجعل يمازحها ويشرح لها هواه ، ويصف قومه ، حتى طابت نفسها . وكان الليل قد انقضى نصفه ، فأقبل سنان وعمرة، وسكت العاشقان ، ثم انصرف كل واحد منهم الى فراشه .. ولكن اليتيمة وطارقاً لم يغمض لها جفن ..

* * *

– ١٧ –

اين هو الفتى العربي الذي ذكرت ؟

– هو في الدهليز ومعه رجاله .

– وهل ذكر لك الامر الذي قدم من اجله ؟

– لا اظن ان الرجل من عامة الجيش .
– ومن هو إذن ؟
– يخيل اليّ انه من الامراء فدلائل الشرف على وجهه .

فنهض سنجان عن مقعده وقال للحاجب الذي يخاطبه: مره بالدخول وادعُ بزرشير .

فخرج الحاجب يقول لطارق : لقد اذن لك مولاي وهو في هذه القاعة .

فمشى الفتى ويده على قبضة سيفه حتى راى سنجان . وكان الحاجب الآخر بزرشير ، قد دخل من باب آخر ، فقال طارق : لقد ذكرت لحاجبك اني رسول الاحنف بن قيس .

وبرزشير ينقل كلامه بالفارسية الى مولاه ، فقال : اين رسالة الأمير ؟
– لم يسلم اليّ رسالة ولكني ابن اخيه وقد عهد اليّ في امر اقضيه له ..
– ما هو هذا الامر ؟
– هو ان تذهب الى مرو الروذ ..
فاضطرب قائلاً : وما هي الغاية من ذهابي اليها ؟
فرأى الفتى اضطرابه فقال : لم يأمرني الاحنف بأن اذكرها لك ..
– وهل تعرفها ؟
– اعرف بعضها ..
– إذن ارجو ان تقص عليّ حكاية هذا البعض ..
– ذلك سر من اسرار الامارة لا ابوح به ..
قال : سنحفظ سرّك فلا نفشه ..
– اذا لم تفعل ذلك انت ، فعله هذا الرجل .
– هذا حاجبي وهو لا يجسر على ذلك .
– ولكني اخاف ان يعرف الاحنف فيطردني من الجيش .
– اعدك بالكتمان واقسم لك .
قال : لي شرط ابوح بالسر اذا وفيت لي به .
قال : هات ..

– يذهب هذا الحاجب معك الى مرو الروذ، فاضمن بذلك سكوته، وله ان يقول ما يشاء بعد ان يراك الأمير !

– قبلت بشرطك وسيذهب .

وقد اراد طارق ان يمهد الاسباب لذهاب بزرشير دون ان يشعر سنجان، بان في الامر ما فيه . فقال : وترحل اليوم ؟

– افعل اذا لم يكن هنالك ما يمنعني من الرحيل .

قال : لقد انتهى الى الاحنف ان يزدجرد يسعّر النار بين نيسابور وطَوس..

فابتسم الفارسي ابتسامة الدهاء قائلاً : وهل يجسر الملك على الاقامة بين واليين من العرب ؟

– بل يجسر على الاقامة بالحجاز ما دام واثقاً بان رجاله يحجبونه عن العيون.

– ومن نقل الخبر الى الاحنف ؟

– قوم من العرب شعروا بوجود الملك ولكنهم لم يروه !

– اذن يريد الاحنف ان يبعث بي الى نيسابور لأقبض عليه ..

فتظاهر بالتفكير ثم قال : اريد ان اعترف لك بكل شيء وانا خائف .

– وكيف تخاف وقد وعدناك بالكتمان ؟

قال : ان الاحنف نفسه يهمّ بالذهاب الى البلد الذي ذكرت ..

– ليطارد يزدجرد ؟

– أجل ، وقد حلف لقومه انه لا يعود الى مرو الروذ الا اذا سقط يزدجرد في الشرك .

– ويسير وحده ؟

– لا ، فهو سيخرج على راس جيشه كما يخرج الى الحرب !

– ولماذا يدعوني اليه ؟

– ليشاورك في الامر ، ثم ليضم اليك مرو الروذ فتمسي عاملاً على المروين واقليم المروين ، اقليم واسع رحب ، اذا بسط سنجان ظله فوقه ، جمع ذهبه كله ، وكان نصف ملك . وهو انما يجمع المال، ليوقد النار .. فقال وقلبه يرقص من الفرح : وهل سمعت عمك يقول لقومه ما ذكرته لي ؟

– سمعته يقول ذلك لأركان حربه وبينهم ابي ، عبدالله بن قيس ..

وكان بزرشير اللعين مطرقاً ، وعيناه تلمعان .. لقد ايقن في تلك الساعة ، بان ماهويه الذي خرج سراً من مرو الشاهجان ، بلـغ غايته ، وتم له الامر كما اراد . وهذا ما يرغب فيه . انه من رجال ماهويه ، وقد استطاع ، بالدهـــاء والحيلة ، ان يكون من حجاب سنجان ، ومن المقربين اليه . فلمـا قال طارق كلمته الاخيرة ، رفع راسه ، وظهر الفرح الكاذب على جبينه ؛

فقال له مولاه : ماذا ترى انت ؟

– ارى ان تخرج في هذه الساعة الى حيث يدعوك الأمير العربي ..

– وعمي ماهويه ؟

– واي شيء يصنعه ماهويه ؟ انه في منزله وهو يؤثر الموت داخل جدرانه على الخروج منه !!

قال : اخشى ان ارحل فيثب الى مقعد الامارة بعد ان يستميل الجيش ..

قال : من جعلك والياً يا مولاي ؟

– الأمير الاحنف .

– وهل يعجز الاحنف وهو من اعظم قـــواد الفاتحين ، ان يسترد هذه الامارة اذا اغتصبها ماهويه كما تقول ؟

قال : اصبت والويل لماهويه اذا ارتفع له صوت.. ولكن اي رجـل اجعله خليفة لي ريثما اعود ؟

– تجعل صاحب بيت المال فهو من المخلصين لك وللعرب !!

قال : اخرج اذن واعدّ ما نحتاج اليه وقل للرجل اني اريد ان اراه ..

فعرف طارق ان الأمر قد انتهى ، ولم يبق الا ان يتهيأ للرجوع . وقد قام في ذهنه ان هذا الحاجب الذي جعله سنجان ترجماناً له ، لا يطيب له الا ان يخدع مولاه وينحيه عن كرسيه . ومرت ساعة ، تهيأ فيها القوم ، ثم خرجوا على افراسهم يريدون مرو الروذ على طريق الشاطىء . وقلب طـارق يخفق ، وهو يفكر في تلك «الطفلة» الساحرة التي وهبتها له الاقدار ..

* * *

-١٨-

بات القوم ليلةً في منزل شهريار الخراساني ، وقد وعد طارق فتاته ، انه سيبوح بغرامه ، لابيه وعمه ، وينظرون في امر الزواج . وقد احس الاثنان ، ان الموت خير من الفراق . وكان الرحيل عند الصباح ، وسنجان يحلم بعرشه الصغير ..، ويعدّ في ذهنه مدة القضاء على النفوذ العربي ، في خراسان . فلما انتهوا الى مرو الروذ امر الاحنف ، ماهويه الفارسي وابنه ، بان يحتجبا في حجرة تجاور قاعة الجلوس ، واذن لسنجان وحاجبه في الدخول . وفي المجلس ، شهريار ، وعبدالله بن قيس ، وسعيد بن عمرو ، ابن عم عبدالله بن عامر امير البصرة . وهو فتى في العشرين من عمره ، حسن الوجه فصيح اللسان ، وقد كان رفيقاً لطارق بن عبدالله، في الميادين. ودخل سنجان وبزرشير، فرحب الاحنف الداهية بزائره الكبير وهشّ له .

ثم قال وهو يبتسم : لو لم يكن هنالك امر نحب ان نسألك عنه لما خطر لنا ان ندعوك .. صف لنا احوال مرو في هذا الزمان ..

قال : مرو بلاد السلام والأمن يا مولاي ، وليس فيه مظهر واحد من مظاهر الثورة .

– والناس فيه مخلصون للعرب ؟

– اجل وهم يهتفون لهم كلما انتهت اليهم اخبار الفتح !!

– وانت ؟

– اما انا فكما ترى ، عامل مقيم على الطاعة، خاضع لما يأمرني به مولاي..

قال : اذكر لي اسم مولاك !!

قال : الاحنف بن قيس ! ..

– ويزدجرد الملك ؟

– لم اكن قط عاملاً ليزدجرد ، وهو على العرش .

– ولكنك امسيت من عماله بعد ان ترك عرشه !!

وانفرجت شفتاه كأنه يمازحه ..

فذعر الرجل ، ثم راى ابتسامته فذهب خوفه وجعل يقول : لست مجنوناً لأكون من عمال ملكٍ مخلوع !! انك تهزا بي يا مولاي .

– اما انا فأخشى ان تكون انت الهازىء !!

وظهر الغضب في عينيه ثم اختفى .

فقال : لا يجسر العبد على ان يهزأ بسيده ..

– ولكن بلغنا انك تقول ان العرب هم العبيد وانكم انتم السادة ..

– ذلك ما يقوله الكذوب النام يا مولاي .

قال : أتعرف اين هو يزدجرد اليوم ؟

– قيل لي انه بين طوس ونيسابور !

– ومن قال لك ذلك ؟

– ابن اخيك الذي بعثت به اليّ ، وأومأ الى طارق .

فلم يشأ الاحنف ان يسأل طارقاً، بل قال : ان الفتى لا يعلم من امر يزدجرد أكثر مما تعلم ، خبرّنا انت اين هو ؟

– بلغني انه فرّ الى خراسان ولا أعرف اكثر من هذا .

– كان عليك وانت ابن خراسان ، وعاملنا على مرو الاخرى ، ان تحصي على الملك انفاسه ، وتعلم عنه كل شيء .

قال : سمعتهم يقولون ان رجال الملك انفسهم لا يعلمون الى أين يذهب .

– أصبت ، حتى انهم ليظنون ان السحب تحمل يزدجرد وتخفيه ..

ولكن رأينا الآن رأياً هو أن نستعين بالمال ونبذله لرجال فارس ليقبضوا عليه ...

ثم قال : على ان المال القليل لا يكفي ، وانت من أصحاب المال في مرو ، فجد علينا بشيء منه لتكون من أهل الفضل ..

– ابذل مالي كله من اجل هذه الغاية، ولكنه مال عامل حقير لا يغر احداً

قال : أمــا مالك فاحتفظ به فلا حاجة لنا اليه ، واما ذلك الذهب الذي يملأ قصرك فهذا الذي أعنيه ، فتمشى الخوف عندئذٍ مع دمه وتلجلج لسانه . ثم قال : واي ذهب هو يا مولاي ؟

– ذهب يزدجرد الذي يرسله اليك مع اعوانه، لتضرم نار الثورة والعصيان في هذا الاقليم ، وتطرد العرب منه !!

قال : انه لكذوب نمام كما قلت ، ذلك الذي سعى بي .

– بل انت الكذوب الذي غمط النعمة وكفر بالفضل ... تظاهرت بالاخلاص للعرب فوليناك أمر مرو ، ونحن لا نعلم انك تلبس للعرب ثوب الحمل وانت ذئب ...

قل اين هو مولاك اليوم أو تموت !

– اقسم برأسك يا مولاي اني لا اعلم .

– هل تأخذ ماله دون ان تسأل عنه ؟

– ما أخذت شيئاً من ماله وليس لي يد فيما يفعل ..

– واذا شهد عليك قومك ؟

فذكر الرجل عندئذ عمه ماهويه ، فقال : في مرو رجلان اثنان يشهدان عليّ هما ماهويه وابنه براز .

– ولماذا يشهدان ؟

– لان ماهويه يريد ان تكون الامارة له أو لولده ، وقد عرفت من قبل انه يعدّ عدته ليوغر عليّ صدر المسلمين ..

– ولك ، بين أهل قصرك ، عدو آخر يطمع في الامارة ؟

– لا .

– وتثق بهم جميعاً ؟

– نعم !

فوجّه الاحنف نظرةً قصيرة الى بزرشير ، فرأى عينان تختلجان ، ووجه يكفهر ، فقال لغلامه : ادع الفارسيين ..

وما هي غير لحظة ، حتى دخل ماهويه وابنه وهما يبتسمان . فلما رآهما سنجان ، اصفرّ وجهه وارتجفت يداه ، ثم أرخى نظره الى الارض كأنه ينتظر قضاء الله . فقال الاحنف لماهويه : ألم تقل لي ان هذا الرجل يخون العرب ؟

– بلى يا مولاي !

– وان رسل يزدجرد تجيء الى قصره وهي تحمل المال والاخبار ؟
– بلى يا مولاي .
– وانه يجمع ذلك المال ليستطيع معه ان يشهر السيف على المسلمين ، في حرب تشمل المروين وتمتد الى الصحراء ؟
– بلى يا مولاي !
– وانت واثق بما قلت ؟
– نعم ، اذ لا يخطر لي ان انقل اليك الاكاذيب ..
– ولكنه يقول ان هذه الحكاية وشاية طامع بالامارة وان هذا الطامع هو أنت ..

قال : أرضى بأن يضرب عنقي اذا كنت واشياً .
– ونحن نرضى بان يكون هنالك رجل آخر يشهد لك .
قال : ان الرجل في هذا المجلس وهو من حجاب الخائن .
وأومأ الى بزرشير ، فكاد سنجان يسقط على الارض .
أما الاحنف فقال : قم أيها الحاجب وخبرنا بما تعلم .
قال : سل يا مولاي !
– أيراسل مولاك سنجان ، يزدجرد الملك .
– نعم !
– ويبعث اليه يزدجرد مالاً ؟
– نعم حتى انه لو أراد ان يشتري بهذا المال جميع أهل خراسان لاستطاع..
– وأين يضع ماله ؟
– في منزله والجنود يحرسون المنزل بالحراب .
– وتعرف الرجال الذين يرسلهم الملك ؟
– أعرف الوجوه وأجهل الأسماء .
– لقد قيل لنا أنهم من رجال البلاط .
– هذا ما أراه فيزدجرد لا يثق الا بمن حوله .
– وما هي غاية القوم ؟

قال : ألست تعلم غايتهم يا مولاي ؟

– لا يكفي أن نعلم هذه الغاية بل يجب أن نسمعها من أفواه الشهود الذين انتهت اليهم اخبار المؤامرة ورأوا بعض المتآمرين .

قال : غايتهم أن يخرجوا عن الطاعة .

– بقوة السيف ؟

– نعم وقد سمعت عامل مرو يقول لرجال يزدجرد: قولوا للملك اني سأجمع تحت لوائه ثلاثين الفـــاً يطردون من يطردون من الجيش العربي ويقذفون بالباقي الى الماء !

– قل انهم عولوا على الحرب .

– اجل وانها لحرب يشترك فيها الشيوخ والفتيان .

– وجعلوا لها موعداً ؟

– أما الموعد فسنجان وحده ينظر فيه ..

– وبأي بلد يقيم يزدجرد ؟

– لم يذكر لي أحد اسم البلد الذي تسألني عنه .

– ومولاك لا يعلم ؟

– اذا قلت انه يعلم او لا يعلم فقد كذبت ..

فالتفت الى سنجان قائلاً لقد ثبت لنا الآن انك من الخونة ، ولم يبق الا ان نسأل حاجبك سؤالاً آخر ، قل يا بزرشير ، أي شيء دعاك الى ان تخون مولاك وتفضح سره ؟

– اخلاصي للعرب .

– لو كنت مخلصاً لما صبرت الى هذا اليوم .

– ولكني خبرت القائد ماهويه منذ بضعة عشر يوماً ، على ان ينقل اليك هو، ما أقصه عليك الآن ..

– اذن فأنت توثر هذا القائد على سنجان ، وهذا الإيثار هو الذي امـــلى عليك ان تخون ملكك ومولاك ..

– اعترف لك ايهـــا الأمير بأني احب ماهويه ، ولكني احب العرب ، في

الوقت نفسه ، اكثر مما احب اهل فارس .
– وفي أى شيء تستحق العرب هذا الحب ؟
– في هذا العدل الذي تراه العيون وتلمسه الأيدي ..
– ولكن قومك لا يرون ما تراه ...
– إن قومي رجالا يغرهم الذهب ويطمعون بالسلطان ولست انا من هؤلاء.
فجعل يقول: المال والسلطان علة هذه الحروب التي لا تخمد نارها... اجلس وقل انت يا سنجان ما تريد أن تقوله .
قال : لقد كذب الحاجب يا مولاي وان له غرضاً يريد ان يتم له .
– اي انه يحاول ان ينحيّك عن الولاية أليس كذلك ؟
– بلى !
– ولم يكن صادقاً فيما نقله عنك ؟
– لو كان صادقاً لذكر لك موعد خروج الجيش الى الحرب ..
فقهقه ضاحكاً ثم قال : ليس للحاجب الذي يستخرج الاسرار من وراء الستار ، ان يعلم كل ما يقال ..
– وهل يصدّق امير المروين حكايةً يرويها احد الحجاب ؟
– رب حاجبٍ اصدق من ملك .. ومع ذلك فنحن لا نصدر حكماً الا بعد ان ننظر فيه ... أجمعت خراج ولايتك هذا العام ؟
– جمعت بعضه .
– وكم يبلغ ما جمعت ؟
– اربعة آلاف دينار .
– وبقي اربعة أُخرى ؟
– نعم !
– اذن نبعث الى مرو من يحملها الينا . وينظر في أمر الذهب الآخر الذي تحرسه الجنود ..
فارتجف صوته وهو يقول : اذا كان هنالك مال يا مولاي فهو مالي وقد ورثته من ابائي ...!

فقال ماهويه : لم يكن لآبائه من المال ما يكفيه ..
انه مال الثورة ... مال الحرب .. مال الخيانة التي يدفعه اليها يزدجرد .
قال : اسمعت شهادة عمك ؟
- ان عمي هو الخائن .
فعمد الامير الى لهجة أخرى ، فقال : يطيب لنا ان نصدق ما تقوله انت ، وان نؤمن بان هؤلاء الرجال الثلاثة خونة يحاولون ان يعزلوك ، ولكن ، أليس لنا ، ونحن قد وليناك ، ان نسألك عن مصدر الذهب الذي تصونه بقوة الحراب ؟
- لقد ذكرت لك مصدره يا مولاي !
قال : وتذكر لنا مقداره ؟
- انه لا يجاوز مجموع الخراج في عام واحد .
- اي انه ثمانية آلاف دينار .
- اجل !
- وأي شيء يمنعك من ان تدفعه الينا وهو مال المسلمين ..
- أعدك باني ارسل اليك الخراج كاملاً عندما اعود .
- ونحن نعدك باننا سنحصي مالك ثم ننظر في الأمر ..
قال : انه ظلم لا تفعل العرب مثله ..
- وانها الخيانة لا تصبر العرب على مثلها ،.. قم يا عبدالله .. قم يا سعيد بن عمرو ، واذهبا مع الف رجل الى مرو ، واحملا مال هذا الخائن كله لا تبقيا منه درهماً واذا تصدى لكما اهل مرو فأعملا فيهم السيف ...
فجثا الخائن على ركبتيه قائلاً : استحلفك برأس الخليفة ايها الامير الا تفعل ...
قال : لا أرجع عما قلت الا اذا اعترفت ..
- بماذا يا مولاي ؟
- بالمؤامرة التي تعدّها في ظلام الليل ..
- اعترف لك بكل شيء على ان لا تجعلني من الفقراء !!

قال : أتتآمر على المسلمين أم ماذا ؟ — نعم يا مولاي !

— وتراسل الملك ؟ — نعم !

— والمـــال الذي ذكره بزرشير وماهويه هو ماله ؟

— نعم !

ومتى عوّلت مرو على حمل السيف ؟

— لا تحمله إلا بعد ان يتفرق الجيش العربي في الاقطار ...

قال : بارك الله في هذا العامل الصريح الذي لا يخفي شيئاً ، ومولاك الملك الذي يقذف بامته الى النار ... اين هو ؟

— صدقني يا مولاي اني لا اعرف هذا .

— وهل بقي ما تقوله ؟

— بقي ان تغض الطرف عن خيانتي ، وتعفو عن ذنبي .

فقال الأحنف لرجاله لقد رأيتم وسمعتم فما الرأي ؟

— فأجابه اخوه عبدالله : الرأي ان تضرب عنقه .

وقال سعيد بن عمرو : وتعلق جثته على باب مرو فيراها قومه .

— وانت يا طارق ؟

— لي رأي اذكره للأمير في غير هذا المكان .

قال : ليخرج رجال فارس من هذه القاعة .

فخرجوا وبقي شهريار، فقال طارق : امـــا الرأي فهو ان تأخذ ماله الذي هو مال الثورة وتضمّه الى مال المسلمين .

— وبعد ذلك ؟

— تعزله عن الولاية وتسلمها الى عمه..

— وبماذا نجازيه ..

— لا تمدد اليه يدك فانك اذا فعلت اشتعلت النار ؛ فابتسم قـــائلاً : ان رأيك يا بني خير الاراء ، أدخلوا القوم !

فدخلوا فقال :

لقد عزلناك يا سنجان وعهدنا في امر مرو الى عمك ماهويه .

قال : ولّ من شئت يا مولاي إلا هذا !

قال : يكفي اننا عفونا عنك وانت تستحق الموت فاحذر ان تقول كلمة.. وأما المال الذي جمعته فسيبعث الينا به عاملنا الجديد ويبقي له شيئاً منه يعالج به امره ؛

فتلألأ الدمع في عيني الرجل ، ثم جرى على خديه ، فقال له : ان الدموع سلاح الخونة الجبناء ... اعدّ له يا عبد الله منزلاً يقيم به ..

قال : بمرو الروذ يا مولاي ؟

– اجل فنحن نريد ان نراك اليوم ...

قال : تسلبني مالي ، وتعزلني عن الولاية ثم تبعدني عن اهل بيتي وتحجبهم عن عيني ؟

– سنأمر أهل بيتك بان يقيموا حيث تقيم أنت .

– ولماذا لا تأمرني بالرجوع الى مرو الشاهجان ؟

– لاننا نخاف ان تمعن في الخيانة فتكرهنا على قتلك !

– ولكني لا استطيع ان أفعل شيئاً وانا فقير لا مال لي .

– سيعطيك يزدجرد من المال ما تشتري به رجال خراسان .

قال : اعدك باني سأعيش في منزلي كما يعيش زهاد الفرس !!

– أما نحن فلا نؤمن بما تقوله وليس لنا ان نحسن الى من لا يستحق الاحسان.

قال : اقسم لك اني لا افارق ضيعة لي على الشاطىء ..

فنهض طارق فهامس عمه ثم عاد الى مقعده ؛ فقال الاحنف : لقد سألنا ابن عبد الله ان نصغي الى رجائك .

قال اتأذن لي في الذهاب ؟

قال : تقيم بيننا نصف العام ، وتقيم بمرو الاخرى النصف الاخر .

فحاول ان يستغيث بطارق ، فاسكته الامير قائلاً : لم يبق لك الآن ما تسألنا اياه ، قم فاخرج .. فتردد .. فقال : خير لك ان تخرج وانت حي !! فانصرف دون ان يقول كلمة ، وكان يقول في نفسه : الويل لك يا ابن قيس والويل للعرب .

والتفت الاحنف عندئذ الى ماهويه وقـــال له : لقد رأيت الان وسمعت فاحذر !

قال : سأكون اخلص العمال يا مولاي .

قال : ذلك ما كان يقوله ابن اخيك عندما وليّناه ..

– اما انا فاعاهد الامير على الوفاءوارضي بانيضرب عنقياذا رأى ما يكره

– وسنجان ؟

– سأحصي عليه كل عمل يعمله وكل كلمة يقولها .

– بل نريد ان تفعل اكثر من ذلك .

– ماذا يا مولاي ؟

– سيخبّر ابن اخيك الملك بكل ما جرى له .

– نعم !

– فيعمد الملك الى الهدوء ريثما تنسىالعرب خيانة سنجان، ثم يعود بعد ذلك الى ارسال الرسل يحملون المال .

قال : هذا ما اراه .

– اذن عليك ان تحيط ابن اخيك بالرجال ، ليقبضوا على هؤلاء الرسل عندما يدخلون مرو ، ويبعثوا بهم الينا .

– اعدك بهذا يا مولاي .

– واحذر ان تقول كلمة لاولئك الخونـة انصار ابن اخيك . اننا نريد ان يسقطوا في الشرك الذي نعده لهم .

– ولكنك نسيت يا مولاي ان سنجان حي ، وانه سيقص عليهم كل شيء .

– افعل انت ما نأمرك به وليفعل الرجل مـا يطيب له . وقال لشهريار : لقد أمسى صاحبك عاملاً للمسلمين على مرو وهذا ما اردته ، فهل بقيت لك حاجة اخرى نقضيها لك ؟

– بقي ان ابذل حياتي في سبيل المسلمين .

فقال لطارق : واردت انت ان نأذن للخائن في الرجوع الى مرو ففعلنا .

قال : طلبت اليك ذلك ليسهل على العرب امر القبض على رسل يزدجرد .

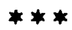
قال : احسنت يا بني ، وحسب عشيرتك انك من رجال الرأي ورجـــال
سيف وهمّ بالانصراف ، فقال شهريار ؟ متى تأذن لنا في الرجوع ايها الامير ؟
- لينصرف ماهويه وولده في هـــذه الساعة ، اما انت فتستطيع ان تبقى
ندنا العمر كله : اكتب يا ابن عمرو :

من الاحنف بن قيس عامل المروين ، الى مرازبة الفرس في مرو الشاهجان :
لقد رأينا ان ننحي سنجان عن الولاية ونجعل ماهوية عـاملاً لنا ، فاسمعوا
اطيعوا ، فكتب سعيد الكتاب وكان طـارق يقول لعمه : مر شهريار بالبقاء
ي ما اقوله له .
فقال الاحنف لشهريار : ابق انت فلنا مـــا نقوله لك وانظر يا عبد الله في
مر سنجان .

وخرج قائلاً : ستقول لنا يا طارق ، في اول الليل ما تريد ان تقوله .
وتناول ماهوية كتاب الولاية ، وودع القوم وهو يحمل في صدره الاخلاص
الوفاء للعرب ، ويحمل بيديه العز والسلطان .

وابنه وبزرشير وراءه وقد أمسى هذا الاخير رئيس حجابه ، واميناً له .
وكان شهريار يفكر في الامر الذي سيحدثه به طارق بن عبد الله ، وكأنه
ان يعلم ما هو .

***



عندما غزا عبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص ارض فارس ، دبّ الذعر
، قلب يزدجرد ، فخرج لاجئاً الى جور ، وقد قرأت ، ان الاحنف ابن قيس ،
ن ناحية ، ومجاشع ابن مسعود ، من ناحية اخرى ، خرجا في اثره ولكنهما ضيعا
لك الاثر ، بين جور وكرمان . على ان يزدجرد لم يركب السحب في فراره ،
، كان في كرمان ، في منزل لأحد انصاره فيه الاروقة والسراديب ، والعرب
ظن انه جعل بطن الارض ملجأ له !

وكان رجاله اكثر دهاء من رجال العرب ، يلبسونه إذ فرّ ، اللباس العربي، ويجعلون في حزامه ، من الناحيتين ، جراب الزاد والسيف والقـوس وجعبة السهام ويمشون وراءه كأنه من امراء الجيش .

ثم يعدُّون له منزلا يقيم بـه مع كبير الامنـاء ورئيس الخصيان ، ويلجأ الاخرون الى منزل آخر قريب منه ، يجـاور المنزلين بيت واسع فيه نساؤه وجواريه وبنوه . اختاروا له كرمان بيتاً تحوطه الاسوار ، ويحسبه النـاظر حصناً من حصون فارس وجعلوا النساء في جناح منه يحجبه السور الغربي عـن العيون . وكانت اوامر الملك تخرج من ذلك الحصن الى جميع الاقطار ، ورسله تحمل المال الى ابناء قومه المخلصين .

ولكن المال الذي يخرج لا يعود ، وبدون هـذا المال ، لا يستطيع الملك المخلوع ان يشتري الرجال .

هذا ماله يذهب من يده فتذهب معه روحه .. ! لقد سعّر النار في خراسان فاخمدتها العرب ، وسعرها في الاقاليم الاخرى فانتهى امرها بالفشل ، ثم بلغه ان المال الذي بعث به الى مرو الشاهجان استولى عليه الاحنف بن قيس ، بعد ان فضح سرّه .

وهذا معناه ان ماله كله سيضيع كما ضـاع العرش ، ولا يبقى الا ان يقتل نفسه ، او يخضع للفاتحين .

وأي امير من امراء فارس ، يجود بماله في مثل ذلك الزمن على الملك المخلوع وهو يرى الفتح يعقبه الفتح والعرب تضع ايديها على كل ارض ؟

وأي امير يبذل حياته وحياة اهله ليسلم ملكه ؟

ان السيف يحصد رقاب اصحاب الجاه في فارس، والذل يغمر الزعماء والقواد فخير للقوي ان يصون قوته ولصاحب المـال ان يحتفظ بماله لليوم العصيب . لقد كان يزدجرد يعلم ذلك ، وكانت الكآبة قد استولت عليه وهو في كرمان حتى أمست حياته في منزله حياة شقاء وذل .

يعلله رجاله بأمل النصر والرجوع الى العرش ، ويدعوه رئيس خصيانه الى

ذل ذهبه لكبار الرجال ، فيعمد الى البذل ويستسلم الى الامل ، ولكنه لم ير
ن الحالين غير البؤس والهوان . وزادت كآبته عندما انتهى اليه ان أمله برجال
رو الشاهجان قد ضاع وان ماله أمسى ملكاً لعامل المروين .

واقبلت الرسل تحمل اليه اخبار الفشل في جميع النواحي ، فدعا اليه رجاله
وقال لهم : ماذا بقي لملك الفرس وقد خسر بلاده ؟

– فأطرقوا وهم لا يجسرون على الكلام .

فقال : أليس فيكم من يقول كلمة ؟

وكان رئيس الخصيان أجرأ رجاله فقال : لم يخسر مولاي الملك كل شيء .

– وماذا بقي له ؟

– القلوب الخافقة على الاخلاص له !!

– وأين اصحابها ؟

– نحن يا مولاي !

فضحك على رغم كآبته واجابه قائلاً : ما سمعت من قبل ان خفقان القلوب
يسترجع عرشاً ويعيد الملك الى صاحبه !

قال : لو لم يكن هنالك اخلاص لخسر الملك حياته !

فغضب قائلاً : اتمن علينا ايها الرجل ؟

– لا يا مولاي ولكني اصف للملك وفاء رجاله .. !

– انه وفاء تردده الشفاه ولا رأي فيه . لقد خرجت خراسان من يد الملك
كما خرج ماله ..

قال : انها لهجة يائس يا مولاي .

– أجل هذا هو اليأس .. وقد لمسناه باليدين .. أتعللنا بالامل ايها الابله
وقد عزل سنجان عن الولاية وخلفه ماهويه وهو من انصار العرب ؟

– ومن قال لك يا مولاي انه من انصار هؤلاء ؟

– سنجان نفسه ، لقد كان يصف لنا خيانته في كل كتاب يكتبه الينا
ويدعوه عدو الفرس !

قال : ان ماهويه من انصار الملك .

قال : كذبت فانصار الملك لا يبوحون للعرب باسراره .

– ذلك دهاء منه يا مولاي . لقد باح للاحنف بما يعلم ليثق بـــه ويوليه امر مرو بعد عزل ابن اخيه .

– وكيف يطيب له ان يعزل الرجل وهو من رجال مولاه ؟

– لا تنس يا مولاي انه يطمع في الولاية وانه يبغض سنجان بغضاً لا تشعر الصدور بمثله وان يكن ابن اخيه .

– ومن خبرك بذلك ؟

– واحد من اولئك الرجال الذين نقلوا الينا الاخبار .

– وتثق انت بماهويه ؟

– اجل يا مولاي واضمن وفاءه .

– ولكن ماذا يستطيع ان يصنع وليس في يده شيء من المال ؟

– يبعث اليه الملك ببعض ماله ..

فظهر الغضب عندئذ بصورته الرائعة على وجه يزدجرد وجعل يقول :

أتريد ايها اللعين ان يبذل الملك ما في يده يسأل اشراف قومه ان يجودوا عليه بما يستعين به على الزمان ؟ انك تريد اذن ان يجثو ملكك عـــلى ركبتيه امام امثالك من الخونة ليشبعوا جوعه .. أليس كذلك ايها الخائن ؟

وكانت عيناه في تلك الساعة تشبهان عيني النمر ، في ثورة جنونه .

فقال الخصيّ : أتدعوني خائناً يا مولاي ؟

- أجل ، ان الفارسي الذي يحاول ان يهب مـــال الملك لأهل الاقاليم هو الخائن !! وكل رجل لا يثبت خضوعه لملكه الا بهذا المال خائن مثله ..

– أتتهمني يا مولاي وانا احاول ان استرجع العرش ؟

– لو كانت هذه غايتك ، لتركت الملك الذي تتمرّغ في نعمته ، وخرجت الى بلاد فارس تدعو أهلها الى حمل السيف لاسترجاع العرش الذي ذكرت ..

– وكيف افعل ذلك وانت لم تأمرني به ؟

– رأيناك تؤثر سعة العيش في قصر ملكك على الطواف في الاقاليم ..

فدمعت عيناه قائلاً : لم يخطر لي يا مولاي ان يزدجرد حفيد الاكاسرة يكافىء بالتهم ، العبيد المخلصين له !

– ولم يخطر لحفيد الاكاسرة ، ان العرب تستطيع الاستيلاء على بلاده ، وعبيده المخلصون له احياء !!.

قال : لقد أبلى عبيدك في الدفاع عن الملك ..

– بل كانوا جبناء في هذا الدفاع وهم الذين ضيّعوا ملك كسرى ، إنظر الى الاقاليم ، انها جميعها في ايدي الامراء من الفرس ، ولكن هؤلاء الأمراء عمال للفاتح العربي وهذا معناه ان الاخلاص لا وجود له ..

– لقد اكرههم السيف على ما تراه .

– والسيف لا يكره الا الجبان .. انهم لو كانوا كما تقول لآثروا الموت على الاستسلام الذي هو العار ..

وخرج في تلك الساعة عن حدّه فقال : خير للملك ان يعيش في مغاور الجبال بين طوائف الذئاب ، من ان يرى كل يوم وجوه الرجال الأنذال الذين باعوه بخضوعهم للعرب .. وأخذوا ماله ليهزأوا به ..!

وتنهّد ثم قال : كلكم خونة .. وانت الخائن الاكبر ايها العبد ، فاخرج من هذا المنزل واحذر ان تعود اليه .

– انا يا مولاي ؟

– نعم انت فليس من الرأي ان يبقيك الملك بين رجاله ؟.

قال : اذكر وفائي ايها الملك !.

– اخرج فالرجل الذي يسلب الملك ماله ليس له وفاء .

قال : اخشى ان تندم بعد حين على ما فعلت .

قال : ويلك أتستخف بي وانا يزدجرد .. ايها الغلمان ، اخرجوا هذا اللعين من هذه القاعة واطردوه من المنزل الى الابد ..

فأقبل الغلمان يحملون الشيخ المخلص الى الخارج وهو يستغيث قائلاً : اعطني ايها الملك ما استعين به على جورك .

والملك يقول : اطردوه فهو يستحق الموت وقد عفونا عنه !؟

ولم تكن غير لحظة حتى امسى رئيس الخصيان خـارج السور ، وهو يحمل شقاءه ولعنة مولاه المجنون !

ونظر يزدجرد بعد خروجه الى رجاله فقال : ألم يكن هذا اللعين خائنـاً يستحق الموت ؟

فقالوا جميعهم : نعم ، خائن ويستحق الموت !!!

– وقد رأيتم اننا عفونا عنه على ان لا نغفر لأحدٍ ذنبه بعد هذا اليوم .

– نحن عبيد الملك !!

ثم قال احدهم : لي كلمة اقولها إذا اراد مولاي .

– ما هي ؟

– هي ان هذا الخائن سيدلّ العرب على المنزل الذي تقيم به !

– وهل يجسر على ذلك ؟

– نعم فقد طردته من الخدمة ولم يبق هنالك ما يخافه .

قال : اخرج اذاً واختر لنا منزلاً آخر نلجأ اليه في هذا الليل .

فانصرف الرجل ، ثم عاد بعد ساعة وقد وجد ما اراده يزدجرد .

ولم تلبث الاسرة المالكة المنكودة الحظ، حتى لجأت الى منزلها الجديد الذي يشبه منازل الصعاليك من أهل فارس. وكان الملك يتمتم قائلاً: لا نعلم أي خطر اوحى الينا بما فعلنا .. ان رئيس الخصيان من المخلصين وقد ظلمناه ..! ورجال البلاط يهزأون به ويقولون في سرّهم : لقد ضيّعت الحادثات عقل الملك الذي جلس على اعظم عرش .

* * *

- ٢٠ -

ألم تقل يا مولاي انك ستزفّ إليّ الفتاة التي اختار ؟ قالها طارق بن عبدالله

لعمه الاحنف، في قاعة الجلوس، وأبوه في تلك القاعة، وليس بينهم رجل آخر .

فقال الاحنف : بلى ، وهذا ابوك وقد كان يقول لي : اختر لطارق فتاة من قومه فلم أشأ إلا أن تختارها أنت .

قال : لقد رأيت اليوم هذه الفتاة .. واني اسألك واسأل أبي أن تأذنا لي في الزواج .

– وهل تكون هذه الفتاة من قومنا ؟

– لا يا مولاي فأبوها فارسي ولكنه مسلم .

– وتقيم بمرو الروذ ؟

– بل تقيم بين المروين على شاطيء المرغاب .

– لقد عرفت من هي .. انها ابنة شهريار وقد سألتنا ان نأمر الرجل بالبقاء من اجل هذه الغاية .. أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاي .

فالتفت الى عبدالله كأنه يقول له : تكلم فقد جاء دورك الآن .

فقال عبدالله : اتعني الفتاة التي ارضعتها زوجة ابيك ؟

– نعم !

فقطب حاجبيه قائلا : ألم تجد بين حسان قومك فتاة تجعلها في بيتك ؟

– ليس في حسان قومي جمال يشبه الجمال الذي رأيت ..

– وبين حسان العرب ؟

– ولا يخطر لي ان بين حسان العرب فتاة مثل اليتيمة !

– إذن هي أحسن من في الجزيرة والعراق .

– ومن في فارس من النساء !!

– ولكن لا يليق بابن عبدالله بن قيس أن يتزوج فارسية ..

– حسبي يا مولاي اني أتزوج مسلمة ..

– غير انك نسيت العار الذي يرافق هذا الزواج .

– وأين هو هذا العار ؟

– ألا تعلم ان العشيرة التي تنتمي اليها هي من ابعد العشائر صوتاً وأشرفها نسباً ؟ – بلى !

– وكيف نسيت من أنت ؟! لقد كان جدك لأمك سيد بني أسد ، وكان جدك لابيك سيد قومه ، وانت ترى انه لم يدخل هذا البيت غير النساء اللواتي تحترم العرب نسبهن ّ افتريد يا بني أن تذل قومك وتجعل هذه الفتاة التي لا نسب لها زوجة لك ؟

قال : لقد كان أبوها قائداً من قواد الفرس .

– بل كان في الحرب غلاماً لأحد القواد .

– لو كان كما وصفت لما جعله يزدجرد في بلاطه .

– لقد كان ذلك البلاط يضم الرجال من كل بلد وكل جنس .

– ولكن ملوك فارس لا تجعل في قصورها غير الاشراف من الناس .

فضحك قائلاً : وهل قام في ذهنك ان شهريار كان وزيراً ليزدجرد ؟

– لم يكن من الوزراء بل كان من المقربين .

– قل إنه كان من غلمان البلاط وعبيده ولا نسب لهؤلاء ..

– وأي ذنب للفتاة التي لم يكن أبوها من النبلاء ؟

– ليس لها ذنب ولكن الذنب ذنب الفتى النبيل الذي يتزوجها دون أن يبالي بعادات قومه ..!

فارتجفت شفتا الفتى وجعل يقول : يظهر أن عمي كان يهزأ بي عندما طلب الي ّ أن اختار زوجتي ..

فقال الأحنف : طلبت اليك ان تختـار هذه الزوجة من بنات العشيرة ولم يخطر لي انك ستعود من مرو حاملاً الي ّ هذا الاختيار الغريب .

– وماذا اصنع الآن ؟

– تنسى هذه الفارسية فنختار لك سواها .

– لقد بحت لها بغرامي .

– اذن كنت جريئاً في غرامك كما انت جريء في ساحة الحرب .

– نعم ، وقد وعدتها بان اسألك واسأل أبي ان تأذنا لي في الزواج .
– ومن علم هذه الفتاة ان تتحدث بالغرام وهي في الثالثة عشرة من العمر ؟
– لقد كنت انا البادىء وكانت هي تتردد في الجواب .
– ثم رأت اخيراً ان تعترف لك بالهوى قبل ان تسأل أباها رأيها فيه .
– كانت تقول ان لأبيها سراً وهي تخشى ان يحول هذا السر بينها وبين من تحب ..

قال : لقد ذكرت الآن سره فقد حدثني هو بأمره يوم اقبـــل مع ماهويه ولكنه لم يبح به .
واطرق ساعة ثم قال : ليس لنا ان ندخل الى عشيرتنا فتاة تكتنف اباهـا الاسرار .
– انه هنا يا مولاي فاسأله عن سره .
– سنفعل ذلك الآن على ان تنسى انت ما وعدت .
– لست قادراً على النسيان .. ووالله لو كانت لأمير المؤمنين فتاة يجثو عند قدميها القمر والشمس وأراد امير المؤمنين نفسه ان يزفهـا إليّ ويجعلني خليفته لأبيت !.
قال : اراك تهم بالخروج عن الطاعة يا بني !
– لم افكر في هذا قط ولكن الهوى الذي يتأجج في هذا الصدر يملي عليّ ما سمعت !.
– واذا رأينا ان هذه الفتاة ليست اهلاً لك ؟
– لقد رآها هذا القلب اهلاً له وانتهى الأمر !
– اي انك ستجعلها زوجة لك على رغم قومك !
– احاول ان يرضى قومي بما اسألهم إياه ..
– وان لم يفعلوا ؟
– لا تقل هذا يا مولاي فانا لا اطيق ان اسمعه .
– بل اقوله ففيه شرف العشيرة .

ـ ولكنه حكم بالموت على طارق بن عبدالله ..
قال : اليس من العار يا ابن عبدالله ان تكون من الجبناء ؟!
ـ ما سمعت من قبل ان في الحب شيئاً من العار .
قال : رايناك تؤثر الموت على هجر من احببت ..
ـ ذلك ما يفعله العشاق الأوفياء .

فنظر الى عبدالله وجعل يخاطبه بعينيه ثم قال : اتأذن لنا ايها العاشق الوافي ان نسأل شهريار عما نشاء .

قال : إني اعرف من انا يا عم فلا تهزأ بي .. ادعُ شهريار واسأله عما يخطر لك ولا تنس ان تقرأ سره .

ـ سندعوه الساعة ولكن ليس لك ان تقول كلمة .

قال: اخشى انتصف له غرامي ثمتستخف بهذا الغرام علىمرأى ومسمعمنه.

ـ لقد نسيت يا بني اني الاحنف بن قيس .

ـ بل اخشى ان تنسى انت اني احببت اليتيمة حباً يملأ نفسي ، وان كل كلمة تتناول هذا الحب بالاستخفاف ، تخرجني عن الصبر !!

ـ اعدك باني لا اقول لشهريار الا ما يمليه عليّ شرف العشيرة .

وانا اعدك باني اسكت ، حتى ارى ان السكوت يسيء الى من احببت ..

قال : ادعُ الرجل ..

فنهض والدموع تتلألأ في عينيه وهو يحاول إخفاءها بمظاهر جلده .

فقال الأحنف لأخيه : لقد برّح به هواه وأنا أرى ان نعالج الأمر بالدهاء ..

ـ وماذا يفعل الدهاء مع فتى مثل طارق .. ان حبه سيزداد مع الأيام وانا أخاف ان يقتله ..

ـ وتزوجه من غير قومه ؟

ـ اذا رأيت انه لا يرضى الا بذلك فعلت .

قال: سننظر الان في أمر شهريار ثم نرى بعد ذلك ما الذي يجب ان نصنعه ،

ثم قال : سمعتك تثني على الرجل وقد ذكرت لي انه من المخلصين للعرب وانت تثق بصدقه .

قال : ذكرت لك كل ذلك ، ولكني لم افكر قط في ان اجعل ابنته ، وهي فارسية ، زوجة لولدي . امـا الآن فقد فكرت في هذا ، وقد رأيت بعينيك وسمعت باذنيك .

قال : يحيرني سر الرجل ، وقد أكون مخطئـاً في وثوقي به ، بل قد يكون هنالك ما نكره .

– اتظن ان له صلة بيزدجرد ؟

لقد خيّل اليّ ، انه يبغض الملك كما يبغض المسلم النار ، ولكن من يعلم فقد تكون مظاهر بغضه ، مظاهر كاذبة !

– وهل يستطيع ان يحتفظ بمظهره الكاذب أربعة عشر عاماً ؟ انه لو كان من رجال يزدجرد لفضح نفسه في خلال هذا الزمن الذي مرّ على تركه اياه ، ثم خفض صوته قائلاً : لقد وصفت لطارق تلك الطفلة الساحرة ، فأحبها قبل ان يرى لها وجهاً ثم رآها فأثـّر فيه السحر .

واقبل عندئذ طارق وشهريار ، فدعاهما الاحنف الى الجلوس وهو يقول : شهريار ! ألم ترَ يزدجرد هذا العام ؟

فجعل الرجل ينظر اليه نظرات الاستغراب ثم قال : لقد حاولت ان اراه ايها الامير فخانني الحظ !

– وفي العام الذي مرّ ؟
– وكذلك فعلت في العام الذي مرّ فلم أعلم اين هو ..
– اذن فانت تبحث عنه كما نفعل نحن العرب .
– أجل يا مولاي واني لأهب منزلي على الشاطىء لمن يدلـّني عـلى البلد الذي يقيم به !
– وهل تذكر الزمن الذي رأيته فيه ؟

– اذكره ايهـا الامير ولا انساه .. لقد كان ذلك منذ اربعة عشر عامـاً ، وكنا في حلوان ..

– وكيف ضيعت أثره ؟

– كنت أفكر في ذلك الزمن ، في هذه اليتيمة التي ليس لهـا سواي .. ثم أتيت مرو الشاهجان وهو بعيد عنها لا يعرف الناس شيئاً عنه .

– واليوم ؟

– اما اليوم وقد مرّت الاعوام التي ذكرت ، فلم يبق لي إلا أن اطلبه على الأرض وتحت الارض حتى اراه وأجثو عند قدميه ..

قال : يطيب لنا ان نسألك سؤالاً .

– قل يا مولاي !

– لماذا ترك مولاك حلوان وبقيت انت فيها ؟

– لقد سألني الامير عبدالله هذا السؤال في حلوان نفسها .

– ولكنه نسي جوابك ونحن نريد ان نسمعه الآن .

قال : لقد فرّ يزدجرد في الليلة التي خرجت الطفلة فيها الى الحياة !

– وكان عليك ان تلحق به بعد ايام .

– ولكني لم افعل ترى ، وقد أمسيت مسلماً لا اعبأ بفارس كلها ولا ابالي بهذا الملك المخلوع !

قال : خرج الملك وهو راضٍ عنك ؟

– أجل ، وكان يظن اني سأسير وراءه مع الرجال الذين لحقوا به .

– وتقسم لي انك صادق ؟

– أقسم بالله الذي لا إله إلا هو اني لم اكذب .

– اذن كنت تخدع مولاك وهو لا يعلم !

– ومعنى ذلك يا مولاي ؟

– معناه انك كنت تظهر له الاخلاص كما يظهره جميع رجـال بلاطه ، وانت غير مخلص !

– نعم كنت افعل ذلك وانا أعترف به .

– اي انك كنت خائناً !

– نعم كنت خائناً ولكن خيانتي لم تخرج من هذا الصدر !

– وهل تقص علينا اسبابها الآن ؟

– لو كنت استطيع ذلك لما ترددت فيه .

– وما الذي يمنعك منه ؟

سر لي، سألتني انت عنه وسألني مثلك الامير عبدالله وانا اكتمه عن جميع الناس لا أبوح به لأحد !

– ولكني أريد أن أعرفه الساعة وانا أعدك بالكتمان .

قال : لا يخرج من فمي هذا السر الا عندما تأتي ساعته .

فقال عبدالله : اذكر ان هذه الساعة ستأتي في العام القادم .

– نعم أي بعد ان تمسي اليتيمة في عامها الخامس عشر .

فقال الاحنف : وإذا اكرهتك الحادثات على الاعتراف به اليوم ؟

– لا أظن ان هنالك قوة تكرهني على ذلك .

قال : ألست مسلماً ؟

بـــلى !

– ولا تعلم بماذا يوصي المسلمين أمير المؤمنين ؟

– بماذا ؟

– بأن يطيعوا عماله ويسمعوا لهم .

– اني اطيع هؤلاء العمال بما يأمرونني به .

قال : نأمرك بأن تبوح بسرك .

قال : لقد كان هذا السر قبل أن اعتنق الاسلام أي انه سري وانا فارسي !

قال : أيطيب لك ان نعمد الى القوة لتبوح به ؟

– عار على الأمير ان يضيع قوته ..

قال : لقد دبّ الريب في الصدر فالويل لك ..

– واي ريب يا مولاي ؟

– يخيل الينا انك من رجال يزدجرد .

– كنت من رجاله ..

– بل أنت اليوم منهم ولم تزل مقيماً على عهده !

– وأي شيء يدعو الامير الى هذه الظنون ؟

– هذه الاسرار التي تقول لنا كل يوم انك لا تبوح بها لأحد !

– حلفت يا مولاي اني سأحفظ سري وأنا لا استطيع إلا ان ابر في اليمين التي حلفت .

– تلك يمين اقسمتها قبل الدخول في الاسلام .

– اجل ولكن الشرف يملي عليّ ان اكون وفياً لتلك المرأة التي حلفت يميني وهي تصارع الموت ..

– أتعني زوجتك ؟

– نعم والسر الذي احتفظ به سر هذه الزوجة .

– وسر الفتاة التي يدعونها اليتيمة الساحرة ..

فخفق قلب الرجل وعرف ان الأمير يريد ان يستدرجه إلى الاقرار، فقال: ليس لهذه الفتاة سر يا مولاي .

وكان الاحنف يحاول ان يختبر الى النهاية . فقال وهو يتظاهر بالغضب : نراك تنكر كل أمر نسألك عنه وتتجاهل وجوده، فكأنك لا تعلم ان المسلم الذي يخرج عن الطاعة يموت !..

قال : ان الرجل الماثل بين يديك الآن لا يخاف الموت ، ولو كانت حياتي لي لسألتك أيها الأمير أن تأخذها الساعة .

– لقد قلت من قبل ان حياتك ليزدجرد !

– انها لابنتي ولكني لا أريد من ناحية اخرى أن أموت ، قبل أن أرى الرجل الذي ذكرت .

قال : لقد عرفت الآن شيئاً من سرك .

– ان زوجتك عهدت اليك قبل ان يغمض عينيها الموت في ان تنقل كلاماً الى يزدجرد ، كانت تريد هي ان تقوله له .

– لك ان تظن ما تشاء أيها الأمير !

– وانـّا قد رأينا الآن رأياً هو أن تقيم بيننا في هذا المنزل حتى ينتهي العام الخامس عشر فتعترف لنا عندئذ بكل شيء ..

– تفعل ذلك مع عمالك الخونة يا مولاي ، أما أنا فليس لك أن تجعلني أسيراً ولا ذنب لي ..

– ومن يمنعني إذا فعلت ؟

– امـــير المؤمنين الذي يرعى المسلمين ويضرب الظالمين .. اني سأبوح لك بسري ، عندمـا تأتي ساعته ، دون أن أكون أسيراً في منزلك ، ودون ان يكرهني على ذلك وعيد وتهديد .

قال : نخشى أن تفر في تلك الساعة وتلحق بمولاك .

قال : لا يفر الا المجرمون وانا لست منهم .

– وهل تعدني الآن انك ستبقى في منزلك على الشاطيء ؟

– اجل، واني لا انتقل منه إلا إذا اذنت لي .

أتضمنه يا عبدالله ؟

فتردد عبدالله في جوابه . فقال شهريار : يكفي اني وعدتك وقد تنسى انت ما حدثتني به ، أما أنا فلا انسى وسأفي بما وعدت .

فابتسم قائلاً : وابنتك يا شهريار ؟

– ماذا تريد من ابنتي يا مولاي ؟

– لماذا يسمونها اليتيمة الساحرة ؟

فلمعت عيناه وقال : لانها يتيمة يا مولاي، ولأن في عينيها ووجهها سحراً..

– ومن رآها من فتيان العرب ؟

– طائفة منهم ومن فتيان الفرس .

– ان اليتيمة لا تزف إلا إلى من تحب .

قال : قد تحب صعلوكاً من صعاليك فارس .

– ليس لها ان تفكر في زوج فارسي ولو كان من الملوك !

– لماذا ؟

– لأن امها ارادت ان يكون زوجها عربياً !

قال : لقد رجعنا الآن الى الأسرار .

فأدرك الرجل انه جاوز الحد في ذلك الاعتراف ، فقال : استطيع يا مولاي ان ابوح لك بهذه الناحية من السر .

قال : هات .

قال : لقد احبت زوجتي فتى من فتيان العرب رأته في القادسية واعترف لها هو بحبه ثم تعاهد الاثنان على الزواج .

– وتعرف اسمه ؟

– لا يا مولاي بل اعرف انه من بني ثقيف .

– واي شيء جرى للاثنين بعد ذلك .

– كنت انا احبها وقد وصفت لها لوعتي وغرامي وهي لا تنظر اليّ ولا تفكر الا في ذلك العربي الذي فتنها جماله .

وجعل يتنهد قائلاً : والحب يا مولاي يعمي البصائر ، فقد خطر لي ان اشكوها الى ابيها ، ففعلت ، ثم رأى ابوها بعينيه ذلك الفتى يرسل اليها نظرات العشاق ، فخاف ان تخرج من منزله وتلحق به ، فيلحق به العار ، فزفها اليّ وهي تستغيث وتبكي وهو لا يرحم ولا يصغي الى ذلك البكاء .

– وكيف استطعت ان تعيش معها وهي لا تحبك ؟

– احببتها حتى لو سألتني ان ابذل لها دمي لفعلت .

– ثم ماذا ؟

– ثم انتقلنا الى المدائن ، فأمرني يزدجرد بأن ادخل بلاطه واكون من رجاله ، فلم استطع الا ان اطيعه واشكر له نعمته ، اما هي فغضبت لدخولي البلاط ولم تشأ إلا ان تبقى في منزل لها على شاطىء دجلة .

– وابوها ؟

– واما ابوها فكان قد مات يوم فرار الجيش الى المدائن ، وماتـ مها بعد شهر ، فبدات هي تلعن قومها ولم تكن تطيق ، ان يذكر لها أحدهم واحد من الفرس او يحدثها بأمر من أمور فارس .

– وبعد دخول العرب ؟

– لجأنا الى جلولاء كما تعلم ، ثم الى حلوان واوصتني فيها بأن ابغض قومي كما ابغضتهم هي ، وازف ابنتي إذا بقيت الى عربي !

– وابغضتهم منذ تلك الساعة ؟

– اجل ، حتى اني كرهت بلادي من اجلهم وآثرت الاسلام على كل شيء !

قال : صدقت ! كل شيء إلا امراً واحداً لا اومن به .

– وما هو ؟

– هو ان الرجل لا يبغض قومه بدون ذنب .

– ولكن الحب يعمي البصائر كما قلت ، فهو وحده الذي أكرهني على مـا فعلت وانتهى الامر .

قال : أتعلم لماذا ابغضت زوجتك قومها ؟

– نعم فقد نشأ هذا البغض منذ زفها أبوها إليّ وهي لا تحبني ولا تطيق ان تبتعد عن ذلك الفتى الثقفي .

– ورضيت انت بهذا ؟

– رضيت كما ترى .

– والكلام الذي تريد ان تنقله الى يزدجرد ؟

– قف يا مولاي اليوم عند هذا الحد ولا تسألني عن أمر آخر .

قال : لقد ذكرت لنا من قبل ان العيش لا يطيب لك الابعد ان تشيّع الملك الى القبر !

واقول ذلك اليوم وغداً حتى ارى الملك محمولاً على الأكفّ .

قال: إنها حكاية غريبة سمعناها منك وقد نسمع اغرب منها في هذه الساعة اسمع يا شهريار .. ان الأمير الذي يخاطبك الآن يريد ان يزوج اليتيمة .

– اليوم يا مولاي ؟

– في هذا الشهر ..

– ولكني لا استطيع ذلك يا مولاي .

– إذن فالزواج يخضع لسرك .

– نعم واليتيمة لا تتزوج الا بعد ان ابوح لها به .

قال : لعلك ترضى بما يقوله الأمير عندما تعلم اسم هذا الزوج الذي اختاره لابنتك ..

فأراد الرجل ان يعرفه فقال : اهو من قومك

– أجل ومن أقرب الناس إليّ .

– انه طارق ابن اخيك .

– ومن أين عرفت ذلك ؟

– لم اجد بين الفتيان الذين حولك فتى أقرب منه اليك .

قال : لنفترض انه طارق فماذا تقول ؟

– ليس لي ان اقول كلمة الا في العام المقبل .

قال: وهل تكره ان يكون طارق زوجاً لفتاتك وهو سيد قومه وانت غير معروف ولا تنتمي الى عشيرة ؟

قال : ليس امر الرضى في يدي يا مولاي ، ان اليتيمة هي التي تختار زوجها بعد عامها الخامس عشر ، واما اني لا انتمي الى عشيرة فسريّ يمنعني اليوم من هذا الانتماء وسأذكر عشيرتي بعد عام .

– إذن ليس لنا ان نحدثك بهذا في العام الحاضر .

– لا يا مولاي وانك لا تسمع جواباً إذا فعلت .

– ولكن طارقاً يريد ان يتزوج اليوم !

– زوّجه من تشاء الا اليتيمة .

قال : خبّره يا طارق انك رأيت ابنته في منزله على الشاطىء ، وان الغرام برّح بكما انتما الاثنين ؛ فاحمرّ وجه الخراساني وجعل يقول : وهل حدث ذلك ؟

فقال الاحنف : نعم وقد تعاهدا على الزواج .

قال : اراك تهزأ بي يا مولاي !

فقال طارق : بل ذكر لك ما جرى دون ان يزيد حرفاً .

قال : لم يبق لي ما اقوله . — لماذا ؟

— لان اليتيمة اختارت زوجهاوهذا ما ارغب فيه.. ولكن بقي امر آخراً هو انك ستخنق غرامك في العام المقبل . — وكيف ذلك ؟

قال : قد يدفعك السرّ الذي سأبوح به الى خنق هذا الغرام ..!

فهمّ طارق بان يجيب فأومـأ اليه عمه بان يسكت ثم قال : انه اذن سر خطير يا شهريار ..

— نعم خطير يا مولاي ، ومن يعلم ، فقد يبغض طارق اليتيمة عندما يعرفه ويؤثر عليها فتاة من قومه .

قال : اسمعت يا بني ؟

فرفع الفتى رأسه قائلا : نعم سمعت وستكون اليتيمة لي ولو كانت حياتها وحياة ابيها اسراراً !

فرأى الاحنف ان يخمد ثورة الغرام في صدر ابن اخيه ، فقال : قد يخطر لطارق ان يحمل اليتيمة الى بلاد قومه وانت لا تعلم ..

— بل يصبر فذلك خير له .

— واذا فعل ؟

— ألحق بهما فأقتل الاثنين ثم اقتل نفسي !

— وأي شأن لك بهذا واليتيمة راضية ؟

— ليس لها ان تنفرد بالأمر وهي تجهل السر ... اتريد يا مولاي ان تفعل اليتيمة اليوم امراً تندم عليه غداً ؟

وهل تطمع فتاتك بان تزفّ الى فتىً اعظم شأناً من طارق بن عبدالله ؟

فأطرق ملياً ثم قال : لا تسألني عن شيء بعد الآن يا مولاي فأنا لا أعلم .

قال : قل كلمة واحدة بهذا المعنى .

قال : لو امرت الجلاد الآن بان يضرب عنقي لما فعلت ..

قال : لقد اكتفينا بهذا فأخرج ..

فلما انصرف قال لطارق : ليس من الراي ان تمعن في غرامك يا بني قبل ان تعرف سر الفتاة .

قال : لقد امسيت الآن اسير غرامي وانقضى كل شيء .

– ولكن حكاية الرجل تدعو الى التفكير .

– لا ﻷسرار قط بل بما سمعت ..

قال : خير ما تلجأ اليه الصبر يا بني .

قال : سأصبر ولكني لا اعلم متى اضيّع صبري واصنع مع اليتيمة ما يصنعه العربي النازل في البادية ..

– اتختطفها اختطافاً ؟

– افعل اذا حالت بيني وبينها الاقدار .

وخرج وهو يقول في نفسه : أي شيء هو هذا السر الذي يمنع اليتيمة من ان تتزوج اليوم من تشاء .

وجعل يفكر وهو لا يجد حلاً للأمر الذي يفكر فيه الا ان يأمر الاحنف شهريار باحضار اليتيمة الى مرو الروذ لتراها ام عامر .

فعاد الى القاعة قائلاً : ألا يطيب لك يا عم ان ترى الفتاة ، في مرو الروذ ، ويراها ابي ؟

قال : ومن يضمن لنا انها ستجيء ؟

– مُر أباها بان يفعل .

قال : بقيت لنا كلمة نقولها لشهريار ايها الغلام .

فوثب الغلام الى الرواق، ولم يلبث حتى عاد والرجل وراءه، فقال الاحنف : ان الكلمة التي نقولها لك لا تدخل في الاسرار .

– قل يا مولاي ..

– نطلب اليك ان تزورنا مع اليتيمة بعد بضعة ايام .

فابتسم قائلاً : يظهر ان الامير عبدالله وزوجته يريدان ان يريا الطفلة ..

– اجل فهل تعدنا بذلك ؟

– نعم على ان تعدني انت . !

– بماذا ؟

– بأن ارجع مع اليتيمة الى شاطىء المرغاب عندما نشاء .

– وهل خطر لك اننا سنجعلكما مع الاسرى ؟

– بل خطر لي خاطر آخر لا اجسر على ذكره .

– قل وانت آمن ..

قال : اخشى ان تدخل اليتيمة هذا المنزل وتبقى فيه !

– اذن تظن ان عامل المروين سيعمد الى السيف في زواج ابن اخيه؟ اننا لو اردنا ذلك لأرسلنا جنودنا الى المرغاب تحمل ابنتك ومن في المنزل الى مرو الروذ، وتقابل بالسيف من يتصدى لها من القوم .

قال : صدقت فأنت قادر على ذلك .

– ومتى تجيء ؟

– بعد شهر يا مولاي .

قال : هذا كثير واخونا عبدالله لا يرضى الا بان تعود بعد بضعة عشر يوماً.

قال : اما لامير عبدالله فراض بكل شيء، ولكن هنالك فتى لا يستطيع ان يرضى ، هو ولده هذا .. واشار الى طارق ؛ فضحك الأميران عندما كان طارق يرسل الزفرات .. ولم يترك شهريار مرو الروذ ، الا بعد ان وعد القوم بالرجوع ، قبل ان يمر الشهر .

وكان قلبه يرقص فرحاً كلما فكر في ذلك العاشق النبيل، الذي جعلته السماء حامياً لابنته ..

* * *

– ٢١ –

من هم الفتيان الذين مروا بهذا المنزل وانا بعيد عنه؟

فقال سنان لشهريار : طوائف من اهل المروين ووفود من اهل البصرة مروا بنا منذ ثلاثة ايام .

– وماذا يصنع اهل البصرة في هذه الارض ؟

– يشترون النسيج الخراساني ويحملونه على البغال والنوق .

– وبماذا كانوا يتحدثون ؟

– كانوا يصفون عبد الله بن عامر امير البصرة بقولهم : انه من اعظم الفتيان شأناً وهو في مقتبل العمر .

– وهل كان بينهم رجال من قومك ؟

– ان بني سليم ينزلون في ضواحي الكوفة وهم لا يجيئون الى خراسان الا اذا ندبهم الامراء للقتال .

– ومن عرفت من اهل المروين ؟

– عرفت فتى تعرفه انت هو طارق بن عبدالله بن قيس الذي قصصت علي اخبار ابيه وفضله عليك .

قال : ان عبدالله احب الناس اليّ وماذا صنع طارق ؟

– قضى في هذا المنزل بضعة ايام ، في رواحه ومجيئه .

– ورأى اليتيمة ؟

– رآها وحدثها وذكر لها اباه وام عامر وكانت هي تهش وتبتسم له . . ثم قال : ألم يقص عليك هو ما اقصه الآن ؟

– ولكني اريد ان اسمع حكايته من فمك .

– وما هي هذه الحكاية يا مولاي ؟

– قل اولا كيف اذنت له في ان يرى الفتاة ؟

– انك لم تحجب فتاتك يا مولاي فهي التي تستقبل الاضياف وتدعوهم الى النزول .

– ولكنها لم تجالس قط احدهم ولم يخطر لضيف منهم ان يصف جمالها ويبوح لها بالهوى الذي تغلغل في صدره .

– وهل فعل طارق ما تقوله ؟

– أجل ، وقد انتهى الامر بين الاثنين بان تعاهدا على الزواج وانت توقد النار لاضيافك وتهيء لهم الطعام .

فسكت قليلاً ثم قال : صدقت يا مولاي فلقد رأيت الغرام يتلألأ نوره في العيون . .

ولكن كان عليك ان تمنع حدوث ما رأيت .

– وكيف امنع الفتى من ان يجالس مولاتي ويحادثها وهو ابن المحسن اليها واليك ؟

– كان يكفي ان تجالسها عمرة زوجتك وتنصرف عندما تنصرف اليتيمة .

قال : عفوك يا مولاي فقد اخطأت .

– قل لليتيمة ان تجيء .

فاقبلت الفتاة وهي واثقة بأن طارقاً اعترف بغرامه ، وان اباها سيحدثها بشأن هذا الغرام .

فقال شهريار وهو يبتسم : كيف رأيت ابن عبدالله بن قيس ؟

– اتعني طارقاً ؟

– نعم !

– انه احسن من رأيت .

قال : لو لم يكن كما تقولين لما خطر لك ان تعاهديه على الوفاء وتحلفي له انك ستكونين له لا لسواه . !

فأجابته وهي هادئة : لقد أملت عليّ هذه العاطفة التي تخفق في الصدر ، ان افعل ما فعلت .

ورفعت رأسها كأنها تريد ان تدافع عن ذلك الهوى الذي احست به .

وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه ، فقال : كنت اظن يا بنية انك لا تجالسين الفتيان .

– ولكنك بعثت اليّ بالفتى الذي احببته فكأنك اردت ان تجعلني اسيرة هـواه !

قال : بعثه عمه الى مرو الشاهجان لحاجة له ، فلم يشأ الا ان يزور الطفلة التي ارضعتها زوجة ابيه .

– ولم تأذن له انت في ذلك ؟

– بلى ، علـى ان هـذه الزيارة التي انتهت بالحب الذي ارى ان العرب ستتحدث به !

قالت : يظهر انك تؤثر على طارق فتى من العرب .

فأراد ان يلمس غرامها بيديه قال : استطيع ان اختـــار لك اميراً آخر اشرف نسباً منه واعظم شأناً في قومه .

قالت : كنت تقول لي ان عشيرة عبد الله بن قيس اقوى عشائر العرب وابعدها نفوذاً وهيبة ، في العراق والحجاز .

– ولكني لم أقل انها أشرف العشائر .

– اذن فأنت لا تريد ان احب طارقاً !

اريد ان يكون الزوج الذي تختارينه سيد العرب ؟

قالت : سيد العرب كلها امير المؤمنين أفتحاول ان تجعلني زوجة له ؟

– بل احاول ان اجعلك زوجة لواحد من بنيه .

اما انا فلم يخطر لي انك تستطيع ان تصاهر الملوك .

– واذا قدرت على هذا ؟

فأطرقت ملياً ثم قالت : ليس لك إن تطمع بما لا تستطيعه . ومع ذلك فلو اراد امير المؤمنين ان يجعلني زوجة له ويعهد اليّ في امر الخلافة لما رضيت .

– وماذ تقولين لامير المؤمنين اذا فعل ؟

– اقول له اني احببت طارقاً وانتهى الامر !

قال : ألا تستطيعين ان تنسي هذ الحب يا بنية ؟

– ولماذا تريد ان انساه ؟

– لان ذلك السر الذي لم أبح به يمنعك من الزواج .

– ويمنعني من ان احب ؟

– لا ولكن الحب الذي لا ينتهي الى الزواج يقتل صاحبه ..

قالت : ألا تبوح لي بسرك في العام المقبل ؟

– بلى !

قالت : سأحتمل حبي عاماً واعالج امره بالصبر ربما انجو من هذه الاسرار التي تحيط بي .

– وبعد ذلك ؟

– تزفني بعد ذلك الى الفتى الذي ارسلته ليرى طفلتك .
– ولا تخافين ان يحول السر بينك وبينه ؟
فتمتمت قائلة : لا تستطيع الاسرار ان تفصلني عنه . ولكن قل لي، أتريد أنسى حبي ام ماذا ؟
فدمعت عيناه ، ثم فتح ذراعيه قائلاً : لك ان تحبي من تشائين يا بنية وعليّ أرضى . ! ثم قال : وسنذهب بعد بضعة عشر يوماً الى مرو الروذ .
– واذهب معك ؟
– اجل فأم عامر وزوجها يرغبان في هذا . وهنالك فتى لا يغمض له جفن بعد ان تمسي اليتيمة في مرو الروذ .
– وهل اعترف طارق بغرامه ؟
– بل اقسم لابيه وعمه انه سيقتل نفسه اذ لم تزفي اليه ؟
– ورضي الرجلان بذلك .
– قرأت على وجهيهما دلائل التردد في الامر وخيل اليّ انهما يؤثران عـــلى يتيمة المجهولة النسب فتاة من بنات الاشراف .
قالت : كلما سألتك عن نسبي يا ابي ترددت في الجواب واني خائفة .
– تخافين ماذا ؟
– ان يكون هذا النسب الذي تنتمي اليه غير شريف فيبتعد عني من احب . العرب تهتم لانسابها اكثر مما تهتم لابنائها .
قال : نسبي شريف يا بنية وليس في القوم الذين انتمي اليهم شيء من العار .
– واين قومك ؟
– فرّقتهم الحروب فلجأوا الى الاقطـار البعيدة يبحثون فيها عن اسباب عيش . وبينا الاثنان يتحدثان ، اقبل احد العبدين يقول لشهريار : في الفناء فارسي لم ارَ له وجهاً من قبل .
قال : صفه لي .
– شيخ طويل القامة واسع الصدر وليس في رأسه ولحيته شعرة سوداء .
– وماذا قال لك

– سألني النزول في الفناء بضعة ايام ريثما يستعيد قواه .

– خذ دابته وادعهُ الى النزول .

– ليس معه دابة يا مولاي .

– اذن هو من صعاليك الفرس .

– هذا ما يبدو لي ولكن مظهره مظهر رجل جار عليه الزمان .

– ومن يحمل ثيابه وأشياءه ؟

– لا يحمل غير عصاه .

قال اخرج واعدّ له الطعام وسأراه بعد ساعة ، ثم قال لليتيمة : لسنا من الأغنياء يا بنية ، ولكن الاسلام يأمرنا بالاحسان وليس هنـالك شيء أحب إليّ منـه .

– وهل بقي لنا ما نتحدث به ؟

– بقي ان أسألك شيئاً واحداً هو أن تستسلمي في هذا الحب الذي وصفته لي ، الى الهدوء .

– وقد بقيت لي حاجة اسألك قضاءها .

– ما هي ؟

– هي ان نتعجل في الذهاب الى مرو الروذ .

– لتري طارقاً ...

– أجل، ولكي ألمس بيديّ مظاهر عمه وأبيه .

قال : انك لا تستطيعين ان تعلمي من هذه المظاهر ما تريدين ان تعلميه .

– لماذا ؟

– لأن الأحنف من أدهى العرب ، وعبدالله لا يخطو خطوة واحدة ، بل لا يقول كلمة إلا باذن اخيه .

– يكفي ان انظر الى الوجوه والعيون ..

– ثم تقرأين ما في القلوب .

– نعم !

فضحك قـائلاً : ولكنك نسيت يا بنية ان الامراء الذين هم رجال المشورة

رجال الرأي والسيف، لا تدلُّ مظاهرهم على ما يغلل في النفوس .

– ومع ذلك فاني واثقة بأني سأتبين ما وراء تلك المظاهر، من حب وبغض، ستری بعينيك كل شيء ..

وقامت فخرجت ، واسم طارق يتردد في الصدر ثم يظهر على الشفتين ، صورته الفتانة تتهادى في الفضاء، امام العينين . ولم يلبث شهريار حتى انصرف لى الفناء ، لينظر في امور اضيافه ، ويحسن الى ذلك الصعلوك الفارسي ...

* * *

- ٢٢ -

كان ذلك الصعلوك الذي وصف لشهريار ، يتناول طعامه في زاوية من زوايا لفناء الرحب الذي يتسع لطوائف القوم . وكان أكله أكل جائع مرت عليه ضعة أيام لم يشبع في اثنائها جوفه ، بل لم يذق فيها شيئاً من الطعام . فوقف لخراساني وراءه ، وقد طابت نفسه لما يفعله في منزله ، من العناية بالناس الاحسان الى الفقراء . ولم يشأ ان يخاطبه او يرحب به ، خوفاً من ان يستولي ليه الخجل فيترك طعامه قبل ان يسكت جوعه . ولكن الشيخ حوَّل وجهه ، تلك اللحظة الى الوراء، فرآه، ثم ارتجفت يداه وهو يمدهما اليه قائلاً: انت؟! ت شهريار الخراساني أحد أبطال القادسية وأحد رجال الملك الفارسي المسكين ذي خلعوه عن العرش؟ فجعل شهريار يتفرس في وجهه، وهو يستعرض ماضيه يستعين بذاكرته ليعرف الرجل الذي فاجأه بما سمع . وقد أيقن بانه رأى ذلك وجه من قبل ، وسمع ذلك الصوت ، ولكنه لم يرَ هذا الشعر الابيض ذي يراه الآن . وكادت شفتاه تلفظان اسم الرجل ، غير انه أراد ان يعمد الى سؤال قبل ان يفعل فقال : من أين لك ان تعلم اني شهريار الذي ذكرت ؟

قال : ما نسيت هذه اليد التي قطعها السيف في حروب رستم، وهذه الجراح في هي آثار الشرف على وجهك الضاحك .

قال : في فارس طائفة كبيرة من الرجال قطعت ايديهـا السيوف وشوهت وجوهها الجراح .. وانك لترى هؤلاء الرجال في كل مكان .

ولكن لم يكن بينهم رجل واحد يعرف جهان روز التي كانت حظية يزدجرد وقد تركها في حلوان بين مخالب الشقاء .

فصاح قائلاً : رئيس خصيان البلاط ؟

- نعم، انا طرخان بن نيزك، وقد كنت ، بفضل ابان زرد والد جهان روز، رئيس خصيان البلاط وأقرب الناس الى الملك .

فانحنى يقبله ويقول : انت المحسن اليّ والى جهان روز ولو لم تكن مع يزدجرد في تلك الليلة لما بقيت انا حياً الى اليوم .

وأنهضه قائلاً : اتبعني الى المنزل وسيهيأ لك الطعام من جديد .

وتقدمه الى قـاعة الجلوس ثم بسط له مع سنـان ، افخر ما في المنزل من طعام ، ثم وقف ينظر الية حتى فرغ من اكله فقـال له : أوضعت العرب يدها على يزدجرد !

قال : اسألك عن جهان روز قبل ان تسألني عن الملك ... أتقيم هي معك بهذا المنزل ؟

- بل تقيم بحلوان !

- وحدها ؟

- مع طفلتها التي ولدتها بعد خروج ملكك !

- وكيف تركتها وقد وعدت بانك ستعنى بها كما يعنى الرجل بزوجته ؟

- اكرهني القدر الجائر على ذلك .

قال : حدثني بما تعلم .

قال : فصل الموت بيني وبين جهان روز .

فاطرق قائلاً : ماتت لؤلؤة الفرس ؟

- نعم ، ولحقت بها طفلتها على الأثر فوضعت الاثنين في حفرة واحدة ، بين

صخور ذلك الوادي الذي رأيته ..

فجالت الدموع في عيني الشيخ ، ثم وضع رأسه بين يديه وهو يلعن ذلك القدر الذي جار .. ثم رفع رأسه فقال : وذلك المال الذي أخذته ؟

– امـا المال فقد بذلت بعضه في شراء هذا المنزل وانا ابذل البعض الآخر في إطعام الفقراء كما رأيت .

قال : اراك تلبس لباس العرب .

– لقد أمسيت عربياً مسلماً وتزوجت فتاة مسلمة ..

– ولماذا فعلت ذلك ؟

– لأني رأيت في الاسلام نوراً يقود الناس الى الله عزّ وجلّ .

– وأين زوجتك ؟

– صرعها الموت على هذا الشاطىء منذ اربعة أعوام ..

– وليس لك بنون منها ؟

– لي فتاة في الثالثه عشرة ...

وقد كره أن يقول له انها في الرابعة عشرة خوفاً من ان يظن الظنون .

قال : خير لك ان تتزوج مرة ثانية .

– لقد سئمت الحياة واني لأرغب في ان اقضي العمر كله في هـذا المنزل ، استقبل فيه اضيافي واخدم اللاجئين إليه .

فتنهد قائلا : هنيئاً لك ..

– قل هنيئاً لمن يعيشون في ظل يزدجرد .

وكان الريب قد دب في صدر شهريار، وقام في ذهنه أن الرجل من جواسيس الملك الذين يطوفون في البلاد للاطلاع على أسرار العرب وجمع المال من الامراء المخلصين للعرش ، على انـه لم يقل كلمته ، حتى رأى عينيه تختلجان ، ووجهه يكفهر ، والحقد يرتسم عـلى جبينه بصورته الرائعة ، ثم سمعه يقول : خير لك ان تقول : هنيئاً للقوم الذين يعيشون في ظله ..

– أأنت رئيس الخصيان وتقول هذا ؟

– كنت رئيس خصيانه منذ شهر .

– واليوم ؟

– امـــا اليوم فأنا شقي كما ترى ، وفقير من فقراء فارس الذين يقفون على الأبواب ويسألون النـــاس الاحسان . فقال في نفسه انـه مظهر من مظـاهر الجواسيس ، ثم قال له : وكيف أمسيت من الفقراء ومال الملك كله بين يديك ؟

– لقد طردني من خدمته كما يطرد المجرم ، دون ان يسمع لي ، ودون ان يصغي الى ما اقوله له ..

– وما هي التهمة التي وجهت اليك ؟

– تهمة الخيانة، فقد قال لرجاله اني انصح له بان يبذل ماله لأمراء الاقـاليم ليكونوا عونـاً له ، وليس لي من وراء ذلك غير غـــاية واحدة هي ان اجعله من الفقراء .

فابتسم ابتسامة الاستهزاء وقـال : لي كلمة أقولهـا لك وأخشى أن أسيء بهـا اليك .

قال : لم يتردد الملك الذي كنت من اخلص رجـاله ، في الاساءة إليّ ، قل ما يخطر لك .

قال : يقوم في ذهني انك تخدعني بهذه الحكاية التي قصصتها عليّ الآن .

قال : لم اكن من قبل كاذباً لأكذب الساعة .

– ولكن الملك يبعث رجاله الى كل قطر وقـد تكون انت منهم .. خبرني كل شيء ولا تخف فأنا لا أخون قومي ولو كنت مسلماً .

فبكى قائلاً : وهل يبعث الملك هؤلاء الرجال بدون مـال ؟ انظر الى هذا الثوب البالي الذي ألبسه ، اني لا املك سواه وليس فيه درهم واحد استعين به على الشقاء الذي دفعني الملك اليه ..

قـال : الرجل الذي يطوف في البلاد بأمر الملك لا يحمل ماله بل يعمد الى

اخفائه في بطن الأرض ، في مكان لا تنتهي اليه العيون ، قل اين خبأت مالك ، واعترف بسرك وأنا اعدك بالكتمان .

– اقسم لك اني خرجت من خدمة يزدجرد خروجاً لا رجوع بعده وسأقضي العمر كله بعيداً عنه ..

– وكيف تعيش ولا مال لك ؟

قال : سأجد بين اولئك الاصدقاء الذين كانوا يتملقونني وانا في البلاط ، واحداً يرضى بان يجعلني بين عبيده !

فأيقن شهريار بانه صادق فيما رواه فقال: اما انا فأرضى بان تقيم بمنزلي كأنك من اهله ..

– العمر كله ؟

– اجل وسأكون خادماً لك .

– ولكنك لست من الأغنياء .

– يكفيني المال الذي اخذته من يزدجرد .

فارتفع صوته بالبكاء ثم جعل يقول : لقد وجدت في هذا العالم من يَحسن الى الشقي المنكود الحظ .

قال : لقد كنت محسناً اليّ من قبل وانا لا استطيع الا ان اذكر النعمة واعترف بالفضل .. قل الآن اين تركت يزدجرد ؟

– لا تسألني عنه فانا قد نسيت الماضي واعتقد ان الرجل قد مات ..

– بل أسألك عنه قبل كل شيء، فلي كلام اقوله لهذا الملك الذي يكافىء بالطرد، رجاله المخلصين له .

– تستطيع ان تراه لتقول له ما تريد ان تقوله ؟

– وكيف ذلك ؟

– ان المنزل الذي يقيم به لا تفتح أبوابه إلا لسكانه .

– دلني عليه وأنا أحطم هذه الابواب التي لا تفتح لأحد !

.. ذن ستعمد الى القوة يا شهريار .

– بل اعمد الى اللين والدهاء حتى يأذن لي في الدخول .

– وان لم يفعل ؟

– يفعل عندما اذكر له اني رسول جهان روز . اين تركته ؟

– في كرمان .

– ولكني بحثت عنه فيها فلم اجده .

– وهل تظن ان اهل كرمان يدلون الناس على منزله ؟ انهم لو فعلوا ذلك لأمسى الملك في أيدي أعدائه الذين يطوفون في البلاد باحثين عنه .

قال : أفي البلد، ضواحيه ؟

– في البلد ، أتعرف ذلك الجانب من السور ، الذي هدمته العرب ؟

– من ناحية الشرق ؟

– اجل أعرفه وقد انتهيت اليه في الطواف .

قال : في تلك الناحية ، عند السور ، بيت يشبه الحصن هو بيت الملك .

– وتحيط به الاسوار من الجهات الاربع ؟

– نعم !

قال : عرفته وقد خيّل إليّ انه مهجور لا ينزله احد من الناس ، ومن في المنزل من القوم ؟

– اربعة من الامناء ، وثمانية من العبيد والخصيان ، والبنون ، والنساء وجواريهن.

– وأي باب يُدخل منه ؟

– الابواب مقفلة في النهار والليل ، وعندما يريد احدهم الخروج الى السوق يخرج من السراديب التي تنتهي الى منزل مهجور يجاور ذلك البيت .

قال : لقد عرفت الآن كل شيء وسأرحل الى كرمان بعد ان ارجع من مرو الروذ .

– وماذا تصنع في مرو ؟
– اذهب اليها مع ابنتي بأمر من عامل المروين الأحنف بن قيس .
قال : لقد ملأ اسم الاحنف وهيبته كرمان ..
– انه من أعظم أمراء العرب وقد طلب إليَّ ان ازفَّ ابنتي الى طارق ابن اخيه .

فسكت قليلاً ثم قال : يظهر انك وعدته بالقبض على يزدجرد .

– لم أعد بذلك احداً ، ولكني أريد ان امثل بين يدي يزدجرد لأخاطبه جاثياً على ركبتيَّ كما كنت افعل من قبل ، ثم اخرج من منزله وليقبض عليه الاحنف بعد ذلك فأنا لا ابالي !

قال : اذكر لي ما تريد أن تقوله له .
– لا استطيع ان اذكر لك شيئاً فذلك سرٌّ لي .
– ولكنك تستطيع ان تذكر لي شيئاً آخر .. أأنت عدو الملك أم صديقه؟

– قلت لك اني لا أعبأ بأمره بعد ان أراه ، وانت ؟ أيطيب لك أن ينجو الملك من أعدائه ؟

– بل يطيب لي ان يضع هؤلاء الاعداء أيديهم عليه وعلى رجاله .. ولكني أكره ان اكون نذلاً واذلَّ العرب على منزله !

قال : اذا قبضوا عليه قتلوه .
– لا تهدأ فارس الا بعد أن يموت ..
– اذن فاعلم اني من هذا الرأي ولا يهنأ لي عيش الا عندما أرى الملك جثة خرساء ..

قال : اخشى ان ينتهي سعيك بالفشل فتخسر حياتك .
قال : لا ابالي بهذه الحياة التي خسرتها وأنا حيٌّ !.

ودعا سناناً فقال له : سيقيم هذا الرجل بيننا ما طابت الاقامة له ، فهو من المحسنين إليَّ ويكفي أن تعلم هذا .

فخرج الرجل لينقل أمر مولاه الى العبدين ، ودخلت اليتيمة لـــترى ذلك الضيف الفارسي ، فقال شهريار : هذه ابنتي .

فجعل الخصيّ يتفرس فيها .. وقد مثلت امام عينيه، في تلك اللحظة صورة جهان روز حظية مولاه. ولكنه لم يقل كلمة بل انحنى يصافح تلك اليد الممدودة اليه وقد استولت عليه الظنون .. وشعر شهريار بأن الرجل عرف شيئاً من سره ، فابتسم، ثم نهض وأومأ الى اليتيمة بالخروج قائلا : الى اللقاء.. وايقن ابن نيزك عندئذ بان تلك الفتاة ابنة المرأة الحسناء التي تركها يزدجرد في حلوان .

* * *

- ٢٣ -

مرت عشرة أيام ، واليتيمة تفكر في مرو الروذ ، وفي ذلك الحبيب الذي ستراه فيها بعد بضعة أيام . وكان أبوها يعد عدة الرحيل الى كرمان ، بعـــد رجوعه من مدينة الاحنف بن قيس .

وطرخان بن نيزك، يصف له كل يوم منزل الملك والمنازل التي تجاوره . وبينا هو يفعل ذلك في صباح اليوم الحادي عشر وشهريار يصغي الى مـــا يقوله دخل الفناء عربيان يقودان فرسيهما وكانا يقولان لسنان : نحن الآن في منزل شهريار الخراساني أليس كذلك ؟ — بلى !

ـ وأين هو الرجل ؟

ـ هنا .. فمن انتما ؟

ـ الحارث بن يزيد وخالد بن عبدالله من جيش البصرة فاذهب وقل له اننــا نريد ان نراه الساعة .

فانصرف ينقل الى مولاه مـــا سمعه منهما ، فجعل شهريار ينظر الى الخصي ويقول : أي شأن لرجال البصرة مع شهريار الخراساني .. ثم دعاهما الى قاعـة الاضياف وجعل يرحب بهما ثم قال : من امراء البصرة ؟

فقال خالد بن عبدالله : نعم ومن رجال الامير عبدالله بن عامر وقـــد بعثنا اليك !.

ـ انا ؟. – نعم .

ـ ولكني لا اعرفه ولم ارَ له وجهاً .

ـ وهو لا يعرفك ولكنهم وصفوك له .

ـ وماذا يريد ؟

ـ بعثنا لنخطب له ابنتك !

فاضطرب قائلاً : ان ابنتي في الرابعة عشرة من العمر وهي لا تصلح للزواج الآن .

ـ ان الامير يعرف ذلك ولك ان تزفها بعد عام .

قال : اود لو يجعلني الأمير عبداً من عبيده ، ولكني لا استطيع ان ارضى ما يريده . لا والله لا استطيع ذلك .. – لماذا ؟

ـ لان هنالك اشياء تمنعني من الرضى .

ـ وهل نقول للامير ان الرجل لا يريد ان يزف ابنته اليك ؟

ـ بل تقول له ان هنالك سببين اثنين يعتذر بهما .

ـ ما هما ؟

ـ احدهما اني حلفت لزوجتي وهي على فراش الموت ان ابنتها لا تزف الا الى الفتى الذي تختاره هي .

ـ والآخر ؟

ـ اما الآخر فهو انها تكاد تكون مخطوبة .

ـ لمن ؟

ـ لأمير عربي من امراء مرو الروذ ، ليس من الرأي ان نذكر اسمه لجميع الناس .

ـ وهل تخجل من ذلك ؟

ـ اخشى ان أسيء اليه اذا فعلت .

ـ ولكن الأمير عبدالله بن عامر سيسألنا عنه .

ـ قل له انه احد انسباء عامل المروين .

فجعل يقول : عامل المروين الأحنف بن قيس . فمن هو نسيبه الذي ذكرت؟

ـ طارق ابن اخيه .

فقال الحارث بن يزيد: على الفتاة التي يخطبها رجلان اثنان ان تختار اعظمها شأناً وأبعدهما صوتاً .

ـ وهل يريد امير البصرة ان يخلق هذا الاختيار فتنة بين صفوف العرب ؟ يكفي ان يعلم انها مخطوبة لسواه .

ـ بل يكفي ان نقول له ان الفتاة آثرت طارقاً عليك.. أتأذن لنا ان نسأل فتاتك سؤالاً ؟

ـ اطلب اليك ان تذكر لي هذا السؤال قبل ان تراها .

ـ اريد ان اصف لها أمير البصرة ثم انقل اليه جوابها كما هو .

ـ اذن فأنت تشك فيما قلته لك .. ادعُ مولاتك يا سنان .

فأقبلت اليتيمة وعيناها السوداوان تبعثان السحر . فاستوقف جمالها ذينك الأميرين وجعلا يتبادلان النظرات ، ثم قال الحارث :

نحن من البصرة وقد قدمنا لحاجة لنا في هذا المنزل .

فقالت وهي تلتفت الى ابيها : مرحباً بأهل البصرة .. ان أبي لم يكن قط من عمال أمير المؤمنين ليقضي الحاجات .

ـ ولكن هذه الحاجة لا تعني سواه .

ـ اذن فاسأله قضاءها .

ـ لقد فعلت ولكنه لم يشأ الا ان يكون لك فيه رأي .

قالت : ما هي حاجة الأميرين يا مولاي ؟

ـ ستسمعينها الساعة فقولي لها ما تريدين ان تقوليه فقد اذنت لك .

فقال الحارث : ارسلنا الى ابيك عبدالله بن عامر عامل الخليفة .

فاضطربت كأنها عرفت ما هي الغاية من المجيء، ثم قال : الا تمر بهذا المنزل وفود من اهل البصرة كل عام ؟

ـ تمرّ بنا وفود من كل بلد وكل جنس .

قال : لقد وصفت له الوفود التي ذكرت ، هذا الجمــال الفتان الذي يخلب الالباب فبعث بنا نسأل اباكِ ان يجود به عليه .

قالت : يظهر ان اهل البصرة يبالغون في الوصف .

ـ بل كانوا أعجز عن ان يصفوا عينيك الساحرتين .

ـ وهل يطيب لابن عامر، وهو الأمير العظيم، ان يتزوج فتاة أبوها فارسي، ولا نسب له ؟.

ـ لو لم يكن يريد ذلك لما طلب الينا ونحن من رجاله ، ان نخطب له .

قالت : أأذكر لهما كل شيء يا ابي ؟

ـ اجل فهما لم يصدقا ما قلت .

ـ اذن فليعلم الأميران اني اخترت الفتى الذي سيكون زوجاً لي .

ـ من هو ؟

ـ طارق بن عبدالله بن قيس .

وكان شهريار يبتسم ، فقال الحارث : ليس بين امراء العرب مثل ابن عامر ، انه فتى كريم المحتد حسن الوجه ، وشجاع ترهب الابطال لقاءه في الميادين .

ـ ولكن الأمر قد انتهى الآن كما رأيت .

ـ بل هوالآن في أوله وليس لكإلا أن تؤثري واحداًمن الأميرين علىالآخر.

قالت : أنؤثر طارقاً بالامس ثم نقول له اليوم : اذهب فقد نسيناك واخترنا امير البصرة ؟ !

ـ وماذا يحدث اذا فعلت ذلك ؟

فابتسمت قائلة : يهزأ بي آل الاحنف ويخسر ابي هذا المقام الذي يحفظه له عامل المروين . !

ـ ولكن المقام الذي يعده له عبد الله بن عامر في البصرة ، اعظم منه .

ـ ان ابي لا يترك شاطيء المرغاب .

ـ نضمن لك انه يتركه اذا رضيت بالخطبة .

فارادت ان تعبث به فقالت: نسيت ان اقول لك ان هنالك سراً لايستطيع

ابي ان ينساه .

– وبأي شيء يقضي هذا السر ؟

– يقضي عليه بألا يزوج ابنته قبل عامها الخامس عشر .

قال : ان ابن عامر في مقتبل عمره وهو يستطيع أن يصبر .

– اما انا فأرى من العار ان انسى الان ما وعدت به منذ أيام .

قال : لقد خطر لي الان خاطر آخر.

– وانا أرجو ان ينقذك هذا الخاطر مما انت فيه ، ما هو ؟

– هو ان نذهب نحن الاثنين الى مرو الروذ ، ونسأل الاحنف بن قيس باسم ابن عامر ، ان يصرف ابن اخيه عما يهم به !

فقال شهريار : خير لك ان تبقى على هذا الشاطيء او تعـــود الى البصرة فالاحنف بن قيس لا يغضب طارقاً .

– كما انه لا يريد ان يغضب عبدالله بن عامر ، وهو عامل عثمان وابن خاله واقرب الناس اليه .

قال : اذا رضي الاحنف فطارق لا يرضى ولا اظن ان هذين العاملين يعمدان الى الحرب من أجل فتاة .

– اذن سأقول للامير ان الفتاة مخطوبة لفتى تحبه وستزف اليه .

قال : لا تذكر الزواج فالزواج لا يتم اليوم ، وقد يخلق الله بعد عام مـــا لا نعلم .

– وهل يكون الزواج بعد عام ام انت تهزأ بنا بهذا القول ؟

– ان اليتيمة لا تزف اليوم الى رجل ولو كان امير المؤمنين نفسه .

– قل ان اليتيمة تحجبها الاسرار من كل ناحية وهذا ابلغ ما تقول .

– اجل تحجبها الاسرار كما قلت والعالم كله لا يستطيع ان يمحو هذه الاسرار او يغير منها حرفاً .

فسكت الرجلان لحظة ثم جعل القوم جميعهم يتحدثون بأمر الحرب ويذكرون يزدجرد وطرخان الخصي ساكت لا يقول كلمة .

وكان رسولا امير البصرة يرسلان النظرات ، من حين الى آخر ، الى وجه اليتيمة الساحر ، ويعذران طارقاً

وكان الحارث بن يزيد يقول في نفسه : لو رآها ابن عامر لسعر نار الحرب من اجلها ، بينه وبين جميع الامراء .

وانصرفت الفتاة بعد ساعة وهي تقول لسنان : يريدون ان اترك طارقاً وهم لا يعلمون ان هذا الحب الذي تتأجج ناره في ضلوعي لا يزول حتى يزول العمر . ومر ذلك اليوم ثم انقضى الهزيع الاخير من الليل واليتيمة تفكر في ذلك الحبيب الذي يحاولون ان يسلبوها اياه . وشهريار لا ينظر بعين الرضى الى هذه الرسالة التي يحملها الرجلان .

* * *

- ٢٤ -

اقبل شهريار واليتيمة الى مرو الروذ ، في مساء يوم صفت سماؤه ، وقد غربت شمس ذلك اليوم ، وكانا يريدان ان يريا طارقاً قبل ان يريا الاحنف . فلما وقعت العين على العين ، تساقطت الدموع من عيون العاشقين ، وعقد الفرح لسانيها فكانا يتكلمان بالنظرات وكانت ام عامر في دهليز المنزل ، فلما سمعت طارقاً يرحب بالضيفين ، وثبت الى الباب ، ثم فتحت ذراعيها وهي تقول :

ابنة شهريار ؟ ؟ . انك ابنتي وانا ام عامر ! فارتمت اليتيمة بين تينك الذراعين وغمرت البهجة نفسها عندما أحست انها بين ذراعي امها بالرضاع . وجعلت ام عامر تنادي زوجها عبدالله ، فأقبل ، ثم لم يلبث حتى ضم الفتاة الى صدره وجعل يقول :

طفلة حلوان . طفلة حلوان . ويردد كلمته كأنه لا يصدق ان تلك اليتيمة الصغيرة التي دفعها الى زوجته في حلوان ، أمست فتاة تفتن العقول. وعلى ان

الريب دبّ في صدره ، فقد خيل اليه في تلك اللحظة ، ان هذه الساحرة التي لا تحمل ملامح شهريار ، ليست ابنة له ودخل الجميع المنزل وهم يحيطون اليتيمة بنطاق من العيون .

ثم جاء الاحنف ، فرأى ما رآه اخوه عبدالله ، وقام في ذهنه ان شهريار لم يكن صادقاً في قوله ان اليتيمة ابنته . واقبل يحادث الفتاة ويسألها عما يطيب له ، وهو يسمع غير اللسان الفصيح والجواب الصريح .

وقد رأى القوم صورة الغرام ، على وجه طارق وفي عينيه .

ثم خطر للاحنف خاطر فقال لأخيه : امنع الغلمان من الدخول ، ثم قال : خبرنا طارق يا بنية انك تحبينه وانك حلفت له انك ستكونين له لا لسواه . .

فصبغ الخجل خديها وتمتمت قائلة : صدق طارق .

– وكيف نشأ هذا الحب ؟

– كما ينشأ كل حب في كل قلب .

قال : انصرف طارق الى المرغاب زائراً فعاد وهو عاشق . !

قالت : لم يكن هنالك شيء جديد فيما جرى له .

قال : أتحبينه لمقامه ام لجماله

– لا اعلم الا اني حبه ، وهذا ما اعترف به الان وليس في ذلك عار .

– اخشى ان تكون منزلته من عمه عامل المروين ، هي التي أوحت اليك بهذا الغرام الذي تعترفين به .

قالت : لو كان طارق ابن اخيك صعلوكاً من صعاليك العرب ، لما خطر لي ان اهب هذا القلب لسواه .

– ارى ان انصح لك يا بنية بما افكر فيه .

– بماذا ؟

– بان تتركي طارقاً فقد يموت عمه وابوه في الحرب غداً فيخسر الامارة ويضيع المقام الذي هو له !

– لا خير في طارق اذ هو لم يخلف الاحنف في القيادة .

قال : ليست الامارة في العرب ارثاً ينتقل من الاب الى الابناء .

ـ وما هي اذن ؟

ـ كلمة ينطق بها امير المؤمنين فهو وحده يؤمر من يشاء ويحرم من يشاء .

ـ حسب الفتى ان يكون جندياً من جنود امير المؤمنين ، ثم قالت : ألم تكن سيد قومك قبل ان تخوض الميادين؟

ـ بلى !

ـ وسيكون طارق سيد قومه ، بعد عمه وابيه !

ـ واذا ضيّع كل شيء ؟

ـ يكفي انه لا يضيع هذا الحب .

فرأى الامير ان الحب يتكلم ، وانه لا يستطيع ان يغير حرفاً واحداً مما كتبه العاشقان ، فعمد الى ناحية اخرى فقال : لقد انتهينا الان من امر الحب وبقي الزواج .

ـ اما الزواج فليس لي ان ابدي رأياً فيه .

ـ ولكنه لا يتم اليوم ، ولا يستطيع ابوك ان ينظر في امره الا في العام المقبل !..

ـ ان لأبي سراً انا اجهله ، فاذا قدرت على انتزاع هذا السر من صدره فأنت الاحنف بن قيس !

حاولت ان افعل فلم افلح ولم اسمع غير جواب واحد لا يتغير كأن سر أبيك قطعة من روحه !

ـ وانت تريد ان تعرف سرّه اليوم .

ـ بل أريد ان نزفك الى طارق وليقض ابوك العمر كله محتفظاً بالأسرار .. وخفض صوته قائلاً : انه يهزأ بنا وبهذا الحب الذي تصفينه لي .

ـ وما هي غايته من ذلك ؟

ـ ان يجد لك زوجاً غير طارق وقد يكون طامعاً بمصاهرة امير عربي أعظم شأناً منه !

- لو كانت هذه غايته لفعلها منذ ايام .
- وهل خاطبه احد الامراء بهذا الشأن ؟
- نعم يا مولاي وليس لك الا ان تسأله .
فقال : أهنالك عاشق آخر يا شهريار ؟
- أجل ، وقد عشقت اذناه ولم ترَ عيناه .
- ومن هو ؟
- امير البصرة عبدالله بن عامر .
فخفق قلب طارق ، واستوى في مجلسه ، وقد حبس انفاسه ، ليسمع كل كلمة يقولها شهريار عن امير البصرة ، فقال الاحنف : قص علينا حكاية الامير .
قال : أقبل الى المرغاب منذ ايام ، رجلان من رجال البصرة يريدان ان يخطبا له .
- وتعرفها ؟
- لا أعرف من اهل البصرة غير الرجال الذين يمرون بالمرغاب ، في الرواح والمجيء ، وليس الرجلان من هؤلاء .
- ولكنك عرفت اسميها .
- نعم ، فاكبرهما يدعى الحارث بن يزيد والآخر خالد بن عبدالله .
- وماذا فعلت انت ؟
- قلت لهما ان الفتاة تكاد تكون مخطوبة لطارق بن عبدالله بن قيس .
وخبّره شهريار كل شيء .
فاطرق الأحنف يفكر في الأمر ثم قال : ليس من الرأي ان يغضب عبدالله ابن عامر فهو ابن خال امير المؤمنين . فتصدى له طارق قائلا : وهل ترى يا عم ان يحطم ابن اخيك قلبه بيديه وينزل لأمير البصرة عن الفتاة التي احب ؟
- بل أرى ان نعالج الامر بالحسنى بيننا وبينه ونبعث اليه برجل يصف له ما لا يعلم من امر غرامك !
- وما شأن الاحنف بن قيس بهذا ؟

– شأنه ان عاشق الفتاة هو ابن اخيه، وابن اخيه لا يخالفه في امر ولا يخرج عن طاعته !!

وهل يلوم امير البصرة ، امير المروين ، اذا كان ابن اخيه من العشاق ؟

– اجل يلومه اذا هو لم يقل كلمته في امر يتعلق بفتى من اهل بيته .

– ان هذه الكلمة تقولها اليتيمة يا مولاي .

– لليتيمة ان تختـــار واحداً من الاثنين وعلى الاحنف ان يمد اصبعه ليمنع الجفاء من ان يبسط ظله فوق الامراء .

– واذا اصر ابن عامر على طلبه ولج فيه ؟

– استعين عليه بأمير المؤمنين قبل ان يلجأ هو اليه .

– خير لك ان يكون هو البادىء بسؤالك .

قال : أتخاف ان يسلبك اليتيمة ؟

– نعم فقد يعمد رجـــاله الى اختطافهـــا في ظلام الليل ، فتشتعل النار بين صفوف العرب الذين يحاربون الفرس .

– ان الامراء لا يعمدون الى ما تقول الا اذا برّح بهم الحب، وابن عامر لم يرَ اليتيمة ولم يفتنه الجمال ، وانما هو أرادها لنفسه ، اذا وصفت له ، ودون ان يعلم ان هنالك عاشقاً يقال له طارق بن عبدالله عاهدته على الوفاء .

قال : تجاهل الأمر الآن يا مولاي فقد يرسل اليك عبدالله غداً من يسألك عن ابن اخيك وعن غرامه .

قال : نسأل سعيد بن عمرو رأيه فهو ابن عم امير البصرة .

– أما أنا فأرى ان نكتم سعيداً ما سمعته الساعة خوفاً من ان تردد الأفواه حكاية غرامي ويُجرّ وراءها الذيول .

قال : رأيك يا عبدالله .

قال : أليست القضية قضية حب لا يعقبه اليوم زواج ؟

– بـــلى .

ـ وهل تعلم انت او سواك ما يحدث لنا بعد عام ؟

ـ لا !..

ـ اذن نصبر حتى يمر العام فقد ينسى امير البصرة اليتيمة ويتزوج فتاة من قومه او يلح في الطلب فننظر عندئذ في الأمر .

قال : لقد رأيت ما يراه طارق .

ـ نعم واعتقد ان في هذا الرأي الخير لنا ولشهريار .

فقال طارق : بقيت لي حاجة اخرى ارجو ان يقضيها شهريار .

فعرف الرجل ما هي حاجته فقال: ستسألني ان اتناسى قسمي وازف اليتيمة اليك في هذه الساعة او بعد ايام ..

ـ اجل فافعل هذا واسأل ما تشاء .

ـ ولكني غير قادر كما علمت .

قال : أفلا تخاف ان ينتهي الأمر بيننا وبين عبدالله الى الحرب ؟

قال : حفظت سري اربعة عشر عاماً فلا اريد ان اضيعه في لحظة .. ان اليتيمة لا تتزوج في هذا العام وانا حي .

فقال عبدالله : كفى يا طارقُ فالرجل لا ينكث عهده .

وقام الاحنف عندئذ يريد الانصراف الى قاعة الجلوس ، فلحق به عبدالله وشهريار وكان هذا يقول له: سأقص على الأمير حكاية جديدة يضطرب لها قلبه.

ـ أحكاية غرام هي ؟

ـ لا، انها حكاية تتعلق بيزدجرد الملك .

فنظر اليه قائلا : يطيب لي ان اسمع الحكايات عن الرجل . اذهب الى قاعة الجلوس وسألحق بك ، فمشى شهريار ، وأقبل الاحنف يقول لأخيه : صف لي ما رأيت يا عبدالله .

ـ رأيت ان طارقاً اسير غرامه ، وانه لن يترك الفتاة التي حبها ولو أمره بتركها امير المؤمنين .

ـ واليتيمة ؟

ـ اما اليتيمة فلا تقع العين على فتاة افصح منها لساناً واحسن وجهاً .

ـ وانا قد رأيت ما رأيته انت ، ولكن ماذا نصنع ؟

ـ تبعث بي وبطارق في الشهر المقبل ، الى ناحية بعيدة عن المرغـــاب ، لنمكث بها شهرين، ثم تأمرنا بالرجوع لتبعث بنا الى ناحية اخرى وهكذا تفعل حتى ينقضي العام فينسى العاشق حسناءه ويعدل عن الزواج .

قال : لو بعثنا به الى السماء لما نسي شيئاً . ان الزواج لا بد منه وسيتحدث اشراف العرب قائلين : هذه زوجة ابن عبدالله لا شرف لها ولا نسب وقد كان ابوها من صعاليك فارس الذين يعيشون في الأسواق !!

ثم قال: اني لم اصدق حكاية شهريار ولم يخطر لي قط انه كان من رجال البلاط في المدائن ومن المقربين الى يزدجرد .

ـ ولكن من هي هذه اليتيمة ؟. انها ليست ابنته ، ولو بعثت امها من القبر وقالت لي هذه ابنة شهريار لما صدقت .

ـ والرأي ؟

ـ خير الآراء ان نتظاهر بالرضى حتى تأتي ساعة الاعتراف بالسر ، فـاذا رأينا ان هنالك عاراً منعنا طارقاً مما يهمّ به .

ـ والا ؟.

ـ والا زوجناه فليس في العرب كلها فتاة تشبه الفتاة التي أحب .

فسكت الأمير وكان سكوته دليلا على رضاه، ثم مشى الاثنان يريدان قاعة الجلوس ، ليسمعا ما يقصه شهريار عن يزدجرد ، وقد عوّلا على الصبر كما قـال عبدالله . وكان شهريار واقفاً بباب القاعة وهو ينتظر الاثنين .

* * *

- ٢٥ -

ماذا سمعت عن يزدجرد ؟

ـ سمعت انه يقيم ببلد لا يبعد كثيراً عن البلد الذي تقيم به انت .

ـ بنيسابور ؟

ـ بل بكرمان .

فظهر الريب في عيني الاحنف وجعل يقول : لم نـترك في كرمان بيتاً الا دخلناه فلم نجد الملك .

ـ وكذلك فعلت أنا من قبل يا مولاي فلم أرَ له في كرمان وجهاً ولم أقف على أثر واحد من آثاره .

ـ وكيف تقول الآن انه فيها ؟

ـ خبّرني بذلك احد رجاله !

فصاح قائلا : يمر بك رجال يزدجرد ويقصون عليك الأخبار وانت ساكت ثم تقول انك عربي وتبذل حياتك في سبيل العرب ؟

ـ وماذا اصنع يا مولاي ؟

ـ ما يصنعه كل رجل تلقي الاقدار عدوه بين يديه .

ـ تريد ان تقول انه كان يجب ان أقبض على الرجل الذي نقل اليّ خبر مولاه

ـ نعم وهذا ما يطلب منك اذا كنت عربياً كما تقول .

ـ ولكني لم اكن بحاجة الى القبض عليه .

ـ لماذا ؟

ـ لانه ضيفي ، وهو يقيم بمنزلي على الشاطيء .

قال : لقد عدنا الى الأسرار فلا حول ولا قوة الا بالله ..

ـ ليس في الامر سر يا مولاي ، ان الرجل في مـــنزلي لا يـتركه الا اذا طردته منه !!

ـ وتزعم انه من رجال الملك ؟

ـ بل اثبت لك انه ابعد رجاله نفوذا وأقربهم اليه .. اتعرف من هو ؟ انه رئيس الخصيان في البلاط وفي كرمان ..

ـ ومن يصدق ان رئيس الخصيان يترك مولاه ليقيم على شاطىء المرغاب ؟

ـ اما انا فقد صدقت وستصدق انت عندما تراه .!

ـ وكنت تعرفه من قبل ؟

ـ كان الصديق الوفي لشهريار الخراساني .

ـ وهل يحمل المال الى امراء الاقاليم يشترون به الرجال ليحاربوا العرب ؟؟

ـ ليس معه درهم واحد يشتري به رغيفاً يملأ به جوفه .

ـ اذن ارسله الملك في مهمة لا تحتاج الى الذهب .

ـ قل انه طرده من خدمته في ساعة جنون !

فبرقت عيناه قائلاً : وانت واثق بهذا ؟

ـ نعم يا مولاي فالرجل لا يكذب وقد خبرت حياته في المدائن وايقنت بانه من اصدق الناس !!

قال : يطيب لي ان اراه لاسأله عما يخطر لي ، فخاف شهريار أن يقابل الاحنف طرخان ، فيبوح له بأمر جهان روز ، فيفسد عليه أمره فقال : اذا اردت ذلك بعثت به اليك بعد رجوعي.. ولكني عرفت كل شيء فليس لك الا ان تسألني عما تشاء .

ـ في أي مكان من كرمان ينزل يزدجرد ؟

ـ عند الجانب الذي هدمته العرب من السور .

ـ وكيف يعيش مع عبيده ونسائه ؟

فقصّ عليه شهريار ما يعلم ثم قال : لقد قلّ مال الملك وسيشعر بالحاجة .

ـ ومن اين لهذا الخصي أن يعلم ذلك ؟

ـ لقد كان مال الملك بين يديه وقد بذل منه للأمراء الشيء الكثير حتى خاف الملك اخيراً ان ينفد هذا المال فتكرهه الحاجة على الاستسلام وهذا ما لا يريده.

ـ وطرد الرجل من اجل ذلك ؟

ـ اجل من اجل ذلك ولم يعطه مولاه درهماً واحداً يأمن معه شر الجوع، لا علمت .

ـ وفي اي شيء فكرت الآن ؟

ـ في امر واحد لم افكر في سواه منذ اربعة عشر عاماً .

ـ ما هو ؟

ـ هو ان ارى الملك في منزله وابوح بسري الذي كتمته جميع الناس !

فقهقه قائلاً : ما رأيت رجلاً ينظر الى نفسه كما تنظر اليها انت .. تريد ان ترى الملك لتبوح له بسرك .. وبعد ذلك ؟

ـ تفعل بعد ذلك ما يطيب لك .

ـ اما انا فقد رأيت غير هذا وقد اتت الساعة التي اقبض فيها على يزدجرد الذي خسرت العرب من اجله الالوف من الرجال .

ـ واين تقبض عليه يا مولاي ؟

ـ في كرمان ، في المنزل الذي وصفته لي .

ـ أليس من الرأي ان تقبض عليه في المنزل الذي اقيم به ؟

ـ الذي تقيم به انت ؟! ـ نعم !

ـ على شاطىء المرغاب ؟ ـ نعم !

فالتفت الى اخيه وقال : لقد جنّ صاحبك يا عبدالله ..

قال : لو عرفت كل شيء يا مولاي لايقنت باني من العقلاء !

قال : أيجيء الملك الى المرغاب ، وهو الطريد الخائف الذي يعيش مستخفياً بين الجدر ويخشى ان تراه العيون ؟!

ـ نعم يجيء ولو كان سيف الجلاد يلمع امام عينيه .

ـ اذن تقوده بقوة السحر !!

ـ بما يشبه السحر يا مولاي .

ثم خاف ان يظن الامير الظنون ، فقال : هب انك انت يزدجرد يا مولاي، افلا تجيء عندما يقال لك ان خمسين الفاً من الرجال ينتظرونك على الشاطىء ليمشوا تحت لوائك الى مرو الشاهجان فينضم اليك خمسون الفاً من اهلها تسترجع بقوتهم العرش ؟؟

قال : أهذه هي الحكاية التي تفكر في ان تقصها عليه ؟

ـ هذه هي .

قال : لو كنت انا يزدجرد لهزأت بك ، وأمرت من حولي من الرجال بان يضربوا عنقك !

ـ ولمَ ذلك ؟

ـ لان الرواية التي تنقلها اليّ رواية مجنون .

ـ وهل يقوم في ذهنك ايها الامير ان الرجل من الحكماء ؟ انه لو كان كذلك لما انتهى امر هذ ك الواسع الى ما انتهى اليه .

ـ ولكنه لا يصدق على كل حال ما تقوله له .

ـ انا اضمن هذا .

ـ ان الاحنف ابن قيس لا يثق الا بهـذا السيف ... اتعرف ماذا نصنع ؟ نرسل الجنود فتحيط كرمان في ظلام الليل بنطاق من الحراب، ثم يدخل بعض الرجال بيوت البلد باحثين عن الملك .

ـ اذا فعلت هذا عمد القوم الى اخفائه في قبر من قبورهم !

فقال عبدالله : اصاب شهريار .

ـ اذن نعمد الى امر آخر هو ان نسير الجنود الى الضواحي ويدخل شهريار مع رجل من رجالنا ، حتى اذا رأى ان الملك موجود بعث الى الجيش يـدعوه الى الدخول للقبض عليه .

قال : عندما يرى اهل البلد الجيش العربي حول كرمان، يفعلون في الداخل ما يريدون ان يفعلوه .

ـ يخيّل الي انك لا تريد ان تقبض العرب على ملكك .

ـ اما ملكي فعثمان بن عفان خليفة المسلمين، واما اني لا اريد ان تقبضوا على الملك ، فليس فيكم رجل أشدّ رغبة مني في القضاء عليه .

ثم قال : ان لي رأيين فاختر احدهما، اما ان اسير وحدي الى كرمان فاحمل يزدجرد بالدهاء والحيلة ، على المجيء الى المرغاب ، واما ان تبعث معي بمن يحمل اليك اخباره فتفعل عندئذٍ ما تراه .

قال : نسلم بالرأي الأخير فمتى تذهب ؟

– عندما تأذن لي ولكن اجعل رفيقي رجلاً اعرفه .

– ليس في مرو الروذ رجل احب اليك من هذا الرفيق الذي اخترناه .

– من هو ؟

– طارق ، وانما نريد ان نرسله في المهمات ليختبر الحياة .

قال : رضيت وسأعد عدة الرحيل .

قال : تمكث ثلاثة ايام ثم تنصرف .

– خير لي ان اسير غداً خوفاً من ان يضيع الزمان .

- انك شديد الشوق الى الملك يا شهريار .

– بل اكاد أذوب شوقاً يا مولاي .

– وكيف تعود اليتيمة معك غداً وهي لم ترَ مرو الروذ وام عامر لا تأذن لها في الرجوع قبل بضعة ايام ؟

– ان اليتيمة تبقى هنا ولا ترجع الى ذلك الشاطىء الا عندما اعود من كرمان .

قال : اراك خائفاً .

– نعم فانا لم أنس امير البصرة .

– وهل تظن انه يرسل رجاله ليحملوا فتاتك اليه ؟

– من يعلم ، فقد يعد جواب اليتيمة اهانة له فيعمد الى ذلك .

– ولكنك كثير الاسفار وستبقى الفتاة وحدها كلما تركت الشاطىء .

قال : نصبر شهرين ، فاذا لم نرَ في خلالها ظلاً لابن عامر ، فمعنى ذلك انه قد نسي اليتيمة وعدل عن الزواج .

قال: اذا كان الاحنف بن قيس لا يغضب امير البصرة فأمير البصرة لا يغضب

الاحنف بن قيس . انه لا يجسر على ان يمد يده الى شيء امتدت اليه يدنا من قبل ضع فتاتك حيثما تشاء ولا تخف .

قال : لست خائفاً وانا في ظلك . اني سأفعل بعد رجوعي مـا تأمرني به ، والاتكال على الله .

قال : خبرنا الآن بما يخطر لك ان تصنعه في كرمان .

قال : اذا رأيت يزدجرد فيها ارسلت طارقـاً اليك ليقود الجنود ، وان لم أره رجعت وانا اتعثر بالفشل والخيبة .

– هو ذاك ، فانصرف الآن ولا تخرج من مرو الروذ الا بعد ثلاثة ايام .

فلم يتردد شهريار في الخروج من القاعة، وكان الليل قد مضى نصفه ، وطارق واليتيمة يتحدثان في منزل عبدالله .

* * *

- ٢٦ -

يئأ شهريار ان يعكر على الحبيبين صفو ذلك الليل .

فلما طلع الصباح.جلس بالقرب من ابنته ثم دعا طارقاً وقال له:تهيأ للرحيل الى كرمان بعد ثلاثة ايام .

فارتجفت شفتا الفتى وهو يقول : الى كرمان ؟ واي حادث جرى فيها ؟

– اعظم حادث تهتم له العرب !

قال : الثورة ؟!

– أعظم من الثورة. ان في كرمان اليوم ذلك الرجل الذي يخلق الثورات.

– يزدجرد؟

– اجل يزدجرد ، فهو في منزل من منازلهـــا والعرب تبحث عنه وتبث عليه العيون .

– ومن خبر عمي بذلك ؟

– انا فقد نقل اليّ احدهم خبر وجوده .

قال : ولم يجد الاحنف في مرو الروذ من يبعث به الى كرمان غير طـارق ابن اخيـه ؟

– هذا ما قاله لي وسيأمرك بالمسير عندما يراك .

– كنت اظن انك ستقيم عندنا شهراً .

– لو استطعت ان اقيم العمر كله لما ترددت في ذلك . ان اليتيمة ستبقى عند ام عامر ريثما نعود .

فاطرق قليلاً ثم قال : اذن لم يبق لي حيلة في البقاء. وهل نذهب نحن الاثنين ام يرافقنا رجل آخر

– لم يشأ الأمير أن نكون ثلاثة ، ان اثنين يكفيـان للبحث عن الملك وانا اعرف المنزل الذي لجأ اليه .

فقالت اليتيمة : أيريد الامير يا أبي ان يقتل الرجل ؟
– يقبض عليه اولاً ثم ينظر في أمره .
قالت : اسمع ان الملوك لا يقتلونهم الا في الميادين .
– ولكن هذا الملك يستحق الموت كما يموت المجرمون .
– لماذا ؟
– لأنه يسعر نار الحرب في بلاده ، كلما أخمدها المسلمون .

قالت : يفتحون بلاده ، ويخلعونه عن عرشه، ثم يريدون ان يستسلم خاضعاً كأنه عبد ؟! انه اذا فعل كان نذلاً لا يصلح للعرش !

قال : لقد فتح الأكاسرة بلاد العرب قبل يزدجرد، واستبدوا بأمرها زماناً طويلاً كان العربي فيه أذل من عبد . .

– ولم تدافع العرب عن أنفسها ؟
– بلى !
– اذن فيزدجرد غير مخطىء في دفـاعه وعلى امـير المروين ان يرفق به اذا اظفره الله بالقبض عليه .

قال : انه لم يرحم عربياً قط ولم يرفق بأحد .

قالت : اراك توغر عليه الصدور كأنه من اعدائك .

– افعل ذلك لأني أعلم انه سفاح قاس لا يبالي بالدماء البريئة التي تهرق حوله والارواح التي تزهق من أجله .

– يكفيه اليوم انــه ملك منكود الحظ ينتقل من موضع الى آخر هارباً من السيف .

– لو كنت تعلمين من هو الرجل لما ترددت في الحكم عليه بالموت .

قالت : ليت الاقدار تمهد لي سبيل التعرف به !

فقال مازحاً : أتريدين ذلك ؟

- اجل !

– وماذا تقولين له اذا مثلت بين يديه ؟

– اعزيه في محنته ، وادعوه الى الصبر على ما يراه من جور الزمان !!

فابتسم طارق قائلا : ولكنك مسلمة وهو عدو الاسلام !

– ومع ذلك فانا لا استطيع ان انظر اليه نظري الى عدو !

– وكيف يكون ذلك وانت لا تعرفينه ؟

– احس ان هذا القلب الذي يخفق في صدري ، يخفق على الاشفاق عليه !!

فحوّل شهريار وجهه وقد اصفر جبينه ثم قال : لا اريد يا بنيــة ان تشفقي على الذئب . ان يزدجرد لا يستحق الرحمة كما قلت ، وان هــذه العاطفة التي تذكرينها ، عاطفة فتاة ضعيفة لا تطيق ان يتحدث الناس امامها بالموت وسفك الدمــاء ...

– بل هي عاطفة اخرى لا علم ما هي .

فقال في نفسه : الويــل لك يا شهريار فقد استيقظت في صدر الفتاة عاطفة الحب البنوي وهذه آثارها ..

وقد استطاع ان يخفي ذعره ، وراء مظاهر الابتسام .

ثم رأى ان يتحدث بأمر آخر فقال لطارق : أتعرف البصرة ؟

– كنت صغيراً يوم كنت فيها .

– وعبدالله بن عامر ؟

– اسمع عنه الشيء الكثير ولكني لم أره .

– ألم تكن مع عمك يوم غزا عبدالله خراسان مع سعيد بن العاص ؟

– كنت مع أبي في ناحية بعيدة عنه .

– يقولون انه فتى حسن الشمائل وشديد البأس .

– بل يقولون انه سيد الميادين .. وسيقولون بعد حين ان له عزيمة خالد بن الوليد واخلاق عمر بن الخطاب !

قال : ذلك غلو لا يصدقه الناس .

– ولكن يكفي ان عبدالله ابن خال عثمان، والناس في هذا الزمان يتسابقون الى حرق البخور ، ويخطبون بالاقوال الكاذبة ودّ امير المؤمنين ، الذي يعزل الامراء لرواية يسمعها او كلمة يقولونها له ، ويؤمّر الانسباء. ثم قـال : ولّى عثان عبدالله امر البصرة وهو في الخامسة والعشرين، أفلم يجد عثمان ، بين أبطال بني تميم وبني أسد وشيبان وسواهم ، اولئك الرجال الذين اخضعوا هذا الشرق ، رجلاً يصلح للأمارة غير ابن عامر ؟

– يكفي انه ابن خاله كما قلت .

– وفي أي شيء استحق الوليد بن عقبة العزل عن ولاية الكوفة ؟ أكلما قال أحدهم لأمير المؤمنين هذا رجل يشرب الخمر ينزل عقوبته بذلك الرجل دون ان يتردد في الامر ودون ان ينظر في هذه الاكاذيب التي يقولونها له .

قال : أصحيح ان سعيد بن العاص جلد الوليد في المدينة ، في مجلس عثمان على مرای ومسمع من القوم .

– نعم ، امره عثمان بان يجلده ففعل ، وهذه عداوة تستمر الى الابد بين اهل الرجلين .

– وأين هو الوليد اليوم ؟

– يقولون انه في المدينة لا يترك بيته الا الى المسجد ، ولو استطاع المرء ان يرى ما في داخله ، لرأى نفساً ثائرة ، ولكنها ساكتة على غل وحقد .. وذلك هو شأن الكرامات التي يجرحونها بدون ذنب .

قال : كنت اسمع في كل بلد أمرٌ به اصواتاً ترتفع ضد عثمان .

– وانا اخشى ان تتحول هذه الاصوات بعد قليل الى فتنة تمد رواقها فوق الحجاز والعراق .

فقالت اليتيمة : أراكما تتحدثان بامور تتعلق بامير المؤمنين وحده وقد نسيتما هذا المسكين يزدجرد .

فأجابها طارق قائلاً : انها امور تتعلق بكل عربي يحترم قومه .

– ولكن ارجو أن يصف لي أبي ذلك الرجل الذي يذهب بعد ثلاثة ايام ليقبض عليه .. !

فارتجفت يدا شهريار وقال : أتعودين الى التحدث بامر هذا السفاح الخائن الذي تغوص الامة من اجله في بحر من الدماء ؟

– بل أعود الى ذكر الملك المخلوع المحكوم عليه بالموت .

قال : يحكم بالموت كل يوم ، على الالوف من الرجال .

– اما انا فلا أعلم ذلك ، وقد لا يكون بينهم رجل يخفق له القلب .

قال : لست خبيراً باحاديث القلوب يا بنية .. فاسألي طارقاً .

فقال طارق : لو كانت اليتيمة تعرف يزدجرد لقلت انها تحبه ..

قالت : يخيّل اليّ ان هذه العاطفة التي تخفق في الصدر ، نوع من الحب !!

– لم يبق اذن الا ان نسأل الاحنف ان يخرج يزدجرد من كرمان كما تخرج الملوك ويعيده الى العرش .

– بل نسأله ان يعفو عنه ويجعله حراً يروح ويجيء في بلاده دون ان يكون السيف وراءه .

– وهذه الحرب التي تندلع ألسنتها في كل قطر ؟

– عندما يعفو القائد العربي عن الرجل تخمد النار .

– وتخمد عندما يقبض عليه .

فخاف الخراساني ان تمعن ابنته في ذلك الشعور الفجائي ، فتحول بينه وبين ذلك الانتقام الذي يفكر فيه فقال : اقص عليك الآن يا بنية حكاية فارسية يرددها اهل فارس .

– ومغزى هذه الحكاية ؟

– مغزاها ان الفرس لا يعرفون الرحمة التي تحسين بها الآن .

قالت : انك تظلم بحكايتك شعباً كاملاً انت منه .

– بل أظلم من هذا الشعب من يستحق ذلك .

فقال طارق : هات ، فانا يطيب لي ان اسمع الحكايات .

قال: كان للفرس ملك جبار خفق لواء ملكه في فضاء هذا الشرق، وخضعت لسلطانه جميع الاقطار كما خضعت من قبل لآبائه .

– ذلك هو كسرى .

– لا أعلم من هو ، ولكني أعلم ان الاقدار وهبت له جميع النعم التي يطمع فيها كل ملك كثرت مطامعه وبعدت همته، وكان بلاطه يغص بالجواري الحسان، وطوائف الغلمان والخصيان ، واشراف فارس من النساء والفتيان .

– يكفي ان يقال انه بلاط الاكاسرة ..

– اجل يكفي هذا فقد ضربت الامثال بهذا البلاط .

– وبعد ذلك ؟

– وكانت في ارض تجاور أرضه ، حرب ، فأراد ان يضم تلك الارض الى بلاده فبعث بقواده ليخضعوها بالسيف .

– انها حرب بينه وبين الروم .

– قد يكون ذلك ولكن قواده خسروا المعركة، وقتل احدهم في الساحة، وهو من اشراف الدولة ومن اصحاب الجاه في قومه ، ولذلك القائد زوجة تقيم بالمدائن وفتاة تقيم مع نساء الشرف ببلاط الملك .

وكان للفتاة ابن عم يحبها وتحبه، وقد اوصاه أبوها وهو يلفظ روحه في الميدان بان يجعلها زوجة له ويكون نصيراً لأمها في المحن ، وعوناً لها على الحياة، أتعرف يا طارق ماذا حدث بعد ذلك ؟

- وماذا حدث ؟

- ماتت الزوجة على الأثر ، وعندما مثل ابن عم الفتاة بين يدي الملك يسأله ان يزف اليه ابنة عمه ، طرده من بلاطه كما يطرد الكلب ، وبعث به الى ساحة الحرب ليقتل فيها كما قتل عمه ، ثم عمد الى القوة فأكره الفتاة على ان تكون حظية له !!

ونظر شهريار عندئذ الى ابنته فرأى وجهها يصفر .. فقال : على ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فان الحظية المنكودة الحظ ، استسلمت الى لوعتها ، وقضت أيامها في البلاط تندب صباها وتبكي غرامها وراء الجدران لاتجسر على البكاء امام الملك الظالم الذي عبث بعرض قائده ، وامتهن كرامته وهو ميت .

- وذلك العاشق الذي ارسل الى ساحة الحرب ؟؟

فتردد قليلاً ثم قال : يظن الناس انه قتل فيها لانهم لم يعرفوا بعد ذلك ماذا جرى له ..

- وكيف انتهى امر الفتاة ؟

- برّح بها الهم والبكاء ، فهوت تصارع الموت في البلاط ، دون ان يكون عند فراشها جارية تسقيها قطرة ماء .

فقالت اليتيمة : وجواري القصر ؟

- ابتعدن عنها جميعهن بامر الملك كما تبعد العرب نوقها عن الناقة الجرباء .

- ولماذا فعل ذلك ؟

- لانه لم يكن يطيق ان ينظر الى النعجة الهادئة التي ذبحها بيده !!

- وماتت ؟

- ماتت وهي لا ترى احداً ، كما يموت بين صخور الوادي ، الظبي الذي يغوص في صدره سهم الصياد .

- ولم يعرف الناس لها ذنباً ؟

- بلى ، ذنبها انها كانت تبكي حظها بين الجدران وهذه خطيئة لا يغفرها الملك الفارسي !!

- ولكني اظن انه ندم على عمله .

– نعم كان ندمه انه لم ينظر الى الجثة .. ولم يبنِ لها قبراً.. ولم يذرف عليها دمعة فما هي الرحمة التي يستحقها هذا الملك يا بنية .

فتردد البكاء في صدر الفتاة ، وأحست ان عاطفتها تسير وراء تلك الضحية البريئة التي عبث بها الملك وانتهى بها عبثه الى الموت ، فقالت : انـــه يستحق اللعنة !

– وتعرفين من هو ؟

– اعرف انه ملك من ملوك فارس .

– بل هو يزدجرد الذي تطلبين العفو عنه !!

وجعل يحدق اليها ليرى بعينيه ذلك التأثير الذي يحدثه قوله .

فاغمضت عينيها ثم مدت يديها الى الامام وهي تتمتم قائلة : لا .. لا اريد ان ترفق العرب بيزدجرد انه لا يستحق الرفق ..

وتريدين ان يموت ؟

- ليفعل الاحنف به ما يشاء فانا لا احبه ..

فنهض وهو يخاطب نفسه قائلاً: يكفي الآن. فقد ايقظت في صدرها عاطفة اخرى ابلغ بها الغاية . وبينا هو يهم بالانصراف ، أقبل الاحنف فقال لطارق : أقصَّ عليك شهريار ما يعرفه عن مقر الملك ؟

– نعم يا مولاي .

– وترغب في المسير الى كرمان ؟

– ارغب في قضاء كل حاجة يأمرني عمي الاحنف بقضائها .

– اذن تهيأ للذهاب ، واليتيمة ستبقى في منزلك ريثما تعود ..

وابتسم .. ثم خرج ليجلس للناس ، فقال طارق : كدت اقـــول له اني لا ارغب في الذهاب .

فقالت : الوطن قبل الحب فانظر الآن في امر وطنك ودع امر هواك ... واقبلت بعد خروج ابيها ، تحدث حبيبها بشأن ذلك السر ، الذي ينغص عليها العيش ، وجعل الاثنان يتعللان بالآمال ..

* * *

لم يفارق طارق حبيبته ، في الايام الثلاثة التي عرفت . كان يذهب الى قاعة الجلوس فيمكث بها ساعة ثم يعود ، وليس له حديث غير حديث الغرام . فلما دنت ساعة الرحيل ، حمل سيفه وخرج من المنزل لا ينظر الى الوراء ، كأنه لا يطيق ان ينظر الى اليتيمة نظرة التودع، أو لعله كان يخشى ان تهي عزيمته وتخور قواه ، عندما يرى الدموع في تينك العينين الساحرتين .

ومشى أمام شهريار وهو يتظاهر برباطة الجأش، والقوة على الاحتمال . وكان الاحنف قد قال له: اذا عرفتما ان يزدجرد في كرمان، فلا تنزل عن ظهر فرسك الا في مرو الروذ .

وكانت كرمان بلداً كبيراً فيه القصور والساحات والاسواق ، يحيط به سور ضخم هدمت العرب جانباً منه ، عند الفتح . فلما انتهيا اليه ، وكانا بلباس اهل فارس ، تظاهرا بانهما لا يعرفان اين يقضيان الليل . وكانا مكرهين على ان يلجأا الى الاكواخ التي تجاور السور ، والى تلك الاكواخ تلجأ طوائف الغرباء والفقراء وشهريار يعرف أسواق البلد وأحياءه ، كما يعرف المنازل التي تجاور منزله على شاطيء المرغاب ، فمشى دون ان يتردد الى ذلك الجانب من السور ، وانما اختار رجال يزدجرد ذلك الجانب ليبعدوا الظنون عن الملك . ولم يكن ذلك الليل مظلماً ، بل كانت السماء صافية ، والقمر يبسط نوره فوق المدينة الهادئة وقد قامت الى جانب المنزل، الذي وصفه طرخان بن نيزك اكواخ صغيرة يأوي اليها كل ليلة فريق من المتشردين، فدنا شهريار من المنزل وبدأ قلبه يضطرب في صدره.

ولا يحسّ الناظر الى منزل الملك ، الا بالوحشة تنشر ظلها فوقه، والسكينة تغمر نوافذه وسطوحه من الخارج كما تغمره من الداخل، كأنه منزل مهجور ليس عليه مظهر واحد من مظاهر الحياة ، فوضع شهريار وطارق أشياءهما بالقرب منه، عند كوخ فيه رجلان، احدهما شيخ جاوز السبعين، والآخر فتى في مقتبل العمر . وعلى الاثنين الثياب البالية ، وكل ما حولهما يدل على فقر، فقال شهريار للشيخ : أتأذن لنا في النزول عند كوخك ؟

قال : انزل حيث تشاء فالارض ليست لنا .

- ولمن هي ؟

- كانت لملك الفرس فأمست للعرب .

قال : مسكين يزدجرد فقد ضيّع ملكه .

- لقد ضاع هذا الملك منذ مات انوشروان.. ان التاج الذي تمتد اليه الايدي وتكثر الطلاب حوله ليس بالتاج الذي يثبت على الرؤوس .

- ومن نازع يزدجرد تاجه ؟

- القواد والزعماء الذين جعلهم في بلاطه.. أجل انهم لم يطمعوا بالجلوس على العرش ، ولكنهم قذفوا بملكهم الى ساحات الحرب فابتلعته الهـوة وابتلعت عرشه .

قال : وهل فتحت العرب المدائن كما يقولون ؟

فضحك قائلاً : هكذا يقولون ..

- وأين هو ملكنا اليوم ؟

- إنه في الحجاز .. ضيف على سيد العرب عثمان بن عفان !! أتسألني عن ملكك وليس له موضع يلجأ اليه ، وليس في فارس كلها رجل يرضى بان يجعله بين ضيوفه ؟! وأين هو الملك ؟ انه في بطن وادٍ أو على قمة جبل، أو في مركب من مراكب الروم ..

- كان عليه ان يلجأ الى هذا البلد فالعرب بعيدة عنه .

قال : لقد جعلت العرب عيونها في كرمان فاذا وضع يزدجرد قدمه فيها فكأنه وضعها في لهوة ..

فهامسه قائلاً : يخيل اليّ انك لست من الفرس .

- وما الذي يدعوك الى هذا الظن ؟

- يدعوني اليه هذا التردد الذي أراه .

قال : لم أتردد في الجواب عن كل سؤال وجهته اليّ ، قلت اني لا أعرف اين هو الملك وانا صادق فيما قلت .

قال : متى قدمت كرمان ؟

– منذ شهر .

– وأين كنت قبل الشهر ؟

– في طبرستان .

– ومنذ شهر وانت تقيم مع ولدك بهذا الكوخ ؟

– نعم ، على اننا لا نلجأ اليه الا عندما يجن الليل .

قال : انك تقيم بالقرب من المنزل الذي يقيم به ملكك وانت لا تعلم ..!

فتراجع قائلاً له أنا ؟!

– نعم أنت ، وانك لتحاول الآن ان تكتمني ما تعلم خوفاً من ان افضح سر الملك أليس كذلك ؟

– دلني اولاً على هذا المنزل الذي ذكرت .

فأومأ الى البيت المهجور وهو يقول : هذا هو ...

فأرسل الرجل نظرة اليه وقد بدت على وجهه مظاهر الاستغراب ثم قال : كفى فأنت تهزأ بي ..!

– بل أقول ما اعلم واقسم لك .

– ولكن المنزل مهجور كما ترى ، ولم تقع العين منذ شهر في اروقته وحجراته ، على أثر واحد من آثار الحياة ...

فخطر له خاطر فقال : لقد جعلتنا الاقدار نحن الاثنين من صعاليك القوم فليس لنا ان نهتم لأمر يهتم له نبلاء فارس واشرافها ، ولكن لي كلمة أقولها لك فقد وثقت بك كما أثق بنفسي وآمنت بأنك من أهل الاخلاص والوفاء .

– قل ما تشاء .

– أمخلص انت ليزدجرد أم ماذا ؟

– لا اعرف يزدجرد ولم أرَ في حياتي ملكاً ولكني أعلم ان يزدجرد عاجز عن الدفاع عن ملكه ، فعلى أهل فارس ان يساعدوا هذا العاجز في كل أمر يسألهم إياه ويبذلوا له المال ليسترجع العرش ...

– اذن انت من المخلصين وهذا ما اريده .

– وهذه هي كلمتك ؟

– لا ، ان هنالك امراً آخر ابوح لك به وراء كوخك !

فخرج الاثنان ، ثم خفض شهريار صوته وجعل يقول : ابشر فان يزدجرد الذي تحبه وتريد ان تساعده سيرجع إلى عرشه .

– وهل يستطيع ان يفعل ذلك والعرب في بلاده ؟

– يطرد العرب بقوة السيف ثم يرسل خيله الى الحجاز فيضمه الى ملكه .

قال : لم يبق حول يزدجرد رجال يخوضون المجال .

– وهل تظن اني اقص عليك حكاية من حكايات أهل الريّ ..؟ ان الرجال اليوم وراء الجدران وليس على الملك الا ان يأمرهم بالزحف الى عدوه !!

– في اي بلد هم ؟

– اتحلف لي انك لا تبوح لأحد بما اقوله الآن ؟

– اجل ، واعاهدك على خدمة الملك بما تشاء .

انهم في مرو الشاهجان وفي القرى التي تحيط بذلك السهل .

– ومن يقودهم ؟

– ستعرف كل شيء بعد حين .

– وعامل مرو فارسي ؟

– نعم ، وهو يتظاهر بالاخلاص للعرب ويبذل المال للجيش الثائر ، من وراء الستار .

قال : يظهر انك رسوله الى الملك ..

– أصبت فاخفض صوتك فقد يحمل الهواء هذه الكلمة الى الاذان ..

– ومن قال لك ان الملك في كرمان ؟

– قواد الجيش جميعهم وقد وصفوا لي هذا المنزل .

قال : لقد اخطأ القواد فيما وصفوا فليس لهذا المنزل أهل .

قال : اعلم ان اوامر الملك تخرج منه .

– اذا كان الملك في كرمان فهي تخرج من منزل آخر .

قال : لا اصدق فالقواد لا يكذبون .

– وأنا لا أصدق ان في المنزل بشرياً واحداً أتريد ان تدخله الليلة ؟

فخفق قلبه قائلاً : ونستطيع ذلك ؟

– أجل ففي السور الغربي باب مفتوح في النهار والليل وهذا يدلّ على ان المنزل لا أهل له .

فأطرق الخراساني يفكر فيما سمع وقد استولى عليه الذهول ، أيعبث بـه رئيس الخصيان ، في وصفه بيت الملك وهو الذي فتح له أبواب منزله وأذن له في البقاء فيه الى الابد ؟ وهل أراد طرخان ، من تلك الرواية التي رواهـا له ، ان يبعده عن المرغاب ، لغاية من غاياته ؟

وما هي هذه الغاية ؟ انها غاية رهيبة لم يجسر شهريار على ان يفكر فيها في تلك الساعة . قتل الله طرخان، لقد خدعني بما رواه لي.. انه يعلم سري ويعرف ان اليتيمة ابنة الملك، ولعله يريد ان يحملها الى أبيها وأنا بعيد .. ولكن اليتيمة في مرو الروذ ، وطرخان أعجز عن أن يمد يده الى عرين الاسد .

ذلك ما كان يفكر فيه ، وهو أمام المنزل المهجور الذي أيقن من قبل بأنه منزل الملك ..

ثم قال : أيطيب لك ان تذكر لي اسمك ؟

– أمهرز .

قال : هيا بنا الى المنزل .

– والفتيان ؟

– يبقيان في الكوخ حتى نعود .

فقام الرجل فقال لولده : ابقَ مع هذا الفتى فسنعود بعد ساعة .

ثم مشى الاثنان حتى انتهيا الى الباب الغربي وكان مفتوحاً كما قـال أمهرز ، فدخلا الى الفناء ومنه الى رواق داخلي يحجبه جدار من الخشب وقد بدت آثار الوحشة بكل معناها ، في ذلك الرواق .

فجعل شهريار ينظر الى الارض ثم يرفع نظره الى الجدران ثم يدنو من الدهليز القائم في آخر الرواق حتى خيل الى امهرز انـه نصف مجنون ... ولكن هذا

المجنون لم يلبث حتى رفع رأسه قائلا: أكاد استنشق رائحة العود الذي كان يحرق في بلاط الملك !!

– أتريد ان تقول ان الملك في المنزل ؟

– هذه رائحة العود التي كنت استنشقها في بلاطه ..

فابتسم قائلا: كنت منذ لحظة صملوكا من صماليك فارس فأمسيت الآن من رجال البلاط !!

– اعترف لك باني من القواد وقد قطعت يدي في حرب القادسية ..

فذعر الرجل قائلا : من القواد وتلبس لباس الفقراء ؟

– وماذا اصنع وانا اريد ان ارى الملك .. اني اهب للرجل الذي يدلني على منزل يزدجرد قبضة من الذهب ..

فوثق الرجل بان محدثه من النبلاء فقال : سأبذل جهدي كله لأدلك عليه .

– وانا أعدك بان اعطيك قبضتين ... لقد أمسيت الآن واثقاً بان يزدجرد كان مقيماً بهذا البيت ... ان رائحة العود لا تكذب وكأني أرى غلمان يزدجرد يروحون ويجيئون في هذا الرواق والعود يحترق في وعائه ..

وخرج الى الفناء يتبين منه منفذاً يستطيع ان يدخل منه الى الحجرات فلم يجد ، فقال : اودّ لو كان لي جناحان ..

قال : لو كان لك أربعة أجنحة لما قدرت على بلوغ الغاية ، ان المنزل يشبه الحصون فيكفي ان تتبين في هذه الدهاليز آثار يزدجرد فقد تجد فيها ما يثبت ظنونك .

وكان شهريار يفكر اذ ذاك في أمر آخر .. لقد احسن ظنه في تلك الساعة بطرخان وقام في ذهنه ان الملك خرج من هذا المنزل بعد خروج رئيس خصيانه منه ، خوفاً من ان يدل العرب عليه . وطابت نفسه لهذه الفكرة فجعل يقول: لم يبق الا ان نعود الى الكوخ فقد ثبت لي ان يزدجرد ترك هذا البيت لأمر لا نعرفه وقد يكون مقيماً بالقرب منه . اخرج فسننظر في الأمر عند الصباح .. وانثنى الى الباب وأمهرز وراءه حتى أتيا الكوخ فقال شهريار: أفي كوخك فراش؟

– اما فراشي وفراش ولدي فهذا الرداء البالي الذي تراه ..

– ونحن نجعل رداءنا فراشاً .. ادنُ يا بني .

فدنا طارق واضطجع الاثنان في زاوية من زوايا ذلك الكوخ وهما يتهامسان .

ولم يلبث أمهرز وولده حتى استسلما الى الكرى .

* * *

- ٢٨ -

لقد غادر يزدجرد هذا المنزل الى منزل آخر .

– في كرمان أم في سواها ؟

– لا أعلم الآن ولكني أظن انه لا يجسر على ترك كرمان في مثل هذا الزمان .

– وكيف استطعت الدخول الى منزله ؟

– دلني هذا الرجل على باب في سوره الغربي فدخلت ، ولكني لم أر الملك بل رأيت بعض آثاره .

– والآن ؟

– اما الآن فقد رأيت ان تعود أنت غداً الى مرو الروذ .

– وأنت ؟

– أما أنا فسأبقى وقل لعمك الاحنف اني سأرجع الى مرو بعد أن أرى يزدجرد بعيني الاثنتين ..

فقال طارق: أؤثر العودة على البقاء كما تعلم، ولكني أخشى أن يظن الاحنف ان غرامي أملى عليّ التعجل في الرجوع .

– سأكتب اليه ذاكراً له ما لقيت .

– اي انك ستقول له انك لم ترَ يزدجرد ، وهذا لا يكفي .

– بل اقول له اني قد اغيب شهراً فخير لطارق ان يكون في خلال هذا الشهر بالقرب منك ..

– وماذا تصنع أنت بعد رجوعي ؟

– اطوف في كرمان باحثاً عن الملك فان لم اجده فيها انتقلت الى سواها من مدن هذا الاقليم .

– وهذا الرجل ؟

– سيكون هذا الرجل عوناً لي في كل ما أريد .

– وهل يحب ملكه ؟

– أجل يحبه وهو لا يعرفه ويرغب في ان يبذل دمه من أجله ..

قال : قد يعلم غداً انك من الاعداء .

– لقد أمسى واثقاً باني من قواد الملك القدماء واني احاول اليوم ان استرجع له العرش ..

– وهو ينام الليلة على هذا الامل .

– بل ينام على امل ان اعطيه يوم يدلني على يزدجرد قبضتين من المال .

– ومتى تبدأ بطوافك ؟

– غداً بعد ان ترحل انت .

قال : لنفرض انك وجدت الملك في احـــد المنازل فكيف تنقل الى امير المروين خبر وجوده ؟

– اطير عندئذٍ الى مرو أو اعمـد الى امر آخر استطيع معه الوصول الى غرضي ..

قال : اخشى أن يفسد عليك الأمر ، هذا الرجل الذي وثقت به ..

– لا تخف ، فقد علمتني الحادثات ان انجو من جميع المحن التي تعرض لي ..

– وماذا أقول لليتيمة ؟

– لا تقل لها شيئاً فهي ستبقى عند أم عامر ريثما أرجع .... ولكني أخاف أمراً . . .

– ماذا ؟

– ان يعود عبدالله بن عامر امير البصرة الى ارسال رجاله يحملون الينا مرة ثانية رغبته في الخطبة ... فاضطرب قائلاً : اذا قدم الرجال الذين ذكرت فهم لا يرون اليتيمة في المرغاب ولا يرون اباها .

– ولكنهم يسألون عنها ثم يرحلون الى مرو .
– ومن يحدثون بامر الخطبة وأنت بعيد ؟
– يحدثون الاميرين الاحنف وعبدالله .
- ولكن اليتيمة لا تخضع للاميرين وليس لهما ان يتكلما باسم ابيها .
قال : سيطلب القوم ، باسم عامر، أن يتخلى طارق بن عبدالله عن الفتاة ..
قال : والله لئن فعلها امير البصرة لأقتلن رجاله .
- احذر ان تفعل فنحن اليوم بحاجة الى السلام في الداخل كما تعلم وليس من الرأي ان تنشب الحرب بين امراء المسلمين .
– إذن اعدهم بان اتخلى عن اليتيمة وينتهي الامر .
– بـل يردهم الاحنف بالحسنى ويكتب الى عبدالله قائلاً : ان شهريار والد الفتاة ترك مرو الى بلد آخر ولا يلبث حتى يعود ..
– وبعد ذلك ؟

وحوّل وجهه عنه وغاص في لجة التفكير ، فأغمض طارق عينيه ، ولكنه لم ينم ، بل كان يرى ، في ذلك الظلام صورة اليتيمة تملأ فضاء ذلك الكوخ ..

* * *

- ٢٩ -

لم ينسَ الروم فشلهم وخيبتهم في افريقيا ، بل كانوا يذكرون في مجالسهم ، ذلك النصر الذي أصابه المسلمون ، ويتهيأون لحرب جديدة يسعرون نارها في البحر ، ليمحوا عارهم ، ويسترجعوا بعض ما خسروه ، من الأرض والشرف والمال . وعند الروم قواد ألفوا الأسفار واخضعوا البحـــار . وكان القيصر ، قسطنطين بن هرقل يقول لقومه : لم يبقَ الا ان نجعل الماء ، ميداناً للقتال تبذل فيه الأرواح ..

وقـد بلغ عبدالله بن سعد امير مصر خبر القوم ، فأعدّ عدّته وامر المسلمين والقبط بان يستعدوا للنزال . وذلك في مطلع السنة الحادية والثلاثين .

ومشت رسل المسلمين تحمل اخبار هـــذه الغزوة الى جميع العمال في مصر والشام ..

وفي النفوس ثورة كما قرأت من قبل وحقد يحمله بعض الصدور على عثمان وحكومة عثمان وأنسبائه وعماله . هذا يقول : غيّر عثمان عهده وخالف فيما يصنعه ، الخليفتين ابا بكر وعمر ،

وهذا يقول : دم عثمان حلال !!

وكان محمد بن ابي حذيفة ، ومحمد بن ابي بكر ، يحملان لواء هذه المعارضة في مصر ، ويوغران الصدور . وكانا يقولان : استعمل عبدالله بن سعد رجلاً كان رسول الله اباح دمه ونزل القرآن بكفره ..! وأخرج رسول الله قوماً وأدخلهم عثمان ، ونزع اصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبدالله بن عامر ،

حتى امتلأت مصر من هذه الأخبار، وتحدثت بها العامة والخاصة من الناس،

فرأى عبدالله بن سعد ان الرجلين يفسدان أهل تلك الغزاة ، ويعيبان عثمان أشد العيب ، فدعاهما اليه قائلاً : والله لولا اني لا أدري ما يوافق امير المؤمنين لعاقبتكما بالحبس . فقال محمد بن حذيفة : والله مالك الى ذلك سبيل ولو هممت به ما قدرت عليه ..

قال : كفّ خير لك والله لا تركب معنا ولا يركب هذا .. وأشار الى محمد ابن ابي بكر .

فقال : نركب مع المسلمين .

وكان الروم في جمع لم يجتمع لهم مثله قـط منذ كان الاسلام ، كانت سفنهم خمسمائة تغصّ برجال الحرب ، وتلمع فيها السيوف والحراب .

ويقال لهذه الغزوة غزوة الصواري . فلما التقى الفريقان على سطح المـاء ، رأى المسلمون مراكب لم يروا مثلها من قبل وخيل اليهم ان هذه المراكب تملأ البحر كله . وكانت الريح على المسلمين ، فأرسوا ساعة ، وأرسى الروم بالقرب منهم حتى سكنت الريح . فقال قائل من المسلمين : الأمن بيننا وبينكم .

فقالت الروم : ذلك لكم ولنا .

قال : ان احببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم وان شئتم فالبحر فهو القبر الواسع الذي يتسع لجثث القتلى .

قالوا البحر ، البحر .

فدنت العرب، فربطت السفن بعضها الى البعض الآخر وارتفعت الاصوات، ثم وثبت الرجال على الرجال يتضاربون بالسيوف على السفن ويغمدون الخناجر في القلوب حتى رجعت الدماء الى الشاطىء وحملت الامواج اليه جثث الرجال فجعلتها عليه ركاماً وأشلاء . وكان الناظر الى الساحل ، حيث تضرب الريح الموج ، يرى رمالاً حمراء ، استلقت فوقها اجساد الابطال ، من الأمتين . وبين رجال عبدالله بن سعد ، رجلان يقاتلان أشد قتال ويقذفان بالرجال الى اللجة ، هما محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر . وعبدالله يأمر المسلمين بالصبر على ما يرون ويدعوهم الى الاحتمال ، حتى جرح القيصر في يديه ورجليه ، فخفق لواء النصر فوق رؤوس المسلمين ، وفرّت الروم فراراً هو شر من الموت . ولم ينجُ منهم الا الشريد الطويل العمر ، كما يقولون . وقد رأى أمير مصر ، أن يقيم أياماً بذات الصواري، بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعاً وبعث باخبار الظفر الى عثمان . ومحمد بن ابي حذيفة يعيب الخليفة ولا يكفّ عن قوله، والمعارضون ، في مصر والشام ، والكوفة والبصرة ، وفي الحجاز نفسه ، يرددون ذلك القول ، ويعيبون بدورهم أمير المؤمنين .

* * *

- ٣٠ -

رجع الحارث بن يزيد ، وخالد بن عبدالله ، من المرغاب حتى انتهيا الى البصرة ، وكان اميرها عبدالله بن عامر ، متحيراً في موقفه من ناحية الحرب . لقد فتح القليل من ارض فارس والقوم لا يرضون الا ان يفتح الكثير من تلك الارض . كانوا يقولون له : ضع السيف في كل موضع من بلاد الاكاسرة فالفرس لا يكفون عن الاذى كلما اتسع لهم المجال وهو يرى الصواب فيما يقولون ولكنه

يتردد في الخروج ولم يكن خائفاً ، بل كان يكره أن يخرج بدون اذن عثمان ، وعثمان لم يأمره بذلك وقد يغضب عليه اذا فعل وفي البصرة قــوم من بني تميم لا يطيب لهم العيش الا في الميادين . وبنو تميم قوم الاحنف بن قيس ، وبين رجالهم في البصرة ، أوس بن حبيب فدخل على ابن عامر فقال له : اصلح الله الأمير ان الارض بين يديك ولم تفتتح منها الا القليل فسر فان الله ناصرك على عدوك ..

قال : الرأي في ذلك رأي أمير المؤمنين .

قال : لقد امرك بالفتح عندما ولاك فلك ان تفعل من هذه الناحية مــا يطيب لك .

– ما كنا لنأتي الآن امراً لا رأي له فيه .

– ابعث اليه من يشاوره فالعدو منك هارب وهو لك هائب والبلاد واسعة.

قال: لا يطيب لنا الا ان نبعث بواحد من الاثنين، اما خالد بن عبدالله واما الحارث بن يزيد .

– اجعل الاثنين رسوليك .

– لقد بعثناهما في مهمة لنا ولم يرجعا .

– الى اين ؟

– الى منزل على شاطىء نهر المرغاب ، بين المروين ..

– سمعت الناس امس يذكرون شيئاً من هذا وفي الأمر خطبة ..

فابتسم قائلاً : الأمر كما تقول .

– ومن هي الفتاة ؟

– ابنة رجل من خراسان امسى مسلماً وهو يدعى شهريار .

قال : يظهر ان لها جمالاً تحدّث به الناس ..

– لقد وصفت الوفود هذا الجمال قائلة انه السحر ..

– ومتى يعود الرجلان ؟

اظن انهما يعودان في هذين اليومين .

واقبل في تلك اللحظة غلام يقول : هذا الحارث وخالد بالباب .

فاشرق جبينه وقال : عليَّ بهما .

فلما دخلا قال : متى قدمتما ؟

– في هذه الساعة .

– لقد ذكرنا كما الآن لأوس ، أخطبتما لنا ؟

فقال خالد : ان الفتاة تكاد تكون مخطوبة ايها الأمير .

فاكفهر وجهه قائلاً : لمن ؟

– لفتى من بني تميم هو ابن اخي الاحنف بن قيس .

– واسمه ؟

– طارق بن عبدالله ..

فقال لأوس : أتعرفه يا ابن حبيب ؟

– وأي رجل من بني تميم لا يعرف طارقاً ؟؟ انـــه فتى الحروب وفتى المكرمات .

قال : تعرف يا أوس ان تصف قومك.. وانت يا خالد كيف تقول ان الفتاة تكاد تكون مخطوبة ؟؟

– هذا ما قاله لنا شهريار وابنته وانا انقل اليك ما قالاه ..

– أي ان طارقاً لم يخطب الفتاة بعد ؟

– لا ، ولكنه سيخطبها والفتاة لا تريد ان تختار زوجاً سواه ، ثم قال :

ومع ذلك فهي لا تزف اليه في هذا العام ..

– وكيف ذلك ؟

– يصبر أبوها حتى تجاوز الفتاة عامهـا الخامس عشر ، ولهذا الصبر سرٌ لم يبح لنا به ..

– ولم تفكرا وانتما على ذلك الشاطىء في أمر آخر ؟

– بلى، فكرنا في المسير الىمرو لنشاور الاحنف فيالأمر ونسأله ان يخاطب طارقاً ابن أخيه .

– ولماذا لم تفعلا

– لان شهريار كان يقول : اذا رضي الاحنف فطارق لا يرضى وهنالك مانع آخر نذكره لك بعد حين .

– بل تذكره الساعة . ما هو ؟

– هو انه اذا رضي شهريار ورضي بنو تميم جميعهم فالفتاة لا ترضى .

– اقالت لكما ذلك ؟

– كانت الشفتان ترددان همساً هذه الالفاظ فلا نسمعها .

قال : تكاد يا ابن عبدالله تقرأ ما في قلوب العشاق . اخرج يا أوس .

فخرج .

فقال للحارث : وانت يا ابن يزيد ، أليس لك ما تقوله ؟

– اقول ما قاله خالد ولا ازيد كلمة .

– وأي رأي لك في مشاورة الاحنف ؟

– خير لك الا تفعل ايها الامير فالاحنف صلب العود لا يغضب قومه في أمر مثل هذا وانت تعرف اي رجل هو .

فاطرق ملياً ثم قال : وهل رأيتما الفتاة كما وصفت لنا ؟

– لا يستطيع افصح الناس لساناً ان يصف ذلك الجمال .

قال : يخيل الينا ان بينها وبين الفتى عهداً .

– هذا ما ظهر لنا وانا واثق بأن امير المؤمنين نفسه لا يستطيع ان يكرهها على ما لا تحب .

فنهض قائلاً نترك امر الخطبة الان على ان تنظر فيه في وقت آخر . ان القوم يطلبون الحرب .

– الفرس ؟

– بل العرب فهم يسألوننا ان نضع السيف في كل سهل وكل جبل حتى يخضع اهل فارس خضوعاً لا رياء فيه .

– وستفعل ايها الامير ؟

– لا ننقل الى الحرب قدماً الا اذا اذن لنا امير المؤمنين . تهيأ يا خالد للسفر الى الحجاز .

قال : ان ناقتي في الفناء فانا ارحل الساعة اذا شئت .

قال : نشاور قومنا الليلة ثم نكتب ما نريد ان نكتبه عند الصباح .

وجعل يردد قـــائلاً : لقد سبقنا طارق بن عبدالله الى الفتاة التي تحدثت بجمالها العرب ولولا شرف الامارة وحرمة بني تميم لبلغنا غايتنا بقوة السيف . نعم ، يجب ان يكون امير البصرة ارفع من ان يسعر النار مـن اجل فتاة . ان الاحنف من عظماء الناس وله مقامه عند امير المؤمنين فليس من الرأي ان نعرض له . ثم قال : لقد نسينا هذه الفتاة . اجل نسيناها فخير المسلمين أثمن من وجـه حسناء . وكان عبدالله في ذلك من اعقل الناس ثم أمر الغلمان بأن يـدعوا وجوه البصرة ، فأتوه ، وجعلوا يتحدثون بأمر الحرب ، ويذكرون المواضع التي ستغير عليها الخيل ، حتى جنّ الليل ، ووضعوا منهاجهم وقد عولّ ابن عـامر على ان يكتب الى عثمان ويبعث برسوله عند الفجر . وقبل ان يتفرق القوم ، هامس اوس بن حبيب قائلاً له : لقد نسينا الفتاة التي ذكرت لك فليهنأ بها طارق بن عبدالله ؛ فأجابه اوس قائلاً : اما انا فقد قام في ذهني منذ سمعت خبر طارق ، انك أعقل من ان تذكر الفتاة بعد الان .

***

- ٣١ -

استطاع سنجان ، عامل مرو الشاهجان السابق ، ان يخرج من مرو في ظلام الليل ، هارباً من ظلم عمه ماهويه الذي سلبه كل ما يملكه ، بامر الاحنف بـــن قيس ، كما قرأت في الجزء الاخير . خرج وحده لا رفيق له ، وأوصى أهل بيته بان يلجأوا الى شيخ من شيوخ اسرته وفر المال بين يديه ، ولم يذكر لاحد اسم البلد الذي فكر في المسير اليه .

كان يقول لاهله : لا اعلم الآن الى اين امضي ، فاذا عدت الى مرو فلكي انزع ماهويه عن كرسيه ، والا فابكوني حتى اعود ، وحاولت زوجته ان تثنيه عما يهم به ، فلم تستطع لأن ارادته كانت من الحديد . وخروج سنجان من مرو فرار ، فقد كان مكرهاً بحكم الأمر الذي صدر له من الاحنف ، على ان يقيم بمرو الشاهجان ستة اشهر ، وستة اشهر مثلها بمرو الروذ ، لا يخرج منها الا بأمر الاحنف

نفسه. واذا هو عمد الى غير ذلك يكون جزاؤه الموت، على انه لم يبالِ كما رأيت بل انصرف هادئاً يحمل ثورة نفسه، وفي صدره ذلك الحقد الذي لا يموت. وكان يعلم ان يزدجرد في كرمان، وخير الاراء في نظره، ان يذهب اليها ويمثل بين يديه، لينظر معه في امر ماهويه الخائن وامر استرجاع مرو وغيرهـا من اقليم خراسان، من ايدي المسلمين. ومعظم وجوه خراسان يعرفون هـذا الرجل الثائر الذي نحاه عامل المروين عن الولاية واحـاطه بنطاق من الرجال. وهو يعرف هؤلاء الوجوه، والنفوذ الذي يتمتعون به، في ذلك الاقليم الرحب الذي يغص بقبائل الناس. وكانت الطريق، بين كرمان ومرو، سهولاً وجبالاً، فيها طوائف القوم من كل جنس، وليس على تلك الطوائف عمال من العرب وانك لترى على جبل هنـاك، بينه وبـين كرمان مراحل ثلاث، حصناً من حصون الفرس، حوله البيوت والأكواخ والخيام، على خط مستطيل يمتد فرسخين، وينتهي عندغاب التفّت اشجاره، تأوي اليه انواع السباع. ويقال لذلك الجبل جبل الزهاد. اما الحصن فقد بناه امير فارسي منذ مئة عام، ثم انتقل بالارث الى بنيه الثلاثة، ثم امسى بعد ذلك ملكاً لقائد فارسي عرفته حروب الفرس والعرب ولم يعرفه القراء، هو خراذمهر، اخو رستم القـائد الكبير، واخو ابان زرد والد جهـان روز. انتهى ذلك الحصن، الى يد خراذمهر بعد فتح المدائن، وقد جعله مقاماً له، بعيداً عن مواضع المحن والثورات. وكان القائد قد مل الحرب، بعد موت اخويه وبعد ان خسر يزدجرد عرش اجداده، وخرج من بلاطه. وانزوى في حصنه لا يبحث عنه يزدجرد ولا يبحث هو عنه، ولا يدله في تمرد اهل خراسان وعصيانهم. على انـه خطر للملك المخلوع ان يستعين بسيفه على العرب الفاتحين، لمـا بخل عليه بذلك السيف. ولكن يزدجرد لم يفعل، فقد أنسته الحادثات قواده، بل أنسته الرجال المخلصين الذين كانوا يعيشون عبيداً في قصره. ولم يكن سنجان يجهـل ذلك، بـل كان يعلم ان خَراذمهر من جنود الملك، وان الملك نفسه ضيع الكثـيرين من اولئك الجنود. فلمـا دنا من الحصن، وقف فرسه وبعث يسأل القائد ان يأذن له في المثول بين يديه. وكان واثقاً بان خراذمهر لم ينسَ رفاقه في الميادين، ثم دخل

وعند القائد عبدٌ يفتُّ له المسك؛فهشّ له ثم جعل يتفرس فيه ويده على جبينه ، وكادت شفتاه تنطقان باسمه .

فقال سنجان : ما ذكرت لك اسمي لأني ايقنت بان القائد يستعين بالوجوه على ذكر الأسماء .. أعرفتني الآن ؟

فتردد قليلاً ثم قال : عرفتك وقد كنت فتىً ايام الفتح ... انت تدعى ... سنجان ؟

– أصبت فأنا هو .

– وكنت عاملاً للعرب على مرو الأولى ..

– أجل .

– ولكن العرب نحّوك عن الولاية وجعلوا عمك ماهويه خلفاً لك أليس كذلك؟

– بلى ، وهذا ما يثبت لي ان الامير يعرف كل شيء . .

فهزّ رأسه قائلاً : نعرف كل شيء اجل ولكننا ساكتون صابرون . واومأ الى العبد فخرج من القاعة ثم قال : أتعرف يا سنجان ان اجدادك كانوا اخلص لملوكنا الأكاسرة ؟

– اعرف ذلك . .

– وان النعمة التي تجرّ ذيولها الى الان ، منحة اولئك الملوك ؟

– نعم .

قال : تعرف هـــذا وتخدم العرب ، الذين فتحوا أرضنا ، وحطموا عرش كسرى وتاجه ؟ ؟ !

فقال في نفسه : اذا كان القول الذي يقوله مظهراً من مظاهر وفائه لملوكه فقد بلغت الغاية . ثم قال له : وهل يلومني الامير على ما فعلت ؟

– وكيف لا ألومك وانت من نبلاء فارس وقد رأى النبلاء عزّهم وعزّ ملوكهم تدوسه الاقدام ؟ .

قال : رضيت بان اكون عاملاً لأصون ما بقي من هذا العزّ الذي ذكرت..

– انها كلمة تقولها للدفاع عن عمك .. يكفي ان هذا الرجل الذي يقال له الاحنف بن قيس كان سيداً لك . .

– أليس العرب اليوم سادة الفرس ؟

– خير لنا ان نؤخذ جميعنا بالسيف من ان نحرق البخور في مجالس العرب ونخضع مستسلمين . . اجل ان العرب سادة البلاد وقد لا نجد القوة التي تعيدهم الى الحجاز ولكن الرأي ان يحفظ الفارسي كرامته ويكون سيد نفسه .

فابتسم قائلاً : اما انا فقد فعلت اكثر مما تقول .

– وماذا فعلت ؟

– تظاهرت بالاخلاص والوفاء للعرب لاخدم ملكي ووطني منوراء الستار .

– ذكر لي اذا شئت شيئاً من عملك.

– اذكر لك امراً واحداً يدلك على وفائي . لقد كنت اراسل الملك !

– وانت عامل مرو ؟

– نعم !

– وترد منه الرسائل عليك ؟

– الرسائل والمال لاشتري به الرجال . .

– ومن اشتريت من هؤلاء ؟

– طوائف كثيرة تحمل السيوف وتبرز الى الساحة عندمـــا يرتفع صوت المنادي قائلاً : الى الحرب .

– وبعد ذلك ؟

– ظهر في مرو فارسي خائن افسد عليّ الامر .

– ايكون هذا الخائن ماهويه ؟

– نه ماهويه اللعين الذي باع شرفه وشرف قومه بمقعد الولاية .

قال : وماذا صنع ؟

– باح للاحنف بما يعلم ودله على مال الملك .

– وهل كان يعرف الاحنف من قبل ؟

– لا ، ولكن قرّبه اليه رجل كان فارسياً وصار عربياً يقـــال له شهريار وهو من خراسان ؛ فاطرق ثم قال : عرفت فتى في القادسية يحمل هذا الاسم . لقد كان شهريار من رجال اخي ابان زرد ولعله هو نفسه .

ـ وكان ذا يد واحدة ؟

ـ بل كانت له يدان ولم اره بعد ايام القادسية غير مرة واحدة في المدائن لم اتبين فيها يديه .

قال : لقد ثبت لي ان هذا الرجل يؤثر العرب على قومه .

ـ واين يقيم ؟

ـ في منزل له على المرغاب . أكان شهريار الذي عرفت فتىً جذاب الملامح اسمر الوجه ؟

ـ لا أذكر شيئاً من هذا .

ـ ولكنك تقول انه كان من رجال أخيك .

ـ كرهت الحياة بعد ان خسر رستم الحرب ، فلم اسأل عن أحد ولم ارَ الا ان انضمّ الى جيش الملك في المدائن ثم خرجت منها بعد الفتح الى هذا المنزل الذي اقيم به .

ونادى غلامه قائلاً : المسك ، فدفع اليه الغلام وعــــاء المسك فجعل يفتّه ويقول : قصّ عليّ ما جرى لك عند الاحنف .

ـ سألني الاحنف عن المال الذي حملته اليّ رسل الملك وجعل يسمي الاشياء باسمائها كأنه كان موجوداً في مرو الشاهجان .

قال : الذنب في ذلك ذنب اللعين ماهويه .

ـ وذنب كبير الحجاب في قصر الامارة .

ـ وكيف ابقى عليك الاحنف وانت تراسل عــــدو العرب وتمهد له سبل الرجوع الى العرش ؟

ـ فعل ذلك لواحد من أمرين ، اما لانه كان يخاف ان تشتعل نار الثورة ، واما لانه أراد ان يحيطني برجاله ، وانا حر ، ليطلع هؤلاء الرجال على كل شيء .

ـ اذكر لي قوله .

ـ امرني بالاقامة ستة اشهر بمروالروذ ومثلها بمرو الشاهجان وانتهى الامر .

ـ وكيف خرجت اليوم ؟

ـ خرجت من مرو الشاهجان هارباً كما يهرب اللص الخائف من الموت .

– ولك من وراء ذلك غاية ؟

– أجل ، غايتي ان اراك ثم اسير الى كرمان لأرى الملك .

– وانت واثق بان الملك لم يترك كرمان ؟

– كانت رسله تجيء اليَّ منها ثم وضع الحجاب بيني وبينه ..

قال : اسألك الآن عن غايتك .

– ألم تقل لي منذ لحظة ان النبلاء لا يخدمون الفاتح القاهر ولا يجعلونه سيداً لهم ؟

– قلتها الآن واقولها غداً وبعد غد .

– ولكنك من خدام العرب ايها الأمير !!

قال : الارض ارضي والرجال رجالي ، وليس على هذا الجبل عربي .

– ومع ذلك فأنت خاضع لهم خضوعاً لا رأي ولا ارادة فيه .

– وكيف اخضع لقوم لا اعرفهم ولم يخطر لي قط ان اقابل أميراً منهم !

– تخضع لهم بهذا السكوت الذي استسلمت اليه وانت ترى الملك يستعطف الرجال من كل اقليم وكل ناحية ليذودوا عن ملكه .

قال : لم يسألني الملك ، بعد خروجه من المدائن ، ان اشهر السيف في وجه عدوه كما سأل سواي .

قال : ألم تكن من قواده ؟

– بلى !

– وهل رأيت ان الحرب خمدت نارها بعد فتح المدائن ؟

– لا !

– فكيف تريد اذن ان يطلب الملك اليك ان تدافع عنه ؟

قال : كان الملك يدعو قواده الى كل بلدٍ ينزل فيه ، فيحدثهم بشأن الدفاع والحرب دون ان يخطر له أن يسأل عني او يرسل اليَّ رجلاً من رجاله .

قال : لعله لا يعلم انك هنا وكان عليك ان تعرض سيفك كما كنت تفعل قبل ان يخسر تاجه .

– خفت ان يرد السيف الذي يعرض عليه بدون اذنه !!

قال : اسأل الأمير الآن ان يترك ماضيه وينظر الى حاضره .

– وما هو هذا الحاضر الذي تعنيه ؟

– هو ان تزور الملك في كرمان وتعطيه اليوم ما بخلت به عليه بالأمس ..

– وهل يطمع الملك بعد ظفر العرب المستمر بان يسترجع التاج ؟

– ان الملوك لا تستسلم الى اليأس كما تعلم وقد يساعده الحظ في نيل غرضه .

– واين هي الجيوش التي تدافع عنه ؟

– في كل اقليم جيش ينتظر كلمة .

– وهل وضعت بالاتفاق مع الملك خطة القتال ؟

– وضعت هذه الخطة في ذهني قبل ان اجيء اليك .

– صفها لي .

– اذكر لي اولاً عدد الرجال في جبل الزهاد .

– رجال السيف ألف .

قال : نسير الان الى كرمان فنطلع الملك على اخلاص شعبه في الاقاليم ، ثم نحمله على المجيء الى هذا الجبل ليقود الى مرو هؤلاء الرجال .

– وفي مرو ؟؟

– الناس في مرو ينتظرون نظرة من الملك كما قلت ، فاذا رأوه هتفوا له ، وأنزلوا ماهويه عن كرسيه واعتصموا وراء الاسوار حتى تجيء الجنود من النواحي

– وينتهي عندئذ كل شيء ؟

– لا بل يجيء عندئذ دور العرب الذين يعمدون الى الانقضاض على يزدجرد واخضاع البلد الثائر .

قال : لنفترض ان الامر انتهى كما تقول واقبلت صفوف العرب الى مرو أفنستطيع مع الجيش الصغير الذي نقوده ان نمحو هذه الصفوف ونظفر بالقواد الذين استولوا على فارس من النواحي الاربع ووضعوا أيديهم على كل قطر ؟

قال : ان الجيش الصغير يمسي بعد بضعة ايام جيشاً كبيراً يسحق جيش

الأحنف بن قيس ثم يزحف الى مرو الروذ فيستولي عليها،ويمشي بعد ذلك ظافراً الى جميع المدن في خراسان .

قال : لا تنسَ ان الذعر يملأ قلوب اهل فارس فهم لا يجسرون على حمل السيف والطواف في البلاد كما تقول بعد ان خسروا كل شيء.

– وانت لا تنسَ ان هيبة الملك وسلطانه يبعثان الاموات من القبور ...!

– ومن قال لك ان اهل مرو يخونون ماهوية وينضمّون الى يزدجرد ؟

– ذلك امر اعرفه انا ولا احتاج الى من يقوله وقد يبرز الى الساحة ، من اهل مرو واهل الجوار بضعة آلاف .

قال : اذا كنت واثقاً بهذا فقد انتهى الأمر .

– أتسير معي الى كرمان ؟

– نعم !

– وتعرض سيفك على الملك ؟

- نعم !

– وتدفع قومك الى القتال ؟

– ادفعهم ولا ابالي فالشرف قبل كل شيء .

فمدّ اليه يده قائلاً : ستكون اذن ايها الأمير منقذ فارس ..

– بل اكون عبداً من عبيد الملك الذي جار عليه الزمان .

وجعلا يتحدثان بامر الحرب ، ويحلمان بالمنى ، وقد عوّلا على السفر في مساء اليوم الثاني بعد ان تغرب الشمس .

* * *

– ٣٢ –

مرّ على وجود خراذمهر وسنجان في كرمان ، اربعة عشر يوماً استطاعا بعدها العثور على المنزل الذي يقيم به يزدجرد.ولولا الحيلة والدهاء لما عثرا عليه.

وكان شهريار واهرز قد سبقاهما الى هذا الاكتشاف .. ولكنهما لم يريا الملك .

ولم يكن في كرمان رجل يخطر له ان هذا المنزل المتداعي يلجأ اليه أعظم ملوك ذلك الزمان . بلى كانت هنالك فئة وثق الملك باخلاصها وسلم اليها سره ، وهي وحدها تعرف مقر ذلك الضيف العظيم الذي انتزعته يد القدر من سماء العزّ .

وهي وحدها تحرس منزله وتسهر على راحته وتطلعه على كل ما يجري في كرمان وخارج كرمان . ولهذه الفئة رئيس لا يأذن في الدخول الا للرجال الذين يؤمن بانهم اخلص الناس لمولاه . وهو الذي ادخل خراذمهر وسنجان ، في ليلة سوداء .. فلما جثا الاثنان عند قدميه جعل ينظر الى خراذمهر كما ينظر الى اثرٍ بالٍ من اثار مجده !! ثم تمتم قائلاً : خراذمهر .. أخو رستم وسليل القواد الذين رفعوا لواء كسرى في الخافقين ؟ .. فحنى الرجل رأسه حتى لامس الارض وهو يقول : نعم يا مولاي .. عبدك .. وسليل أولئك العبيد الذين نشأوا في ظل أجدادك !

– وانت حيّ وكنا نظن انك ميت ؟!

– اني حي كما يرى الملك ولكن حياتي ليست لي بل هي له ..

– وأين كنت ؟

– في جبل الزهاد يا مولاي .

فارتسمت الكآبة على جبينه وقال : في جبل الزهاد ، ولا تسأل عن ملكك ولا تعرض عليه سيفك وتقول له ان حياتك له .؟ ايه قواد فارس ، لقد نسيتم الاكاسرة ونسيتم حفيدهم المخلوع عن عرشه واللاجىء الى الجبال والاودية فراراً من السيف ..

قال : أما انا فلم انس يا مولاي وان في النفس ألماً اذكره اذا اذنت لي .

– وهل قدمت لتحدثنا بالألم والألم يكتنف الملك في نهوضه وقعوده، ونهاره وليله ؟؟ قل ما تشاء فقد أذنا لك ..

قال : ألم يدعُ الملك ، في الاعوام التي انقضت ، جميع الرجال المخلصين له لينظر معهم في أمر استرجاع الملك ؟

- ان الملك لم يدعُ أحداً ، بل كان هؤلاء الرجال يتبعونه من وراء الستار، في رواحه ومجيئه ، ليصغوا الى ما يأمرهم به ، ويموتوا بعد ذلك في الميادين دفاعاً عنه !!. قالها وهو يعلم انه اخطأ في نسيانه خراذمهر ، ولم يرَ الا ان يعمد الى الاكاذيب ليكون بريئاً في نظر قائده ، ويكره ذلك القائد على الاعتراف بانه هو الذي اساء الى مولاه .

ولم يكن يلتفت ، وهو يحادث خراذمهر ، الى سنجان الساجد عند قدميه بل لم يخطر له ان يسأل عن اسمه !!

ان حفيد كسرى نصف إله فهو لا يبالي بما يرى حوله من مظاهر السجود والخشوع .

فقال القائد : عفواً يا مولاي ، فقد قيل لي ان رسل الملك كانوا يطوفون على القواد في الاقاليم ، ويبذلون لهم المال ليشتروا بهم الرجال .

- لقد كذب من قال ذلك .. ان يزدجرد أرفع من ان يستعطف اميراً من امرائه .. وهذا الملك الذي ندافع عنه لا نريده ولا خير فيه اذا تخلى عنه القواد والامراء.. أجل كنا نبعث المال الى المخلصين لنا ليستعينوا به على امرهم ويبذلوا للجيش بعضه ، ولكن الملك لم يفكر قط في ان يستعطف شعبه ليبلغ غايته ! ثم قال :

إذن جئت أنت لتلوم الملك وتعتبه على قصوره .

فخاف الرجل ان يغضب ملكه فقال : بل جئت لالقي بسيفي عند قدميه.

فابتسم ابتسامة اليائس وقال: وماذا ينفع السيف والبلاد في أيدي المسلمين؟

- نسترجع هذه البلاد يا مولاي .

قال : لقد تكسرت سيوفكم يا أهل فارس وضاع الملك الذي بسط فوقكم كل هذا الزمان ، جناحي عظمته ومجده، فالجأوا الى منازلكم وانسوا هذا المجد الذي سلبتكم اياه العربان ولكن اذكروا في سركم ، انكم كنتم شعباً مدّ رواق سلطانه ، على هذا العالم الذي تطلع فوقه شمس المشرقين !!

ـ بل نذكر يا مولاي ان هذا الشعب لم يمت وسيحمل مليكه الى العرش الذي خلع عنه !!

ـ أجل تجلسون ملككم على عرشه بالخطب والالفاظ ..

ـ بل بقوة الرجال فاذا خسرت فارس بعض قوادهـا فهي لم تخسر الاباء والوفـاء .

قال : عدّ لي رجالك قبل ان تحدثني بشأن الحرب .. لقد بذلنا من المـال لعامل مرو ما يستطيع معه ان يشتري جميع أهل خراسان .. ولكن هذا المال الذي بذلناه انتقل الى أيدي العرب بسعاية خائن فارسي وعزل ذلـك العامل الذي يدعى سنجان عن ولايته ، فخسر الملك عندئذ أمله بالتاج وعمد الى التفكير في الاستسلام الى أعدائه !!

قال : ألا تسألني عن هذا الرجل يا مولاي ؟

وأشار الى سنجان .

فقال : من هو ؟

ـ هو سنجان الذي ذكرت ..

قال : ويلك ، أأنت يا سنجان الذي وثق به الملك واعطاه ذهبه ، فضيع ذلك الذهب ، وخسر ثقة مولاه ؟

قال : اعددت ذهب الملك لليوم العصيب فخانني ماهويه ..

ـ وكنت تعلم من قبل ان الرجل من الخونة ؟

ـ كانوا ينقلون اليّ أخبار خيانته ويطلعونني على الاكاذيب التي يوغر بها الصدور ..

ـ وماذا فعلت ؟

ـ جعلت حوله فريقاً من الرجال يحصون عليه انفاسه .

ـ ولكنك لم تحص عليه شيئاً فقد استطاع ان يخبّر عامل المروين كل شيء ، ويستولي على الامارة التي كنت سيدها بدون تعب وعناء ..

ـ ومن كان يعلم يا مولاي انه سيفعل ذلك ؟

– ومن كان يعلم انك ذلك الرجل الابله الذي لا يعلم كيف يصون مـال مولاه .. رأيت ماهويه خائناً، وثبتت لك خيانته فكان عليك ان تضرب عنقه وتجعل جثته طعاماً للكلاب !!

قال: لا يستطيع العامل الفارسي، ان يقتل احداً الا اذا أمره بذلك العامل العربي ..

فظهرت الكآبة في عينيه وجعل يقول : أرأيت يا خراذمهر دهـاء الرجال الذين سلـّم الملك اليهم أمره .. هذا واحد منهم لا يستطيع ان يقتل خائناً الا باذن الاحنف بن قيس .. ويلك يا سنجان .. ألم تكن قـادراً على قتل عمك في ظلام الليل ثم تنهض عند الصباح فتأمر جنودك بان يطلبوا قاتله ؟!. افلا تقتله الا في ساحة مرو بين صفين من الرجال ؟ عُد يا ملك الفرس الى عرشك فهؤلاء هم الرجال الذين يريدون ان يرفعوك اليه !..

قال : كان كبير الحجاب من رجال ماهويه وانا لا أعلم ..

– وهذا ذنب آخر تعترف به .. يخونك كبير حجابك وانت غافل فكأنك لم تكن في مرو غير أكرةٍ تتقاذفها أيدي الخونة من قومك.. ماذا صنع الاحنف بالمـال ؟

– نقله الى مرو الروذ ولم يبق منه لماهويه الا ما يفي بحاجته .

قال : متى نشأ هذا البغض بينك وبين عمك .

– قبل ان اتولى" أمر مرو .

– قيل لنا ان سببه الطمع في الولاية . فاذا كان هذا فقد يكون مخلصاً لملكه .. أتعرف شيئاً عن هذا الاخلاص ؟

– ان رجلاً مثل ماهويه لا يسمونه مخلصاً يا مولاي .

– قل كان ذلك حسداً منه .

– بل هو ايثار للعرب على الفرس .

قال : سترى ان ايثاره كان كاذباً .

– اما انا فأقول انك ستلمس خيانته بيديك الاثنتين .

قال : لنتحدث الآن بما قدمتما لأجله، ما هو غرضك من المجيء يا خراذمهر؟
– غرضي ان ابذل دمي ودماء رجالي في سبيل الملك .
– لقد عدت الى ذكر الرجال فعدّهم لنا .
– في جبل الزهاد الف رجل يا مولاي .
– وماذا يستطيع ان يفعل هؤلاء الرجال والعرب يملأون الاقاليم ؟
فقال سنجان : انا اذكر للملك ما يفعلون .
قال : هات !..
قال : من هم الامراء في خراسان الذين يسيرون الى القتال تحت لواء الملك ؟
– يظهرون لنا الطاعة ولكننا لا نعلم ايهم يحمل السيف .
قال : يكفي ان يكون الملك واثقاً بوفائهم .
– ولماذا تسألنا عن هذا .

– لاني أخشى ان ينكثوا عهدهم بعد خروج الملك من كرمان ويمدوا أيديهم الى العرب ..

– لا نظن انهم يجسرون على هذا .
– ولكن ليس من الرأي ان نستسلم الى الظنون يا مولاي .
– وما الرأي إذن ؟
– ان يجعلوا بينهم رهائن لدى ملكهم .
– انه رأي لا بأس به سنفعل هذا .
– وانت قادر عليه ؟
– أجل !
– وان يكون للرهائن رئيس يا مولاي !
– الغاية منه ان يحاربوا تحت لواء رئيسهم .
– اذن نختار للرياسة رجلاً نثق به يدعى فرخزاذ .
– اني لا أعرفه ، وهل هو من رجال الحرب ؟
– نعم وقد خبرناه أكثر من مرة ووثقنا باخلاصه .
– ومتى تستطيع ان تفعل ذلك يا مولاي ؟

– في خلال شهرين أو ثلاثة .
– ويجتمع لديك الف من الفتيان ؟
– قد يجتمع أكثر مما تقول .
– اذن لم يبق الا ان اذكر لمولاي الملك ما افكر فيه .
فأمر الاثنين عندئذ بان يجلسا .. ! ثم قال : اذكر الآن ما تراه .
فقال : يسير الملك مع الرهائن من ابناء الأمراء الى جبل الزهاد .
– في وضح النهار ام في ظلام الليل ؟
– في النهار والشمس طالعة ..
– وعيون العرب ؟
– سترحل هذه العيون الى اطراف خراسان !!
– بأمر من العامل العربي ؟
– نعم بأمر من هذا العامل الذي يرحل معها الى المواضع التي ذكرت !.
– وما الذي يدعوه الى الرحيل ؟
– ثورة تتأجج نارها في آخر الاقليم فتسير العرب الى اخمادها وخنق اصوات الثائرين .
– لقد فهمنا الآن .. انك تريدان نضرم نحن النار في تلك الناحية ثم نخرج الى الحرب من الناحية الاخرى .
– أجل يا مولاي هذا ما يخطر لي .
قال : انتهينا الآن الى جبل الزهاد ، ثم ماذا ؟
– يضمّ الملك رجال ذلك الجبل الى رجاله ثم يزحف الى مرو الشاهجان
وفي مرو ؟
– يدعو صاحبها ماهويه الى التسليم فاذا أبى فالحرب !
– وهل نسيت ان عند ماهويه جيشاً كبيراً يخضع له ؟
– ان ذلك الجيش الكبير يخرج عن طاعة الرجل عندما يرى الملك
– هذا حلم لا يستطيع الملك ان يصدقه .
– بل هو الواقع الذي لا يستطيع احد ان يشك فيه .

قال : أتعرف انت في مرو جميع اصحاب الجند ؟

– وكيف لا اعرفهم وقد كنت سيدهم ولو خطر لي في ذلك الحين ان ارسلهم الى الموت لفعلوا .

– وهم الذين وعدوك بهذا ؟

– نعم يا مولاي !

وكان سنجان كاذباً في قوله فهو لم يحدث القواد بالأمر الذي ذكره للملك .

ولكنه كان يظن وفي ظنه شيء من الوثوق ، ان أهل مرو يؤثرون الرجوع الى الحكم الفارسي على البقاء تحت رحمة العربي الذي لا يحبونه .

وكان يرى ان وجود يزدجرد في مرو ، سيدفع الجيش الى العصيـان ، وقد يدفعه الى قتل ماهويه فوق الاسوار ، وهذا مـا يرغب فيه . فقال الملك : واذا كذبوا فيما وعدوا ؟

– أضمن أنا لك يا مولاي ان مرو ستكون لك وستسير منها الى مرو الاخرى لتقضي على من يكون فيها من حامية المسلمين .

– ماذا تقول يا خراذمهر ، أتوافق سنجان في هذا ؟

قال : قضيت أيامي كلها بعد الفتح في جبل الزهـاد ولم أنقل منه قدماً ولا أعرف عن رجال الحرب شيئاً ... ولكني أرى في هذا الرأي خيراً للعرش .

قال : ما هو عدد الرجال الذين ينضمون الينا في مرو ؟

– الفا رجل في الأيام الاولى ثم يزداد هذا الجيش حتى يمسي ثلاثين الفاً .

قال : اذا صدق حلمك فملك الفرس يسترجع تاجه في هذا العام .

– ولأجل هذه الغاية قدمت يا مولاي .

– انك يا سنجان من المخلصين وسنجعلك من الوزراء ... متى تسعّر النار في أطراف خراسان ؟

– عندما يفد عليك ابناء الامراء وتتهيأ للخروج من كرمان .

قال : سنبدأ غداً بارسال الرسل الى الأنصار في نواحي هذا القطر .. امكثا هنا وسنأمر عبيدنا بان يعدوا لكما فراشين في هذا المنزل الذي هو بلاط كسرى.. وسننظر الليلة ، مع رجال المشورة في هذا الامر الذي تحدثنا به .

وقبل ان ينهض الرجـلان اقبل عبدٌ من عبيد يزدجرد يقول له : لقد أذن رئيس حرس الملك لرجل في الدخول .

– أرأيته قبل اليوم ؟

– يخيّل اليّ اني رأيته ، ولكن من زمن طويل .

– اذا كان هذا فافتح له .

فخرج العبد ، وأومأ يزدجرد الى الرجلين بان يخرجا الى الرواق .

ولم يلبث ذلك الرجل حتى دخل على الملك من الرواق نفسه ، فخفق قلب سنجان وحول وجهه كي لا يراه . وكان الداخل صاحبنا شهريار ، بيده الواحدة ووجهه الاسمر المكفهرّ ...

* * *

– ٣٣ –

استطاع شهريار ان يثبت لرئيس الحرس السرّي انه من عبيد الملك القدماء، ولم يأذن له الا بعد ان قصّ عليه طائفة من حكايات البلاط الفارسي قبل حرب القادسية وقبل فتح المدائن . وكان يقول له : اذا رأيت ان الملك لا يعرفني ولا يهش لي فاضرب عنقي .

فلما سجد في تلك الحجرة المظلمة لحفيد الأكاسرة استيقظت في صدر يزدجرد ذكرى قديمة بالية اضطرب لها فؤاده الكئيب .

انهـــا ذكرى لم تتردد في صدره منذ خمسة عشر عاماً الا في تلك الساعة . وهذا معناه انه محا جميع الذكريات المؤلمة التي تعكر عليه صفو عيشه في منفاه .

وجعل يرفع رأسه ويخفضه وعيناه تختلجان، ثم قال: وجه من وجوه الخدم

في البلاط ما نسيناه . وانك تدعى ...

– شهريار الخراساني يا مولاي !

– شهريار الخراساني ... نعم ، وقد تركناك في حلوان لتكون عبداً لحظية لنا بقيت فيها يقال لها جهان روز ... اجل يقال لها جهان روز !!

وكأنه كان يتكلم عن فتاة من فتيات الصين ...

فقال شهريار : يظهر ان مولاي لم ينس شيئاً .

– بل نسينا كل شيء ، ماذا جرى لتلك المرأة .

فذعر الخراساني للهجته وقال : جرى لها ما جرى لأبيها وامها يا مولاي !! فانفرجت شفتاه عن ابتسامة رضى وجعل يقول : ماتت جهان روز ؟!

– نعم يا مولاي !

– وفي أي بلد صرعها الموت ؟

– في حلوان .

– إذن فقد اختارت حلوان مقاماً لها .

– بل اختارت القبر لأنها لم تعش بعد خروج الملك غير ليلة واحدة .

– أتقول انها ماتت منذ أربعة عشر عاماً ؟

– أجل ، وهـــذا هو العام الخامس عشر وفي حلوان اليوم قبر صغير فيه رفات حظية الملك .

قال : ان حظايا الملوك الأكاسرة لا تدفن الا في المدائن .

– ولكن كتب لجهان روز أن ترقد رقادها الابدي ، على شفير الوادي ، في البلد الذي ذكرته لمولاي .

قال : لا نريد ان تقول ان جهان روز كانت حظية لنا !!

– وماذا أقول يا مولاي ؟

– قل انها كانت جارية من جواري البلاط ..

– عفواً يا مولاي فقد سمعتها تقول انها كانت أحب حظية اليك ..

– كانت بغض النسء الين وكنا نهمّ بان نطردها من الخدمة .

فلم يشأ شهريار أن يتمادى الملك في تجاهله ، فقال : أيأذن لي مولاي ان أقول كل شيء ؟

فحنى يزدجرد رأسه ، فقال الخراساني : لم يكن يخطر لي من قبل ان تلك المرأة التي امرتني بالبقاء عند فراشها تخدع الرجال

— ومن خدعت ؟

— هذا العبد الذي يخاطبك الآن ..

قال : اذكر لنا ذلك !

— لقد قالت لي انها زوجتك .. وان الطفلة التي ابصرت الوجود في تلك الليلة ، هي ابنة الملك .

فلمعت عيناه قائلاً : أتركت جهان روز طفلة ؟

— نعم يا مولاي !

— وماذا ظننت ؟

— كنت أظن يا مولاي ان هذه الطفلة سليلة الملوك .

— والآن ؟

— أما الآن فقد ثبت لي انها كانت ابنة عبد من عبيد البلاط وأنا اعترف باني قد خدعت .

واطرق متظاهراً بالتفكير ، فقال الملك : يخيل الينا انك نادم على ما فعلت ..

— وكيف لا اندم يا مولاي وقد كنت واثقاً باني اخدم مليكي فاذا انا اخدم رجلاً من رجال بلاطك جعل جهان روز عشيقة له ..

واخفى شهريار حقده ، وراء مظاهر ندمه . فقال : لقد ماتت المرأة وانتهى الأمر .

ولم يبدُ على جبينه ، اثر واحد من آثار العاطفة ، التي تتردد في صدور الاشراف فقال شهريار :

ان الامر لم ينتهِ كما تظن يا مولاي .

– وهل بقي شيء ؟

– بقي اني ربيت الفتاة التي لم تعرف امهـا .. وقضيت ليالي ساهراً عليهـا أقرأ حظي وصفو عيشي في عينيها السوداوين واسجد لهـا كل صباح ومساء كما اسجد لك ولم يقم في ذهني اني اسجد لفتاة ليس الملك منها وليست من الملك!

وبكى من قهره ، والملك يظن ان ذلك البكاء مظهر من مظاهر ندمه ، ثم قال : لقد خطر لي خاطر يا مولاي .

– ما هو ؟

– هو أن اقتل الفتاة التي ربيت !

– والغاية من ذلك ؟

– ان القتل وحده ينسيني ما مضى !

قال : ان الفتاة بريئة وامها التي جنت .

– ولكني لا ابالي بهذه البراءة .. فهي ليست ابنة الملك وانا لا أطيق ان تقيم في بيتي فتاة لا اعرف اباها .

فوضع يزدجرد وجهه بين يديه ثم قال : كنت واثقاً بانها ابنة الملك كما تقول أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاي .

– اذن كان عليك ان تحملها اليه لتنشأ في ظله ..

– بل كان عليّ ان اظهر للناس انها ابنتي وهذا ما فعلته .. اتريد يا مولاي ان احمل الطفلة من حلوان الى الري الى العراق الى خراسان باحثاً عن الملك لافتاً اليّ نظر هؤلاء العرب الذين يحصون علينا الانفاس ؟ وماذا اقول للحراس الذين حولك ؟ أأقول لهم اريد ان ارى الملك لأدفع اليه ابنته التي ولدت في حلوان ؟؟!

قال : ان لم تحملها طفلة فاحملها وهي فتاة !

– ليس في هذا الامر شيء من الدهاء. ولو رأيتها يا مولاي، لو رأيت عينيها الساحرتين لكرهت ان تطوف مع شهريار من بلد الى آخر وتتجه اليها العيون .

– أهي حسناء ؟

– كل حسن عند حسنها يموت كما تموت كل عظمة عند عظمة الملك !

– اذن هي آية من آيات الجمال .

– بل هي الجمال نفسه ولم تقع عينا الملك ، في فارس كلها على فتاة احسن منها وجهاً وابعد اثراً في القلوب .

فخفق قلب يزدجرد ، وبدأ يشعر عندئذٍ بأنها ابنته ... ثم قال : نريد ان نراها الليلة .

قال : بينها وبين كرمان مراحل يا مولاي .

– كنا نظن انها خارج هذا المنزل ، واين هي ؟

– في منزل بين المروين على شاطىء النهر .

– ومن يحرسها من القوم ؟

– عبدان وشيخ عربي معه زوجته .

– ويلك يا شهريار أتختار لخدمة الفتاة رجالاً من العرب ؟

– اني بين العرب يا مولاي فلا استطيع الا ان افعل ذلك .

– وتعرف امراءهم ؟

فقال وهو هادىء : المسلم يعرف امراء المسلمين !!

فاضطرب قائلاً : ماذا تقول ؟؟ مسلم ؟!

– نعم يا مولاي مسلم بين الاسلام ، فاذا خلوت الى نفسي فانا فارسي وديني دين فارس .

– وتقسم لي انك صادق ؟

– أقسم برأسك وهذا يكفي .

– وكيف يثق بك القوم وقد كنت من خدم البلاط ؟

– الدهاء يفعل العجائب يا مولاي ومع ذلك فهم لا يعلمون اني كنت في بلاطك .

قال : والآن ؟

– والآن ماذا يا مولاي ؟

– لأي سبب قدمت كرمان ؟

– لقد انتهى الامر الذي قدمتِ من اجله ، الآن ..

– وكيف انتهى وانت لم تحدثنا به ؟

– قدمت وانا واثق بان الفتاة ابنة الملك ، ولكني عرفت الآن انها ليست ابنته فلم تبق لي حاجة اذكرها له .

– بل تذكرها الساعة فنحن نريد ان نعرف كل شيء .

فتردّد الرجل وعيناه تنظران الى الارض ، فانتهره قائلاً :

نأمرك بهذ وتتردد ؟. اذكر حاجتك .

قال : جئت لاقصّ على الملك حكاية غرام .!

– ومن قال لك ان الملك يطيب له ان يسمع مثل هذه الحكايات ؟

– لو كانت الفتاة ابنته لطاب له ذلك .

– اذن فالحكاية حكاية الفتاة وهي عاشقة .

وتلألأ الحب الوالدي في عينيه .

قال : نعم يا مولاي وهو عشق ليست العبادة اشد منه .

– ومن هو هذا الفتى الذي تعبده ؟

– امير من امراء القوم .

– العرب ؟؟

– نعم العرب وهو من النبلاء الابطال الذين بعد صوتهم وهم في عنفوان العمر فتكلف الهدوء قائلا : أعرفته فارس ؟

– عرفته خراسان .

– وفي اي بلد هو ؟

– في مرو الروذ .

– ويلك أتعني الاحنف بن قيس ؟

– بل أعني طارقاً ابن اخيه .

– ومتى رأى الفتاة ؟

– في هذا العام يا مولاي وقد طلب الى عمه أن يخاطبها له ، ففعل .
– وماذا صنعت انت ؟
– ترددت في الامر ثم سألت الاحنف ان يمهلني الىالعام المقبل وكانت غايتي من هذا التردد ان اشاور الملك .
– وهل جاء الاحنف الى منزلك على الشاطىء ؟
– لا يا مولاي بل أمرني بالذهاب الى مرو وأفضى اليّ برغبته وهو في قصره .
قال : حكاية نشك فيها فاحذر .
– ولكن عندما أقول لمولاي اني رأيت في قصر الاحنف أميرين من امراء خراسان ، يزول هذا الشك من صدره.
– من رأيت ؟
– سنجان عامل مرو الشاهجان وعمه ماهويه .
قال ليبعد عنه الظنون ، فقال يزدجرد : ماهويه الخائن ؟
– اني أعرف الرجل يا مولاي فهو من المخلصين للعرش .
– اما نحن فقد عرفناه خائناً ولو لم يكن كذلك لما أقدم على السعاية بابن اخيه وهو من رجالنا .
– اذن تظن انه من اعدائك ؟
– أجل انه من الاعداء وقد باح للاحنف بكل شيء ودلّه على موضع المال الذي أعددناه للحرب فاستولى عليه .
– فعل ذلك ليتولى امر مرو وليس هنالك خيانة كما تظن .
قال : نراك تدافع عنه والشريف لا يدافع عن الانذال .
– لو لم يكن وفياً للملك لما خطر لي ان أذكر اسمه .. قلت انه من رجال الملك وأنا واثق بما قلت .
– والملك يقول انه لو كان من الاوفياء له لما عهد اليه الاحنف في الولاية .
– لقد سألني الاحنف عنه يا مولاي فأثبت له انه يحب العرب ويساعدهم في نيل غايتهم من بلاد الفرس . ثم قال : وكنت قد أوصيت ماهويه بان يخدع

الاحنف بظاهره الكاذبة ويسأله ان يفوّض اليه أمر القبض على الملك .

– واذا ثبت للملك اليوم ان الرجل من الخونة ؟

قال : يريد الملك ان يرجع الى ما يكتبه اليه سنجان . ان سنجان يريـد في رسائله ، ان يوغر صدر الملك على ماهويه .

قال : لا نرجع الى الرسائل التي ذكرت بل الى سنجان نفسه .

فأحسّ شهريار بالخوف يتمشى مع دمه ، ولكنه تجلد قائلاً : سنجان في هذا المنزل ؟؟

– اجل : ولو ارسلت نظرك وانت داخل علينا لرأيته في الرواق .

– وهل تريد ان يقول لك يا مولاي ان عمه اشد الناس اخلاصاً لمولاه ؟!

فدبت الريبة في صدر يزدجرد وجعل يقول : لقد أمسينا في زمنٍ لا يعرف فيه الملك صديقه من عدوه . عد الى حكاية الفتاة فسنرى سنجان بعد ساعة .

فقال وهو غير مكترث : واي شأن بقي لي مع هذه الفتاة ؟ اني سأزفها الى طارق بن عبدالله ، بل الى صعلوك من صعاليك العربان ولا ابالي .

فصاح الملك قائلاً : لا لا ! اننا لا نطيق ان نفعل ذلك .

– لماذا يا مولاي ؟

- لان ملوك فارس لا يزفون بناتهم الى هؤلاء الاجلاف. ان الفتاة ابنة الملك نعم ابنته يا شهريار ، وجهان روز امها كانت من خطاياه .

– ابنة الملك ؟. اذن لم اكن مخطئاً فيما ظننت وقد ربيت ابنة مليكي .

وتنهد تنهد الارتياح كأن السعادة أمست بين يديه .

فأيقن الملك عندئذ بان الرجل مخلص له ، فقال : حدثني بكل ما تعلم ولا تنس شيئاً .

– هذا ما اعلمه يا مولاي !

– وتقول ان الفتاة اجمل نساء فارس ؟

– بل اجمل نساء الارض وستراها بعينيك .

– ومتى تحملها الينا ؟

– ان الملك لا يقذف بابنته الى الهوة !

– واين هي هذه الهوة التي ذكرت ؟

– على الطريق بين المرغاب وكرمان !

– أتعني العرب ؟

– نعم العرب فعيونهم على الشاطيء وقد لا ترغب اليتيمة في المجيء اليك لانها لا تعلم من ولان هنالك شيئاً آخر يمنعها من المجيء هو غرامها الذي وصفته لك .

– قل لها ان لك في كرمان انسباء تريد ان تراهم .

– هب انها رضيت بذلك فطارق لا يرضى !

فغضب قائلاً : ألا يستطيع ملك الفرس ان يرى ابنته ؟

– بلى يا مولاي يستطيع ان يراها في المنزل الذي تقيم به .

– بين المروين ؟؟ نعم .

– ولكنك تقول ان عيون العرب على ذلك الشاطىء .

– ومع ذلك فالملك يقدر ان يصل الى ذلك الشاطىء على رغم هؤلاء ..

– وكيف ذلك ؟

– يلبس ثوباً عربياً أعده له وأكون بالقرب منه حتى نبلغ المنزل فيستخفي فيه ما طاب له الاستخفاء .

– لقد ملّ الملك هذا الصنف من الحياة ، فرارٌ يرافقه الخوف واستخفاء تكتنفه فيه الكآبة والألم وهذا ما لا نريده .

– وكيف تعالج الزمان اذا جار ؟..

فظهر على جبينه اباء الملك وقال : سنعالجه بالسيف !.

– اذن تخرج يا مولاي الى قتال المسلمين .

– أجل سنخرج الى قتالهم فاما ان نسترجع تاجنا أو نموت !!

فابتسم الرجل ابتسامة الفرح ثم قال : التمس من مولاي ان يذكر لي ما يفكّر فيه فقد يكون لي رأي ..

قال : أتعرف خراذمهر صاحب جبل الزهاد ؟

– لا !

– لقد جاء هذا الرجل يعرض علينا سيفه .

– ولم يكن من قبل من رجال الملك ؟

– كان مقيماً بجهله لا يخرج منه ولا يبالي بالنار التي تستعر في خراسان ... حتى أتاه سنجان فأخرجه عن حياده وحمله على المجيء .

– ومتى كان ذلك يا مولاي ؟

– منذ ساعة وقد خبرناك ان سنجان هنا وستسمع منه ما تريد ان تسمعه .

فقال في نفسه : اخشى ان يفضحني هذا الرجل فيكون جزائي الموت .

ثم قال : خير لي ان أسمع كل شيء من فم مولاي الملك .

فقصّ عليه يزدجرد جميع ما حدثه بـه الرجلان ولم يلبث حتى نادى عبده قائلاً له : ليدخل الاثنان اللذان خرجـا الساعة .. فخيّل الى شهريار ان الموت يكمن في زاوية من زوايا حجرة الملك ..

ثم دخل سنجان وخراذمهر .

فقال الملك: سنجان . يقول هذا الرجل انه رآك في مجلس الاحنف بن قيس في مرو الروذ فهل رأيته أنت ؟

فنظر الى شهريار بعينين تتقد فيها نار الحقد وقـال : نعم رأيته يا مولاي وعرفت غايته من الذهاب الى مرو الروذ مع عمي ماهويه .

– وما هي غايته ؟

– أن ينحيني عن الولاية وقد تمّ له الأمر .

– ولماذا فعل ذلك ؟

– لتخضع مرو الشاهجان للعرب كما تخضع مرو الروذ .

– وهل تظن أنه يؤثر العرب على ملكه ؟

– بل أنا واثق يا مولاي ، فهو مسلم ولو استطاع ان يقبض على الملك الساعة ويحمله الى مرو الروذ لفعل ..!

– قال : نعرف انه من المسلمين ..

– وتسكت عنه يا مولاي ؟!

– يسكت الملك عن الرجال الذين يعترفون له بما يفعلون .. لقد خبرتنا بما جرى عند الاحنف بينك وبين ماهويه واعترف لنا بانه ساعد عمك في نيل غرضه ...

– اذن فالملك يكفيه هذا الاعتراف .

– ولكنه يقول ان ماهويه ليس من الخونة وانه أشد الرجال اخلاصاً للعرش الفارسي .

– اقسم برأس الملك انه كاذب فماهويه من المخلصين للعرش العربي .

قال : لو كان شهريار وحده يقول هذا لما صدقناه .

– ومن يقوله غير شهريار ؟

– رجل من رجالنا قضى زمانه كله في البلاط وكان أخبر الناس بشؤون الأمراء الخونة والمخلصين ..

– لقد حاول هذا الرجل ان يخدع الملك ..

– لم يتعلم رئيس الخصيان الخداع .. انه هو الذي قال ذلك ، قبل ان تجيء انت ويجيء شهريار .. نعم ، كان ذلك الخصي صادقاً ووفياً فكافأه الملك بان طرده من خدمته وهو بريء ..

فلما رأى ان الملك يدافع عنه رفع رأسه وهو يبتسم ابتسامة الوثوق بنفسه ، كأنه يبذل حياته في سبيل يزدجرد . ولم يكن ذلك الدفاع صادراً من القلب .. ان يزدجرد لا يؤمن بالالفاظ التي تخرج من الشفاه ، بل كان دفاعه دهاءً ليس فيه من اليقين غير الأثر الذي يضمحل كما يضمحل الظل . لقد عرف الآن ان له ابنة تقيم مع شهريار على شاطىء المرغاب وانه لا يستطيع ان يضمها الى صدره الا اذا كانت يد الرجل في الأمر ، وقد بدأ يشعر ، كما قرأت ، بانه أب !! فمن الرأي اذن ان يستعين بالدهاء ليستسلم اليه هذا الخراساني استسلاماً يبلغ به غايته .. فقال سنجان : ليس في خراسان رجل يعرف ماهويه كما أعرفه انا .

فقال شهريار : لقد ظلم سنجان عمه يا مولاي واني اثبت لك مرةً ثانية انه

المخلص الطائع لمليكه كما يخضع العبد .. أجل لقد سلب ابن أخيه أمارته ولكنه لم يفعل ذلك خدمةً للعرب وانما هو طمع بالامارة نفسها اوحى اليه بان يفضح الأسرار .

قال : نلوم ماهويه على تسليمه مال الملك الى عامل المروين .. ومع ذلك فيكفي ان تقول انت انه صادق ليكون صادقاً !. أسمعت يا سنجان .. ان ماهويه من اصدق الناس ، فاحذر ان تحدثنا بشأنه مرةً اخرى ، بل احذر ان تحدثنا الا بأمر الحرب .. واما انت يا خراذمهر فاذا أردت أن تظفر بالعرب فاستعن برأي شهريار .

فحنى سنجان رأسه قائلاً : لم يبق الا ان اؤمن إذن بكل ما يقوله هذا الرجل ، ان ماهويه وشهريار من اخلص الناس يا مولاي ألا تريد هذا ؟

– بلى ونحن نسأل شهريار الآن ان يبدي رأيه في أمر الاستيلاء على مرو الشاهجان ، اذا فاجأناها بالجنود .

قال : استطيع ان أضمن لمولاي منذ هذه الساعة ان مرو لا تشهر على الملك سيفاً ولا تخرج الى القتال .

– أي ان ماهويه سيسلم الى الملك سيفه عندما يراه .

– نعم وسيجعلني الملك رسوله الى الرجل عندما يبلغ الجيش جبل الزهاد .

قال : تهيأ يا سنجان للخروج والطواف في الاقاليم لتنظر في أمر الرهائن ، وتحمل الى الأمراء أمر مولاك ، وسنكتب الليلة كتاباً الى فرخزاذ .

قال : وسأتهيأ يا مولاي لأمر آخر هو ان اشعل النار في أطراف خراسان كما قلت ليخلو لنا الجو ، في المروين .

– وتظن ان الاحنف سيزحف مع جنوده الى اخماد هذه النار ؟

– نعم !

– وما رأيك في هذا يا شهريار ؟

– ارى ما يراه سنجان فخير للملك ان يستولي على المروين دون ان تسيل الدماء ...

فأمر يزدجرد الرجلين بالخروج ثم قال لشهريار : يقي علينا ان نرى اليتيمة فأبوها لا يصبر على الفراق .

وجالت الدموع في عينيه !!.

فقال : وما هي حيلتي في ذلك ؟

قال: نهب لك من أجل هذه الغاية، نصف المال الذي ابقاه لنا القضاءالجائر.

– لو كان مال العالم كله بين يدي لما استطعت ان احمل الفتاة الى كرمان .

– اذن فالملك مكره على الذهاب بنفسه .

– أجل ، فاما ان يسير متحجباً عن الناس ، واما على رأس الجيش .

قال : بين جبل الزهاد ، وذلك الشاطىء ، بضع مراحل .

– ليس لك الا ان تخرج معي من ذلك الجبل ، الى المرغاب ، لترى ابنتك ، وعليك اللباس العربي .

– ونقدر عندئذ ان نحملها ونضمها الى الجيش الزاحف الى مرو ؟

– ليس من الرأي ان تفعل ذلك فاليتيمة لم تخلق لتسير مع الجنود .

قال : نبعث بها الى كرمان .

قال : ننظر في هذا الأمر عندما تأتي ساعته .

– وهل تبوح لها عند اللقاء بكل شيء ؟

– نعم يا مولاي ، سأرفع صوتي عند اللقاء قائلا لها : اسجدي ايتها الفتاة عند قدمي هذا الرجل الذي يلبس الثوب العربي ، فهو ملك فارس العظيم ، وانت ابنته !.

فتمتم قائلا : قرّبي ايتها الآلهة ساعة اللقاء ..

وجعل يصغي الى شهريار ، الذي كان يضع خطط القتال، ويعلله بالامال ..

* * *

– ٣٤ –

لم ترجع يا طارق الا لأمر ، اين شهريار !

فقال طارق لعمه : في كرمان .

– والملك فيها ؟

– لم نقف له على أثر في ذلك المنزل الذي وصف لنا وقد قام في ذهن شهريار انه انتقل منه الى منزل آخر قريب منه .

– ولماذا رجعت ؟

– هذا كتاب شهريار يقول لك فيه انه هو الذي أشار عليّ بأن أعود الى مرو فقد يمرُّ شهران وثلاثة أشهر لا يعرف في خلالها مقرّ يزدجرد .

قال : لو لم تكن اليتيمة في مرو لدبّ الريب في هذا الصدر .

قال : قد لا تجد بين المسلمين رجلاً أشد رغبة من شهريار في القضاء على ملك فارس .. انه يقضي نهاره وليله في الطواف ، وقد اختار صعلوكاً من صعاليك الفرس ليكون عوناً له على الأمر الذي يطوف من أجله .

ودخل عبدالله فعانق ولده وجلس يصغي الى ما يحدثه به .

وكان الاحنف يقول : ليس في هذا الطواف الذي تذكره لنا دليل على وفاء الرجل للمسلمين .. لقد سار الى كرمان ليبحث عن الملك ، فاذا طاف نهاره وليله فقد فعل ما يرغب فيه .

– وما الذي تخشاه يا عم ؟

– أما الذي أخشاه فهذا الرأي الذي قضى عليك بالرجوع قبل العثور على الملك ، ولو كان هنالك وفاء ، لدعاك شهريار الى البقاء في كرمان حتى ترى بعينيك ، ذلك المنزل الذي يقيم به حفيد الاكاسرة .

– لم يشأ ان ابقى خوفاً من ان تضطرب نفس عمي ونفس أبي ، وهذا ما ذكره لك في كتابه الذي قرأته الساعة .

قال : خرجت مع الرجل الى كرمان ، على أمل البقاء بضعة أيام تقضيانها بالبحث والطواف ، ولكن شهريار لم يرد ان تبقى غير يوم وليلة أفتريد ان يظن عمك وأبوك ان في هذا الرأي الذي رآه شيئاً من الاخلاص ؟

– نعم أريد أن تثقا انتما الاثنين باخلاصه .

قال : من ينقل الينا خبر يزدجرد اذا ثبت وجوده في كرمان ؟

– شهريار نفسه .

– أجل، ويخرج عندئذ جيش المسلمين من مرو ليقبض على الملك في كرمان. ولكنه عندما ينتهي اليها يكون هذا الملك قدغادرها الى بلدآخر برأي صاحبك الذي يخدع والي المروين ، ويخدع العرب .

قال : من يعلم فقد يبعث اليك بخبره مع رجل عربي .

– ليس من الرأي ان يثق بعربي لا يعرفه، ولو استحسن عمك ان يحمل هذا الخبر رجل من العرب ، لاختار هذا الرجل من قومه ولم يأمرك بالمسير مع شهريار وبأن تكون رفيقاً له .. ان شهريار يخون المسلمين فالويل له .

قال : هذا استسلام الى الظنون يا مولاي .

– بل هو الامر الواقع الذي ستلمسه بيديك .

– واليتيمة ؟

– أي شأن لهذه الفتاة البريئة التي تجهل كل شيء .

– لقد جعلها رهينة في بيتك ، فكأنه كان يعلم انك ستشك فيه وقد قلت الآن ان وجودها في مرو يضمن براءة الرجل .

قال : كان يجب ان أقول غير ذلك .

– ماذا يا مولاي ؟

– كان يجب ان اقول .. ان شهريار .. ترك الفتاة في مرو .. ليس لتبقى فيها شهراً أو شهرين بل .. الى .. الابد !.

– وهذا معناه انه لن يعود ..

– لا .. لن يعود فقد لحق بملكه وانتهى الأمر .

قال : ما سمعت من قبل ان رجلاً يؤثر ملكه على ابنته ..

قال : لا تكره عمك يا بني على الاعتراف بما في صدره من اسرار .. ان شهريار لا يبالي بفتاته !

– بل يعبدها يا مولاي وهي امنيته في حياته .

– كانت امنيته ان يختار لها فتى يزفها اليه وقد تمت له غايته الآن !!

- ولكنها لم تزف الى هذا الفتى كما ترى، ولم يشأ هو ان ينظر في امر الزواج الا في العام المقبل .

فهز رأسه قائلا : ذلك دهاء لا تعرفه ..

- ولكني لا استطيع ان اظن ان الرجل الداهية يسيء الى نفسه.. أفيطيب لشهريار ان يدفع ابنته الى مرضعها ، ثم يهجرهـــا الى الأبد ، دون ان ينظر في أمرها ودون ان يفكر فيها كما تقول ؟

- نعم يطيب له ذلك وأنا واثق .

قال : لنفرض ان طارق ابن عبدالله قتل في الحرب غداً فمن يتزوج الفتاة ؟

- فتى آخر تختاره هي .

- ولا يعرف ابوها هذا الفتى الذي تزوج ابنته ؟

- لا !!

فأحس طارق ان يدين حديديتين تقبضان على عنقه ، فقال : أ كاد اختنق يا مولاي فبح لي بما تعلم .

قال : اخشى ان ينتهي بك الامر الى ما لا تحب .

- اعدك بأني سأصبر على ما أسمع .

فقال لعبدالله : اذكر لولدك الظنون التي تتردد في صدرك ..

فقال طارق : اذن في صدر ابي ظنون يكتمني إياهـــا ... قل يا أبي فأنا مصغ اليك ..

قال : أظن يا بني كما يظن عمك ان شهريار لا يبالي بالفتاة التي ارضعتهـــا أم عـــامر .

قال : دلني اولاً على رجل لا يبالي بابنته .

فخفض صوته قائلا : لم يكن شهريار اباً لليتيمة ولم تكن اليتيمة ابنة له !!

فاستند الفتى الى مقعده وهو يقول : لمبنة من هي ؟

فكره ان يذكر له اسم الملك فيقضي على امله ، فقال : ابنة عظيم من عظماء فـــارس !

- وتعرف اسمه ؟

– لا اعرف من هو لأعرف اسمه ، ولكني واثق بأن الفتاة ليست من دم هذا الخراساني .

– وابوها حي ؟

– يقوم في الذهن انه حي .

– لتكن ابنة من شئت فأنا لا ابالي ويكفي اني احببتها كما احب الاسلام ! ولكني اريد ان اعلم اسباب هذه الظنون ..

قال : اذكر لك ثلاثة من هذه الاسباب أولها انك لا تجد في وجه اليتيمة اثراً لملامح شهريار .

فابتسم قائلاً : امـا انا فاعرف طائفة من الفتيان لا تشبه وجوههم وجوه ابائهم وقد تحمل هذه الوجوه ملامح الامهات ونحن لا نعرف ام اليتيمة ..

– اصبت ، ولكن السبب الثاني يخلق الظنون ويدعو الى التفكير ..

– ما هو !

– ألا تذكر تلك الحكاية التي رواها لنا شهريار عن زواجه ؟

– بلى

– وهل يخطر لك انه تزوج الفتاة التي يزعم انه تزوجها ، وهي لم تكن تحبه ولا تطيق ان تنظر الا الى ذلك الفتى العربي الذي كانت تهواه ؟

– يحدث في العالم كل يوم ، مثل هذا .

– وهل يحدث في العالم ان الرجل يعاهد زوجته ، التي تبغضه ، على الوفاء لها بعد الموت ، وعلى ان يبغض هو الفرس ، قومها وقومه ، وهو منهم ، منعها من ان تزف الى فتى من المسلمين ؟

فتردد قليلاً ثم قال : الحب يفعل اكثر من ذلك كما تعلم ..

قال : ثم تموت هـذه الزوجة ، فيعتنق شهريار الاسلام ، ويخون مليكه ووطنه ، ويتظاهر بأنه يبذل حياته في سبيل الفتح العربي ؟

– قد يكون هنالك سبب آخر لم يرَ ان يبوح به .

ـ اجل انهنالك سبباً آخر هو الذي نخافه، ولو كان الرجل صريحاً وصادقاً لما حدثنا بالالغاز ولما اخترع لنا الحكايات لنؤمن انه من المخلصين .

ـ وماذا بقي الآن ؟

ـ بقي انه ترك الحرب منذ خمسة عشر عاماً كما يقول .

ـ نعم !

ـ وقد قضى هذه الأعوام وهو لا يشهر سيفاً ولا يشترك في قتال،ولا يعمل عملاً يملأ يديه مالاً وتكتنفه معه النعم .. وانك لتراهُ اليوم ، يملك منزلاً على الشاطىء وعنده عبدان ورجل عربي من بني سليم وزوجته ، ودار للاضياف تخرج منها الوفود وتجيء اليها كل يوم ، فأية سماء تمطر شهريار ذهباً وأي جنيّ يهب له هذا المال الكثير الذي يبذله لاضيافه ؟!!

ـ لك ان تظن انه مال ورثه من آبائه ..

ـ بل اظن انه مال تحمله اليه يد خفية لغاية من الغايات .

ـ وهي يد ذلك الفارسي العظيم والد اليتيمة .

ـ او يد رجل من رجاله .

ـ واي شيء يدعو هذا الوالد الى البذل ؟

ـ ابنته التي تعيش في ظل شهريار .

ـ ولماذا لا تعيش في ظله بل لماذا نشأت في بيت هذا الخراساني ولم تنشأ في بيته ؟

ـ انه سر نفكر فيه ولا نستطيع ان نعرفه .

قال : لو كان والد اليتيمة غير شهريار لطلبها اليه .

ـ ومن قال لك انه لم يفعل ، هو يطلبها كما تقول وشهريار يتردد في الامر ويمد يده ليقبض المال الذي ينعم اضيافه به .

قال: اعجب لهذا الوالد الذي يصبر على دلال شهريار ولا يسترجع ابنته بقوة السيف ، وهو قادر على ذلك .

قال : نسيت ان المرغاب بين المروين ، وان صفوف العرب على الشاطىء .

ـ ونسيت انت ان الفرس يروحون ويجيئون بين العرب ولا يعرض لهم احد

بسوء ، ومع ذلك فلماذا كان شهريار يلجّ في طلب المال بالامس ، ولماذا اهمل أمر الفتاة اليوم حتى لتظن انه لن يعود ؟

– لأنه سئم الاستعطاف والرجاء وآثر اللحاق بمليكه على خدمة فتاة غريبة جعل نفسه عبداً لها ولأبيها الذي لا تراه العيون .

قال : اسألك سؤالاً آخر ستتردد في الجواب عنه .

– اسأل .

قال : لو مثل الوالد الفارسي بين يدي الملك وشكا اليه شهريار، ثم سأله ان يعيد اليه ابنته فماذا يقول ؟

– يأمر شهريار بأن يعيدها اليه فيجيبه قائلاً : لقد سباها رجال الاحنف بن قيس فهي في مرو الروذ !

فقال للاحنف : اني لا اصدق شيئاً من هذا يا مولاي .

– وهذه الظنون لا تزول الا اذا عاد شهريار حاملاً اخبار الملك .

قال : يخطر لي ان اعود غداً الى كرمان .

فقال عبدالله : وهذا ما يراه ابوك يا بني فخير لك ان ترى بعينيك جميع ما سمعته الآن وقد تعود بعد ايام وانت واثق بأن شهريار من أنصار يزدجرد واصدق رجاله .

– وقد اعود وانا واثق بانه من انصار الاسلام .

فقال الاحنف : ارى ان تنصرف بعد بضعة ايام فقد يرجع شهريار ونكون مخطئين فيما خطر لنا الآن .

وتظاهر بأنه يهم بالخروج لى السوق ، فقال طارق : اني ذاهب الى المنزل يا مولاي .

– اذهب الى حيث تشاء يا بني على ان تكون رجلاً ..

وعندما انتهى طارق الى الرواق كان الاحنف يقول لعبدالله : أصاب طارق في دفاعه عن شهريار ، وأصبت انت في قولك ان اليتيمة ليست ابنة له .

– وأي رأي لك في الرجل ، أهو يخون المسلمين ام ماذا ؟

– لقد ذكرت الخيانة لطارق وأنا غير واثق بما ذكرت ... ان الرجل في نظري ، صادق في اسلامه ، وسيظل صادقاً حتى تبدر منه بادرة خيانة أو خداع .

– وترى ان يرجع طارق ثانية الى كرمان كما قال ؟

– اجل ، وليحمل الينا هو نفسه اخبار ذلك الملك الذي يشعل النار وهو وراء الستار ..

فخطر لعبدالله خاطر فقال : لقد ذكرت الآن امراً أخشى ان يقع فتسوء العاقبة وكان علينا ان نلفت اليه نظر طارق قبل ذهابه .

– لقد عرفت ما تعنيه .. انك تخاف ان يذكر لليتيمة ما سمعه الآن فيعكر عليها صفو العيش

– هو ذاك .

قال : ليقل ما يطيب له فقد احب الواحد منهما الآخر حباً لا تؤثر فيه الحادثات ..

وبعد ساعة خرج عبد الاحنف الى الفناء يقول للقوم : لقد جلس الامير للناس فمن كانت له حاجة فليدخل . وكان طارق جالساً الى جانب اليتيمة وقد ابكى اللقاء الاثنين .



- ٣٥ -

أعرفتما مقرّ الملك ؟

– لم نعرف شيئاً فالملك ذو جناحين يطير بهما عندما يشاء ، الى حيث يشاء .

– ولكن ابي كان يعرف منزله وقد وصفه لعمك وابيك قبل ذهابه .

– ومع ذلك فهو لم يرَ في ذلك المنزل غير الوحشة الرهيبة التي تبعث الذعر الى كل قلب .

– وكيف طاب له ان يعود حاملاً خيبته ؟

– انه لم يعد كما تظنين .

قالت : خيّل اليّ انه في مجلس الامير .. ولماذا رجعت انت وبقي هو ؟

– لأنه لم يشأ ان يعود الا بعد ان يرى يزدجرد الذي يبحث عنه وسأرجع انا الى كرمان بعد بضعة ايام .

قالت : أتبشرني برجوعك في ساعة اللقاء ؟

– خير لك ان تعلمي ذلك الآن وتتهيأي له ، من ان تعلميه فجأة صباح يوم الرحيل .

– قل لي أولاً لماذا قدمت وحدك ؟

– لأن شهريار أراد ذلك .

– وأي امر يدعوك الى الرجوع ؟

– لقد كره ابي وعمي ان يبحث شهريار وحده عن يزدجرد فأمراني بالعودة لاكون عوناً له في بحثه .

وحوّل وجهه ليخفي مظاهر الكآبة التي بدت على جبينه .

قالت : اقرأ الالم في عينيك وانا خائفة .

– اما ما ترينه في عيني ، فآثار التعب من هذا السفر الشاق ، واما انك تخافين فلم ارَ في الامر سبباً لهذا الخوف .

وكان التردد ظاهراً في لهجته، فاضطربت قائلة : اقسم لي انك تركت ابي في كرمان .

– أقسم لك اني تركته فيها .

– وانه حر ؟

– وأقسم انه حرٌ يتبين منازلها ويطوف في اسواقها كأنه في مرو .

– اذن فالاحنف لا يريد ان تبقى قريبا من الفتاة التي أحببت .

– بل لا يريد ان يبقى بعيداً عن أبيها وهو يشتغل لمصلحة العرب .

قالت : استحلفك بهذا الحب ان تبوح لي بكل شيء .

وكيف يعترف لها طارق بما جرى بينه وبين عمه وأبيه ، وفي هذا الاعتراف

جرح ، ولكنه رأى انه اضعف من ان يكتمها مـا جرى ، فقال : قلت ان ابي وعمي يرغبان في ان اعود لأساعد شهريار في أمره .

– وأنا اشعر انك تخفي الآن ما حدثاك به .

قال : لا تلجي في طلب شيء لا وجود له .

قالت : ان هذا القلب لا يكذب وانا أكاد ألمس الألم في عينيك . اريـد ان تقص عليّ الان حديث الأميرين فالخوف يملأ نفسي ولا استطيع ان اصبر .

فنهض قائلاً : سأعود بعد ساعة لأنقل اليك حديث الاثنين .

– بل تقول الآن ما تريد ان تقوله ثم تنصرف .

قال : رحمة أيتها الحبيبة فانا لست قادراً على الاعتراف بما تطلبين .

فتفجّر الدمع من عينيها وجعلت تقول : ويل لي ، فقد نسيت اني بين قوم غرباء ينظرون اليّ كما ينظرون الى الجواري اللواتي سبتهنّ الحرب !! نعم لقـد نسيت ذلك، فتجاوز عن ذنبي،وانسَ ما قلته لك ولكن اعلم انه لولا هذا الحب لما طلبت شيئاً .

واخفت وجهها بيديها واستسلمت الى البكاء .

ودموع المرأة سلاح لا تذكر معه السيوف والحراب .

فقال الفتى في نفسه : ابوح لها بالسرّ من هذه الناحية واكتمها إياه من الناحية الاخرى ولو جرحتها وجرحت شهريار .

ان الاعتراف بالاسرار خير من هذه الدموع التي لا تحتملها قلوب المحبين .

ثم قال لها : اصغي اليّ فستسمعين الان ما اردت ان تسمعيه .

فرفعت رأسها وهي تكفكف الدموع ، فقال : ابوح لك بسري على رجاء ان تنسي ما تسمعينه بعد قليل .

– لا أدري اذا كنت أستطيع نسيانه .

– انا اعلم انك تستطعين ذلك فهذا السر كلمة قالها الاحنف في ساعة مـن ساعات غضبه دون ان تخطر له من قبل .

– اذن هي كلمة عنى بها اليتيمة المنكودة الحظ .

– بل عنى بها شهريار .

– وما هي ؟

– هي انه من انصار يزدجرد ولو لم يكن من انصاره لما طلب اليّ ان اعود الى مرو روذ في مثل هذه السرعة .

قالت : الا تخدعني بهذا القول ايها الحبيب ؟

– لا والله بل اعيد عليك ما قاله لي .

فتنهدت قائلة : انه سر يستطيع البريء ان ينساه ولكن اي مظهر اوحى الى الامير بان ابي من انصار الملك ؟

– مظاهر كثيرة يجد فيها امراء المسلمين مجالاً الى الظنون .

– اذكر بعضها .

– حياة ابيك التي تكتنفها الاسرار حتى انه كتم ابنته اسراره لا يبوح بها لأحد الا بعد عام .

قالت : لكل رجل سر يحتفظ به لنفسه .

– اجل ، ولكن سر أبيك يتعلق بزواج ابنته والاسرار من هذه الناحية تخلق الظنون .

قالت : يصبر الامير عاماً فيعرف سره وينتهي الامر .

قال : رجال الحرب لا يعرفون الصبر .

قالت : أليس الاحنف بن قيس من رجال الدهاء والرأي في الاسلام ؟

– بلى وهذا ما يعترف به جميع الامراء .

– وكيف يظن ، وهو رجل الرأي، ان شهريار الخراساني من المخلصين للملك وهو لم يرَ اثراً واحداً من اثار هذا الاخلاص ، وقد مرت الاعوام وشهريار لم يرَ هذا الملك الذي يتهمونه بالانتصار له ؟!

يقول الاحنف ان لابيك داراً للاضياف يبذل فيها المال لمن يفد اليه من رجال العرب واهل فارس .

– اذا كانت دار الاضياف ذنباً فعند كل امير عربي دار مثلها فهم جميعهم مذنبون .

- لهؤلاء الامراء حصة من الغنائم وفي ايديهم المال يبذلونه باسم امير المؤمنين .

- ومع ذلك فأنا لا افهم ما تقول .

اقول : ان القوم لا يبذلون للناس مالهم الا اذا كانوا اغنياء . !

- ولهم ان يبذلوه اذا كانوا فقراء .

- الفقير لا يملك داراً للاضياف .

قالت : فهمت الان . ان الاحنف يريد ان يعلم أي يد تهب لأبي المال أليس كذلك ؟

- نعم ، وهو يقول ان شهريار لا يستعين بعمل من الاعمال على بذله ، بل يقضي ايامه كلها بالطواف في البلاد ثم يعود الى المرغاب ليمكث على شاطئه شهراً وبعض الشهر ، والوفود تمر ، والدار عامرة تغص بالنعم ، فالمال اذن مال الملك اذ لا يستطيع احد ان يفعل ما يفعله شهريار الا الملوك !!

فاطرقت تفكر في هذا الجواب الصريح الذي لا تستطيع ردّه . ان اباها يعيش في سعة كما تعيش وفوده ، وهو لا يشكو الفقر ولا يذكر الحاجة ، فكأن له المورد الفياض الذي لا ينضب ماؤه !

وهي ترى انــه ليس مــن التجار الذين يشترون ويبيعون في الاسواق ، ويطوفون في المدن والقرى وبين صفوف الجيش ليكثر مالهم .

كما انها كانت ترى انــه لا يتظاهر بالغنى الموروث ولا يتحدث بالذهب ، فاذا كان الاحنف يشك في امره ففي هذا الامر مجال للشك . ولكنها ارادت ان تتهيأ للدفاع ، فأبوها البار ، ابوها الذي يغمرها بالعاطفة والحب ويمهد لها اسباب الرفاه ، يستحق هذا الدفاع فقالت : اسألت ابي عن هــذا الطواف الذي يعمد اليه من حين الى آخر ؟

- ليس لي ان اسأله عن ذلك . بلى ، كان يقول للاحنف انه يطوف مــن اجل غاية واحدة هي البحث عن يزدجرد .

قالت : لعله يطوف طواف تاجر ونحن لا نعلمُ .

- وللاحنف ان يظن ، انه يرحل كل شهر ليرى الملك ،ويقبض ماله ثم يعود.

– اما انا فلا اصدق انه يفعل هذا وهو مسلم ، وقد نفخ في صدر ابنته روح الحب للعرب والاسلام ، كما اني لا اصدق ان الرجل يستطيع ان يعلم ابنته ان تبغض يزدجرد وهو يحبه ، وان تحتقره وهو مخلص له .

وطابت نفسها عندئـــذ لهذه الناحية من الدفاع ، وكانت تقول : اجل يا طارق ان ابي لا يخدعني اذا هــو خدع العرب ، ولا يهزأ بي اذا هزأ بهم ، ولا يطلب اليّ ان احبهم كما احبه وهم اعدائه !!

– وهل تحلفين انت بهذا الحب انه يطلب اليك ذلك ؟

– خير لي ان اموت مـن ان اكذب واهزأ بالفتى الذي احببه ولن احب سواه .

ثم قالت : والان فأنا افترض امراً عالج به هذا الريب من جميع وجوهــه لأثبت براءة الرجل الذي تشكون فيه .

– وماذا تفترضين ؟

– يطيب لي ان اظن الان ، ان ابي من رجال الملك ، وانه يخفي اخلاصه له وراء مظاهر اخلاصه للعرب ، ولكني لا اعلم ما هي الغاية التي يبذل مـن اجلها مال الملك ، لوفود الناس من كل بلد وكل جنس !!

– غايته من ذلك أن يتنقص العرب ويذكر لوفوده عظمة الملك الفارسي !

– وهل يجسر على هذا ، وهو بين المروين وبين جيشين من جيوش الاسلام .

– يقول ذلك سراً لأهل فارس ..

– ولكن معظم اضيافه من العرب فماذا يقول لهؤلاء ؟.

فرأى طارق أنه أعجز عن ان يقول كلمة بعد هذا الدفاع ، فقال : لم يخطر لي قط ايتها الحبيبة ان شهريار يخون العرب .

– ولن يستطيع أمير المروين انيثبت هذه الخيانة كما انه لا يخطر لأبي، وهو العدو الخائن ، ان يدفع ابنته الى أيدي اعدائه ، ويرحل هو الى كرمان ليقبض المال من مليكه ..!

قال : كفى فانا واثق بما تقولين ، ولولا هذا السر الذي يحتفظ به شهريار ،

ارفعت صوتي في مجلس الاحنف قائلاً للقوم : هذا اعظم خـــادم للعرب في خراسان . وكره ان يذكر لها الظنون الاخرى التي ذكرها ابوه وعمه . انه اذا فعل ذلك طعن قلب اليتيمة بسهم وقد يخسرها الى الابد .

قالت : يخيل اليّ اني أعرف بعض سره .

ـ اذكري لي ما تعرفين .

ـ يظهر ان امي ، لأمر اجهله ، طلبت الى أبي وهي على فراش الموت ، الا يزوجني الا في عامي الخامس عشر ، وقد أراد هو ان يبرّ في قسمه ويحتفظ بسره الى ذلك اليوم .

قال : مهما يكن هذا السر فهو غير قادر على ان يبعد الواحد منا عن الآخر .

ـ بل هو لا يقدر على ان يعكر على القلبين ، صفو الحب .. ولكن مـــاذا تقول لأبي اذا رجعت ؟

ـ اقول ان الاحنف لم يرضَ الا بأن أكون رفيقاً له ، في ذلك البـلد الذي يحمل أهله لواء الثورة كلما عصفت الريح ..

قالت : تذهب ، وانا لا أعلم متى يعود أبي وتعود انت ..

ـ لا يعلم ذلك غير الله الذي يعطف على المحبين

وقبل ان يخرج طارق من المنزل اقسمت اليتيمة له انها لا تذكر لاحد كلمة مما سمعت ، ولا تظهر لأم عامر انها تعرف شيئاً .. وكان ذلـك الحادث ، عهداً جديداً وثـّق عرى الحب بين الحبيبين ..

* * *

- ٣٦ -

خرج سنجان من كرمان ، ليدعو امراء الاقاليم ، الى حمل السيف تحت لواء مولاه ، أو الى جعل ابنائهم رهائن تثبت لهم بقاءهم على الطـاعة ، وخضوعهم لكل ما يأمرهم به دون تردد وخوف .. نعم ، كان يزدجرد المغرور ، الذي يحاول ان يسترجع عرشه ، لا يثق بشعبه ، وهو يخاف ان يغدر هذا الشعب به . وكان

سنجان ، وهو ماضٍ في مهمته ، يفكر في شهريار اللعين الذي استطاع ان يحمل الملك على الوثوق به . ومن أين له ان يعلم ، ان في منزل شهريار فتاة هي قطعة من نفس يزدجرد ..

على ان شهريار ، لم يكن صاحب حظ ، في بقائه داخل جدران ذلك المنزل المتداعي الذي يقيم به عدوه. ولم يكن قادراً على الخروج منه، بل لم يكن قادراً على الخروج الى الفناء !.

لقد جعله يزدجرد اسيراً دون ان يظهر له انه آسره .. ودون ان يبدو على وجهه وفي مظاهره أثر واحد من آثار غايته . لقد آمن يزدجرد بان ابنته على شاطىء المرغاب ، ولعله لم يؤمن بأن شهريار غير قادر على حملها اليه ، كما قال . وقد خطر له ، في بادىء الأمر ، ان يبعث الى ذلك الشاطىء رجالاً يقولون لليتيمة ان اباها ملك الفرس .. وانه ينتظرها في كرمان ليضمها الى صدره .

ولكنه خاف ان تردهم الفتاة رداً قبيحاً قائلة لهم : ان أبي يدعى شهريار الخراساني وانتم من اللصوص . وكان يخشى ، اذا هو عمد الى القوة ان تستغيث اليتيمة بمن حولها من العربان ، فيخسر اولئك الرجال ، وقد تلجأ بعد ذلك الى الاحنف فيضيّعها الى الأبد وهذا ما لا يريده ؛ فعوّل أخيراً على الاحتفاظ بشهريار ريثما ينتقل من كرمان الى جبل الزهاد ، وهناك، في ذلك الجبل ، ينظر بالاشتراك معه ، في أمر الفتاة التي يذوب شوقاً الى رؤية وجهها الوضاح الذي وصف له . وكان شهريار يريد الخروج من المنزل ليختار له رجلاً عربياً يبعث به الى مرو الروذ ، والملك يمنعه من ذلك ، وكلما لجّ في طلبه ، أسمعه نغمة جديدة من نغمات الدهاء، حتى نفذ دهاؤه وضعفت نغماته، وأحسّ شهريار بعجز آسره، عن اختراع الاعذار . على ان يزدجرد لم يعجز الى النهاية ، فقد عمد الى وسيلة يبلغ بها غايته دون ان يلجأ الى النهج القديم ، الذي تعود أن يخدر به أعصاب أسيره .

لقد أمر عبده ، بان ينقل كلاماً الى رئيس الحراس ، الذي يطوف متنكراً ، في نهاره وليله حول ذلك المنزل ؛ فأقبل ذلك الرئيس ، بعد يومين يستأذن على

يزدجرد ، فأذن له ، وهو يعجب لطلبه ويقول لشهريار : لا يمثـل هذا الحارس بين يدي الملك الا لأمر .

فلما دخل قال له : لقد حدث في كرمان حادث فما هو ؟

– لم يحدث شيء يا مولاي ولكن خيل اليّ ان جواسيس العرب يملأون هذا الحي فأحببت ان أذكر ذلك لمولاي .

قال : يعلم الملك ان هؤلاء الجواسيس يملأون كرمان ، ولكن أي شأن له معهم وهو داخل المنزل ، وانتم الحراس المكلفون ان تسهروا على حياته .

– اني لا أخاف ان يخرج الملك من بيته فيقبضوا عليه ..

– وماذا تخاف اذن ؟

– ان يخرج احد هذين الرجلين فتسوء العـــاقبة ..! وأشار الى خرادمهر وشهريار .

فقال : لا يخرج الاثنان الا عندما يخرج الملك .

– واسأل مولاي أن يهجر معها الرواق في هذه الأيام ..

– وهل يرى الجواسيس هذا الرواق وجدار السور يحجبه عن العيون ؟

قال : رأيت بعضهم يقف على ظهر ناقته وهو يتظاهر بأنـــه يضرب الهواء وليست له من وراء ذلك غير غاية واحدة هي ان يتبين ما في الداخل ..

– ومتى أقبل هؤلاء الجواسيس الى هذا الحي ؟

– في هذا الصباح ولم أرَ منهم أحداً قبل اليوم .

– وترى انهم يقيمون حولنا العمر كله ؟

– لا أعلم يا مولاي اذا كانوا يريدون ان ينزلوا ضيوفاً ، في الحي الذي ينزل فيه ملك الفرس .

قال : أتمازح مولاك أيها اللعين .

– وماذا يريد مولاي ان أقوله له وأنا لا أستطيع أن أقرأ ما في قلوبهم لأنقله اليه .

– وهل تستطيع ان تعدّهم ؟

– انهم بضعة عشر رجلاً يا مولاي .
– إذن نحن داخل نطاق من الجواسيس ..
– نعم والويل لنا اذا لاح في الرواق او في الفناء ، خيال رجل او امرأة ، من أهل المنزل .

– وأنت ماذا تصنع في الخارج ؟
– أقوم مع عمالي بنقل الاحجار ، من هذه الناحية الى الناحية الاخرى .
قال: انك من الحراس الذين يستحقون شكر الملك.. اذهب الآن، ولا تتردد في الدخول عندما يخلو الجو .

فسجد شاكراً ، ثم خرج وقد مثّل دوره كما أمره الملك . فقال يزدجرد عندئذٍ لشهريار :
أبقي لك ما تقوله بعد هذا الخبر الذي سمعت ؟
قال : أضمن لمولاي اني اخرج من الفناء دون ان يراني أحد ..
قال : لم أرَ رجلاً من رجال الملك ، يلجُ في طلب الخروج كما تلجُ انت .
– وهذا معناه انه ليس بين الرجال من يهتم لأمر مولاي كما أهتم له أنا ..
– وما هي غايتك من الخروج ؟

– لقد ذكرت للملك هذه الغاية اكثر من مرة واعيدها الآن .. اني أستطيع وأنا في السوق ، ان أخدم ملكي اكثر مما اخدمه وانا في هذا السجن ..
– ألا يطيب لك ان تكون سجيناً مع حفيد الاكاسرة ؟

– يطيب لي ان أموت عند قدميك يا مولاي، ولكني أكره ان استخفي في سجني ، وأنا قادر على الطواف في البلاد كما يطوف سنجان ، استغيث بابطال فارس المغاوير وأدعوهم الى طرد الفاتحين الذين اغتصبوا العرش .

قال : حسبك ان الملك راضٍ بأن تبقى بين يديه .
– لو فكر الملك في الأمر لراى ان الانصراف خير من البقاء ..
قال : يظهر انك لا تحب الملك كما يجب ان تحبه .
– وكيف ذلك يا مولاي ؟

– تريد ان تنصرف وانت تعلم ان في هذا الانصراف خطراً على ملكك ومع ذلك فأنت لا تبالي .. اتحب ان تدفع الملك بيديك الى ايدي اعدائه ، ليستولوا على ما بقي له من المال ، ويسبوا نسله ، ويجعلوه عبداً لذلك الرجل الحجازي الذي يقال له عثمان ويدعونه امير المؤمنين ؟!

– لا تستطيع العرب ان تفعل ذلك ونحن احياء .

– بل تستطيع ان تفعله عندما يقول يزدجرد قولاً ولا تسمعون له .. امرناك بالبقاء فابق ، وحسبك كما قلنا لك ، انـك نديم الملك ، وامين سره ورفيقه في منفاه ، وانه لشرف لم تكن لتحلم به والملك في بلاطه .

وعندما كان شهريار يحاول الفرار من سجنه وهو عاجز عنه، كان طارق بن عبدالله يروح ويجيء في اسواق كرمان واحيائها باحثاً عنه . وكأنه كان يبحث عن القمر في الليلة السوداء ، حتى مرّ شهر كامل على رجوعه ، وهو لم يره ، ولم يقص عليه احد خبراً من اخباره .. فقال في نفسه ، هذا دليل من دلائل الخيانة التي لم تخطر لي . وتعب في التفتيش عن امهرز ، الذي نام ليلة في كوخه ، مـع شهريار . ان امهرز ترك كرمان الى طوس ، مستعيناً بالاسفار على جور الزمان الغدار ، وطارق لا يعلم . ولم يكن في كرمان رجل يعرفه ، ليجعله عوناً له على الأمر الذي قدم من اجله ؛ فضاق صدره ، ولم يرَ الا ان يرجع ثانية الى مرو ، وهو يفكر فيما يقوله لعمه وابيه، بعد ذلك الشهر الطويل الأيام . وكان عزاؤه، فكرة واحدة هي ان يزدجرد انتقل الى بلد آخر فخطر لشهريار ان يلحق به . وهذه الفكرة هي التي تثبت براءة الرجل للاحنف الذي لا يرحم . وقـــد ارتاحت نفسه الى هذه الناحية من التفكير وايقن بان عمه واباه سيصدقان مـا يقوله لهما . وعندما انتهى طارق الى مرو الروذ انتهى سنجان الى كرمان راجعاً من مهمته ومثل في الوقت نفسه ، بين يدي الاحنف رجل عربي يحمل كتاباً من عبدالله بن عامر امير البصرة . وكان ذلك عند المساء ، وقد انصرف اهل البـلد الى منازلهم وهم يتحدثون بأمر ذلك الرسول الحامل كتاب عبدالله . وقـام في الاذهان ان الحرب على الأبواب ..

* * *

اضطرب يزدجرد وخفق فؤاده عندما رأى سنجان ساجداً عند قدميه ، وقد قام في ذهنه انه يحمل اليه اخبار خيبته وفشله . وكان مطرقاً وشهريار في الجانب الآخر من تلك الحجرة الصغيرة التي تقوم مقام قاعة العرش ، فاستوى جالساً وقال له : ماذا فعلت ايها الرجل ؟

– فعلت ما امرني به مولاي الملك .

– وزرت جميع الاقاليم ؟

– زرت اقاليم خراسان الكبرى يا مولاي .

– كلها ؟

– نعم ومررت بسجستان .

– إذن كنت ذا جناحين تطير بهما من ناحية الى اخرى !

قال : لم اضيّع ساعة واحدة من الزمان الذي مرّ .

– ومن رأيت من المرازبة ؟

– صاحب سجستان وقد عاهدني على نقض الصلح الذي تمّ بينه وبين العرب ..

– وصاحب نيسابور ؟

– ووضعت يدي بيد صاحب نيسابور ثم ذهبت الى البسطين اللذين هما بابا خراسان وأوغرت فيهما صدور القوم وهم الآن يعدّون العدة للحرب .

– وطوس وما حولها ؟

– وأهل طوس ونسا وحمران يحملون السيف .

فأشرق جبينه قائلاً : اذا كنت صادقاً فيما تقول فقد بلغنا الغاية .

– اني صادق يا مولاي وسترى بعينيك .

– ولكنك قلت انك ستجعل أبناء الامراء رهائن لدى الملك .

– أجل ، وقد وفيت بما وعدت يا مولاي .

– وأقبلت الرهائن ؟

– نعم فلدى الملك الآن ألف فتى من صغار الامراء .

– وأين هم ؟

– في السهل البعيد شرقي كرمان .

– ذلك الذي ينتهي عند جبل الزهاد ؟

– بل ذلك الذي ينتهي عند نهر برز .

– ومعهم السلاح ؟

– نعم يا مولاي ولكنهم يخفون سلاحهم في الخيام ويتظاهرون بانهم عشيرة انتقلت من الغرب الى الشرق في طلب الرزق .

قال : لقد ظهر للملك انك من اولئك الرجال الذين يحسنون قيادة الجيوش الى ميادين الظفر .

– قل يا مولاي اني من الرجال الذين يحسنون الطاعة .

– حسبك ان الملك راض عنك وسينظر في امرك عندما يسترجع عرشه .. صف لنا الآن خطة القتال التي وضعت .

– اما خطة القتال في مرو فسيضعها الملك .

– وقتال اهل الأقاليم لا يسيرون الى مرو .

– وماذا يصنعون ؟

– يسعرون النار في أقاليمهم فتخرج العرب اليهم من كل ناحية فيخلو لنا الجو .

– ومتى يبدأون بذلك ؟

– يحملون لواء العصيان في مطلع الشهر القادم كأنهم جيش واحد يرأسه قائد واحد .

قال : ماذا ترى يا شهريار ؟

– أرى الحكمة والدهاء فيما يقوله سنجان ولكن متى يخرج الملك من كرمان ؟

– بعد عشرين يوماً وبعد خروجه تخرج كرمان عن طاعة المسلمين .

قال : أيأذن لي الملك ان أقول كلمة ؟

– بل نأمرك بان تقول ما يخطر لك .

— الى اي بلد يذهب الملك بعد خروجه ؟

فقال سنجان : الى جبل الزهاد .

— وينتهي الى ذلك الجبل في اربعة أيام أليس كذلك ؟

— بلى !

قال : نحن اليوم في غرة الشهر ، فاذا غادر الملك كرمان في العشرين منه بلغ الجبل في اليوم الرابع والعشرين .

— هو ذاك !

— تندلع بعد ذلك ألسنة اللهيب في خراسان كما تقول وتزحف العرب الى هذه الاقطار لتخمد النار .

— نعم !

— وماذا يفعل الملك عندئذ ؟

— يبقى في الجبل ريثما يزحف القوم ويخرج الاحنف من مرو الروذ .

— ولكنك نسيت ان الملك في ذلك الجبل يكتنفه الخطر من النواحي الاربع وقد يضيع الامل الذي نتعلل به .

فقال يزدجرد : اما نحن فلم نفهم شيئاً مما تقول .

— ستفهم يا مولاي كل شيء عندما أقول كل شيء ..

— دلنا أولاً على موضع الخطر الذي ذكرت .

— موضعه الجيش العربي الزاحف من البصرة فقد يمر بجبل الزهاد وتقع عين قائده على جيش الملك ...

وكان خراذمهر حاضراً فقال : لم أرَ في ذلك الجبل عربياً قط .

قال : أتضمن حياة الملك ؟

فتردد في الجواب ، فقال سنجان : وتضمنها انت ؟

— نعم افعل اذا اراد الملك ان يصغي الى اقوال عبده ..

فقال يزدجرد : قل فنحن مصغون اليك .

قال : اتعرف يا مولاي ذلك الوادي الذي يقال له وادي خواست ؟

— وأين هو ؟

– وراء ذلك السهل الذي وصفه سنجان .

– يخيل الينا اننا نعرفه .

– اذن فالجأ اليه فذلك خير لك..

– وبعد ذلك ؟

– تزحف الجيوش الى خراسان فتقود جيشك الى مرو الاولى وتبلغ الغاية .

وقد اراد شهريار ان يضيع الملك الزمان، في اعداد عدة القتال، ويبعده عن مرو الشاهجان شهراً أو بعض الشهر خدمةً للعرب . فقال الملك : اصغينا اليك وسنفعل ما اشرت به .

– وستعلم يا مولاي اني كنت مصيباً فيما رأيت .

فوضع يده على جبينه وارخى نظره الى الأرض كأنه يفكر في امر آخر .

ثم قال لخراذمهر وسنجان : لنا كلام نقوله لشهريار فاخرجا .

ولما انصرفا قال : نعود الآن الى ذكر اليتيمة .

– ماذا يا مولاي ؟

– لقد قرب اليوم الذي نترك فيه كرمان كما رأيت فهل لك ان تدل الملك على الوسيلة التي يستطيع معها ان يرى ابنته ؟

– قلت لك من قبل يا مولاي انك تستطيع ان تراها في المنزل الذي تقيم به على الشاطيء .

– قبل ان يزحف المسلمون الى خراسان ؟

– بل بعد زحفهم يا مولاي .

– وتبقى جنودنا في وادي خواست ؟

– أؤثر ان تبقى فيه دون ان تراها العيون ، على ان تجيء الى جبل الزهاد وتراها كل عين ..

– وانت واثق بان طوائف العرب النازلة على المرغاب لا تشعر بوجود الملك ولا تنصب له شرك الوقوع في الاسر ؟

– اجل يا مولاي ، انا واثق بان العرب لا تمد يداً ، الى ضيف شهريار ولو عرفت انه يزدجرد العظيم ..

– وطارق بن عبدالله الذي وصفته لنا ؟

– اني اخشى هذا الفتى يا مولاي من ناحية واحدة .

– ما هي ؟

– هي ان يحاول الفرار باليتيمة فتسوء العاقبة .

قال : سنعمد الى وسيلة نخدع بها طارقاً وينتهي الأمر .

– وسأكون انا يا مولاي العبد الطائع الذي يفعل ما تأمره به ، دون ان يتردد فيه او يسألك عنه .

قال : يكفي انك من المحسنين الى الملك ..!

– انا ؟!

– نعم أنت !

– وهل يحسن العبد الى مولاه ؟

– اجل، فقد ربيت ابنة الملك خمسة عشر عاماً وهذا خير ما يفعله المخلصون والان أتعلم ماذا نطلب ؟

– مر يا مولاي !

– نطلب ان تنسى الفتاة غرامها بذلك العربي .

– وهل يرى الملك ان امر العاطفة والقلب في يد شهريار المسكين الذي هو خادم اليتيمة ؟!

– بل يرى ان الفتاة التي احبّت بمثل هذه السرعة ، ترجع عن حبها عندما يخطر لك ان ترجعها عنه ..!

– لم يكن لي يد في هذا الحب يا مولاي .

– نعلم ذلك ولكن ستكون لك يد في حمل الفتاة على ان تنساه كما قلنا لك فعدنا بهذا .

– اعد مولاي باني سأبذل الجهد كله في سبيل غايته .

ثم قال : على اني اظن ان اليتيمة ستنسى حبها عندما ترى اباها وتعرف انه أعظم ملوك الشرق ..!

فابتسم ابتسامة الألم ثم قال:ولكنها ستعرف في الوقت نفسه ان الملك العظيم لا يجسر على الظهور في بلاده سافر الوجه ... وان عرشه امسى ملكاً للمسلمين فهو غريب في ارض ابائه واجداده .

– خير لك يا مولاي ان تنظر في هذا الأمر ، عندما نبلغ جبل الزهاد ونتبين زحف الجيوش .

فجعل يقول : سنفعل ذلك نعم، ولكن هذا القلب الذي حطمته الحادثات، يحدثنا الآن بان الفشل سيكون نصيب الملك ، في امر ابنته ، كما كان نصيبه في أمر تاجه ..

واغمض عينيه ثم استند الى وسائده وجعل يستعرض حاضره وماضيه ، والبكاء يتردد في صدره ، وعزة الملك تصارع ذلك الضعف الذي استولى عليه.

فكره شهريار ان يشهد كآبة مولاه ، فقام فخرج وهو يقول في نفسه : لقد صبرت جهان روز على جورك ، فأصبر يا يزدجرد على جور الزمان ، اذا استطعت .

وكان سنجان يهامس خراذمهر في الرواق قائلاً له : الويل لنا وللملك من شهريار اللعين الذي خان قومه ..

* * *

– ٣٨ –

أتحمل أيها الرسول كتاباً من أمير البصرة ؟

– نعم يا مولاي !

فقال الاحنف لطارق ابن اخيه وكان قد دخل مجلس عمه : اقرأه يا بني وسنسألك عن مهمتك بعد قليل .

فقرأ الفتى : من عبدالله بن عامر عامل امير المؤمنين على البصرة الى الاحنف ابن قيس عامل المرورين: اما بعد فقد بلغنا ان بعض اهالي خراسان يتحفزون للوثوب فلم نشأ الا ان نفاجئهم بالسيف ونخمد نار الثورة التي تتأجج في الصدور ، فتهيأ للزحف فقد جعلناك على مقدمة الجيش وسنلتقي في كرمان .

فالتفت الامير الى رجال المجلس قائلاً لهم : اما ان الفرس يتحفزون للوثوب فتلك عادتهم وهم لا يكفون عنها الا اذا داست اجسادهم حوافر الخيل ، ولكن من قال لأمير البصرة انهم يتهيأون اليوم للقتال ونحن لم نسمع شيئاً من هذا ولم يرد علينا من النواحي خبر الثورة التي يذكرها في كتابه ثم قال للرسول : من خبر الامير بذلك ايها الفتى ؟

– لا أعلم يا مولاي !

– ألست من رجاله ؟

– بلى ولكني لا أسأله عن شيء ولا افعل الا بما يأمرني به .

قال : وهل تعرف أوس بن حبيب التميمي ؟

– نعم وقد كان لأوس رأي فيما كتبه الامير اليك .

فابتسم قائلاً : ليس في البلاد ثورة كما يقول ابن عامر ، ولكن الرغبة في الفتح ، أملت على أوس ابن عمنا ومن حوله من بني تميم ان يخوض الميادين من جديد ويضعوا أيديهم في فارس على كل شيء . نحن نعلم اي رجل هو ابن حبيب . ولكن متى يجيء ابن عامر الى كرمان ؟

– من يعلم فقد ينهي اليها بعد شهر او شهرين وقد يمرّ باصبهان .

قال : يأمرنا بالمسير اليها وهو لا يجعل موعداً للقاء ؟

قال : هذا كتابه بين يديك فافعل ما يخطر لك .

قال : خذوه الى دار الاضياف وسيحمل جوابنا غداً ، وقال لطارق : قدمت الآن ؟

– نعم يا عمّ ولم أرَ في مرو الروز غير اهل السوق .

– أي انك لم تمرّ بالمنزل ولم ترَ من فيه ، ان اهل المنزل بخير . وسيجيء

أبوك بعد قليل فنسأله رأيه في الحرب . وهذا ابن عامر يأمرنا بالزحف الى كرمان كما قرأت فالويل ليزدجرد فقد دنت ساعته .

قال : لو دخلت جنودك بيوت كرمان واحداً واحداً لماوقعت العين على من ذكرت .

قال : أفرّ الملك ؟

– لا أستطيع ان أعلم أي شيء جرى لهذا الملك .

– وكيف تقول ان الجنود لا تستطيع ان تراه ؟

– لأني لم أرَ شهريار وقد مكثت شهراً وانا اسأل الناس في القصور والاكواخ والاسواق دون ان أسمع خبراً واحداً عنه .

فظهر الغضب في عينيه وقال : هذا ما خطر لنا من قبل وقد ذكرناه لك ولأبيك ،

ودخل في تلك اللحظة عبدالله وهو يقول لولده : عرفت الان انك في مجلس الأمير وقد قدمت منذ ساعة .

فقاطعه الاحنف قائلاً : ولكنك لم تعلم ان الارض فتحت فاها وابتلعت شهريار . .

فتراجع الى الوراء وجعل يحدق الى أخيه ثم قال : ألم يجد طارق شهريار في كرمان ؟

– بل لم يسمع خبراً من اخباره . !

– ويزدجرد ؟

– وكذلك يزدجرد فقد حملته السحب الى عالم آخر !

فنسي ان يعانق ولده وجعل يقول : ان الله عزّ وجلّ يهب النصر للمسلمين في حربهم ويخذلهم في امر القبض على هذا الملك الذي تسيل من اجله الدماء .

والتفت الى طارق وقال : حدثنا بما فعلت يا بني .

قال : كنت واثقاً باني سأرى في كرمان ، ذلك الرجل الذي بتنا في كوخه ليلتنا الأولى ، ولكني لم اجده وقد قيل لي انه رحل عنها الى بلد آخر .

– ثم ماذا ؟

– ثم انقضى الشهر وليس في كرمان رجل يعلم شيئاً عنه وعن يزدجرد .

فقال الاحنف : وهل بقي لك ما تقوله عن الرجل ؟

– بقي أن ادافع عنه حتى أعلم اين هو ؟

– انه الآن بين يدي ملكه .

– بل هو يتبعه من بلد الى بلد حتى يظفره الله به .

– اما نحن فيطيب لنا ان نظن ان خيانته قد ظهرت وقد لمسنا الان هـذه الخيانة بالايدي وانتهى كل شيء .

قـال : لا أستطيع ان اصدق ان الخائن يجعل ابنته في منزل القوم الذين يخونهم ثم ينصرف !

– قلنا لك من قبل ان اليتيمة ليست ابنة له .

– لو لم تكن ابنته لما احبها الحب كله .

– لقد احبّ المال الذي يبذل له مـن اجلها ليس غير ، وان طارقاً ابن عبدالله عندما يتزوج اليتيمة يتزوج فتاة لا يعرف اباها . !

قال : كفى يا عمّ فاليتيمة بريئة .

– اجل بريئة ، ولم يكن لها يد في الامر الذي انتهت اليه ، ولكنها في نظر عمك الاحنف وابيك عبدالله فتاة لا نسب لها فهي لا تليق بأن تكون من نساء بني تميم !

قال : سيعود شهريار فنعلم سره .

فقهقه ضاحكاً ثم قال : رآك مـن العشاق الذين برح بهم الغرام ، فجعل الفتاة في منزلك كأنه يقول لك :

تزوج عندما تشاء ! ثم رحل على امل ألا يعود ، ثم قال : واي شريف من أشراف العرب يجعل ابنته في منزل الفتى التي تحبه ثم ينصرف وهو لا يبالي ؟

قال : جعلها في بيت الرجل الذي أرضعتها زوجته واحسنت اليها واليه .

– ومع ذلك فهو لن يعود وستذلّ قومك .

– بماذا يا عمّ ؟

– بهذا الزواج الذي ستتحدث به العرب في خراسان، والبصرة والكوفة، والحجاز، وفي مجلس امير المؤمنين نفسه .

– وماذا تقول العرب ؟

– تقول : ضيعت فتاة من الفرس نسبها فتزوجها سيد فتيان بني تميم !

– بل تقول : تزوج طارق ابنة شهريار الخراساني الذي ترك قومه ودخل في الاسلام .

– واذا سألوك اين هو شهريار الخراساني فماذا تقول ؟ أتقول انه مات في سبيل الدفاع عن المسلمين ؟

– اقول انه يبحث عن يزدجرد ليدفعه الى يد الفاتح العربي .

– ثم تمر الايام والاعوام والناس يرون انه لم يرجع !

– اني واثق بوفائه يا مولاي .

– ونحن واثقون بأنه خائن .

فأطرق الفتى ملياً ثم قال وهو يتردد : لقد رأيت رأياً .

– وانت تتردد في ابدائه . قل ما هو .

– هو ان الزواج لا يتم الا بعد ان يثبت لك وفاء الرجل .

– وكيف يثبت هذا الوفاء ؟

– بواحد من امرين، اما ان يعود شهريار حاملاً اليك اخبار الملك، واما ان ينتهي اليك انه قد قتل .

فاضمحلت اثار الغضب وجعل يقول : انه رأي لا بأس به ولكن أتقسم الان انك ستفعل ما قلت ؟

فوضع يده على جبينه كأنه يشاور نفسه في امر هذه اليمين التي ستكون قيداً لغرامه ثم قال : اجل، اقسم ب...

قال : لا تقل كلمة فأنا املي عليك . اسمع يا عبدالله واشهد، قل يا طارق : احلف بمن رفع السماء وبسط الارض اني لا اتزوج اليتيمة الا بعد ان يعود شهريار وأعرف سره او بعد ان يموت .

– ولماذا تعود الان الى ذكر سره ؟

– لان نسب الفتاة يتعلق به .

فاحسّ العاشق ان الارض تهتز تحت قـــدميه ، ولكنه لم يستطع ، وهو الشريف الابي ، الا ان يردد تلك الكلمات الخطيرة التي املاها عمه الداهية ، وقد شعر بأن الموت اهون من ذلك .

واختنق صوته وهو يقول : لا اعلم اي هوة هي التي قذفت بنفسي اليها الان .

قال : بقيت اليمين التي احلفها انا ويحلفها ابوك .

احلف يا عبدالله برافع السماء وباسط الارض انـك ستقتل اليتيمة اذا لم يبرّ طارق في يمينه !

فاقسم عبدالله ثم اقسم الاحنف بدوره ورفع صوته قائـلا : ليرجع شهريار عندما يشاء، ولتقم اليتيمة بيننا ما طابت الاقامــة لها ، فقد أنقذنا الان شرف العشيرة !!!

وابتسم قائلاً للفتى : وأما انت يا بني فعالج هواك بالصبر حتى يتم لك الامر.

فقال وشفتاه ترتجفان : اذا كان شرف العشيرة بالموت فقد آثرت الموت على العار ...

وقام فخرج وهو يترنح كالسكران ، ولكن كان في صدره بقية من الرجاء، هي ان شهريار من الاوفياء ولا يلبث حتى يعود . وتمسي اليتيمة عندئذ زوجة له.

* * *

– ٣٩ –

كان طارق يبتسم ، عندما رأتــه اليتيمة في فناء المنزل ، ولكن خيل اليها انه يتكلف الابتسام ، وانها ترى على جبينه سطور اللوعـــة والهم ، مكتوبة بحروف سود . وقد احست ، وهي تصافحه ان يده ترتجف في يـدها ، وان في صوته نغمة اليأس وخيبة الرجاء . ولم تشأ ان تسأله ، وهما يمشيان الى احـدى القاعات ، عن أبيها شهريار ، لانها كانت تعلم من حديث القلب ان اباها لم يعد .

وهو نفسه لم يشأ ان يقول لها كلمة قبل ان تسأله ، حتى جلس الاثنان ، والتقى النظران . وجال الدمع في عينيها الساحرتين، ثم قالت: الم ينتهِ ابي من هـــذا الطواف الذي يقوم به ؟

قال : لا ينتهي هذا الطواف الا بالعثور على مقر الملك ..

– يظهر انه يبحث عن الملك في الشرق ، وهو في الغرب ..

– هذا ما يبدو لي وانا اظن ان الملك ضاعت اثاره ..

– ومتى يعود ابي الى مرو ؟

– لا اعلم متى يعود ايتها الحبيبة فقد يكون ذلك بعد يومين او بعد شهرين .

قالت : لو عهد اليّ كما عهد الى ابي في التفتيش عن يزدجرد لتركت كرمان منذ اكثر من شهر وانتقلت الى بلد آخر .

– وهذا ما فعله شهريار ..

– ترك كرمان ؟ – نعم !

– الى اين ؟

– لو كنت اعرف البلد الذي ذهب اليه لما رجعت اليوم الى مرو .

– إذن سرت الى كرمان ورجعت دون ان تراه .

– اجـل !

– وانقضى الشهر وانت لا تعلم شيئاً عنه ؟

– اجـل !

قالت : كنا نطلب رجلاً فاكرهتنا الأقدار على ان نطلب اثنين .. لقد قضى ابي زمانه كله في الطواف وانا اجهل غايته ..

وجعلت تبكي وتقول : اني خائفة ..

قال : ليست هي المرة الاولى التي يترك فيها ابوك منزله .

– ولكني لم اخف قط كما أخاف الآن .

قال : ليس في الأمر ما يدعو الى الخوف فقد عرف على ما يظهر ان الملك رحل عن كرمان فلحق به .

– لم يتعود من قبل ان يغيب عن المرغاب اكثر من شهر ..

قال: كان يخشى ان تجني الوحدة في المرغاب على يتيمته، اما اليوم فاليتيمة في مرو الروذ وهي احبّ الناس الى عامل المروين والى القوم الذين حوله ..

قالت : اخشى ان يعلم انصار يزدجرد ان ابي من اعدائه فيحكم عليه بالموت.

– وكيف يعلمون ذلك وأبوك يمشي الى غايته من وراء الستار .

وقد أراد طارق في تلك اللحظة انيسبر غورها في قضية الزواج، فقال وهو يتكلف المزاح : ألم يقل للأحنف قبل ان يغادر مرو الروذ ان اليتيمة لا تزف الى طارق الا في العام المقبل .

– بـلى !

قال : بيننا وبين العام المقبل بضعة أشهر لابد من ان يعود في خلالها الى مرو فينتهي عندئذٍ كل شيء .

– وان لم يعد ؟

– نعمد الى الزواج في مطلع العام وهذا خير ما نلجأ اليه .

– وهل نسيت ذلك السر الذي وعد بأن يبوح لنا به قبل ان نمسي زوجين؟

– يبوح به بعد ذلك ..

– ولكن الفتاة لا تخون اباها في عهده ..

– ليس في الأمر خيانة فهو الذي جعل العام المقبل موعداً للزواج .

– وهو الذي يجب ان يكون في مرو الروذ ليشهد زواج ابنته ..

– إذن فانت لا تتزوجين الا بعد ان يجيء .

– وبعد ان اسمع من جديد كلمة الرضى من فمه ..

– اما انافسألج في طلب الزواج واناواثق بانك لا تستطيعينالا ان تسمعيلي.

– وتريد ان يقول الناس اني عبثت بكرامة أبي وانتهكت حرمته ؟

– وانت ، اتريدين ان يقتلني غرامي وينتهي بي الى الموت ؟

قالت : بي مثل ما بك ايها الحبيب فلا تتعجل في الأمر .

قال : لنفترض ان العام انقضى ولم يرجع أبوك ..

– خير لي ان تمر الاعوام وانا كما انا من ان يتحدث المسلمون بأمري ثم يقولون: آثرت اليتيمة هواها على أبيها وتزوجت وهو لا يعلم ..

قال : اری انك تمزحين لتلمسي بيديك غرام طارق .

قالت : لا يطيب لي المزاح في مثل هذا الموقف وانا اقسم لك اني سأفعل كل ما قلت . فرأى الفتى ان أمر الزواج انتهى الى ما يحب دون ان يبوح لها بما جرى بينه وبين عمه وأبيه ، فقال : انه حكم جائر على القلبين ..

– ومع ذلك فنحن مكرهان على الرضى به وليفعل الله ما يشاء . قل أأنت راض ام ماذا ؟

فتظاهر بالتفكير ثم قال : وان لم أرض فماذا تصنعين ؟

– انصرف غداً الى المرغاب فامكث بذلك المكان المنفرد وابكي غرامي حتى يعود أبي اليه ويسلم شرفي !

– ولكنك لا تستطيعين الانصراف وانا حاضر !

– إذن اقتل نفسي قبل ان يكتنفني العار ..

فحنى رأسه قائلاً : لقد اكرهني القدر على الاحتمال فلا حول ولا قوة الا بالله

قالت : عدني بانك لا تفكر في الزواج وأبي غائب ..

– اردت ذلك فليكن ما تريدين ..

– أقسم لي .. – فأقسم لها !.

ثم رأى الاثنان انهما امسيا داخل نطاق من العهود ، فبكيا ..

ولم تلبث الشفاه حتى انفرجت لخاطر خطر لهما هو ان شهريار سيعود قبل ان ينقضي العام ..

* * *

– ٤٠ –

ضاق صدر شهريار في ذلك السجن كما رأيت ، ولو استطاع ان يبعث الى الاحنف رسولاً يحمل اليه أخباره وأخبار يزدجرد لطابت نفسه وآثر البقاء بين يدي الملك على الفرار . ولكن الملك لا يأذن له في الخروج ورجال الملك رجال امناء يمنعونه من الهرب اذا خطر له ان يفعل ، والحراس حول المنزل ، يحملون

جسده جرحاً واحداً اذا جعل السور وسيلة لفراره .. ويكفي شهريار ، ان عدوه سنجان بالقرب منه ، وهو ينظر اليه بعينين تتأجج فيها النار ، ويعدّ له، من وراء الستار عدة القضاء عليه . والملك لا يطيق ان يبتعد عنه ، لانه يريد ، وهو في نكبته ، ان يرى تلك الفتاة التي نشأت في ظله وهي قطعة من روحه . ولم يكن واثقاً به الوثوق كله، بل كان يريد ان يجعله اداة لنيل غرضه وقد قرأت شيئاً من هذا في الجزء السابق . وكيف يثق به ، وقد اعترف له بانه مسلم بين المسلمين يصلي في مساجدهم ، ويجالس امراءهم ويسألهم حاجاته فيقضونها له ! يستعين يزدجرد بهذا الخراساني على حمل ابنته الى المعسكر، ويستعين به في وضع خطة القتال والاستيلاءعلى مرو الاولى، وقد يخطر لهبعد ذلك ان يكافئه ويعترف بفضله ، فيومىء الى الجلاد فيضرب عنقه .. ويستريح من هذا الخائن ، الذي يلبس كل يوم ثوباً ويكون فارسياً عندما يشاء .

ويظهر ان الاثنين الملك وشهريار كانا يتبادلان الحب.. وقد جاوز شهريار في حبه كل حدّ ..

انه لم يكن يريد ان يموت الملك كما يموت جميع الناس ! بل كانت غايته ان يقهره ويسحق فؤاده ، ويحطم قواه ، ثم يدفعه الى أيدي اعدائه قائلاً لهم : هذا هو الرجل النذل الذي تطلبون . أجل ، انه يستطيع ان يقتله بيده ، ولكن كان يخاف ان يقتل هو في أثره، ولا يطيب له الموت قبل ان تعرف اليتيمة كل شيء . وهو لم يضع المنهاج الذي يتمشى عليه ، بل كان يفكر في أمر واحد هو ان تمثلُ اليتيمة بين يدي أبيها ثم يقول لها: هذا قاتل امك ..! وهذه الكلمة تسحق قلب الملك سحقاً وليس افظع من موت رجل تلعنه ابنته قبل ان يلفظ الروح .. على ان الاقدار لم تكن مكتوفة اليدين . هذا شهريار ، من هذه الناحية ، يفكر في انتقامه ، وهذا سنجان من الناحية الاخرى ، يتآمر مع خراذمهر . وقد دخل على الملك يوماً ، وشهريار في الحجرة التي أعدت له وهو يغطّ في نومه ، وقال له : أتشك في اخلاصي لك ولعرشك يا مولاي ؟

وكان الملك في فراشه وهو يهمُّ بان يطبق جفنيه ، فقال : لماذا تسألنا هذا السؤال في مثل هذه الساعة ؟

– لاني احسّ ان الملك لا يثق بي .

– وهل يطيق الملك ان يقيم الرجل بمنزله وهو لا يثق به ؟

– قد يفعل ذلك لغاية له .. .

– ليست لنا غاية غير استرجاع العرش وانت من اولئك الرجال الذين يبذلون دمهم في سبيل استرجاعه .. قل ما هو غرضك من سؤالك .

– جئت لأقول للملك كلمة تتعلق بعرشه ..

– ما هي ؟

– هي ان هذا الخراساني الذي تبوح له باسرارك رجل لا وفاء له . وهو عين للعرب عليك وسيدفعنا الى الهاوية ..

قال : لا يأذن لك الملك ان تحدثه بالظنون ..

– بل احدثك بالواقع يا مولاي فالرجل خائن ..

– ومن قال لك ذلك ؟

فعمد اللعين الى الكذب فقال : أرسلت رجلاً الى المرغاب ثم الى مرو الروذ فعرف كل شيء .

– وهو الذي نقل اليك انه من جواسيس المسلمين ؟

– نعم وقد بعثوا به الى كرمان ليحمل اليهم أخبارك ..

والملوك ، في معظم احوالهم ، يؤمنون بالأقوال التي يسمعونها من رجال البلاط ، فقال : بعثوا به ليحمل اخبارنا ؟

– اجل وهو من اجل ذلك يلجّ في طلب الخروج من هذا البيت لينجو بنفسه ويعود الى اصحابه ..

فوضع الملك الضعيف يده على جبينه وجعل يقول : فكرنا في كل هذا من قبل ، ولم يكن لدينا دليل يثبت خيانته .. وما الراي الآن ؟

– الراي ان يموت ! – هنا ؟

– نعم هنا، وفي هذه الليلة، وسنحفر له في الدهليز الذي ينتهي الى الفناء، حفرة يرقد فيها الى الأبد !

فتمتم قائلاً : لا لا ، اننا لا نريد ان يموت في هذا الليل .

– ومتى إذن ؟

– لا نعلم فقد يكون ذلك بعد شهر او شهرين .

قال : انظر فيما تقول يا مولاي .

– لقد نظرنا فيما نقوله منذ زمن طويل فلا نريد ان يموت .

قال : ذلك معناه انك واثق بوفائه .

– لا ، لم يبق الآن في الصدر ظل لما ذكرت .

– وكيف ترضى بان يبقى الرجل بين يديك ؟

– نرضى بذلك لأننا نحتاج اليه .

– الملك يحتاج الى جواسيس العرب ؟

– قد يحتاج الى العرب أنفسهم ليتم له الغرض الذي يفكر فيه .

– وما هو غرضك يا مولاي ؟

– انه غرض لا يتعلق بالعرش بل بالملك .

– اذن فالرجل الذي يحتاج الملك اليه يجب ان يعيش .

فرأى سنجان ان يلجأ الى وسيلة اخرى ، فقال : اذا كان هذا فلم يبقَ الا ان اسأل الملك ، باسمي واسم خراذمهر ان يأذن لنا في الانصراف .

– الى أين ؟

– الى جبل الزهاد نقضي فيه بهدوء ، ما بقي لنا من العمر !

– وهذه الحرب التي طلبتم الينا ان نخوض غمارها ؟!

– ينظر الملك في امرها مع القواد الذين هم أبعد منا صوتاً وأشد اخلاصاً ، واطول سيفاً !!

– أي انك ترغب مع صاحبك ان تتخلّيا عن الملك !

– نعم يا مولاي وهذا ما يفعله القواد الذين لا يسمع لهم رأي ...

فرفع رأسه قائلاً : لو كان مولاك على عرشه لما كنت تجسر على ان تقول له ما قلته الآن ..

ويلك يا سنان ، نقول لك اننـا بحاجة الى الرجل لأمر يتعلق بنا فتستأذن بالانصراف وتنسى انك تهين ملكك ؟!

– ولكننا لا نستطيع يا مولاي،ان نباشر القتال والرجل في الصفوف.

– قلنـا لك سيموت فلم تصدّق أفتريد ان نكتب لك عهداً ونجعل عبيدنا وجوارينا شهوداً علينا ؟

قـال : عدنا بهذا يا مولاي ونحن راضون ..

– لقد وعدنا وانتهى الأمر .

– وهل يطيب لك ان تذكر اليوم الذي يموت فيه ؟

– يقضي حاجتنا ثم نجعل السيف جزاءاً له !!

– ألا نستطيع نحن يا مولاي ان نقضي هذه الحاجة ؟

– لا يستطيع قضاءها رجل من رجال فارس غير شهريار .

– ولكن تأذن لنا ان نحصي عليه انفاسه ونحيطه بالعيون .

– افعلا من هذه الناحية ما يطيب لكما دون ان يعلم .

– واذا بدر منه بادرة لا يريدها الملك ؟

– نأمر عندئذ بقتله وينتهي الأمر .

– بقيت لي كلمة يا مولاي هي ان تسلم الرجل الي عندما تأتي ساعته .

– لقد سلمناه اليك منذ هذه الساعة .

فخرج اللعين وهو يقول في نفسه : نزعت الولاية من يدي يا شهريار فسأنزع روحك ..

وقد صدر الحكم بالموت على المسكين، كما رأيت وهو يناجي بالحلم روح جهان روز ، ويعدها بقتل يزدجرد .

* * *

– ٤١ –

أتت الساعة وخرج الملك من كرمـــان ، في ليلة مظلمة حجبت غيومهـا نجوم السماء .

شهريار وسنجـان وخراذمهر في المقدمـة تتبعهم النساء والجواري ووراءهم يزدجرد وخصيانه والعبيد وفي الوسط عشرة بغال تحمل المؤونة والمال .

ذلك هو موكب يزدجرد العظيم ملك فارس ... والسكوت يسود القوم والحراس عن الجانبين يراقبون الافق ويمنعون الثعـالب والذئاب من ان تعكر على الملك صفو سكوته وهدوئه . وعيون سنجان وخراذمهر كعيني النسر تعد عـلى شهريار خطواته .. وتحصي عليه النظرات .. ان شهريار المسكين اسير ضعيف بين قائدين قويين . وهو لا يعلم ان القوم الذين يرافقهم من الملك الى احقر عبد فيهم اعداء له لا يطيب لهم العيش الا اذا قتلوه . وسنجان وحده هو الذي أوغر عليه الصدور.. وكان الملك يفكر في ابنته كما يفكر في تاجه ، ولكنه كان ينظر الى مستقبله ، نظرات الخوف والذعر . دفعوه الى الحرب ، بالمال القليل ، والجيش الصغير ، وعدوه الفـاتح يملك منافذ فـارس وابوابهـا ، وحصونها وابراجها ، وهو العدو القاهر القوي الذي استولى عـلى كل شيء . وخدعوه بقولهم انه يستطيع الاستيلاء على مرو ، وان اهلهـا ومن حولها من قبائل وجيوش ، سيهتفون له عندما يرونه قائلين : يعيش ملك الفرس . ثم يقتحمون بسيوفهم صفوف العرب ويسترجعون الملك . على ان الامـل لا يفارق صدور الملوك ، الذين تخلعهم الحـادثات عن العروش ، ولا يستولي اليأس على ملك الا اذا أبصر الموت بعينيه . ولم يكن بـين رجال الموكب واحد يجسر على الدنو من يزدجرد ، ليس لانهم كانوا يخـافون غضبه ، بل لأنهم كانوا يخشون ان يزعجوا الملك المخلوع الزاحف الى ساحة الحرب ليشتري النصر بدماء شعبه ، ويقطعوا عليه خط احلامه ، في ذلك الليل .

وهو على بغله ، ترفعه الأمـاني الى القمة .. ثم تحطه العاصفة الهوجاء ، الى السفح ... حتى بزغ الفجر ، فضربوا له في ذلك الوادي الذي انتهوا اليه ، خيمةً من جلد تحجبه عن العيون ، وضربوا للنساء خيمةً مثلهـا تبعـد عن الاولى مئة ذراع. واضطجع الرجال والخصيان حول الخيمتين حتى طلعت الشمس. ثم تفرقوا في ذلك الوادي خوفاً من ان يلفتوا الأنظار ، ولكن لم يمرّ بذلك الموضع بشري في ذلك اليوم ! الى ان جن الظلام فمشوا وباتوا يمشون حتى لحقوا بجيش الرهائن

في السهل الذي يجاور نهر برز ، ومثل فرخزاذ قائد الجيش بين يدي ملكه . وبعد ثلاثة ايام بلغوا وادي خواست ، فعسكروا فيه ، وقد عولوا على ان يمكثوا بـه ريثما تزحف جنود العرب الى خراسان . ومرّ يومان كاملان وهم ينظرون في امر جيشهم الصغير الى ان خطر ليزدجرد ان ينظر في أمر ابنته .

* * *

- ٤٢ -

لم يتهيأ الأحنف للزحف كما أمره عبدالله بن عامر ، الا بعد ان اشتعلت النار في جميع الاقاليم . واقبلت رسل العرب تحمل انباء الحرب . حمـل الناس في اقليم كرمان لواء العصيان لا يبالون بذلك الصلح الذي تمّ بينهم وبين العرب ، وثار القوم في سجستان ، ونيسابور وزام وخواف وغيرهـا من النواحي ، وخرجت المرازبة والعمال فيهـا ينفخون في الصدور روح التمرد على المسلمين . فبعث الاحنف يستشير عبدالله بن عامر ، فورد جوابه يقول فيه : ستملأ الخيل هـذه الاقاليم التي ذكرت ، وسيجيء سعيد بن العاص في جند الكوفـة الى جرجان فيكون عوناً لجيش البصرة . اما انت فلا تتردّد في قيادة جيشك كله الى كرمان كما كتبنا اليك من قبل .. فقـال الاحنف لرجال مشورته : نقود جيشنا كله الى القتال ونترك المروين لقمةً سائغة لانصار يزدجرد الذين يستخفون وراء الجدران ونحن لا نعلم من هم ؟! انـه لرأي يخسر المسلمون اذا اتبّعوه . ثم التفت الى اخيه عبدالله قائلاً : اختر رجـلاً يحمل كتابنا الى ماهويه الفارسي عامل مرو الاولى .

قال : يحمله من تشاء من الرجال ، اين الكتاب ؟

قال : اكتب .

من الاحنف بن قيس الى ماهويه الفارسي : بلغنا ان الملك وانصاره سعروا النار في الاقاليم فنحن زاحفون لنفتح ارضهم ونخمد نارهم من جديد .. وقـد

ابقينا لك جيشاً تستعين به على الدفاع اذا فاجأتك خيل الملك ، فاحذر.. واعلم انه اذا سقطت مرو الشاهجان في يد العدو سقط عزك ..

هذا كتابنا اليك فاقرأه عـلى مسمع من قومك والويل لمن تحدثه النفس بان يخون العرب .. ثم قال لعبدالله : ابعث اليه بهذا واوص الرسول بان ينقل الينا كل كلمة تقال في مجلسه . فخرج عبدالله ولم يلبث حتى عاد وهو يقول : أتظن ان الملك خرج من مخبئه ؟

— يخرج منه اذا دفعه الجنون .

— او اذا احاطت به الجنود يفدونه بالدماء .

قال : يحتاج الى مئة الف يركبون الخيل ويحملون الحراب ..

— وأين يجد هؤلاء !

— في بـلاد فارس ، فالانصار كثار والاوفياء للعرب اقل مما تظن ، ولكن هؤلاء الانصار لا يجسرون على الظهور .

— اذن فيزدجرد لم يزل وراء الجدران .

— من يعلم فقد يخرجه بعضهم الى الساحة ثم يلتف حوله المخلصون ويمشون في ركابه الى الموت .

قال : سنطوف نحن في بلاد فارس وقد نراه .

— خير لنا ان نراه في الميادين ونأخذه بالسيف مـــن ان نقضي العمر كله باحثين عنه في بلاد تمتد الى منتهى الافق .

قال : قد يخطر له ان يظهر في نيسابور .

— لو خطر له ان يظهر في الهند أو الصين لحطمنا ابراجها على رأسه وحملناه الى بلاده جثة خرساء .

ثم قال : انظر الان في امر الحامية التي ستبقى في مرو الروذ .

— الجيش في مرو الروذ قليل كما ترى فلتكن الحامية من جيش البصرة بقيادة احد الامراء .

— بل تكون من هذا الجيش القليل الذي تعود الظفر في الميادين .

قال : عندنا اليوم ثلاثة الاف .

-- انهم ثلاثون الفاً اذا تلاحمت السيوف . !

– ولكن أتقود الفين الى كرمان وتبقي الفاً في مرو .

– بل نبقي خمسمائة لا غير . أين زياد المازني ؟

فقام زياد فقال : انا هنا أيها الامير ؟

- ماذا تقول اذا جعلناك قائداً لحامية مرو

– اسمع واطيع ولكن ..

– ولكن ماذا ؟ – ولكن هذا السيف عطشان !

– ستسقيه من دماء العدو الطامع بمرو الروذ وستكرع أنت في هذه الدماء عندما يشهر السيف .

قال : ليست مرو ايها الامير ميداناً للقتال .

– ستمسي كما تقول عندما يعلم انصار يزدجرد ان الجيش قـــد غادرها الى الاقاليم وان حاميته بضع مئات .

– يظهر انك تريد ان ابقى وسأفعل ما تريد .

– ولكن اعلم ان مرو ستبقى للعرب ولو هاجمها يزدجرد نفسه بجميع جنود فارس . أتعرف معنى هذا.

- اعرف شيئاً واحداً أيها الامير ؟

– وما هو هذا الشيء ؟

– هو انه يجب أن اموت مع رجالي جميعهم حول هذه الاسوار قبل ان يفتح الفرس ابوابها .

قال : احسنت يا زياد فقد عرف الاحنف ان يختار الرجال . والان بقي ان تجعل حاميتك ثلاثة اقسام .

– وكيف ذلك ؟

قال : في مرو عشائر ثلاث ، مازن وتميم وبنو الحارث السلمي فاختر جنودك من هؤلاء لتشترك العشائر كلها في الدفاع .

– وهل تأذن لنا ان نخرج من المدينة اذا فاجأتنا الفرس ؟

– والى اين تريد الخروج ؟

– الى هذه الساحات التي سينزلون فيها ليحاصروا مرو .

قال : ويلك ، تخرج للقاء الالوف من جيش عدوك بخمسمائة من الرجال ؟

– وماذا اصنع اذن ؟ – تدافع من وراء الاسوار !

– لم يتعود المسلمون ان يحتموا بالجدران في حروب فارس . نحن نقتحم القوم بصدور الخيل ونحتمي بالسيوف والرماح .

– ولكنك اذا فعلت ذلك خرجت مرو من يد المسلمين .

قال : تخرج اليوم ثم نسترجعها غداً .

فقهقه قائلاً : خير لنا ان تبقى في يدنا من ان ندفعها الى العدو ، ثم تسيل في سبيل استرجاعها ، عند هذه الاسوار ، دماء الرجال .

قال : لا أعدك بهذا ايها الامير .

– بل تفعل مختاراً ما نأمرك به دون ان يكون لك في ذلك رأي .

قال : تريد ان تذلني في هذه القيادة التي عهدت فيها اليّ !

– لا يذلّ الرجل الا اذا خسر الحرب ونحن اردنا ان تخرج من المجال ظافراً ، وان يبقى العلم العربي خفاقاً فوق هذه الارض .

فقال مازحاً : أخشى ان يثب فرسي من الداخل وأعجز عن ردّه .

قال : نوصيك بان تذكر امراً واحداً هو ان نساء المسلمين وأبناءهم داخل الاسوار فاذا دفعتك الحمية الى الخروج دفعت نساءنا الى السبي .

فقال عبدالله : أطع يا زياد فهذا يكفي .

قال : لقد أطعت .

وكان طارق مطرقاً ونار الغرام تحرق أحشاءه . ان الحرب ستحجب اليتيمة عن عينيه أشهراً وقد تمتد هذه الاشهر فتصير عاماً أفلا يكفيه ان غيبة شهريار تحول بينه وبين الزواج حتى تخلق له الايام حرباً جديدة تبعده عمن يحب ؟ وهل يليق به ، وهو من امراء الجيش ، ان يبقى في مرو مقيما بين النساء وفتيان قومه

يدفعون الخيـــل الى الميادين ليخضعوا عدوّهم بقوة السيف ؟ وأي نبيل عربي يرضى بان يحمل هذا العار ؟ لا .. ان شرف قومه فوق غرامه ، وخير له ان يحطم قلبه بيده ويخنق ذلك الغرام ، مـن ان يتحدث الاشراف بعاره ويجعلوه مضغة في الافواه . ولكنه لا يذهب الا اذا اوصى الاحنف زياداً باليتيمة وهذا ما سيسأله اياه عندما يصرف الناس مـن مجلسه وليقل الاحنف ما يشاء فطارق قد اعترف بحبه وليس في الحب ما يعيبه .

فلما همّ القوم بالانصراف هامسه قائلاً : متى يترك الجيش مرو ؟

– يتهيأ في ثلاثة ايام ثم يسير بعد رجوع الرسول من مرو الشاهجان .

– وهل تريد ان توصي الرسول بأمر أرغب فيه ؟

فابتسم الامير وقد عرف هذا الامر ثم قال لزياد : ابق فقد بقي لنا ما نقوله لـــك .

وانصرف الناس ، فقال : اتعرف شهريار الخراساني ؟

– ومن لا يعرف الرجل النازل على شاطىء المرغاب .

– وتعلم ان له فتاة في مرو الروذ ؟

– أعلم ذلك وهي في بيت الامير عبدالله .

قال : ان شهريار ترك مرو منذ زمن ولم يعد ، فاذا عاد فليعن بـــأمر ابنته ريثما نرجع .

– نعم .

– والا فكن انت أباً لها ولابناء المسلمين .

قال : يكفي ان اعلم انها ستمسي زوجة لأبن اخيك .

ونظر الى طارق ضاحكاً .

فقال الاحنف : ومن قال لك هذا ؟

– المسلمون جميعهم في مرو الروذ يتناقلون خبر هذا الزواج .

اما نحن فلم نتحدث بأمره ولا يفكر طارق في الزواج الا بعد ان يقتل يزدجرد وتصبح هذه الارض كلها ملكاً للعرب . اخرج الان وانظر فيما امرناك به فسنتهيأ للزحف منذ هذه الساعة .

قال : أليس لي ايها الامير ان اختار من الرجال من أشاء ؟

– بلى ! بشرط ان يكونوا من العشائر الثلاث .

قال : لقد اخترت من تميم مئة وسبعين رجلاً اميرهم طارق !!

فاراد ان يمتحن الفتى فقال : ليكن ذلـــك اذا رضي طارق نفسه . ماذا تقول انت يا بني ؟

– لا ارضى يا مولاي .

وكيف لا ترضى وانت ستحمي المدينة وتحمي قومك ؟

– أوثر ان احمي قومي والسيف في يديّ وانا اخترق صفوف العدو .

فقال: لا يطيق الامير من تميم ان يجلس في منزله والنار ترسل السنتها في الاقاليم

كفى يا زياد فطارق لا يبقى . قـــالها وخرج الى منازل الجيش ليعد عدته ووراءه عبدالله ، اما طارق فانصرف الى منزل أبيه ليرى حبيبته ويطلعها على ذلك النبأ المروّع ، نبأ الفراق . وعيناه تدمعان وفؤاده يقطر دماً .

* * *

- ٤٣ -

عاد الرسول من مرو الشاهجا ن يحمل جواب ماهويه وقـد جاء فيه : سلم اليّ امير المؤمنين مدينة مرو قبل ان تنشب الحرب ، فسأسلمها اليه بعدهـا وانا راض بأن تضرب عنقي اذا خرجت من ايدي المسلمين . فقال الاحنف للرسول : ماذا صنع الرجل وانت في مجلسه ؟

– دعا قومه فقرأ كتاب الامير ، ثم اجمعوا اذا فاجأهم جيش يزدجرد ، على ان يخدعوا ذلك الجيش ويقضوا عليه ولو كان يزدجرد نفسه على رأسه .

– وكيف يخدعونه ؟

– يظهرون له الطاعة ثم ينصبون له شركاً يسقط فيه .

– ويفتحون له أبواب مرو ؟

– كانوا يقولون انهم سيفتحون هذه الابواب ولكن ماهويه لم يكن من هذا الرأي .

– ووافقوه في ذلك ؟

– نعم يا مولاي وهم يضمنون النصر من جانب الحيلة اكثر مما يضمنونه من جانب السيف لان جيشهم القليل اضعف من ان يثبت في المجال .

قال : الفرس رجال حيلة ودهاء وقد ما لا يبلغون بها ما لا يبلغونه في ساحات القتال. ليفعلوا ما يشاؤون والويل لهم اذا عمدوا الى الخيانة. ان مرو تسقط عندئذ على رؤوس اصحابها ... وكان الجيش قد تهيأ للسير ؛ فخرجت الصفوف من مرو عند الصباح ورافقها زياد المازني فرسخين وكانت النساء على الاسوار يهتفن لازواجهن وأبنائهن الزاحفين الى مواقف الشرف ، بينهن اليتيمة التي ضعضعتها لوعة التوديع . ومشت الطلائع تريد كرمان .. وكان عبدالله بن عامر قد خرج من البصرة ، وسعيد بن العاص قد خرج من الكوفة ، ولم يخطر لاحدهما ان ذلك الملك الذي يطلبانه معسكر في وادي خواست الذي لا تمر به الجيوش . بل لم يخطر لهما ان يزدجرد الخائف المضطرب يجسر على الظهور في بلاده ، في وضح النهار .

مرّ عبدالله ، بذلك الطريق الذي يجاور جبل الزهاد ، والجبل هادىء ولا ثورة فيه ، وقدم سعيد على طريق جرجان ، وهو لا يبصر جنداً ولا يسمع صوت بوق الحرب . أجل ، كانت أطراف خراسان مستسلمة الى السكينة يسودها السلام والأمن ، وكان قلبها وجناحها الغربي بؤرة الفساد والشر ، حتى انتهى عامل البصرة الى كرمان ، وقد سبقه الاحنف اليها ونزل في ذلك السهل الفسيح الذي يمتد الى الشمال ، وقد أمر جيشه بألّا يباشر حرباً قبل قدوم عبدالله بن عامر . وقد رأى ان اهل كرمان يتحفزون للقتال .

فلما التقى الجيشان ، قال عبدالله للاحنف : ماذا رأيت يا ابن قيس ؟

قال : رأيت قوماً ينكثون العهود ويتحفزون للوثوب .

– ويزدجرد بينهم ؟

– لا أعلم، ولكني أظن انه اضعف من ان يتصدى وجهاً لوجه للجند العربي .

– إذن يغذي الفتنة وهو داخل الجدران .

– اجل، وهذا ما يفعله منذ خلع عن العرش وفر من المدائن .

قال : سيظفرنا الله به كما اظفرنا ببلاده ، وماذا عرفت عن الجيش الثائر في كرمان ؟

– ابسأل الأمير عن عدده ؟

– نعم !

– هب ان عدده عشرة الاف فنحن لا نبالي .

– ولكن كان يجب ان تعلم ذلك لنتدبر امر الحرب .

قال : رايت هذه الاسوار ايها الأمير ... انها تسقط تحت ضربات العرب ، في الهجوم الاول ، ثم تستسلم المدينة بعد ذلك .

قال : افتحها غداً .

– سأفعل ، وسأقود جيش مرو وحده ، وسترى بعينيك .

قال : لا تنس انك على مقدمة الجيوش .

– ما نسيت ذلك ، وسيخضع جيش المقدمة هذه الأقطار الثائرة ، الواحد خلف الآخر ، في اقل من شهرين ..

قال : العرب تشهد للاحنف بن قيس انه فتى الميادين ، ولكن الا ترى ان نستبدل في هذا الفتح الجديد ، ذلك الثوب البالي ؟

– فسكت قليلاً ثم قال : ماذا يعني الأمير ؟

– اعني هؤلاء العمال الذين سلمنا اليهم البلاد .

– رجال فارس ؟

– نعم رجال فارس الخونة الذين يشعلون النار .

قال : بينهم فريق من المخلصين على ما ظهر لي .

– لهذا الفريق اغراض لا تتم له الا اذا تظاهر بالاخلاص ، وهـذا الخضوع الذي يبدونه لك مظهر من مظاهر الخداع والدهاء .

– اذن لم يبق الا ان تجعل العمال جميعهم من العرب .

– هذا سنفعله بعد اخماد النار .. اين مجاشع بن مسعود ؟

فأقبل الرجل فقال : لقد ولـيّناك امر كرمان منذ الآن ، فافتحها غداً مع قومك وقوم الاحنف واعزل من تشاء وولّ من تشاء .

قال : انا لها ايها الأمير ووالله لأجعلن اهلها اذلّ من العبيد .

– ولا تنسَ يزدجرد فقد يكون فيها وقد تعودت من قبل ان تطلبه وتتبع آثاره في هذه الارض .

قال : لئن كان فيها لأحملن جثته على الأسنّة ..

– يكفي ان تعلم مقره ونحن ننظر في امره ..

ثم قال للاحنف : أتهاجم البلد من ناحية واحدة ؟

– اهاجمه من هذه الناحية واقتحم باب السور ، ويذهب مجاشع الى الناحية الاخرى فيفتح الباب الآخر ..

– ولكن القوم سيعمدون الى الحصار فيطول زمن الحرب .

– لا تثبت كرمان اكثر من يوم واحد وقد يحتمل اهلها فيصبرون يومين ثم يخضعون للسيف وهم مكرهون .

– إذن من الرأي ان يشترك الجيش كله في الهجوم عند الصباح لتسقط في المساء ..

– ليفعل الأمير ما يشاء فسقوط كرمان لا بد منه .

– وسندعو اهلها الى الاستسلام في كتاب نبعث به الآن .

وكتب عبدالله كتابه يقول فيه : الى اهل كرمان ، أمـا بعد فانكم ترون جيش العرب حول الاسوار ، فننصح لكم بأن تفتحوا ابوابكم ليدخل صلحاً . والا دخلنا عنوة والنصر بيد الله .

وحمل كتابه فتىّ من قومه ، فلما ابصره الحراس فتحوا له ، ثم مثل بين يدي المرزبان. وكان الرعب قد استولى على الجماعة ، وخطر لهم قبل وصول الرسول ، ان يفتحوا ابوابهم عنـد الصباح ويحنوا الرؤوس للفاتح العربي . وجعل المرزبان يقرأ كتاب عبدالله وهو ساكت ، ثم قال : امير البصرة هو قائد الجيش ؟

– نعم !

فشاور قومه بالفارسية ، وكثرت الاراء وارتفعت الاصوات ثم عهـد الى الترجمان في ان يتكلم فقال : لقد جعل صاحب كرمان جوابه كلامـاً تنقله الى مـولاك .

قال : هات !

قال : لم يخطر لأهل البلد ان يخرجوا عن الطاعة فهم من المخلصين .

– وما هذا اللواء الذي يخفق فوق قصره ، اليس هو لواء العصيان .

– قل لمولاك ما ذكرنا لك وسيراه اميرنا فيعرف كل شيء .

– ومتى يفعل ؟

– عندما يشاء عامل البصرة .

فخرج واعاد على عبدالله واركان حربه ما سمعه من الرجل ، فقال عبدالله : ارجع وقل لكبيرهم اني اريد ان اراه الساعة ، فرجع ولم يلبث حتى خـرج والمرزبان وراءه . وكان هذا المرزبان يطمع بأن يبقى عاملاً للمسلمين . فلما رآه ابن عامر هشّ له ودعاه الى الجلوس ثم قال وابتسامة الاستخفاف على شفتيه :

– ماذا فعل قومك ايها الفارسي ؟

فتمتم قائلاً : خدعهم الملك بوعوده !!

– اي ملك ؟

– يزدجرد ...

فظهر الغضب على جبينه وقال :

– وهل كان يزدجرد ضيفاً عليك ؟!.

– لا ايها الأمير وانما بعث رجاله سراً الى كرمان فأوغروا الصدور وانا لا أعلم شيئاً من أمره !!

– سمّ هؤلاء الرجال .

– اذكر منهم رجلاً هو سنجان ، كان عاملاً للعرب على مرو الأولى .

فنظر الى الاحنف يسأله رأيه ، فقال الاحنف : سنجان هنا ؟

– كان هنا منذ شهر .

فعمد الى الدهاء قائلاً : ان سنجان يقيم بمرو الشاهجان ولا يجسر على الخروج منها الى بلد آخر ..

– ومع ذلك فقد خرج ..

قال : كذبت فمنزل الرجل في مرو تحيط به الجنود ..

– قلت انه قدم كرمان ولا ارجع عما قلت .

– وكان يدعو الناس الى الثورة ؟ – نعم !

– ذلك خبر كاذب نقلوه اليك.. ان الأمير لا يطيب له ان يصدق مثل هذه الاخبار ..

فقال عبدالله : أتهزأ بنا ولا تبالي ؟

– أقسم لك اني صادق وقد رأيت الرجل ..

فابتسم الاحنف وجعل يقول : ولكنك لم تعلم سره ..

– بل علمت ذلك وقد باح لي بكل شيء !.

فالتفت عبدالله وقال : شأنك به الآن ، فهو يعلم كل شيء ، وقد قال منذ لحظة ان سنجان أوغر صدور القوم وهو لا يعلم شيئاً ..

فاضطرب المرزبان ، وعرف عندئذٍ ان الأحنف نصب له ذلك الشرك فسقط فيه دون ان ينظر في الأمر . وقد لمس عبدالله دهاء الاحنف بيده ، وكبر عليه ان يخدعه العامل الفارسي بمثل هذه الاكاذيب . وارتجفت شفتاه وهو يقول : إذن رأيته وعرفت سره .

– أجل ايها الأمير ولكن بعد ان تمّ له الأمر الذي قدم من اجله .

– وكيف يستطيع الغريب عن كرمان ان ينفخ في صدور القوم روح الثورة وهم لا يعرفونه ولا يثقون بما يقوله ؟!

– كان يحدثهم باسم الملك ويقول : ان الملك لا يلبث حتى يحمل السيف ويطرد العرب من أرضه .

– ولكنه انصرف بعد ذلك ولم يرجع . – نعم !

– ثم جاء دورك في اخماد النار وخنق الثورة فماذا صنعت ؟

فاصفرّ وجهه وظلّ ساكتاً .

– قل ماذا صنعت انت ؟

– حاولت ان اصرف القوم عما يهمون به فلم أستطع ..

– وكيف استطعت ان تفعل اليوم ما عجزت عنه بالامس .

– لأن الذعر ملأ قلوب اصحابي عندما ابصروا الجيش فطلبوا اليّ ان افتح لكم الابواب وأدعوكم الى الدخول .

قال : بل ملأ الذعر قلبك ايها اللعين فجئت تعرض علينا الصلح لتبقى على كرسيك ويكثر المال بين يديك .

وقال لمجاشع : هذا اسيرك فاطلق سراحه عندما يطيب لك وقم الآن فادخل المدينة ونحن وراءك واضرب اعناق المتمردين .

ولم يلبث حتى قال للرجل : والآن فقل لنا اين ذهب ملكك فقد انتهى الينا انه كان في كرمان وقد مكث بها زمناً ليس بالقصير .

– اني لم أرَ هذا الملك قط .

– ولا تعلم انه كان يقيم بكرمان !؟ – لا ..

– إذن كنت في ولايتك خيالاً لا خير فيه ، ونهض قائلاً : انهضوا فسيبيت الجيش كله داخل الاسوار .

وأمر المرزبان الحراس ففتحت الأبواب وملأت جنود العرب المنازل والاسواق واهل كرمان لا يقولون كلمة .. ووضع مجاشع بن مسعود في اليوم الثاني ، يده على كل شيء ، وضرب اعناق قواد الثورة الذين هيجوا الصدور . وبثّ الجواسيس يسألون عن الملك الفارسي . ولم يتردد ابن عامر في الخروج على طريق الصحراء التي يقال لها صحراء رابر ، وهي ثمانون فرسخاً ، وكان يريد أبر شهر وهي عاصمة نيسابور ، وقد ولىّ الربيع بن زياد الحارثي امر سجستان . وعلى مقدمة الجيش الزاحف ، الاحنف بن قيس .

* * *

أحسّ شهريار وهو في وادي خواست ، بذلك الضيق الذي يخلقه الأسر ، وقد أيقن عندئذ بأن عيون القوم كلهم تتجه اليه . وكان يعلم انه يموت اذا حاول ان يفرّ من المعسكر ، فخطر له اولاً ان يغمد خنجره في صدر يزدجرد ثم ينزعه ليغمده في صدره ، ولكن عاطفة الانتقام الغريب كانت تشل يده ، فهو لم يكن يريد ان يموت الملك قبل ان يسمع لعنة ابنته . وكانت نار الشوق الى اليتيمة، تتأجج في ذلك الحين ، في صدر يزدجرد ، وهو يـؤثر ان يرى الفتاة التي كانت امها من ضحاياه ، قبل ان يباشر القتال . فدعا اليه شهريار ، في احدى الليالي ، قائلاً له : لقد خطر لنا خاطر نحب ان تبدي رأيك فيه .

– ان الراي رأي الملك فليأمر وانا اطيع .

قال : اين هو المرغاب ؟

– يمتد المرغاب يا مولاي في السهل الذي تحجبه الجبال السوداء التي تراها في آخر الافق ، من ناحية الشمال الشرقي .

– وهو بعيد ؟

– بيننا وبين مصبّه اربعون فرسخا .

– وبيننا وبين منزلك ؟

– اكثر من ثمانين !

– افلا تذكر اننا كنا عولنا على الذهاب الى ذلك المنزل ؟

– بلى يا مولاي !

– ولكن راينا اليوم ان نعدل عن ذلك .

– إذن فمولاي الملك لا يريد ان يرى ابنته !.

لو تبينت ما في صدر الملك لرأيت انه يذوب شوقاً الى ما ذكرت .

- وما الذي يمنعه من ان يفعل ؟

– بُعد المرغاب والخوف من ان يعلم بنا احد فنخسر كل شيء .

– اما البعد يا مولاي فدواؤه بغل تركبه فيجتاز بك الجبال حتى تنتهي الى منزل عبدك ،واما الخوف من ان يعلم بك احد فأنا اقسم لك انه في غير موضعه..

– ولكن ليس من الرأي ان يسير ملك فارس ثمانين فرسخاً مع رجل واحد من رجاله ..

– يستطيع مولاي ان يحمل حوله مئة رجل يحرسونه ..

– وليس هذا ايضاً من الرأي .   – وعلى اي امر عولت ؟

– على ارسال رجل الى المرغاب يحمل كتاباً منك .

– الى اليتيمة ؟   – أجل !

– وماذا أقول فيه ؟

– تأمرها بالمجيء الى هذا الوادي مع حامل الكتاب .

– وأين هؤلاء ؟

– انهم في كل بلد وسيطوفون في الاقطار، في هذا الزمن ، لانه زمن حرب.

قال : تلبس الفتاة لباس الرجال فنحن نريد ذلك .

قال : خير لك يا مولاي ان تلجأ الى وسيلة اخرى تبلغ بهـا الغاية . هي ان أذهب بنفسي مع بضعة رجال من حراسك .

وتحمل اليتيمة الينا ؟   – نعم !

وكان شهريار ينظر عندئذ في امر النجاة من الملك ، فبدت على وجه يزدجرد دلائل الرغبة في ذلك ثم امحت فجأة هذه الدلائل وكان يقول : لا لا ، اننا لا نطيق ان تخرج من بيننا ساعة واحدة ..

قال : اخرج من اجل مولاي ومن اجل الأميرة .

– اما نحن فلا نريد وقد آثرنا الآن الرأي الاول .

قال : اني طائع يا مولاي وسأكتب الى سنان .

– من هو سنان هذا ؟   – خادم اليتيمة .

قال : سيترك رسولنا غداً وادي خواست فاكتب الآن .

فكتب : الى سنان بن سليم ، اذا وصل اليك كتابنا هذا فابعث باليتيمة مع من يحمله ونحن بالانتظار ، ثم قال : هذا كتابي يا مولاي .

وترجمه له بالفارسية ، فقال : وبماذا توصي الرسول ؟

– اوصيه بامر واحد هو ان يبقى وجود الملك في هــذا الوادي سراً من الاسرار . – واذا سألته اليتيمة عنك ؟

– ليقل لها اني بين اخوان لي .

فتناول الملك فهو لا يجد اليتيمة عــلى المرغاب . وكانت غاية يزدجرد من ارسال ذلك الرجل ، ان يتبين صدق شهريار من كذبه فقد قام في ذهنه، في ذلك اليوم ، ان وجود الفتاة حكاية كاذبة ..

ولم يخطر له قط ان هــذا الخراساني ، هو ذلك الفتى الذي مثــل بين يديه في بلاطه ، ورده الرد القبيح عندما سأله باسم ابان زرد ان يتزوج جهان روز ...

* * *

– ٤٥ –

كان حامل الكتاب يتكلم العربية ، فلمــا أمسى في فناء المنزل أبصر سناناً فقال له : أأنت سنان بن سليم ؟ – أنا هو .

– ان معي كتاباً اليك . – ممن ؟

– من شهريار .

فدمعت عينا الرجل قائلاً : لقد طالت غيبة مولاي هذه المرة فأين هو ؟

– في كرمان !!..

– مع الجيش العربي ؟ – نعم !

– ولكنك من الفرس وكان على مولاي ان يجعل رسوله من العرب .

– اني في خدمة المسلمين منذ بضعة اعوام .

– وهل نقض اهل كرمان صلحهم كما يقولون .

– اجل ولكن العرب اخضعوهم بالسيف .

قــال : الحمد لله ، وجعل يرددها حتى دخل الاثنان المنزل وجلسا ، ثم قرأ سنان ذلك السطر الذي كتبه شهريار .

ولم يلبث حتى اضطرب ودب الشك في صدره . لقد كان شهريار يعلم ان

ابنته في مرو الروذ ، فكيف خطر له ان يأمره بارسالها اليه مع رسوله ؟! بل كيف يدفعها ، اذا كانت حاضرة الى يدي ذلك الرسول وهو من غير قومها ، وصعاليك الناس يروحون ويجيئون بين المرغاب وكرمان والأمر فوضى والايام أيام حرب .

ان في الامر سراً لا يستطيع ان يدركه عقل سنان. فقال : أتعلم ايها الرجل ما هي غاية مولاي من طلب ابنته ؟

– يظهر انه فعل ذلك بطلب من احد الامراء ..

فذكر سنان عندئذ طارق بن عبدالله ثم قال : وهل يطيب له ان يزوجها وهو في الميدان ؟ – لا أعلم !

– يخيل الي ان مولاي اسير !!

فضحك اللعين وقال : اجل اسير في جيش المسلمين الذين يحبونه كما يحبون قوادهم ! ثم قال : اي خاطر اوحى اليك بما ظننت ؟

– هذا الامر الغريب الذي ورد عليّ فيه .

قال : أتخاف ان تسلم الفتاة إليّ ؟ انها ستلبس ثوب رجل ولا نسير نحن الاثنين الا في وضح النهار .

– لو كانت هنا لما سلمتها الا الى ابيها نفسه .

– واين هي ؟

– في مرو الروذ وقد ذهبت اليها بأمر من الأحنف بن قيس ولم ترجع بعد وكنت اظن ان مولاي في مرو التي ذكرت .

قال : انك تهزأ بي وقد نسيت اني اتيت من كرمان من اجل هذه الغاية ولا اعود الا اذا تقدمتني اليها الفتاة .

– ليس لك الا ان تذهب الى مرو .

– ومن أرى فيها ؟ – قائد الحامية ويدعى زياد المازني .

– واسأله ان يرسل الفتاة الى ابيها ؟

– نعم وتطلعه على كتابه اليّ .

قال : اخشى ان يسيء الظن بي .

– افعل ما تشاء فليس لي رأي في هذا .

فوضع خـادم يزدجرد يده على جبينه ، كأنه يفكر في الأمر ، وقد أحسن تمثيل الدور الذي علمه اياه مولاه .. ودخل في تلك الساعة رجل ، اهتز لدخوله جسم ذلك الرسول ، وتمشت قشعريرة الخوف في عروقه . كان ذلك الرجـــل طرخان بن نيزك ، رئيس الخصيان الذي عرفت ، وقـد جعل يتفرس في ذلك الضيف الفارسي الجالس بين يدي سنان ، وقد عرفه وأيقن منذ رآه أن في الامر ما فيه ، ثم قال لسنان وهو هادىء : ماذا يصنع هنا هذا الرجل ؟

– يحمل كتاباً من مولاي شهريار .

فقال للرجل : أتعرف شهريار يا برسي ؟

فتمتم قائلاً : نعم أعرفه .

– وماذا يقول في كتابه ؟

فقال سنان : يطلب الي أن ابعث اليه بابنته .

فخاطبه بالفارسية والنار تتقد في عينيه : اين تركت شهريار ؟

– في كرمان .

– ويزدجرد ؟ – لم أره منذ حين .

– وهل طردك كما طردني من خدمته ؟

– طرد جميع خدمه ولم يبق غير العبيد !

– ولا تعلم اسم البلد الذي لجأ اليه ؟ – لا !

– ولكني رأيت يديك ترتجفان عندما دخلت .

– ذلك لأنه لم يخطر لي اني سأراك .

وقد ظهر الخوف في عينيه ، فـارتفع صوت الخصي وهو يقول : لقـد قيل لمولاك ان عـلى المرغاب فتاة حسناء فأراد ان يضمها الى نسائه ، ثم يقذف بها ، بعد عام ، الى هوة الموت ..

قال : أقسم ان الكتاب كتبه شهريار .

– وأنا أقسم ان القضاء قد جـــار فدفع شهريار الى يدي ملكك فهو اليوم اسيره وهو الذي املى عليه كتابه . فقال هامساً : هب ان الأمر كما تقول أفيطيب

لك ان تخدم هؤلاء العرب الذين فتحوا بلادنا وسلبونا الملك ؟!

— بل يطيب لي ان اقبض بيدي على عنق يزدجرد وانا اقول له : مت ايها القاتل ، حتى تزهق روحه .

والتفت الى سنان قائلاً : ان هذا الرجل من عبيد يزدجرد ..

فذعر وقال : وانت واثق بذلك ؟

— نعم وقد دخل بلاط يزدجرد منذ جلس على العرش .

فنهض الرجل يحاول الفرار ، فوضع سنان يده على كتفه قائلاً خير لك ان تبقى فالموت يكمن لك وراء هذا الباب ..

قال : اني بريء .

— اثبت براءتك اذا قدرت !

— يثبتها هذا الكتاب الذي لم يزل في يدك !

— لقد ارغم يزدجرد شهريار على كتابته ولو رأى الوالد ان تنتقل ابنته الى كرمان لقدم بنفسه .

— ومن اين يعلم الملك ان لشهريار فتاة هي في هذا المنزل ؟

— لقد كان مولاي مكرها على الاعتراف بكل شيء ، كما كان مكرهـا على كتابة هذه الكلمات .

ومشى الى الباب ونادى عبديه فـأقبلا ، فقال : اقبضا على هذا الرسول ، فامتدت اليه الايدي فصاح قائلاً لطرخان : لم يكن من الرأي ان تخرج حياً من منزل الملك . انك من الانذال وانت تخون قومك . وكان يريد ان يعطي رئيس الخصيان درساً في الشرف . على ان العبدين كانا اسبق منه ، فقـد أعطياه درساً آخر شهدت بأثره تلك السلسلة الضخمة التي جعلاها في يديه . وهو درس قـاس كما ترى حنى له رأسه وجالت الدموع في عينيه . وهامس الخصي سنانـاً قائلاً : يجب ان يعترف بكل ما يعلم .

— يعترف بذلك لزياد المازني .

— في مرو الروذ ؟ — نعم !

— ومن ينقله اليها ؟

– احد هذين العبدين وانا معه وتبقى انت مع العبد الآخر في هذا المنزل .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– ان ارى اليتيمة ، ويرى قائد الحامية رأيه في جاسوس فـــارسي هو من خدام يزدجرد كما تقول .

قال : لقد ايقنت الان ان يزدجرد قريب من هذا الشاطىء ، وانا اخشى اذا لم يرجع برسي اليه ، ان يفاجئنا بجنوده في ظلام الليل .

– لا يجسر على ذلك والعرب حوله .

– بل يفعل وهو آمن فهو يعلم ان الجيوش زحفت الى كرمان .

ففكر قليلاً ثم قال : هب ان الرجل اعترف لنا الان بمقر مولاه فماذا نصنع؟

– تستعين عندئذ بزياد .

– اذا كان لا بد من الالتجاء اليه فخير لنا ان نسير غـــدا قبل ان يحتاط يزدجرد لأمره ، ويفر من الموضع الذي نزل فيه .

قال : ما هو عدد الجنود في مرو .

خمسمائة كما سمعت .

– وهل يستطيع زياد ان يقبض على الملك وقد يكو جيشه بضعة آلاف ؟

قال : لقد ذهب الزمن الذي كان يقود فيه يزدجرد ، الالوف من الرجال . ان هـــذه الالوف حطمتها الميادين ولم يبق غير فريق قليل يحمل السيف وراء ملكـــه .

– ولكن يزدجرد لا يخرج من مخبئه الا اذا كانت الجماعـــات خلفه تحميه وتدفعه الى الامام .

– ومع ذلك فالرأي في كل ما تقول لزياد وقد عولت على المسير .

ثم قال للعبدين : احتفظا بالرجل الى الصباح والويل لكما اذا ضيعتماه .

فقال احدهما : بل الويل له اذا حاول الفرار . وباتوا ليلتهم ، ثم مشى سنان باسيره عند الفجر وهو يقول لطرخان : ليفاجىء يزدجرد هذا المنزل بجنوده فانا لا ابالي ، وانك لتستطيع ، مع عمرة والعبد الاخر ، ان تنجوا من الموت !

وكان برسي يقول : من اين لي ان اعرف هذا المنزل لو لم يدلني عليه شهريار. اني مظلوم فاصغوا اليّ ولا تفسدوا على شهريار امره . وسنان لا يجيب ولا يغفل عنه ، وقد جعل العبد طرف السلسلة الاخر حزاماً له ، ومشى الاثنان كأنهما اسيران ، حتى انتهوا اخيراً الى مرو ، واستأذن سنان على زياد قبل ان يسأل عن مولاته التي هي أحب الناس اليه .

* * *

سنان بن سليم ؟ اني أعرف معظم رجال بني سليم ولكني لا اعرفك .

فقال : لقد عجزت عن حمل السيف فتركت الحرب ولجأت الى الخدمة في المنازل .

– ومن تخدم اليوم ؟ – شهريار الخراساني .

– شهريار الذي اوصاني الاحنف بابنته . ان لمولاك فتاة تقيم بمرو ، في منزل عبدالله بن قيس أخي الاحنف .

– اعرف ذلك يا مولاي ..

– وهي ستزف الى طارق بن عبدالله .

– هذا ما لا شأن لي به . – وما هي حاجتك ؟

– أتعرف مولاي ؟

– عرفته قبل سفره فقد رأيته في مجلس الامير .

– وكان سفره الى كرمان كما يقولون ؟

– أجل ، ولكنه لم يعد وسأدفع اليه ابنته عندما يعود .

– يخيل اليّ يا مولاي انه أمسى اسيراً .

– ومن هو آسره ؟ – يزدجرد !

– ويلك وهل يعلم احد مقرّ يزدجرد ؟

– نعم يعلمه احد خدمه وهو في الرواق .

– وماذا يصنع هذا اللعين في مرو ؟

– يحمل اليّ كتاباً من مولاي يأمرني فيه بأن ابعث باليتيمة معه اليه .

وهذا كتابه .

فقرأه زياد ثم قال : خير لك ان تعود الساعة الى منزلك من ان تسألني قضاء حاجتك .. ان الفتاة لا تخرج من مرو ، وابوها بعيد الا بأمر الاحنف نفسه ، او بعد ان اموت ! .

قال : لم استأذن عليك يا مولاي من أجل هذه الغاية

- ولكن ماذا ؟

- جئت لأسأل مولاي ان يقرأ اسرار الخادم الفارسي الذي ذكرته ويكرهه على الاعتراف بفقر ملكه .

- لقد فكرت في هذا منذ لحظة . ليدخل صاحبك .

فدخل برسي وهو يكاد يسقط على الارض ، فقال زياد : أتظن يا ابن سليم ان يزدجرد أمر شهريار بكتابة هذا ؟

- بل أظن انه كتبه وهو مكره .

- وماذا تقول انت ايها الرجل ؟

- لا اعلم اين هو يزدجرد فقد خرجت من خدمته وشهريار هو الذي امرني بالمجيء الى المرغاب .

- واين هو شهريار ؟ - في كرمان .

- اذن هو مع الاحنف .

فتردد في الجواب ثم قال : مع الجيش العربي .

- وانت من اهل كرمان ؟ - نعم !

- وتعرف قواد هذا الجيش ؟

- اعرف وجوههم ولا اذكر الاسماء .

- ألم يكن شهريار قادراً على ان يختار رسولاً من المسلمين ؟

- اني في خدمة المسلمين يا مولاي .

فقال سنان كذب الرجل .

فأسكته الأمير قائلا : في خدمتهم ولا تعرف قوادهم ؟!

صف لي اميراً واحداً من امراء المسلمين الذين دخلوا البلد على رأس الجيش .

ـ بل أصف لك شهريار . !

فنادى احد الغلمان قائلاً له : السوط . فـانثنى الغلام وتناول سوط زياد ثم اقبل . فقال له الامير : اضرب فأنت من الفتيان الاشداء ، فضربـه ضربتين وبرسي يستغيث . وزياد يقول : لا تكف عن الضرب الا اذا امرناك بذلـك . فجعل السوط يرتفع ثم يهوي والفارسي يتململ ويتلوى حتى خارت قواه ولم يبق بينه وبين الموت غير ضربتين اخريين ، فصاح قـائلاً : سأعترف بكل شيء . فأومأ الامير الى غلامه بان يستريح . ثم قـال : اسقه ماء . فسقاه ، وهو يئن ، وقد سالت دماؤه ، ثم سقاه مرة ثانية والمـازني ساكت حتى رأى ان ساعة الاعتراف قد دنت فقال : أأنت في خدمة المسلمين ام ماذا ؟

فتنهد ، ثم تمتم بضع كلمات وقفت عند شفتيه .

فهزّ الغلام السوط . فقال الرجل : اني .. خادم يزدجرد الملك .

فرفع عينيه الى العلاء كأنه يشكر الله ثم قال : وفي أي بلد رأيت شهريار ؟

ـ انه بين يدي الملك ، في نهاره وليله !

ـ اي انه من الاسرى ..

ـ ضيف ، ولكن الاسير خير منه !

ـ وكيف استطاع الملك ان يقبض عليه ؟

ـ لا اعرف من هذا غير امر واحد هو اني رأيته في احدى الليالي بـين يديه ولم اكن أعلم من هو ؟

ـ ولا يستطيع الآن ان ينجو بنفسه ؟

ـ لقد أمر الملك رجاله بان يقتلوه اذا حاول الفرار .

ـ إذن فهذا الكتاب من يزدجرد !

ـ بل كتبه شهريار بأمره ، وكانت دلائل الرضى على محياه !

قال : احذر فاذا كذبت ضربت عنقك .

قال : الرجل الذي يبوح لك بانه خادم عدوك وعدو الاسلام ، لا يخطر له بعد ذلك ان ينقل الاكاذيب .

ـ وكيف كتب شهريار ما كتب وهو راضٍ ؟

ـ لا استطيع ان اجيبك عن هذا السؤال .

ـ لمــــاذا ؟

– لاني لم اتبين ما في صدر شهريار من اسرار .

– بقي ان تذكر لنا الآن مقرّ ملكك .

فهمّ بالجواب ثم سكت .

قال : خير لك ألاّ تتردد في جوابك .

– ولكن يصعب عليّ ان ابوح لك بذلك .

قال : أي الأمرين أحبُّ اليك الاعتراف او الموت ؟

– سيكون جزائي الموت في الحـالين .. اني اذا اعترفت ضرب الملك عنقي بعد رجوعي اليه ، وان لم افعل قتلتني انت بسوطك فالرأي ان احتفظ بسري وأموت من يدك ..

فبرقت عيناه قائلاً: اما انا فقد رأيت لك رأياً غير هذا هو ان تعترف وتبقى في مرو !.

– واترك الملك ؟

– فضحك وهو يقول : أترك ملكك بـــأمر المسلمين وهو حي وادخل في الاسلام كما دخلت الجماعات من قومك ، والا فسيكرهك السيف على تركه يوم تقع العين على العين ، هذا ان بقيت !!

فبكى وقال : وكيف اخونه وقد عشت في نعمته بضعة عشر عاماً وهــو يحتاج اليوم الى المخلصين له !.

– ألم تقل الآن انك ستعترف بكل شيء ؟

– بلى ولكن رأيت اخيراً ان اموت وفي الصدر بقية من الشرف .

قال : انك من الفتيان ويجب ان تعيش .

– وينظر اليّ المسلمون بعد ذلك نظرهم الى الخونة من أهل فارس .

– بل ينظرون اليك نظرهم الى فارسي آثر عبادة الله على السجود للنــار ، اسقه يا غلام وعالج جوارحه بعد حين فسيمسي مسلماً .

وكان زياد يقول في نفسه : خير للمسلمين ان يمسي برسي منهم ويبوح لهم بفقر يزدجرد واسراره ، من ان تضيع بموته هذه الاسرار .

فلما شرب قال : اسأل الآن ما تشاء فقد تخليت عن الملك ولكن اطلب اليك أن تهب لي ما اعيش به ، فأنا لا املك شيئاً كما ترى ..

– سنعطيك ونعطي اهل بيتك ما تحتاجون اليه ويكفي انك ستصير مسلماً لك ما لنا وعليك ما علينا .

قال : لا أهل لي فقد دخلت البلاط وانا غلام .

– إذن لست مكرهاً على الرجوع الى يزدجرد . – لا !

– وماذا تخاف إذن وقد ضمنت حياتك ؟

– أخاف ان يهزأ بي القوم قائلين : هذا خائن مولاه ..

قال : في مرو الروذ وحدها ألف فارسي اعتنقوا الاسلام أفلست انت واحداً من هؤلاء ؟

فرفع رأسه قائلاً : بلى وان لي قسوة بالقوم الذين تركوا دين فارس .. قل الآن ما الذي يجب عليّ ان اصنعه لأمسي من المسلمين .

– ستعلم ما يجب بعد قليل ، فحدثنا بأمر الملك .

وكأنه ذكر ان ذلك الأمر من اسرار الجيش فقال : اخرج الى الرواق يا ابن سليم واما انت ايها الغلام فامنع الناس من الدخول ثم قال لبرسي : اين تركت يزدجرد ؟

– في واد يقال له وادي خواست .

– من اي اقليم ؟

– اقليم المروين بينه وبين جبل الزهاد عشرون فرسخا ..

– ومن معه من الرجال ؟

– الف فتى من ابناء الامراء هم رهائن لديه .

– وغايته الحرب ؟

– نعم فقد ملّ حياة الاستخفاء فاما ان يظفر او يموت .

– وفي مثل هذا الجيش الصغير يسترجع المغرور عرشه .
– في جبل الزهاد الف من الرجال ينتظرون وصوله .
– مسكين يزدجرد .. كان الجيش الذي يقوده مئة الف ولم تكن الخيل تجول جولة واحدة ، حتى يفرّ من الساحة . أفيريد الآن ان يطرد العرب من بلاده بألفين من أبناء الأمراء ؟

– يقولون ان حول مرو الشاهجان بضعة الاف هم اعداء العرب .
– من يقول هذا ؟
– رجل كان عاملاً على البلد الذي ذكرت يدعى سنجان .
– هذا ابن اخي ماهويه وقد عرفته ، وهل يخون ماهويه المسلمين وقد ولاّه الاحنف وأحسن اليه ؟

اذا كان سنجان يريد الاستيلاء على مرو فانما هو يفعل ذلك ليقهر عمه ويقضي عليه لانه سلبه الولاية .

فاطرق ساعة ثم قال: ليستول يزدجرد على مرو ولكن يجب ان يعلم ان هذا الاستيلاء لا يعيش. والآن أسألك سؤالاً آخر عن الفتاة.. أيطلبها الملك لانها وصفت له ام ان اباها يريد ان يضمها اليه ؟

– أعلم شيئاً واحداً هو ان الملك يلجُّ في طلبها وأنا لا اعلم لماذا .
– وكان ابوها راضياً بذلك ؟
– كان يرغب في ان يجيء هو نفسه ويحمل ابنته . ولكن الملك لم يوافقه في رغبته ولم يشأ الا ان يحمل احد خدمه رسولاً له .

– إذن فشهريار يخدع يزدجرد ، ويزدجرد صابر على مـا يراه منه حتى تمسي اليتيمة بين نسائه .. ان في الأمر سراً سيعرفه الاحنف بعد رجوعه .

ونهض فدعـا سناناً وقال له : تبيت الليلة في مرو ، وترى ابنة مولاك ، ثم تسير غداً الى مرو الشاهجان مع ثلاثة من الرجال نختارهم لك .

قال : اعطني كتابك فسأذهب قبل ان يبتسم الفجر .
– نحن لا نكتب ولكن نقول لك كلاماً تنقله اليه .

وأعاد عليه ما سمعه من برسي فيما يتعلق بالحرب .

قال : فهمت الآن ، واين الرجال ؟

– سيبيتون في المنزل الذي تنزل فيه .

قال: لم يبقَ إذن الا ان تأمر غلامك بان يدلني على منزل الأمير عبدالله لأرى مـولاتي .

فأمر الغلام بان يفعل وكان يفكر في تلك الساعة في ارسال كتاب الى الاحنف يخبره فيه بما سمعه عن يزدجرد .

ولم يلبث حتى كتب اليه ، وبعث برسوله .

* * *

- ٤٦ -

رأى سنان ان يكتم اليتيمة خبر ابيها ، فلم يذكر لها خبر وجوده مع الملك في وادي خواست .

ولكنه اثبت لها ، بنعومته ودهائه ، انه لحق بجيش الاحنف وهو اليوم معه في اقليم نيسابور .

فقالت له وهي تذرف الدموع : ومن خبّرك بذلك ؟

– رجل من اهل البصرة ارسله ابن عامر الى مرو الشاهجان .

– وذكر لك طارقاً ؟

– أجل، وذكر لي ان مولاي لا يفارق الفتى، وانهما ينزلان في خيمة واحدة حتى ليظن الجيش ان طارقاً ابن مولاي .

ولكن قلبي يحدثني بأني سأخسر احدهما !

– اما انا فقلبي يحدثني بأنهما سيعودان وسيجتمع الشمل .

وأراد ان يغيّر حديثه فقال : لقد عرف زياد المازني مقر يزدجرد وسيرجع جيش الاحنف ليقبض عليه فيخلو الجو للسلمين في بلاد الفرس .

فخفق قلبها وجعلت تقول : مسكين هذا الملك .. انهم يطاردونه كأنه من المجرمين .. وأين مقرُّه ؟

– في اقليم المروين ، في واد يبعد ثمانين فرسخا .

– وكيف يجسر على الخروج الى الاودية ؟

– خرج وهو حامل سيفه يريد القتال ، وسيزحف الى مرو الاولى .

قالت : لو كنت صاحبة الأمر والنهي في العرب لأعطيته مرو وما حولها واذنت له في ان يقضي ما بقي له من العمر في أمن وعزّ .

– نسيت يا مولاتي انه عدو الاسلام ؟

– ما نسيت شيئاً ولكني اعلم ان هذا العدو لا يستطيع انْ يسترجع عرشه فخير للعرب ان تهب له بلداً يعيش فيه كما تعيش الملوك .

– ثم قالت : اني لا احبه فقد قصّ عليّ أبي طائفة من اخباره ، ولكني أحسّ كلما ذكروه ، وذكروا فراره وخوفه ، ان هذا القلب يقطر دماً ..

– أما انا فلو ساعدني الحظ في القبض عليه لوضعت خنجري في صدره وجعلت فمي على جرحه اكرع في دمه حتى ارتوي .

– واين توجد الرحمة ؟

– في قلوب النساء اللواتي لم يشهدن الحرب.. يكفي ان يزدجرد عدو قومي وعدو مولاي ، بل يكفي ان المسلمين خسروا في حروبهم معه نخبة الابطال والفتيان الأشداء .

– وهل يظن زياد المازني ان هذا الملك الشقي يستطيع الاستيلاء على مرو بقوة السيف ؟

– لا يقدر ان يظن الآن شيئاً.. اني ذاهب غداً اليها لأوصي عاملها الفارسي بالدفاع والاحتيال ريثما يزحف المسلمون .

– غداً ؟

– نعم غداً قبل ان يبزغ الفجر .

– إذن لم تجيء اليّ الا لترحل ؟

– هذا ما امرني به قائد الحامية .

– ومتى تعود ؟!

– بعد بضعة ايام .

– ومتى يعود الاحنف ؟

– عندما ينتهي اليه كتاب زياد .

– واری عندئذ أبي وطارقاً ..

فخطر له في تلك اللحظة ان شهريار لن ينجو من قبضة الملك فارتجفت شفتاه وهو يقول : أجل ، سنراهما يا مولاتي وسيبوح أبوك باسراره فقد انقضى الزمن الذي ذكره وانت الآن في الخامسة عشرة من العمر .

واستأذنها في الانصراف قائلاً: ان الله القادر على كل شيء سيمنّ علينا جميعنا باللقاء بعد حين . وخرج والكآبة تملأ نفسه فقد قام في ذهنه كما قرأت ان مولاه لن يعود ولن يفلت من يد عدوه . وقبل ان يأوي الى فراشه ، مرّ بذلك البيت الذي نزل برسي فيه ليعالج جراحه ويستعيد قواه . وكان قد عرف انه دخل في الاسلام . وجلس عند فراشه وهامسه قائلاً : أتحقد عليّ كما تحقد على زياد ؟

قال: لو لم تكرهني على المجيء الى مرو الروذ لماعرفت هذا الدين الذي يدنيني من الله ، اني شاكر لك ولزياد هذا الفضل .

فابتسم له وجعل يهوّن عليه أمر جراحه ثم قال : وهل عولت على البقاء في مرو الروذ الى الأبد ؟

– سأبقى في البلد الذي يأمرونني بالبقاء فيه .

قال : جئت استشيرك في أمر .

فتململ قائلاً : لم اكن قط من اهل المشورة في بلاط الملك .. كنت من الخصيان القائمين بخدمة النساء .

– ومع ذلك فأنا اريد ان تنصح لي بما تراه .. لقد امسيت الآن واثقاً بان مولاي اسير في الوادي الذي ذكرت .

– بل هو يروح ويجيء ولكن العيون وراءه ..

– وهل يظن يزدجرد انه من اعدائه ؟

– كان يظن في بادىء الأمر انه من المخلصين . ولكن سنجان أوغر صدره فاستيقظت في ذلك الصدر الظنون .

– وبات واثقاً بانه عدوه ؟
– هذا ما يبدو لي .
– ولماذا لا يأمر بقتله ؟
– يظهر أنه آثر الاحتفاظ به ريثما تحمل إليه الفتاة !
– يقتله ويحمل الفتاة بالقوة ..
– وهل نسيت ان الملك لا قوة له .
– ولكن ما هي غاية هذا الملك وهو في زمن يجب ان ينسى فيه النساء والرجال ولا يفكرّ الا في العرش ؟
– اما هذه الغاية فلا أعلم ما هي ولكن رأيت ان يزدجرد يبذل نصف ما يملك في هذا السبيل .
– وانه سيعمد الى قتل شهريار عندما يبلغ غايته ؟
– قد يكون ذلك .
قال : رأيت الان ان أسير الى وادي خواست . – لماذا ؟
– لأنقذ مولاي من الأسر .
– وكيف تنقذه وانت رجل عربي تحيط به طوائف من الفرس ؟
– ألبس لباسهم واستعين بفارسي مخلص للعرب .
– واين تجد هذا الفارسي ؟
– في مرو الروذ أو في مرو الأولى فانا ذاهب اليها غداً .
– ولكنك لا تحسن الفارسية والويل لك اذاخطر لأحدهم ان يسألك سؤالاً او يوجه اليك كلمة .
– إذن يقتل مولاي ولا انقل اليه قدماً ؟!
– خير لك ان تختار فارسياً كما قلت وتبعث به الى ذلك الوادي من اجل هذه الغاية ، من ان تذهب انت .
قال : لولا هذه الجراح لذهبت انت .
فأشرق جبينه قائلاً : يطيب لي ان اخدم المسلمين بعد ان امسيت منهم واني لا اتردد في الذهاب عندما تعود اليّ العافية .
قال : اتقسم لي بالله الذي شهدت ان لا اله الا هو انك ستفعل ؟

– أقسم لك .

– اذن فخير الاراء ان اتعجل في الذهاب الى مرو والرجوع منها وقد يمن الله عليك بالعافية في خلال هذه الأيام .

فحنى رأسه وهو ينتفض من الألم ثم تمتم قائلاً: اني لك ولكل مسلم. فدمعت عيناه من الفرح ثم قبل رأسه وأوصى الرجل الذي يعالجه بالعناية به ، وانصرف وقد طابت نفسه .

* * *

- ٤٧ -

خفي امر الملك عن ماهويه فلم يعلم شيئاً عنه . وعندما بلغه ان ببابه اربعة رجال من العرب هم رسل زياد المازني نهض مضطرباً وهو يقول لمن حوله : ان في الأمر ما فيه . ثم دعاهم الى الدخول يتقدمهم سنان، فقال : رسل زياد ؟

فأجابه سنان قائلاً : نعم وقد جئنا ننقل اليك كلاماً .

– ماذا جرى ؟

– أسمعت انت شيئاً عن يزدجرد ؟

– لا ولكني عرفت منذ حين ان سنجان عامل مرو ، الذي عزله الاحنف، فرّ من البلد وقد ضيّعت أثره .

– اما زياد فلم يضيّع هذا الأثر..ان سنجان اليوم بين يدي ملكه وسيجعله على مقدمة الجيش عندما تنشب الحرب .

– وأي جيش تعني ؟

– الجيش الزاحف الى هذه المدينة، ليدك اسوارها ويقضي على اميرها ويعيد سنجان بقوة السيف الى المقعد الذي أُخذ منه .

فذعر قائلاً : قلت انك تخاطبني باسم زياد .

– نعم وباسمه اتكلم الآن .

– واين هو الجيش الذي وصفت ؟

فسمّى له ذلك الوادي النازل فيه ، فقـال : ومن اين عرفت انه زاحف الى مرو ؟

فنقل اليه عندئذ كلام زياد ثم قال : اذا رأيت ان تبعث برجلٍ يحمل اليك اخبار الملك فافعل . فاطرق ملياً ثم رفع رأسه وجعل يقول : قل للأمير المازني ان مرو الشاهجان لا تؤخذ الا بعد ان يموت جميع من فيها من رجال ونساء .. اهلاً بيزدجرد فقد دنت ساعة موته .. واهلاً بسنجان الذي يقذف باهل فارس الى النار من اجل الامارة .. وامر حاجبه بان يدعو ولده براز واعيـان مرو ، فأقبلوا وهم اكثر من عشرين ، فقال لهم : تهيأوا فقد أتاكم يزدجرد .

فقال براز : طالب صلح ام طالب حرب ؟

– جاء يطلب حرباً والموت يلمع على شفرة سيفه ..

– ومن هم قواده ؟

– خراذمهر ، وفرخزاد قائد الرهائن من ابناء الامراء .

وهنالك قائد عام سيخضع العرب ويعيدها الى الحجاز أتعرفون من هو؟ انه ابن اخينا سنجان حـامل لواء الفتنة وموقد النار ... فجعل كل واحد منهم يبدي رأياً ، ثم اجمعوا من قبل ، عـلى ان ينصبوا ليزدجرد شركاً يقع فيه . ولم يبق لسنان ورفاقه ما يقولون ، فخرجوا من مرو راجعين الى قومهم وهم واثقون بان ماهويه ومن حوله لا يخونون المسلمين .

* * *

– ٤٨ –

ويلك يا شهريار ، أيخطر لك ان تخدع الملك ؟

– وكيف اخدعك يا مولاي وانا على طاعتك وبين يديك .

– ولكن برسي لم يعد وقد طالت غيبته .

– وما هو ذنب عبدك اذا طالت هذه الغيبة ؟

– نخشى ان يكون منزلك الذي وصفته لنا غير موجود .

– سيعلم مولاي بعد حين اني لم اكن خائناً .

– واين تذهب الفتاة يا مولاي وانا بعيد عن المنزل ، وهي لا تعرف احداً غير طارق بن عبدالله وطارق في مرو الروذ ؟

فاضطرب قائلاً : لقد منعناك من قبل ان تذكر هذا العربي .

– ما حيلتي يا مولاي اذا كنت مكرهاً على ذكره ..

ان اليتيمة تحبه ولا تريد ان تنساه ...

– ونمنعك الآن من ان تـذكر هـــذا الحب الذي سيصير بغضـاً بعد أن تجيء الفتاة .

وجعل يضحك ضحك الاستخفاف ويقول : ابن صعلوك من صعاليك العرب يتزوج ابنة كسرى ؟! اذن فعظمة الملك وعز السلطان تدوسها الأقدام .. لا.. خير للملك ان تخرج فارس من يده ، ويمحو القدر ذرية الأكاسرة من الوجود من ان يقول الناس هذا العربي صهر يزدجرد !!

– وماذا يصنع الملك اذا كانت ابنته لا تريد أن تترك طارقاً ؟

– ماذا نصنع ؟ نعمد الى السيف ثم نقول لهــا على مرأى ومسمع من القوم : اما ان تتركي الفتى او تموتي !!

– وقد تؤثر الموت على تركه ..

– اذن تموت فيسلم الشرف الفارسي .. والآن ! قــل لنا ، أتظن ان شذاذ العرب عرضوا لبرسي وهو راجع مع اليتيمة .

– لا أجسر على ان أظن هذا يا مولاي .

– وماذا اذن ؟

– خطر لي خاطر أخشى ان افكـّر فيه ...   – ما هو ؟

– هو ان الفتاة انتقلت الى مرو الروذ بأمر من الاحنف .

– وأي سبب يدعو الاحنف الى ذلك ؟

– غرام ابن اخيه .

– وترضى هي بان تخرج من بيتها لتقيم ببيوت الناس ؟

– لا يبالي الاحنف برضاها اذا اراد ان يفعل .

فاستند الى الجدار وجعل يتنهد ويقول : هب ان الاحنف لم يفكر في هذا فحظ يزدجرد يحمله على التفكير ... آه ... ان الدهر قد جار ، حتى ليخيل الينا ان الأرض ستبتلع ملك فارس .

وبينا هو يخاطب نفسه ويلعن الزمان وقف احد الحجاب بالباب قائلاً : لقد جاء برسي الخصي يا مولانا . فاستوى جالساً وعيناه تنظران الى الباب دون ان يقول كلمة .

فقال الحاجب : أتأذن له في الدخول ؟

فحنى رأسه ثم وضع يده على قلبه كأنه يمنعه من الوثوب .

ودخل برسي واهي القوى ، اصفر الوجه ، ترتجف ركبتاه حتى ليكاد يسقط على الارض تحت حمله الثقيل ..

فقال : ويلك أكنت في القبور ؟!

— نعم يا مولاي كنت فيها وقد داعبني الموت بضعة ايام بيديه الحديديتين ثم نجوت بفضل هذا الرجل .. واشار الى شهريار .

— ولكن هذا الرجل لم يترك الملك ..

— ان في منزله كهلاً عربياً يتكلم باسمه ..

فقال شهريار في نفسه : خرج برسي من هذا الوادي وهو فارسي ثم عاد وهو مسلم ... ومدّ عنقه ليسمع ما يقول وقد طابت نفسه وكان يزدجرد يقول : اذكر لنا جميع ما جرى لك منذ خروجك ، فقد ايقن الملك الآن بانه شقي لا حظ له ، أرأيت الفتاة ؟

وكان برسي قد رآها قبل خروجه من مرو الروذ ، بحضور سنان وذكر لها الملك ورأى عندما ذكره دمعتين تسقطان من عينيها السوداويين . وسنان هو الذي ضمن لزياد اخلاص برسي للاسلام الذي دخل فيه، وسأله ان يأذن له في الرجوع الى الوادي ، كما سيجيء .

فقال : اجل رأيتها يا مولاي .

— في منزل ابيها ؟

– بل في مرو ، في منزل عامل المروين .

فأخفى شهريار وجهه بيديه متظاهراً في البكاء !!

فقال يزدجرد : وذهبت انت الى مرو ؟

– نعم يا مولاي ، فان سناناً خادم شهريار اراد ان ينفذ أمر مولاه ويقضي حاجته وقد ذهب معي اليها .

– وهل كان الاحنف فيها ؟

– ان الاحنف اليوم في اقليم نيسابور .

– وابن اخيه ؟

– حدثني سنان بأمر ابن اخيه الذي يدعى طارقاً وهو مع عمه .

– ومن نقل الفتاة الى مرو ؟

– نقلها الاثنان اللذان ذكرت قبل ان يخرجا الى الحرب ، على رغم سنان المسكين الذي لم يصغيا الى رجائه .

– ومرو اليوم بدون جيش ؟

– الجيش فيها كثير يا مولاي وحول الاسوار ألوف من أهل البصرة . قائدهم جميعاً رجل اسمه زياد المازني .

– وماذا فعلت بعد وصولك ؟

حمل سنان كتاب شهريار ، الى زياد ، وطلب اليه ان يبعث بالفتاة الى ابيها فأبى قائلاً : انه لا يسلمها الا الى الاحنف نفسه .

ثم دعا حامل الكتاب ، فمثلت بين يديه فقال: ابن شهريار؟ قلت في كرمان ، فقال : أتكون في خدمة هذا الخائن اللعين وتدخل مرو ؟

وأمر غلمانه فجلدت حتى رأيت الموت بعينيّ . ثم نقلوني الى كوخ وانا ميت ! وسنان يعالج جراحي ويعطف عليّ حتى رجعت الى عالم الاحياء ولم يخطر لي اني قادر على الرجوع الى مولاي الملك .

– بعد ذلك ؟

– اقبل زياد ينظر في امري فقيل له اني حي ، فلما رآني قال : أمرناهم بان

يضربوك حتى تموت فصرعت الموت ، فننصح لـك الان بان تغادر مرو وتقول لشهريار : سيعلمك المسلمون كيف يكون جزاء الخونة !

وكنت اقول له : ان شهريار في صفوف الجيش وهو ينتهرني قـائلاً كذبت يا عدوّ الله فالجيش لا يضم خائناً مثله الى صفوفه .

– وكيف عرف زياد انه خائن ؟

– خبره بذلك عبدان فارسيان جعلها شهريار خادمين للفتاة وقد قال لقائد مرو : لم يكن شهريار مسلماً قط وانما هو من انصار الملك !

– ثم ماذا ؟

– ثم ماذا يا مولاي ؟ رأيت ان اترك مرو في تلك الساعة وانا غير قادر على المشي ، ولكن سنانا أراد ان ارى الفتاة واخاطبها قبل خروجي ففعلت ، اني لم أرَ في كل ما رأيت من نساء لها جمال عينيها وسحرهما فخان الجلد الملك المسكين وجعل يبكي . وكان شهريار يبكي مثله ، ثم قال : أتأذن لي يا مولاي ان أسأل برسي عما يخطر لي ؟

فأومأ اليه بأن يفعل ، فقال له : أذكرت للفتاة انك تحمل كتاباً من أبيها ؟

– ذكر لها ذلك سنان نفسه وحدثها بما جرى بيننا وبين زياد .

– ولم تقل لكما انها ترغب في المجيء اليّ ؟

– بلى حتى انها ارادت ان تستأذن زياداً في ذلك ،

– ومنعها سنان .

– نعم ولم يشأ ان يجعلها هدفاً لغضبه .

قال : من هو زياد هذا فانا لا اعرفه .

– رجل، النمر خير منه . – اذن فاليتيمة تخافه .

– لم ترَ له وجهاً ولم يخطر له ان يراها .

– كان عليك ان تقول لها ولسنان كلمة عن الملك .

– لقد سبقني سنان الى ذلك فكأنه كان يعلم من قبل انك في خدمة مولاي .

– أجل ، قلت له قبل ان اترك المرغـاب اني سأبحث عن الملك ، وقد لا أعود اذا ساعدني الحظ في رؤيته .

فقال يزدجرد وهو لا يعلم ما يقول : آه لو عرفت الفتاة من هو الملك .

فقال برسي : يظهر انها ترغب في ان يظفر الملك باعدائه ويستعيد ملكه .

قال : كذبت .

– اقسم برأس مولاي انها قالت ذلك وعندمـــا لفظت اسم الملك يزدجرد جالت في عينيها الدموع !

قال : ما هذا يا شهريار ؟

– هذا ما لا أعلمه يا مولاي فليسأل الملك قلبه .

فخرج من الخيمة وهو يقول : نخرج الان الى الفضاء وسنسأل هـــذا القلب في وقت آخر .

فهامس برمي شهريار قائلاً : رجعت لـكي انقذك من الأسر فتهيأ . فـأجابه وهو هادىء : عرفت ذلك قبل ان تذكره لي .

* * *

– ٤٩ –

سنجان ! ان الملك بحاجة الى رأيك الان .

– قل يا مولاي !

– لقد بعثنا برمي الخصي في مهمة .

– عرفت انك بعثت به ولكني لم اعلم ما هي مهمته ومتى يعود ؟

– انه هنا وقد تركناه في خيمتنا مع شهريار .

– وهل يريد الملك ان يحدثني بأمره ؟

– اجل من اجل هذه الغاية سألنا عنك ، ولكن اعلم ان السر الذي سنبوح لك به لا يعرفه غير اثنين ثالثهم انت .

– ليبح الملك بما يشاء وليس له ان يشك في اخلاصي له .

قال : لقد اكرهت الحادثات الملك ، على ان يشك في اقرب الناس اليه ،

ومع ذلك فنحن بحاجة الى رأيك كما قلنا ، ويخطر لنا ان نشاورك في الأمر قبل ان نزحف الى مرو .

ووضع يده على كتفه وجعل يقول : كنت تطلب الينا من قبل ان نقتل شهريار ونحن نأبى أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاي !

– وتعلم لماذا ؟ – لا !

قال : ان الملك يحتاج الى رضى هذا الخراساني ، كما يحتاج الى رضى الجيش الذي يساعده في استرجاع المجد !

قال : عفوك يا مولاي فانا لا افهم ما تقول .

ولكنك ستعلم كل شيء عندما تعلم ان لمولاك فتاة تقيم بمنزل شهريار ، وان هذه الفتاة ، قطعت من هذا القلب .

– ابنتك ؟

– نعم ، للملك ابنة لا يعرفها وقد منعته الاقدار من ان يرى وجهها الضاحك وعينيها الساحرتين اللتين وصفتا له . وجعل يقص عليه حكاية جهان روز ، والكآبة على جبينه ، والالم على وجهه وفي عينيه ، ثم تنهد قائلاً : وقد رأينا ان نلمس بيدنا صدق هذا الخرساني فارسلنا برسي الى المرغاب وقد ثبت لنا الان انه صادق فيما رواه .

– اذن فقد رأى ابنة الملك .

– اجل ولكن لم يرها في المرغاب بل في مرو الروذ وفي منزل الاحنف بن قيس نفسه . واعاد عليه رواية طارق وغرامه كما سمعها من شهريار .

قال : أيأذن لي مولاي ان اقول ما يخطر لي ؟

– وماذا يخطر لك ؟

– يخطر لي ان هذه الفتاة ابنة شهريار وليست ابنة الملك .

– ويزعم الرجل انها ابنة مولاه ؟! – نعم !

– وما هي غايته من ذلك ؟

– ان يمثل بين يدي الملك ويخدعه باكاذيبه، ثم يقرأ من وراء الستار، جميع الاسرار خدمة للمسلمين ..

– ولكن قيل لنا ان لليتيمة عينين تشبهان عيني امها، وهي تحمل من ملامح ابيها الشيء الكثير .

– وما الذي منع شهريار من ان يحملها اليك ؟

– خوفه من طارق بن عبدالله الذي يعبد اليتيمة كما يعبد إلهه ، وخوفه من الفتاة نفسها التي لا توافقه في المجيء .

فاطرق ملياً ثم قال : أتعرف الفتاة انها ابنة اعظم رجل في هذا الشرق ؟

– لا بل تعلم انها ابنة الخراساني .

– ولم يأمر الملك الخصي ان يطلعها على السر ؟

– لم نفعل ذلك لان الفتاة لا تصدقه ، ولانه ليس من الرأي ان يبوح الملك لخصيانه ، بالاسرار التي تتعلق به .

– إذن لم يذهب برسي الا ليراها !

– وليأمرها باسم ابيها شهريار ان تجيء اليه .

– ولكنها لم ترضَ بالمجيء .

– ان القائم مقام الاحنف في الولاية لم يرضَ بذلك، وقد امر بجلد برسي حتى سال دمه ، ثم جعله أسير حرب .

وحدثه يزدجرد عندئذ بكل ما يعلم .

فقال : وفي أي شيء تفكر الان ؟

– في أمر واحد هو ان نبعث الى مروالروذ بشهريار نفسه فهو القادر وحده على احضار الفتاة .

قال : لا تنسَ يا مولاي انك ذاهب الى استرجاع عرشك .

– ولكن استرجاع العرش لا يمنع الملك من استرجاع ابنته .

– اما انا فلا أؤمن بوفاء هذا الخراساني ، ولا أطيق ان يؤمن الملك بوفائه ويثق به ..

– وماذا نصنع ؟

– يصف لي برسي ذلك المنزل الذي تقيم به الفتاة .

– وبعد ان يصفه لك ؟

– اذهب انا اليه واستعين ببعض اهل مرو الروذ على اخراج الفتـــاة منه وحملها اليك !.

قال : لا نريد ان تترك الجيش الا بعد الاستيلاء على مرو الشاهجان .

– اجل يا مولاي ، اني لا أتركه الا بعد ان تدخل المدينة ظافراً ويخضع لك من حولها كما كانوا يخضعون لك وأنت على العرش .

– ويقوم في ذهنك انك ستبلغ الغاية ؟

– نعم ، واقسم لك اني سأجعل ابنتك بين يديك .

فابتسم الملك المسكين لوعد مستشاره الخلاب وجعل يقول : اصنع ما تشاء فقد وثقنا بكل ما تقول. ومشى يطوف بين الخيام وقد اضمحلت صورة اليتيمة من مخيلته ، وقامت مقامها صورة الحرب، وصورة الحرب والتاج. أما سنجان، فمشى يريد خيمته التي تجاور خيمة يزدجرد وهو يفكر في القضـــاء على شهريار الذي انتزع الولاية من يده .

* * *

– ٥٠ –

كان الاثنان يتهامسان .. برسي وشهريار، وهما في خيمة يزدجرد ، لم يجسرا على الخروج منها ، بعد خروج الملك ، لانه لم يأمرهما بذلك !

وكان برسي يقول : لو لم يكن سنجان حاضراً ، لخرجنا الآن نحن الاثنين ، من المعسكر ولم نبالِ ، ولكن هذا اللعين لا يغفل عن شيء .

– ومتى نستطيع الخروج ؟

– بعد ان يبلغ الجيش جبل الزهاد او بعد تركنا اياه .

قال : اخشى ان ينتهي الأمر بنا الى الفشل .

- اما انا فلا اخشى شيئاً وستعود بعد قليل الى مرو فترى ابنتك ، وتفعل ما يطيب لك .

قال : وتقسم لي مرة ثانية انك مخلص للاسلام ؟

- لقد اقسمت واقسم الان ان الموت لا يفصلني عنه ، وحسب الاسلام انه يقربني الى الله الذي لا اله الا هو وينقذني من هذا الاسر الدائم الذي لا اجد فيه غير العذاب والذل .

- ارجو ان نفر قبل الوصول الى الجبل .

- لماذ ؟

- لاني اريد ان ارى زياداً قبل ان ينتهي يزدجرد الى مرو .

قال : لقد عرفت غايتك . انك لا تريد ان يسترجع الملك هذه المدينه التي ذكرت .

- أصبت ، وهذا ما يفعله كل مسلم يخدم قومه .

وكانت هنالك ، في الخيمة الاخرى ، اذنان تسمعان ما يقولان ، هما اذنا سنجان ، الذي حبس انفاسه ليصغي الى ذلك الحديث العذب . !

ثم سمع شهريار يقول : لقد انصرف الملك ولم يأمرنا بالانصراف فانا ذاهب لأسأله ، فخطا سنجان بضع خطوات ووقف بباب الخيمة . وكانت عينا شهريار تبحثان عن الملك. ولكنه لم يره بل رأى سنجان ، وقد اصفرّ وجهه، وارتجفت شفتاه ، وبدا الحقد بأفظع صوره على جبينه . ثم التقى النظران ، فابصر شهريار النار في عيني عدوه . فتراجع الى الداخل وجعل يقول : اعطني يا برسي رقاً فقد خطر لي الان ان اكتب بعض السطور . .

قال : الرقوق تحت وسادة الملك ولكن أتكتب في خيمته ؟

- اجل ، فقف بالباب وانتظر رجوعه . وتناول الرق وجعل يكتب ويده تضطرب حتى أتمّ عمله والملك لم يعد ، فطوى الكتاب وقال لبرسي : ألم ترَ احداً ؟

- رأيت سنجان يخرج من خيمته ويتعجل في مشيه .

قال : ان الموت الان بين شفتي هذا اللعين . .

ولم يشأ ان يبوح له بما رآه خوفاً من ان يستولي عليه الذعر .

فقال : أتخاف الرجل ؟

ـ كنت أخاف جميع من في المعسكر ، اما الان فلا أخاف أحداً .

ومدّ يده اليه قائلاً: كتبت هذا الكتاب وانا واثق بانك ستسلمه الى صاحبه اذا قتلت !.

قال : أراك تذكر لي الموت كأنك تراه .

ـ خيل اليّ اني رأيته .. عدني يا برسي بانك ستحمل هذا الرق بعد موتي ، الى صاحبه ..

ـ من هو صاحبه ؟

ـ الاحنف بن قيس ، فاذا هلك ، فعبدالله أخوه .. فـــاذا هلك ، فطارق ابن عبدالله ..!

ـ واذا هلك الثلاثة ؟

ـ تسلمه الى الفتاة التي عرفت ، وقد كتبت على ظاهره أسماء هؤلاء الاربعة كي لا تنسى احداً منها .

قال : ابقه في كمك ريثما اطلبه منك .

ـ بل تأخذه الآن وتضعه في مكان لاتراه العيون ولا تصل اليه الايدي لانك لا تعلم متى ينشب فيّ الموت مخالبه الدامية .

قال : انه خوف لا أعلم له سبباً يا شهريار ..

قال : خذه ولا تتردد فالمجال لا يتسع للكلام ولك ان تقرأه عندما تشاء على ان لا تبوح بما جاء فيه .. خذه فالموت يمشي اليّ بخطى واسعة وسيدخل من هذا الباب ...

قال ذلك وهو يبتسم كأنه يستلذ هذا الموت الذي يتحدث به ، فتحير برسي في أمره وجعل يتفرس فيه . ثم تنـــاول الكتاب وجعله في حزامه من الداخل وكان يقول : لا يذهب هذا الخوف الا بعد ان نخرج من المعسكر .. ولكنه لم يتم كلامه حتى أقبل الملك ، والسوط في يده، والغضب يلمع في عينيه المختلجتين. وراءه سنجان يبتسم ابتسامته الصفراء ، فقال شهريار في نفسه : لقـــد اتت

الساعة . ومشى يزدجرد الى وسائده فجلس بينها ثم التفت الى برسي قائلا: ماذا فعلت ايها الخصي الخائن ؟

– انا يا مولاي .. وماذا فعلت ؟

فأومأ الى سنجان يقول له : اذكر لهذا اللعين ما سمعت .

فقال : ألم تقل لشهريار ان يتهيأ للفرار ؟

فتردد قليلا ثم قال : بلى ، قلت ذلك لخاطر خطر لي .

– اذكر للملك ما خطر لك .

– أردت ان اتبين امر هذا الرجل واتلمس اخلاصه لمولاي .

– وماذا رأيت ؟

– رأيت ان هذا الاخلاص لا شك فيه !.

– والاسلام الذي اقسمت ان الموت لا يفصلك عنه ؟

فأحس المسكين انه عاجز عن الجواب ، فقال : أما الاسلام الذي ذكرت فله حكاية يقصها عليك شهريار ..

– بل تقصها انت ..

– لا اجسر على ذلك .

فأدرك شهريار ان قريحة برسي بخلت عليه بجواب يضمحل معه غضب يزدجرد فقال : أيأذن لي الملك في الكلام ؟

فأشار عليه بان يفعل فقال : سأذكر كل شيء كما جرى يا مولاي .

– وهذا ما نريده .

قال : طلب الي برسي ان يخرجني من المعسكر عندما يبلغ الجيش جبل جبل الزهاد فعرفت انه يهزأ بي وهو يريد ان يقرأ ما في الصدر ..

– ولكنك سألته ان يتعجل في إخراجك .

– بل سألته ان نخرج نحن الاثنين في ساعة واحدة ..

– ومعنى هذا ؟

– معناه يا مولاي اني كنت اهزأ به كما كان يهزأ بي ..

– بقي ان تذكر الحكاية التي لم يجسر هو على ذكرها .

– انها حكاية يغضب لها الملك وانا اخشى غضبه فقهقه ثم قال : اما الملك فقد غضب وانتهى الأمر .. اذكر كل شيء .

قال : عندما نقل برسي الى الملكْ خبر الفتاة ، ايقنت بان مولاي وثق بي ، وطاب لي عندئذ ان اداعب هذا الرجل الذي يتهمني بالخيانة واستخف به !.

واشار الى سنجان : قال : وكيف ذلك ؟

– رأيت سنجان يدخل خيمته ، فقلت لبرسي : هذا سنجان قد اقبل فساعدني في العبث به ، قال : بماذا ؟ قلت انه يبغضني ولا يطيق ان يقربني الملك اليه ، . قال : وماذا تصنع؟ قلت اسألك الآن عن الاسلام وارفع صوتي، فتظهر لي انك مسلم وقدعاهدت العرب على الوفاء لاسلامك.. فيضطرب هو في خيمته، وينقل حديثنا الى الملك ، فيضحك من جنونه .. ويكون له في هذا الحديث شيء من العزاء ..

وانت ماذا تقول يا برسي ؟

– هذا ما حدث يا مولاي ..

– ولم ترَ ما تسرّ به مولاك غير التحدث بالاسلام الذي هو عدو دينك ؟

– هذا ما فعله شهريار يا مولاي ولم يكن لي رأي فيه !

– ولكنك شاركته فيا فعل، واقسمت في خيمة الملك ان الموت احب اليك من ان تخون هؤلاء الفاتحين .

فجعل ينظر الى شهريار نظرات فيها العزيمة الصادقة ..
ثم قال : أتريد ان تعلم كل شيء ايها الملك ؟
– نعم فلا تتردّد في القول .
– إذن فأعلم اني مسلم فأعمد الى سيفك ان شئت !..

فمزق يزدجرد وسادةً كانت بين يديه وتمتم قائلا : ويلك يا ملك فارس ! يستخف بك الخصيان وتعيش ؟!.

وكاد صوته يختنق في صدره وهو يقول لسنجان : ادعُ اربعة رجال من

حراس الملك ، فارتسمت دلائل الفرح الوحشي على وجه الرجل وخرج يدعو رجاله ، ثم عاد وهم وراءه والسيوف في الأيدي .

فقال يزدجرد وهو يطوي سوطه بيده: اصبغوا ارض هذه الخيمة بدماء هذا الخراساني .

فقال أحدهم : أنقتله يا مولانا ؟

فرفع صوته قائلاً : وهل دعوناك لتكون وصيفاً له ..؟ اقتلوه ..

فتظاهر شهريار بانه يحتمي ببرسي وقال له : لا تنسَ . ثم تراجع قليلاً وهو يقول : لي كلمة اقولها ايها الملك قبل ان اموت .

وكان جسم الملك يهتز من الغضب ، فقال :

بقي لك من العمر لحظة واحدة فقل ما تشاء ..

قال : اتذكر يا يزدجرد ذلك الفتى الخراساني ، الذي جثا على ركبتيه عند قدميك ، وانت في بلاطك في المدائن ، وطلب اليك ان تزف اليه جهان روز ابنة القائد ابان زرد الذي قتل في القادسية وهو يدافع عن عرشك ؟؟

أتذكر ان ذلك الفتى كان يقول لك : ان ابان زرد نفسه هو الذي اوصاه بان يتزوج ابنته وعهد اليه في ان ينقل وصيته اليك .. ولكن أتذكر ، انك احتفظت بالفتاة لنفسك ، وجلعتها حظية لك، لتنتهك حرمتها، وتجعلها مضغة في الافواه ثم لتقذف بهابعد ذلك يا ظالم الى القبر؟. انك تذكر كل ذلك ولكنك لا تعلم ان ذلك الخراساني الذي طردته من بلاطك وسلبته جهان‌روز هو شهريار نفسه الذي يخاطبك الان .! فأومأ الى الحراس بان يضربوه ، فمشى حتى حاذى يزدجرد وجعل يقول : اما وقد حكمت عليّ بالموت ، فاعلم اني لا اريد ان اموت الا بعد ان تعلم انت ويعلم من حولك ، اني أموت وأنا مسلم ، وانك لا تستطيع ان ترى اليتيمة المنكودة الحظ بعد موتي، وان أجلك قد دنا يايزدجرد الغدار..

فنهض الملك الثائر ودفعه الى الوراء ..

وهوت السيوف عندئذ ففصلت اعضاءه عضواً عضواً عن جسده، ثم جعلت تعلو وتسقط على عنقه ورأسه وكان قد أسلم الروح !!.

وسالت دماءه حتى صبغت ثياب يزدجرد ووسائده ..

ولكن برسي .. ذلك الخصي الضعيف الذي اشرق نور الايمان في قلبه ... والذي لم يكن يريد ان يخون ملكه ، لم يقع على الأرض من خوفه ، ولم يرتفع له صوت !!. لقد جعله الاسلام جباراً لا يلوي له عود .. وكان سنجان ينتظر حكم الملك الاخر بالقضاء على الرجل . ولكن يزدجرد كان أبعد نظراً منه فقد أراد ان يعذب الخصي حياته كلها ليتعلم الخصيان والمستشارون والقواد ، الخضوع لملكهم والاخلاص له حتى الموت !! فقال لسنجان : احتفظ بهذا الخائن عمرك كله ، فاذا متّ فاوص بنيك بان يحتفظوا به ويعذبوه كل يوم !! وخرج قائلاً : اضربوا هذه الخيمة في مكان آخر كي لا تبصر عيناي دم مسلم ، واجعلوا في عنق هذا اللعين سلسلة يجر بها منذ الان !! وأحسّ عندئذ بان نفسه الظمآئة الى دماء المسلمين قد ارتوت ، وان الحقد الذي يتأجج في صدره قد خمدت ناره .. ولكن لم تمرّ ساعة حتى ذكر ابنته التي ستمسي زوجة لمسلم .. وعادت الكآبة والألم ينهشان فؤاده .

* * *

- ٥١ -

كان ماهويه قد بعث برجل من رجاله ، يتبين أمر الجيش الزاحف يزدجرد على رأسه الى مرو الشاهجان . ومرت الايام وهو ينتظر رجوعه حتى أقبل وماهويه في مجلسه ، وعنده ولده براز ووجوه قومه فقال للرجل : ما وراءك ؟

– ورائي يزدجرد وجنوده .

– وعددهم ؟

– الفان . نصفهم من ابناء الأمراء عليهم فرخزاذ .

– والنصف الاخر ؟

– رجال خراذمهر صاحب جبل الزهاد وسنجان ابن اخيك على المقدمة مع طائفة من الفتيان الذين جعلهم الأمراء رهائن لدى الملك .

قال : أتعرف نيزك صاحب الولاية التي هي وراء حدود المروين ؟

وكان نيزك بطلاً من ابطال فارس ، دخلت العرب ولايته صلحاً ، وآنست فيه الوفاء لها ، فاعترفت له بحقه ولم تعرض له بسوء .

فقال الرجل : اعرفه يا مولاي واعرف معظم رجاله .

قال : ارسلنا اليه كتاباً ندعوه فيه الى المجيء ولم يعد الغلام الذي ارسلناه وقد مرّ شهر على ذهابه ..

– وماذا تريد الان ؟

– اريد ان تلحق به ..

قال : افعل يا مولاي ، أفتكتب كتاباً آخر ؟

– لا نكتب شيئاً بل نجعلك رسولاً تتكلم باسم مولاك وقد عرفت الغاية وكان ماهويه قد كتب اليه : لقد انتهى اليّ ان يزدجرد سيجيء الى مرو ، فهذا كتابي اعاهدك فيه على ان أفي لك كل يوم بألف درهم ، اذا انت أرحتني منه ، واني ادعوك الى القدوم مع جيشك لننظر في الأمر . وسأله في آخر كتابه ان يكتب هو الى يزدجرد ، ويخدعه بقوله : انه عوّل على ان يكون عوناً له على عدوه من العرب حتى يقهر ذلك العدو ويطلب اليه ان ينحي عنه فرخزاذ وعامة الجند ..

فخرج الرجل واقبل ماهويه يهامس ولده واهل مشورته ، ويضع بالاشتراك معهم ذلك المنهاج الذين سيلجأون اليه بعد قدوم الملك ، كما سيجيء . ولم يلبث حتى اختار بضعة رجال من رجال الرأي، يرافقونه في المهمة الخطرة التي خطرت له. ثم عمد القوم الى اعداد العدة داخل الأسوار وأوصى ولده وقواده بالا ينسوا شيئاً مما اوصاهم به.. وبعد ان انقضى ذلك اليوم خرج مع رجاله للقاء ملكه وهو يلبس لباس الوفي الطائع المخلص لمولاه . ومشوا ثلاثة فراسخ ، فأبصروا مقدمة الجيش التي يقودها سنجان ، ولا لواء لها ، كأن الملك لا يريد ان تخفق اعلامه في الفضاء ، الا بعد ان يظفر بالمغتصبين .

فقال ماهويه لرفاقه : تنحوا عن الطريق الى المنحدر القريب فأنا اخشى ان يفاجئنا سنجان بالسيف قبل ان نمثل بين يدي يزدجرد. ومرّ سنجان في طليعته

وهو غافل عما حوله ، ثم أقبل الملك على فرس له وامامه فرخزاذ وخراذمهر ، وحوله كبار الامراء من الفتيان .. وعيناه تنظران الى الارض .

فجثا الوالي ورجاله على ركبهم ، وظلوا ساجدين وقد حنوا الرؤوس حتى داناهم الملك وهو يظن انهم من الصعاليك. فرفع ماهويه عندئذٍ رأسه قائلاً: لقد خدعوك بقولهم يا مولاي اني نسيت ملكي ..!

فأشرق جبينه قائلاً : من هذا ؟

فقال فرخزاذ : هذا ماهويه صاحب مرو يا مولاي .

– صاحب مرو الخاضع للعرب ؟!

فقال ماهويه : بل الخاضع لحفيد الأكاسرة العظيم الذي خانه الزمان ..

– ولكنك اشتريت الولاية بخضوعك للاحنف بن قيس وقد عاهدته على الوفاء للمسلمين ..

– ذلك ما قصّه عليك سنجان يا مولاي .

– ولم تفعل ذلك ؟؟

– بلى ، ولكن على رجاء ان اجعل جند مرو ومن حولها من رجال عوناً للملك على طرد العرب من بلاده !

– ومن اوحى اليك بانك سترى ملكك وتجعل رجالك جنوداً له ؟

– كنت ابحث عنه يا مولاي وقد بعثت برسلي الى جميع الاقاليم يسألون عنك حتى عادوا اخيراً يقولون لي : انك تركت جبل الزهاد مع جيشك تريد مرو .

فنزل عن فرسه وهو يقول : انهض ولينهض رجالك ، ثم قال : ألم تكن قادراً على خدمة الملك دون ان تلجأ الى الاحنف ؟

– لا يا مولاي !

– اذن فالأحنف نفسه هو الذي علمك الاخلاص لقومك !

– اما الاخلاص فلم يفارق هذا الصدر يا مولاي ، ولكني اردت أن أخدع العرب واحملهم على الوثوق بي ليسلموا اليّ امر مرو الشاهجان .

– كان عليك ان ترضى بولاية سنجان ابن اخيك وتشاركه في اعـداد العدة للدفاع عن عرش الفرس .

– لم يجعل لي سنجان سبيلاً الى ذلك .

– ألم يكن مخلصاً لنا ؟

– قد يكون مخلصاً يا مولاي ولكنه لم يشأ ان نكون نحن من المخلصين ..

– وكيف ذلك ؟

– منع عني جميع اسباب العيش وأحاطني برجاله !

– وهذا معناه انه كان يخشى ان تخرج عن الطاعة .

– بل كان يخشى ان اعرض لنفوذه في الولاية .

– وقد لقي اخيراً مـا كان يخشاه وتم لك الامر بفضل الاحنف كما اردت .

– اجـل يا مولاي ، لقد تم لي الأمر كما قلت ، ولكنني لم افعـل ذلك الا لأجل الدفاع عن نفسي .

– اي انك اردت ان تسترجع نفوذك في مرو ؟

– نعم !

– وماذا صنعت بالمال الذي ارسله الملك الى ابن اخيك ؟

– لم أرَ شيئاً من هذا المال يا مولاي .

– ألم تبح للاحنف بأمره ؟

– بحت له بذلك ليؤمن بوفائي وهذا مظهر من مظاهر الدهاء .

فقال : تضيّع مال الملك ليثق بك هذا العربي ؟

– أبذل هذا المال اليوم ، على امل ان استرجعه غداً بقوة السيف .

فقال لفرخزاذ : ماذا ترى ايها القائد ؟

فهامسه قائلاً : لا اثق بما يقوله لأني اقرأ الخيانة في عينيه ..

– وما هي غايته من خضوعه ؟

– لا اعلم يا مولاي فقد تكون له غاية لا تظهر الا بعد حين .

قال : خير للملك ان يأخذ منه ولا يعطيه .

– ليفعل الملك ما يشاء فالرأي رأيه .

قال : ماذا تطلب الآن يا ماهويه ؟

- لا أطلب شيئاً يا مولاي .. بلى .. اطلب ان يظفر الملك بأعدائه .

- لا يظفر الملك بمن ذكرت الا اذا مشت وراءه الجيوش من اهل فارس .. كم هو جيشك ؟

- في المدينة ثلاثة آلاف يا مولاي عدّتهم كاملة !!

- وخارج المدينة ؟

- جميع القوم خارج المدينة جنود الملك .

وتفعل الآن ما نأمرك به ؟

- لو لم تكن هذه غايتي لما قدمت .

قال : اسمع .. لقد ولينا قائدنا فرخزاذ امر مرو منذ الساعة !

ولم يكن ماهويه يخاف احداً مثلما يخاف فرخزاذ وسنجان .

هذا داهية ينصب له الشرك ولا يبالي بالدماء التي تهرق حوله ، والآخر بطل من ابطال فارس لا يتراجع الى الوراء .

وقد يحبط مسعاه اذا لم يتدبر امر الاثنين، فقال : رضيت بذلك يا مولاي .

- وتدفع اليه مفاتيح المدينة ؟

- نعم ولكني اخاف ان يسألك اهل المدينة غداً ان تبعد سنجان ابن اخي لأنهم لا يحبونه ولا يطيقون ان يروا وجهه .

- سننظر في امر سنجان عندما يسألوننا ذلك .. تقدم الجيش الآن ومر الحراس بان يفتحوا لأبواب للملك .

- بل أسير في ركابك يا مولاي خوفاً من ان تقع عيني على عين ابن اخي ، فلسوء العاقبة . !

قال : تناسَ الآن ابن اخيك وكن عوناً له في خدمة مولاك .

- لا استطيع ان اتناسى ما فعله يا مولاي .

- وماذا فعل ؟

- أحصى عليّ انفاسي وسلبني مالي وهو يزعم انه مال اهل فارس .

قال : ستلتقيه خارج السور بعد ساعة .

– التقيه والملك حاضر فلا تشهر السيوف .

قال : احذر ان تسيء اليه فالملك لا يأذن في ذلك .

– واذا خطر له هو ان يسيء اليّ ؟

– انه لا يقدم على هذا الا اذا امرناه به .

قال : سترى بعينيك يا مولاي اني لا اخالفك في شيء .

قال : اعط ماهويه فرساً يا خراذمهر .

فاعطوه ، فركب فرسه وراء يزدجرد ومشى رجاله وراءه مع الفتيان الأشراف الذين أتوا ليسترجعوا التاج !!!

* * *

- ٥٢ -

سار عبدالله بن عامر ، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس يريد اقليم نيسابور ، كما قرأت في الجزء الماضي فلما انتهى الى البسطين اللذين هما حصنا خراسان ، اقبل اهلها يصالحونه على ستمائة الف درهم ويعدونه بالخضوع الى الابد ، خضوعاً لا تعقبه خيانة ولا رياء فيه .

ولم يكن أهل البسطين رجال ثورة وشر . ولم يخطر لهم ان يحملوا لواء العصيان ، لو لم يخدعهم سنجان باكاذيبه ويدفعهم الى ذلك .

كان يقول لهم : ان الملك سيسترجع عرشه في هذا العام فالويل لمن تحدثه النفس بالبقاء على الولاء والطاعة للعرب .. وقد عرف والي البصرة ذلك، فرضي بالصلح واوصاهم بأن يقيدوا بالسلاسل كل فارسي ينفخ في صدورهم روح العداء . وبعث بطائفة من رجاله الى ولاية صغيرة من اعمال نيسابور يقال لها ولاية زام ، ففتحوها عنوة واخضعوا أهلها بالسيف. ثم فتح باخرز، وجوين ، وما حولها ، وارسل الاسود بن كلثوم العدوي الى اقليم بيهق وامره بأن يهدم حصونه ، ويضرب اهله المتمردين ضربة لا يرتفع لهم بعدها صوت . وكان الاسود بطلا

مغواراً يقتحم الصفوف وسيفه بيده لا يبالي بالرماح تلمع عن جانبيه ، والسهام ترسل إليه .

فجعل يعالج الاسوار ، والقوم في مدينتهم ، حتى فتح فيها ثلمة دخل منها ومعه طائفة من المسلمين . ولكن هذا الدخول كلفه حياته .. فان العدو اخذ عليه تلك الثلمة التي فتحها، وجعلته الرجال في الداخل، ضمن نطاق من الحراب والسيوف . فقاتل الاسود الجبار حتى قتل وهوت حوله الرجال الذين معه جثثاً مضرجة بالدماء وقام بأمر الناس بعده اخوه أدهم بن كلثوم . وكان الأسود يقول قبل موته : اللهمّ احشرني في بطون الطير والسباع !!

فلما خلفه اخوه ، امر رجاله بأن تهاجم المدينة ، من تلك الناحية التي قتل فيها الاسود وتقدمهم قائلاً : اما ان تهدموا الاسوار او تموتوا !! وكتب لأدهم الظفر ، ففتح البلد الحصين الذي لجأ اليه أهل بيهق ، واجرى في سوقه نهراً من الدماء . وكانت جثة اخيه ، وجثث رفاقه ، عند الجدار ، فدفن من استشهد من أصحابه ، ولم يحفر لأخيه حفرة بل اراد ان يجعل بطون السباع والطير قبراً له كما قال !!

وكان جيش ابن عامر قد افتتح بشست ، وخواف وارعيان ، وطوس ، ونسا وحمران ، وكل هذه الاقاليم والمدن من أعمال نيسابور . ثم مشى عبدالله الى نيسابور العاصمة ، بعدما افتتح أعمالها وأقاليمها ، فحصر اهلها شهراً حتى ضاقت صدور القوم . ولكنهم لم يستسلموا ولم يستطع ابن عامر ان يحطم الاسوار ..

وكان ولاة العاصمة اربعة رجال من مرازبة الفرس ، لكل واحد منهم ربع البلد لا يجاوزه الى سواه . فلما رأى احدهم ان المسلمين لا يتراجعون ، وانهم ان لم يفتحوا البلد اليوم فتحوه غداً، بعث الى عبدالله برجل يقول له: عدني بالامارة فيدخل المسلمون . فوعده بذلك ، ولم يجنّ الليل ، حتى دخل الجيش دخول الظافر يقتل ويسبي ويضع يده على كل شيء . وقد تحصن المرازبة الآخرون واستولى عليهم الذعر . على انهم لجأوا ، عندما طلع الصباح ، الى طلب الصلح فأجابهم امير البصرة الى ما طلبوه ، على ان يدفعوا اليه الف الف درهم .

وبعد ان استقام له الامر، ولى قيس بن الهيثم السلمي امر نيسابور كلها، وسير جيشاً الى سرخس ثم الى هراة، بقيادة عبدالله بن خازم، فامعن الرجل في الفتح حتى دانت للعرب، تلك الناحية الواسعة الارجاء، من خراسان. ولم يبق غير تلك الناحية الاخرى، التي تضم اقليم طخارستان واقليمين آخرين فيهما الجيش الكثير. وكان سعيد بن العاص والي الكوفة قد انتهى مع جيشه الى جرحان. فلما بلغه نزول ابن عامر عاصمة نيسابور، رجع الى الكوفة وهو يقول لمن حوله: ان امر خراسان قد انتهى الان. وقد هم ابن عامر بارسال الجند الى الاقاليم التي ذكرنا. فبينا هو يسمي القواد ويختار الرجال، اقبل رسول زياد المازني يحمل كتاب مولاه الى الاحنف بن قيس.

وكان الاحنف عندئذ في مجلس عبدالله، فقرأ كتاب زياد على مسمع من القوم وقد جاء فيه: خبرني احد خصيان الملك وقد دخل في الاسلام، ان هذا الملك زاحف الى مرو الشاهجان بألفي رجل وان القوم حولها سينضمون اليه حتى يمسي جيشه بضعة عشر الفاً فالرأي الرأي.

ولم ينته من القراءة، حتى نهض ويده على سيفه وجعل يقول: لقد ظهر يزدجرد اخيراً فلم يبق الا ان اعود. فابتسم عبدالله قائلاً: الي اين؟

– الى مرو الشاهجان لأقبض على يزدجرد وابعث به، وعلى رأسه تاج فارس، الى أمير المؤمنين!

– اما انا فلم اصدق كلمة واحدة من كتاب زياد.

– وهل يخطر للرجل ان يخدع اميره؟

– لا، ولكني أظن انه هو المخدوع، وان ذلك الخصي الذي ذكره في كتابه تظاهر باعتناق الاسلام ليثق زياد بوفائه.

قال لا يجسر على ان يفعل هذا.

– بل يفعله اذا دفعوه اليه.

– ومن يدفعه؟

– اولئك الذين اوقدوا نار الثورة والحرب في جميع الاقطار، وعلى رأسهم يزدجرد نفسه الذي نبحث عنه ولا نعثر عليه.

– وما هي غايتهم من القول ان يزدجرد زاحف الى مرو ؟

– لهم من وراء ذلك غـاية يعرفها رجال الميادين، هي انهم ارادو ان تتفرق قوى المسلمين ويبعد هذا الجيش عن الجيش الآخر .

ثم قال : اسمع يا ابن قيس ، يقولون اليوم لأمير البصرة : ان الملك الفارسي خرج من وراء الجدران وحمل سيفه وهو يرغب في القتال فيعمد هذا الامير الى ارسال طائفة من جيشه الى الموضع الذي يصفونه له فلا تجد هذه الطائفة احداً . ثم يقولون له : لقد انتقل الملك الى بلد آخر فيبعث الامير بجنوده الى ذلك البلد ولكنهم لا يجدون احداً وعندما يرون ان القوى قد تفرقت ، يهاجمون المسلمين من كل ناحية ويمحونهم من الوجود . هذا ما يصنعه القوم يا ابن قيس ويخيل اليّ ان الرجل الذي نقل الى زياد خبر الملك واحد من هؤلاء .

– وتراهم يريـدون ان يخرج من نيسابور الى مرو ، فريق من الجيش الفاتح لتضعف قواه ؟ – نعم !

قال : اخشى ان يكون الأمر غير ماظننت .

– وأنا اخشى ان تؤمن بما قرأت ، ثم تذهب الى مرو فلا تجد فيها أثراً للمك.

– ومع ذلك فلا بد من المسير غـداً فقد يظفر المسلمون بالقبض على عدوهم الذي ضيع نصف اهل فارس .

قال : إن امير الجيش لا يأذن لك في الذهاب . – لماذا ؟

– لان الفتح لم يتم كما يريد امير المؤمنين ونريد نحن .

قـال : في الجيش قواد تخفق فوق رؤوسهم كلما خرجوا الى القتال ، ألوية النصر .

– ولكني لا أبعث الى طخارستان واحداً من هؤلاء .

– وتريد ان تبعث بي اليها ؟

– اجل فافتحها وافعل بعد ذلك ما تشاء .

– ومتى تأمر بذلك ؟

– تقدر ان تسير غداً ولك ان تنصرف منها الى مرو عندما يخضع لك القوم ويعودون الى الطاعة .

قال : هب ان زياداً كان صادقاً فيما كتبه اليّ .
– ليكن صادقاً ولا ابالي .
– واذا استولى يزدجرد على مرو ؟
– نسترجعها بالسيف ونحمل جثة يزدجرد على الاسنة . ان الجيش الذي يخلع حفيد كسرى عن عرشه ، ويخضع بلاد الفرس كلها لسيفه لا تستطيع مرو ان تثبت في وجهه .
– اذن ارحل غداً فليس لي ان اخالف الامير فيما يراه .
– وتقود الى تلك البلاد ثمانية آلاف من الرجال الاشداء ، فتقاتل عندما يطيب لك القتال ، وتعمد الى الصلح عندما يخطر لك .
قال : ستنتهي اليك اخبار الظفر بعد شهر إن شاء الله .
قال : لقد تعود الاحنف ان يشرف قومه فسر فالله ناصرك .
وبات القوم ليلتهم ، على ان يزحف جيش الاحنف عند الصباح الى ذلك الاقليم الذي قرأت ، ووراءه ابطال العرب خواضو الغمرات .

* * *

- ٥٣ -

هذا عمك ماهويه في الجيش ، وقد جاء يعرض علينا المدينة ويظهر خضوعه
فقال سنجان : لقد رأيته الآن يا مولاي فمثلت بين يديك لأسألك عن سبب وجوده واقول لك ما يخطر لي .
– والملك يعلم ما يخطر لك .
ماذا يا مولاي ؟
– أتيت لتسأل مولاك ان يقتله الساعة !
– أجل يا مولاي ، اني ارغب في ذلك واطلب اليك ان تنقذ نفسك وجيشك من شر هذا الغدار .
فابتسم قائلاً : لقد فكرنا فيما تقول ونحن من هذا الرأي .

– ومتى تفعل ذلك ؟

– بعد ان ندخل مرو ويستقيم لنا فيها الامر .

قال : قد لا تستطيع ان تفعل غداً ما تستطيع فعله اليوم .

– ان الرجل في يدنا كما ترى وهو غير قادر على النجاة من الموت .

– بل هو يقدر على كل شيء عندمـــا يصبح في المدينة ، وقد يغدر بك وبقومك في ليلة يمد الظلام فيها رواقه . اني انصح لك يا مولاي بان تضرب عنقه في هذه اللحظة ليخلو لك الجو .

– ولكننا لا نستطيع بعد ذلك ان ندخل مرو ، وقـد سكت الملك عنه الآن من اجل هذه الغاية .

فرأى سنجان ان الملك مصيب في رأيه، فقال: اذن فماهويه سيقتل بعد ذلك.

– كما يقتل كل رجل يخون الملك .

– ووضعت خطة القتل ؟ – أجل !

قال : التمس من مولاي ان يصفها لي .

قال : ندخل المدينة ، فيضع الملك يده على المال والسلاح والجند ، ثم يدعو ماهويه وانصاره ويقول لهم : الموت جزاء كل فارسي يخون وطنه ويماشي العرب ونأمر عندئذ بأن تعلق اجسادهم على باب المدينة ثلاثة ايام ليراها كل مروي .

قال : هذا هو الرأي فليعش الملك. ولكن ارجو ان تتعجل في ذلك قبل ان يفسد الرجل عليك الامر .

قال : اتخافه ؟

– بل اخاف ان ينصب الشرك لمولاي . وقد بقيت لي كلمة اقولها لك .

– ما هي ؟

– هي ان تجعلني سيد القوم بعد دخولك ، فان لي خبرة بأهل مرو وانا اعلم ما لا يعلمه سواي .

– ستكون الولاية لك ولبنيك من بعدك . واما الان فقد وليت رجلاً آخر ولاية لا تدوم الا بضعة ايام .!

– من هو يا مولاي ؟ – فرخزاذ .

– ونسيت عبدك الذي انتهكت حرمته في مرو وسلبوه ماله ؟!

– لا . لم ننس . ولكنه دهاء لجأنا اليه ليثق ماهويه بالملك . ويقوم في ذهنه اننا لا نرغب في ان نوليك .

– وعرف ماهويه انك سلمت الولاية الى قائدك ؟

– نعم فقد فعلنا ذلك وهو موجود وقد رضي به .

– ومتى تدخل مرو ؟

– غداً عندما تطلع الشمس .

– وتركت عمي حراً يروح ويجيء بين صفوف الجيش ؟!

– انه حر ، ولكن بين طائفة من الحراس يحصون عليه أنفاسه ..

ثم قال : ألم تقل لنا يا سنجان ان القوم النازلين حول مرو سيكونون عوناً لنا على عدونا ؟

– بلى يا مولاي ، واقول ذلك الان .

– ومتى يجيئون ؟

– عندما يعلمون ان الملك دخل مرو دخول الظافر !

– ومن قال لك ذلك ؟

– بيني وبينهم عهد يا مولاي وقد رأيت الان رأيـاً هو ان نبعث رجلاً الى مرو الاخرى يتبين أمر المسلمين فيها من وراء الستار ، ويعد الجيش الذي فوض اليه الاحنف أمر الدفاع ..

قال : أصبت وليذهب الليلة فقد ينتقل الملك بعد ايام الى البلد الذي ذكرت اذا قضت الحاجة بذلك ..

وكانت مرو بلداً كبيراً ، له سور ضخم كثير الابراج ، وفي كل برج منها بضعة رجال . ويزدجرد يعرف ذلك ، وقد مرّ بمرو ، وهو فارٌ منذ بضعة أعـــوام ، ونظر الى حصونها نظرة ملك خلعته القوة من العرش . فلما فكـّر في الانتقال الى مرو الروذ نهض قائلاً لسنجان : أتغيرت حصون المدينة ؟

– لا يا مولاي بل هي باقية على الحال التي رأيت .

قال : يخطر لنا ان نطوف ساعة حول السور في هذا الليل .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– ان ننظر الى مرامي الابراج فقد تكرهنا الاقدار على ان نقف في مرو موقف حصار . ! ثم فابعث الى مرو الروذ رجلاً كما قلت وارجع فنحن بانتظارك.

ففعل سنجان ما أمره به ثم عاد ، ولم يلبث الاثنان حتى خرجا ووراءهما حارسان من حراس الملك .

وقد خيل الى يزدجرد ان في الابراج أشباحاً تروح وتجيء .

فقال : ايقيم الرماة بأبراجهم ، في أيام السلم ؟

– لا يا مولاي .

– ولكننا نرى اشباحهم فيها والانوار الضعيفة تبدو وتختفي كما ترى .

فأرسل نظره قائلاً : ذلك امر جديد عمد اليه ماهويه بعد تركي مرو .. ان القوم في الداخل يتهيأون للحرب !

– اجل فهم يخشون ان تفاجئهم خيل العرب .

– بل يخشون ان يفاجئهم ملكهم فهم لا يريدون ان يعترفوا بسلطانه بعد نزوله عن العرش !!

فذعر وجعل يتفرس به وعيناه تختلجان ، ثم قال : ومن دلّك على ذلك ؟

– هذه الانوار في الابراج فقد أمر ماهويه الرماة بان يعدوا عدتهم عند وصول الملك !.

– يفعلون ذلك كما قلنا خوفاً من الأعداء ..

– بل يعدون عدتهم ليمنعوا ملكهم من دخول المدينة .

قال : لقد أملى عليك الحقد هذه الظنون ..

قال : سترى غداً بعينيك كل شيء يا مولاي .

فلم يطق يزدجرد ان يسمع فوق ما سمع ، فقال : ارجع فنحن نريد ان نستسلم الى النوم ليمرّ هذا الليل دون ان نشعر به !

قال : لم ينته طوافك يا مولاي .

– لقد عدلنا الان عن هذا الطواف الذي لا خير فيه .

وانثنى راجعاً الى خيمته ، وهو يفكر فيما قاله سنجان ويترنح في مشيه كما يترنح السكران !! واستلقى على فراشه يسأل سلطان الكرى ان ينقذه ولو لحظة واحدة من مخاوفه وتفكيره ، ولكن ذلك السلطان كان أصم لا يسمع .. فقد بات الملك المسكين على فراش الألم الذي يمزّق صدره حتى طلع الصبح ، ولم يغمض له جفن ..

* * *

- ٥٤ -

أندخل المدينة الان يا ماهويه ؟

– نعم يا مولاي ، فاركب ، وليركب الجيش، ليدخل الملك وهو على فرسه كما كان يدخل المدائن في ايام العز !!

فجعل يردد قائلاً : في أيام العز .. في أيام العز .. ولا نعلم اذا كان هذا العز يعود .

وسار وماهويه بين يديه، ومشى الجيش وراءهما وسنجان في آخر الصفوف، حتى انتهوا الى الباب الاكبر اللابس ثوباً جديداً من الحديد والفولاذ .. ولكنه كان مغلقاً والحراس خلفه . والجنود فوق الاسوار بينهم براز بن ماهويه .

فناداه أبوه قائلاً : افتح يا بني فهذا ملك فارس .. وجعل يشد منطقته ويومىء اليه ان لا يفعل .. فرآه رجل من اصحاب يزدجرد فقال لمولاه هامساً : ان ماهويه يومىء الى ولده ان لا يفتح فاضرب عنقه . فنظر اليه وهو لا يجيب ، فقال : اضرب عنقه يا مولاي .. انك ان فعلت صفت لك الأمور من هذه الناحية من بلادك وظفرت بالمسلمين . فأجابه قائلاً : اذا فعلنا ذلك خسرنا مرو

الى الأبد . وحول وجهه الى ماهويه وقال : اين ما وعدت ايها المرزبان ؟

فنادى ولده ثانية وجعل يقول : افتح يا براز ..

فقال : لا افعل إلا على شرط ..

– ما هو ؟

– ان يقتل الملك سنجان على مرأى من الجيش فنفتح له الابواب ونجثو عند قدميه ساعة دخوله !..

قال : لقد اوصيتك بان تخرج مع اهل المدينة لاستقبال الملك ووعدتني بذلك ووعدني القوم .

– ولكنهم رجعوا الان عن وعدهم لانهم يخافون ان يدخل سنجان ويبدأ بضرب الاعناق ..

قال : لا يجسر على ذلك والملك موجود !

– اما نحن فنخاف ان يحمل الملك نفسه سيف الجلاد !

قال : ألا تعترفون يا اهل مرو بيزدجرد بن شهريار ؟

– بلى ولا نعترف بسواه .

– وتكونون أعواناً له على العرب ؟

– بل نكون عبيداً لعرشه كما كنا من قبل .. ولكن ليقتل سنجان الساعة فنحن لا نطيق ان نراه في مرو .

فقال يزدجرد: قل له ان الملك سينظر فيما تسألونه اياه، عندما يدخل الجيش المدينة ، ويلجأ الى المنازل .

فأعاد ماهويه قوله ، فأجابه براز : لا نرضى بذلك .

قال : يكفي ان الملك يعاهدكم على هذا .

– ولكننا لا نثق بالعهود ، فالملك لا يفعل شيئا وسنجان حي .

قال : أتعمد الى القوة يا مولاي ؟

فقال فرخزاذ : لا ، بل نرجع الى الخيام لننظر في الأمر .. عد يا مولاي فلي ما أقوله لك اذا أردت .

وكان سنجان قد سمع ما ذكره براز ، فدانى الملك قائلاً : اضرب عنقي يا مولاي اذا رأيت ان في ضربه يستقيم لك الأمر . والملك عندئذ مطرق مهموم ، فرفع رأسه وقال: الى الخيام .. امش يا ماهويه فقد نعدل عن الدخول . وساد الصمت الجيش الراجع الى خيامه، كأن موكبه موكب الموت . وبينا الملك يريد ان يستشير قواده ، أقبل رسول يحمل اليه كتاباً ، فقال له : من ارسلك ايهـا الغـلام ؟

– احد عبيد الملك ..

فتمتم قائلاً : لم يبق للملك عبيد .. من هو ؟ – نيزك ..

– صاحب الولاية القائمة على الحدود ؟ – نعم !

– فتناوله وجعل يقرأ ..

ثم افترّ ثغره واشرق جبينه وأومأ الى سنجان ان يدنو منه. فسجد فرخزاذ بين يديه وقال : اقول كلمتي يا مولاي قبل ان تستشير القوم في امر كتابك .

قال : ما هي كلمتك ؟

قال : استصعبت عليك مرو وستأتيك العرب ..

– وما الرأي ؟

– الرأي ان نلحق ببلاد الترك ونقيم بهـا حتى يبين لنا امر العرب فانهم لا يدعون بلداً الا دخلوه ..

قال : لسنا نفعل .

– وماذا إذن ؟

– نرجع من حيث اتينا فملك فارس يكره ، بعد ان خبر الناس، ان يستعين بالملوك ، ولو كانوا حلفاءه .

ثم قال : اذكر لأهل المجلس ما قرأت يا سنجان .

فقال : يقول نيزك في كتابه ، انه آتٍ على رأس جيش ضخم ليساعد الملك في استرجاع مرو . قال هذا وسكت ، فقال الملك : أهذا كل ما قرأت ؟

– لا يا مولاي فنيزك يسأل الملك ان ينحي عنه فرخزاذ وعامة الجند .

فقال فرخزاذ : أنا !

– نعم فهل تعرف الرجل ؟

– اعرف اسمه ..

– إذن فهو لا يريد ان يرجع اليك الفضل في استرجاع العرش .. ليبد كل منكم الآن رأيه ..

فقال سنجان: لست أرى ان تنحيّ عنك جندك وفرخزاذ لشيء من الاشياء ولو كتبت اليك في ذلك ، فارس كلها .

– وانت يا ماهويه ؟

– اما انا فأرى ان تجيب نيزك الى ما طلب، فهو من كبار الفرس وابطالهم كما تعلم ، وستبلغ الغاية بقوة جيشه .

ففكر قليلاً ثم قال : وولدك براز ؟

– سنفتح المدينة على رغمه وانا اضمن ذلك ..

فأعمى القدر بصيرته فقال : قبلنا هذا الرأي !.

فصاح فرخزاذ : أتفرق جندك ايها الملك ؟ – اجل !

– وتنحيني عنك ؟

– نرغب اليك انت ان تتنحى ففي هذا التنحي رجوع ملكك الى عرشه .

– والى اين أذهب ؟

– الى اجمة سرخس فتمكث بها حتى ينتهي اليك امر آخر .

قال : خير لك ان ابقى يا مولاي .

فقال ماهويه: لا يستطيع الملك اغضاب نيزك وهو الذي سيسترجع التاج..

فشق فرخزاذ جيبه وتناول عموداً بين يديه يريد ضرب ماهويه به .

فوقف الملك بين الاثنين قائلاً : ماذا تصنع ايها القائد ؟

– اقتل هذا الرجل ثم انصرف .. ثم قال : يا قتلة الملوك .. قتلتم ملكين واظنكم قاتلي هذا .

والتفت الى الملك وجعل يقول : لا اذهب يا مولاي حتى تكتب لي عهداً اني بريء مما تصنع فكتب له يزدجرد كتاباً جاء فيه : « هذا كتاب لفرخزاذ انك قد سلمت يزدجرد واهله وولده وحاشيته ومـا معه الى ماهويه دهقان مرو » . ووضع خاتمه في ذيـــل الكتاب ودفعه اليه، فقال : اني ذاهب ايها الملك فاذكر اني نصحت لك بأن ترفض هذا الرأي ، فلم تقبل .

وخرج دون ان ينظر الى احد .

فاكتفى الملك المسكين بان يشيعه بنظرات طائشة ليس فيها لون واحد من الوان العاطفة هي نظرات التائه الذاهل الذي خسر حكمته .. بـــل نظرات المجنون الذي خسر عقله .. وقلب ماهويه يرقص في صدره من الفرح، وهو يقول في نفسه : بقي علينا سنجان وينتهي امره .. وبعد ساعة، خرج الملك من خيمته ينظر الى الفضاء ويستوحي الآلهة وكأنه لا يستطيع ان يصبر الى المساء لتنصرف عامة جنده مع خراذمهر القائد الآخر المخلص له .

وتبعه خراذمهر وسنجان وهما يقولان : نرجو من مولانا الملك ان يفكر في امره قبل ان يخيب الرجاء . فقال : لقد فكرّنا فيه وانتهى الآن كل شيء .

– ولكنك سلمت نفسك الى عدوك .

– من قال ان نيزك عدونا ؟؟ هذا امير من امراء فارس جاء يعرض سيفه على الملك دون ان يخطر لنا من قبل ان يجود بهذا السيف. أفيكافئه الملك على اخلاصه بان يدعوه عدواً له ؟

فقال سنجان : يخيل اليّ يا مولاي انه شريك ماهويه .

قال : سنجعل ماهويه وولده طعاماً للطير بعد ايام .

– اما انا فأقول لك انك لا تستطيع ان تفعل ذلك .

– لماذا ؟

– لان الرجل سيكون اسبق اليك ، منك اليه ، وسترى .

قال : كفى يا سنجان فلا خير في الحياة مع الذل .. اننا لنؤثر ان يقتلنا الخونة من اهل فارس ، على ان تقبض العرب علينا وتبعث بنا الى الحجاز لنمثل بين يدي اميرها كما يمثل العبد امام مولاه .

وكانت لهجة الملك هذه المرة لهجة يائس لم يبق له في عالمه ما يطمع به . بل كانت لهجة محتضر يلفظ كلماته مع روحه .

فقال : ارجع الى نفسك يا مولاي واسمع لقوادك ..

– وماذا يطلب هؤلاء القواد ؟

– ان تلحق بهم الى موضع يجاور مرو لنجمع فيه الجيش الذي وعدناك به ، ثم نعود على رأسه فندك الاسوار التي لم يفتحوها لك .

قال : اذا فعلنا ذلك جعلنا نيزك من الاعداء .

– ولكنه من هؤلاء يا مولاي .

فأومأ اليه بأن يسكت ، ثم جعل يروح ويجيء دون ان يكون له هدف أو غاية وهو لا ينظر الا الى الأرض والى السماء ..

واحسّ بعد ساعة انه بحاجة الى الراحة ، فعاد الى خيمته ومنع الناس من الاستئذان عليه حتى اقبل المساء . فخطر له عندئذ ان يخاطب قائديه فقال لحاجبه : ادعُ سنجان وخراذمهر ، واخذ يضرب ارض الخيمة بصوته منتظراً دخولهما . وما هي غير لحظة حتى رجع الحاجب وقال : لقد خرج الاثنان من المعسكر !!

قال : ويلك انهما لا يخرجان بدون ان نأذن لهما ، اسأل الحراس ..

– سألتهم يا مولاي .

– وهم الذين قالوا لك ذلك ؟

– نعم والجيش كله يعلم انهما تركا مرو .

– ورجال خراذمهر ؟

– انهم ينصرفون الساعة عملاً بأمر الملك ..

– اذن لا يبقى حول الملك في هذا الليل غير ابناء الامراء الذين لا قائد لهم !

قال : ذهب بعضهم يا مولاي .

فخنقه الدمع ، وأحس عندئذٍ بالندم يمزق صدره ، وكان عزة نفسه تمنعه من ان يبعث الرجال ليسألوا قائديه ان يرجعا . ولم يمر على يزدجرد ، ليلٌ أعظم أثراً في نفسه من ذلك الليل ..

* * *

- ٥٥ -

افتح الأبواب يا ماهويه فقد انصرف سنجان .

قال : لقد اقبل نيزك يا مولاي وستدخلها معه ولواء فارس يخفق فوق رأسك ، والأقدار تبسم لك !

– واين نيزك الآن ؟

– بعث رجلاً من رجاله ينقل الينا انه في موضع بين المروين يقال له ، جلبندان ، وقد رأيت رأياً .

– ما هو ؟

– ان يشتري الملك ولاءه ووفاءه بالقليل من الدهاء .

– ولكنه مقيم على الولاء كما جاء في كتابه .

– اجل ، غيران القواد الذين لم يخوضوا الميادين في سبيل استرجاع العرش ، يطيب لهم ان يخصهم الملك بمظهر من مظاهر الحب .

– وكيف ذلك ؟

– يخرج مولاي للقائه !

قال : لم يفعل ذلك من قبل ملك من ملوك الفرس .

– اصبت يا مولاي لم يفعلوا ذلك لأن النصر كان حليفاً لهم في كل زمان ومكان ، ولأن الاقدار لم تنته بهم الى مثل هذا الموقف الذي انتهيت انت اليه .

فهزّ رأسه قائلاً : صدقت يا ماهويه ان الملوك الذين جلسوا قبلنا على عرش فارس لم يجر عليهم الزمان ... اجـــل صدقت وانـّا سنخرج للقـاء صاحبك عندما تشاء .

– وأرى ان يلقاه مولاي بالسلاح فينفر عنه ويشك فيه .

– وماذا نصنع ؟

– تأمر الجيش فيحمل مزاميره وابواقه ويسير لاستقبـاله كما يسير لاستقبال قائد بعيد الصوت عظيم الشأن !

– تفعل هذا ايضاً ولا تبالِ بما يقال .

– ونخرج غداً قبل بزوغ الفجر ؟

– قبل بزوغ الفجر ..

قال : لم يبق اذن يا مولاي الا ان أعدّ للموكب عدته .

قال : اخرج .

فمضى ماهويه ولم يلبث حتى ارسل رجلاً من رجاله الأربعة الى نيزك ، يطلعه على ما جرى ، ويسأله تنفيذ خطة جديدة كتبها اليه . وقضى نهاره ينظم صفوفه حتى جاء الليل فبعث الى ولده يقول له : افتحوا أبوابكم فالملك راحل غداً . ولم يبزغ الفجر حتى خرج موكب الاستقبال يتقدمه الملك فكأن نيزك هو الملك ويزدجرد قائد من قواده . وقبل ان ينتهوا الى جليندان ، تراجع ماهويه وهو يتظاهر بان تراجعه لأمر من امور الجيش .

وكان نيزك قد عرف كل شيء ، بعد ان قرأ كتاب ابي براز فجعل اصحابه ، من نواحٍ ثلاث ، صفوفاً الواحد منها وراء الآخر ، وأقبل ماشياً يستقبل ملك

الملوك ، وهو ينظر الى الأرض والابتسامة لا تفارق شفتيه . وكان يزدجرد على فرس له ، فلما تدانيا ، مدّ الملك يده اليه وهو راكب ، ثم امر له بجنيبة من جنائبه فركبها وسار الاثنان بين الصفوف . وخيل الى حفيد الاكاسرة عندئذ ، انه يرى عرشه على عمد العاج تتلألأ الجواهر والذهب على جوانبه . بل خيل اليه انه في بلاطه على ذلك العرش ، وقد دانت العرب والفرس من جديد ! فلما توسطا الساحة ، تلاحمت صفوف نيزك ، وتأخر جيش الملك .. وكان القائد يحادث مولاه ويعلله بالوعود والامل ... والملك ينظر اليه نظرات الرضى والاعجاب ... ثم قال له : ان عدو الفرس قوي كما تعلم ، فهل تستطيع ان تظفر به ؟

قال : سيرى الملك ان هذا العدو اضعف من ان يجول معي جولة واحدة .. ان ورائي مئة الف يا مولاي !

- ولكننا لا نرى غير بضعة آلاف .

قال : لسنا الآن في ساحة القتال ..

- وأين هو الجيش الذي ذكرت ؟

- في كل بلد طوائف منه تحمل السيوف .

- وهو يعطيك ؟

- بل احركه عندما أشاء كما أحرك بيدي هذا السوط الذي تراه .

ثم خفض صوته قائلا : ولكني أسألك قضاء أمر يا مولاي .

فاستيقظت العظمة والكبرياء في نفس الملك المغرور وقال : لا يتردد الملك في قضاء الأمر الذي تسأله اياه .

قال : ان القائد الذي يسترجع عرش الاكاسرة يحتاج الى عطف خاص لم ينله من قبلُ الا الملوك .

قال : اذكر حاجتك .

قال : زوجني احدى بناتك فاقاتل معك عدوك الى الابد ..

فأطلت الكبرياء من عينيه وقال : وعليّ تجترىء ايها النذل ؟؟!

وهي كلمة دفعهـا القدر الى شفتي يزدجرد ، ليقذف به بعدها الى الهوة .. فتراجع نيزك الى الوراء ، ثم عمـد الى سوطه وجعـل يؤدب الملك به ! ذلك هو القدر الساخر الذي يذل الاعزاء ويحط الملوك عن العروش.. فصاح يزدجرد قائلاً : غدر الغادر . وركض فرسه ، فانفرجت له الصفوف ليفرّ .. ووضع اصحاب نيزك سيوفهم في اصحابه الفتيان فقتلوا من قتلوا منهم، ولجأت البقية الباقية الى الهرب .. وكان الناظر الى يزدجرد الفـار يرى رجلين يتبعانه على فرسيهما وهما يخافان ان يضيعاه ...

* * *

-٥٦-

انتهى يزدجرد في هزيمته الى مكان على المرغاب لا يبعد عن منزل شهريار غير فرسخ واحد . وكان هنالك بيت لطحان ، فنزل عن فرسه وقد أحس بالتعب والضعف ودخل قائلاً لصاحب المنزل : غريب نهك السفر قواه يسألك ان تقبله في بيتك ريثما يستعيد هـــذه القوى !! فجعل الطحان يتفرس فيه وقد أعجبه منظره ، وهاله اصفرار وجهه ، وآثار التعب البادية على جبينه ، ثم قال : من أنت ايها الرجل ؟!

– شقي كما ترى .

– وهل كنت في ساحة القتال ؟

– اجل واني قادم من نيسابور .

قال : يظهر ان المسلمين هم الظافرون .

– لم يظفروا بعد ولكني خفت ان يتم لهم الظفر .

قال : سمعت ان الملك في مرو الاولى لا يلبث حتى يجيء الى جليندان للقاء قائد يدعى نيزك .

قال : لا أعرف هذا الملك الذي نشقى من اجله وأجل عرشه .

– يكفي ان تعلم انه ملك خسر هذا العرش .. فتظاهر بأنـه يشد منطقته وكان يقول بل خسر كل شيء ولم يبق له امل باسترجاع ماضيه ..

قال : أتعرفه أنت ؟

– رأيته منذ خمسة عشر عاماً في المدائن .

– يقولون انه جذاب الملامح حسن الوجه .

– كان كما تقول ، اما اليوم فقد نقلوا اليّ ان ذلك الحسن امسى قبيحاً .! ثم قال : اجعل لي في منزلك مكاناً اسند اليه رأسي ..

قال : ادخل هذه الحجرة ففيها فراش تستلقي عليه .

ولكن ماذا تصنع بهذه الفرس فهي تدل عليك .

– اذا اردت ان تخفيها عن العيون فافعل .

– سأجعلها في الفناء الصغير القائم على الشاطيء .. ادخل وانا اهتم لأمرهـا واذا اضطررت دفعتها الى النهر ..

قال : افعل ما تشاء .

ومشى الى الحجرة الصغيرة التي تحاذي الماء ، وكان فيها فرش كما قـال الطحان ، ولها نافذة تطل على المرغاب . وجعل يبكي بـكاء اليائس الذي يرى الموت ماثلا امام عينيه ، ثم استسلم الى النوم على رغم يـأسه الذي لا علاج له . وانصرف الطحان الى عمله . وكان الرجلان اللذان لحقا به، قد ضيعا أثره . على ان الاقدار لم تشأ ان ينجو ، فقد أقبل في ذلك اليوم على منزل الطحان رجل من اهل مرو ومن اصحاب ماهويه ، وكان راجعاً الى بلده ، من مهمة له ، وقد قضى يومه في ذلك المنزل ورأى يزدجرد عند المساء جالساً في فراشه وفي احـد اصابع يده اليمنى خاتم وفي يده اليسرى سوار من ذهب . ولم يخطر ليزدجرد ،

عند دخوله المنزل ان ينزعها من يـــديه . كما ان الطحان لم يراهما ولم يرَ ذينك القرطين في اذنيه . فقال الرجل في نفسه : انه من عظماء فارس وقد احتجب في منزل الطحان ، خائفاً من عدو له ، ولم يسأل الطحان عنه الا عندمـــا اراد الانصراف ، ولكنه لم يعلم شيئاً مما اراد لان الطحان لم يكن يعلم من هو .

وكان ماهويه ، قد عتب الرجلين الذين ارسلهما في اثر يزدجرد وهم بان يبعث رجلين آخرين يبحثان عنه . فلما انتهى الرجل الى مرو ، رأى مـــاهويه ونيزك راجعين من جليندان كأنهما راجعان مـــن ساحات الظفر . فصبر حتى دخلا المدينة ولجأ الى القصر . ثم مثل بين يدي ماهويه ، يستعيد عن فمه ، حكاية فرار الملك التي رواها له اهل مرو ، ويشاركه في فرحه . ولكن ماهويه لم يكن فرحاً كما ظن ، بل كان يقول : ان فرار الملك خيبة وفشل ، فقال اني لا أعرف الملك ايها الامير فهل تصفه لي .

فالتفت رجل من رجاله قائلاً : صفه له ؟

فقال رجل جعد ، حسن الثنايا ، ملح الوجه .

قال : ويلبس سوارا في احدى يديه ؟

– أجل ، وفي اذنيه قرطان .

فقال : هذا هو وقد رأيته .

فأشرق جبين ماهويه وقال : واين هو ؟

– في بيت طحان على المرغاب .

– أرأيته أمس ؟

– نعم أمس وهو على فرس له في حجرة صغيرة لا يخرج منها.

فنهض عندئـــذ وجعل يقول ؟ عليّ بفلان وفلان ، وسمىّ اربعة رجال . فحضروا ، فقال لأحدهم : تذهب الليلة الى بيت طحان يدلك عليه هذا الرجل وستجد يزدجرد الملك في ذلك البيت ، اتعلم ماذا تصنع ؟

– اقبض عليه واحمله اليك .

– بل تخنقه بوتر وتقذف بجثته الى النهر .

– وخاتمه وسواره ؟

– تجعل ما عليه حلى في جراب تسلمه اليّ عندما تعود .

فقام الرجل فخرج وخرج رفاقه وجعلوا يتعجلون في مسيرهم حتى بلغوا ذلك البيت ، وصاحبه عند الباب .

فقــال الدليل : يطلب اليك امير مرو ان تسلم الينا الرجل الذي رأيته في منزلـــك .

فذعر قائلاً : وأي رجل هذا ؟

قال : لا تخف فهو من رجال الجيش وقد فرّ بعد خيانة .

– ولكني لم أره كما تقول وقد يكون المنزل غير منزلي .

– بل هو في هذه الحجرة التي تطل على المرغاب .

وكان يزدجرد قد سمع كل شيء ، فجرّ نفسه جراً الى النافذة ، ثم تدلّى منها الى المـــاء .

وتحت النافذة سرداب صغير ضيق لا يتسع لأكثر من رجل . فـــآثر الملك الاستخفاء فيه ، على ان يسلم نفسه الى التيار . ولم يلبث حتى انبطح واصطدم رأسه بالجدار من الداخل . وكانت الاصوات تنتهي الى اذنيه مضطربة . وقد ضرب القوم صاحب البيت واقتحموا بيته وجعلوا يبحثون فيه دون ان يبصروا ظلاً ليزدجرد فدب الشك في الصدور وقالوا للرجل : لقد كذبت .

فتردد في الجواب ثم قال : هذه رائحة المسك تملأ الحجرة .

وخطر له ان يدنو من النافذة ، ثم مدّ عنقه فرأى طرف ثوب من الديباج في الماء ، فقال لهم : هذا هو الملك فلينزل احدكم .

ووثب رجلان الى المـاء فـاجتذبا ملك الملوك ورفعاه بالايدي الى الاخرين فتناولوه وكان يقول : لا تقتلوني وانا اعطيكم كل ما املك . هذا خاتمي وسواري

ومنطقي فاقتسموها بينكم . ثم انتزع احد قرطيه ودفعه الى الطحان الوفي مكافأة له وفي هذا شيء من العاطفة العالية كما ترى .

على ان القوم لم يرضوا الا بان يقتلوه وطاب لأحدهم ان يذكر له ان ماهويه يريد قتله وهم رجاله .

فقال: ويحكم انا نجد في كتابنا ان من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في هذه الدنيا فلا تقتلوني ،

فأجابه كبيرهم قائلاً : لا نستطيع ان نفعل .

قال : ارسلوني الى اميركم وانا اسأله ان يعفو .

– ولكنه يأمر بقتلك عندما يراك .

قال : ارسلوني الى العرب فانهم يستحيون من الملوك .

– بل نفعل غير ذلك فليس علينا الا ان نطيع من ارسلنا الى هذا البيت . انزعوا هذه الحلى التي ترون .

فاخذوا حلاه ، ووضعوها في جراب كما امرهم ماهويه . ثم عمدوا الى وتر قوس فجعلوه في عنقه وهو يستغيث وليس فيهم من يسمع اصوات استغاثته . ولم تمرّ لحظه حتى كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، أعظم ملوك الشرق في ذلك الزمان ، جثة بلا روح . ثم حملت تلك الجثة وطرحت في النهر ، فجرى بها الماء حتى انتهت الى فوهة يقال لها فوهة الزريق فتعلقت بعود . وبلغ الخبر بعد ايام اسقف مرو ، فسار الى ذلك الموضع ولفّ جثة الملك في طيلسان نثر فيه المسك ثم جعلها في تابوت وحملها الى مكان يدعى بابان دفنها فيه . .

وكان ماهويه قد سأل رجاله عن القرط المفقود فقيل له : اخذه الطحان من يزدجرد . فدعا اليه ذلك الرجل المسكين وسأله ان يعيده اليه فلم يفعل بل لم يشأ ان يعترف بأنه موجود. فأمر بجلده حتى مات تحت السوط . ثم بعث بالحلى جميعها الى امير المؤمنين ، فغرّمه امير المؤمنين قيمة القرط الضائع وسدل الستار

على يزدجرد بن شهريار . بل سدل الستار في ذلك الزمان على العرش الفارسي ، وامسى المسلمون اصحاب فارس بدون منازع ..

* * *

- ٥٧ -

هذه نار الثورة ترسل السنتها في فضاء مرو الروذ فتحرق وتدمر كل شيء ا اجل في مرو الروذ نفسها ، وقد سعرها سنجان ، ذلك الرجل الذي لا يموت حقـده .

ترك سنجان معسكر يزدجرد لاجئاً مع خراذمهر الى جبل الزهاد، كما خرج فراخزاذ لاجئاً الى بـلاد قومه .. وكان برسي ، ذلك الخصي المسكين ، يجرّ بالسلاسل في ذلك الجبل ، والحراس حوله من كل ناحية ، كأنه هو نفسه قاتل الملك . وقد اقسم سنجان انه لا يقتله ، بـل يبقى اسيراً في قفصه حتى يموت ، فيخرج عندئذ من ذلك القفص الى القبر. وقبل ان يخرج الى مرو ويشعل النار، فوض امره الى خراذمهر ، وسأله باسم الملك المنكود الحظ ، ان يبقي السلاسل في عنقه حتى يعود . ثم انصرف متنكراً الى مرو الروذ ، ولم تمـر بضعة ايام ، حتى كان كل فارسي فيها قد عمد الى السيف . وحامية مرو ، لا تستطيع ، على قلتها ان تثبت في وجه الالوف من الرجال ، بل لا تستطيع ان تحتفظ بالمدينة ، وأهلها انفسهم يحملون لواء الثورة . كتب زياد المازني الى الاحنف يستغيث به ، والاحنف في سوانجرد التي لا تبعد كثيراً عن مرو ، ثم دافع مع رجاله دفـاع الابطال ، حتى رأى اخيراً ان هذا الدفاع سينتهي به وبهم الى الموت . فـآثر الخروج مع العرب الى الخلاء ، ليتسع له مجال القتال ، عـلى ان يبقى في المدينة محصوراً داخل الجدران . وكان سنجان يبحث عن اليتيمة فلا يجدها ، ويسأل الفرس فيقولون له ، لا نعرف فتاة تحمل هذا الاسم ، حتى عرف اخيراً انها بين نساء الاحنف، وقد خرجت معهنّ في ظلام الليل ، الى حيث اراد زياد . فاهتمّ اولاً لأمر مرو، بعد ان استولى عليها اصحابه، ثم همّ بأن يلحق بالحامية الهاربة،

فيقضي على من بقي من رجالها ، ويسبي النساء واليتيمة معهن . ولم تكن له ، من وراء فكرته ، غير غاية واحدة ، هي ان يجثو عند قدميها ويقول لها : انك ابنة يزدجرد وانت تقيمين بين العرب الذي سلبوه عرشه وملكه ثم قتلوه .. فتستسلم عندئذ اليه ، وتحمل في صدرها حقداً لكل عربي ! وفي ذلك ما يقهر الاحنف وابن اخيه ! ثم يطوف بها في البلاد داعياً الى الثورة من جديد . وكانت الرسل قد نقلت الى ماهويه خبر الحرب في مرو ، فركب هذا الفارسي المخلص للعرب مع فريق من جيشه يريد اخماد النار . وركب الاحنف من الناحية الاخرى ، بعد ان دانت له نواحي سوانجرد، يريد ان يسترجع ما اخذه العدو.

وبينا سنجان وكبير مرو ، يهمان بان يلحقا بجيش زياد اقبلت طلائع جيش الاحنف ، والرماح في الأيدي ، والاهازيج اهازيج الظفر تملأ الفضاء .

فرجع ماهويه الى مدينته قبل ان يصل الى مرو الروذ ، وهو واثق بان الاحنف سيدخل فاتحاً ، بعد تحطيم الاسوار .

ولجأ اهل مرو الى الابواب فأغلقوها ولم يبق امامهم الا ان يدافعوا من وراء اسوارهم دفاعاً يطيب لهم بعده الموت .

وخطر لسنجان ان يفرّ راجعاً الى جبله، ولكنه خاف ان يقوده هذا الفرار الى ايدي العرب فيخسر حياته .

فتظاهر بالدفاع والوثوق بقوة الرجال ، ولكن الذعر كان قد استولى عليه حتى انه كان يرى الموت ماثلاً امام عينيه .

على ان تلك الاسوار الضخمة لم تثبت ، ان العرب تعودت ان تحطم الصخر الاصم وتمزق الحديد والفولاذ .

نعم ، ان الاحنف دخل ظافراً ، وعندما كان جيشه يمشي على جثث القتلى ، كان القوم في مرو يسألونه ان يرضى بالصلح ، وبينهم سنجان الذي ضيّع جاهه ولم يقدر ان يفرّ .

وكان الاحنف يرغب في الصلح لسبب واحد هو ان كبير مرو نسيب لباذان الفارسي ، صاحب اليمن ، الذي اعتنق الاسلام .

والمسلمون لا يريدون ان يغضبوا ذلك الفارسي المسلم .

غير انه اراد ان يسأل ماهويه رأيه فيما يفعل ، فبعث اليه يدعوه الى المجيء وجعل اركان الثورة في منزل قريب من منزله ريثما يجيء ماهويه .

وأقبل سنان بن سليم في ذلك الحين يدل على سنجان ويقول :

هذا اصل البلاء وموقد النار .

فنظر اليه الاحنف نظرة غضب اضطرب لها الفارسي ، ثم حــوّل وجهه عنه ، ومشى الى قصر الامارة ليجلس للناس بعد تلك الحرب .

ولم يكن يريد ان يقول كلمة الا بحضور ماهويه .

فلما جاء الرجل ، دعا الاحنف رجال الثورة الى مجلسه وقال له :

قبل ان يسألك امير المروين عما يخطر له ، يطيب له ان يعترف باخلاصك للعرب ووفائك لهم .

قال : لم اصنع ايها الامير ما استحق معه هذا الثناء .

– بل تستحق اكثر من ذلك فقد عرفنا بعض ما صنعت وسنسألك عن كل شيء .. قل الآن أتعرف هؤلاء ؟

فأخفى سنجان وجهه بيديه خوفاً من ان يلتقي النظران ..

وكان ماهويه يتفرس فيه باستخفاف ، وعلى شفتيه ابتسامة النصر ، ويرسل نظرة الى وجه كل واحد من القوم ثم قال :

أعرفهم جميعاً .

– وأي رجل منهم حمل لواء العصيان ؟

– أي ان الأمير يسألني عن الرجل الذي اوغر الصدور .

– نعم هذا ما نريد ان نعرفه .

قال : لا اعرف بينهم من يسعر النار غير هذا ..

وأشار الى ابن اخيه .

قال : أليس هو صاحبك بالامس ؟

– بلى ايها الأمير، انه صاحبي الذي تآمر على العرب من قبل، وصاحبي الذي

ملأ خراسان حرباً وصبغ ارضها بالدماء ، بـل هو صاحبي الذي دفع يزدجرد وجيشه الى غزو مرو الشاهجان .

فابتسم قائلا :

قل انه الرجل الذي له على القلوب فضل لا تنساه.. ألم يقتل الملك في غزوته التي ارادها هذا ؟ ان هذا يكفي وامير المروين مدين لابن اخيك ..

ثم جعل يقول :

سنجان .. كنا قد نسيناك ولم يخطر لنا قط اننا سنلتقي في مرو وأنت على رأس الجيش الذي يحارب المسلمين .. عفونا عنك من قبل فطمعت، ثم تماديت في الغرور فطاب لك ان تطرد العرب من بلادك وهم الذين احسنوا اليك وجعلوك والياً، أفيقوم في ذهنك الآن ان تخرج حياً من مرو لتطوف في الاقاليم داعياً الى الثورة نافخاً في بوق العصيان ؟

فقال الرجل في نفسه : اذا كان لا بدّ من الموت، فخير لي ان أموت شريفاً، ثم قال :

وهل كنت تريد ايها الأمير ان اخون قومي وأخدم العرب كما فعل مـاهويه الخائن الذي قرّبته اليك، اني نشأت في ظل ملوك فارس وسأموت وانا على عهدهم لا اخونهم ولا اذلُّ نفسي وبلادي ..

قال : كان عليك ان تتنحى عن خدمة العرب ليقوم بهـذه الخدمة سواك ، واما ان تظهر لنا الطاعة لتجلس على مقاعد العز ثم لتتآمر في ظـلام الليل على المسلمين فهذا ما لا نرضاه ..

وخطر للاحنف عندئذ خاطر فقال :

لقد مات الملك الآن ولم يبق ما تخشاه انت ونخشاه نحن وانا لنسألك سؤالاً عنـه .

فاختلجت عيناه ولم يجب ، فقال الاحنف :

– في أي بلد وجدت الملك بعد فرارك ؟

– في كرمان .

قال : كرمان العاصية المتمردة على العرب : لقد انتهى امرهـا الآن ولم يبق بين رجالها من يرفع رأسه .. ومن هم الامراء الذين رأيتهم عند الملك ؟

- تعرفهم انت ويعرفهم ماهويه .

- وكان بينهم رجل خراساني يدعى شهريار ؟

فمدّ طارق عنقه وحبس انفاسه ليسمع جوابه ، فقال :

اجل كان بين يدي الملك ..

وابتسم ابتسامة الازدراء ، ثم حجبت هذه الابتسامة دلائل الحقد الهائل الذي لا يفارق صدره .

قال : وكنت تعرفه من قبل ؟

- وهل نسيت انه هو الذي طلب اليك ان تعزلني عن الولاية لتوليّ ماهويه وكنا جميعاً في هذا المجلس ؟

قال : صدقت فقد ذكرت ذلك الان وماذا كان يفعل ؟

فأملى عليه شيطان حقده ان يقول :

كان يقص على الملك اخبار المسلمين في المروين ..

وهنالك شيء آخر لا يطيب لي ان اقوله الان ..

- إذن كان يخون المسلمين مثلك ..

- اما انا فقد خنتهم لأحاربهم بالسيف ..

- وهو ؟؟

- اما هو فكان يخونهم في أمر لا يخطر لفارسي ..

فاصفر جبين طارق وخفق فؤاده .

وكانت شفتا الاحنف ترتجفان وهو يقول :

اذكر هذا الأمر ولا تتردد .

قال : كان لشهريار فتاة في عامها الخامس عشر وهي احسن النساء وأحبها كما كان يقول ..

- وأي شأن لهذه الفتاة بخيانته ؟

- شأنها انها ليست ابنته !!

فنظر الاحنف الى اخيه وابن اخيه نظرة عرف معناها الاثنان ثم قال : وابنة من هي ؟

– ابنة حسناء كانت زوجة لأحد الخدم في المدائن وخليلة لشهريار !!

– ابنة زانية ؟!

– نعم !

قال : كانت لشهريار زوجة ماتت في حلوان ..

قال : لم يتزوج الرجل قط !!

فهمّ طارق بأن يتكلم فأسكته عمه قائلاً :

وماذا قال الملك عن فتاته ؟

– خبره ان جمالها استهوى ابن اخ لك وسيزفها اليه ولكن أتعلم ما هي غايته من ذلك ؟

– ما هي ؟

– هي ان يجعلها في هذا الزواج عيناً على العرب تنقل اليه أخبارهم قبل ان تظهر لينقلها هو بدوره الى الملك !!

فصاح طارق قائلاً :

كذبت يا لعين فهي تحب الفتى الذي ستزف اليه ..

قال : لا أعلم شيئاً من هذا ولكني أعيد على الأمير ما سمعته من ذلك الخراساني وانا اعلم اني سأموت .

فقال الاحنف : نأمرك يا طارق بان تسكت ..

ثم قال لسنجان : وهل تعلم الفتاة ان اباها يريد ان يستغل هذا الزواج ؟

– اجل، وكانت تعلم امراً آخر هو انها ستخدم الملك، بعد زواجها، عامين اثنين ثم يحملها ابوها الى مقر هذا الملك ليجعلها بين جواريه الى الأبد ..!

فتمتم قائلاً : ابنة زانية ..

فسأله ماهويه ان يأذن له في الكلام ، ثم قال : ليس من الحكمة ان يصغي الأمير الى ما يقوله هذا الرجل فهو كاذب وأنا أعرف اي رجل هو ..

قال : بينك وبين الموت يا سنجان قيد فتر فلا تكذب .

قال : لو لم أعلم اني سأموت لما بحت بالسر ..

فقال ماهويه : لو استطاع هذا اللعين ان يكذب بعد الموت لفعل .. اني انصح لك ايها الأمير بان تنسى مـــا يقوله فشهريار أصدق فارسي في اخلاصه للمسلمين ...

– وانت يا عمّ ألست صادقاً في اخلاصك لمن ذكرت ؟

– لو لم اكن صادقاً لماقتلت الملك الذي حاولت انت ان تسترجع له العرش..

– والذي حاول شهريار ان يساعدني في ذلك ..

– لم تكن للرجل يدٌ فيا فعلت ايها الغدار .

– اقسم انه هو الذي اشار على الملك بان يهاجم مرو .

– فعل ذلك ليخرج ملكك من وراء الجدران فتقبض عليه العرب .

– وكيف طاب له ان يحارب في صفوفه ويفرّ بعد ذلك الى حيث لا تعلم ؟ انه لو كان مخلصاً لرجع الى هذا البلد حاملاً نبأ موت يزدجرد .

قال : قضيت بضعة أيام في صفوف الملك فلم أره ، ومع ذلك فالأمير يعلم ان الرجل ذو اليد الواحدة لا تطيب له الحرب .

قال : يظهر ان الاقدار تدفعني الى ان ابوح بكل شيء .. اسمع ايها الأمير ، ان شهريار كان يريد ان يقتلك ويقتل اخاك وولده وجميع القواد الذين حولك.

فدبّ الشك في صدر الاحنف فجعل يقول :

انه أعجز عن ان يفعل ذلك وانا بين قومي ..

– ولكنه كان يريد ان يجعل السّم سلاحاً له ..

– لو اراد ذلك لما تردد فيه الى اليوم .

– كان يريد ان يتم الزواج فتعمد الفتاة الى القتل كما قلت .

– وسلـّم اليها السم ؟

– لا ، لان الملك عدل عن هذا الرأي واحب ان يرى الفتاة قبل الزواج ، فأمر شهريار بان يدعوها اليه .. من هو زياد المازني الذي جعلته خليفة لك على مرو بعد خروجك الى الحرب ؟

– هذا هو .

وأومأ اليه ، فقال :

اسأل هذا الرجل ، ألم يقدم عليه رسول شهريار طالباً اليه ان يبعث بالفتاة معه الى أبيها ؟

قال : ماذا تقول يا زياد ؟

– نعم ايها الأمير ، قرأت كتاباً مع سنان بن سليم يسأله فيه مولاه ان يتعجل في ارسال ابنته .

– وبعد ذلك ؟

– رفضت طلبه لسببين احدهما ان اليتيمة لا تخرج من مرو الا بعد خروجي الى القبر .

– والسبب الآخر ؟

– اما الآخر فقد اعترف الرسول ، بعد ان جُلد ، بأن شهريار اسير لدى الملك في وادي خواست وانه كتب كتابه والسيف فوق رأسه .

– وكتبت الينا في ذلك الحين تسألنا الرجوع الى مرو لنحارب يزدجرد .

– أجل !

وجعل يقص عليه خبر اسلام برسي ورجوعه الى ذلك الوادي لينقذ شهريار من الأسر ..

– ولكن أين هو شهريار وأين برسي ؟

فقال سنجان: فرّ الاثنان من الجيش لأن اسلام برسي كان كاذباً وقد لجأ إليه وهو في هذا البلد لينجو من الموت ..

– ولماذا عمدا الى الفرار ؟

– لأنهما رأيا ان الملك ضيع امله بالرجوع الى العرش .

فقال ماهويه : يخيل الي ان الملك قتل الرجلين وان هـذا اللعين اوغر عليهما صدره ففعل ..

قال : ليظن الامير ما يشاء وليفعل ما يشاء فقد بحت بما أعلم .

فقال الاحنف لمن حوله :

ماذا ترون ، أيستحق هذا الرجل ان نعفو عنه ؟

فصاحوا جميعهم قائلين : بل يستحق الموت فهو عدو العرب .
قال : نستشير امير المؤمنين في أمره ..
- بل تقتله الساعة ونحن نضمن رضى أمير المؤمنين .
فاطرق ملياً ثم قال :
لقد علمت الآن انك ستموت فتهياً ..
قال : اموت ولا ابالي فلا خير في الحياة بعد زوال العز .
- ولا تغير شيئاً مما قلت ؟
- لو كنت كاذباً لفعلت ..
قال : اقتلوه في ساحة مرو ليراه قومه .
فقام طارق فقال : بل يعترف بانه كاذب وانا اسأل له العفو .
فهمّ بالكلام ثم سكت ،
فجعل الفتى العاشق يستعطفه وهو ساكت ، ثم قال :
اقتلني يا ابن قيس ولكن لا تنسَ ان الفتاة التي ستزفها الى ابن اخيك ، ابنة زانية !!!
ومشى، بخطى ثابته امام جلاديه، وعندما لفظ روحه، كان القوم في الداخل يعالجون طارقاً الذي اغمي عليه ...
وكان الاحنف يقول لعبدالله :
لقد صدقت الظنون فاليتيمة ليست ابنة شهريار .

* * *

- ٥٨ -

انهض ، فالفتى الذي يحارب الاعداء ويخرج ظافراً من الساحة لا يبكي كما تبكي النساء !..
قالها الاحنف لطارق ابن اخيه ، وهو في منزله يبكي غرامه ويندب سوء حظه وكان عبدالله حاضراً فقال :
وانك لتستطيع ان تختار لك فتاة من حسان العرب ، تنسى معها اليتيمة التي لا تعرف ابنة من هي ..

قال : قل يا ابي ما يطيب لك ولكن لا تذكر هذا النسيان فالقلب لا يسلم به وليس على الأرض قوة تمحو هذا الحب ..

– ولكنك سمعت حديث سنجان ..

– سمعته يقول ان اليتيمة ابنة زانية ، وانها تتآمر مع أبيها على العرب وستعمد الى قتلنا جميعاً بالسم . افتصدق يا أبي كل هذا وانت قد خبرت الفتاة ولمست بيدك شعورها العالي ورغبتها في ان يظفر المسلمون في كل قطر ؟!

– وهل تريد ان نصدق شهريار الذي خرج من مرو ولم يرجع ؟

– ان في الأمر سراً فمن الرأي ان نلجأ الى الصبر .

فتبادل الاميران النظرات ثم قال عبدالله :

وماذا يفعل الصبر يا بني في مثل هذه الحال ؟

من يعلم فقد يعود شهريار بعد ايام فنعرف كل شيء .

– اجل ويعود برمي الذي بعثوا به لينقذه من الاسر ..

قال : لقد مات الملك الآن فلا بد لشهريار من ان يعود ولو كان خائناً .

– بل يذهب الى أقصى خراسان كي لا تقع عينه على عربي .

قال : ألم يذكر لكما سنجان ان زوجة ذلك الخادم الفارسي كانت خليلة لشهريار ؟

– بلى !

– اذن فاليتيمة ابنة تلك الزوجة وشهريار أبوها ..

– واذا كان هذا ؟

– اذا كان هذا فالوالد لا يهجر ولده ولا بد من ان يجيء .

قال : قد يأمرنا امير المؤمنين غداً بان نرحل عن مرو الى بلد آخر نشهر فيه الحرب ..

– يأمرنا بالرحيل فنرحل .

– والفتاة ؟

– ترحل معنا، فهي لا تطيق ان تخرج من معسكر المسلمين .

قال : لقد رأيت ورأى عمك رأياً .

قال : ما هو ؟

– هو ان تتزوج أنت وتتزوج هي !!

فابتسم ابتسامة اليائس قائلاً :

ومن تختار لي ؟

– تطوف انت في جميع احياء العرب النازلة في فارس.ثم تنتقل الى البصرة والكوفة حتى تجد زوجتك .

– ومن تختار لها ؟

– فتى من الفتيان الأبطال ينتمي الى نسب معروف .

قال : لو قيل لي الآن ان ليزدجرد ملك الملوك فتاة هي اجمل نساء الانس والجنّ يحجب نورها نور القمر والشمس، لما خطر لي ان انظر اليها نظرة واحدة واليتيمة حية !! انظر يا ابي في الامر فقد يكون لك رأي آخر .

– اذن نختار فتى فتتزوج هي وينتهي الامر .

– لتفعل ذلك وانا راض .

– وتتزوج انت بعد ذلك ؟

– لا اعلم فقد ينقضي العمر كله دون ان افكر في الزواج .

قال : اسألك سؤالاً آخر يا بني ، افيطيب لك ان تكون الفتاة التي تزف اليك ابنة زنى ؟

– اذا ثبت لي انها كما تقول قتلتها بيدي أو هجرتها الى الأبد .

وحكاية سنجان ؟؟

– لا تعد الى ذكر حكايته فالرجل الذي يخون العرب وينفخ في صدور الناس روح الثورة لا يصدقونه ..

– ومن اين لك ان تعلم ما ترغب فيه ؟

– من شهريار نفسه فقد كان له سرّ وسيبوح به بعد رجوعه .

– والمؤآمرة ؟

– سأسألها انا عن المؤآمرة بل اسألها عن كل شيء .

– اليوم ؟

– بل الآن فهذا الغرام الذي لا حدّ له سيقودني الى القبر .
فقال الاحنف : انها تقيم بالغرفة التي تحاذي حجرة ام عامر أليس كذلك ؟
– بلى وبين الحجرتين باب صغير يحجبه ستر .
قال : نجلس نحن وراء الباب الذي ذكرت وتحدثها انت بما يطيب لك .
– وسأرفع صوتي لتسمعا كل شيء .

وكان طارق قد رأى الفتـــاة عند وصولها الى مرو ولكنهما لم يتحادثا الا بلغة العيون ..

فلما دخل حجرتها ، ابتسم الاثنـان ابتسامة الحب .. ورأت هي في عينيه سطوراً لم ترها من قبل ، فقالت له :

أين ابي يا الحبيب
– أتيت الآن اسألك عنه .
– وهل قدم مرو
– لا أعلم فقد غادرت مرو وهو بعيد ولم أره بعد ذلك !
فصاحت قائلة: ألم يكن في كرمان
– لا وقد بحثت عنه كثيراً فلم اسمع كلمة واحدة عنه .
– مع انه كان في جيش الاحنف وكنتما تقيمان بخيمة واحدة .
– ومن قال لك هذا ؟
– سنان ..
– مولى ابيك ؟
– نعم !
– لقد كذب فأنا لم أرَ له في كرمان وجهاً ..
فبكت قائلة : لقد قتل ابي فلا حول ولا قوة الا بالله .
فأجابه وهو هادىء :

اما العرب فلم يقتلوه ، وامـا الفرس فلا أظن فيهم رجلاً يجسر على ان يمد اليه يد سوء .

– لماذا ؟

– لأنه من انصار الملك ! وأهل فارس يعرفون ذلك .

– ابي ؟

– نعم وقد سمعتهم يقولون انه من اقرب المقربين اليه ..

– ولكن الملك قد قتل .

– اجل وكان على شهريار ان يعود بعد مقتله .

فجفّ دمعها ، وجعلت تنظر الى الأرض وهي ذاهلة .

فقال : هـذا مـا سمعته فقد يكون الذي رواه كاذباً ، وله غاية خاصة من وراء قوله !.

فخفضت صوتها وجعلت تقول :

ابي من انصار يزدجرد وهـو العامل على قتله ؟! انها لهجة غريبة تحملها اليّ من ساحة الحرب .. وكيف يكون من انصاره وهو لا يراه ؟

– ألا تذكرين انـــه كان يغيب عن منزله بضعة ايام كل شهر، ثم بضعة عشر يوماً ، ثم يعود وهو لا يقول كلمة عن سبب غيبته .

– وما معنى قولك ؟

– معناه في نظر الذين يتهمونه ، انـه كان يعلم مقرّ الملك ويقضي ايام غيبته في المنزل الذي يقيم مولاه به !

– والذي قصّ عليك ذلك .. عربي ام فارسي ؟

– فارسي ، وهو من قواد يزدجرد المخلصين له .

فجعلت تردد قوله وهي لا تصدقه .. ولكن الريب كان يتمشى في قلبها الخفاق الذي استولى عليه الألم .

ثم قالت : وصدقت انت يا طارق ما قيل لك ؟

– فتشت عن شهريار لأسمع الحكاية منه فلم اعثر عليه ، فـأنا متردد كما ترين وقد جئت اسألك عن ذلك كما قلت فاستحلفك بالله ان تبوحي لي بكل شيء .

– وبماذا ابوح لك وأنا لا أعلم شيئا ؟

– أكان أبوك يحدثك بأمر الملك ؟

– كنتما انتما الاثنين تحدثانني بأمره ، وكنت أقرأ على جبين أبي وفي عينيه ، كما كنت تقرأ انت، سطور الحقد الذي لا يزول .

– وكنت انت من الناحية الأخرى ، تـدافعين عن الملك ، وتسألينا باسم المروءة والرحمة ، ان نرفق به .

– أجل كنت افعل ذلك لأسباب ، أهمها ان هذا القلب يذوب اشفاقاً كلما ذكر يزدجرد ولا أعلم لماذا .

بكيته دماً ، وسأبكيه ما بقيت ، وأنا لا أعرف له وجها ،

فهامس الاحنف اخاه عبدالله ، وهما في حجرة ام عامر ، قـائلاً له : والله لم أسمع في كل ما سمعت أغرب من هذا ، تعترف الفتاة بان أباها يبغض يزدجرد ثم تعترف بانها تحبه ، فلم يبقَ الا ان ادخل الساعة واهددهـــا بالقتل لتعترف بكل ما تعلم .

فقال له : خير لنا ان نصبر الى النهاية .

وكان طارق يقول :

أمسى ابوك الان بريئا وانت المتهمة .

قالت : يتهمونني باني احببت يزدجرد ؟ اني اعترف لك مرة ثانية بان في هذا الصدر عاطفة تخفق على ذكره وليس لي حيلة في ذلك ، فالذنب ذنب هذا الشعور الخفي الذي أحس به .

فوضع يده على جبينه قائلاً :

هنالك اقاويل كثيرة ايتها الحبيبة .

– وهل تذكرها لي ؟

– نعم اذكرها فهم يقولون انك عين لأبيك على المسلمين في مرو !!

فتراجعت مذعورة وهي تقول :

طارق نفسه يذكر لي هذا وهو لا يبالي ؟

– انقل اليك ما سمعت وأنا لا اصدق شيئا منه .

فتساقط الدمع من عينيها ثم رفعت صوتها قائلة :

هذا هو الفتى الذي وهبت له نفسي وقلبي وكدت أنسى ابي من اجله يتهمني

بالخيانة !! انه حب صادق تظهره لي يا ابن عبدالله ، ووفاء لا ينطبق صدر من صدور المحبين على مثله !!

فدنا منها قائلاً :

اقسم لك براس ابي وراس امير المؤمنين اني لم اصدق كلمة مما اقوله لك الان . ولكني اردت ان تعلمي ما يقوله ذلك القائد الذي ذكرت .

– ولا يقولون غير ذلك ؟

– بلى ! – ماذا ؟

قال : اخشى ان تظني الظنون بي .

– بل تقول وانا لا اظن شيئاً .

قال : لقد نقل القائد الكاذب اخباراً كثيرة منها انك رضيت بان تزفي الى طارق بن عبدالله على ان تهجريه بعد عامين !

فقالت وقد عاد اليها الهدوء : ولماذا اهجره ؟

– لتنضمي الى جواري الملك الذي يطيب له ان يجعل حسان فارس كلها في المنزل الذي يختاره له !

فابتسمت قائلة : الحمد لله ثم الحمد لله فقد مات ولم يبق هنالك ما تخشاه ... ! وماذا ايضاً ؟

– ترتفع اصوات البكاء والنواح في المعسكر العربي بعد ان تهجري طارقا وتتركي بيته !

قالت :

ما قولك هذا فلم افهمه .

ا – عنيت ان طارق وعمه واباه سيموتون بعد خروجك من مرو !

– وما هو هذا الموت الذي يحصدهم جميعا ؟؟

– يموتون بالسم الذي تجعلينه في شرابهم وطعامهم قبل ان تنصرفي الى مقر يزدجرد !!!

وبكى طارق عندئذ بكاء مراً ، فقد احسّ انه طعن حبيبته في وفائها ، وجار عليها بل امعن في الجور !!

ولكنه كان يعلم ان عمه واباه يسمعان حديثه ، فهو مكره على الافضاء اليها بكل شيء ، ليزول الشك الذي دبّ في صدريها .

ثم جعل يمسح دموعه ويقول :

هذه هي الحكاية الغريبة التي سمعتها من فم ذلك الفارسي الكاذب الذي كان يدفع يزدجرد بيديه الى العرش .

فقالت : عار عليّ وعليك ان نستسلم الى البكاء في موقف التهمة .. اين هو هذا الفارسي فانا أريد ان اراه .

– لا تستطيعين ذلك .

– أليس هو في مرو ؟

– كان فيها منذ ساعة .

– الى اين ذهب ؟

– الى دار الآخرة فقد أمر الاحنف بقتله لأنه عدو المسلمين .

– عدو المسلمين وتثقون باقواله ؟

– لم يثق به احد ولكنها قصة اردت ان تسمعيها كما قلت .

– قالت : لي حاجه اسألك قضاءها اليوم .

وكانت تبتسم كأنها لم تسمع شيئا ، فقال :

بل اقضيها الساعة .

– اريد ان تستأذن لي على الاحنف !

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– كلمة خطر لي الآن ان اقولها له .

قال : خير لك ان انقلها انا اليه فمجلس الاحنف يغص بوفود الناس في النهار والليل وليس من الرأي ان يراك القوم في مجلسه .

– ولكنها كلمة لا تقال لك لانها تتعلق به !

ثم قالت : اما اذا كنت خائفاً من ان اسقيه السم فذلك شيء آخر !

قال : كفى فقد ندمت على ما قلت .

فلمعت عيناها لفكرة غريبة خطرت لها وجعلت تقول : أما وقد ندمت ،

فقد انتهى كل شيء وعدلت عن رؤية عمك ، ولكن لي رجاء آخر أطلب اليك أن لا تتردد فيه . — ما هو ؟

— هو ان تذهب غداً فتبحث عن أبي في النواحي التي تجاور مرو الشاهجان والتي أقام بها جيش الملك .

فقال دون أن يتردد : سأغادر مرو عند الصباح من اجل هذه الغاية ..

— ولا تنسَ ان تسأل عنه ماهويه، فهو يعرفه، ويعلم من امره ما لا يعلمه سواه..

— وهل بقي لك ما تقولينه ؟

— بقي امر واحد هو ان تتعجل في الرجوع ..

وحولت وجهها لتمسح الدمع الذي حاولت عبثاً ان تخفيه، فقال : اني اشد رغبة منك في هذا .. فانسي مـــا سمعت واعلمي ان الله معنا وان العالم كله لا يستطيع ان يفصل بين هذين القلبين.. ورفع صوته ليسمع عمه وأبوه .. ثم خرج وهو يحس ان يد القدر ستمتد اليه بسوء .

وكان الاحنف وعبدالله قد انتهيا الى الرواق فقال له الاحنف: ماذا رأيت؟

قال: رأيت ان اذهب الساعة الى الحفرة التي دفن فيها سنجان اللعين، فاحمل جثته الى السوق ثم امزقها واجعل اجزاءها تحت الاقدام .

— اما انا فقد رأيت ان في الامر ما فيه ؛ وخير لنا ولك ان نلجأ الى الصبر ريثما تبدي لنا الأيام ما لا نعلم فقد تكون الفتاة بريئة مما اتهمت به ..

وكانت الظنون تتراحم في صدره وهو لا يريـد ان يبوح بها لأحد ممن حوله خوفاً من ان تكذب الأيام ما يفكر فيه، ثم قال: وعولت على الرحيل غداً يا بني؟

— اجل، فالسر في فم شهريار وسأطلبه ولو قضيت العمر كله بعيداً عمن احب.

قال : لا امنعك من ذلك ولكني اريد ان يرافقك في رحيلك ، اثنان من فتيان قومك تختارهما انت . — سأختار اربعة ممن ذكرت .

— واتمنى ان تعود وقد اضمحل الريب من الصدور .

فتلألأت الدموع في عينيه وجعل يقول: سيخسر عبدالله بن قيس ولده طارقاً اذا لم يضمحل هذا الريب . وانصرف دون ان يسمع جواباً. وانثنى ابوه ليختار له رفاقه الأربعة من الفتيان المخلصين ..

* * *

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



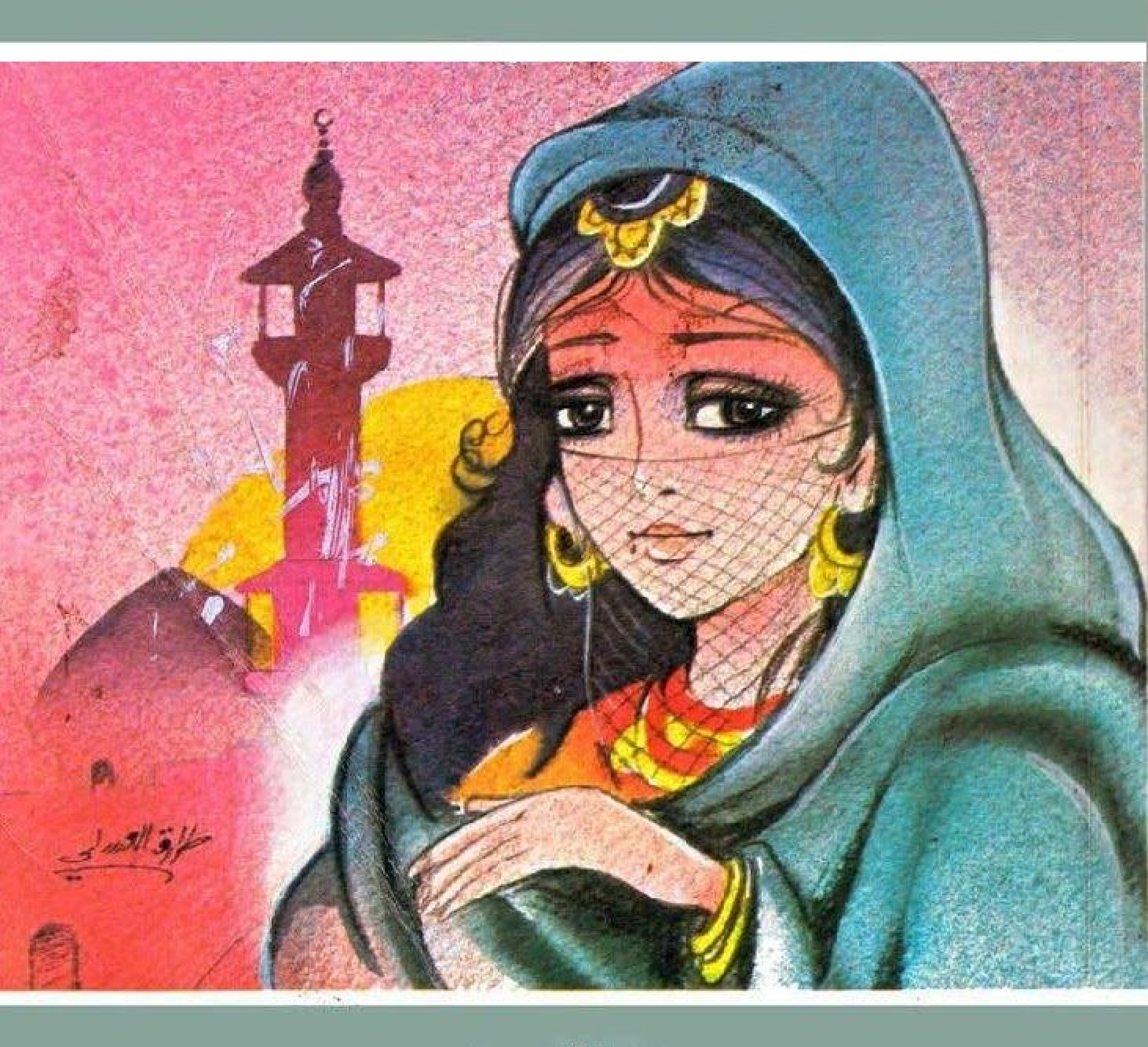
دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين

روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

اليتيمة الساحرة (٢)



دار الأندلس

ودع طارق حبيبته ، ووعدها بأنه سيمزق باهتمامه وسعيه ، ذلك الحجاب الذي سدلته الاقدار على ذلك السر. وكانت ساعة التوديع،ساعة مؤلمة، خرجت فيها اليتيمة عن هدوئها واستسلمت الى البكاء استسلاماً جاوز الحـد . ثم رأت ان هذا الضعف يكاد يفضحها ، وقد يمنعهـــا من المضي في الامر الخطير الذي فكرت فيه .

فتجلدت ، وسألته ان ينصرف وهي تتمتم قائلة : اذكر هذه . . الساعة ايها . . الحبيب ولا . . تنس .

وكانت قوى الفتى قد خارت ، فمشى متثاقلاً وهو يلتفت الى الوراء حتى حجبت الجدر يتيمته عن عينيه. ولم يفكر عندئذ في مغزى تلك الكلمة الأخيرة التي قالتها له .

بلى ، كان يقول في نفسه : لقد سألتني ان اذكر ساعة التوديع لأتعجل في الرجوع . ولم يعلم ان لكلمتها مغزى آخر هو أبعد مما خطر له .

وكان سنان يومئذ في مرو ، فدعته اليها قـــائلة : الحق بطارق حتى يخرج من المدينة .

– وبعد ذلك ؟

– ترجع اليّ فانا بحاجة اليك .

فسار الرجل ، ثم عاد بعد ساعة وهو يقول : خرج طارق راكباً ووراءه اربعة من الفرسان .

قالت : اجلس واخفض صوتك اذا تكلمت !

فجلس وهو ينظر اليها نظرات الاستغراب .

ثم جلست هي بالقرب منه وجعلت تقول :

لا تستغرب ما تسمع فانا قد عولت على الرحيل من هذا البلد ، الى مكان آخر بعيد لا تقع علي فيه العيون !

فذعر قائلاً : انت يا مولاتي ؟

– نعم انا ! وأرجو أن تتهيأ للرحيل في الهزيع الثاني من هذا الليل .
– ولكن ألا تذكرين لي سبب رحيلك ؟
– اذكر لك سبباً واحداً هو ان غيبة أبي عن مرو خلقت الظنون في صدر الاحنف وصدر عبدالله ..
– واي شأن لك بهذا ؟
فهزت رأسها قائلة : شأني انهم يتهمون مولاك ..
– بماذا ؟
– بأنه من انصار يزدجرد الذين يخونون المسلمين !
– ومن قال لك ذلك ؟
فترددت قليلاً ثم قالت : الاحنف نفسه ..
– ليقل مـــا يشاء فليس في الأمر ما يدعو الى الخروج من مرو كما يخرج المجرمون .
قالت : لا تحدثني بمثل هذا فأنا قد عولت على الرحيل وانتهى الامر .
– واذا عاد مولاي غداً ؟
– نعود عندئذ الى مرو ويرفع أبي رأسه قائلاً : كنت ولم أزل من المخلصين للاسلام ..
– وان لم يعد ؟
– احمل شقائي العمر كله، ثم اموت دون ان يحزن علي نسيب او يشعر بي أحد !
– ولكن طارقاً لا يرضى بهذا وقد ينتهي به الأمر الى الموت .
– لقد ذهب الآن وسيرجع الى مرو بعد بضعة عشر يوماً فلا يرى منا أحداً ولا يعرف البلد الذي لجأنا اليه .
قال : بعثه الاحنف في مهمة ؟
– بل بعثت به انا ليبحث عن ابي في النواحي التي نزل فيها الملك قبل موته .
– فعلت ذلك يا مولاي ليخلو لك الجو ؟
– نعم ولو كان طارقاً هنا لما استطعت ان انقل من مرو قدماً .

قال : انصح لك بان تبقي ريثما نتبين الأمر .

- اقسمت اني لا امكث بمرو يوماً واحداً بعد خروج طارق وسأبر في قسمي .

اذهب وتهيأ كما قلت لك .

قال : اخشي ان يقتلك هذا الرجل ويقتل طارقاً . .

- لا خير في الحياة مع ذل التهمة . .

- يكفي ان يكون طارقاً مؤمناً بوفاء مولاي ووفاء ابنته .

- اما انا فلا اطيق ان ينظر اليّ الاحنف بن قيس واخوه عبد الله ، نظرة الاستخفاف والازدراء وأنا اشد منهما إخلاصاً .

- وكيف نرحل ونحن لا نملك شيئاً من المال .

فابتسمت قائلة : المال كثير ، وهو في منزلنا على الشاطىء ، وسنحمله الى حيث تدفعنا الاقدار .

- وترحل غمرة معنا ؟

- نعم فأنا لا اتخلى عن المرأة التي أحسنت اليّ .

- والعبدان ، وذلك الفارسي الذي يدعى طرخان ؟

- اما العبدان فهما منا ونحن لا نتركهما ، واما الضيف الفارسي فسنجود عليه ببعض مالنا وليذهب الى حيث يشاء .

- بقي ان ننظر في امر البلد الذي نسير اليه .

- الرأي في ذلك لك فانا لا اعلم الى اين نمضي .. ثم قالت : اين يقيم قومك بنو سليم ؟

- بنو سليم فروع ثلاثة ، احدهـا في اطراف البصرة ، من ناحية الخليج والثاني يقيم بالبادية التي يقال لها بادية الكوفة ، والآخر على شاطىء الفرات الذي يجاور الحيرة وكل واحد منها له منزلته في القوم .

- واي فرع اكثر بعداً ؟

- ذلك الذي ينزل على الخليج .

- اذن فالرأي ان ننضم اليه .

قال : كنت فقيراً في قومي ولا ولد لي ، فاذا رأوني غداً ومعي فتاة تخلب ألباب الفتيان ، وعبدان يقومان بالخدمة دب الريب في الصدور .

فأطرقت ملياً ثم قالت :

سألبس في هذا الليل ثياب الفتيان ولا اخلعها الا بعد ان يجتمع الشمل او يخيب الرجاء . . وارسل ضفائري على كتفيَّ كما يرسلها شباب العرب ، فيظن الناس عندئذ اني فتى فتاة !

– واذا سألوني عن هذا الفتى الذي يرون ؟

– تقول لهم انه ابن مولاك الفارسي ، الذي اعتنق الاسلام قبل ان يموت في حرب خراسان والعبدان ملك له .

– ولكن لا تنسى ان هنالك أمراً يفضح السر الذي نكتمهم إياه .

– وما هو هذا الامر ؟

– هو ان فتيان العرب جميعهم فتيان حرب وانت لا تحسنين حمل السيف بل لا تستطيعين ان تحمليه . .

– تقول لقومك ان ابي لا يعلمني فن القتال ، وتختـــار عندئذ رجلاً منهم يعلمني اياه ، وانا ارغب في ذلك !

– واذا استعرت نار الحرب بعد ذلك وندب لها بنو سليم ؟

– احمل سيفي واخرج معهم لأجرب الفن الذي تعلمت !

– اذن لنبدأ منذ الان بما ترين . . ما اسمك يا مولاي ؟

– ربيعة .

– واسم ابيك ؟

– شروان الفارسي !

– وفي اي بلد قتل ؟

– في نيسابور ولا تنس انه كان من عظماء القوم . . وقد دخل في الاسلام قبل ان اخرج الى الوجود ! أفهمت الان ؟

– نعم وسأنقل الى غمرة والعبدين ما سمعت لكي يحفظوه . . ولكن ارجو بعد كل هذا ان تعدلي عن الرحيل . .

وأومأت اليه بالانصراف وهي تقول : عندما تمسي في الهزيع الثاني من الليل نترك مرو .. اسمع ما اقوله لك ولا تتردد في الطاعة.

وعمدت عندئذ الى جراب لها فاخرجت منه قطعة مستطيلة من العاج ، وكتبت الى طارق سطوراً قليلة ، املاها عليها الشقاء في الحب . .

ثم جعلتها داخل قطعة من الديباج ودفعتها الى جاريتها قائلة : تسلمينها الى طارق بن عبد الله عندما يعود واحذري ان يراها احد قبل رجوعه . .

وانصرفت الى حجرة ام عامر ، وجعلت تذكر لها احسانها ، وتحلف لهـا انها لن تنسى الجميل والعناية اللذين احاطتها بهما . وام عامر لا تفهم مـني ذلك الاعتراف ، ولا يخطر لها ان معناه القيام بواجب التوديع . .

* * *

- ٦٠ -

لم يذرف خراذمهر ، صاحب جبل الزهـــاد ، دمعة على يزدجرد ولم يشعر بذلك الحزن الذي يشعر به العبد الامـــين بعد موت سيده . إن يزدجرد اساء اليه والى رفاقه القواد ، باستسلامه الى رأي اعدائه ، واستخفافه باراء المخلصين له . . وكانت عاقبة ذلك الاستخفاف ، الموت خنقاً كما رأيت . وقد عـــول صاحب الجبل ، على قضاء عمره في جبله ، راضياً بما قسمت له الاقدار ، من عيش رغيد ، وحياة هادئة .

وفي اي شيء يطمع بعد ان رأى ما رآه ؟ أفي استرجاع العرش وقد قتل يزدجرد ، ام في طود العرب ، وحصون فارس لم يبق غير انقاضها ، وجيش الفرس مهدم وسيفه مفلول ؟ !

واي فتى ترفعه فارس الى عرشها وتعصب جبينه بتاج ملوكها ، وليس في سلالة كسرى من يصلح للامر ، بل ليس فيها من يجسر على الظهور . خير للامراء

الذين أبقت عليهم الحروب في بلاد الفرس، ان يرضوا بحكم الفاتح العربي، ويلجأوا الى الطاعة التي لا تردد فيها ولا رياء. ذلك مـا كان خراذمهر يفكر فيه، بل كان يفكر، في ان يلقي سيفه عند قدمي عامل المروين الظافر، ويظهر له خضوعه بنبالة وشرف، ثم يعود الى جبله ليعيش مطمئناً في ظل ذلك الخضوع. وبينا هو يهم بالذهاب ليمثل بين يدي الاحنف، بلغه ان سنجان قد قتل، وان الاحنف لا يطيب له ان يبقي على الامراء الذين كانوا أنصاراً ليزدجرد، والذين رافقوه، والسيوف في الأيدي، الى مرو الشاهجان. فقال في نفسه: الصبر خير من التعجل في الامر.

وقد خاف ان ينتهي به مثوله بين يدي الفاتح، الى الهلاك.

ثم ذكر برسي اسير سنجان، ذلك الخصي المسكين الذي وضعه في قفص كما يوضع الحيوان، وطاب له ان يدعوه اليه وينظر في أمر خيانته التي وصفها له سنجان وهو في الجيش. فأمر غلمانه بأن يحملوه اليه، ففعلوا، وبرسي لا يعلم شيئاً من أمر سنجان وامر الملك. وكان يسأل حراسه عمـا انتهى اليه امر يزدجر، ولكنه لم يسمع لسؤاله جواباً، فقد منع خراذمهر الحراس من ان يقولوا له كلمة.

فلما حمل الى قاعة الجلوس، في الحصن، رأى خراذمهر رجلاً واهي القوى، وقـد رثّ الثوب الذي يلبسه حتى كاد يبلى. فقال لمن حوله: أليس في جبل الزهاد ثوب تعطونه إياه؟

فاجابه برسي قائلاً: لا ينزع هذا الثوب وأنا حي!

– ولكن يد البلى ستنزعه على رغمك.

– خير لي ان يسلبني البلى إياه من ان تمتد اليه يد بشري!

قال: يظهر ان لهذا الثوب سراً لا تبوح به لأحد.

– بل أبوح به لكل الناس.. انه الثوب الذي يغذي حقدي على يزدجرد الذي ألبسني إياه..

قال: يجب ان يموت حقدك فيزدجرد قد مات.

قال: اتهزأ بي ياخراذمهر وقد كنت في البلاط اعظم شأناً منك ومن رفاقك؟
– وهـل يقوم في ذهنك اني اهزأ بمثل هذا ؟ أفلا ترى اني رجعت من مرو وأقمت بهذا الحصن على ان لا اخرج منه بعد موت الملك ؟

فجعل ينظر الى من حوله ثم قال : اتقسم لي ؟

– اجل !

– وهل مات حتف أنفه ؟

– بل مات خنقاً بوتر وحمل ماء المرغاب جثته الى فوهة الزريق .

فتنهد قائلاً : لقد سلمت فارس فالحمد لله ..

قال : أعطوه ثوباً يلبسه في هذا العيد ..

قال : نعم ان موت الملك عيد في نظر رجاله المظلومين الذين جعل أقفاص الحديد منازل لهم .. أين هو الثوب ؟

فحملوه اليه فقال : دلوني على موضع أخلع فيه هذا .

فتقدمه حارسه الى حجرة تجاور قاعة المجلس ثم دفعه اليها ، وأغلق بابهـــا وجعل ينظر من ثقب فيه ، الى الداخل . فلمـا لبس برسي ثوبه الجديد . وضع الرق في حزامه كما كان ، والحارس يراه ، ثم خرج قائلاً : اجعلوا ثوبي البالي أثراً خالداً من آثار يزدجرد . ورجع الى القاعة وهو يبتسم ابتسامة الظفر .

فقال خراذمهر : والآن فاني اسألك .. قال : هات !

– في أي شيء استحققت هذا الجزاء من الملك ؟

– وكيف تسألني عن امر تعرفه انت كما يعرفه سواك ؟

– كان سنجان يقول انك من الخونة وانا لا أعلم بماذا .

– وأين هو سنجان اليوم ؟

– قتله عامل المروين في ساحة مرو الروذ .

فبرقت عيناه قائلاً : اذن فقد انتهى الامر وظفر المسلمون .

ثم رفع رأسه وجعل يقول : أأسير انا ام حرّ ؟

– انك أسير الآن وقد تمسي حراً .

قال : أنصح لك بأن تصالح المسلمين وتخضع لهم .

– وأي شأن لك بهذا وأنا لا احدثك به ؟
– لي من وراء ذلك غايتان : احداهما اني لا اريد ان تخسر حياتك .
– والغاية الأخرى ؟
– اما الاخرى فهي اني مسلم ، فاذا خطر لك بعد ان استقام الامر بالإسلام أن تسيء الي ، كان جزاؤك جزاء سنجان نفسه ..

فدهش القائد وقال : مسلم ...! وقد كنت خصياً من خصيان البلاط الفارسي ؟!

– اجل ، ولولا اسلامي لما جعلني يزدجرد وسنجان اسيراً في قفص .
قال : خرجت من وادي خواست رسولاً اميناً ليزدجرد ..
– ولكني رجعت وانا مؤمن بالله الذي لا إله إلا هو ..

وقص عليه عندئذ حكاية اسلامه ولم يبح له بسر الرسالة التي حملها من شهريار إلى ابنته .
قال : وكان شهريار مسلماً ؟
– نعم واني لأعجب لأمر ..
– ما هو ؟
– هو انك كنت من انصار الملك وكان الملك يبوح بأسراره لاولئك الانصار .

قال : أخبرنا الملك أن شهريار كان خائناً كما كنت انت ولم يذكر لنا شيئاً آخر . انه كان يكره ان يتحدث بالاسلام ، وهو بين قواده ، ولم يكن من رأيه على ما يظهر أن يقول للناس ان خصيانه يتركون دين آبائهم ليعتنقوا دين العرب الفاتحين .

قال : لقد عرفت الآن ما لم تعرفه بالامس فماذا ترى ؟
– ارى ان تحدثنا بأمر الرسالة التي اعطاك اياها يزدجرد .
– انها رسالة دفعها الي شهريار ، بأمر يزدجرد ، لأحملها الى ابنته وهذا كل ما أعلم فلا تسألني عن شيء آخر .

– أتعرف الاحنف ؟

– لا أعرف من امراء العرب غير زياد المازني نائب الاحنف في مرو .

– وماذا تصنع يا برسي اذا جعلناك حراً ؟

– اخرج من هذا الجبل الى مرو الشاهجان ، ثم انتقل منها الى مرو الروذ حاملاً الى امرائها خبر موت شهريار ، ثم انصرف بعد ذلك الى حيث لا اعلم .

– وهــل تظن ان الاحنف لم يخبر القوم بمقتل شهريار ، قبل ان يحكموا عليه بالموت ؟

– هب انه فعل ذلك فلا بد لي من الذهاب .

فقال الحارس : يظهر ان معه شيئاً يحمله الى القوم .

– وماذا يحمل اليهم وهو لا يملك غير ثوبه ؟

– رأيت ذلك الشيء في يده يا مولاي ثم خيل الي انه يضعه في حزامه .

– ماذا تحمل يا برسي ؟

فآثر الرجل الاعتراف بالرضى،على ان ينتزعوا ما يحمله بقوة الرجال، فقال:

احمل وصية شهريار التي كتبها في خيمة يزدجرد .

– وتسلمها الى ابنته التي ذكرت ؟

– اسلمها الى الاحنف نفسه .

– وهل قرأتها انت ؟

– ليس لي ان اقرأها فقد امرني المسكين قبل موته بأن لا افعل .

– واذا امرناك ان تسلمها الينا ؟

– لا تؤخذ الوصية مني الا اذا قتلت !

فاطرق خراذمهر قليلاً ثم قال : اما نحن فلا نريد ان نأخذها بالقوة .. انها لك وستدفعها الى من تشاء بعد خروجك من جبل الزهاد .

ثم قال لرجاله : اجعلوا برسي في احدى حجرات الحصن فهو ضيفنا ..

قال أرجو من الامير ان يأذن لي في الانصراف فذلك خيرٌ لي .

– بل تبقى الآن فقد يكون الامير رفيقاً لك الى مرو الروذ .

قال : انك تمزح، فالقوم أعداؤك وانت لا تريد ان تزور الاعداء .
ـ لقد كانوا اعداءنا والملك حي ، اما الآن فلم يبق الا أن نخضع حقناً لدماء اهل فارس .. انصرف الآن وسندعوك في وقت آخر .

فمشى وراء حارسه وهو يقول: اشكر لك يا خراذمهر هذا الاحسان وسترى اني لا انساه ..

فقال القائد لمن حوله : ليس من الرأي ان نغضب برسي ، فهو اذا غضب غضبت العرب !

فأجابه احد رجاله قائلاً : كان عليك ان تقرأ وصيته فقد يكون ما نكره.
فانتهره قائلاً : وماذا تفعل اذا كان في الوصية مـا تكرهه فارس ؟ اتحمل سيفك لتدافع عن قومك وقد رأيت ما رأيت ؟ ان الرأي أن نضع ايدينا في يد الفاتح فقد انتهى امر فارس اليوم . وقـــام فخرج ليرى بعينيه حجرة ضيفه الجديد ... ويمهد له سبل الراحة في ذلك الحصن .. والحكمة وحدهـا هي التي أملت عليه ان يفعل ما فعل .

* * *

- ٦١ -

ذعر ماهويه عندما بلغه ان طارقـاً ابن عبدالله انتهى الى قصر الامارة وهو يسأل عنه وكان طارقاً يريد ان يتعجل في امره ، ليعود الى مرو الروذ ويرى حبيبته التي جارت عليها الاقدار وهي في ظله . فلما ابصر ماهويه قال له : لي حاجة أتيت لأسألك قضاءها باسم الاحنف ..

قال : الاحنف يأمر ولا يسأل .. اذكر حاجتك أيها الامير .
قال : أعرفت جميع الرجال الذين كانوا أركاناً لحرب يزدجرد يوم قدم مرو؟
ـ أجل ، واني لأعدهم الآن دون ان أنسى احداً ..
ـ وكان شهريار معهم ؟

– لو كان معهم لذكرت ذلك لعمك يوم أمر بقتل سنجان .. ألم ينقل اليك الناس خبراً عنه ؟

– لم نسمع شيئاً فكأن شهريار لم يكن في الوجود .

قال أخشى ان يصدق القول الذي قلته لكم وانا في مرو .

– لقد نسيت ما قلت .

– خيل اليّ في ذلك اليوم ان يزدجرد قتل شهريار وبرسي بسعاية سنجان نفسه.

– لقد ذكرت الآن ولكن لا اظن انه قتلها ..

– وماذا تريد الآن ؟

– اريد ان اعرف مقر شهريار وارجو ان تعلم اني لا اعود الى مرو الا اذا عرفت ذلك !

فوضع يده على جبينه ثم قال : ومن يعلم مقر الرجل بعد هذه الغيبة التي طالت أيامها ؟

قال : يعرفه اولئك القواد الذين رافقوا الملك ثم أمرهم بطلب منك ..

فاشرق جبينه قائلاً : أصبت فهؤلاء يعلمون ما لا نعلم ... وجعل يعدّهم واحداً واحداً ويقول : فرخزاذ . قائد الرهائن .. وهذا في ديار قومه في اقصى خراسان فلا نستطيع الوصول اليه الا بعد شهر ... وسنجان قد مات ولا خير فيه ولو كان حياً ... ولكن بقي خراذمهر .. وهذا يقيم بجبل الزهاد والجبل قريب من مرو ... نعم خراذمهر .. انه يطلعنا على كل شيء اذا اراد .. أتريد ان تذهب الى الجبل لتراه ؟

– بل اذهب الى اقاصي الهند والصين اذا كان في ذلك بلوغ الغاية .

– ولكن الرجل من أتباع الملك وقد يؤثر الموت على ان يبوح بما يعلم .

قال : أتراه يستطيع ان يشهر الحرب من اجل ملكه الذي قتل ؟

– قد لا يستطيع ذلك فرجاله لا يجاوزون الالف ، ولكن الاخلاص يفعل العجائب فهو اذا اراد ان يكتمنا سر شهريار كتمنا إياه ولو خسر حياته .

– وهل تظن انه رأى شهريار عند يزدجرد ؟

– بل انا واثق بهذا لأن شهريار كان في وادي خواست كما قال برسي ، وخراذمهر لم يفارق الملك الا في مرو .

– اذن نسير غداً ويفعل الله ما يشاء .

– وتتبعنا قطعة من الجيش الى الجبل ؟

– لا يتبعنا غير رجالي الاربعة القائمين الآن بالرواق .

– وكيف تدخل ارض عدوك وليس حولك من يدافع عنك .

– لم يبق بعد مقتل الملك ارض يسمونها ارض العدو !! ان بلاد فارس كلها للفاتح واذا طاب لخراذمهر ان يخرج من جديد عن الطاعة ، ملأنا جبله رجالاً وعلمناه بقوة السيف ، ان يطيع ..

قال : لم يبق اذن ، الا ان نضرب موعداً لجيش مرو .

فسأله طارق عن ذلك الموعد فقال : ستسمع الآن كل شيء . ونادى حاجبه قائلاً : علي ببراز .

فأقبل ولده براز ، فقال له : سنترك مرو غداً الى جبل الزهاد ، فاذا مرت عشرة ايام ولم نرجع فابعث بالجيش كله الى ذلك الحقل وكن أنت على رأسه أفهمت ؟

– فهمت كل شيء يا مولاي .

فقال طارق: احسنت فتلك هي حكمة القواد وبات القوم ليلتهم، ثم خرجوا عند الصباح يريدون الجبل القائم في منتهى الافق ، وكان قلب طارق مضطرباً وهو يحدثه بان القدر سيكون عدواً له ..

وكان خراذمهر يجالس برسي كل يوم ، ويعده بان يرافقه الى مرو بعد ان تمر الايام وينسى الاحنف يزدجرد . وبرمي يلح في طلب الذهاب ، وقد ضمن له رضى الاحنف وسكوته عما مضى حتى كان اليوم الذي اقبل فيه طارق وماهويه صاحب مرو الشاهجان ، احد الرجلين اللذين يستأذنان في الدخول .

فخف لاستقباله وهو يهش له ولرفيقه ،وقام في ذهنه انه رسول الاحنف وهو لم يجيء الا لأمر .

والرجل يتفرس في طارق وقد ايقن بأنه من امراء العرب .
رأى بدهائه ، ان يبدأ بذكر الماضي ، ليفاجىء الاثنين بأخبار خضوعه بعد موت الملك ، قبل ان يحدثاه بأمر الخضوع .

فقال : كنا ايها الامير منذ زمن قليل عدوين احدنا يناصر العرب والآخر يناصر يزدجرد ..!
فقال ماهويه : والآن ؟
– اما الآن فقد اضمحلت هذه العداوة وقام مقامها ولاء لا يزول بزوال العمر
فنظر صاحب مرو الى طارق قائلاً : اسمعت ايها الامير .. ان خراذمهر الذي كان قائداً من قواد الملك يسبق الناس جميعهم الى الطاعة ؟!

وقال لخراذمهر : انه طارق ابن الامير عبدالله شقيق الاحنف بن قيس والي المروين ، وسيد الميادين .

فانحنى الرجل وتمتم قائلاً : لم اعرف الاحنف ولكني سمعت انه اعظم الامراء هيبة في خراسان وأبعدهم اثراً .. ثم قال : ما هي الغاية من مجيء الامير طارق الى جبل الزهاد ؟

– امره عمه بأن يطوف في البلاد ويتبين عن كثب خضوع الامراء الذين كانوا من رجال يزدجرد !

قال : انا اول من يظهر الطاعة للعرب ، وكنت أهم بالذهاب الى مرو لأمثل بين يدي اميرها ، مع خصي غضب عليه يزدجرد قبل موته وأمر به فجعل في قفص من حديد .
فارتجفت شفتا طارق وقال : وماذا يدعى هذا الخصي ؟
– برسي .
فقال ماهوية : لقد عهد الاحنف الى ابن اخيه في البحث عن برسي الذي ذكرت فأين هو ؟
– في هذا الحصن .. ادعُ برسي ايها الغلام .
فخرج الحاجب ولم يلبث حتى عاد وبرسي معه ، فقال خراذمهر : هذا

صاحب مرو الاولى ، وهـذا طارق ابن اخي عامل المروين وهما يسألان عنك فهل تعرفها ؟

فدمعت عينـاه وجعل يقول لطارق : لا .. لا اعرف احداً ولكني عولت على المسير الى مرو مع خراذمهر لانقل اليكم ما اعلمه عن شهريار . وجلس وهو يمسح دموعه ، فقال طارق : وماذا تعلم عن شهريار ؟

– اعلم اشياء يعلمها هذا مثلي .. واومأ الى خراذمهر .

– واين تركته ؟

– في وادي خواست ولكني لا اعرف الموضع الذي جعلوا جثته فيه ..

فتراجع قائلا : قتلوه في ذلك الوادي ؟

– اجل، قتله يزدجرد وسنجان لانه مسلم، ووضعت السلاسل في عنق برسي الذي يخاطبك الآن ، منذ ذلك الحين .

فجعل يقول : هذه اكاذيب سنجان تظهر الان .. فليعلمهـا عمي الاحنف، وأبي عبد الله :

وهل شهدت مقتل الرجل ؟

– نعم ورأيت دمه يجري في خيمة الملك ، وقد غاصت فيه قدما يزدجرد واقدام الرجال الذين مزقت سيوفهم جسده . . واخذ يصف لهم مشهد القتل كما جرى ، وهم يصغون اليه ، وعينا طارق تملأهما الدموع وكان يقول في نفسه : يكفي ان يعلم الاحنف ان شهريار الذي كان خائناً في نظره ، بذل نفسه في سبيل شرفه ووفائه .

وكان ماهويه ساكتاً ، فلما رأى دموعه قال : حسب الامير اني قتلت قاتل شهريار كما يقتل المجرمون الجبناء ؛ على ان طارقاً لم يجب فقد كان يفكر في أمر آخر، هو امر اليتيمة التي زعم سنجان انها ابنة شهريار ، من خليلته زوجة ذاك الخادم الفارسي .

وشهريار قد مات ، فلم يبق في الوجود ، من يستطيع ان يطلع الاحنف ، على سر الفتاة المنكودة الحظ . واي رجل ، بعد موت ابيها ، وموت سنجان يستطيع ان يثبت للقوم انها ليست ابنة زانية ؟ وهل يتزوج سيد فتيان بني

لهم ، بفتاة تجعل العشيرة نسبها مضغة في الافواه ، ويتحدث بزنى والدتهـــا كل عربي؟ ! ان موت شهريار، كان اشد وقعاً على الفتى العاشق ، من حكاية سنجان التي بزقت فؤاده وأرسلت الريب الى صدره .

وبينا هو ذاهل ، خطر لخراذمهر ان يسأل برسي عن الوصية فقال : لم تقل للامير كلمة عن الكتاب الذي تحمله الى الاحنف ، فصحا الفتى من ذهوله وقال:

تحمل كتاباً الى عمي ؟

ـ أجل وهو الكتاب الذي سلمه اليّ شهريار قبل موته .

فلمع البشر في عينيه وصاح قائلاً :

الحمد لله ، ان في هذا الكتاب مفتاح السر ورحم الله شهريار، فهو لم ينس شيئاً .. ومتى كتبه ؟

ـ كنا نتحدث بامر الاسلام ، بعد رجوعي من مرو ، ونحن في خيمة الملك، وكان سنجان في خيمة قريبة وقد سمع كل شيء ، ثم رآه شهريار خارجاً منهـــا فأيقن بأنه سينقل ما سمعه الى يزدجرد وليس بعد ذلك غير الموت ..

ـ وكتبه عندئذ ؟

ـ نعم كتبه ويده ترتجف ، وكان ينظر الى الباب كأنه يرى الموت حتى انتهى منه ودخل الملك ، وذلك الساعي اللعين وراءه ، ثم حدث القتل .

ـ واين وضعت كتابه ؟

ـ هو في حزامي لم اغفل عنه لحظة واحدة .

قال : اعطني اياه فأنا ابن أخي الاحنف .

ـ لا والله لا اسلمه الا الى الاحنف نفسه ، فاذا هلك فالى عبد الله اخيه ثم اليك انت ، ثم الى الفتاة ابنة شهريار .

ـ يظهر ان شهريار نفسه امرك بذلك .

ـ نعم وقد كتب هذه الاسماء جميعها كي لا انسى اسماً .

قال : اقرأ وصية الرجل واقسم لك اني اكتم ابي وعمي مـــا قرأت ، ولا ابوح به لأحد من الناس .

ـ ومع ذلك فانا لا استطيع ان افعل .

فلم يرَ الفتى ان ينتزع الوصية انتزاعاً ويقابل وفاء الرجل بالشدة وهــو العربي الذي كان الوفاء ولم يزل من شيمته وشيمة قومه ، كما انه كان يخشى ان ينصرف برسي الى مرو فيرى الاحنف في وصية شهريار ما يثبت اقوال سنجان وهناك البلية التي ليس لها دواء . . فأخفى وجهه بين يديه وغـــاص في لجة التفكير . .

ثم رفع رأسه قائلاً :

ألم يقل شهريار للملك كلمة قبل موته ؟

– بلى ، قال كلاماً لم يقل مثله ليزدجرد احد من قبل .

– وهل تذكر شيئاً منه ؟

– اذكر انه اعاد عليه حكاية حادثة جرت بينهما وكان يقول له : « اذكر يا يزدجرد ان القائد ابان زرد ، الذي قتل في القادسية وهو يدافع عن عرشك ، اوصاني بان اجعل ابنته جهان روز زوجة لي، وقد طلبت اليك وهي في بلاطك ان تزفها اليّ فلم ترض وليتك وقفت عند هذا الحد » .

– ثم ماذا ؟

– وكان يقول : « واذكر انك طردتني يومئذ من البلاط كما يطرد السائل الوقح واحتفظت بالفتاة لنفسك، ثم جعلتها حظية لك لتنتهك حرمتها ثم لتقذف بها بعد ذلك الى القبر » .

انها كلمة لا انساها لفظها شهريار وهو يرتجف ولو استطاع في تلك الساعة ان يقبض على عنق الملك لخنقه ولم يبال بالسيوف التي تلمع فوق رأسه ، ويلمع على شفارها الموت .. وكان طارق قد حبس انفاسه ليسمع كل شيء ، فقـال : وبعد ذلك يا برسي ؟

– مشى شهريار بعد ذلك حتى دانى يزدجرد وقال :

« اما وقد حكمت عليّ بالموت ايها الظالم فاعلم اني اموت وانا مسلم ، وانك لا تستطيع ان ترى اليتيمة المنكودة الحظ بعد موتي ، وان الحكم الذي لفظته شفتاك الان سيعقبه موتك ايها الغدار » .

تخطفته السيوف عندئذ وملأ دمه واشلاؤه خيمة يزدجرد ثم جـــاء دوري

فخطر له ان يعذبني الى الابد ليعلم خصيانه وقواده الخضوع لملكهم والاخلاص له ..!،

فايقن طارق في تلك اللحظة بأنه ليس في الوصية مـا يخافه قال له : تهيأ للذهاب غداً الى مرو فالاحنف يريد ان يراك .

فقال خراذمهر : وانا اذهب لأظهر خضوعي وأسأل والي المروين ان يجعل احد عماله في جبل الزهاد .

قال : ستكون انت عامله عليه ذهبت أم بقيت .

– ولكني اريد ان اسمع ما جاء في الوصية !!

– لمـاذا ؟

– لانه قد يكون فيها ما يتعلق بي ...

فنظر اليه مستغرباً وقال : واي شأن لك بما كتبه شهريار وانت لا تعرفه ؟

– يخيل اليّ اني عرفته من قبل ... وابان زرد قتيـل القادسيّة الذي ذكر برسي اسمه الان هو اخي ! !

– وكيف كنت من انصار الملك وهو الذي انتهك حرمة اخيك وجعل ابنته بالقوة بين حظاياه ؟ !

– تركت الحرب بعد موت اخوي رستم وابان زرد ولجأت الى هذا الجبل ولم أعلم شيئاً مما ذكره برسي الساعة .

– ولو عرفت ذلك من قبل لما كنت عوناً للملك .

قال : لو عرفته لأغمدت خنجرى في صدر ذلك اللعين الذي انطرح اهلنا وقومنا جثثاً في سبيل استرجاع عرشه .

قال : لقد استرحت منه الان واستراحت العرب ، وان الرب القادر القهار هو وحده يعاقب الظالمين . واستأذن خراذمهر عندئذ ، في ان يطوف حـول الحصن ليرى سراديبه وابراجه ، وينقل الى الاحنف ورجاله اخبار مـا يراه . ثم رجع بعد ساعة وقضى نهاره وهو يفكر فيما سمعه ، وبات ليلته ساهراً وقد ساءه موت شهريار ، بل ساءه ان ينقل النبأ المروع الى الفتاة التي أحب . .

* * *

اصابع الفتنة

في السنة الثلاثين للهجرة ، أمر سعيد بن العاص ، والي الكوفة حذيفة بن اليمان بان ينصرف عن الري الى الباب ليكون عوناً فيها لعبد الرحمن بن ربيعه ، ففعل حذيفة ما أمره به . واقام بذلك القطر حتى تم للمسلمين الأمر ودانت لهم الباب ، وما حولها من اقاليم . فلما رجع قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت في غزوتي هذه امراً ، لئن ترك ، لاختلف الناس في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً.

قال : وما ذاك ؟

قال: رأيت اناساً من أهل حمص يزعمون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم وإنهم اخذوا القرآن عن المقداد .

ورأيت أهل دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم ورأيت اهل الكوفة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابن مسعود. واهل البصرة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابي موسى الاشعري ويسمون مصحفه ، لباب القلوب . ثم خبر حذيفة الناس في الكوفة ، وحذرهم ما يخاف . فوافقه اصحاب رسول الله وكثير من التابعين ، ولكن اصحاب ابن مسعود لم يوافقوه وكانوا يقولون : نقرؤه على قراءة ابن مسعود .

فقال : انما انتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ ووالله لئن عشت لآتين امير المؤمنين ولأشيرن عليه ان يحول بين الناس وبين ذلك . فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد بن العاص ، وغضب حذيفة وقاما وتفرق النـــاس ، والضغينة والغل في الصدور .

ثم سار حذيفة الى عثمان ، وخبره بالذي رآه وقال : ادركوا الامة .

فجمع عثمان الصحابة وقص عليهم ما سمعه ، فأعظموه ، ورأوا جميعاً ما رآه حذيفة وخافوا ان تستيقظ الفتنة وتندلع ألسنة النار . فارسل عثمان عندئذ الى حفصة بنت عمر بن الخطاب يقول لها : ارسلي الينا بالصحف ننسخها..

وكانت هذه الصحف ، هي التي كتبت في أيام أبي بكر ، فان القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة ، قال عمر لأبي بكر : ان القتل قد كثر واني اخشى ان يستحر بقراء القرآن فيذهب من القرآن شيء كثير ، قال : وما ترى ؟ قال : أرى ان تأمر بجمع القرآن . فأمر ابو بكر عندئذ ، زيد بن ثابت ، فجمعه من الرقاع والعشب وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر . فلما توفي عمر ، اخذتها حفصة ابنته فكانت عندها حتى ارسل عثمان يأخذها منها وامر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف وكان يقول لهم: اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم .

فلما فعلوا ، ردّها عثمان الى حفصة وارسل الى كل افق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . فعرف الناس فضل هذا العمل الا اهل الكوفة ، فقد امتنعوا من ذلك . وعاب بعضهم امير المؤمنين ، ثم ارتفعت الاصوات هذا يشكو عثمان وهـذا ينتصر له حتى عمت الفتنة ، فتنـة القول ، جميـع الاقطار التي ينزلها المسلمون .

وامسى الناس في الظاهر ومن وراء الستـــار ، فريقين ، أحدهما يشايع الخليفة ، والاخر يكيد له ، فكأن القوم ، من الناحيتين كانوا يهدمون بأيديهم بناء تضامنهم الراسخ ولا يبالون :

واقبلت السنة الثانية والثلاثون والنـــاس على ما رأيت ، وعبد الرحمن بن ربيعة عامل لعثمان على الباب ، وقد تتابعت غزوات جيشه ، وكثرت الحروب بينه وبين أهل الخزر والترك . والنصر يبسم لرجاله ، والعدو يتراجع امام سيفه. حتى اجتمع الترك فقالوا : كنا امة لا يجسر احد على ان يدنو منا حتى جاءت هذه الامة القليلة فاقتحمت علينا ارضنا وظفرت بنا .

فقال بعضهم : ان هؤلاء الغزاة لا يموتون ولو كانوا يموتون، لأصيب في غزوهم رجل منهم !! قالوا ذلك،لان المسلمين لم يقتل احد منهم في الحروب التي استعرت نارها بينهم وبين القوم ، من قبل . فقال البعض الآخر : نجرب هذه المرة فقد عرفنا انهم يتهيأون للزحف وسنكمن لهم في الغياض ونرميهم بالنبال . وجعلوا يعدون العدة ليقابلوا الغزاة ، بالقوة التي تضمن لهم سلامة الوطن ...

ووضعوا ايديهم ، من اجل هذه الغـاية ، بأيدي اهل الخزر وتعاهدوا على الدفاع في ساحات القتال حتى يظفروا او يموتوا . وجعلت صفوف الخزر ، تنضم الى صفوفهم ، في ذلك الاقليم . وكان امير المؤمنين ، قد بلغـه ان عبد الرحمن يهم بالغزو ، فكتب اليه : « ان الرعية قد أبطرتها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فاني أخشى ان يقتلوا » .

ولكن عبد الرحمن لم يرجع وقد كره ان يرتفع في الاقليم الذي يجاور ولايته ، رأس ملك او امير . وغزا القوم ، واهل الكوفة وراءه يدفعونه الى مواقف الشرف ، ويبتسمون للموت ، الذي يفاجئهم وهم في الميادين . فانتهى الخبر الى عثمان ، فأرسل الى سعيد بن العاص ، يأمره بان يبعث بسلمان بن ربيعة ، اخي عبد الرحمن ، مدداً لأخيه .

ومشت طليعة عبد الرحمن الى الساحة ، وهي مؤمنة بأن النصر سيتم للجيش العربي في اول جولة تجولها الخيل . غير ان الترك والخزر ، الذين كمنوا للمسلمين في الغيـــاض ، كانوا على حذر ، وكانت عيونهم في الجبل والسهل ، تحصي على العدو انفاسه . فلما دنا رجال المقدمة من الكمين ، أمطرهم اهل الغياض وابلاً من النبال ، فتضعضعوا ، ثم انقضوا عليهم بالسيوف فحصدوهم حصداً لم يبق منهم غير رجل واحد لجأ الى الفرار حاملاً النبأ الرائع الى عبد الرحمن . أجل ، قتلت طليعة عبد الرحمن قتلاً لم يرَ اشد منه ، فزحف حانقاً يفكر في التقتيل والتدمير والهدم ، بل كان يفكر في القضاء على كل فتى من فتيانهم يحمل السيف !! ولكنه اصطدم بالاسوار عليها المجانيق ، ترسل القذائف الى قلب جيشه وجناحيه ، وتلقي الذعر في القلوب . فجالد وصبر ، وجعل يدور حول بلدهم فلا يلقى غير الموت تحمله السهام ، من الابراج الى الرجال . وبينا هو ينظر في الامر ، ويعد عدته لهجوم عام تتحطم معه الاسوار ، خرج جيش العدو فجأة الى الفضاء ، ودارت في ذلك السهل الذي يحيط بالبلد ، رحى قتال هائل اهتزت له الارض . وقبل ان تغرب الشمس ، تمشت في جسم الجيش العربي قشعريرة الخوف ، واتجهت العيون الى منافذ الفرار . .

وكان الفارس يهامس اخاه قائلاً له : قتل عبد الرحمن . نعم ، قتل القائد

الباسل الذي قضى حياته كلها في الميادين حاملاً لواء الظفر ، ولم يلبث الجيش على أسى فرقتين هاربتين ، هذه الى مدينة الباب ، والاخرى الى ناحية جرجان ، في الشمال الغربي .

وكان سلمان بن ربيعة قد انتهى الى الناحية الاولى ، فلما رأى ان الجيش اندحر ، وان اخاه قد قتل ، آثر البقاء في البيت ريثما يتهيأ من جديد ، للزحف الى اقليم العدو الظافر . وورد امر سعيد بن العاص ، بجعل سلمان عاملاً على ولاية اخيه عبد الرحمن ، وجعل حذيفة بن اليمان ، اميراً للغزو ، بأهل الكوفة . ثم أمدهم امير المؤمنين بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة القرشي ، وهو من وجوه الناس . فأراد سلمان ، وهو عامل الاقليم ، ان يكون صاحب الامر . فأبى حبيب ولم يشأ الاعتراف بسلطانه . حتى همّ اهل الشام بان يضربوا سلمان ، على مرأى ومسمع من القوم ، فقال اصحابه : اذن نضرب حبيباً ونحبسه وان أبيتم كانت القتلى فينا وفيكم ...

وقال أوس بن مغراء في ذلك :

ان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وذلك هو اول اختلاف وقع بين اهل الكوفة والشام . وبدأ بعض القوم ينظر الى البعض الاخر بعيون فيها شرر البغض وكانت الحادثات تتمخض بالفتنة العامة بين المسلمين ، تشتعل بعدها النار ...

* * *

- ٦٣ -

لم يشأ طارق ان يرى اليتيمة ، قبل ان يرى عمه وأباه ، ويقرأ الاثنان وصية شهريار ...

وكانت الوصية التي يحملها برسي تحمل اليه الامل الضائع ، وتعيد اليه الرجاء ، فلما انتهى مع خراذمهر وبرسي الى مرو الروذ ، مشى الى قصر الامارة

واستأذن على الاحنف ، ثم دخل الثلاثة والاحنف جالس لحاجات الناس مع اخيه عبد الله ، وعنده وجوه القوم من عرب وفرس . فنظر الاحنف الى اخيه نظرة خاصة ، ثم انثنى يحدق الى الفتى وقد اطلت الشفقة والحنان من عينيه ، ثم قال : متى قدمت يا بني ؟

فدنا الفتى وعانق عمه واباه ثم قال : قدمت الساعة ولم ارد ان أرى احداً قبل ان امر بهذا المجلس .

– وهل قضيت حاجتك ؟

– يخيل اليّ اني قضيتها وسترى !

فهامس أخاه قائلاً : يظهر انه لا يعلم شيئاً مما جرى .

وجعل ينظر في حاجات القوم حتى خرجوا جميعاً ولم يبق في مجلسه غير الثلاثة ، وعبد الله ، فقال : الى اي بلد انتهيت يا طارق ؟

– الى مرو الاولى ثم الى جبل الزهاد .

– ورأيت عاملنا ماهويه ؟

– نعم وكان رفيقاً لي في رحلتي الى الجبل وقد عاد اليوم الى بلده .

– وهذان الرجلان ؟

– هذا خراذمهر، شقيق رستم القائد الفارسي الكبير الذي قتل في القادسة وهو صاحب الجبل الذي ذكرت .

فجعل يردد اسم خراذمهر ، ثم بان الغضب في عينيه وقال : لقد ذكر لنا ماهويه من قبل اسم خراذمهر.. انه من القواد الذين حملوا السيف مع يزدجرد، في مرو الشاهجان .

فقال خراذمهر : كنت بين قواده ايها الامير ولكنني لم اجرد سيفاً في وجه عربي كما تعلم ..

– ذلك لان يزدجرد وقع في شرك ماهويه فطردكم من الجيش ، ولو لم يفعل ذلك لجردت هذا السيف . .

قال : لا تلمني ايها الأمير فقد كانت فارس كلها على دعوة الملك .

– ولكنها خسرت هذا الملك الآن ..

قال : يكفي ان للعرب ملكاً أعظم منه هو ملكها اليوم .
- وتخضعون له كما كنتم تخضعون ليزدجرد ؟
- اجل ؛ وقد قدمت مع الأمير الفتى لأظهر هذا الخضوع .
قال : كان خضوع القواد من قبل خضوعاً كاذباً سالت بعده الدماء . .
قال : ليس على الامير الا ان يصبر فيختبر خضوعي .
- ماذا تقول يا طارق ؟
- لقد اثبت لي ماهويه انه من اشراف فارس الذين لا ينكثون العهد .
قال : اهلاً بكل فارسي يضع يده بيد العرب ويكون من المخلصين..اجلس
فراذمهر فقد آمنا بوفائك .
ثم قال : والرجل الاخر ؟
- هذا برسي يا مولاي الذي حدثوك بأمر اسلامه يوم قدم مرو حاملاً رسالة
شهريار الى ابنته .
قال : برسي الذي فرّ من جيش يزدجرد مع شهريار ؟
فاجابه برسي قائلاً : ومن قال للامير أني فررت ؟
- سنجان .
قال : لا يليق بأمير المروين ان يصدق ما يقوله هذا الكاذب . .
- ألم تفر ؟
- خطر لي ان افعل فلم استطع .
- واين قضيت الايام التي أنقضت بعد مقتل الملك ؟
- قضيتها في قفص يوضع فيه النمر والذئب !! وقد كافأني هذا الملك بأن
جعله منزلاً لي ...
- اي انك كنت اسيراً .
- بل كنت حيواناً يا مولاي كما قلت ...
- ولماذا فعل ذلك ؟
- لاني خرجت عن دين فارس . .
- وشهريار ؟

– قتل شهريار يا مولاي .

فسكت قليلاً ثم قال : وكيف قتل ؟

فجعل يقص عليه الحادث ويصف له موقف ذلك الخراساني الوفي الذي ذهب ضحية اخلاصه ..

فاشرق جبينه قائلاً : والوصية معك ؟

– هذه هي يا مولاي .

فتناولها الاحنف وجعل يقلبها بيديه ثم دفعها الى اخيه وهو يقول : اقرأ يا عبد الله .

وحبست الانفاس ليسمع القوم ما ورد فيها ، فقرأ عبد الله : الى عامل المروين الاحنف بن قيس من شهريار الخراساني :

هذه وصيتي ابعث بها اليك مع برسي احد خصيان الملك الظالم ، معترفاً فيها بجميع الاسرار التي لم استطع من قبل ان ابوح بها لك ولمن حولك ؛ وقد كتبتها وعيناي تنظران الى الموت ، ويدي ترتجف ليس عن خوف ، بل عن شعور بألم الفشل والخيبة اللذين رأيت . . كنت احارب العرب في جيش القادسية كما يحاربهم سواي ، وكان قائدي الذي احبه ؛ رجلاً من اشراف فارس يدعى ابان زرد وهو شقيق القائد رستم والقائد الاخر خراذمهر . فلما دارت الدائرة على اهل فارس ، قتل قائدي ، ولكنه اوصاني وهو يلفظ روحه بان اقضي حياتي ابناً لزوجته التي تقيم بالمدائن ، وزوجاً لفتاته التي يقال لها جهان روز وكانت بين جواري البلاط الفارسي .

فانصرفت الى المدائن وكانت الزوجة قد ماتت وشيعت الفتاة جثتها الى القبر وهي تندب سوء حظها وتبكي ابويها اللذين خسرتها .

واراد الله ان يستهويني جمالها وان يتمشى الحب مع دمي ، فأستأذنت على يزدجرد وطلبت اليه ان يجود علي برضاه لأتزوج الفتاة ، فطردني من بلاطه ، ثم خطر له بعد ذلك ان يجعلها من حظاياه ، ففعل . ودار الزمان دورته ، فاذا بيزدجرد يخلع عن عرشه ، ويخرج من المدائن هارباً لاجئاً الى المدن التي كان يظن انها تثبت في وجه المسلمين .

وكنت قد خسرت يدي في الميدان ، ثم استطعت ، بفضل الحيلة والدهاء ان امسي من رجال قصره .

فلما انتهى في فراره الى حلوان ، أحست جهان روز بآلام الوضع ، وكانت قد أحست من قبل بغضب يزدجرد وقسوته وشراسته وجفائه .

وكان يعلم ان العرب تلحق به فلا بد له من الفرار ، كما انه كان يعلم ، ان جهان روز التي سقطت واهية القوى ، تحت تأثير شراسته وجفائه، لا تستطيع النجاة من الموت الذي بدأ يصارعها وهي على فراش الولادة . ولكنه لم يعبأ بذلك ، بل ترك حلوان يريد الريّ ، ووهب لي ، انا كاتب هـذه الوصية ، باستعطاف كبير خصيانه ، شيئاً من المـال اعالج به امر تلك المرأة المنكودة الحظ التي تسير بخطى واسعة الى القبر . فعل ذلك دون ان ينظر اليها نظرة او يقول لها كلمة !

ووضعت جهان روز ، ليلة فراره طفلة جذابة الملامح ساحرة العينين ، ثم لم يلبث الموت حتى ضمهـا اليه وهي تقـول : انتقم لي ، وكن أباً لطفلتي ولا تبح لها بالسر الا في عامها الخامس عشر ، واحذر ان يتزوجها فارسي . ومنذ ذلك الحين وانا ابحث عبثاً عن يزدجرد حتى اظفرني الله به ، ولكنه سيقتلني قبل ان اقتله ، فقد قرأت الموت في عيني مستشاره اللعين سنجان الذي كان حاملا لك على مرو .

فاذا اراد طارق ابن اخيك ان يتزوج اليتيمة ، فاليتيمة ليست ابنة شهريار الخراساني بل هي حفيدة الملوك الذين دان لهم الشرق وابنة الملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى من جاريته جهان روز . فصاح طارق قائلا :

اي والله ابنة يزدجرد ، وقد كانت تدافع عنه وهي لا تعرفه ، أرأيت يا مولاي انها أشرف نسباً واعظم مقاماً مما كنت تظن . . فأطرق الاحنف وهو يداعب سوطه دون ان يتكلم .

فقال عبد الله : ان جهان روز ابنة اخيك يا خراذمهر .

— نعم ، ولم اعلم ماذا جرى لها الا في هذه الساعة .

وانتظر القوم ان يقول الاحنف كلمته فلم يفعل ، فقال طارق : مــــاذا رأيت يا مولاي ؟

فتمتم قائلا : رأيت يـــا بني ان عمك واباك كانا مخطئين في ظنونهما وان سنجان خدعهما باكاذيبه .

قال : أرجو ان تأذن لليتيمة في المثول بين يديك ، لننقل اليها خبر موت شهريار ثم نسكت عند هذا الحد الان . فجعل ينظر الى اخيه كما كان ينظر اليه عند دخول طارق .

فذعر الفتى وأيقن عندئذ بان في الامر ما فيه ، فقال : أرى أبي وعمي يهمان بالكلام ثم يترددان فيه . . اني خائف .

فقال عبد الله : ليس في الامر ما يدعو الى الخوف يا بني .

– وماذ اذن ؟

– حادث جرى في مرو وانت غائب .

قال : أماتت اليتيمة ؟؟

بل خرجت من البلد ونحن لا نعلم . .

وظن الاحنف وعبدالله ان الفتى سيثور ثائره ، وسيهيج للخبر كما يهيج النمر ولكنه لم يفعل بل ظل هادئاً كأنه لا يعرف الفتاة التي قيل له انها خرجت من يده ولو لا اختلاج عينيه لقام في ذهن أبيه انه لم يسمع . . .

وجعل ينظر الى الارض ثم يرفع نظره وهو ساكت حتى ابتسم اخيراً ابتسامة هي ابتسامة القهر أو أشد . .

وخرجت من فمه الفاظ متقطعة كالمجنون يخاطب نفسه ، ثم ارسل الى أبيه نظرة حادة ، وجاد على عمه بنظرة مثلها ثم قال : اذن فاليتيمة يا عم ليست بمرو الروذ !!

فعرف الاحنف عندئذ ان ذلك الهدوء الغريب ستعقبه الثورة الجامحة وان الغرام الكامن في الصدر سيتولى أمر الكلام في تلك اللحظة .

فقال لغلامه وهو يشير الى الفارسيين : تقدم هذين الرجلين الى قاعة الاضياف ، وانظر في امرهما ريثما يخرج طارق من هذا المجلس .

فكأنه كان يخشى ، انتبدر من الفتى ، والفارسيان حاضران ، بادرة غضب ، تضيع معها عظمة الامارة ، وهيبة الاحنف بن قيس ، ثم قـــال : صدق أبوك يا بني فاليتيمة ليست في مرو ..

– ومتى خرجت منها ؟

– يوم خروجك انت وقد صبرت الى الليل ..

– ومعها جاريتها ؟

– ان الجارية باقية وهي التي قصت علي في صباح اليوم الثاني ، خبر هـــذا الفرار الفجائي الذي لم يخطر لأحد .

– وماذا صنعت عندئذ ؟

– أرسلت بضعة رجال يقتفون اثرها فلم يبصروا احداً ، ولكنهم عرفوا انها مرت بمنزل شهريار على الشاطىء ، وخرج معها منه ، ذانك العبدان ، وغمرة زوجة سنان .

– والمنزل مهجور الآن ؟

– ان في المنزل رجلاً فارسياً كان من خصيان يزدجرد ، وهو صديق شهريار ، وكيف لم تمرّ بذلك المنزل وانت راجع الى مرو ؟

– جئت من الناحية الاخرى لأتعجل في الرجوع ، ولم أكن أظن يا عمّ انك لتكيد ابن أخيك ، وتطرد الفتاة التي نشأت في ظل أبي وعاهدتها على الوفاء !!

قال : لا تظن الظنون قبل ان تسمع وترى .

– وماذا ارى ؟ سأرى الوحشة التي تركتها لي ، واسمع النـــاس يقولون : ربى سيد بني تميم فتاة ثم طردها من بيته !!

فابتسم قائلا : ليس لعمك يد في فرار اليتيمة يا بني ..

– اذن فهذه يد أبي ...

– ولا تتهم أباك فهو بريء ... واقسم لك بشرف العشيرة اننا لم نرَ اليتيمة ليلة فرارها ولم يخطر لنا انها ستغادر مرو دون ان تقول لنا كلمة .

قال : ألم تسأل حراس السور ؟

– بلى ، وقد خرجت مع سنان والحراس بالباب ..

وأومأ اليه بان يسكت ، ثم قام فخرج الى الرواق ، ولم يلبث حتى عـــاد وهو يقول : ستجيء الجارية . واقبلت الجارية بعد لحظة ، فقال: اسألها ياطارق.

قال : اين اليتيمة ياسوداء ؟

قالت : تركت المنزل يوم تركته انت .

– وكان معها غير سنان ؟

لم ارَ احداً يا مولاي .

– وهل ذكرت لك اسم البلد الذي رحلت اليه ؟

– لم تذكر شيئاً من هذا ولكنها اعطتني رسالة مكتوبة على قطعـــة من العاج ، داخل قطعة من الديباج ..

– لمن هي ؟

–لك يامولاي، وقد أمرتني بان اكتمامرها جميع الناس ولا اسلمها الااليك.

فقال عبدالله : لقد عرف طارق الان ان اباه وعمه بريئان .. اين هي ؟

فأخرجتها من صدرها وهي تقول : لم تمسها يدي الا في هذه الساعة ، خذها يا مولاي .

وناولتها الى طارق . فجعل يقرؤها وهو ساكت ، ولكنه كان يمسح دموعه كلما قرأ كلمة ، ولم ينته حتى تلاشت قواه ، وسقطت مـــن يده . فأخذها الاحنف ، وانحنى عبدالله يقرؤها مثله وقد جاء فيها : الى طارق بن عبدالله . اكتب اليك الان هذه الرسالة ، على ان ارحل عن مرو الروذ بعد ساعة ، الى مكان بعيد ، احتجب فيه ، اذا استطعت ، عن العيون . اني في نظرك ونظر الاميرين الاحنف وعبدالله، فتاة خداعة ، اكافىء الخير بالشر ،واحمل في الصدر للمحسنين اليّ ، بغضاً قاتلاً يمليـــه علي اخلاصي لعدوهم يزدجرد ملك الفرس . وهنالك شيء آخر لا انساه ، هو اني عاهدت ابي على قتلك ، وقتل ابيك وعمك بالسم اجعله في الطعام والشراب. وانها لتهمة ليس في التهم التي توجه الى الناس، اطيب منها اثراً واخف ظلاً .. وانه لشرف يطيب لي ان اذكره كلما ذكر الفضل . !

فتاة تعيش في نعمتكم يا آل قيس ، وهي خائنة . !! حسبتموها نعجةفكانت

ذنبا ، وخيل اليكم ان في صدرها عاطفة وفاء، فاذا هي لا تعرف غير النـــذالة واللؤم !!

أفتطيق يا ابن عبدالله ان تتزوج اللئيمة الخائنة الغادرة .. بل الافعى السامة التي تنفث سمها في ظلام الليل . انك اذا رضيت بذلك فـــانا لا ارضى ، واني لأضن بآل تميم ، ان يضموا الى صفوف العشيرة ، يتيمة في صدرها ا لحقد ، وفي يدها السم !!

طارق ! مانسيت قط اني أحببتك .. حبا تعجز شعراء العرب عـــن ان يصفوه ، ولم انس قط اني استسلمت الى المنى فضاعت... والى الأمل فخاب... ولكن .. ليس الذنب في ذلك ذنبي ، بل هو ذنب العاطفة التي خفقت في هذا القلب ثم قذفت بي الى الهاوية .. والان ، اعترف باني لك .. وسأبقى لك الى الأبد .. ان هذا الحب الذي ملك أمري ، وصيرني عبدة له ، هو الذي يخلق في قوة الاحتمال الى النهاية .. نعم يا طارق اني لك .. ولكن بالروح .. وان التهمة التي وجهتها الي ، وانا البريئة ، تفصل بيني وبينك ، من ناحية الزواج ، الذي كنت أرغب فيه . الوداع ... وانه لوداعٌ لا يعقبه لقاء ، فلا تسأل عني احداً ولا تبحث عبثاً ، انك لن تستطيع ان تجد الفتاة التي ضيعتها الاقدار ، وجـار عليها الزمان . الوداع ... واذا عاد أبي فخبره اني الخائنة !! واني الأفعى !! ولكنه لن يعود فهذا القلب يقول لي انه قد مات .. وانك لتجد ، على قطعة العاج بين هذه السطور .. اثار الدموع ....

فلما انتهى الاميران من القراءة ، قال الاحنف : عد الى نفسك يا بـــني واذكر اي فتى انت .

فرفع رأسه قائلاً : اذكر اني خسرت من احب ..

– وهل وثقت الان بانه لم يكن لنا يد في الامر ؟

– اجل !

– وعلى اي شيء عولت ؟

– على الطواف في خراسان ، والري والعراق ، بل في فارس وارض العرب كلها حتى يجتمع الشمل او يخيب الرجاء .

– بل اطلب اليك ان تبقى في مرو وانا اتولى الامر عنك .

قال : انت ؟

– نعم انا ولكني لا أذهب بنفسي بل ارسل غداً من يحمل الي اخبار الفتاة ولو لجأت الى الغمام .

قال : لا يحمل هذه الاخبار غير طارق نفسه .

– ولكن اباك لا يطيق ان تبتعد عنه ..

– كنت تقول لي من قبل ان رجال الحرب لا يبالون بفراق المحبين . .

– ولكنهم يبالون بفراق البنين . .

– اما انا فلست براجع عما هممت به ولو لعنني أبي ولعنتني تميم .

قال : تصبر حتى يرجع الرجال الذين ابعث بهم .

– لا أعد بهذا فقد لا استطيع الصبر يوماً آخر .

فقال عبد الله : دعني افعل ذلك يا بني .

– ماذا ؟

– اخرج الى الاقطار التي ذكرت وأتوكل على الله .

– لك ان تذهب من ناحية وأذهب انا من ناحية اخرى .

قال : لي خبرة ليست لك وأنت لا تعرف غير النواحي التي زحف اليها الجيش وأنت في صفوفه .

– أستعين بخبرة رجل فارسي وقد يرافقني خراذمهر وبرسي الى حيث أمضي .

قال : هذان فارسيان وأنا لا اثق باخلاصها لك .

– ولكني لم أرَ ، في كل ما رأيت ، رجلا أعظم نفسا من برسي وأشد اخلاصا ومع ذلك فليكن معهما اثنان من العرب .

قال : سننظر في الامر الليلة فلا تتعجل فيه .

– افعل يا ابي ما يطيب لك على ان تكون واثقا بأني لن اعدل عن الذهاب ولو كان فيه هلاكي .

ثم نهض قائلا : انظرا فيما تريدان فقد بقيت لي في مرو الروذ ليلة واحدة !

وخرج دون ان يلتفت الى الوراء حتى أتى دار الاضياف فقال لبرسي : لقد تركت ابنة الملك مرو الى حيث لا نعلم .

قال : سمعت اباك يذكر ذلك ، وقد عرفت مما جاء في الوصية ، انك تحب الفتاة وكنت تريد ان تجعلها زوجة لك .

– ولكني ضيعتها الان والحب باق في الصدر لا يزول .

– وماذا تفعل يا مولاي ؟

– اترك مرو كما تركتها هي ..

– الى اين ؟

– الى اقطار فارس وارض العرب .

– وتطوف في هذه البلاد كلها باحثا عن الفتاة ؟

– اجل !

– ولكن هذا الطواف لا ينتهي الا بعد اعوام .

– لينته بنهاية العمر فانا لا ابالي .

– ومتى تبدأ به ؟

– غداً وقد اتيت الان اسألك ان تكون رفيقا لي .

قال : سأفعل وسأكون عبداً لك .

فقال خراذ مهر : اتريد ايها الامير ان تجعلني من رفاقك ؟

قال : كنت اهمُ بأن اطلب اليك ذلك فستكونان انتما الاثنين عوناً لي .. اجل ، انك لا تعرف اليتيمة ، ولكنك تعرف اقاليم خراسان والعراق والري رهذا ما احتاج اليه .

– كما اني اعرف جهان روز ابنة اخي وقد يكون في عيني اليتيمة ووجهها شيء من ملامح امها التي خانها القضاء .

– وانت يا برسي ؟

– اما انا فقد رأيت الفتاة يوم قدمت مرو ، وحدثتها بامر الملك ، ورأيت الدمع في عينيها السوداوين .

– وتستطيع ان تعرفها اليوم اذ رأيتها ؟

– لو رأيتها بعد عشرين عاماً لعرفتها ولو كان على وجهها حجاب .

قال : تهيأ اذن فلم يبق لنا ما نفعله في هذا البلد .

وانصرف الى المنزل يستفيد من ام عامر زوجة ابيه ، ما سمعت ورأت ،ثم انثنى الى حجرة الفتاة وجعل يبكي حتى جفت الدموع .

وكان ابوه قد عول على الرحيل ، فقال للاحنف : لم يبق الان ما يمنعنا من الطواف والبحث عن اليتيمة لنزفها الى الفتى ، انها أشرف النساء نسباً واحسنهن وجهاً ، وقد كان شهريار من خيرة الرجال الذين يدافعون عن الاسلام وينتصرون له . .

قال : ولكن هذا الطواف سيضيع على ما ارى .

– لماذ ؟

–لان ارض فارس واسعة الارجاء ، وقد تلجأ هي ، بعد ان اتهمت بالخيانة، الى رجال من قومها يخفونها في الصدور .

قال : لقد نسيت امرين ، احدهما انها تحب طارقا ، وهي لا تستطيع ، ولو استخفت عن العيون ، ان تنساه .

– والأمر الآخر ؟

– اما الآخر ، فسنان عربي من بني سليم ، والعربي لا يلجأ الى قوم من الفرس .

– اذن ترى انها تؤثر الذهاب الى ارض العرب .

– او الى ارض الفرس التي تنزل فيها طوائف العربان .

– وتريد انت الى تزور كل بلد فيه عربي ؟

نعم وقد يمهد الله لي سبل التوفيق فأعثر على ضالتي ثم اعود بعد شهر او شهرين على الأكثر .

قال : خير لنا ان نبعث بضعة رجال من قومنا يقومون بما تقوم به وتبقى انت في مرو .

– وكيف يطيب لي ان ابقى فيها ، وولدي بعيد عني وانا لا أعلم متى يعود بل لا أعلم في أي بلد هو .

– وتترك الجيش يا عبدالله ؟
– لو كان يزدجرد حياً لما تركته ، ولكن النـار قد خمدت الان ولم يبق في فارس كلها امير يحمل السيف .
– ومن ينقل اليّ اخبارك ؟
–ابعث اليك من حين الى آخر بهذه الاخبار .
– ولا تعدل عن هذا ؟
– ليس من الرأي ان أفعل فالنار تتأجج اليوم في فؤاد طارق وقد ينتهي به غرامه الى ما لا أحب .
– وهل ترى ان نبوح لقومنا بسر الفتاة ؟
– لا ، بل تكتمهم اياه ، وتقول لمن يسألك ، ان عبدالله وولده خرجا الى بعض النواحي ، لشأن لهما .

وبينا الاحنف يفكر في الامر ، انصرف عبدالله وهو يقول : اخرج الان لأعدّ عدة الرحيل وسأراك في هذا الليل .

فتمتم قائلاً : مسكين طارق فقد خانه القدر في غرامه ، ولو لم أكن عامل المرو لخرجت بنفسي افتش معه عن ابنة يزدجرد . ولم يلبث عبدالله حتى لقي طارقاً في حجرة اليتيمة ، فضمه اليه وقال : طب نفساً يا بني فأنا ذاهب معك ؟ والله الذي قضى بالفراق ، هو الذي يمن عليك باللقاء .

وكان البكاء قد قرّح جفنيه فقال : اخشى ان يتعبك هذا الرحيل يامولاي.
قال : الرجل الذي لا تتعبه الحرب لا يتعبه السفر من بلد الى آخر .
– ولكني استطيع ان افعل وحدي ما نفعله نحن الاثنين ..
– ومع ذلك فأنت لا تنقل من مرو قدماً ، الا اذا كان ابوك وراءك يلحق بك الى حيث تسير .
قال : سيذهب معي برسي وخراذ مهر .
– كما يذهب عبدالله بن قيس ورجلان آخران ..
ودخلت عندئذ جارية اليتيمة فقالت لعبدالله : ام عامر تريد ان تراك .
فمشى يريد غرفتها فاذا هي بالباب وكانت تقول : دعوتك لأقول لك كلمة.

– ما هي ؟

– احذر ان ينصرف طارق من مرو وحده .. ان هواه الذي انتهى بهذا الفراق المر سيقضي عليه .

قال : وأنا قد جئت الان لأسألك ان تعدّي عدة الرحيل .

ولم يترك عبدالله ولده في ذلك الليل ، وقد انضم اليهما الاحنف في الهزيع الثالث منه . وكان الاميران يضعان منهاج السفر ، وقد خيّل اليهما ان الامل يعود الى صدر الفتى العاشق الغائص في لجة التفكير ...

***

- ٦٤ -

مرت ابنة الملك ، بمنزل شهريار على الشاطىء ، فلبست ثوب فتى ، وارسلت ضفائرها على الوجه والكتفين فاحتجب في ذلك ، جانب من ذلك الجمال الخلاب ، ولكن عينيها ظلتا ترسلان السحر الى كل من يراهما .

وكان سنان قد خبرّ زوجته كل شيء ، وأفهم العبدين ان اليتيمة أمست فتى يقال له شهريار ! وامرهما بأن يكتما امرها جميع الناس .

ثم وهب لطرخان الفارسي بعض المال قائلاً له : ان مولاي قد مات فارجو ان تستعين بما اعطيك اياه على قضاء الحاجات ، ولك ان تبقى في هذا المنزل حتى نعود . ولم يزد على ذلك كلمة فقد كان يعلم ان الكلام الكثير يفضح الاسرار ، والفتاة لا تريد ان تبوح بسرها لأحد .

ومشى القوم بعد ذلك يريدون البصرة ، ومنها الى الخليج ، حيث تنزل طائفة من بني سليم . وسنان يعرف اقليم البصرة كله ، ويعرف الطرق البعيدة التي لا ترغب في السير عليها جماعات المسافرين . وكان السفر طويلاً شاقاً ، احتمل شهريار الجديد آلامه بصبر ، ولكنه أحسّ في النهاية ، انه لا يستطيع ان يحتمل الالام الاخرى التي لها صلة بالقلب .. وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فغرامه كان مبرحاً ، وعاطفته وثابة ، وهو ضعيف القوى ، وفي مقتبل العمر . قضى ايام سفره كلها ، يناجي طارقاً في نهاره وليله ، ويبكي هواه المخنوق ،

وامله الضائع بل قضى ايامه كلها يتلفت الى الوراء ، فقد كان يظن ، كلما سمع همس النسيم ، ان طـارقاً لا حق به .. والخادم الامين سنـــان ، يرى كل ذلك وقلبه يقطر دما ، ولكنه لم يكن يجسر على ان يتصدى للعاطفة الهائجة ..

حتى رأى اخيراً ، انـ ذلك البكاء الدائم سيقودها الى القبر قبل ان ينتهوا الى الخليج ، فقال لها في مساء يوم : لي كلمة اقولها وانا اخاف ان تغضبي علي ، فمسحت دموعها قائلة : ان الفتاة التي اختنق غرامها وهي في المهد لا تغضب الا على الزمان الغدار .. قل ما يخطر لك .

– لقد رأيت انك لا تستطيعين ان تصبري على الفراق .

– والصواب فيما رأيت وانا اعترف بذلك .

– اذن نرجع فليس من الرأي ان تستسلمي الى اليأس .

فاستيقظت كبرياؤها وجعلت تقول : اذن نرجع .! ولكن الى اين ؟

– الى المرغاب الذي نشأت على شاطئه .

– وهل تظن ، وانا العاشقة ، اني اطيق النظر الى طارق بن عبدالله وقـد اتهمني عمه وابوه ؟!

– من يعلم يامولاتي ، فقد يعود طارق حاملاً الى عمه اخبار ابيك كما هي ، بل قد يعود وابوك معه ..

– ان ابي قد مات وقلبي يقول لي ذلك ..

– لا تصدقي احاديث القلوب فهي كاذبة .

– ليعد ابي ، وليعلم ان ابنته لم تشأ ان تعيش بين قوم ينظرون اليها جميعهم نظرات الازدراء ..

قال : لو كنت انا اليتيمة ، لآثرت الاقامة على الشاطىء ، مع هذا الذل الذي تذكرين ، على ان اخلق العذاب واللوعة لأبي المحسن الي ، وادفعه بيدي الى الطواف في كل ارض باحثاً عن ابنته .

– قلت ان ابي لن يعود وأنا مؤمنة بما قلت .

– ولكن طارقاً سيعود ، ان لم يكن قد عاد اليوم .

– ليفعل طارق ما يطيب له .

– انه الفتى الذي تحبين ..
– أجل، وقد كتبت اليه اني احبه، واني لهبالروح، الى الابد وحسبه هذا..
قال : ألم يكن لمولاي ابيك سر لا يعرفه احد ؟
– بلى !
– ومن هو موضوع سره ؟
– انا !
– اذن فارفقي بنفسك ، واعلمي انه يجب ان تعرفي هذا السر الذي يتعلق بك قبل كل شيء .
فاضطربت قائلة : نعم هنالك سر لا أعرفه وهو يتعلق بي..ولكني سأعرفه وانا في الخليج عند بني سليم !
– وأي رجل ينقل اليك ذلك وانت في اطراف البلاد ؟
– أبعث بأحد العبدين الى مرو يحمل اليّ اخبارها .
– لا تستطيع العبيد ان ترى الاحنف بن قيس لتستطلع اخباره .
– ومع ذلك فأنا لا اريد ان امكث ببلد قريب من مرو الروذ .
– لماذا ؟
– لاني استلذ البعد الذي يقتلني !!!
قال : نمكث بمرو الاولى وهي بعيدة كما تعلمين .
– وتعرف فيها احداً ؟
– اعرف رجالا ليس من الرأي ان يروني فيها .
– واين نقيم ؟
– ببيت خارج السور ، بين البيوت التي يقيم بها الغرباء .
– وهل نسيت ان ماهويه من اصدقاء ابي ؟
– لم انس ذلك ، ولكن ماهويه لا يخطر له ان ابنة شهريار تنزل مع خدمها في بلده .
– وما هي الغاية من الرجوع الى مرو الشاهجان ؟
– ان اقرأ اخبار طارق واخبار مولاي ، عندما اشاء .

– وتعدني بكتمان الامر ؟

– اجل ، وسنظهر في مرو ، بمثل المظهر الذىعولنا على الظهور به ،عندما ننتهي إلى الخليج ، دون ان يتغير شيء .

فأحست عندئذ بشيء من الرجاء ثم قالت : الى مرو وليفعل الله ما يشاء .

وايقنت في تلك الساعة ، بأنها أعجز عـن ان تحتجب في خليج البصرة ، وتخنق هواها فيه ، الى الابد ... وكانوا قد ابتعدوا كثيراً عن مرو ، فانثنوا راجعين ، وهي لا تبالي بالمسالك الصعبة يقودها اليها سنـــان ، والتعب المضني الذي يضعف الجسم وينهك القوى . وكأنها راجعة ؛ لتضع يدها بيد الحبيب ، الذي وهبت له القلب والروح .

***

– ٦٥ –

خرج طارق وأبوه عبدالله ، والرجلان الفارسيـان ، برسي وخراذمهر في صباح اليوم الثاني ، ومعهم اثنان من رجال عبدالله . وقد راوا جميعهم ، ان يسيروا على الشاطىء ، حتى ينتهوا الى مرو الاولى ، ثم يذهبون بعد ذلك الى النواحي الاخرى التي يختارون . وكان الغرض من ذلك ان يمروا بمنزل شهريار ويسألوا ذلك الخصي الذييقيم به عما يعلم .وكان طارق اسبقهم الى ذلك المنزل، وطرخان جالس في الفناء ، وقد بدت اللوعة في عينيه . والوحشة الرهيبـــة تبسط ظلها فوق اروقة المنزل وحجراته . فقال طارق والدمع يتلألأ في مقلتيه: لقد كان في هذا المنزل فتاة عندها العبيد والخدم فاين هي ؟

فرفع رأسه ببطىء قائلا : وكان فيه رجل من اهل خراسان يدعى شهريار الا تسألني عنه ؟

قال : رحم الله شهريار فقد قتله يزدجرد !

– ولا رحم الله يزدجرد قاتل الابرياء .. ثم قال : لقد بلغني خبر موته .

– ممن ؟

– خبرني به سنان بن سليم .

– وكانت الفتاة معه ؟

– اجل كانت اليتيمة معه ولكنها لم تمكث بهــذا المنزل غير نصف يوم ثم غادروه جميعاً وجعلوني حارساً له كما ترى .

– ولا تعلم الى اين ؟

– سألني مثل هذا السؤال ، رجلان من رجال عامل المروين منذ بضعة ايام وكان جوابي : لا اعلم ..

– والان ؟

– والان ايضاً لا اعلم ..

قال : اني ابن اخي الاحنف امير هذه الديار .

قال : اقسم لك اني لا اعلم شيئاً .

– ولم تسمع ما تهامس به القوم ؟

– رايتهم ينقلون ما يطيب لهم حمله من اشياء هذا المنزل ، ثم احسنوا الي ببعض المال وامروني بان ابقى حتى يعودوا .

– ومعهم خيل ؟

– معهم اربعة بغال وفرس اشهب .

– وهل كانت الفتاة تبكي ؟

فهمّ بان يقول له انها لبست لباس الفتيان . ولكنه كان يخاف عاقبة مـــا يقوله ، فقال : خيل الي انها كانت تذرف الدموع ..

واقبل عبدالله والقوم وراءه ، فقـــال الرجل : أفلا يسألني هؤلاء عمــا سألتني انت ؟

قال : هذا ابي ورفاق لي فلا تخف فانت في ظل العرب ولا بأس عليك .. دلني الان على الناحية التي اتجه إليها سنان .

فأوما الى ناحية الجنوب قائلا : على شاطىء النهر .

– ومشوا في وضح النهار ام في الليل ؟

– عند غروب الشمس أيها الامير .

فقال لأبيه : الم يقل للرجلين اللذين بعثتم بهما غير هذا ؟

– لم يقل لها ما يفهم منه انه يعرف شيئاً .

فحول وجهه عنه وهو يحبس الدمع ، ثم رأى ان يوجه اليه سؤالاً عن شهريار، وابوه حاضر ، فقال له : قيل لي انك كنت من اصدقاء شهريار .

– صدق القائل .

– ومتى عرفت الرجل ؟

– منذ كان في البلاط .

– وكيف جعله الملك في بلاطه وهو لا يحبه ؟

– لا اعرف هذا يامولاي ولكني اعلم ان البغض نشأ في صدر شهريار ، بعد فرار يزدجرد من حلوان .

– وتعلم السبب ؟

– فر الملك وترك في حلوان احدى حظاياه ، وكانت تتألم على فراش الولادة وهي تدعى جهان روز .

– ثم ماذا ؟

– . ثم عرفت ان جهان روز ، المنكودة الحظ ، اسلمت الروح وهي على ذلك الفراش الذي ذكرت ، وطرح القدر بين يدي شهريار ، طفلتها التي اجهل اسمها ولا اعلم ماذا جرى لها بعد ذلك ..

– . ومن أمر شهريار بأن يمكث بحلوان الى جانب جهان روز ؟

– . انا ، وقد فعلت ذلك بامر الملك ورأيت شهريار راغباً في البقاء .

قال : يظهر انه كان يعرف المرأة من قبل .

– . قد يكون ذلك ، واعترف الآن ان رغبته في البقاء ، كانت بادية في عينيه ، بل خيل اليّ في تلك الساعة ان في عينيه شيئاً آخر .

– . وهذا الشيء هو الحب ..

– . نعم يا مولاي !

فقال عبدالله : لقد سمعنا الآن مرة اخرى شيئاً من وصية الرجل وهـــذا يكفي .. ثم قال للفارسي : عندما يطيب لك ان تترك هذا المنزل فارحل الى مرو الروذ .

– . ولكنني لا اعرف فيها احداً ايها الامير .

– . ان الكتاب الذي اسلمه اليك الآن يجعلك قريباً من عاملها الاحنف ابن قيس ، وهو اخي ..

وكتب الى الاحنف عندئذ، يسأله ان يجعل الرجل بين المقربين اليه. ودفع اليه الكتاب وهو يقول : لك ان تنتقل من هنا عندما تشاء . فحنى الخصي رأسه وفاضت دموعه تنطق بالشكر . ولم يبق لهم ما يصنعونه في ذلك المنزل ، فركبوا أفراسهم ومشوا على الشاطىء من ناحية الجنوب ، وعبدالله يقول في نفسه : جنينا على أنفسنا وعلى العاشقين . وكان طرخان يخاطب نفسه بعد ركوبهم قائلا : كان عليَّ ان اذكر للفتى ان اليتيمة تلبس لباس الفتيان ..

* * *

– ٦٦ –

خرج ماهويه بنفسه ، يبحث عن سنان في مرو ، عندما انتهى اليه القوم ، وخبروه خبر رحيله الفجائي مع الفتاة . وارسل رجال الشرطة وشيوخ الحي ليشاركوه في التفتيش . ولكنهم رأوا جميعاً ، بعد ثلاثة ايام ، ان الفتاة لا وجود لها في مرو وفي البيوت التي تجاور السور . وكيف يجدونها وهي لم تزل في البر ، تجتاز الصحراء وراء الصحراء ، وتصعد الجبل وراء الجبل ، في طريقها الى مرو . وكان عبدالله يريد ان يتعجل في الطواف ، فقال : الى البصرة .. .

فأجابه طارق قائلا : اي اننا نسير الى احياء العرب .

– . نعم وبعد ان نطوف فيها ننتقل الى ارض الفرس .

فمشوا في اليوم الرابع ، بعد غروب الشمس ، يتقدمهم خراذمهر وعبدالله ، وقضوا ليلتهم كلها على ظهور الخيل ، حتى بزغ الفجر ، فضربوا خيمتهم في سفح جبل واستسلموا الى الكرى . وقد نهك التعب القوى وخدَّر الاعصاب . وبينا هم يغطون في نومهم ، ظهر في السفح ، من الناحية الاخرى ، فرس أشهب حوله عبدان ، ووراءه اربعة بغال ، على احدها امرأة في خريف العمر . وكان الموكب موكب اليتيمة وهو راجع كما رأيت .

فقال سنان : أرى هنالك خيمة حولها الخيل .
فقالت الفتاة : لقد رأينا طوائف من الخيل وخياماً كثيرة قبل الآن .
– . ولكنها خيمة عرب كما أرى ولا توجد خيل العرب في ظل هذا الجبل الا لأمر ..
قالت : أترى رجالا ؟
– . لا ، وهذا ما يدفعني الى الدنو منها وسأفعل ، فانزلي عند هذا الكثيب من الرمل وسأعود . ومشى بخطى هادئة كأنـــه لص حتى دانى الخيمة فأبصر الرجال في زواياها وعند بابها كأنهم قتلى . وذعر عندما رأى طارقاً وعبدالله ، واشتد ذعره حين حدق الى برسي وجعل يتفرس فيه . ثم ارتجفت ركبتاه وكاد يسقط على الارض .
أينادي طارقاً فيقول له : ان اليتيمة بين يديك ، ام يعود الى اليتيمة فيقول لها : هذا هو طارق الذي تحفظين له الحب . وخاف ان يستفيق احدهم فيفسد عليه الامر. فآثر الرجوع ليستشير الفتاة ، على التردد في موقفه . وكان الكثيب يحجب رفاقه ، فلما انتهى اليه ، رأت اليتيمة عينيه المختلجتين، ووجهه الاصفر، وخيل اليها ان جسده يهتز ..
فقالت وهي خائفة : ماذا رأيت يا سنان ؟
– . رأيت ستة رجال ينشر الهدوء فوقهم جناحيه .
– . ويلك أيكون هدوء الموت ؟
– . بل هدوء النوم الثقيل الذي لا تزعج صاحبه العاصفة .
– . وهم من العرب كما قلت ؟
– . أجل يا مولاتي ومن اولئك النازلين في مرو الروذ !!!
فدلّها ذلك الشعور الخفي ، على ان طارقاً بينهم ، فخفضت صوتها قائلة : اذن لقد عرفتهم .
فتردد ثم قال : نعم ...
– . وهو بينهم ؟
– . هو وأبوه .

فوقفت الالفاظ عند شفتيها وأرخت نظرها الى الارض .

فقال : ماذا تريدين الآن يا مولاتي ؟ ان طارقاً على قيد ذراعين وقد لا يمن الزمان باللقاء بعد هذا اليوم .

فلم تجب .. فقال : كلمة واحدة اقولها له فينتهي كل شيء .

— . ولكنني متهمة .. بل انا خائنه ... وخير للخونة ان يخفوا وجوههم بالايدي عندما تقع عليهم العيون !!

قال: رأيت في القوم رجلا فارسياً يحمل اخبار ابيك شهريار على ما اظن.. ألا تذكرين برسي ؟

— . لا اذكر الآن احداً فمن هو ؟

— . هو ذلك الفارسي الذي مثل بين يديك في مرو وذكر لك الملك ..

— . وأي شأن لهذا الرجل مع طارق ؟

— . شأنه انه امسى مسلماً كما تعلمين ، وقد لقيه طارق في رحلته وقص عليه اخبار شهريار ، ثم طلب له ان يجعله رفيقاً له .

قالت : تحدثني بهذا كأنك كنت حاضراً ..

— . اجل يا مولاتي وهذا هو الواقع كأني أراه . ثم قال : قولي كلمتك قبل ان يفوت الزمان .

قالت : أيمر القوم بهذا المكان ؟

— . نعم وهذه هي الطريق الى البصرة .

— . اذن نبتعد عنها حتى يمروا او نصعد في الجبل .

— . ولا ترين طارقاً ؟

— . لا استطيع ذلك لاني اخشى ان تكون التهمة باقية في صدر ابيه .

— . لو كانت باقية لما خرج الاثنان يريدان البصرة ليبحثا عنك .

— . ومن قال لك انهما يريدانها من اجل هذه الغاية ؟

— . هذا ما يبدو لي .

فأطرقت قليلا ثم قالت : سنكون في مرو عند غروب الشمس كما قلت ، أليس كذلك ؟

– . بلى !

– . اذن نمكث بها حتى تلمس براءتي بيديك او تسمع حـــكم البراءة من فم الاحنف نفسه ..

– . وبعد ذلك ؟

– . تقول بعد ذلك لطارق ان اليتيمة في مرو ، فيجتمع الشمل ..

– . بل اقول له ذلك في هذه الساعة .

قالت : لا تنس ان شرفي لوثته الاقاويـــل فليس من الرأي ان استسلم الى عاطفتي قبل ان يغسل العار الذي لحق بي ..

قال : ارى انك ستسمعين الآن حكم البراءة من فم عبدالله .

– . وقد اسمع من جديد حكاية التهمة فاقتل نفسي فخير لي ان انصرف الى مرو اعالج فيها جراح قلبي وابكي هواي .

فحاول ان يجيب فأسكتته قائلة : لا تزد ، فشرفي قبـل كل شيء ، ومن لا شرف له لا عهد له ..

قال : سيستفيق القوم يا مولاتي بعد ساعة .

– . اما نحن فنرحل الآن عن هذا المكان حتى ينصرفوا ..

وركبت فرسها ، وتقدمها العبدان الى منحدر يشبه الكهف يبعـــد مئة ذراع ، وتبعها القوم فنزلوا في ظله وهم يرون دموعها على الخـــدين . ولم يجسر سنان بعد ذلك على ان يقول كلمة ، فقد رأى غرامها يسقط عاجزاً تحت عامل الكبرياء . وظل القوم نائمــين حتى كان الظهر ؟ فأكلوا ، ثم حمـــلوا خيمتهم واشياءهم ومرت افراسهم بالقرب من ذلك المنحدر وهم لا يرونه ، وقد فات ذلك العاشق الوفي ، ان الفتـــاة التي يشقى في سبيل العثور عليها هي على قيـــد ذراعين منه .

أجل ، لقد فصلت الكبرياء في تلك الساعة ، بين الحبيبـــين ، بل فصل الشرف الرفيع بينهما ... ذلـــك الشرف الذي اهـين ، وهو شرف الملوك . وأحسّت اليتيمة ان قلبها وثب من صدرها ليلحق بالحبيب .. فأغمضت عينيها، ثم استندت الى ذراع سنان وتمتمت قائلة : اكاد اموت .. ولكني لا اريـد ان

أراه .. فأنا خائنة ! وكان كلامها همساً لم يسمعه العبدان . وبعد ساعة ، توارى القوم عن عينيها في منتهى الافق . فحولت وجهها وقد عاد اليها شيء من الرجاء ثم قالت : الى مرو ، فالشرف قد ظفر اليوم وسيظفر غداً .

وكان سنان يقول في نفسه : لم أرَ بين النساء فتاة أطهر قلباً وأعزّ نفساً من هذه .

* * *

- ٦٧ -

تنكر عبدالله بن قيس ومن معه ، في البصرة ، خوفاً من ان ينتهي خبرهم الى عبدالله بن عامر . ولم يكن من الرأي ، ان يطلع امير البصرة على الغاية التي قدم من اجلها القوم . بل لم يكن من الرأي ان يعلم ، ان ابن قيس ، وهو سيد بني تميم بعد اخيه ، ترك مرو بدون اذنه . ولو عرف ذلك ، لظن الظنون ، واتهم الاحنف واخاه ، بانهما يشايعان الجماعة التي تعيب امير المؤمنين وتسبّه . أجل ، كانت الاخبار ، تبلغ ابن عامر ، من مصر والكوفة ، ومن نواح اخرى ، ان الناس يعيبون عثمان في مجالسهم ، وينكرون عليه ايثاره انسباءه على اصحاب الفضل من المسلمين ، وان لهم انصاراً في بعض اقاليم العراق وخراسان . وهي اخبار تظهر فيها اصابع الفتنة ، ومن حق امير البصرة ، ان يضطرب لها ، ويعدّ العدّة للقضاء ، على كل من تحدثه النفس ، في ولايته ، بان يكون شريكاً للقوم في التعييب والشتم ... وكان بنو تميم ، يعرفون ذلك ، وقد سمعوا ما سمعه ابن عامر ، ولكنهم لم يعبأوا به ، ولم يهتموا له ، وهم في الميادين . وقد قام في اذهانهم ، انها أقاويل واصوات ، لا يلبث عثمان بن عفان ، حتى يطمس آثارها ويخمدها بالسيف . وكان اهل البصرة ، يتناقلون الروايات ويتحدثون بأمر عثمان ، ولكن لم يخطر لهم ان يشتموه كما يفعل الناس في الكوفة ومصر . وابو طارق يسمع ذلك ولا يبدي رأياً ، بل كان يسأل في الاحياء عن المكان الذي ينزل فيه بنو سليم . ودلوه اخيراً على الخليج ، فأتاه وهو واثق بان سناناً لجأ اليه ، ليقيم بين ابناء قومه . اما بنو سليم ، فكانوا كلهم على الخليج كما قيل له ، الا بعض الفتيان والرجال ، الذين أبعدتهم الحروب عن العشيرة .

وسيد القوم عروة بن فهر . فرأى عبدالله ان يبوح له بسره ، ويسأله ان يكتمه قومه ، ويكون عوناً له في البحث عن سنان .

وكان عروة من اصحاب المروءة والشرف ، ومن ابطال العربان . وقد آثر عبدالله ان يستأذن عليه في الليـــل ، خوفاً من ان يلفت نظر العشيرة ويخلق الظنون . فلما آوى القوم الى خيامهم ، دخل عبدالله وطارق ، وحدهما وعنـــد عروة احد اعمامه وولداه ، وعبدٌ له . وكان قد عرف ان القوم الذين قدموا الحي ، وطلبوا ان يروه قوم من عرب خراسان ، فقال : انكما اثنان وقد قيل انكم ستة رجال ..

فقال عبدالله : صدقت وان رفاقنا الاربعة ينزلون في الحي .

قال . اهلاً فمن انتم . اني اسمع لغة تميم ..

فدنا عبدالله قائلا : لنا ما نقوله لك قبل ان نجيب عما تسأل .

-- . قل ..

— . لا نقول ذلك الا للأمير وحده .

فأومأ الى عمه وولديه ان اخرجوا ، ثم قال : اني سامع .

قال : عبدالله بن قيس التميمي وولده ..

فوثب قائلاً : سيد بني تميم وبطلهم في خيمتي وانا قاعد ؟! اجلس ايها الامير ومر بما تشاء فبنو سليم من جنودك ..

قال : اسألك اولا ان تحفظ في الصدر ما اقوله لــك وان لا تذكر للعشيرة اسمي واسم طارق .

— . سيكون لك ما تسأل .

قال : أتعرف رجلا من بني سليم يدعى سناناً ؟

فأجابه قائلا : في العشيرة رجال كثار يحملون هذا الاسم .. سنان بن مرة ، وسنان بن خازم ، وسنان بن همام فأيهم تعني ؟

— . أعني رجلا لم يكن مقيما على الخليـج .

— . وبأي بلد كان يقيم ؟

— . على شاطىء المرغاب بين المروين ، في منزل رجل خراساني يقـــال له

شهريار ولهذا الرجل فتاة ..

– عرفته فهو سنان بن عقبه وقد ترك العشيرة من بضعة عشر عاماً ولم يخطر له ان يعود .. ثم قال : ما هو غرضك من السؤال عنه .

– . اسأل عن الفتاة التي ذكرتها الآن فطارق يحبها .. !

قال : ويلٌ للشقية .. وهل تهرب من طارق وهو كما أرى ؟!

– . بل تحبه .. حتى لتبذل حياتها في سبيل هذا الحب ..

– . وماذا اذن ؟

فحدثه عندئـذ بكل ما جرى ، ولكنه لم يقل له ان اليتيمة ابنة الملـك الفارسي الذي قتله قومه . فوضع يده على جبينه ثم قال : لا أظن ان الرجـل لجأ الى العشيرة لأني لم اسمع انه قدم الخليج ، ومع ذلك فسأنظر غـداً في الامر وابعث بولديّ يبحثان عنه من وراء الستار خوفاً من ان يعلم بالأمر فيعمـد الى الاستخفاء .

– . ويذهب طارق معهما ..

– . ليكن ذلك ، وسيقولان للقوم انه ابن خـال لها وقد قدم امس . وخرج الثلاثة عند الصباح وجعلوا يدخلون البيوت بيتاً بيتاً ويسألون اصحابها ، بالحيلة والدهاء ولكنهم لم يجـدوا لسنان أثراً حتى ان معظم اهل الحي كانوا يجهلون من هو . وأعادوا السؤال ، ثلاث مرات ، في ثـلاثة ايام ، ثم خرج الامير بنفسه فلم يكن أسعد حظاً من ولديه . فقال لعبدالله : لم يبق الا ان اخفي وجهي بين يدي خجلاً منك فقد انتهى امرك بالخيبة في حي بني سليم وهـذه اول مرة تسألني فيها قضاء حاجة لك .

– . ولكن ليس عليك ذنب في هذا واني احفظ لك هذا الفضل .. والآن فنحن نرحل .

– . في مثل هذه السرعة ؟

– . أجل !

– . الى أين ؟

– . لا تسألني عن هذا فأنا لا اعلم الى اي بلد أسير .. بلى ، اعلم ان العاطفة

لي عليّ ان اجيء الى هذا القطر ثم انتقل منه الى قطر آخر حتى تمر الايام ،وقد
تمر الاشهر والاعوام ، وانا لا حظ لي ، أو ابلغ الغاية .
– وتريد ان اكون من رجالك في هذه الرحلة .
– بل اريد ان تكون عينا على الحي فقد يأتيه سنان في زمن آخر .
قال : هب انه اتاه فأين تكون انت لأكتب اليك ؟
– تكتب الى الاحنف الذي لا يترك مرو .

فوعده بذلك ، وانصرف القوم يريدون احياء العرب بين البصرة والكوفة ثم ينتهون الى الكوفة نفسها وينثنون بعـــد ذلك الى الطواف في العراق كله . وكان احب الى عبدالله ، ان يقضي عمره بعيداً عن قومه ، من ان يعود وطارق العاشق يتعثر بفشله . ذلك هو احساس الوالد البار ، وشعوره من الناحيـــة الاخرى ، بان التهمة التي وجههـــا هو وأخوه الى اليتيمة ، هي اصل البلاء . فكان طوافه كما رأيت ، مظهراً من مظاهر الندم والاستغفار .

على ان ذلك السفر الشاق ،وذلك الطواف المضني ،لم يكونا مثمرين ،فالقوم في الغرب واليتيمة في الشرق ، وقد مرت الاشهر كما قال عبدالله ، ثم انقضى العام دون ان يسمعوا جواباً واحداً عما يسألون .

وطارق يذوب شوقاً وغراماً ، ولكن دون ان يهدأ او يمل حتى انهم زاروا احياء العرب جميعها لم يتركوا منها حياً واحداً ...ولم يبق الا ان يجعلوا وجهتهم احياء الفرس . وكانت اخبارهم تنتهي الى الاحنف كل شهرين ، فتضطرب نفسه لهذا الفشل المستمر ، ثم ينسى بعد ذلك ما سمع ، وينصرف الى الاهتمام لما يصل اليه من اخبار الفتنة التي تمتد اصابعها في الاسلام اما اليتيمة فكانت قد امست في مرو ، فتى يقال له شهريار كما مر ، ولكن ذلك الفتى صاحب الضفائر الطويلة المرسلة الى وجهه وكتفيه .. ذلك الفتى الجذاب الملامح ،الساحر العينين لم يكن من اولئك الفتيان ، الذين يخرجون الى الصيد ، والى ميـادين السباق .. بل لم يكن طيش الشباب وزهوه ، ظاهرين في احتجابه وظهوره ، ورواحه ومجيئه . كأنه زاهد ليس للحياة قيمة في نظره . وتستطيـع ان تقول ، ان الناظر اليه ، لم يكن يقرأ الحياة الا في عينيه . ! فهو كالصنم ألبسته السكينة ثوبها الفضفاض. ويقول الناس الذين تجاور منازلهم منزله ، انهم لم يسمعوا له صوتاً ولم يروا غير

الجانب الاعلى من وجهه ، حتى وثقوا اخيراً بأنه لا يطيق ان يجالس احداً او يوجه كلمة الى احد .

واذا سألوا سناناً وزوجته اوالعبدين ، قالوا : هذا مولانا احد نبلاء الفرس ، برح به الحزن كما ترون بعد موت ابيه .

ولم يكن فيما يقولونه شيء من الغلو ، فالحزن الصامت يبدو في جميع مظاهره ، والكآبة تخرج بليغة حادة من سحر عينيه . والهزال والضعف ينشبان مخالبهما في جسده ، حتى خيل اخيراً الى سنان ان الموت يدنو منه . وخاف اذا هو سكت عما يراه ، ان يمد يده فينتزع روحه. ولكنه كان يصطدم ، كلما حدثه بالامر ، بتلك الكبرياء الثابتة التي لا تتزعزع والتي كانت تهدد حياته . وكان مقامه خارج البلد ، في خيام ثلاث له ولمن معه ، تحيط بها مظاهر الفقر الذي لا يلفت النظر .

وقد وفى سنان بما وعد ، فهو يذهب كل شهر متخفياً الى مرو يسأل عن طارق وعن شهريار . ولكنه لم يكن يجسر على الدخول الى قصر الامارة ، خوفاً من ان يسيء الاحنف ظنه به . وكان ينقل الى الفتاة جوابا واحداً هو ان الاثنين لم يرجعا !!

حتى ضاق صدره ورأى ان الاستسلام الى كبرياء اليتيمة عاقبته الهلاك ، فعول على ان يبوح للاحنف بكل شيء ويسأله الكتمان . وليس في عمله خيانة للفتاة ، فصدر سنان لا ينطوي على خيانة وإنما كان هنالك اخلاص ووفاء يوحيان اليه بان يفضح الاسرار .

اجل ، لقد رأى مولاته تمشي الى الموت بخطى واسعة فآثر ان يخونها في سرها ، على ان يضيعها الى الابد . وصبر مطمئناً واثقاً ريثما يمر الشهر ، ولم يكن يفكر في ذلك الحين الا في ناحية واحدة هي انقاذ الفتاة التي هي احب الناس اليه . ووسيلة الانقاذ واحدة ، هي ان يهامس الاحنف بما يعلم ، ثم يجمع العاشقين بعد ذلك وينتهي الامر .

وقد رأت اليتيمة شيئاً جديداً في عينيه فقالت له : يظهر ان في صدرك سراً تكتمني اياه .

– وما الذي دلك على ذلك ؟
– هذا البريق الذي يبدو في عينيك .
قال : انه بريق الامل يامولاتي .
– واي امل هذا وانا لا اسمع غير جواب واحد تقوله لي .
– امل رجوع الحبيب الى مرو فقد انقضى عام كامل على غيبته ولا بد من ان يعود .

– اما انا فقد خسرت هذا الامل وهب ان طارقاً رجع اليوم فاليتيمة لا تزف اليه وهي الخائنة وهو الشريف . !!

قال : ستظهر البراءة يامولاتي ظهور الشمس ان شاء الله ، وستمسين زوجة للفتى النبيل الذي يشقى في التفتيش عمن يحب .
فتمتمت قائلة : لا تظهر هذه البراءة الا بعد ان توضع جثة اليتيمة تحت التراب .

ودخلت عندئذ خيمتها لتستسلم ، على عادتها الى البكاء ، وهي لا تعلم انها تلقي بنفسها فيما تصنع ، الى هوة بعيدة الغور ...

* * *

اقبلت السنة الثالثة والثلاثون ، فغزا معاوية بن ابي سفيان حصنا في ارض الروم ، يقال له حصن المرأة ، فتم له النصر ، وفتح ما جاوره من نواحي ملاطية .

وغزا افريقية ، عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، غزوته الثانية ، حين بلغه ان اهلها نقضوا العهد : ثم انتهى الى معاوية ان اهل قبرص ، نقضوا عهدهم كافعل الافريقيون ، واعانوا الروم على الغزو في البحر . فركب معاوية البحر الى قبرص ، ولم يلبث حتى أخضعها بالسيف وقتل طوائف من رجالها وسبى الكثير من النساء . وعندما كانت قبرص تعاني ما تعانيه ، من فظاعة الحروب ، وافريقيا – اقليم طرابلس الغرب – يئن من الالم ، وجنود العرب في الناحيتين ،

يمشون الى الامام ، كان الشر في الكوفة ،وفي غيرها ينتشر ويمتد ، والنار ترسل ألسنتها ولهيبها الى الاقطار ، كلما عصفت الريح ..

وماذا يصنع سعيد بن العاص والي الكوفة والقوم لا يسمعون له ، ولايصغون الى ما يخاطبهم به ؟ كانوا يطيعونه فعصوه ، وامسى الوجوه الذين هم اركان امارته ، واصحاب الصوت في العشائر ، اعداء له . وقد نشأت هذه العداوة في ليلة اكفهر فيها وجه السماء .

مالك بن كعب الارحبي ، والاسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس ، وما لك الاشتر ، وصعصعة بن صوحان ، واربعة آخرون من وجوه اهل الكوفة كانوا يسمرون عند سعيد ويقضون لياليهم في مجلسه . فقـــال سعيد في تلك الليلة وهم يتحدثون بأمر الاسلام : انما سواد العراق بستان قريش . فقال الاشتر : اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستـــان لك ولقومك؟ وتكلم القوم مثله ، فقــال عبد الرحمن الاسدي وكان على شرطة سعيد : اتردون على الامير مقالته ؟

وأغلظ لهم ، فقال الاشتر : لا يفوتنكم الرجل . فوثبوا عليـــه ووطئوه بارجلهم وطأً شديداً حتى اغمي عليه .

ثم نضح بماء فأفاق ، فقال : قتلني ايها الامير من انتخبت

فقال سعيد : والله لا يسمر عندي احد ابداً .

وجعل القوم يجلسون في مجالسهم ويشتمون سعيداً ، ثم امعنوا في شتم عثمان واجتمع اليهم الناس يفعلون مثلهم حتى كثروا وكادت السيوف تخرج من الاغماد. فكتب سعيد واشراف قومه الى امير المؤمنين يسألونه اخراجهم من الكوفة ،

فأمر بان يلحقوهم بمعاوية وكتب اليه : ان نفراً قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم ، فان آنست منهم رشداً فاقبل ، وان اعيوك فارددهم علي . فلما قدموا الشام ، انزلهم معاوية كنيسة يقال لها كنيسة مريم ، واجرى عليهم بأمر عثمان ، ما كان لهم بالعراق وكان يتغدى ويتعشى عندهم ، ثم قال لهم : انكم قوم مـــن العرب لكم اسنان وألسنة ، وقد ادركتم بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مواريثهم ، وقد بلغني انكم تبغضون قريشاً ، ولو لم تكن قريش ، كنتم اذلة ،

ان ائمتكم لكم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم ، وانهم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة .

فقال صعصعة : اما ما ذكرت عن قريش فانها لم تكن اكثر العرب وامنعها في الجاهلية فلا تخوفنا بها .

قال : عرفتكم الان ، وعلمت ان الذى اغراكم على هذا قلة العقول ، وانت خطيب القوم ولا ارى بك عقلاً .. ثم قال : اعظم عليك امر الاسلام حتى تذكرني بالجاهلية .. ألا فليخز الله اقواماً عظموا امركم ... ان قريشا لم تعز بالجاهلية والاسلام الا الله عزّ وجل وهي لم تكن اكثر العرب واشدها ، ولكن كانت اكرمها انسابا وامحضها احسابا واعظمها اخطاراً واكملها مروءة، ولم تمتنع في الجاهلية ، والناس يأكل بعضهم بعضاً الا بالله الذي بوأهم حرما آمنا هل تعرفون عربياً او عجمياً او اسود او احمر الا وقد اصابه الدهر في بلده وحرمته؟ الاما كان من قريش، فانه لم يردهم احد من الناس بكيد الا جعل الله خده الاسفل، حتى اراد الله ان يستنقذ من اتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له اصحابا خيارهم قريش . ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم ، وكان يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم، افتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؟! اف لك ولاصحابك . لقد كنت شر قومك يا صعصعة ، حتى اذا ابرزك الاسلام ، وخلطك بالناس وحملك على الامم التي كانت عليك اقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الفتنة !! الا ان الشيطان قد علم انه لا يستطيع ان يرد بكم قضاءً قضاه الله او امراً اراده الله وانكم لا تدركون بالشر امراً ابداً الا فتح الله عليكم شراً منه ..

ثم تركهم ومضى ، فلما كان بعد ذلك اتاهم فقال :ان رسول الله ﷺ كان معصوما فولاني وادخلني في امره ، ثم استخلف ابو بكر فولاني ، ثم استخلف عثمان فولاني ، ولم يولني احد منهم الا وهو راض عني ، وانما طلب رسول الله للاعمال اهل الجزاء من المسلمين ولم يطلب لها اهل الاجتهاد والجهل ، وان الله ذو سطوة يمكر بمن مكر به ، فلا تعرضوا لامر وانتم تعلمون من انفسهم غير ما تظهرون .. انظروا فيما ينفعكم وينفع الناس واطلبوا الخير لهم .

فقال صعصعة : لست بأهل ذلك ولا كرامة لك ان تطاع في معصية الله .

قال : أليس اول ما ابتدأتكم به ان امرتكم بتقوى الله وطاعة نبيه وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ؟

– بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي .

قال : ان كنت قد فعلت فأتوب الى الله وآمركم الآن بتقواه وان تدلوا أئمتكم على احسن ما قدرتم عليه .

– اما نحن فنأمرك بأن تعتزل عملك فان في المسلمين من هو أحق به منك ، من كان ابوه أحسن قدماً في الاسلام من ابيك وهو أحسن فيه قدماً منك .

قال : اذا كان غيري أحسن قدماً في الاسلام فليس في زماني احد اقوى على ما انا فيه مني .. ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري اقوى مني لما رحمني ... واني لم احدث حدثاً ينبغي لي معه ان اعتزل عملي ولو رأى ذلك امير المؤمنين لكتب اليّ فاعتزلت عمله . فأسمعوه عندئذ ما لا يحب ، وقد رأى الفتنة تملأ قلوبهم ، وانهم سيسعرون نارها ان لم يتدبر عثمان الأمر . فقام من عندهم وكتب الى عثمان : « سيرت اليّ قوماً ليست لهم عقول وأديان ، أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة وأموال اهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم ، فانه سعيداً ومن عنده عنهم ، فانهم لا يريدون إلا الشر .

فأمره عثمان بأن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة . فردهم اليه ، فكانوا حين رجعوا ، أطلق ألسنة وأشد بغضاً .. فضج سعيد منهم بل ضجت الكوفة كلها وسارت الرسل تحمل اخبارهم من جديد الى الخليفة ، فكتب الى سعيد : اذا أتاك كتابي فابعث بهم الى عبد الرحمن ، بن خالد بن الوليد ، وكان عاملاً على حمص .

وكتب الى الاشتر واصحابه : اما بعد فاني قد سيرتكم الى حمص فاخرجوا اليها فانكم لستم تألون الاسلام واهله شراً والسلام .

فلما قرأ الاشتر الكتاب ، قال : اللهم اسوأنا نظراً الى الرعية وأعملنا فيهم بالمعصية فعجل له النقمة !

وسمع سعيد بن العاص ما قاله ، فخبّر امير المؤمنين ، وامير المؤمنين يحفظ ما يسمعه في الصدر والألم يملأ فؤاده . وسار الاشتر واصحابه الى حمص ، فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الساحل وأجرى عليهم رزقاً . وكان قد انضم اليهم ثابت بن قيس النخعي ، وكميل بن زياد النخعي ، وزيد بن صوحان اخو صعصعة ، وجندب بن زهير الغامدي ، وجندب بن كعب الازدي ، وعروة ابن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وابن الكواء .

وكان ابن الكواء اذا سئل عن معاوية يقول : انه بعيد الثرى ، كثير المرعى ، طيب البديهة ، بعيد الغور ، الغالب عليه الحلم ، ركن من اركان الاسلام .

واذا سئل عن اهل المدينة قال : هم أحرص الأمة على الشر وأعجزهم عنه .

وكان يقول عن اهل الكوفة : انهم يردون جيعاً ويصدرون شتى .

ويقول عن اهل مصر : هم أوفى الناس بشرّ وأسرعهم ندامة ، واما اهل الشام فهم أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم ..

وكثر النفي في ذلك الحين ... النفي السياسي الذي يحدث مثله اليوم وفي كل زمان ومكان . هذا رجل يرفع صوته بالشكوى . فيخرجه عمال عثمان الى بلد آخر ليخمدوا صوته فيزيد ارتفاعاً .. وهذا آخر يهامس الناس في السوق او في المسجد ، فيظن اولئك العمال انه سيفسد على الخليفة امره فيأمرون بابعاده ! حتى تحدثت الوفود واهل المدن بما يرون ، وخرجت الألسنة النامة عن سكوتها تملأ النواحي كذباً وتوغر الصدور .

وقد بلغ عبدالله بن عامر ، وقتئذ ان في عبد القيس في البصرة ، رجلاً نازلا على حكيم بن جبلة . وحكيم بن جبلة رجل لص ، يتنحى عن الجيوش وهي راجعة فيسعى في ارض فارس ، ويغير على اهل الذمة ، ويتنكر لهم ويفسد في الارض . فشكاه الناس الى عثمان ، فكتب الى عبدالله : ان احبسه فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً . ففعل عبدالله ما امره به ثم بلغه كما قرأت ، ان رجلاً نزل عليه وقد اجتمع اليه نفر ، فدعا الرجل وقال له : من انت ؟

وكان يدعى عبدالله بن سبا وهو المعروف بابن السوداء .

فقال : رجل من اهل الكتاب رغبت في الاسلام وفي جوارك .

قال : لا حاجة لي الى ذلك ، اخرج عني .

فانصرف ، حتى اتى الى الكوفة . ولكنهم اخرجوه منها الى مصر . وفي مصر جماعة لا تحب عثمان ، كما عرفت . فجعل يكاتب انصاره ، ويكاتبونه ، وتهيأت الافكار لفتنة هوجاء طائشة تلتهم اليابس والأخضر ، وبدأ الناس ، في كل اقليم ، وكل بلد ، يرون طلائعها بادية على الوجوه ، ويستمعون الدعوة اليها تتناقلها الافواه . وقد عرف القوم ، في جميع الاقطار ، ان اعداء امير المؤمنين سيجتمعون ، وقد يمثلون بين يديه في المدينة ، ليذكروا له جميع ما يفكرون فيه ، من نواحي الاصلاح في الدولة ...

***

- ٦٦ -

انقضى ذلك الشهر ، الذي جعل سنان آخره ، موعداً للذهاب الى مرو الروذ ، حاملاً الى الاحنف اخبار اليتيمة الساحرة . وكان قد ضيّع صبره ، وخاف ان يمد الموت يده الى مولاته قبل ان يعود طارق ويتلاقى الحبيبان . فلما همّ بالذهاب قال لليتيمة : قلبي يحدثني بأني سأرى طارقاً ..

- اما انا فلا اؤمن بالأحاديث التي يهامسني بها القلب ...

لقد نسي طارق ابنة شهريار وهو يبحث اليوم عن فتاة تليق به وتصلح للانتماء الى قومه ..!

- بل هو يبحث عن الفتاة التي اختارها لنفسه ولا يطيب له عيش إلا اذا اجتمع الشمل .

قالت : لو عرف اني في مرو ، لانتقل الى العراق فراراً من الخائنة التي ارادت ان تجعل السم في طعامه ، وطعام عمه وابيه .

قال : انها ذكرى مؤلمة يا مولاتي فانسي ما مضى .

- وكيف انسى ، وقد سمعت التهمة تقذف بها شفتاه : ورأيت الدموع ،

دموع القهر ، تتلألأ في عينيه .
– بلي هي دموع الحب الذي لا يبـالي بالتهم ، ولا يصدق الاكاذيب التي تنقل اليه .
– اجل ، وانه لحبٌ ذلك الذي يدفع صاحبه الى الطواف في الاقاليم باحثاً عن حسناء يتخذها زوجة له !!
قال : ماذا تقولين يا مولاتي لو عرفت غداً ان طارقاً لا يطلب في طوافه غير اليتيمة ابنة شهريار ؟
– ومن يستطيع ان يثبت هذا ؟
– انا ... ثم تلمسينة باليدين .
قالت : انظر عندئذ في الأمر من ناحية اخرى .
– ما هي ؟
– هي ان اصفح عما بدر منه ، واسأله ، باسم الحب ، الذي جعلنـا نفساً واحدة ان يتزوج سواي !!
– وما معنى ذلك ؟
– معناه اني لن اطمع بالحياة ، بعد هذا الضعف الذي انتهيت اليه ..
– بل تكون الحياة مجالاً للعيش الطيب والأمل الضاحك .
وحوّل وجهه ليمسح دموعه ثم قال : اني ذاهب الآن وسأحمل اليـك بعد رجوعي ان شاء الله اخبار الحبيب الباقي على العهد ...
وخرج دون ان يزيد كلمة وكان يقول في نفسه : الويل لي ولطارق اذا جار القضاء.وأنشب الموت في هذا الغصن النضير مخلبه الدامي .
وظل يردد قوله والخوف يملأ فؤاده حتى قدم مرو ووقف ببـاب الاحنف يستأذن عليه .

وكان الاحنف مضطرب الذهن لما يسمعه من اخبار الفتنة . فلما دخل سنان جعل يتفرس فيه ثم قال : والله انـك لسنان مولى شهريار الخراساني .. ونهض فوضع يده على كتفه وتمتم قائلاً : اني غير مخطىء فأنت هو ... فحنى الرجـل رأسه وقال : أجل اني سنان يا مولاي .

– وكيف خرجت من مرو ؟

– كما يخرج جميع الناس في كل يوم وكل ليلة .

وكان قلب الاحنف يرقص في صدره من الفرح فقال : وأين اليتيمة ؟

– في موضع قريب من مرو لا يخطر لأحد انها فيه ثم قال : أراك تسأل عن الفتاة يا مولاي ولا تسأل عن ابيها ..

– أجل فقد ضيعت يتيمتك ولم أضيع شهريار ..

– وهل وجدته يا مولاي ؟

فعرف الاحنف عندئذ ان الرجل لا يعلم شيئاً من امر مولاه فقـــال : نعم وجدته ولكني لم أره ...

– وفي أي بلد هو ؟

فابتسم قائلاً : من الرأي ان تدلني اولاً على البـــلد الذي تقيم به الفتاة ثم تعرف بعد ذلك كل شيء .

قال : لقد اتيت الآن يا مولاي لأدلك على ما ترغب فيه .

– اذن قدمت مرو من اجل هذه الغاية .

– نعم لو لم تكن هذه غايتي لما طاب لي ان استأذن عليك وأمثل بين يديك في هذه الساعة .

– وما الذي دعاك الى ذلك وقد مضى عليك اكثر من عامـين وانت وراء الحجاب ؟

– رأيت الموت يمشي بخطى متثاقلة فخفت ان يضرب ضربته وانا لا استطيع الدفاع ..

قال : لا يجسر هذا الموت على الدنو منك ..

– ولكنه يجسر على الدنو من الفتاة التي افديها بدمي .

قال : ويلك وهل تذكر الموت عندما تذكر ابنة .. شهريار ؟

– أجل يا مولاي اذكره كلما ذكرتها وانا خائف من ان ينتهي الأمر بمـــا اكره ، وبما ينغص العيش على طارق ابن اخيك .

قال : يخيل الى من يسمع قولك ان الفتاة على فراش الموت ..

– لا يا مولاي انها تروح وتجيء ولكن الموت يكمن لها في ثوبها وهي تحس ...

قال : خبرني بما جرى لها ولا تحدثني بالألغاز ... أين هي الفتاة اليوم ؟

– في مرو الاولى يا مولاي .

قال : كذبت فعبدالله وطارق لم يجدا لها في مرو أثراً .

– لقد خرج الاثنان من مرو قبل ان ندخلها نحن .

قال : تركتما هذا البلد الى منزل شهريار على الشاطىء أليس كذلك .

– بلى !

– ثم ماذا ؟

– ثم انصرفنا منه نريد البصرة ومنها الى الخليج .

– وهذا كذب ، فاليتيمة لم تذهب الى الخليج كما ذكرت .

– قلت انها ارادت الذهاب اليه ، ثم عدلت عنه ، وقد رأيت طارقاً وعبدالله ورأتهما هي ، ونحن راجعان ..

وقص عليه حكاية الخيمة ، واستخفاء اليتيمة في ذلك المنحدر خوفاً من ان تراها العيون .

قال : أتحتجب مولاتك عن الفتى وهي تحبه ؟

– نعم يا مولاي وقد آثرت الاحتجاب على الظهور ليسلم الشرف الذي أهين ولو اختنق ذلك الحب !

قال : أمرتك بأن تكون صريحاً فلم تفعل .

– بل فعلت وانا أخبر الامير الآن كل شيء .

– وأي شأن للشرف بما جرى ؟

قال : أتهمت اليتيمة بأنها خائنة ، بل أتهمت بأنها قاتلة وهي تحمل السم لتجعله في طعامك وهذا يكفي !

فوضع الأمير يده على جبينه وقال : صدقت فقد وجهت اليها هذه التهمة من قبل .

– واليوم ؟

– اما اليوم فقد ثبت لنا ان الذي سعى بها كان تماماً كاذباً ، وانهـا البريئة التي يجب ان تتلاشى عند قدميها التهم والظنون .

فتنهد قائلا : الحمد لله فقد نجت الآن ، والأمير وحده يستطيع انقاذها مما هي فيه ...

قال : سأقول لها اني كنت مخطئاً فيما فعلت فينتهي الأمر .

– بل تقول لها يا مولاي ان طارقاً تعجل في أمره ، وقد ندم على ما جرى وخرج الى الاقاليم يسأل عنها ليعيدها اليه .

قال : سأفعل ذلك وستعود اليها العافية ان شاء الله .

قال : أخشى ان يسبقنا اليها الموت !

– اما انا فلا اخاف هذا الموت لأن الحب سيظفر به ، ألم تقل انها في مرو ؟

– بلى يا مولاي .

– وكيف ضيّعها ماهويه وقد اوصاه عبدالله بأن يجعل عيونه في الاحياء ، من اجل هذه الغاية ؟

– لا يستطيع طارق نفسه ان يعرفها يا مولاي .

– لماذا ؟

– لأنها أمست جسماً دبّ الفناء فيه ، وهنالك شيء آخر هو انها تلبس في مرو لباس الفتيان .. ثم قال : متى يعود طارق ؟

– انه في بلاد خراسان وسيعود عندما اكتب اليه .

قال : لي سؤال آخر يا مولاي .

– سل ما تشاء .

– رأيت مع الأميرين ، في تلك الخيمة التي ذكرتها لـك رجلين فارسيين احدهما برسي احد خصيان الملك فأي شأن لهما ؟

وكانت الدموع عندئذ تجول في عينيه . فقال الاحنف : اما الرجـل الآخر فهو خراذمهر صاحب جبل الزهاد وقد كان برسي اسيراً عنده بأمر يزدجرد !

– بأمر يزدجرد ، وبرسي من خصيان بلاطه ؟؟

– أجل فقد انتهى اليه انه امسى مسلماً فجعله في قفص .

– وكيف نجا منه ؟
– بفضل خراذمهر نفسه الذي اصبح عوناً للعرب ...
– ومولاي شهريار ؟..
قالها وسبقه الدمع ..
فقال : يرقد مولاك شهريار في وادي خواست وتجري فوق جثته التيقطعتها السيوف مياه الشتاء ..
فجعل يشهق بالبكاء ... حتى خاف اخيراً ان يغضب الاحنف ، فقال : ألا تقص عليّ يا مولاي خبر موته ؟
– اقول لك كلمة واحدة هي ان يزدجرد رأى ان يستريح منه ففعل ، وقد ذهب المسكين ضحية وفائه .
فرفع عينيه الى السماء وجعل يقول : ارحم اللهم اليتيمة الشقيــة التي دفن سرها مع ابيها ..
قال : لقد فضح موت شهريار جميع الاسرار .
– ومن باح بها يا مولاي ؟
– وصيته التي كتبها قبل ان يلفظ الروح .
– وهل يريد مولاي ان يذكر لي شيئاً منها ؟
– سأذكر كل شيء للفتاة وانت حاضر .. قل الآن بأي حي تقيمان ؟
– نقيم خارج البلد في خيام ثلاث .
قال : ترجع انت غداً عند الصباح ، وألحق بك انا بعد يومين فأرىمولاتك واحملها على الرجوع الى مرو .
– ولكنها لا تعلم اني حدثتك بهذا ..
– وتريد ان تكتمها ذلك ؟
– نعم !
– اذن سأقول لها ان الاقدار قذفت بي الى مرو وهي التي مهـدت لي سبيل اللقاء .
– اما انا فأقول لها ان طارقاً سيعود بعد بضعة عشر يوماً واني سمعت ذلك

من بعض المقربين اليك .

فوقف قائلاً : قم فانصرف ولك ان تقول ما يخطر لك .

وخرج من قاعة الجلوس ليكتب الى عبدالله ويدعوه الى التعجيل في الرجوع

وكان سنان يفكر وهو في الرواق، فيما سمعه من الاحنف ، وهو لا يستطيع ان يتبين سراً واحداً من اسرار مولاه .

* * *

- ٦٧ -

لقد عرفت اليوم يا مولاتي ما أردت ان اعرفه . وكانت الكآبة تغمر وجه اليتيمة ، والخيبة تبدو في عينيها الفاترتين ، حتى لتظن ان تينك العينين صورة بليغة من صور الالم ، فقالت : ماذا عرفت ؟

فقال سنان :لقد كان خروج عبدالله وطارق من مرو، من اجل غايةواحدة هي البحث عنك كما كنت اقول .

ــ انها نغمة سمعتها من قبل ويطيب لك ان تعيدها اليوم لتنقذ هذا القلب من هوة يأسه .

قال : سمعتها يامولاتي في مرو ولم اسمعها قبل اليوم .

ــ ممّن ؟

ــ من رجل قربه الاحنف اليه وهو لا يفارق مجلسه .

ــ اتقسم لي ؟

ــ اقسم بهذا الاخلاص الذي يملأ صدري اني صادق .

ــ وكيف يتهمني القوم ثم يخرجون في أثري بعد ذلك .

ــ لاتذكري هذه التهمة يا مولاتي فهي سبب البلاء .

ــ بل هي الموت الذي يدنو مني كما ترى ... لقد ترك ابي مرو ولم يعد واني لا اعلم احي هو ام ميت .. ثم اقبل طارق الذي وهبت له قلبي ، يحدثني بالتهم ويقول اني خائنة قاتلة كأنه يريد ، من وراء الستار ، ان يقتل في صدري هــذا الغرام الذي بحت به ، ثم تجيء انت فتقول لا تذكرى هذه التهمة فهي سبب

البلاء كأني في نظرك حجر اصم ليس له قلب ولا شعور له !!!

– يكفي ان تعلمي ان الندم استولى على طارق وهو الذي دفعه الى ترك الجيش والطواف في الاقاليم .

– ويكفي ان تعلم انت ان هذا الجرح لا يبرأ واني لا أجد الراحة الا بالموت ! !

– واذا جاء طارق غداً وجثا على ركبتيه قائلاً لك : لقد اخطأت واني مقيم على العهد ؟

– لا يرى طارق من اليتيمة ، عندما يجيء ، غير جسد واه لا قوة له ، او جثة غيّبها القبر .

– اذن فخير لطارق ان يقضي العمل كله بعيداً عن قومه من ان يعود فيرى ما تقولين ..

– اجل ، انه يذكر ، اذا رجع ، هذا الغرام الذي لا يفكر فيه اليوم .

قال : لم ارد هذا يا مولاتي !

– وماذا اردت ؟

– اردت ان اقول ، انه سيموت ، عندما يرى القضاء انتزع يتيمته من يده ، ويموت بعده ابوه عبدالله .

– بل يعيش لفتاة اخرى لا تكتنفها الاسرار ، ولا يخطر لها ان تقتله بالسم ، خدمة ليزدجرد الفارسي !

وخرجت من خيمتها قائلة : لا تحدثني بهذا بعد اليوم فأنا لا أستطيع ان احتمل . فرفع عينيه الى السماء وجعل يتمتم قائلاً : لا ينقذها غير الاحنف فأرسله يا الله .

* * *

– ٦٨ –

في السنة الرابعة والثلاثين ، خرج سعيد بن العاص من الكوفة يريد المدينة ليسأل امير المؤمنين رأيه ، في اولئك الرجال الخارجين عن الطاعة ، والذين

يكاتبون انصارهم في كل بلد ليعيبوا الخليفة ويسبوا عماله .

وكان قد جعل قبل خروجه ، بسنة وبعض اخرى ، الاشعث بن قيس عاملاً على اذربيجان ، وسعيد بن قيس على الري ، والنسير العجلي على همذان والسائب ابن الأقرع على اصبهان، ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلام الخزاعي على الموصل وجرير بن عبدالله على قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة على الباب ، وجعل القعقاع بن عمرو على الحرب ، وعتيبة بن النهاس على حلوان . وخلت الكوفة عندئذ من الرؤساء والقواد . فخرج رجل يدعى يزيد بن قيس وحوله الرجال الذين كاتبهم ابن السوداء اليهودي يريدون خلع عثمان . فتصدى القعقاع ليزيد قائلاً : ماذا تصنع ؟

قال : انما نستعفي من سعيد بن العاص فنحن لا نطيق ان يبقى على الكوفة .

– ومن تريدون والياً سواه ؟

– نريد ابا موسى الاشعري .

قال : اما هذا فنعم ونحن لا شأن لنا به فخبروا امير المؤمنين .

فكتب يزيد الى اعداء عثمان ، النازلين في حمص ، عند عبد الرحمن بن خالد وقد عرفت من هم . فاقبلوا وسبقهم الاشتر الى الكوفة والناس في المسجد فوقف بالباب وجعل يقول :

جئتكم من عند امير المؤمنين عثمان ، وقد تركت سعيد بن العاص يريده على نقصان نسائكم على مئة درهم ، وردّ اصحاب البلاء منكم الى ألفين ، ويزعم ان هذه الارض بستان قريش ... فاستخف الناس بما يقول ، وجعل اهل الرأي ينهون القوم فلا يسمعون لهم ولا يرجعون عما يقولون . ثم قام يزيد فنادى : من شاء ان يلحق بيزيد بن قيس لرد سعيد بن العاص فليفعل ! فبقي اشراف الناس في المسجد .

وكان عمرو بن حريث يومئذ ، خليفة سعيد ، فصعد المنبر وأمر الناس بالاجتماع والطاعة ونهاهم عن الفتنة . فقال له القعقاع : أتردّ السيل عن الجري ؟ هيهات لا والله لا يسكت الغوغاء إلا السيوف ويوشك ان تخرج من الأغماد فاصبر ..

قال : أصبر .. وتحول الى منزله .

فلما رأى القوم ان القعقاع لا يلين ، خرجوا الى موضع قريب من القادسية ، يقال له الجرعة ، ينظرون في الأمر . ثم رأوا ان يرسلوا احـدهم الى عثمان يسأله ان يصلح الحال قبل ان تشتعل النار ... ولم يلبثوا حتى بعثوا بعامر بن عبدالله التميمي الذي يقال له عامر بن عبد القيس .

وكان جريئاً وصاحب رأي .

فقدم المدينة ثم دخل عليه فقال : « ان ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في اعمالك فوجدوك قد ركبت اموراً عظاماً فاتق الله وتب اليه » .

فقال عثمان لمن حوله : « انظروا الى هذا فالناس يزعمون أنه يقرأ القرآن ووالله ما يدري اين الله » .

قال : « بلى والله اني لأدري ان الله بالمرصاد » .

قال : ابقَ بالمدينة ريثما ارى رأيي .

وارسل في ذلك اليوم ، الى معاوية في الشـام ، وعبدالله بن سعد في مصر ، وعمرو بن العاص في فلسطين ، وعبدالله بن عامر في البصرة ، يدعوهم اليـه ويستعجلهم في المجيء.

فلما اجتمعوا قال : ان لكل امرىءٍ وزراء ونصحـاء ، وانتم وزرائي ونصحائي واهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا اليّ ان أعزل عمالي وارجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم .

فقال والي البصرة : أرى لك يا امير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك ولا يكون همّ احدهم الا في نفسه وما هو فيه .

وقال سعيد والي الكوفة : احسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف ، ان لكل قوم قواداً ، متى يهلكوا يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

فقال عثمان : ان هذا هو الرأي لولا ما فيه ...

اما معاوية فقال: اشير عليك بأن تأمر امراء الاجناد فيكفيك كل امير منهم ما قبله واكفيك أنا اهل الشام ..

وقال : والي مصر : ان الناس اهل طمع فاعطهم مـــن هذا المال تعطف عليك قلوبهم .

ثم قـام عمرو بن العـاص فقال : يا امير المؤمنين ، انك قد ركبت الناس بمثل بني امية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل فـــان أبيت فاعتزم عزماً .

فقال : اهذا هو الجدّ منك ياعمرو ؟

فسكت عمرو حتى تفرقوا ، فقال : والله يا امير المؤمنين لأنت اكرم عليّ من ذلك ، ولكني علمت ان بالباب من يبلغ للناس قول كل رجل منا ، فأردت ان يبلغهم قولي ، فيثقوا بي ، فأقود اليك خيراً وادفع عنك شراً . وفي قول عمرو من الدهاء ما فيه .

فرد عثمان عندئذ عماله الى اعمالهم ، وأمرهم بتجهيز النــــاس في البعوث ، وعول على ان يزيد عطاياه ليطيعوه وأمره سعيداً بان يرجع الى الكوفة . فسبقه عامر بن عبد القيس الى الجرعة وخبر قومه .

فلما انتهى سعيد اليها قالوا له : ارجع الى المدينة فلا حاجة لنا إليك .

قال : كان يكفيكم ان تبعثوا الى امير المؤمنين رجلاً يطلب إليه ذلك. قالو: لقد فعلنا ما خطر لنا فانصرف . فآثر الرجل الرجوع الى الحجـــاز ، والامن يبسط ظله على نزوله الكوفة والناس لا يريدون ان ينزل.. وكان وراءه مولى له على بعير ، فسمعه الاشتر يقول : ما كان ينبغي لسعيد ان يرجع . فقتله ، وسيده القائد الى الحجاز لا يعلم . ومثل سعيد بين يدي عثمان فخبره بما فعلوا .

قال : وماذا يطلبون ؟

– يطلبون البدل وانهم يختارون ابا موسى ..

قال : نفعل لهم ما يريدون .

وولىّ عليهم ابا موسى وكتب اليهم : « أما بعد فقد أمرّت عليكم مـــن اخترتم ، ونحيت سعيداً ، ووالله لأقرضنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ، فلا تدعوا شيئاً احببتموه لا يعصى الله فيه الا سألتموه . ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه استعفيتم منه ، حتى لا يكون لكم على الله حجـــة ولنصبرن كما امرنا حتى

تبلغوا ما تريدون . كتب كتابه ، وجعل ابا موسى اميراً ، وهو يظن ان الاصوات قد خمدت ، وان الامر قد انتهى . ولكن القـــوم لم يسكتوا ، الا لينظموا صفوفهم من جديد ، ويستعيدوا القوى وكانت الافكار قد اضطربت ، وتمشت روح الفتنة في الصدور .

واقبل الناس الى المدينة يحدثون اشرافها بأمر عثمان ويسألونهم ان يتدبروا الامر او يلجأوا الى السيف !!! وكتب بعض اصحاب رسول الله وغيرهم ، الى البعض الاخر قائلين : اقدموا فان الجهاد عندنا . . . وعظم امر الناس على عثمان ونالوا منه ، وليس هنالك احد من الصحابة ينهاهم عن ذلك الا نفرٌ منهم ،بينهم زيد بن ثابت ، وأبو اسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ! ثم اجتمع القوم فكلموا علي بن ابي طالب .

فدخل علي على عثمان فقال : « الناس ورائي وقد حدثوني بأمرك ، ووالله ما ادري ما اقول لك ولا اعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على امر لا تعرفه .. انك لتعلم ما اعلم ، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه .. ثم قال : لقد رأيت وصحبت رسول الله ﷺ وسمعت منه ونلت صهره ، ولم يكن ابن ابي قحافة « ابو بكر » اولى بالعمل منك بالحق ، ولا ابن الخطـــاب اولى بشيء من الخير منك ، وانت اقرب الى رسول الله رحماً وقد نلت من صهره ما لم ينالاه وما سبقاك الى شيء ، فالله الله في نفسك فانك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهالة ،وان الطريق لواضح بين ، وان اعلام الدين لقائمة ، اعلم يا عثمان ، ان افضل عباد الله امـــام عادل ، وشرّ الناس عندالله ؛ امام جائر ضل واضل فأمات سنة معلومة واحيا سنة متروكة واني احذرك الله وسطوته ونقمته فان عذابه شديد أليم ،واحذرك ان تكون امام هذه الامة الذي يقتل فيفتح عليها القتل الى يوم القيامة ويتركها شيعاً لا تبصر الحق .

فقال عثمان : قد علمت الذي قلت ووالله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا اسلمتك ولا عبت عليك امراً ، اترى اني اتيت منكراً ، اذا وصلت رحمـــاً ، وآويت ضائعا ، وفعلت ما كان عمر بن الخطاب يفعل مثله ؟ انشدك الله ياعلي ، أليس المغيرة بن شعبة مع القوم ؟

قال : بلى !

– ألا تعلم ان عمر ولاّه وهو نسيب له ؟

– بلى !

– وكيف تلومني اذا وليت عبدالله بن عامر في رحمه وقرابته ؟

قال : كان عمر ، يدعو اليه عامله ، اذا بلغه كلمة واحدة عنه ؛ ويبلغ به اقصى العقوبة وانت لا تفعل ذلك ، بل ضعفت ورققت على اقربائك .

– وهم اقرباؤك ايضاً ..

– نعم ان رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم .

قال : ولى عمر معاوية وانا قد وليته ...

– ولكنك تعلم ان معاوية كان يخاف عمر كما كان يخافه غلامه يرفأ ...

– واليوم ؟

– اما اليوم فان معاوية يقتطع الأمور كلها دونك ، ويقول للناس : هذا امر عثمان ، وانت تعلم ذلك ولا تقول كلمة .

قالها علي وخرج . فخرج عثمان على اثره فجلس على المنبر ثم قال : « امابعد فان لكل شيء آفة ، وآفة هذه الامة ، عيّابون طعانون ، يرونكم ما يحبون ، ويستترون عنكم ما تكرهون وهم امثال النعام يتبعون اول ناعق ... لقد عتم عليّ ما اقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما احببتم وكرهتم ، اما انا فقد لنت لكم ، وأوطأتكم كتفي ، وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم عليّ ... اما والله لأنا أعزّ نفراً واقرب ناصراً واكثر عدداً فكفوّا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم ووالله ما قصرت عن بلوغ ما بلغه من كان قبلي ولم تختلفوا عليه » .

فقام مروان بن الحكم فقال للناس :

ان شئتم حكمنا والله السيف ما بيننا وبينكم .. نحن وانتم والله كما قال الشاعر :

فرشنا لكم اعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون في دمن الثرى

قال عثمان : اسكت ودعني واصحابي . ثم نزل عن المنبر ، وألم نفسه مطل من عينيه ..فاشتد قوله على الناس وزاد حقدهم وتألبهم عليه .

* * *

- ٦٩ -

خرج الاحنف بنفسه يريد مرو الشاهجان . وقد انتهى اليها ،وهو متنكر، عند غروب الشمس ، ومعه غلام يقود فرسا له هي غير الفرس التي يراه الناس على ظهرها في الميادين . وكأنه كان حاضراً ، عندما ضرب سنان خيامه خارج السور ... اجل ، لقد خبره سنان ان هنالك خياماً ثلاثاً لا تبعدالواحدة من الاخرى اكثر من ذراعين . فدنا منها كأنه غريب يسأل الناس ان يجودوا عليه بوسادة يسند اليها رأسه ، وعيناه تنظران الى الاشخاص التي تروح وتجيء. وكان سنان ينتظر قدومه من ساعة الى ساعة ، وهو يفكر في الوسيلة التي يعمد إليها الاحنف للوصول إليه .

وبينا هو واقف بباب الخيمة ، واليتيمة المسكينة ، او شهريار الفتى ، واضع رأسه بين يديه ، أقبل الاحنف فقال : السلام عليك ايها الرجل .

فرفعت اليتيمة رأسهافعرفت الاحنف.فأرخت ضفائرها الى وجهها وحولت نظرها عنه خوفاً من ان يعرفها هو . ولكن قلبها كان يخفق مضطربا كما يخفق على ذكر طارق . اما سنان فكان يتكاف الابتسام وهو يقول : اهلاً بالغريب اللاجيء الى خيام الفقراء ..

قال : اتيت مرو وانا لا اعرف فيها احداً فآثرت النزول خارج السور ريثما يطلع الصبح .. وتكفيني وسادة ...

قال : ادخل ، انك ستنام في فراشي اذا طاب لك ..

– بل انام بالقرب من هذه الفرس كما افعل وأنا في الصحراء .

– لك ان تفعل وانت في الصحراء ما تشاء ، اما هنا فالامر لنا ، وضيفنا لا ينام عند فرسه ...

قال : حلفت ان لايظللني في منامي بيت !!

ـ في الشتاء والصيف ؟

ـ اجل ، حتى ابلغ الغاية التي تركت من اجلها ، بلدي واهلي .

ـ إذن هو نذر .

ـ نعم ، واني لأرجو ان يقصر الله أيامه ..

قال : يخيل اليّ ان لك ولداً ضيعته الحروب فلا تعلم أحيٌ هو أم ميت.

ـ وأي شيء اوحى اليك بهذا ؟

ـ هذا النذر الغريب الذي نذرت .

قال : كان لي ولد فضيعته انا ولم تضيعه الحروب كما قلت .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ أحب فتاة هي اجمل النساء وجها واكملهن أدبا فلم أشأ الا ان امنعه من هذا الحب واخنق غرامه ..

ـ ولماذا فعلت ؟

ـ لانه بلغني ان لهذه الفتاة سراً وان الظنون تحوم حول هذا السر .

ـ وطردت ولدك ؟

ـ لم أطرده ، بل خرج يطوف في البلاد باحثا عن الفتاة التي خرجت قبله وانا لا اعلم ..

ـ وندمت اليوم على ما صنعت ؟

ـ اجل فقد عرفت سر الفتاة ولكن بعد ان ضيعت الاثنين .

ـ وتستطيع أن تبوح لي بما عرفت ؟

ـ خير لي ان احتفظ به فالذكرى مؤلمة .

ـ وما اسم فتاك ؟

ـ هذا ايضاً لا ابوح لك به ..

فقالت اليتيمة عندئذ وشفتاها ترتجفان : أتأذن لي ان اسألك ؟

ـ نعم ، وأنا لنتحدث في هذا الليل بما يطيب لنا .

قالت : ألا تعرف مقرّ ولدك ؟

– بلى اعرفه واعرف اليوم الذي ينتقل فيه من بلد الى آخر ..
– وكيف تقول انك ضيعته ؟
– لو كنت اجهل مقرّه لملأت البلاد عيوناً ورسلاً يحملونه اليّ ولو كان في حضن امير المؤمنين .
– وماذا إذن ؟
– انه لا يعود الى بلده والفتاة بعيدة عنه !
– وهل سألته ان يفعل ؟
– حاولت كثيراً ان احمله على الرجوع فلم يرض ،فهممتاخيراً بأن استعين بامراء الجند ليعيدوه الى ابيه !
– ولكنك قلت انك تطوف في البلاد باحثاً عنه .
– لم اقل هذا قط فأنا لم اترك بلدي من اجله بل من اجل الفتاة التي ذكرت!
قالت : تمنع فتاك من ان يحبها ويمشي وراء عاطفته ثم تخرج مر بلاد قومك لتسأل الناس عنها ؟
– اجل افعل ذلك بعد اطلاعي على السر وبعد ان عرفت انها بريئة مما نسبه اليها كاذب فارسي .
– اذن كانت متهمة ..
– وكان سرها رهيباً خفت معه ان اقذف بولدي الى هوة بعيدة الغور يخسر فيها شرفه ويضيع كرامة قومه .
فتمتمت قائلة : انها شقية جار عليه الزمان ..
ثم قالت : وليس لها اهل ؟
فتردد الامير في جوابه ثم قال : كنا نظن وتظن هي ان لها والداً ..!
فوضعت يدها على قلبها وجعلت تقول : كلمة غريبة لم افهم منها حرفا ..
– لو كنت مكاني ايها الفتى لفهمت كل شيء ...
– وهذا الذي تظن انه ابوها .. اين هو ؟
– لا تسألني عن هذا فأنا لا استطيع ان اقوله الا للفتاة نفسها ..
– وان لم يجتمع الشمل ؟

– ادفن سري في صدري وألحق بولدي حاملاً اليه خيبة الرجـــاء فيبكي غرامه وشقاءه الى الابد .

فأرخت نظرها الى الارض وهي تفكر في ذلك السر الرهيب الذي وعدها شهريار بان يبوح لها به .

اترفع ضفائرها عن وجهها قائلة له : انا اليتيمة فبح لي بسري ، ام تسكت على ما سمعت فتضيع سرها وتخسر طارقاً ؟

انه موقف لم ترَ في حياتها اصعب منه . ولكنها كانت تخاف الزمان الذي لا يصفو لأحد وتخشى ان يخرج الاحنف فيالصباح فلا يبقى بعد ذلك امل باللقاء. وهنالك الغرام المبرّح الذي يقودها الى القبر ... فرأت ان تخطو خطـــوة الى الامام ثم تنظر في امرها بعد ذلك فقالت : لي رأي ابديه لك .

قال : هات !

قالت : لو سألك احد الفتيان الان ان تبوح له بجميع ما تعلم وهو يضمن لك انه يسلم الفتاة اليك ، فماذا تقول ؟

فابتسم قائلاً : اهزأ بهذا الفتى لاني اعلم انه لا يستطيـع ذلك .

قالت : عار على الرجل ان يهزأ بالناس دون ان يكون هنالك ما يدفعه الى هذا ..

ان الفتى الذي ذكرته لك يعرف كل شيء ..

قال : اين هو ؟

– هو هنا ..

– فجعل ينظر الى جانبيه وهد يتجاهل الامر .

فقالت : انا هو !!

فقال لسنان : هذا ولدك ؟

– نعم !

– وعلمته ان يستخف باضيافه ؟!

– بل علمته ان يستقبل الاضياف كما يستقبلهم العربي الشريف .

– وكيف يقول انه سيسلم الفتاة الي ؟

– لا ادري كيف يستطيع ان يفعل ذلك ، ولكني واثق بانه اذا وعد وفى

قال : لو عرفت ايها الفتى من انا لما استخفت بي .

كن من شئت فقد وعدت الآن وانتهى الأمر .

– وانت قادر على القيام بما وعدت ؟

– اجل ، كما انت قادر على ركوب هذه الفرس عندما تشاء .

قال : اخشى ان اطلعك على سري ثم لا أرى غير الفشل .

– ولكن النبلاء لا يكذبون وانا منهم ..

– اذن فاسأل فقد وثقت الآن ..

– ماذا يدعى ذلك الرجل الذي كانت الفتاة تظن انه ابوها ؟

– شهريار الخراساني .

– إذن هي فارسية ؟

– فارسية بالأمس ، ومسلمة اليوم .

– وما هي حكاية شهريار ؟

– حكايته انه كان من المقربين الى يزدجرد الملك وهو في بلاطه ، وكان في ذلك البلاط فتاة أحبها من قبل وأراد ان يجعلها زوجة له ، عملاً بوصية ابيها الذي قتل في الحرب . فجعل صدرها يعلو وينخفض ، وجسمها يضطرب .

والاحنف يتظاهر بانه خالي الذهن وكان يقول : على ان يزدجرد لم يرضَ ، بل احتفظ بالفتاة لنفسه وجعلها من حظاياه وهي تحاول النجاة منه ولا تقدر على ذلك .

قالت : فتاة فارسية ، وتأبى ان تكون حظية للملك ؟

– نعم ، فالحب لا يحترم الملوك والأمراء ، وهي التي أحبت شهريار كما أحبها وآثرت العيش معه على البقاء في ظل الملك ..

– وبعد ذلك ؟

– ملّها يزدجرد ، وكان يحيط حظاياه كلهن بنعمه ، ويحرمها هذه النعم ، حتى امست جلداً على عظم .

فتنهدت قائلة : مسكينة ..

– ولكنه لم يكتف بذلك ، بل منعها من ان تمثل بين يديه ، ثم تمـادى في قسوته فمنعها من أن تظهر في قاعة أو رواق .

فهمت بأن تقول: انه ظالم .. ولكنها تجلدت، وحبست انفاسها لتسمع ذلك السر الهائل الذي جعل حياتها حياة عذاب وشقاء. وكان الأمير يتفرس في عينيها المختلجتين ، ويصف ببلاغة العربي، جفاء يزدجرد وظلمه، واستهتاره ولهوه وهو على العرش ، ثم قال : ومرّ عام خسر الملك فيه تاجه ، فترك المدائن فـاراً من وجه العرب لاجئاً الى حلوان .

وفي حلوان وضعت جهان روز طفلة ..

فجعلت تردد : جهان روز .. جهان روز ..

فقال الاحنف : غير ان الملك لم يصبر ليرى طفلته بل غادر حلوان الى الري قبل ان تخرج الى العالم ، ثم عرف بعد بضعة عشر عامـــاً ان جهان روز لفظت روحها في ذلك المنزل الذي تركها فيه ..

– والطفلة ؟

– اما الطفلة فقد سلمها احد الرجـال الى مرضع من نساء العرب احتضنتها عامين ، ثم احتضنها ذلك الرجل بعد ذلك ..

فقالت وصوتها يختنق : مرضع من نساء العرب ؟!

– نعم !

– واسم هذه المرضع أم عامر زوجة عبدالله بن قيس ؟

– نعم !

– واسم ذلك الرجل شهريار ؟!

– نعم !

– واسم الفتاة .. اليتيمة ؟!

– نعم وقد بقي ان تسلميها اليّ ..

فرفعت ضفائرها ، ثم نزعت تلك القلنسوة القصيرة فبان وجههـا الاصفر ، وصاحت قائلة : انا هي !!

وسقطت على الارض ..

انتهى كتاب الاحنف الى اخيه عبدالله يقول له فيه :

ارجعوا فاليتيمة في مرو .

فشعر طارق ، بأن الدنيا كلها لا تتسع لفرحه ، وأحسّ ان الحياة تبتسم له ابتسامتها الخلابة ، بعد ذلك الجفاء .

ودعا اباه الى الرجوع قائلاً له : لقد أراد الله ان ينتهي هذا الطواف بالظفر فلم يبق إلا ان نتهيأ للرحيل ..

فبكى عبدالله وقال : ارضى من حياتي بأن يضحك لك الأمل ويفترّ لك ثغر الزمان ، وقال لخراذمهر : لقد عادت اليك الآن ابنة جهان روز فكأنك سترى أخاك .

قال : لا اصدق اني سأرى هذه الفتاة التي تحمل اليّ ذكرى ابان زرد ، وذكرى امها المنكودة الحظ .

وكانت ليلة ضحكت فيها القلوب المكتئبة والنفوس المتألمة ، وبات الجميع يتحدثون حتى بزغ الفجر . ولم يلبثوا حتى ركبوا افراسهم راجعين الى مرو ، وطارق في المقدمة وهو يلوم الاقدار التي لم تخلق لفرسه جناحين .. وكانت اليتيمة في منزل عبدالله بن قيس ، وقد رجعت اليه محمولة في هودج ، والحمّى تنهش ذلك الجسم الندي ، الذي صرعته الحادثات . أجل لقد عادت الفتاة المسكينة الى ذلك المنزل الذي خرجت منه، وهي لا تعلم، واستلقت على فراشها وعيناها مغمضتان ، والمخيلة ضائعة، والفكر شارد مضطرب . حملوها الى مرو، جسداً ضعيفاً واهياً لا يدلّك على الحياة فيه، غير الحمّى القاسية التي تضرم نارها في الاحشاء . بلى ، كان هنالك مظهر آخر من مظاهر الحياة ، هي تلك الكلمة التي كانت تردّدها شفتاها من حين الى آخر : انا ابنة الملك .

وأم عامر ، وجاريتها الامينة ، قائمتان عند فراشها ، في النهار والليل ، والاحنف نفسه ، يجلس عند رأسها بضع ساعات كل يوم ، ليمسح جبينها بالماء ، ويضع في فمها الملتهب ، بضع قطرات من العسل .. أما سنان ، فلم يكن يفارق المسجد الا ليراها ، ثم يعود اليه ليصلي ويسأل الله ان يعيد العافية الى مولاته

الملكة.. وقد مرّ عليها، وهي على هذه الحال، خمسة عشر يوماً، وشيوخ الفرس والعرب ، الذين يقومون مقام الاطباء ، يجودون عليها بما يملي عليهم الاختبار .

وقد رأوا اخيراً انها ستصرع الحمّى ويعود اليها الرشد . فلما كان اليوم السادس عشر ، أقبل طارق ومن معه ، ولم يلبث ذلك العاشق حتى رأى سناناً فخبّره كل شيء . وجاء الاحنف يسأله ان يرفق بنفسه ويستعين بالصبر ريثما تنجو الفتاة من الموت ، الذي يكمن لها في الفراش .

فقال : أللهمّ عفواً فأنا لا استطيع الاحتمال ..

ثم دخل وركبتاه ترتجفان والدموع في عينيه.. وجثا على ركبتيه يتفرس في ذلك الوجه الذي طلّقته النضارة وتينك العينين المغمضتين الغائرتين في محجريهما، وذلك الجبين المصفرّ البادية عليه سطور العذاب والشقاء . ثم جعل يهامس ذلك الشيخ العربي الذي يعالجها فأثبت له ان الحمى ستزول وان المريضة تحتاج الى العناية والهدوء . فسلّم أمره الى الله واعتصم بالصبر كما قيل له ، حتى مرت ثلاثة ايام اخرى وهو لا يفارق حجرتها الا لحاجة له . فبينا هو جالس عند فراشها ، في الليلة الثامنة عشرة ، فتحت عينيها فجأة وأرسلت نظرها الى العلاء ، ثم الى الجانبين ، وتنهدت تنهّد المريض يصحو من حماه . فاستولى عليه الفرح ، ورأى ان السكوت خير من الكلام .. وكان نظرها نظراً تائهاً ما لبث حتى استقرّ ، وامسى بعد لحظة نظراً هادئاً، نظر مريض نهكته الحمى.. وهو لا يعلم اي حادث حدث له. وما هي غير ساعة حتى اضمحل ذلك الذهول واستسلمت الحمى الهوجاء استسلاماً تاماً بعد ذلك الصراع الرهيب . واذا اليتيمة تستعيد جميع القوى العاقلة وتعرف الوجوه التي كانت تعرفها من قبل ، الا طارقاً فلم تقع عليه العين لانه كان في الجانب الآخر ..

وكانت أم عامر بالقرب منها فتمتمت قائلة : أم عامر ؟!

فأومأت اليها مرضعها الصالحة بأن تسكت .

قالت : ولكني أريد ان أعلم ..

— ماذا ؟

— أين أنا ؟

– في مرو في منزل عبدالله .
– انا في مرو ؟ ومتى رجعت اليها ؟
– ستعرفين ذلك غداً فخير لك ان تستسلمي الى النوم .
– ولكني كنت نائمة ..
– بل كنت مريضة وقد شفاك الله .
– كنت مريضة وشفاني الله .. وانا في مرو الثانية .! إذن كان ما رأيته حلماً .. حلماً طويلاً مزعجاً احتملت معه جميع الآلام .. لا ! لا .. لم يكن هنالك احلام بل حقيقة رائعة لمستها بيدي وانا في مرو الاولى .. فماذا تقولين ألم أكن فيها ؟
– بلى !
– وكنت فيها فتى يقال لي شهريار ..
– نعم !
– ثم جاء الاحنف وقصّ علي حكاية طويلة .. لا أذكر منها .. غير .. موت .. الرجل الذي رباني وكنت .. اظن اني ابنته وهنالك شيء آخر اذكره. هو اني ابنة الملك .. الذي قتلوه .
وضحكت كما يضحك المجنون .. ثم تفجر الدمع من عينيها بعد ذلك الضحك الغريب . فوضع طارق رأسه بين يديه وشاركها في البكاء . ثم قالت : امسحي يا أم عامر هذه الدموع التي تحرق خديّ .. ان ابي ملك فارس وأمي تلك الفتاة التي أحبها شهريار .. والاثنان ماتا . واني لا أجد في هذا العالم من أشكو اليه شقائي ، بعد موتهما ..
– بل تجدين أباً هو عبدالله ، وأماً هي زوجته ، وفتىً يبذل دمه في سبيل قطرة واحدة من عينيك الساحرتين ..
فترددت قليلاً ثم قالت : ولكن هذا الفتى من نبلاء العرب فهو لا يضيع حرمته ..
قالت : سنتحدث عندما يطلع الصباح بكل شيء ، فأنا اخشى ان تعود هذه الحمى الثائرة التي ذهبت الآن ..

– ويعقب الحيّ الموت وانا لا أخافه.. قلت ان الفتى الذي أحبني بالامس، لا يضيع حرمته ، ولا يستطيع ان يحبني اليوم ..

– لماذا ؟

– لاني .. ابنة الملك ، وقد كان الملك عدو قومه !.

قالت : سيقول لك غداً انه لك وانك له ، والملوك جميعهم لا يستطيعون ان يفصلوا بينك وبينه .

قالت : اذكر .. انه .. بعيد عن مرو .. وقد يعود غداً .. ليقول غير ما تظنين .. وقد لا يعود .

– ليس من الرأي يا بنية ان اقول لك الآن كل ما اعلم فاصبري الى غـد كما قلت ..

– بل تقولين الآن كل شيء فأنا قد صحوت من ذهولي ، وقد علمتني الحادثات ان اصبر على كل ما أرى ، وما اسمع ..

– ولكنني لا اقدر على ذلك .

فأغمضت عينيها وجعلت تقول: وكيف يطيب العيش لابنة الملك، ومرضعها تبخل عليها بكلمة ؟! اني شقية ، وقد جربت حظي ، فالموت خير لي ..

فضيّع طارق عندئذ هدوءه وهمّ بالكلام .

فأسكتته أم عامر قائلة : لقد عاد طارق يا بنية .

فتلألأ الحب في عينيها الفاترتين ، ثم انطفأ .. وتلالأت بعده الكبرياء .. ثم قالت : لقد عاء .. ولكنه ارفع من ان يجلس عند رأس الفتاة التي أحبته حتى الموت .. وهذا هو الوفاء !

قالت : كان هنا منذ لحظة .

– أجل ، وقد انصرف ليستلقي على فراشه ، ويستسلم الى احلامه .

– بل انصرف ليخلو بلوعته ، ويسأل الله ان ينقذ من أحب .

وكان في الجدار ، سراج يعلو نوره وينخفض ، فقالت : انظري الى هذا النور.. ان روحي تتراقص في الصدر كما يتراقص نوره وأحسُّ اني سألفظها بعد ساعة .

وسكتت قليلاً كأنها تستعيد القوى ، ثم قالت : وان لي حـــاجة اسألك قضاءها باسم المروءة .

– اسألي ما تشائين على ان لا تحدثيني بمثل هذا .

– اريد ان ارى طارقاً !!

– الآن ؟

– نعم ، وخير لي ولك ان لا تكتميني شيئاً .. أهو في مرو أم ماذا ؟

– بل هو في هذا المنزل .

– وتستطيعين ان تحمليه على المجيء .

– اخشى ان افعل فتسوء العاقبة ..

– اي انك تخشين ان يسمعني طارق ما أكره ..

– بل اخشى ، ان تستسلما ، انتما الاثنين ، الى العاطفة وهذا ما لا اريده ، ولا يريده احد ..

– اعدك باني اسكت عاطفتي بقوة الاحتمال ..

– لم يبق إذن إلا ان أدعوه .

ومشت الى الباب كأنها تريد الانصراف لتفعل ما ترغب فيه .

فحولت وجهها الى ذلك الباب ، فأبصرت ذلـك العاشق المسكين ، عند رأسها ، وهو يذرف الدموع ، بصمتٍ وهدوء . فخيل اليها انها تحلم، وانها ترى طيف الحبيب ..

فرفعت صوتها قائلة : ارجعي يا أم عامر فهذا طيفه !!

فهامسها قائلاً : بل هو طارق نفسه ايتها الحبيبة !

فتمشت قشعريرة الهوى في دمها وقالت: طارق نفسه عند فراشي وانا اسأل عنـه ؟

– اني هنا منذ ثلاثة ايام اضع العسل بين شفتيك المرتجفتين ..

قالت : ضع يدك على يدي لاصدق عيني .

فجعل كفيها بين كفيه ، والبكاء يتردد في صدره وقد عجز عن الكلام .

وكانت أم عامر قد خرجت ، فقالت له : في اي يوم حملوني من مرو ؟

– في اليوم الثاني والعشرين من الشهر الماضي كما خبرني سنان ونحن الآن في اليوم العاشر من ذي الحجة .

– إذن مضى على رجوعي ثمانية عشر يوماً .

– واني لاحمد الله على نعمة العافية ، ونعمة اللقاء .

– وهل تعرف من انا ؟

– انا اول من عرف ذلك ، وقد حملت وصية شهريار من جبل الزهاد الى مرو ، وقرأها ابي وانا سامع .

– وماذا تقول في نفسك ؟

– اقول ان الله اراد ان احب اكرم النساء محتداً واشرفهن نسباً ، وان يجعلني زوجاً لابنة اعظم ملك في هذا الزمان .

– ولكن هذا الملك العظيم كان عدو الاسلام .

– اجل ، وكانت ابنته مسلمة ، وكان هو مكرهاً ، بصفته ملك الفرس ، على الدفاع عن وطنه وشعبه .

– وهل يرضى ابوك وعمك وأمير المؤمنين ان تتزوج ابنة يزدجرد ، الذي سالت في بلاده دماء العرب ؟

– ان ابي وعمي سيسألانك ان ترضي بهذا الزواج .

– عثمان ؟

– لا شأن لعثمان بهذا .

– ونسيت انت الآن، ونسي الاحنف ان هذه الفتاة التي ستزف اليك، كان سلاحها السم وهي في منزل ابيك ؟

قال : ليس لنا ان ننظر الآن في هذه الوشاية الكاذبة .

قالت : اذكر لي اسم ذلك الرجل الذي سعى بي .

– انك لا تعرفينه ولو ذكرته .

– ومع ذلك فأنا اريد ان اعلم من هو .

– هو قائد من قواد ابيك يدعى سنجان وقد كان عاملا على مرو الاولى قبل ماهويه .

ـ سمعت ماهويه يتحدث بأمره وهو في منزلنـا على المرغاب وما هي غايته من ذلك ؟

ـ ان ما يفسد علينا الامر ، ويظهر انه لم يكن يطيب له ان تمسي ابنة الملك زوجاً لمسلم .. انه حسود خائن كما ترين ، فهو الذي دفع الملك الى قتـل شهريار المسكين، بل هو الذي دفع الملك نفسه الى الموت .

ـ وعرفت ايها الحبيب كيف قتل ابي ؟

ـ لقد وصف لك هذا القتل من قبل ، فليس من الحكمة ان تسمعي حكايته مرة ثانية .

ـ يطيب لي ان تقص انت هذه الحكاية .

ـ لقد كنت في اقصى خراسان عندما قتل ..

ـ ويطيب لي ان ارى قاتليه ... !

فادرك الفتى ان الاحزان تجيش في ذلك الصدر فقال : لم يكن بين قاتليـه رجل عربي .. ووالله لو عرفت ، في ذلك الحين، انك ابنته لسألت امير المؤمنين للمـه ان يصالحه ويعيده الى عرشه !!

قالت : ان الفرس والعرب يتحدثون بأمر الملك ابي ويصفون بلاطه وتاجه ، وعظمة ملكه ، ولكني لا أرى بين هؤلاء مـن يحدثني بأمر امي المسكينة التي ماتت في حلوان .

قال : وهل تريدين ايتها الحبيبة ، ان نقضي الليل كله بحديث الاموات ؟

قالت : أتعدني يا طارق بقضاء أمر لي ؟

ـ أعدك باني ابذل حياتي لتكوني راضية .. ماذا تطلبين ؟

ـ اطلب ان أرى قبر امي اذا اراد الله ان أعيش !

ـ ان الله يريد ان تعيشي وسترين قبرها ..

ـ ثم أزور قبر أبي الذي .. جار على زوجته .. وجفاها ..

فأحس عندئذ انها تكاد تختنق ، فقال : وبعد ذلك ؟

ـ ارجع الى حلوان لأرقد حيث ترقد المرأة التي ولدتني ..

قال : لم يخطر لي انك تريدين ان تعكري صفو هذا اللقاء .

–انها كلمة طاب لي ان اقولها الان، لان لهذا القلب حديثاً خاصاً كان يحدثني به ، منذ تركت مرو الى هذا اليوم ..
– ذلك حديث أملاه الفشل وخيبة الرجاء بالامس .
– بل يمليه عليّ هذا الضعف الذي تراه .. لقد خلقت ايها الحبيب لأموت وانا في زهرة العمر ، واني لأكره هذا الموت الذي يبعدني عنك !!

فتمتم قائلاً : اما هذا الضعف فسيزول بعد شهر ، واما الموت ، فالله الذي جمع شملنا سينقذك منه .

ثم قال وهو يكفكف الدمع : أسألك باسم جهان روز ان تكفي عن هذا فالقلب لا يستطيع ان يحتمل .

فرددت شفتاها بضع كلمات لم يسمعها الفتى ، ودخل الاحنف عندئذ ،يتبعه عبدالله وسنان وبرسي وخراذمهر . ووراءهم ام عامر التي نقلت اليهم ان الفتـاة عادت إليها الحياة .

وكان البشر على الوجوه وقد انحنى الاحنف يقول لها . لو نقل اليّ القوم ان الجيش العربي استولى على عرش قيصر، لما كان ذلك اطيب وقعاً من هذه البشرى التي حملتها أم عامر . وقال عبدالله : هنيئاً لآل قيس التميمي بأميرة فارس .

فابتسمت لهما ابتسامة الشكر وجعلت تنظر الى سنان القائم عند قدميها ، والى برسي الذي ذكرت عندئذ انه رسول شهريار . اما خراذمهر فلم تعلم من هو ولكنها شعرت بعاطفة عذبة تخفق في صدرها ، عندما ارسلت نظرهـا اليه . والتفتت الى طارق كأنها تسأله عنه ، فقال: هذا خراذمهر ، عم جهان روز وقد كان من كبار رجال الدولة .

فمدت يدها اليه قائلة : ارضى بكلمة واحدة تصف لي بها تلك الام التي هي ابنة اخيك .

قال : كانت احسن الملكات وجهاً واطهرهن خلقا وكان الناس يقولون ، قبل ان تدخل البلاط : انها لؤلؤة المدائن .
– هل كنت مقيما بالبلاط يا عمّ ؟
– لا ، بل كان لي ولأخويّ ، رستم وابان زرد ، ثلاثة قصور بالقرب منه ،

ولكننا لم نقم بها بعد ان أمست جهان روز من وصائف بوران الملكة .

فأومأ الاحنف الى القوم بالخروج وهو يقول : حسبنا ان الاميرة صحت من حمّاها فلننصرف الان .

وقال لطارق : اعلم يا بني انها تحتاج الى الراحة ، فقال : سأقضي الليل في هذا المكان دون ان اقول كلمة .

وكانت هي تقول : من يعلم فقد ينقضي العمر بانقضـــاء هذا الليل فتنتقل عندئذ ، ابنة الملك الفارسي ، من مرو الى حلوان ، محمولة على ظهر ناقة ..

وخيّل الى الجماعة انها تهذي ، فخرجوا وكان عبدالله يهامس الاحنف قائلاً: لقد رأيت مخالب الموت على جبينها الزاهي فهي لا تعيش .

فقال : لا تنسَ انالشباب والغرام يفعلان العجائب، وستشفى ان شاء الله، وتزف الى طارق بعد شهرين ..

ـ اما انا فلا اؤمن بهذا والويل لطارق اذا اختطفتها يد القضاء .

وكانت الاميرة في تلك اللحظة ، تخاطب نفسها ، وتذكر امها ، وغرامها ، كأنها في حلم ، وطارق يسألها ان تلجأ الى النوم وهي لا تسمع له ،ولعلها لمتكن لسمع ما يقول .!

* * *

- ٧١ -

كان عبدالله بن سبأ ، الذي قرأت شيئاً عنه ، يهوديا من أهل صنعاء ، وكانت امه سوداء ، وقد اسلم في ايام عثمان ، ثم تنقل في بلاد المسلمين ، والضلال يملأ قلبه . بدأ بالحجاز ، ثم انتقل منه الى البصرة فاخرجه عبدالله بن عامر منها كما مرّ ، فأتى الكوفة ، ولم يلبث حتى رحل الى الشام . ولكنه لم يرَ في الشام ما يحب ، فخرج الى مصر ، وجعل ينشر في مصر تعاليمه فيقول : العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ، ولا يصدق ان محمداً يرجع ، وقد قال الله عزّ وجل : « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى

ووضع لهم الرجعة كما رأيت ، فقبل ذلك منه .

ثم قال لهم بعد ذلك : انه كان لكل نبي وصي وعلي بن ابي طالب وصي محمد وان عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، فانهضوا لهذا الامر ، وابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وتجعلوهم أنصاراً لكم .. وبث دعاته في مصر ، ثم أرسل كتبه الى جميع الذين كانوا من رأيه في بلاد العرب ، وجعل هؤلاء يكاتبون انصارهم ويذكرون عيوب الولاة والعمال حتى ملأوا الارض كتباً أوغروا فيها الصدور وهيأوا النفوس للثورة الجامحة . وانت ترى انهم كانوا يريدون غير ما يظهرون .. كانوا يبغضون عثمان، وينكرون عليه ايثاره اهل قرابته على رجال الفضل من المسلمين ، ويعيبونه لضعفه وتردده في قضاء امور الامة ، التي هو خليفتها ورئيسها الاكبر وانتهى الى اهل المدينة ، ما يتحدث الناس به في كل قطر .

فاتوا عثمان فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟
قال : لا والله ما جاءني الا السلامة .
فخبروه بما سمعوه ، فقال : انتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليّ .
– نشير عليك ان تبعث رجالاً ممن تثق بهم الى الاقاليم يحملون اليك أخبارها .

فدعا محمد بن مسلمة فارسله الى الكوفة ، وارسل اسامة بن زيد الى البصرة ، وعمار بن ياسر الى مصر ، وعبدالله بن عمر الى الشام . وبعث برجال آخرين الى الاقاليم الاخرى . وصبر حتى رجعوا جميعاً قبل عمار بن ياسر رسول الخليفة الى مصر ، فقال لهم : ما رأيتم ؟
قالوا : ان الامراء يقسطون بين الناس .

واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا انه قد قتل ، وبينا هم يظنون ، ورد على عثمان كتاب من والي مصر عبدالله بن سعد يقول له فيه : ان عماراً رسولك ، قد استماله قوم بمصر ، وانقطعوا اليه ، منهم عبدالله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر .

فكتب عثمان الى اهل الامصار : اني آخذ عمالي بموافاتي في كل موسم ، فلا

يرفع علي شيء ، ولا على احد من عمالي الا أعطيته ، وقد رفع اليّ اهل المدينة ان اقواما يشتمون واقواما يضربون ، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ليأخذ حقه حيث كان، مني او من عمالي .فلما قرىء كتابه على الناس في الاقطار بكى الناس ، ودعوا له .

ثم رأى ان يستقدم الولاة ، كما فعل في المرة الأولى ، فقدموا جميعاً ، الا أبا موسى الاشعري الذي لم يدعَ . وادخل معهم في المشورة، سعيد بن العاص وعمرو ابن العاص ، وقال لهم : ما هذه الشكاية والاذاعة ؟ اني والله لخائف ان يكون القوم صادقين فيما نسبوه اليكم .

فقالوا: بعثت رسلك فحملوا اليك الخبر اليقين.. لا والله ما صدق القوم ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الامر أصلاً وما هو الا اذاعة لا يحل الاخذ بها والانتهاء اليها .

قال : فما الرأي ؟

فقال سعيد : هذا امر مصنوع يلقى في السر فيتحدث به الناس في مجالسهم ثم تردده الالسنه في الامصار .

– وما دواء ذلك ؟

– طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل الذين يخرج هذا من عندهم .

– وانت يا ابن سعد ماذا تقول ؟

فقال عبدالله : خذ من الناس الذي عليهم واعطهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم .

وقال معاوية : اما انا فقد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الا الخير وهذان الاميران أعلم بناحيتيهما ..

قال : فما ترى ياعمر ؟

– ارى انك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى ان تلزم طريقة الخليفتين قبلك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين .

قال : قد سمعت ما أشرتم به عليّ ولكل امر باب يؤتى منه، ان هذا الامر

الذي اخافه كائن ، وان بابه الذى يغلق عليه ، اللين ، الا في حدود الله ، علم الله اني لم آل الناس خيراً ووالله ان رحى الفتنة لدائرة؛ فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها ، كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم . وكانوا يومئذ في مكة ، فلما خرج عثمان راجعاً الى المدينة ، خرج معاوية والامراء معــــه ، فلما كانوا في بعض الطريق رجز الحادي :

قد علمت ضوامر المطيّ وضمرات عوج القسي
ان الامير بعـده عليّ وفي الزبير خلف رضيّ
وطلحة الحامي لها وليّ

فقال أحد القوم : كذبت يا حادي ، فالامير والله بعد عثمان هو صــاحب البغلة ، وأشار الى معاوية ، فطمع معاوية بالخلافة ، منذ ذلك اليوم . فلما قدم عثمان المدينة ، دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية ، فقال معاوية :

انتم اصحاب رسول الله وولاة امر هذه الامة لا يطمع في ذلك احد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبر وولى عمره وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء ، فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا النـــاس في امركم فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم منها ادباراً .

فقال عليّ : ما لك وهذا لا أم لك !

قال : دع أمي فانها ليست بشرّ أمهاتكم، قد اسلمت وبايعت النبي، واجبني عما اقول ..

فقال عثمان : صدق ابن اخي ، واني لمخبركم بأمري وامر ولايتي ان الخليفتين اللذين كانا قبلي ، ظلما انفسهما وان رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته ، وانا في رهط اهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال ، فان رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمري لأمركم تبع .

قالوا : أصبحت وأحسنت ولكنك أعطيت عبدالله بن خالد بن اسيد خمسين الفا ، واعطيت مروان خمسة عشر الفاً .

قال: اني اخذ ذلك منهما. فقبلوا وخرجوا راضين. فلما همّ معاوية بالانصراف الى الشام ، قال لعثمان : انطلق معي الى الشام قبل ان يهجم عليك من لا قبَل

لك به فان القوم هناك على الطاعة .

قال : انا لا ابيع جوار رسول الله بشيء وان كان فيه خيط عنقي .

– اذن ابعث اليك جنداً منهم يقيم بالمدينة .

قال : لا اضيق على جيران رسول الله .

قال : اخاف عليك الفتنة يا أمير المؤمنين .

قال : الله حسبي ونعم الوكيل .

فانصرف معاوية ، فمر على نفر من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير وعليه ثياب السفر ، فسلّم وتوكأ على قوسه ثم قال : قد علمتم ان هذا الامر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث الله نبيه واكرم به من اتبعه ثم امسى الامر شورى بينهم واني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وودعهم ومضى .

فقال علي : كنت أرى في هذا خيراً .

فقال الزبير : والله لم يكن قط اعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم .

وكان الخارجون عن طاعة عثمان ، قد عولوا بعد خروج امرائهم الى مكة ، على ان يخرجوا هم ، من اقاليمهم في يوم واحد ، ويسيروا الى المدينة . ولكن الامر لم يتهيأ لهم كما ارادوا .

فلما رجع الامراء ، عادوا الى التراسل ، وتعاهدوا على اللقاء عند المدينة ، ليسألوا عثمان عن اشياء .. وكانوا يتظاهرون بانهم سيخرجون الى الحج .

وفي مصر ، محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن ابي حذيفة ، يحرضان القوم على عثمان ويدفعانهم الى خلع طاعته . حتى خرج اهل مصر ، في خمسمائة رجل ، وقيل في الف ، عليهم اربعة قواد ، هم عبد الرحمن بن عديس ، وكنانة بن بشر ، وسودان بن حمران ، وقيترة السكوني ، وعلى الجميع الخافقي بن حرب . وكان معهم ابن السوداء ..

وخرج اهل الكوفة ، في مثل هذا العدد ، وقوادهم زيد بن صوحان ، والاشتر ، وزياد بن النضر ، وعبدالله بن الاصم احد بني عامر بن صعصعة ، وعليهم جميعاً عمرو بن الاصم .

ثم جاء دور أهل البصرة ، ففعلوا كما فعل اهل الكوفة ومشى في طليعتهم ،

حكيم بن جبلة ، وذريح بن عباد ، وبشر بن شريح ، والحطم بن ضبيعة ، واميرهم حرقوص بن زهير السعدي ، ومشت وراءهم طوائف من الناس لا قواد لهم ولا نظام .

فلما كانوا من المدينة على ثلاث مراحل ، تقدم ناس من اهل البصرة فنزلوا موضعاً يقال له ذو خشب ، وكان هواهم في طلحة بن عبيدالله ، اي انهم كانوا يريدون ان تكون الخلافة له .

وتقدم ناس من اهل الكوفة وكان هواهم في الزبير بن العوام ، ونزلوا مكاناً يدعى الأعوص .

واقبل فريق من اهل مصر وكان هواهم في علي وتركوا عامتهم بذي المروة .

ومشى ، فيما بين اهل مصر واهل البصرة ، زياد بن النضر وعبدالله بن الاصم وقالا لهم : لا تعجلوا ، حتى ندخل المدينة وننظر في امر اهلها فقد بلغنا انهم قد تهيأوا لنا ، فوالله ان كان هذا حقاً واستحلوا قتالنا فأن امرنا لباطل .

قالوا : اذهبا !

فذهبا فدخلا المدينة فلقيا ازواج النبي ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة والزبير فقالا : انما نحن على الطاعة وما جئنا الا لنستعفي من بعض عمالنا .

وطلبا اليهم ان يأذنوا للناس في الدخول فلم يرضوا وأبوا جميعهم ان يدخل القوم المدينة على هذه الصورة ، فرجعا الى اصحابها . فاجتمع نفر من اهل مصر فأتوا علياً ، ونفر من اهل البصرة فأتوا طلحة ، ونفر من اهل الكوفة فأتوا الزبير . وكان كل فريق منهم يقول : إن بايعوا صاحبنا فقد بلغنا الغاية ، والا فنحن نفرق جماعتهم ونفاجئهم حتى يستولي عليهم الخوف .

وأتى المصريون علياً وهو في جيش عند احجار الزيت وعليه عمامة حمراء يمانية وقد تقلد السيف . وكان قد ارسل ابنه الحسن الى عثمان ، ليكون من حراسه . فسلموا عليه وخبروه انهم جاءوا ليبايعوه . فصاح بهم وطردهم ، فانصرفوا عنه .

واتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك وكان قد ارسل ابنه الى عثمان ،

وكذلك فعل الزبير مع اهل الكوفة .

فرجعوا جميعهم ، وتفرقـــوا عن ذي خشب ، وذي المروة ، والاعوص ، ليخدعوا بذلك اهل المدينة فيتفرق جيشهم . وكانت غايتهم ان يرجعوا جميعاً الى المدينة ويدخلوها كما يدخل الجيش الفاتح . فلما فعلوا ذلك ، تراجع النـاس في المدينة الى منازلهم وقام في اذهانهم ان اهل الاقاليم قد رحلوا . ولكنهم لم يشعروا الا والتكبير حول المدينة، فقد نزلها القوم من كل ناحية واحاطوا بعثمان وكانوا يقولون : من كفّ يده فهو آمن .

وصلى عثمان بالنـــاس اياماً لا يمنعونه ولا يمنعون احداً من الكلام ولكنهم كانوا يمنعون الناس من الاجتماع . ولزم اهل المدينة بيوتهم لا يخرجون منهـا الا والسيوف في الايدي .

ثم خطر لعلي بن ابي طالب ان يسأل القوم عن امرهم ، فقال : ما ردكم بعد ذهابكم ؟

فقالوا كلهم قولا واحداً كأنما كانوا على ميعاد .

قال : يظهر ان هنالك عهداً .

قالوا : افترض ما شئت فلا حاجة لنا الى هذا الخليفة فليعتزل !

ومع ذلك فقد كان عثمان يصلي بهم وهم يصلون خلفه ..

ولم يـــتردد في ارسال الرسل الى عماله يأمرهم بأن يتعجـــلوا في المجيء ليذودوا عنه .

وهذا بعض ما جاء في كتابه : اما بعد فأن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ففعل ما أمره الله به ، ثم مضى وخلف بنـــا كتابه فيه الحلال والحرام . ثم كان الخليفتان ابو بكر وعمر رضي الله عنهما ، اجمع اهل الشورى على ان يأمروني بعد عمر ، على غير علم مني ولا مسألة ، فعملت فيهم ما يعرفون وانا متبّع غير مبتدع ، فلما انتهت الامور ، وانتكث الشر بأهله ، بدت ضغائن واهواء ، وقام اصحابها يعيّبون عليّ اشيـاء مما كانوا يرضون فصبرت لهم نفسي وكلفتها عنهم منذ سنين ، وانا ارى واسمع ، ولكنهم ازدادوا جرأة على الله عز

وجلّ حتى اغاروا علينا في جوار رسول الله وحرمه ، فمن قدر على اللحاق بنا فليفعل .

وانتهى كتابه الى الولاة ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري في جيش ، وبعث عبدالله بن سعد معاوية بن خديج ، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو ، وقام في مصر والكوفة والبصرة والشام ، رجال ينتصرون لعثمان ؛ ويسألون وجوه الناس وعامتهم ان يكونوا عونا له .

وكانوا يقولون : يا أيها الناس ، ان الكلام اليوم وليس غداً ، وان النظر يحسن اليوم ويقبح غداً ، وان القتال يحل اليوم ويحرم غداً ، انهضوا للدفاع عن خليفتكم .

فلما كان يوم الجمعة ، بعد نزول القوم المدينة ، خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال : يا هؤلاء ، الله الله ، فوالله ان اهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون فامحوا الخطايا بالصواب فان الله يمحو السيء بالحسن .

فقام محمد بن مسلمة فقال : انا اشهد بذلك . فأخذه حكيم بن جبلة فاقعده .

وقام زيد بن ثابت فاقعده محمد بن ابي قيترة وقال قولاً ثار القوم باجمعهم بعده وحصبوا الناس حتى اخرجوهم من المسجد ، ثم حصبوا عثمان نفسه ، فصرع عن المنبر مغشياً عليه .

فحملوه الى داره ، واستقل نفر من اهل المدينة مع عثمان ، منهم سعد بن ابي وقاص والحسين بن علي ، وزيد بن ثابت ، وابو هريرة ، فارسل اليهم عثمان ان يكفوا عن القتال فانصرفوا .

ولم يكن المصريون يطمعون ، بان يساعدهم من اهل المدينة الا ثلاثة رجال ، هم محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن ابي حذيفة ، وعمار بن ياسر وكانوا يراسلونهم .

وكان عبدالله بن سعد ، قد خرج من مصر يريد المدينة ، ليضع يده في يد امير المؤمنين ، فبلغه وهو في بعض الطريق ، ان المصريين رجعوا الى المدينة ، فحصروا عثمان وان محمداً بن ابي حذيفة ، استولى على مصر ، ودان له اهلها ،

وان محمداً بن ابي بكر خرج الى الحجاز ، فعاد الرجل الى مصر فمنع من الدخول فأتى فلسطين واقام بها لا ينقل منها قدماً حتى قتل عثمان .

واقبل علي وطلحة والزبير فدخلوا على امير المؤمنين بعد ان حملوه مغشياً عليه من المسجد . وكان عنده نفر من بني امية بينهم مروان بن الحكم .

فقال علي : ما لك يا امير المؤمنين ؟

فقالوا جميعهم : أهلكتنا يا علي وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذي ا بد لتذوقن المرّ . . ! فقام علي فخرج مغضباً وخرجت الجماعة وراءه ، وعوّل على ان لا يخرج من منزله ولو دعاه عثمان . فرأى عثمان ان يسترضيه ، فجاء الى بيته ليلا فقال : يا ابن العم ، ان قرابتي قريبة ، ولي عليك حق عظيم ، وقد جاء ما را ه ، من هؤلاء القوم ..

قال : وماذا تريد ؟

قال : لك عند الناس قدر وهم يسمعون منك ، فانا احب ان تركب اليهم فتردهم عني فان في دخولهم عليّ توهيناً لأمري وجرأة على مقام الخلافة .

– وعلى اي شيء اردّهم عنك ؟

– على ان اصير الى ما اشرت اليه ورأيته لي من قبل .

قال : كلمتك مرة بعد اخرى وكنت تعدني انك فاعل ما اشير عليك به ، ثم ترجع عن وعدك ، وهذا ما فعل مروان بن الحكم ، وعبدالله بن عامر ، ومعاوية ، وعبدالله بن سعد ، فانك اطعتهم وعصيتني .

قال : اعصيهم واطيعك ...

وكان عليّ ، ذا خلق عالٍ ووجدان طاهر ، فقال : سأفعل ذالك غداً .

وأمر الناس عند الصباح ، فمشى معه من المهاجرين والانصار ثلاثون رجلاً ، منهم محمد بن مسلمة ، وسعيد بن زيد ، وابو الجهم العدوي ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتاب بن اسيد ، وابو اسيد الساعدي ، وزيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك . فأتوا المصريين في معسكرهم ، وعمد علي الى فصاحته وبلاغته يحدث القوم ويدعوهم الى العدول عما هموا به ، ويسألهم باسم الاسلام ، ان يحترموا مقـــام الخلا فة ،

ويحقنوا الدماء ويلجأوا الى الحسنى . وساعده في الامر محمد بن مسلمة ، فتردد القوم اولا ثم لانوا ، وعاهدهم ابن عديس على انه يعود بقومه الى مصر ، ثم قال لمحمد : أتوصينا بحاجة ؟

قال : تتقي الله وترد قومك عن خليفتهم فقد وعدنا عثمان بان يرجع عما تتهمونه به ..

قال : افعل ان شاء الله .

وقام من ساعته فدعا قومه الى الرحيل ، فعاد علي ومن معه فخبر عثمان ثم خرج من عنده . فمكث عثمان يومه لا يفعل شيئاً .

ودخل عليه مروان بن الحكم عند الصباح فقال له : يا امير المؤمنين ، تكلم واعلم الناس ان اهل مصر قد رجعوا وان ما بلغهم من الخليفة كان باطلا قبل ان يأتيك ما لا تستطيع دفعه .

فأبى عثمان ان يخرج وكان يقول : لا افعل .

قال : تقضي عليك حرمة الخلافة بان تخطب الآن ، وتخبر النـــاس برجوع المصريين فتصير خطبتك في البلاد قبل ان يجيء اليك المسلمون من جميع النواحي فتشتعل نار الفتنة وتمسي عاجزاً عن ان تردهم ..

ولم يزل به حتى خرج فجلس على المنبر ثم قال : اما بعد فان هؤلاء القوم من اهل مصر كان بلغهم عن امامهم امرٌ فلما علموا انه باطل رجعوا الى بلادهم ..

فناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد قائلا : أتق الله يا عثمان فانـك قد ركبت اموراً وركبناها معك ، فتب الى الله نتب . !

قال : وانك هناك يا ابن النـــابغة ؟ قلت والله جبتك منذ عزلتـــك عن الولاية ..

فنودي من ناحية اخرى : تب الى الله واظهر التوبة يكف الناس عنك ..

فرفع يديه عندئذ واستقبل القبلة فقال : اللهم اني أول تائب تاب اليـــك . ونزل فرجع الى منزله .

وكان عمرو بن العاص ، يطعن على عثمان ، منذ عزله عن مصر ، وكان يأتي علياً فيحاول ان يوغر صدره على الخليفة ، ويأتي طلحة والزبير ، في الوقت نفسه

فيفعل مثل ذلك ، ويعرض للحجاج في حجهم فيخبرهم بما صنع عثمان وبما يصنعه كل يوم . وكان له ارض بفلسطين يقال لها السبع ، فلما حصر عثمان رحل اليهـــا ونزل في قصر له يقال له العجلان ، حتى انتهت اليه الاخبار جميعها وهو لا يغادر ذلك القصر .

* * *

لم يشأ علي ، الا ان يكون الخليفة ، اكثر صراحة في توبته ، ليرضى الناس عنه ، ويرجعوا الى طاعته .

فأتاه فقال : قلت في خطبتك انك اول تائب ولم تزد على هذا كلمة .

– وكيف افعل ؟

– تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والامانة ، فان البلاد قد تمخضت عليك كما رأيت ، وانا لا آمن ان يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول يا علي اركب اليهم فان لم افعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

فقام عثمان ، فاعطى الناس من نفسه التوبة ، وقال : ايها الناس ، ما عاب ، من عاب منكم شيئاً اجهله ، وما جئت شيئاً الا وانا اعرفه ، ولكن منتني نفسي وضل عني رشدي ، ولقد سمعت رسول الله يقول : من زلّ فليتب ومن اخطأ فليتب ، فانا اول من اتعظ ، استغفر الله مما فعلت ، واتوب اليـه . فاذا رجعت الى منزلي فليأتني اشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لاستنّ بسنة العبد ، ولأذلنّ ذل العبد ، وما عن الله مذهب الا اليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحينّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم .

فرق الناس له وبكى من بكى منهم ، ثم قام سعيد بن زيد فقال : الله الله في نفسك يا امير المؤمنين فافعل ما قلت .

فلما انتهى الى منزله ، وجد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ونفراً من بني امية ، في مجلسه ولم يكونوا قد شهدوا الخطبة .

فلما جلس قال مروان : يا امير المؤمنين أتكلم ام أسكت ؟

فقالت نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان : بل اصمت فانهم قاتلوه وانه قد قال مقالة لا ينبغي ان يرجع عنها .

فانتهك مروان حرمة مولاه بقوله : ما انت وذاك، فوالله قد مات ابوك وما يحسن يتوضأ !!

قالت : مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء ولا تكذب على ابي ، وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه ، اما والله لولا انه غمّ امير المؤمنين وانه ينااله غمه لأخبرتك بما لن اكذب عليه ...

فأعرض عنها قائلاً : يا امير المؤمنين ، اتكلم ام اسكت ؟

فاجابه ذلك الخليفة الضعيف قائلاً : تكلم ...

فقال : بأبي انت وامي ، والله لوددت ان مقالتك هذه كانت وانت ممتنع فكنت اول من رضي بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وانت خائف ، فوالله لأقامة على خطيئة ويستغفر منها ، اجمل من توبة تخوّف عليها ، وانت ان شئت تقربت بالتوبة دون ان تعترف بالخطيئة ، وقد اجتمع الان بالباب امثال الجبال من الناس .

قال : اخرج اليهم فكلمهم فانا استحي ان افعل .

فخرج مروان الى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضاً فقال : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب... جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا ... اخرجوا عنا والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منا امر لا يسرّكم ... ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن بمغلوبين على ما في ايدينا ...

فرجع الناس واتى بعضهم علياً فخبره الخبر ، فاقبل على عبد الرحمن بن الاسود بن عبد يغوث فقال له : أحضرت خطبة عثمان ؟

قال نعم

– وحضرت مقالة مروان للناس ؟

فقال : اي عباد الله، اني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وان تكلمت لعب به مروان وساقه الى حيث يشاء بعد كبر السنّ ...

وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : اما رضيت من مروان وما رضي

مروان منك ، الا بتحرفك عن دينك ومن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه ... والله ما مروان بذي رأي في دينه وفي نفسه ، وأيم الله لأراه يوردك ، وما انا عائد بعد اليوم لمعاتبتك أذهبت شرفك وغلبت على رأيك ...

فلما خرج ، دخلت على الخليفة زوجته نائلة فقالت : قد سمعت قول علي لك ولقد اطعت مروان يقودك حيث شاء .

قال : فما اصنع ؟

قالت : تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك ابي بكر وعمر فانك متى اطعت مروان قتلك ، وليس له عند الناس قدر وهيبة . وانما تركك الناس لمكانه منك فارسل الى علي فاستصلحه فان له قرابة وهو لا يعصى .

فارسل عثمان الى علي فلم يأته بل قال لرسوله بصوت مرتفع عال : قل له ما انا بداخل عليك ولا عائد . وبلغ مروان ما قالته نائلة فيه ، فجلس بين يدي عثمان يحاول ان يقول اشياء ، فأسكته قائلاً : لا تذكرها بحرف فأسوّد وجهك فهي انصح لي منك . فكف مروان عندئذ عما هم بقوله ، وانصرف عثمان الى منزل علي ، في ظلام الليل كما فعل في المرة الاولى ، وقال له : لقد مضى ما مضى واني غير عائد الى ما رأيت ، فقال : بعدما تكلمت على منبر رسول الله ، واعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك فخرج مروان الى الناس يشتمهم ويؤذيهم وهم على بابك ؟؟!

قال : رأيك ؟

قال : لم يبق لي رأي .

فنهض قائلاً : قطعت رحمي يا عليّ وخذلتني وجرأت الناس عليّ .

قال : والله اني لاذود عنك ، ولكني كلما جئت بشيء اظنه لك رضى ، جاء مروان بشيء آخر فسمعت قوله وتركت قولي . فانصرف وهو يتعثر بخيبته ، ويستعين بالله على الامر الذي انتهى اليه .

* * *

لقد قرأت فيما مر سبب مسير الناس الى المدينة لقتل عثمان، وهم يتظاهرون بانهم ذاهبون الى الحج . ولكن السبب الذي قرأت ، تقدمته اسباب ، وتبعته اسباب ، لا يتسع المجال لذكرها كلها في هذه الفصول . أجل كانت هناك اسباب كثيرة اتخذها الناس وسيلة الى الجرأة عليه والاستخفاف به ثم الى قتله . وانه لاستخفاف غريب ذلك الذي اقدموا عليه ..

قال الطبري وابن الاثير ومعظم المؤرخين :

حملوا الى عثمان ابلاً من إبل الصدقة ، فخطر له ان يهبها لبعض بني الحكم ، من بني أمية ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فأخذها وقسمها بين النـاس وعثمان في الدار لا يقول كلمة .

وكان اول من اجترأ على عثمان، على خليفة الرسول وسيد العرب جميعها، جبلة ابن عمرو الساعدي ، اجترأ عليه بالمنطق وهو في نادي قومه .

مرّ عثمان في ذلك النادي فسلم ، فردّ القوم ، فقال جبلة : كيف تردون على رجل فعل هذا وفعل يعدد هذا .. وجعل لهم اعماله عملاً عملاً ثم قال له :

والله لاجعلن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن هذه البطانة الخبيثة التي جعلتها حولك .

فقال عثمان : وأي بطانة ؟ اني لم اتخير الناس .

فقال : مروان تخيرته .. وابن عامر وعبدالله بن سعد تخيرتهما ومنهم من نزل القرآن بذمه واباح رسول الله دمه .. فأجترأ عليك الناس منذ ذلك الحين .

وخطب يوماً وبيده عصا كان النبي وابو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته .

وكتب فريق من وجوه اهل المدينة ، من الصحابة وغيرهم الى من بالآفاق منهم :

ان اردتم الجهاد فهلموا اليـه فان دين محمد قد افسده خليفتكم فأقيموه . فأختلفت قلوب الناس ، ثم جاء المصريون واهل البصرة والكوفة فردّهم عليّ

ومحمد بن مسلمة كما رأيت. ولكنهم لم ينتهوا الى البويب، حتى رأوا رجلا يقال له أبو الأعور السلمي على بعير من ابل الصدقة .

فقال له كبيرهم عبد الرحمن بن عديس : أين تريد ؟

قال : اريد مصر .

وكان معه رجل من اهل الشام ، من خولان ، فقال عبد الرحمن ..

هل معك كتاب ؟

قال : لا !

– وفيما أرسلت وهذا جمل الخليفة ؟

– لا علم لي ..

قال : ليس معك كتاب ولا علم لك بما ارسلت ان امرك اذن يدعو الى الشك، وقال لرجاله : فتشوه ، ففعلوا فوجدوا معه كتاباً في وعاء من رصاص ، ارسله عثمان الى عبدالله بن سعد والي مصر ، وقد جاء فيه : اما بعد فاذا اتاك كتابي هذا فانظر فلانا وفلانا واضرب اعناقهم ، وفلانا وفلانا فاحلق رؤوسهم وعاقبهم بالجلد والحبس والصلب .

وسمى له وجوه القوم على رأسهم ابن عديس. فلما رأوا ذلك نادى مناديهم: ارجعوا الى المدينة فقد خان عثمان . ورجعوا ، والحقد في الصدور ، والسيوف في الايدي .

وبلغ وفود الاقاليم ، امر الكتاب ، فرجعوا جميعهم حتى بلغوا المدينة ، فثار اهلها لهذا الخبر الغريب ، وارتفعت اصوات القوم من كل ناحية تعيب عثمان .

ثم جاء علي ومحمد بن مسلمة فقالوا لهما : هذه حكايتنا مع الخليفة فادخلا معنا الخليفة .. فدخل الرجلان ، ومروان في المجلس ... فاستأذنا للمصريين ، فقال مروان : دعني اكلمهم يا امير المؤمنين .

قال : اسكت ، ما انت وهذا الأمر ، اخرج عني . فخرج مروان ودخل رؤساء القوم ، فقال عليّ : لقد وجد المصريون ، مع أبي الأعور السلمي ، كتاباً منك الى عاملك في مصر، تأمره فيه بأن يقتل بعضهم ويجلد البعض الآخر وهذا

هو الكتاب فما تقول ؟

فقرأه فقال : اقسم بالله ما كتبته ولا علم لي به ... !

فقال محمد بن مسلمة : صدق امير المؤمنين ، هذا من عمل مروان .

فقال ابن عديس : لقد جعلت عبدالله بن سعد عاملاً لك على مصر ، ففعل بالمسلمين واهل الذمة ما فعل واستأثر بالغنائم كلها لا يعطي احداً منها شيئاً، فاذا سألناه عن ذلك قال : ورد علي بذلك كتاب من أمير المؤمنين ..

فسكت عثمان ولم يجب ، ثم قال : وقد انتهى الينا انك تحرم الناس وتعطي قومك ، وقد سلطتهم على امور الخلافة حتى انهم يفعلون ما يطيب لهم دون ان يسألوك او يشاوروك ... وقد خرجنا من مصر ونحن نريد قتلك ، فردّنا محمد وعلي وضمنا لنا انك ستبقى عند حسن الظن فرجعنا . ولكن عثرنا على هذا الكتاب تأمر به عبدالله بان يقتلنا ...

قال : لا علم لي به ...

قال : وأبو الأعور ؟

– انطلق ايضاً بغير علمي .

– وجملك ؟

– اخذه من الدار بغير امري ..

قال : وخاتمك ؟

قال : نقش عليه وانا لا أعلم !

فقال علي ومحمد : صدق امير المؤمنين .

فقال ابن عديس : ومن كتب الكتاب ؟

– لا ادري !

– قال : يجترأ عليك ، ويبعث غلامك على جمل من نوق الصدقة ، ويوضع خاتمك في كتاب يرسل الى عاملك بهذه الأمور العظيمة وانت لا تعلم ؟ !

قال : نعم !

قال : اذن فأنت اما صادق او كاذب ، فأن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما امرت به من قتلنا بغير حق ؛ وان كنت صادقاً فقد استحققت ان تخلع نفسك

لضعفك عن هذا الأمر ، وغفلتك وخبث الرجال الذين قربتهم اليك ولا ينبغي لنا ان نترك امر الخلافة بيـــد رجل تقطع الأمور دونه ، فاخلع نفسك كما خلعك الله .

قال : لا انزع قميصاً البسنيه الله ولكني أتوب .

– لو كان هذا اول ذنب تبت منه قبلنا ، ولكننـــا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك او نقتلك او تلحق ارواحنا بالله تعالى ، وان منعك اصحابك واهلك قاتلناهم حتى تبلغ الغاية

قال : اما ان اتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب اليّ من ذلك ، واما قولـــكم للقاتلون من يدافع عني فاني لا آمر احداً بقتالكم ومن قاتلكم فبغير امري ولو اردت ان اقاتلكم لكتبت الى امراء الجند فقدموا عليّ او لحقت ببعض اطراف البلاد ..

وكثرت الاصوات في الخارج ، فخرج علي الى منزله وخرج المصريون وراءه .

فكتب عثمان عندئذٍ الى الولاة يأمرهم بارسال الجنود اليه ، وجمع اهل مشورته وسألهم الرأي . فقال بعضهم : ارسل الى علي واطلب اليه ان يردهم ويعطيهم ما يرضيهم ، حتى يأتيك الجند ..

انهم لا يقبلون منى التعلل وقد كان مني في المرة الأولى ما كان .

قال مروان: اعطهم ما سألوك ، وطاولهم فانهم قوم بغوا عليك ولا عهد لهم .

فقال : ادعوا لي علياً .

فأقبل علي فقال له : لقد رأيت ما كان من النـــاس ولست آمنهم على دمي فارددهم عني فأني اعطيهم ما يريدون من الحق ..

قال : النـــاس الى عدلك احوج منهم الى قتلك ، وقد كنت اعطيتهم أولاً عهداً فلم تفِ به ، واني لمعطيهم الحق عليك .

قال : اعطهم فوالله لأفين لهم .

فخرج علي فقال للناس : انما طلبتم الحق وقد اعطيتموه وقد زعم الخليفة انه منصفكم من نفسه .

فأجابوه قائلين : قبلنا ، فاستوثق منه لنا فانا لا نرضى بقول دون فعل .

فدخل عليه فخبّره ، فقال : اضرب بيني وبينهم أجلاً فاني لا اقدر على ان أردّ ما كرهوا في يوم واحد .

قال : اما ما كان في المدينة فلا أجل فيه ، واما ما كان في غيرها ، فأجله وصول أمرك .

قال : نعم ، أجّلني لما في المدينة ثلاثة أيام .

فاجابه علي الى ذلك وكتب بينهم كتاباً على ردّ كل مظلمة ، وعزل كل عامل لا يريدونه .. فكف الناس عنه ، فجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح واتخذ له جنداً .

فلما انقضت الايام الثلاثه ولم يغير شيئاً مما وعد به ثار الناس ، وخرج عمرو ابن خرم الانصاري الى المصريين ينقل اليه ما سمعه .

فاقبلوا يطلبون اليه عزل عماله ورد مطالبهم فقال : ان كنت مستعملاً من أردتم وعازلاً من كرهتم فلست شيئاً والأمر امركم !

قالوا : ان لم تفعل خلعناك او قتلناك .

فأبى قائلاً : لا أنزع ما البسنيه الله .

فحصروه ، واشتد عليه الحصار ، فأرسل الى علي وطلحة والزبير فحضروا. فاشرف عليهم وهم بين القوم وقال : يا اهل المدينة ، استودعكم الله واسأله ان يحسن عليكم الخلافة من بعدي، ثم قال: مهلاً انه لا يحل الا قتل ثلاثة، رجل زنى بعد زواجه ، أو كفر بعد ايمانه أو قتل نفساً بغير حق وانكم اذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله الاختلاف الى الأبد ..

فارتفعت اصوات تقول : اخلع نفسك . فسكت ، ثم دخل داره وأمر اهل المدينة بالرجوع واقسم عليهم ، فرجعوا الا الحسن بن علي ، وابن عباس ، ومحمد ابن طلحة ، وعبدالله بن الزبير وانصاراً لهم . .

واجتمع حول الدار ناس كثير ، فلما مضت من الحصار ثماني عشرة ليلة ، قدم فريق من الاقاليم يقولون : ان الجند قد تهيأ وسيجيء. وفي هذا تشجيع لأنصار عثمان . فحال المصريون ومن معهم عندئذ، بين الناس وبين الخليفة ومنعوه كل شيء حتى الماء ..

فأرسل الى علي سراً ، والى طلحة والزبير وازواج النبي يقـــول : انهم قد منعوني الماء فان قدرتم على ان ترسلوا اليّ ماء فافعلوا .

فكان علي وام حبيبة زوج النبي ، اول من اجابه ، فجاء علي في آخر الليل فقال : ايها الناس ان الذي تفعلونه لا يفعله المؤمنون، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء والمادة فان الروم وفارس اذا أسرت عدواً تطعمه وتسقيه .

قالوا : لا والله !

وجاءت ام حبيبة على بغلة لها ، فضربوا وجه بغلتها فقالت : ان وصايا بني امية عند هذا الرجل فأحببت ان اسأله عنها لئلا تهلك اموال الايتام والارامل..

فقالوا : كاذبة . !

وقطعوا حبل البغلة بالسيف فنفرت وكادت تسقط عنها فتلقاها النـــاس فأخذوها وذهبوا بها الى بيتها .

وبلغ طلحة والزبير ما لقي علي وام حبيبة . فلزما بيتيهما وبقي عثمان يسقيه ال حزم والناس غافلون عنه .

ودخل عبدالله بن عباس على عثمان في فجر يوم ، فقال له عثمان : ادنُ واسمع كلام القائمين بالباب .

فدنا فسمع بعضهم يقول : ما تنتظرون ? وكان البعض الآخر يقول : لعله رجع فيفي بما وعد .

وبينا هما واقفان ، مرّ طلحة فقال : اين ابن عديس ?

فقام ابن عديس فجعلا يتهامسان . ثم رجع ابن عديس فقال لاصحابه :

لا تتركوا احداً يدخل على عثمان او يخرج من عنده !

فقال عثمان لابن عباس : هذا ما امر به طلحة اللهم اكفني طلحة فأنه أغرى هؤلاء وألبّهم عليّ والله اني لأرجو ان يكون منها صفراً وان يسفك دمه ..

فأراد عبدالله عندئذ ان يخرج فمنعوه، حتى أمرهم محمد بن ابي بكر فأذنوا له.

ورأى اهل مصر ان جنود الامصار سيجيئون ، وان الدائرة ستدور عليهم وعلى كل من حمل معهم سيفاً . فطافوا بين الصفوف قائلين : لا يخرجنـــا من هذا الامر الذي وقعنا فيه الا قتل هذا الرجل .

وعمدوا الى باب المنزل يريدون ان يقتحموه ، فتصدى لهم الحسن ، وابن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومروان ، وسعيد بن العاص ومن معهم من ابنـــاء الصحابة وكادت تشهر السيوف .

فزجرهم عثمان قائلاً : انتم في حل من نصرتي . فأبوا ، ففتح الباب ، فلما رآه المصريون رجعوا . فأقسم الخليفة على اصحابه ان يدخلوا ، ففعلوا واغلق الباب.

فقام رجل من أسلم يدعى تيار بن عياض ، وكان من الصحابة فنادى عثمان وبينا هو يناشده ان يعتزل رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله .

فقالوا لعثمان عندئذ : ادفع لنا قاتله لنقتله .

قال : لم أكن لأقتل رجلاً يدافع عني وانتم تريدون قتلي ..

فلما رأوا ذلك وثبوا الى الباب فلم يمنعهم احد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول . فجاؤا بنار فأحرقوه .. وثار اهل الدار ، وعثمان يصلي لا يشغله عن الصلاة ما يسمعه من اصوات التهديد والوعيد حول منزله .

فلما فرغ ، تناول المصحف وجعل يقرأ ، ثم قال لمن عنده :

ان رسول الله قد عهد اليّ عهداً فانا صابر عليه .. ان هؤلاء لم يحرقوا الباب الا وهم يطلبون ما هو أعظم من ذلك ... ثم قال للحسن بن علي :

ان اباك الآن لفي همّ عظيم من أمرك ، فاستحلفك بالله ان تخرج اليه ...

فتقدم مع رفاقه يقاتلون ولم يسمعوا له .

وبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق ، وكان قد تعجل في الرجوع من الحج مع عصابة له لينصروا عثمان ، وجعل يرتجز... ثم خرج الحسين ومحمد بن طلحة ، وسعيد بن العاص ، وعبدالله بن الزبير ، ومروان . فلما ابصر االقوم مروان ، تصدّى له رجل من بني ليث يدعى البباع ، فتضاربا ، فأصيب مروان في عنقه وسال دمه. فقام عبيد بن رفاعة ليجهز عليه فقالت له فاطمة ام ابرهيم بنعدي، وكانت قد ارضعت مروان : ان كنت تريد قتله فقد قتل ، وإن كنت تريد ان تهشم جسده فهذا قبيح ..

فتركه فأدخلته بيتها ، وما هي الا لحظة حتى قتل المغيرة بن الاخنس ، ثم اقتحموا الدار من المنازل التي حولها . دخلوهـــا من دار عمر بن حزم ، حتى

غصّت بهم والناس القائمون بالباب لا يشعرون . ثم ندب القوم رجلاً ليقتل امير المؤمنين ... فدخل عليه فقال : اخلع نفسك يا عثمان وندعك .

قال: والله لست خالعاً نفسي حتى يكرم الله اهل السعادة ويهين اهل الشقاء.

فخرج ولم يشهر في وجهه السيف ..

فقالوا له : ما صنعت ؟

قال : والله لا تذهب الفتنة الا اذا قتل ولا يحل لنا قتله .

فادخلوا عليه رجلاً من بني ليث ، فقال له عثمان : لست بصاحبي لان النبي دعا لك ان تحفظ يوم كذا وكذا . فرجع عنه ثم فارق قومه .

ودخل عليه رجل من قريش فقال: ان رسول الله استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تهرق دماً حراماً ، فرجع كما رجع الليثي وفارق اصحابه .

واقبل في تلك الساعة عبدالله بن سلام ينهاهم عن قتله فقال: يا قوم: لاتسلّوا سيف الله فيكم فوالله ان سللتموه لا تغمدوه ، ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالسوط ، فان قتلتموه لا يقوم الا بالسيف ويلكم ان مدينتكم محفوفة بالملائكة فان قتلتموه لتتركنها ، فقالوا له : يا ابن اليهودية ما انت وهذا ؟ فانصرف عنهم ، وكان آخر من دخل عليه ، محمد بن ابي بكر ، ففاجأه الخليفة بقوله : أعلى الله تغضب ؟ هل لي اليك ذنب أو لك حق اخذته منك ؟

فأخذ محمد لحيته وقال : قد اخزاك الله يا نعثل « النعثل الكبير الضخم وهو لقب عثمان »

قال : لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين .

قال : ما اغنى عنك معاوية وعبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد ؟؟

قال : يا ابن اخي ، ان اباك لم يكن ليقبض على لحيتي .

قال : لو رآك ابي تعمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اشد من قبضي عليها .

قال : استنصر الله عليك واستعين به.

فتركه عندئذ وخرج ، « وهنالك من يقول انه طعن جبينه بسهم كان في يده » .

فلما خرج ورأى القوم انه لم يجسر على قتله ، ثار قيترة وسودان بن حمران السكونيان ، والغافقي امير المصريين ودخلوا عليه والمصحف في يده ، فضربه الغافقي بحديدة كانت معه ، وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف ثم استقر بين يديه وسالت عليه الدماء .

ثم همّ سودان بضربه ، فأكبت عليه زوجته نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فبرى السيف اصابعها . وضرب عثمان فقتله . وقيل ان الذي قتله كنانة بن بشر النجيبي . ودخل عندئذ غلمان عثمان ، مع اهل الدار لينصروه فرأوا ان سودان قد قتله ، فضرب أحدهم سودان من الوراء فسقط قتيلاً .

ووثب قيترة فقتل ذلك الغلام ، ودار القوم عندئذ فأخذوا ما وجدوه في منزل أمير المؤمنين القتيل حتى تناولوا ما على النساء .

واخذ رجل يقال له كلثوم بن نجيب ، ملاءة نائلة ، فضربه غلام لعثمان فخر ميتاً والملاءة معه ...

ثم تنادى القوم : ادركوا بيت المال . ولم يكن في بيت المال غير غرارتين . فلما سمع اصحابه قولهم قال احدهم : النجاة فان القوم انما يريدون الدنيا .

واقبل عمرو بن الحمق ، من قواد مصر ، يريد ان يأخذ حصته من دم الخليفة المسكين ..! فوثب الى الداخل، وطعنه تسع طعنات وكان يقول: اما الطعنات الثلاث الاولى فلله تعالى ، واما الست الاخرى فلما كان في صدري عليه ... ! وجاء عمير بن ضابىء فكسر ضلعاً من اضلاعه وهو يقول : سجنت ابي حتى مات في السجن.

وارادوا بعد ذلك ان يقطعوا رأسه . فوقعت نائلة وام البنين عليه وجعلتا تصيحان وتضربان الوجوه ، فقال ابن عديس للقوم : كفى فقد انتهى كل شيء . وكان قتله يوم الجمعة ، لثماني عشرة خلت من شهر ذي الحجة في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة . وكانت خلافته اثني عشر عاماً الا بضعة ايام وقتل ، وهو في الثانية والثمانين من العمر .

***

بقيت جثة عثمان ، ثلاثة ايام لا تدفن . فسار حكيم بن حزام القـــرشي ، وجبير بن مطعم ، الى علي بن ابي طالب وطلبا اليه ان يأذن في دفنه . ففعل ، وقد شيع الجثة الى القبر ، طائفة قليـــلة من اهله ومن القوم ، فيهم ابن الزبير والحسن بن علي ، وابو جهم بن حذيفة ، ومروان بن الحكم ، وكان ذلك بـــين المغرب والعشاء . حملوا الجثة الى حائط من حيطان المدينة يسمى حش كوكب وهو خارج البقيع ، وصلى عليه جبير بن مطعم . وكان بعض الانصار قد همّوا بأن يمنعوا الصلاة فخافوا من الفتنة .

وقيل : شهد دفنه ، علي وطلحة وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك وغـــير هؤلاء من وجوه الناس ، ودفن في ذلك الحائط .

فلما تولى معاوية امر الخلافة ، امر بذلك الحائط فهدم ، وادخل في البقيع ، وامر الناس فدفنوا امواتهم حول قبره حتى اتصل الدفن بمقابر المسلمين .

قال حسان بن ثابت الانصاري من قصيدة :

أتركتم غزو الدروب وراءكم وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدي المسلمين هديتمُ ولبئس امر الفــاجر المتعمد

ومنها :

وكأن اصحاب النبي عشية بُدُن تذبح عند باب المسجد
ابكي ابا عمرو لحسن بلائه امسى ضجيعاً في بقيع الفرقد

وكان حسان شاعراً كبيراً يحب عثمان ، وقد بكاه كثيراً ، ورثاه ومدحه كثيراً يشاركه في ذلك المديح ، كعب بن مالك الانصـــاري ، وتميم بن ابي بن مقبل ، وغيرهما ، وهنالك من الناحية الاخرى ، شعراء يهجون عثمان ، ويذكرون خطيئاته ، كما كان حسان ومن حوله يذكرون فضله .

على ان حسان ، لم يقصر شعره على الرثاء والبكاء ، بل تعدى فيه حد المديح الى اشعال النار ، نار الفتنة ، فكان له في ذلك شعرٌ اوغر به الصدور .

من ذلك قوله :

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليـــأت مأسدة في دار عثمانا

صبراً، فدى لكم امي وما ولدت قد ينفع الصبر في المكروه احيانا
فقد رضينـــا باهل الشام نافرة وبالامير وبالاخوان اخوانا
اني لمنهم وان غابوا وان شهدوا ما دمت حياً وما سميت حسانا
لتسمعن وشيــكا في ديارهم الله اكبر يا ثارات عثمانا ...!
يا ليت شعري، وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا

وقال الوليد بن عقبة، بن ابي معيـــط، يحرض اخاه عمارة على ان يطلب بدم عثمان :

ألا ان خير الناس بعد ثلاثة قتيل النجيبي الذي جاء من مصر
فان يك ظني بابن امي صادقــاً عمارة لا يطلب بذحل ولا وتر
يبيت واوتار ابن عفـــان عنده مخيّمة بـــين الخورنق والقصر

فأجابه الفضل بن عباس يهجو عثمان من قصيدة :

ألا ان خير النـــاس بعـــد محمد وصي النبيّ المصطفى عند ذي الذكر

« وهو يعني عليّاً »

وأول من صـــلّى وصنو نبيـــه واول من اردى الغواة لدى بدر
فلو رأت الانصـــار ظلم ابن عمكم لكانوا له من ظلمه حاضري النصر
كفى ذاك عيباً ان يشيروا بقتله وأن يسلموه للأحابش من مصر

وقال الحباب بن يزيد المجاشعي عم الفرزدق الشاعر :

لعمر ابيـــك فـــلا تجـــزعن لقـــد ذهب الخير الا قليـــلا
لقد سفه النـــاس في دينهـــم وخلّى بن عفـــان شراً طويلا
أعـــاذل كل امرىء هـــالك فســـيري الى الله سيراً جميـــلا

***

- ٧٤ -

قتل عثمان ، فبقيت المدينة خمسة ايام ، وأميرها الغافقي بن حرب ، أمير المصريين ، والناس يلتمسون من يجيبهم الى القيام بأمر الخلافة ، فلا يجدونه . لجأ

طلحة الى منزل له، وخرج سعد بن ابي وقاص والزبير من المدينة ، وهرب سعيد ابن العاص، والوليد بن عقبة ، ومروان بن الحكم الى مكة ولحق بهم بنو امية الا من لم يستطع الهرب .

فاتى المصريون علياً يسألونه ان يرضى بالخلافة فأبى ، وأتى الكوفيون الزبير فلم يرضَ ، وأتى البصريون طلحة ففعل فعل الاثنين .

اجل ، كان القوم مجتمعين على قتل عثمان، ولكنهم اختلفوا فيمن يلي الخلافة بعده . فأرسلوا الى سعد يسألونه فقال : اني وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، لا حاجة لنا اليها .

فقال بعضهم : لئن رجع الناس الى اوطانهم بغير خليفة ، لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة، والفتنة الطائشة : فجمعوا اهل المدينة فقالوا لهم : يا اهل المدينة: انتم اهل الشورى ، وانتم تولوّن الخليفة وحكمكم محترم من الامة فانظروا رجلاً تولونه ونحن لكم تبــع . ثم قالوا : موعدنا غداً ، فوالله لئن لم تفرغوا من الامر لنقتلنّ غداً ، علياً وطلحة والزبير ، ومن يتبعهم من وجوه الاسلام . فأقبل الناس الى منزل علي فقالوا له: انت ترى ما نزل بالاسلام وما ابتلينا به وقد جئنا لنبايعك .

قال : دعوني والتمسوا غيري فانـّا مستقبلون امراً له وجوه وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول.

قالوا : ألا ترى الاسلام، الا ترى الفتنة، ألا تخاف الله؟ فأطرق ملياً ثم قال: اني ان أجبتكم فعلت ما أعلم ، وان تركتموني فانما أنا كأحدهم الا اني من اسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه .

وافترقوا على ان يتوسعوا في المشورة ، فلما كان الليل قالوا: اذا دخل طلحة والزبير في المبايعة استقام الامر ، فبعث البصريون الى الزبير ، حكيم بن جبلة ، ومعه نفر . فقالوا له: تبايع علياً ؟ واتى الاشتر طلحة فقال له مثل هذا القول، والسيف في يده . فلما طلعت شمس اليوم الثاني ، اقبل الناس يقولون لعلي : ما نحن براجعين حتى نبايعك .

قال : اختاروا غيري .

قالوا : لا نعلم احداً أحق به منك ، واقدم سابقة ، واقرب قرابة من رسول الله ، وما نختار غيرك .

قال: اذن في المسجد فان بيعتي لا تكون خفية. فخرجوا الى المسجد ، وعلى علي ازار وعمامة خزّ ونعلاه في يده !! وهو يتوكأ على قوس .

فبايعه الناس ، وكان اول من بايعه طلحة بن عبيدالله ، وبعض المؤرخين يقولون انه بايعه وهو مكره . وكان بيد طلحة شلل ، فنظر اليه حبيب بن ذؤيب قائلاً : انا لله وانا اليه راجعون ، أول يد بايعت امير المؤمنين يدٌ شلاء فلا يتم هذا الأمر . ثم جاء القوم بالزبير يدعونه الى المبايعة ، فتمتم قائلاً : اني انما ابايع كرهاً .

وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص يقولون له بايع فقال : لا افعل حتى يبايع الناس والله ما عليك يا علي مني باس .

فقال علي : خلوا سبيله .

ثم جاء عبدالله بن عمر بن الخطاب فقال مثل قول سعد .

فقال علي : ائتني بكفيل . .

قال : لا أجد كفيلا .

فقال الاشتر : دعني اضرب عنقه ..

قال : دعوه فانا كفيله ...!

وبايعت الانصار ، الا طائفة قليلة ، منها حسان بن ثابت ، وكان شاعراً لا يبالي ما يصنع ... وزيد بن ثابت وكان عثمان قد ولاه الديوان وبيت المال ، وكعب بن مالك وكان عاملا على بعض الصدقة وقد ترك له عثمان ما اخذه من القوم ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، وعبدالله بن سلام وصهيب بن سنان ، وسلمة بن سلامة ، واسامة بن زيد ، وقدامة بن مظعون ، والمغيره بن شعبة ، وجميعهم من انصار عثمان .

والنعمان بن بشير ، هو الذي حمل اصابع نائلة التي قطعت بالسيف وقميص عثمان الذي كان يلبسه عندما قتل ، ولحق بالشام . فكان معاوية ، يعلق ذلك

القميص وفيه الاصابع ، فاذا رأى ذلك اهل الشام ، ازدادوا غيظاً وحقداً على علي وانصار علي . . .

ثم جيء بقوم كانوا يترددون في المبايعة ، فقالوا : نبايع على اقامة كتاب الله في القريب والبعيد ، والعزيز والذليل ، وبايعت العامة وجميع من في المدينة ، الا اولئك الذين قرأت اسماءهم ، فوق هذه السطور . فلما انتهى الامر ، وقف علي يخطب ، وهي اول خطبة خطبها قال : ان الله عز وجل انزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا الخير ودعوا الشر . الفرائض ، الفرائض ادوها الى الله سبحانه يؤدكم الى الجنة ، المسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق، اتقوا الله في عباده وبلاده انكم مسؤولون عن البقاع والبهائم اطيعوا الله ولا تعصوه واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون .

ونزل فانصرف الى منزله ، فلحق به طلحة والزبير في جماعة من الصحابة فقالوا له : يا امير المؤمنين ، انا قد اشترطنا إقامة الحد وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم عثمان . . .

فقال : لست اجهل ما تعلمون ، ولكن القوم اليوم فوضى ، وقد انضم اليهم عبيدكم وغلمانكم وثابت اليهم اعرابكم فهل ترون الآن اني قادر على شيء ؟

قالوا : لا !

قال: والله لا ارى الا رأياً ترونه ان شاء الله، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ثم عودوا .

واشتد على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج من المدينة . وانما دعاه الى ذلك ، هرب بني امية الذي اوغر صدره . وكان بعض الناس يقولون عندما تفرقوا : خير لنا ان نصبر كما قال علي .

ويقول البعض الاخر : والله ان علياً لمستغن برأيه وامره عنه ولا نراه الا سيكون على قريش اشدّ من سواه .

وكثرت الاراء حول ذلك التضعضع الفكري والثورة الهائجة ، وحدث الناس علياً بأمر عماله ، هذا يسأله ان يعزلهم وهذا ينصح له بألاّ يفعل .

وسمع المغيرة بن شعبة بذلك ، فدخل على علي فقال : ان لك حق الطاعة

والنصيحة ، وان الرأي اليوم ، يضمن لك الهدوء والراحة في غد .. ابق معاوية اميراً على الشام ، واقرر عبدالله بن عامر وجميع عمال عثمان على اعمالهم حتى اذا اتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت او عزلت .

قال : انظر في ذلك .

قال : اذا أبيت ان تصغي إلي فانزع من شئت الا معاوية فان فيه جرأة وهو سيد الشام ، ولك عذر في اثباته فقد ولاّه الشام ، عمر بن الخطاب ..

قال : لا والله لا استعمل معاوية يومين !

فخرج المغيرة ، ثم عاد في اليوم الثاني ، فقال : اشرت عليك امس ، بان تبقي عمالك ريثما يبايعك الجيش ، او تعزلهم وتترك معاوية ، اما اليوم فانصح لك بان تنحيهم جميعاً فقد كنت مخطئاً امس ، فيما رأيت ... وانهم لاضعف من ان يرتفع لهم صوت ، اذا فعلت . قالها وانصرف، دون ان يسمع جوابا .

وكان ابن عباس يهم بالدخول الى مجلس علي ، وقد رأى المغيرة خارجاً منه، فلما انتهى اليه قال : ماذا قال لك المغيره يا امير المؤمنين ؟

قال : طلب الي ّ امس ان ابقي معاوية وجميع العمال ليبايعني القوم في كل ناحية فأبيت ذلك عليه ، فعاد الي ّ الان، يسألني ان اعزلهم وقد ندم على ما قاله من قبل .

فقال ابن عباس : اما المرة الاولى فقد نصح لك ، واما اليوم فقد غشّك .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : ان معاوية واصحابه اهل دنيا ، فمتى ابقيت لهم الولاية ثبتوا على الطاعة ولم يبالوا بمن ولي الخلافة، ولكنك اذا عزلتهم قالوا: اخذ ابن ابي طالب الخلافة بغير شورى ، وهو الذي قتل عثمان ، ثم يوغرون عليك الصدور فيثور اهل الشام واهل العراق وانا لا آمن طلحة والزبير ان يخرجا عن طاعتك.

– وبماذا تشير ؟

– بأن تثبت معاوية ، فاذا بايعك فعلي ّ انا ان انزعه من كرسيه ..

قال : والله لا اعطيه الا السيف ثم قال :

وما ميتة ان متها غير عاجز   بعار اذا ما غالت النفس غولها

قال : انك يا امير المؤمنين رجل شجاع ولكنك لست صـــاحب رأي في الحرب ، اما سمعت رسول الله يقول : الحرب خدعة ؟

قال : بلى !

قال : والله لئن اطعتني لأصدرنهم بعد ورد ، ولأتركنهم ينظرون في دبر الامور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان ولا إثم عليك .

قال : لا ابالي بمعاوية وانصاره !

قال : اطعني ، فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً .

قال : تشير علي بهذا وانا لا ارى رأيك ، أفلست انت أولى بالطاعة ؟

قال : اني أول من اطاع .

– اذن تسير الى الشام فقد وليتك .

قال : ما هذا برأي ، ان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن ان يضرب عنقي ولكن اكتب اليه وأكثر له من الوعود .

قال : لا والله لا كان هذا أبداً .

فخرج ابن عباس وهو يقول في نفسه : ستنشر الفتنة جناحيها في كل فضاء ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

– ٧٥ –

الامام علي

هو علي ، بن ابي طالب ، واسم ابي طالب عبد مناف ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، الذي بنى ، بذكائه ، وهمته ، وعظمة نفسه ، هذا البيت العربي الكريم . فهو اذن ، ابن عم الرسول العظيم ، لان ابا طـالب والد علي ، وعبدالله والد النبي ، اخوان . وام علي ، فاطمـــة بنت أسد ، بن

هاشم بن عبد مناف ، فهو اول خليفة ابواه هاشميان ، ولم يل الخلافة ، على ما يقول ابن الاثير ، رجل ابواه هاشميان ، غير علي ، والحسن ابنه ، ومحمد الامين ابن هارون الرشيد، لان امه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، من سلالة هاشم . وكان علي اسمر ، ثقيل العينين عظيم اللحيـــة ، كثير شعر الصدر ، ولم يكن طويل القامة ، بل هو فوق الربعة ، ومن احسن الناس وجهاً . واول زوجـة تزوجها فاطمة بنت الرسول ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده ، وكان له منها الحسن والحسين، وزينب الكبرى، وام كلثوم الكبرى، وذكر انه كان له منها ولد اخر يقال له محسن توفي وهو صغير . ثم تزوج بعد فاطمة ، ام البنين بنت حزام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً ، وعبدالله وعثمان ، قتلوا جميعهم مـــع اخيهم الحسين .

وتزوج ليلى بنت مسعود بن خالد من بني تميم ، فولدت له عبدالله وابا بكر قتلا مع الحسين ، وقيل ان عبيدالله قتله المختار بن ابي عبيد ، ولا بقية لهما .ومن زوجاته ، اسماء بنت عميس « من بني خثعم ، ولدت له محمـــداً الاصغر ويحيي الذي قتل ايضاً مع الحسين ، ولا عقب لهما . ومنهن الصهباء بنت ربيعة ، مـن بني تغلب ، وله منها ولدان ، هما عمر ، ورقية ، وقد عـاش عمر خمساً وثمانين سنة ، واستولى على نصف ميراث ابيه ، ومات بينبـع . وتزوج امامة بنت ابي العاص بن الربيع ؛ وامها زينب بنت الرسول وقد ولدت له محمداً الاوسط .وله ولد آخر هو محمد الاكبر ، الذي يقال له ابن الحنفية ، امه خولة بنت جعفر من بني حنيفة . وكان له بنات من امهات لم تذكر اسماؤهن ، منهن ، ام هانئ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة وام كلثوم الصغرى ، وفاطمة، وخديجه ، وام الكرام وام سلمة ، وام جعفر وجمانة ونفيسـة .

فجميع ولد علي ، اربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة امرأة ، والنسل منهم، للحسن والحسين ، ومحمد ابن الحنفية والعباس ابن الكلابية ، وعمر ابن الصهباء التغلبية .

ولد علي في مكة ، داخل البيت الحرام في اليوم الثالث عشر من شهر رجب من السنة الثالثة والعشرين قبل الهجرة ، ولم يذكر المؤرخون رجلاً ولد قبله في البيت الحرام .

وكان ابو طالب ، رجلاً جليلاً بعيد الصوت ، له الكلمة المحترمة في قريش والمنزلة العالية في مكة . وهو الذي كفل النبي وتولى امر تربيته ، بعد موت جده عبد المطلب ، والنبي لم يبلغ التاسعة من عمره .

ولم يكن علي قد ولد بعد ، فلما ولد ، كان الرسول في زهرة شبابه ، فأحاطه بعنايته وعطفه ، وأحبه الحب الصادق حتى انه كان يدعوه اخاه .

وعلي من اولئك الفتيان الاذكياء ، اصحاب الهمة والوفاء والشرف ، وكان له خلق طاهر عالٍ رفعه الى ذروة المجد ، وجعله مظهراً بليغاً من مظاهر العظمة والرقي . أجل ، نشأ الامام علي ، كبيراً في نفسه ، كبيراً في نبالته ، كبيراً في وجدانه ، لم يعرف له قومه خطيئة ، ولم يدنس له عرض ، ويكفي هذا الامام ، انه رافق النبي في دعوته وجهاده ، وهدوئه وحربه ، فأمسى المثل الصالح الذي تحدثت به العرب على مر الاجيال .

ولم يكن ابو طالب كثير المال ، فلما اصاب مكة جدب ، كان النبي يتاجر بمال خديجة ، بين الشام والحجاز ، فأتى عمه العباس ، وهو اغنى اعمامه ، فقال له : يا عم ، ان اخاك ابا طالب كثير العيال ، فانطلق بنا نخفف عنه .. تأخذ انت ولداً ، وآخذ انا آخر . وانطلقا ، فأخذ محمد علياً ، وأخذ العباس جعفراً وتركا لأبي طالب ولده الثالث الذي يقال له عقيل . ولم يزل علي عند النبي ، حتى اظهر الدعوة ، وعلي في الثالثة عشرة من العمر ، فآمن بدعوته وصدقه ، ولزمه في الرواح والمجيء .

واختلف المؤرخون والعلماء ، في أول من اسلم ، بعد خديجة . قال بعضهم : أول ذكر آمن هو علي .

وروي عن علي انه قال : انا عبدالله واخو رسوله وانا الصديق الاكبر ، لا يقولها بعدي الا كاذب مفترٍ ، صليت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين .

وقال ابن عباس : أول من صلّى علي .

وقال جابر بن عبدالله : اظهر النبي دعوته يوم الاثنين ، وصلّى علي يوم الثلاثاء . وقال زيد بن ارقم : علي اول من اسلم مع النبي .

وقال عفيف الكندي : كنت تاجراً ، فقدمت مكة ايام الحج ، فأتيت

العباس ، فبينا نحن عنده ، خرج رجل فقام تجاه الكعبة يصلي ، ثم خــرجت امرأة تصلي معه ، ثم خرج غلام ففعل مثلما فعلا ، فقلت ياعباس : ما هذا الدين ؟ قال : هذا محمد ابن اخي يزعم ان الله ارسله وان كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة آمنت به ، وهذا الغلام علي بن ابي طـالب وايم الله ما اعلم على ظهر الارض احدا ، على هذا الدين ، الا هؤلاء .

علي في نظر الرسول

قلنا ان علياً لزم النبي ، ورافقه في مراحل دعوته ، فلما كانت الهجرة ، كان علي في الثالثة والعشرين ، وقد خبر الزمان وأهل الزمان وصيّره ايمـانه ، والتجاريب التي رأى ، رجلاً جباراً في دينه ، عظيما في اخلاقه ، طـــاهراً في وجدانه ، صلب العود في مبدئه وشرفه .

ولقد قرأت ، في روايتنا هند والمنذر ، اخبار ذلك الصراع الهائل الذي قام بين النبي وقريش ، والذي قضى على النبي بان يهجر مكة ، الى المدينة ، عندما تآمر عليه ابناء عشيرته ، اقبلت قريش الى منزل محمد تريد الايقاع به ، فأمر محمد علياً بان يبيت على فراشه ، ويلبس برداً له اخضر ، وخرج هو والناس على بابه ينظرون الى الداخل فيرون علياً في الفراش وهم يحسبونه النبي . فلما كان اليوم الثاني عرفوه ، فقالوا : لو خرج محمد لخرج علي معه .

وقام في اذهانهم أن محمداً باق فلم يخرجوا في طلبه . وكان النبي قد أوصى علياً عند خروجه ، بان يؤدي عنه امانته ثم يلحق به مع أهله . ففعل الفتى ما امره به ، ثم خرج من مكة يستعين بالظلام على الفرار ويكمن محتجباً عندمـا تطلع الشمس حتى قدم المدينة ، وقد ورمت قدماه من المشي ، وسالت منها الدماء . فلما رآه النبي بكى ، وازداد حبه ، ثم جعل يجاهر الناس بـأنه يؤثر علياً على سائر الصحابة . دعا الناس مرة فاجتمعوا ، فأخذ بيد علي وقـــال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » وقال في موقف آخر : « علي مني وانا من علي ، ولا يؤدي عني الا علي »

وقال مخاطباً علياً : « انت اخي في الدنيا والآخرة »

وقال له ايضاً . اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى غير انه لا
ي بعدي »

ان في هذه الالفاظ يقولها نبي الاسلام العظيم ، فخراً لعلي وآل علي ، يتلألأ
على جباههم الى الأبد .

شجاعته

وعلي شجاع باسل ، شهد الغزوات مع النبي بعدالهجرة ، الا غزوة تبوك ،
وكان فيها جميعها أثبت قدما واطول سيفا من سواه . على ان غزوة «المصطلق»
خلقت له عدواً قويا لايستهان به هو عائشة زوج النبي ، ابنة ابي بكر الصديق.

تحدث الناس كذبا بأمر عائشة بعد تلك الغزوة . ورددت الافواه عنها بعض
الاقاويل التي لايتسع لها المجال الآن .. فاستشار النبي اصحابه فيما يقال ، فاثبتوا
جميعهم براءتها الا عليا فانه قال : «يارسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء
سواها كثير فطلقها » . وبلغ ذلك عائشة فحفظته له وتمشى الحقد في صدرها منذ
ذلك الحين، ثم ظهر ذلك الحقد في فجر خلافته كما سيجيء

زهد علي وعدله وعظمة نفسه

والزهد والاستخفاف بمظاهر الحياة الخلابة وعظمة النفس ، من طبع هذا
الخليفة العظيم الذي كان ركنا من اركان الاسلام . وهذه اعماله وخطبه واقواله
امام خلافته وقبلها تشهد انه الملك الراقي الذي حمل حياته كلها لواء الاخلاق وكان
سيد الزاهدين.

كان ابو رافع مولى الرسول ، عاملاً لعلي على بيت المال ، وكان علي قد رأى
في بيت المال لؤلؤة ، فدخل يوما فرآها على ابنته وقد تزينت بها ، فقال لأبي
رافع : من اين لها هذه ؟ .. لأقطعنّ يدها .

قال : انا والله يا امير المؤمنين زيّنتها بها .

قال : لقد تزوجت فاطمة وما لي فراش الا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه بعيرنا بالنهار وما لي خادم غير فاطمة .

وقال عاصم بن كليب : ورد على علي مال من اصبهان ، فجعله سبعة اسهم ، ووجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة .. ! ثم دعا اصحاب الاسباع واقترع ، لينظر ايهم يعطى اولا ..

وقال هرون بن عنترة عن ابيه : دخلت على علي بالخورنق ، في فصل شتاء ، وعليه رداء بالٍ يتقي به البرد ، فقلت : يا امير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولاهلك في هذا المال نصيبا وانت تفعل هذا بنفسك ؟

فقال : والله ما هو الا ردائي الذي اخرجته من المدينة !

وقال يحيى بن سلمة : استعمل علي عمر بن سلمة على اصبهان ، فقدم ومعه مال وزقاق فيها عسل وسمن واشياء غيرها . فأرسلت أم كلثوم بنت علي الى عمر تسأله ان يبعث اليها سمناً وعسلاً ، فأرسل اليها زقين . فلما كان الغد اقبل علي واحضر المال والعسل والسمن ليقسم ، ثم عدّ الزقاق فنقصت اثنين .فسأل عمر عنها فكتمه الامر اولا ثم باح به . فأرسل الى ابنته فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا . فأمر التجار بتقويم ما نقص فكان ثلاثة دراهم فأخذها ثم قسم الجميع !!

وقال سفيان : ان علياً لم يبنِ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ..

ويقول المؤرخون : اخرج علي سيفاً الى السوق فباعه ، فقالوا له : ما هذا يا امير المؤمنين ؟

قال : لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه !!

وكان يختم على جراب فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول : لا احب ان يدخل بطني الا ما اعلم .

وقال الشعبي : وجد علي درعاً له عند رجل نصراني ، فأقبل به الى شريح القاضي وجلس الى جانبه وقال له : هذه درعي . فقال الرجل : ما هي الا درعي ولم يكذب امير المؤمنين !

فقال شريح لعلي : ألك بينه ؟

قال : لا ، وهو يضحك . فأمر شريح الرجل بأن يأخذ الدرع .

فتناولها ومشى قليلاً ثم عاد فقال : اشهد ان هذه احكام الانبياء .. امير المؤمنين يمثل بين يديّ قاضيه وقاضيه يقضي عليه ؟! اني اعترف بان الدرع له ، وقد سقطت منه عند مسيره الى صفين .

قال ذلك ثم اسلم ، ففرح علي باسلامه ووهب له الدرع وفرساً له ، وشهد معه قتال الخوارج .

وقيل : رأى الناس علياً يحمل في ملحفته تمراً قد اشتراه بدرهم . فقالوا له : يا امير المؤمنين الا نحمله عنك ؟

فقال : ابو العيال احق بحمله .

وذكر الناس الزهاد في مجلس الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، فقال عمر : ازهد الناس في الدنيا علي بن ابي طالب .

أجل كان علي ازهد الناس ، ولكن كان في زهده وزهد عمر بن الخطاب ما يضيع في بعض المواقف هيبة الخلافة ويحجب جلال الملك . ولكنه خلق عالي كانت الخلافة نفسها أضعف من ان تؤثر فيه وكان الملك أعجز عن ان ينال منه .. وانها لعظمة خالدة تلك التي تملي على خليفة المسلمين وسيد الشرق ان يقضي العمر راضياً بالعيش الضيق ، ومجال السعة والرفاه رحب وسهل عليه .

* * *

- ٧٦ -

كان الاحنف بن قيس ، قد قدم المدينة وهو يريد الحج ، وعثمان بن عفان في محنته التي قرأت ، وقد ثار عليه الناس . ولمس الاحنف بيده ، نار تلك الثورة الهوجاء ، ورأى حقد اهل الكوفة والبصرة ومصر ، باديا على الوجوه ، فقام في ذهنه ان الخلافة ستخرج من يد عثمان ، وقد ينتهي امر الثورة بقتله . فلقي طلحة والزبير فقال لهما : لا ارى عثمان الا مقتولاً فأي رجل تريدان ان تبايعاه بعده ؟

قالا : علي بن ابي طالب .
قال : أتأمرانني به وترضيانه لي ؟
قالا : نعم !
فانطلق الى مكة ، فبينا هو بها تحدث النـاس فقالوا : قتل عثمان . وكانت عائشة ام المؤمنين بمكة فقال لها : ان الخليفة قد قتل فمن ابايع ؟
قالت : بايع علياً .
قال : أتأمرينني بذلك ؟
– نعم !
فرجع الى المدينة فبايع علياً ثم انصرف الى اهله ، وقد ايقن مما رأى وسمع ، ان بني امية يؤثرون الموت على مبايعة علي والاعتراف بخلافته . وكانت اليتيمة قد طلقتها الحمى ، ولكن ذلك الضعف الغريب القـاسي ، كان يدفعها بيديه الحديديتين الى القبر . وقد رددت الجواري والغلمان حكاية مولدها ، وتحدث النـاس بها في مجالسهم وكانوا يقولون : ستزف الى طارق ، عندما يذهب هذا الهزال ، وتعود اليها العافية .
وكانوا يرون طارقاً في منزل ابيه ، لا يفارقه الا لأمر ، واذا خطر لليتيمة ان تخرج منه عند الصباح ، او عند غروب الشمس خرج طارق معهـا يرافقه سنان ، كأن ذينك القلبين المتحدين بقوة الحب ، قلب واحد تخفق فيه عاطفة واحدة . اجل ، كانت محنة الفتى العاشق ، في فرار حبيبته ، درساً قاسياً علمه السهر الدائم على الفتاة التي أحب ، واملى عليه ، كما يملي عليه الهوى، ان يكون أتبع لها من الظل .
وهي نفسها لم تكن تريد ان تبتعد عنه ، ولا تريد ان تنقضي ساعة واحدة دون ان تراه . فكأنها كانت تحس ان العمر قصير، وان هذه الايام التي ترى فيها وجه الحبيب ، تمر كما يمر السحاب ... وكانت تسأله برغبة وشوق ، ان يرافقها الى حلوان لتزور قبر امها المنكودة الحظ وهو يعدها بأنه سيفعل عندما تستعيد القوى . على ان الأمل في الصدرين ، لم يكن واحداً ...
كان طارق يعلل النفس بالمنى ، وصفو العيش ، بعد الزواج وكانت اليتيمة تفكر في الموت ، تفكيراً مستمراً جعل الدنيا في نظرها دار عذاب وشقاء ..

حتى انها كانت تستلذ ذلك التفكير . وقد كتمت طارقاً ما في نفسها، واستعانت بارادتها الثابتة على خنق لوعتها الدامية فلم يستطع طارق ان يقرأ في عينيها الفاترتين ، غير الامل الضاحك ، ولم يرَ غير الابتسامة العذبة تغمر ثغرها الفتان ...

كله هوى وامل ، وكلها هوى ويأس ، وهذا اليأس ، هو الذي يقذف بها الى الهوة بل هو الموت نفسه .. وانه لموت خفي .. ينشب فيها مخالبه كل يوم . والاحنف ومن حوله ، وسنان ومن حوله ، لا يرون لهذا الموت اثراً ولا يبصرون شبحه الرهيب، الا عبدالله بن قيس، فقد كان يرى غير ما يرون وكانت اللوعة تملأ قلبه ، عند تصوره ان القضاء سيصرع اليتيمة، وقد يصرع طارقاً بعد ذلك . والزمان يمر .. والداء ينهش جسم الملكة الصغيرة التي جار عليها الدهر .

* * *

- ٧٧ -

مضى علي في امره ، ولم يبال بأولئك الذين نصحوا له ، بان يبقي معاوية على الشام ريثما يبايعه . وكان يقول : لا اداهن في ديني .

فلما دخلت السنة السادسة والثلاثون ، اختار عماله وبعث بهم الى الامصار : جعل عثمان بن جنيف اميراً على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام .

فخرج هؤلاء الامراء من المدينة في يوم واحد يريدون البلاد التي بعث بهم اليها .. فلما انتهى سهل بن حنيف، امير الشام الى تبوك، لقيته خيل ، وتصدى له اصحابها فقالوا : من انت ؟

قال : أمير ..

– على اي شيء ؟

– على الشام .

قالوا: ان كان عثمان قد بعثك فاهلاً بك، وان كان قد بعثك غيره فارجع.
قال : أوما سمعتم بالذي جرى ؟
– بلى ، فارجع ولا تزد . .
فرجع الى علي وهو يتعثر بخيبته .
واقبل قيس بن سعد ، أمير مصر ، الى مكان يدعى ايلة ، فعرض له قوم من اهل مصر يسألونه عن اسمه ، وعن غرضه .
فقال : اني اطلب من آوي الى عثمان فانتصر به .
قالوا : من انت ؟
– قيس بن سعد .
فأذنوا له في المضي ، فمشى حتى دخل مصر .
وافترق المصريون عندئذ فرقاً : فرقة اتبعت علياً فكانت مع قيس ، وفرقة اعتزلت وهي تقول : اذا قتل قيس قتلة عثمان فنحن معه والا فنحن على عهدنا حتى نبلغ الغاية ، فكتب قيس الى امير المؤمنين يصف له ما رآه . وكان عثمان ابن حنيف قد دخل البصرة دون ان يرده احد، ولم يكن لأميرها عبدالله بن عامر رأي في دخوله . على ان البصريين افترقوا كما افترق اهل مصر . هذه جماعة مع علي ، وهذه من انصار عثمان تطلب بدمه ، وهنالك قوم آخرون ينتظرون ما يصنعه اهل المدينة فيصنعون مثلهم .

واما عمارة بن شهاب ، فقبل ان ينتهي الى الكوفة ، لقيه طليحة بن خويلد، وكان عثمانيـــاً ، فقال له : ان القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً ، فارجع الى من ارسلك فان ابيت ضربت عنقك !! فلم يتردد الرجل في الرجوع وكان يقول : الحذر من الخطر خير من الشر .

وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن ، فلما دخلها، خرج منها عامل عثمان، يعلى بن منبه ، بعد ان جمع خراجها كله ، وحمله راجعاً الى مكة . وخرج من الناحية الاخرى عبدالله بن عامر ، وهو يحمل من اموال البصرة الشيء الكثير. فلما رجع من رجع وانتهت الاخبار الى علي ، دعا طلحة والزبير وقال لهما : ان الامرُ الذي كنت احذره قد وقع ، وانها فتنة كالنـــار ، كلما سعرت ازدادت

وسأمسك الامر ما استمسك فاذا لم اجد بداً ، فآخر الداء الكيّ . ثم كتب الى ابي موسى الاشعري في الكوفة والى معاوية يدعوهما الى الطـاعة ، فكتب اليه ابو موسى بطاعة القوم وذكر له اسماء انصاره واسماء انصار عثمان .

وكان رسول علي الى معاوية سبرة الجهني. فاخذ معاوية كتابه ولم يجبه بشيء

وكان سبرة كلما طلب الجواب لا يسمع من معاوية غير هذه الابيات :

أدم ادامة حصن او خذا بيدي حربا ضروساً تشب الجزل والضرما
في جاركم وابنكم اذ كان مقتله شنعـاء شيَّبت الاصـداغ واللما
أعيَ المسود بها والسيدون فلم يوجد لهـا غـيرنا مولى ولا حكما

حتى اذا كان الشهر الثـالث من مقتل عثمان ، في شهر صفر ، دعا معـاوية رجلاً من بني عبس يدعى قبيصة فدفع اليه قرطاساً مختوما عنوانه : من معاوية الى علي وقال له : اذا دخلت المدينة فاقبض على اسفل القرطاس . ثم اوصاه بما يقول وامر عندئذ رسول علي بان يرجع .

فخرج الرجلان حتى قدما المدينة في ربيع الاول . فدخلها العبسي كما امره معاوية وقد رفع القرطاس بيده .

فتبعه الناس وهم ينظرون اليه وقد عرفوا ان معاوية لا يعترف بخلافة علي ولا يعتزل امارة الشام .

واقبل الرسول الى مجلس امير المؤمنين ودفع اليه القرطاس فلم يجد كتابا ، فقال له : ما وراءك ؟

قال : آمنٌ انا ؟

قال : نعم ان الرسول لا يقتل .

قـال : ورائي قوم لا يرضون الا بالقوَد . « القوَد القصـاص ، وان يقتـل القاتل بالقتيل » .

قال : ممن ؟

– من خيط عنقك ! وقد تركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وقد البسوه منبر دمشق .

قال : مني يطلبون دم عثمان ؟ اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان ... اخرج!

قال : وانا آمن ؟

– وانت آمن .

فخرج العبسي ، وصاحت « السبئية » وهي الفرقة التي تنتمي الى عبدالله ابن سبأ قائلة : هذا الكلب رسول الكلاب فاقتلوه .

فقال الرجل : يا آل مصر ، يا آل قيس ..

فمنعته مصر وجعلوا يقولون له : اسكت ، فيقول : لا والله، لا يفلح هؤلاء ابداً ، انتهت والله أعمالهم ووالله ما امسوا حتى عرف فيهم الذل ..

واحب اهل المدينة عندئذ ، ان يعلموا رأي علي في معاوية ، وقد بلغهم ان الحسن ابنه دعاه الى القعود وترك الناس ، فارسلوا اليه زياد بن حنظلة التميمي ، وكان من جلسائه فدخل عليه وجلس ساعة وهو لا يتكلم فقال عليّ : يا زياد تيسر ...

قال : لاي شيء يا امير المؤمنين ؟

– لغزو الشام

قال : الرفق أولى

فلم يسمع له علي . فخرج زياد وهو يقول للناس : السيف يا قوم .

فعرفوا ان معاوية اراد ان يسعرها حرباً يقضي بها على الخليفة ومن حوله ، من جنود وانصار . ودخل الزبير وطلحة يستأذنان امير المؤمنين في الحج ... فأذن لهما .. فرحلا في تلك الساعة ولحقا بمكة . وكان علي يظن انهما سيكونان مع رجالهما عونا له .

* * *

– ٧٨ –

بين بني هاشم وبني امية ، عداوة قديمة نشأت في العهد الجاهلي الاخير .

ولي هاشم جدّ ابي طالب امر الكعبة ، بعد ابيه عبد مناف بن قصي وكانت له السقاية والرفادة كما قرأت في روايتنا حسناء الحجاز . وكان لهاشم أخ يدعى

عبد شمس ، والاثنان توأمان ، وقد ولدا ، واصبع احدهما ملتصقة بجبهة الاخر .

فلما كبرا ، ولمع هاشم في الحجاز ، وتولى امر الكعبة ، حسد امية بن عبد شمس ، عمه هاشماً ، وجاهره بالعداوة ، ثم اراد ان يمد يده الى الامارة لينتزعها منه . ولكنه عجز عن ذلك ، فشمتت به قريش ، ثم اشتدت المنافرة والجفاء بين الاثنين حتى تحدثت العرب بامرهما ، وانتقلت العداوة من الآباء ، الى البنين والحفدة . ومعاوية ، اعظم رجال بني امية وابعدهم صوتاً ، وهو داهية السياسة الذي لا يجارى ، وصاحب الابتسامة الخلابة الدائمة ، والحلم « السياسي » الذي ضربت به الامثال . وقد تغلغل في صدره حب المجد ، وطمح ببصره الى مقعد الخلافة لا يبالي بالوسيلة التي يبلغ بها ولايته ، ولا يهتم إلا للمعالي ، يمشي اليها على جثث الابرياء ، ويغوص ، من اجلها في بحر من الدماء . فلما بويع علي ، عظم عليه الامر ، فجعل يوغر صدور اهل الشام ، ويدفعهم الى الطلب بدم عثمان ، زاعما ان علياً هو الذي امر رجال الفتنة بان يقتلوه . وعلق على المنبر في المسجد قميص ذلك الخليفة القتيل واصابع نائلة التي قطعت بالسيف ليزداد اهل الشام غيظاً وجداً في امرهم ، ويحفظوا لعلي في الصدور ذلك الحقد الغريب الذي لا تمحوه الحادثات . ثم خرج عن طاعة علي ، ورد رسوله ذلك الرد القبيح الذي رأت ، وهو واثق بان ذلك النزاع ، بينه وبين امير المؤمنين ، سينتهي امره الى ما يحب . وبدأ منذ تلك الساعة يبذل دهاءه وماله ويسترضي الامراء الذين آثروا الهدوء على الدخول في الفتنة حتى كثرت حوله الرجال يفدونه جميعهم بالمهج . ولم يبق الا ان يضع يده بيد عمرو بن العاص المقيم بفلسطين ثم يجرد الاثنان السيف في وجه الخليفة الهاشمي

* * *

- ٧٩ -

لم يتردد علي في امره ولم يكن بحاجة الى رجل باسل يدفعه الى ساحة القتال . كانت الشجاعة من صفات الخليفة الصالح كما عرفت وقد قام في ذهنه ان الخلافة

ستتزعزع اذا امسى القوم فوضى واذا هو قعـــد عن الدفاع . فلما خرج زياد بن حنظلة من مجلسه كما مر كتب الى عماله في البصرة والكوفة ومصر ان يندبوا الناس الى الشام، ثم دعا اليه عبدالله بن عباس ليجعله على الجنـاح الايمن من جيشه وجعل عمر بن ابي سلمة على الجناح الايسر وابا ليلى بن عمرو بن الجراح : ابن اخي ابي عبيدة بن الجراح، على المقدمة ودفع اللواء الى ولده محمد بن الحنفية واستخلف على المدينـــة قثم بن عباس . ولم يول احداً من اولئك الرجال الذين خرجوا على عثمان .

ثم دعا وجوه المدينة فقال : ان في سلطان الله عصمة امركم فاعطوه طاعتكم غير مستكره بها او لينقلن عنكم سلطان الاسلام ثم لا ينقله اليكم ابداً .. انهضوا الى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتـكم لعل الله يصلح بكم ما افسد أهل الاقاليم .

وبينما القوم على ما رأيت ، بلغ الخليفة ان طلحة والزبير وعائشة ، سخطوا عليه في مكة، ودعوا الناس الى الاصلاح. فقال: سأصبر ما لم اخف على الجماعة، واكف ان كفوا واقتصر على ما بلغني . ثم بلغه بعد ايام انهم يريدون البصرة ، فقال : ان فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . وتهيأ للخروج اليهم .

وكانت عائشة هي التي تحرض القوم ، وتنفخ في الصدور روح الثـــورة ، فكأنها لم تنس تلك الكلمة التي قالها علي للنبي .. خرجت من مكة وعثمان محصور وهي تريد المدينة ، فلقيها رجل من اخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن سلمة فقالت له : ماذا جرى ؟

قال : قتل عثمان

– ثم صنعوا ماذا ؟

– اجتمع القوم على بيعة علي بن ابي طالب .

فلمـــا سمعت ذلك قالت : ليت السماء انطبقت على الارض .. ردّوني .. ردّوني ..

ورجعت الى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً والله لاطلبنّ بدمه. فقال لها عبيد : وكيف ذلك وانت اول من حرّض الناس عليه وكنت

للاولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ...

قالت : سألوه ان يتوب ثم قتلوه .. وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الاول . فقال لها :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وانت امرت بقتل الامام وقلت لنـــا انه قد كفر
فهبنا اطعنــاك في قتـله وقاتـله عنـــدنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع النـــاس ذا عفة «يزيل الشبا ويقيم الصغر»
ويلبس للحرب اثوابهـــا وما من وفى مثل من غدر

فانصرفت وهي لا تبالي حتى انتهت الى مكة ، فقصدت الحجر فجلست عنده ثم اجتمع الناس حولها فقالت : ايها الناس ، ان الغوغاء من اهل الامصار وعبيد اهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالامس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنّه ، وقد استعمل امثالهم قبله ، فوعدهم بان يصنع لهم ما طلبوه ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً عمدوا الى العدوان فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام واخذوا المال الحرام . والله لأصبع من اصابع عثمان خير منهم ..

فقام عبدالله الحضرمي وكان عامل عثمان على مكة فقال : انا اول من يطلب بدمه .. وتبعه بنو امية الذين هربوا من المدينة ثم تبعهم بعد ذلك سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وجميع بني امية . وقدم عليهم بعد حين عبدالله بن عـــامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منبـه الاموي من اليمن ومعه ستماية بعـير وستماية الف درهم .

ثم قدم طلحة والزبير ، فلقيا عائشة فقالت : ما وراءكما ؟

قالا : هربنا من المدينة وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون انفسهم .

– وما الرأي ؟

– نذهب الى الشام .

فقال ابن عامر : قد كفاكم معاوية الشام فاذهبوا الىالبصرة فان لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى . واجمعوا على المسير ، فجهزهم يعلى بن منبه بستماية بعـــير وستمائة الف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها : ان ام المؤمنين وطلحة والزبير راحلون الى البصرة ، فمن اراد اعزاز الاسلام والطلب بدم عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت !

فخرجوا من مكة ، ولحقهم الناس فكانوا ثلاثة الاف رجل . وبعثت ام الفضل ، بنت الحرث ام عبدالله بن عباس رجلاً من جهينة يقال له ظفر، الىعلي يحمل اليه الخبر . فلما كان القوم قيد مرحلتين ، اذّن مروان بن الحكم ، ثم جاء حتى وقف عند طلحة والزبير فقال : على ايكما اسلم الخلافة ؟

فقال عبدالله بن الزبير : على أبي ..

وقال محمد بن طلحة : على ابي ..

وهذا معناه ان الطلب بدم عثمان كان صورة يحتجب وراءها اهل المطامع ، وان طلحة كان يريد الخلافه ، كما كان يريدها الزبير ، ولكن الامر لم يتم لهما .

وكان معاذ بن عبيد يقول بعد ذلك : والله لو ظفرنا لاقتتلنا.. ما كان الزبير ليرضى بطلحة وما كان طلحة ليرضى بالزبير ...

ثم خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فقال : لمن تجعلان الامر ان ظفرتما ؟

قالا : نجعله لأحدنا ، ايّنا اختاره الناس .

قال : بل تجعلونه لولد عثمان فانكم خرجتم تطلبون بدمه .

قالا : نترك شيوخ المهاجرين ونجعلها لايتام ؟

فقال : لا اراني اسعى الا لاخراجها من بني عبد مناف ..

ثم رجع ، ورجع بعض الامراء بينهم المغيرة بن شعبة وكان يقول : من كان ههنا من ثقيف فليرجع .. ومضى القوم حتى قاربوا البصرة ، فاقبل عمير بن عبدالله التميمي وقال : اذا اردت الدخول فراسلي احداً من وجوه المدينــة او فليدخل بن عامر فان له بها صنائع .

ففعلت ما اشار عليها به ، وكتبت الى رجال من اهل البصرة،والى الاحنف

ابن قيس ، وصبرة بن شيمان ، وهو من رجال الحرب، والى غيرهما من الامراء . واقامت بالحفير تنتظر الاجوبة . وكان عبدالله بن عامر ، رسولها الى الناس ، يدعوهم من وراء الستار ، الى نصرة الحق ... !!

فلما انتهى الخبر الى عثمان بن حنيف ، عامل علي ، دعا عمران بن حصين وأبا الاسود الدؤلي وقال لهما : انطلقا الى هذه المرأة واسألاها عن الغاية التي قدمت البصرة من اجلها .

فخرجا اليها وهي في الحفير فقالا : ان اميرنا بعثنا اليك لنسألك عن مسيرك. قالت . ما مثلي يكتم بنيه الخبر .. ان الغوغـــاء غزوا حرم رسول الله واحدثوا فيه فاستحقوا لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين، فخرجت اعلم الناس ما فعل هؤلاء وما ينبغي لهم من اصلاح الأمر .. هذاشأننا، معروف نأمركم به ، ومنكر ننهاكم عنه .

فانصرفا فأتيا طلحة ، قائلين : ما أقدمك ؟

قال : الطلب بدم عثمان .

قالا : ألم تبايع علياً ؟

قال : بلى ، والسيف على عنقي .

فأتيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة . فرجعا الى عثمان وابو الاسود يقول :

يا ابن حنيف قد أتيت فانفر   وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلئماً وشمّر

فقال عثمان : انا لله وانا اليه راجعون ، دارت رحى الاسلام ورب الكعبة .

فقال عمران : اي والله لتعركنكم عركاً طويلا .

قال : اشر عليّ .

قال لقد اعتزلت انا فاعتزل انت .

– بل امنعهم حتى يأتي امير المؤمنين .

فانصرف الرجل الى بيته وقام عثمان بالامر . ثم اتاه هشام بن عامر فقال : ان هذا الامر الذي تريد ، صدع لايجبر ، فارفق بالقوم حتى يأتي أمر علي .

فأبى ، ونادى بالناس وامرهم بلبس السلاح والاجتماع في المسجد لينظروا في أمر عائشة .

ثم دسّ الى الناس رجلاً كوفياً فقام فقال : ان هؤلاء القوم ، ان كانوا جاؤوا خائفين ، فقد أتوا من بلد تأمن فيه الطير ، وان كانوا قد جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان فاطيعوني وردوهم .

فقال ابن سريح السعدي : وهل زعموا انّا قتلة عثمان ؟ انهم انما اتوا يستعينون بنا على الذين قتلوه منا ومن غيرنا . فعرف ابن حنيف عندئذ ان لعائشة بالبصرة انصاراً ، فتجلد ، وجعل يتهيأ للدفاع

* * *

- ٨٠ -

خرج علي مع انصاره من المدينة ، وهو يتعجل في زحفه ليدرك جيش عائشة في الطريق ، قبل ان ينتهي الى البصرة . فلقيه عبدالله بن سلام فقال : يا امير المؤمنين ، لاتخرج من المدينة فوالله ان خرجت منها لايعود اليها سلطان المسلمين ابداً .

فسبّه القوم ، فقال علي : دعوه فهو من اصحاب رسول الله .

وسار حتى بلغ الربذة ، فقيل له ان القوم سبقوه فبعث بمحمد بن ابي بكر الصديق ومحمد بن جعفر ، الى الكوفة وكتب الى اهلها : اني اخترتكم على الامصار وفزعت اليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله اعواناً وانصاراً وانهضوا الينا فنحن نريد الاصلاح لتعود هذه الامة اخواناً . وارسل الى المدينة فأتاه ما يريده من دابة وسلاح ، فخرج من الربذة ، وعلى الجيش من ذكرنا من القواد ، وهو على ناقة حمراء يقود فرساً له . فلما كان بموضع يقال له فيد ، مثل بين يديه رجل يدعى عامراً الشيباني ، فقال له علي : خبرني بما تعلم من امر الكوفة .

فجعل الرجل يصف له القوم ، فقال : اسألك عن ابي موسى الاشعري .

قال : ان اردت الصلح يا امير المؤمنين فأبو موسى صاحبه ، وان اردت القتال فليس بصاحبه .

فقال : والله ما اردت الا الصلح .

وانتقل من فيد الى « الثعلبية » فلقيه رجل قادم من البصرة ، فدعاه اليه فقال : متى تركت البصرة ؟

– منذ بضعة ايام يا امير المؤمنين .

– ومن تركت فيها ؟

– جيش عائشة ام المؤمنين ، عليه طلحة والزبير وغيرهما .

– وهل دخل المدينة ؟

– نعم : دخلها من المربد ، ووقف في اعلاه ، حتى خرج عثمان بن حنيف فيمن معه من الرجال .

– وبعد ذلك ؟

تكلمت عائشة واصحابها فدعوا الناس الى أخذ قتلة عثمان واقامة كتاب الله ...

– وماذا فعل البصريون عندئذ ؟

– افترقوا فرقتين ، احداهما مع عائشة والاخرى مع عثمان وقد سمعت جارية ابن قدامة السعدي يقول لعائشة : والله لقتل عثمان اهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، انه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وابحت حرمتك فارجعي الى المنزل الذي خرجت منه .

فجعل علي يقول : صدق والله الرجل ، لقد كان لأم المؤمنين ستر فهتك .. ثم قال : واقتتل الناس ؟

– اجل يا امير المؤمنين وقد قتل من البصريين خلق كثير ، وتم الامر في البصرة لطلحة والزبير ..

فأطرق الامام وهو يعبث بلحيته ، ثم رفع رأسه ونور الايمان والثقة بالله يتلألأ في عينيه وجعل يقول :

لا يريد الله ان يتم لطلحة والزبير امر .. اذكر لي اسماء القواد والانصار الذين قتلوا .

قال : اذكر لك سيد الابطال حكيم بن جبلة العبدي قائد الفرسان ، وابنه

الاشرف واخاه الرعل بن جبلة .

– وقتل ابن حنيف .

– لا ولكنهم قبضوا عليه وارسلوا الى عائشة ، يستشيرونها في امره فقالت لهم : اقتلوه ، فقامت امرأة في القوم فقالت نشدتك الله في عثمان وصحبته لرسول الله ، فقالت عائشة عندئذ : احبسوه ، ولكن مجاشع بن مسعود لم يكتف بذلك بل امر القوم بان يضربوه وينتفوا لحيته وحاجبيه واشفار عينيه فضربوه يا مولاي اربعين سوطاً وفعلوا ما امرهم به ثم اطلقوه .

– واين هو الآن ؟

– لا اعلم يا مولاي فانا لم اره بعد ذلك وقد قيل لي ان طلحة والزبير قتلا جميع الرجال الذين اشتركوا في قتل الخليفة عثمان .

فتمتم قائلاً : اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير .

وسار من ساعته يريد مكانا يقال له الآساد ، ثم انتقل منه الى ذي قار ، وفي ذي قار اتاه عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة فقـــال : يا امير المؤمنين ، بعثتني ذا لحية فجئت اليك وانا امرد .

قال : أصبت اجراً وخيراً ، ان الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ولم يلبثا حتى نكثا بيعتي وألـبا عليّ ... اللهم احلل ما عقدا ولا تبرم ما أحكما .

واقام بذي قار ينتظر رسوليه الى الكوفة ، وهما محمد بن ابي بكر ، ومحمد ابن جعفر . ولم يقم طويلاً حتى اقبلا ، فقال : ماذا فعلتما ؟

فقال ابن جعفر : ان ابا موسى لا يريد الخروج .

قال : أعد عليّ قوله .

قال : كان يقول : كان الرأي بالأمس ليس اليوم ، وانما هما امران ، القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيـــا ووالله ان بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما ، فان لم يكن بد من قتال ؛ لا نقاتل احداً ، حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

فقال علي للأشتر : انت صاحبنا في ابي موسى فاذهب انت وابن عبـــاس

واصلح ما افسدت . فسار الرجلان الى الكوفة ، واستعانا على ابي موسى بنفر من اهلها ولكنه آثر الحياد على الدخول في الامر . فرجعا ولم يخرج معها احد من الناس . فنظر امير المؤمنين الى ولده الحسن قائلاً له: نبعث بك انت الى الكوفة مع عمار بن ياسر وانا لنريد ان ترجع وراءك جيش من أهلهـــا ... قم فارحل الساعة .

فانطلقا ، وعتب الحسن ابا موسى قائلاً : كيف تمنع الناس ونحن لم نرد الا الاصلاح ؟ فقال : ان المستشار مؤتمن وقد سمعت رسول الله يقول : انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والمـــاشي خير من الراكب وقد جعلنا الله اخوانا وحرم علينا دماءنا واموالنا. فغضب عمار وسبّه، وثار بعض الرجال ، هذا يقول : اطيعوا امير الموءمنين، وهذا يقول : انها فتنة فاغمدوا سيوفكم والزموا بيوتكم . حتى قام القعقاع بن عمرو ، فارس الميادين ، يدعو الناس الى الخروج والطاعة ، وتبعه فريق من اصحاب النفوذ والجاه ، يقولون مثل قوله ، بينهم عدي بن حاتم طيء ، وهند بن عمرو ، وحجر بن عدي ، وغير هوءلاء .

فاقبلت الجماعات عندئذ تتهيأ للرحيل حتى بلغ عددها اثني عشر الفاً من الرجال عليهم مشاهير القواد . ومشوا يريدون علياً في ذي قار .

فلما انتهوا اليه، رحب بهم وقال : يا اهل الكوفة ، انتم قتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صار اليكم مواريثهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من اهل البصرة ، فان يرجعوا ، فذاك الذي نريد ، وان يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بالظلم ، وانـّا لا نترك امراً فيه الصلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله

ثم دعا القعقاع فارسله الى البصرة وقال : القَ طلحة والزبير وادعها الى الالفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة . فاتى القعقاع البصرة وبدأ بعائشة فقال : اي أم الموءمنين ، اي شيء حملك الى هذه الناحية ؟

قالت : الاصلاح بين الناس .

قال : ابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما .

فبعثت اليهما فجاآ فقال لهما: اني سألت ام الموءمنين عن سبب مجيئها فقالت الاصلاح فما تقولان انتما ، أمتابعان ام مخالفان ؟

قالا : متابعان .

قال : خبراني ما وجه هذا الاصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، وان انكرناه لا يصلح .

قالا : قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن .

قال : قتلتما قتلة عثمان من اهل البصرة ، وانتم قبل قتلهم اقرب الى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة الاف واعتزلوكم وخرجوا من بينكم .

فقالت عائشة : فماذا تقول أنت؟

ـ اقول ان هذا الامر دواؤه التسكين ، فان انتم بايعتمونا كانت علامة خير وتباشير رحمة، وان ابيتم كانت علامة شر وذهاب هذا المال فآثروا العافية وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له.. وايم الله اني لأقول هذا القول وانا خائف ان لا يتم هذا حتى يأخذ الله حاجته من هذه الامة .

قالوا : اصبت واحسنت فارجع ، فان قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الامر وانتهينا منه .

فرجع القعقاع فخبر علياً، فأعجبه ذلك واشرف القوم على الصلح، واقبلت وفود العرب من اهل البصرة الى علي ، يسألون اخوانهم اهل الكوفة الرأي ويعلمونهم ان القتال لا يخطر لهم وان غايتهم الاصلاح .

ثم دخلوا على امير الموءمنين فخبروه بخبرهم وجعل هو يسألهم عن طلحة والزبير فقال احدهم وهو يدعى جرير بن شرس : اما الزبير فيقول انه بايعنا كرهاً ، واما طلحة فينشد الاشعار ويقول :

لا أبلغ بني بكر رسولا ... فليس الى بني كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم ... طويل الساعدين له فضول

فخطب فيهم ثم قال :

اني راحل غداً فارتحلوا ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء ... وجعل

الناس يتحدثون بامر الصلح . وهنالك جماعة لا تريده وانما تريد الحرب . وقد اجتمع رجالها ، بعد خروج وفد البصرة ، وجعل كل منهم يبدي رأياً حتى قام ابن السوداء فقال :

يا قوم ، ان عزكم في تلاحم الصفوف ، فاذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تجعلو مجالاً للنظر. وتفرقوا على هذا الرأي وعلي ومن حوله لا يشعرون به .
فلما كان اليوم الثاني ، مضى امير المومنين ، وسار الناس وراءه ، حتى نزل على عبد القيس ، وهم بين البصرة وذي قار فانضموا اليه جميعهم ومشى من هناك يريد البصرة . وكانت عائشة ، وصاحباها قد خرجوا على رأس الرجال الى مكان يجاور قصر عبدالله بن زياد ، وقد انتهى امير المومنين اليه . وكان ذلك في شهر جمادى الاخرة من السنة السادسة والثلاثين .

* * *

- ٨١ -

عندما انتهى كتاب عائشة الى الاحنف بن قيس ، تدعوه فيه الى الحرب تحت لوائها والطلب بدم عثمان ، دفعه الى طارق ابن اخيه فجعل يقرأ ، وشفتا الاحنف تضطربان وجسمه يهتز ، وقد شعر بان الامر الذي ورد في ذلك الكتاب ، افظع أمر عرض له في حياته .
وكان عندئذ في منزل عبدالله ، وليس في ذلك المنزل غير أهله ، واليتيمة منهم ، وقد امست جلداً على عظم . وكان طارق ، منذ استيقظت الفتنة ، حتى قتل عثمان وبويع علي ، يهم بان يسأل عمه عن ذلك الفريق من رجال الصحابة ، امرى اي رجل يختار . ولكنه كان يميل الى علي وهو لا يعرفه ، ويؤثره على جميع الرجال الذين ذكرت اسماؤهم له .

وقد عز عليه ان يرد معاوية رسول أمير المؤمنين ويستخف بأمره ، وكان يقول في نفسه : لو كنت علياً لجعلت ابن ابي سفيان عبرة لكل مسلم . فلما اطرق الاحنف في تلك الساعة وتجهم جبينه عرف الفتى ان عمه يتردد في الامر

ولا يريد ان يغضب عليـــاً او يغضب زوجة النبي . وصبر لحظة ثم قال : ماذا رأيت يا مولاي ؟

فرفع رأسه قائلاً: رأيت خطراً لم أر مثله من قبـــل ولم يخطر لي ان عائشة ومعها الزبير وطلحة ، سيخرجون من الحجـــاز على رأس جيش ويطلبون بدم عثمان !

– ولكنهم فعلوا الآن وانتهى الامر .

– أجل فعلوا ذلك وهم يعلمون ان علياً احق الناس بالخلافة ، واقربهم الى رسول الله ، واسبقهم الى الاسلام .

– تقول هذا يا عم وتتردد في أمرك ؟

– نعم ، فأني ان خذلت ام المؤمنين ومن معهـــا كان ذلك شديداً ، واذا قاتلت ابن عم رسول الله كان ذلك اشد .

فاراد ان يقرأ اسرار عمه : فقال: ولكن القوم ينتصرون لدين الله ، ويريدون ان يثأروا بذلك القتيل المظلوم الذي لفـــظ روحه والمصحف في يده ، وانك لتجد معاوية من اتباعهم وقد هزأ برسول علي فجعل يهز رأسه ويقول: اعرف يا بني اشياء لا تعرفها انت وليس من الرأي ان تعلم اليوم ما نعلمه نحن من امور المسلمين .

– لماذا ؟

– لاني اخشى ان يستهويك أمر علي أو امر عائشة وهذا ما لا اريده .

قال : أعدك بأني افعل ما تشير عليَّ به .

قال : خير لي ان اكتمك ما في نفسي ، وتسلم من ان ابوح لك بكل ما اعلم وتخسر حياتك .

قال : لست من رجال الحرب يا مولاي ؟

– بلى ، ولكن كنا نحارب الاجنبي ونحاول ان نستولي على بلاده .

فقال عبدالله : اما انا فلي رأي آخر هو ان اطلع طارقاً على كل شيء فقـــد يكون له في ذلك هوى ، اسأل يا بني ..

قال : اسألك عن طلحة والزبير أهما على باطل ام على حق ؟

-- انهما على باطل ، وهما يحاربان من اجل غاية واحدة يخفيها الواحد منهما عن الآخر وأكاد ألمسها بيدي الاثنتين .

– وما هي هذه الغاية ؟

– الخلافة !

– يطمعان فيها ؟

– اجل يا بني ، ولو استطـــاعا ان يجلسا على العرش فوق جثث النـــاس لفعلا ...

– والطلب بدم عثمان ؟؟

– ان هذا الطلب مظهر كاذب لا يفكران فيه ، الا لأنه وسيلة يكثر معها انصارهما من بني أمية واتباعهم ، وشرك يسقط فيه اولئك المترددون في الطاعة والذين لم يبايعوا أمير المؤمنين، ثم قال: لقد كان الاثنان يستطيعان ان يدافعا عن عثمان وهو حي ، ويمنعا رجال الفتنة ، وهم من رجالها ، من ان يقتلوه .

– ولكن لم يخطر لهما ان الامر سينتهي بقتله .

– بل خطر لهما كل شيء ، وكان كل منهما يظن ان الخلافة ستنقـــاد اليه صاغرة ولكن المسلمين رأوا علياً فآثروه عليهما ، فتظاهرا عندئذ بانهما ينتصران للدم البريء ، وهما انما ينتصران للمطامع المتغلغلة في الصدرين .

– وعائشة .

– اما عائشة فقد حقدت على علي لكلمة قالها للرسول بعد غزوة المصطلق وهي تستغل اليوم موقف المسلمين ، ولو كنت الآن قريباً منها لسألتهـــا ان لا تنسى قول النبي لعلي : « لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر . »

قال : ارى انك تؤثر علياً على سواه يا مولاي .

– نعم ، وستفعل كما افعل عندما تعلم ان هذا الخليفة الذي يحاربونه ليس في الدنيا كلها ازهد منه، فهو الخليفة الذي باع سيفه في السوق ليشتري بثمنه إزاراً له ، وقد قضى حياته ، في عز الاسلام ومجده ، ولم يلبث ثوباً جديداً ، ولم يتخذ له ضيعة وهو القادر على اقتناء الاموال والقصور والعبيد، كما فعل عثمان وكما يفعل معاوية اليوم. أضف الى ذلك انه اوسع النـــاس اطلاعاً وعلماً واثبتهم جنـــاناً

واعفهم نفسا .

قال : لقد احسست الآن ان حب علي يتمشى مع دمي .

– وهذا ما اريده؛ فعلي سيد الناس، واني لواثق بان النصر سيتم له على رغم طلحة والزبير اللذين حسداه .

فقال لعمة : ماذا تقول الآن يا مولاي ؟

– اقول ان ما حدثك به ابوك صحيح لا شك فيه .

– وما هو رأيك في الامر ؟

– أرى ان نرحل الى البصرة ونقيم بها ريثما تضمحل هذه الغمامة السوداء ويقوم السلام مقام السيف .

قال : سمعت الآن ان أمير المومنين احق الناس بالخلافة .

– اجل !

– اذن فأي شيء يمنع الاحنف بن قيس ورجـــال عشيرته ، ان ينضموا الى صفوفه في ساحة الحرب ؟

– يمنعهم من ذلك ان زوجة النبي على رأس اعدائه .

– ولكنهـــا ليست على حق ، وعلي امام المسلمين فعلى كل مسلم يهتم لأمر الاسلام ، ان ينتصر له .

– سننتصر له بعد حين يا بني .

– وكيف ذلك ؟

– ان عائشة ستعتزل الحرب عندما ترى ان رجالها لا يستطيعون ان يثبتوا في وجه الامام .

– وماذا يحدث بعد ذلك ؟

– يقوم معاوية من الناحية الاخرى فيشهر على الخليفة السيف ، وتكون عائشة داخل بيتها لا تخرج منه .

– وعندئذ ؟

– يحمل الاحنف عندئذ سيفه ، ويخرج الى قتال امير الشام الذي استخف بسيده ، وطمح ببصره الى العرش .

قال : لنفترض يا مولاي ان السيوف ستتلاحم في البصرة وانت فيها فماذا تصنع ؟

– ارى طلحة والزبير فأقول لهما: لا اقاتلكم ومعكم ام الموءمنين، ولا اقاتل ابن عم الرسول وقد بايعته .

– وتمكث ببيتك معتزلاً لا لك ولا عليك ؟

– اعتزل حتى ارى ان الخروج الى الحرب امر لا بد منه .

– ومتى ترحل الى البصرة ؟

– غداً فلم يبق لنا ما نصنعه في مرو الروذ ، ومن العار ان نقيم بها ورجال الاسلام في حرب .

فبرقت عينا اليتيمة وتمتمت قائلة : قد اتت الساعة التي ازور فيها قبر امي الملكة ...

فقال الاحنف : بل تمكثين بالبصرة فانت لاتستطيعين الرحيل .

– : ان من يستطيع الذهاب الى البصرة ، يستطيع ان ينتقل منها الى حلوان ، وانا اشعر ان العافية تعود الي ..

فقال في نفسه : اما انا فلا ارى لهذه العافية من أثر ، ثم قال : موعد هذه الزيارة الشهر القادم .

قالت : صبرت حتى مللت وضاق الصدر ...

– : ومع ذلك فانت قادرة على الانتظار شهراً آخر .

قالت : ارى الامير يعللني بالوعود ثم ينسى ما وعد .

قال : ليس لي ان احول بين الاميرة وبين ماترغب فيه ... ولكني اخشى ان يزداد هذا الضعف فتسوء العاقبة .

قالت : يخيَّل اليَّ ان الضعف سيزول عندما اجثو على التراب الذي ترقد امي المسكينة في جوفه ..

– . اكتفي الآن بزيارة قبر الملك ، على ان تزوري القبر الآخر عندما يصفو الجو وتتفرق الجيوش ..

قالت : ليس لي شأن مع الجيوش التي ذكرت .. إني فتاة شقية صرع الموت

امها يوم خرجت الى العالم ، وقتل ابوها قبل ان تعرفه وقبل ان تراه .. وهـذا يكفي ..

قال : لقد قضي الامر الآن .

— . نعم قضي الامر ولم يبق الا ان ارى عظامها البالية واسقي بدموع اللوعة والاسى تراب القبرين .

والتفتت الى طارق قائلة : رحمة قبل ان اموت . فتفجرت دموع الفتى ثم قال : استأذن مولاي في الذهاب غداً قبل الخروج الى البصرة .

— . الى اين يابني ؟

— . الى بابان فترى اليتيمة قبر ابيها الملك ، ثم نأتي البصرة ونرحل منها الى الاقاليم .

— . وما هي الغاية من ذلك ؟

— . الغاية منه ان نذهب جميعنا الى حلوان فأسأل علياً عندئـذ ان يجعلني عاملاً له عليها .

فعرفت الفتاة ان الاحنف يعللها بالمنى ، فقالت : ومن قال لك ان امـــير المؤمنين يرضى بذلك ؟

— . ألحُّ في الطلب فيرضى .

— .واذا أغمض الموت عينيَّ قبل ان تفعل ؟

فنظر الى اخيه كأنه يسأله رأيه ، فقال عبدالله : لي كلمة اقولهـــا لك في الرواق . فنهض الاثنان حتى انتهيا الى الخارج ، وكان عبدالله يقول : يجب ان يوضع حدٌّ لما نرى .

قال : ماذا ؟

— . نزوج طارقاً ثم يذهب مع زوجته الى بابان وحلوان وينتهي الامر .

— . وكيف تزوجه فتاة سيضع الموت يده عليها بعد حين ؟

— . خير له ان تموت بعد الزواج من ان تموت قبله ، ومع ذلك فالموت بيـد الله وقد تعيش مئة عام .

قال : ليس لنا ان ننظر في هذا الآن .. اني اخشى ان انغص على الفتى عيشه بعد زواجه .

– . وانا اخشى ان انغص عليه هذا العيش بعد ايام فمن الرأي ان نزفها اليه ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

فقال : ادعُ طارقاً .

فلما اقبل قال له الاحنف ، ألم تقل لي من قبل انك لا تتزوج اليتيمة الا بعد ان يشفيها الله ؟

– . بلى !

– . ولكن اباك يريد ان يتم الزواج اليوم .

فتنهد ثم قال : اخاف ان تمتد ايام هذا الضعف فأملّ الانتظار .. اني من رأي ابي فليكن الزواج اليوم .

فكره ان يذكر الموت امامه فقال : ولا تخاف ان يعود المرض فتزداد ضعفاً ؟

فرفع عينيه الى السماء قائلاً : لقد سلمت امري الى الله القادر على كل شيء .

– . وتريد اليتيمة ما تريده انت ؟

نعم يامولاي !

فأطرق الاحنف ملياً ثم قال : اذن يتم الزواج في هذا الليل وتذهب مع زوجتك عندما تشاء ، الى حيث تشاء ، على ان تعودا الى البصرة فتسألا عنا عاملها عثمان بن حنيف .

ودخل الجميع عندئذ وقال عبدالله : ستمسين في هذه الليلة زوجة لطارق ثم لسيرين بعد ذلك الى بابان وحلوان .

فحنت اليتيمة رأسها ولم تقل كلمة . ولكنها كانت تذرف الدموع .

* * *

– ٨٢ –

اصبح امير المؤمنين على ظهر فرسه ، ومضى معه الناس حتى نزل على بني عبدالقيس فانضموا اليه . ثم سار من هناك فنزل مكانا يقال له الزاوية وانتقل منه بعد ايام يريد البصرة . وكان طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا الى ضواحي

المدينة . فلما نزل الجيشان تركت طائفة من بني بكر بن وائل وعبد القيس ، حيث عائشة ولجأت الى علي . فقال الناس : من كان هؤلاء معه لايغلب !

وكان رجل يدعى ابا الجرباء يقول للزبير : ان الرأي ان تبعث الف فارس الى علي قبل ان يصل جيشه كله ، فقال له : ارجو ان يتم لنا الصلح فـابشروا واصبروا .

وطلب الاعور بن بنان المنقري الى علي ان يهاجم القوم ، فقال : لا فلعل الله يجمع شمل هذه الامة ..

قال : فان لم يجيبونا ؟

قال : تركناهم ما تركونا .

– . وان لم يتركونا ؟

– . دفعناهم عن انفسنا .

ثم خطب قائلاً : ايها الناس امسكوا عن هؤلاء القوم ايديكم وألسنتكم .

وبعث الى عائشة حكيم بن سلامة ، ومالك بن حبيب يقولان لها ولصاحبيها : ان كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفّوا حتى ننزل وننظر في هذا الامر .

فقالوا : نحن على العهد .

ومرت بضعة ايام لاقتال فيها ، ثم جاء الأحنف بن قيس فمثل بين يدي عائشة وعندها الزبير وطلحة فقال : لأي امر جئتم ؟

قالوا : نطلب بدم عثمان .

فقال يا ام المؤمنين ويازبير وياطلحة نشدتكم الله، أقلت لكم من تأمروني ابايع، فقلتم بايع علياً ام لا؟

قالوا : نعم ولكنه بدّل وغيّر .

قال : لا اقاتلكم ومعكم ام المؤمنين ولا اقاتل علياً وهو ابن عم رسول الله وقد امرتموني ببيعته ولكني اعتزل .

قالوا : اعتزل .

وكان نازلا مع قومه ، في موضع يبعد عن البصرة فرسخين .

فخرج من مجلسهم واتى علياً فقال : ان قومنا بالبصرة يزعمــون انك اذا ظفرت بهم غداً قتلت رجالهم وسبيت نساءهم فهل صدقوا في هذا ؟

فهز رأسه قائلاً : هذا لا يحل الا لمن تولى وكفر ، وهم قوم مسلمون .

قال : اخبرني يا امير المؤمنين واحدة من اثنين ، اما ان اقاتل معك واما ان اكف عنك عشرة آلاف سيف .

— : ولكنك عاهدت القوم على الاعتزال .

قال : ان من الوفاء لله قتالهم ..

قال : اذن فاكفف عنا السيوف التي ذكرت .

فرجع الاحنف الى الناس فدعاهم الى القعود ونادى :

يا آل خندف ..

فاجابه ناس منهم .

ثم نادى : يا آل تميم !

فاجابه ناس ، ثم نادى : يا آل سعد . فلم يبق سعدي الا اجابه . فاعتزل بهم واقام ينظر الى ما يفعله الناس . وتراءى الجيشان ، فخرج الزبير وطلحــة على فرسيهما وعليهما السلاح ، فقيل لعلي : هذا طلحة وهذا الزبير .

فركب فرسه حتى داناهما فقال : لعمري قد اعددتما سلاحاً وخيلاً فهــل اعددتما عند الله عذراً ؟؟ اتقيا الله ، ألم اكن اخاكما في الدين تحرمان دمي واحرم دمكما فاي شيء أحل لكما دمي الآن ؟

فاجابه طلحة قائلاً : أوغرت الصدور على عثمان ..

فقال : أتطلب انت يا طلحة بدم عثمان ، ؟ لعن الله الذين قتلوه .. أجئت بزوجة رسول الله تقاتل بها وخبأت زوجتك في البيت ؟ أما بايعتني ؟

— : بايعتك والسيف على عنقي !

فقال للزبير : ما أخرجك ؟

قال : انت ، ولا أراك لهذا الامر اهلا ولا أولى به منا .

قال ألســت له اهلا بعد عثمان ؟ لقد كنا نعدك من بني عبدالمطلب حتى كبر ابنك عبدالله ابن السوء ففرق بيننا .

ثم قال : لا تذكر يوم مررت مع رسول الله ببني غنم فنظر اليّ وضحك وضحكت فقلت له : لايدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك : ليس بمزه وانـك ستقاتله وانت ظالم له . ؟

فتردد في الجواب ثم قال : نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لااقاتلك ابداً .

فانصرف علي الى اصحابه فقال لهم : اما الزبير فقد اعطى الله عهداً ان لا يقاتلكم .

ورجع الزبير الى عائشة فقال : ما كنت في موقف منذ عقلت ، الا وانا اعرف فيه امري ، غير موقفي هذا .

قالت : فما تريد ان تصنع ؟

- : اريد ان ادعهم واذهب .

فقال له ابنه عبدالله : جمعت بين هذين الجيشين ، حتى اذا تلاقيا اردت ان تترك قومك وتذهب؟! ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلمت انها تحملها فتية انجاد وان تحتها الموت الاحمر فجبنت وآثرت الذهاب على البقاء .

قال : حلفت ان لا اقاتله .

قال : كفر عن يمينك وقاتل .

فأعتق الزبير غلاماً له ولم يذهب . ونزلت عائشة في احد المساجد ، بالقرب من الجيشين ، والناس لايذكرون الا الصلح ووضع الحرب . وسارت رسـل طلحة والزبير الى علي ، ورسل علي اليهما يتحدثون بأمر الصلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها ، للسلام الذي اشرفوا عليه . اما الذين اثاروا امر عثمان ، فباتوا بشر ليلة وكانوا يتشاورون حتى اجمعوا على الحرب دون ان يشعر بهم احد . وقبل ان يبزغ الفجر ، خرجوا فرضعوا السلاح في اهل البصرة ، فثار القوم ، فقال طلحة والزبير : ما هذا ؟

فقالوا لهما : طرقنا اهل الكوفة ليلا .

فقالا : قد علمنا ان علياً غير منته حتى يسفك الدماء ...

وسمع علي اصوات المحاربين ، فقال : ماذا جرى ؟

فأجابه رجل من رجال عبدالله بن سبأ قائلا : ما شعرنا الا والقوم قد فاجأونا بالسيف

فقال : قد علمت ان طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ...

وارسل الى الجيش ان يتهيأ للقتال . وكان كعب بن سور من رجال عائشة ، فاقبل حتى لقيها في المسجد ، فقال :

ادركي فقد أبى القوم الا القتال لعل الله ان يصلح بك . فركبت جملا يقال له عسكر ، وقد ألبسوا هودجها الدروع . فلما برزت بين البيوت وقفت . فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى كان العصر .

وبينا عائشة واقفة ، سمعت ضجة شديدة فقالت : ما هذه الاصوات ؟

قالوا : ضجة الجيش .

— . بخير او بشر ؟

— . بشرّ .. فالجيش يفرُّ الآن وقد خرج الزبير منه .

فتجلدت قائلة : وطلحة ؟

— : اصيبت رجله بسهم وكان ينادي : اليّ اليّ عباد الله ، الصبر الصبر .

— : ووقع عن فرسه ؟

— : نعم وسمعت القعقاع بن عمرو يقول له : يا ابا محمد انك لجريح وانك عما تريد لعليل فادخل البيوت ، فدخل ودمه يسيل وهو يقول : اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى ، وكان خفه قد امتلّا دماً فقال لغلامه :

ابلغني مكاناً أنزل فيه ، فانزله في دار خربة وهو فيها الآن .

واطافت الخيل بجمل عائشة ، فلما رأى ذلك قومها ، وكانوا قد هموا بالفرار ، رجعوا ، ودارت رحى الحرب من جديد .

فقالت عندئذ لكعب بن سور قاضي البصرة : خلِ عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعُ الناس اليه .

وناولته مصحفاً ، فحمله واستقبل القوم وعائشة تقول : الله الله اذكروا الله والحساب . ولكنهم لم يسمعوا لها ، بل ارسلوا سهامهم الى كعب فقتلوه ، وجعلوا يرمون الجمل والهودج وهي تنادي فيأبون الا الاقدام .

فصاحت قائلة : ايها الناس العنوا قتلة عثمان واشياعهم .. واقبلت تدعو ، فضج الناس بالدعاء ، فسمع علي فقال : مـــاذا جرى ؟ قالوا : عائشة تلعن قتلة عثمان .

قال : اللهم العن قتلة عثمان .

وتلاحمت الصفوف عندئذ وكثر القتل ، وكانت الحرب سجالا بين الجيشين، يلمع النصر لحظة فوق اهل الكوفة ، ثم تتلألأ انواره فوق اهل البصرة . حتى كثرت السيوف حول علي . وكان ابنه محمد ابن الحنفية يحمل الراية ، فدفعه من الوراء قائلا : احمل يا محمد !

فتقدم الفتى خطوتين فعرضت له الاسنة ..

فاخذ علي الراية من يده وقال : يابني ، بين يدي ... ومشى الى الامام . وحملت ربيعة ومضر والازد واهل اليمن ، وارتفعت اصوات الاستغاثة وسقطت الاجسام تحت حوافر الخيل ، فرأى علي ما لم يره من قبل ، في ميادين الحرب .

وقام في ذهنه ان القوم لا يتراجعون إلا اذا صرع الجمل ، فقال : من يحمل على الجمل ؟ فوثبت طائفة من الفرسان وانطرحت الجثث حول ذلك الجمل الذي دعيت الواقعة باسمه ، هذا يأخذ بزمام الجمل فيقتل فيتناوله آخر فيقتل حتى قتل سبعون رجلا من قريش ، بينهم محمد بن طلحة .. وعلي ينادي : اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا . فضربه رجل فسقط فتفرق الناس .

واقبل القعقاع وزفر بن الحرث الكلابي فحملا الهودج ، وهو كالقنفذ لما فيه من السهام ، ولجأ اصحاب عائشة الى الهرب .

فأمر علي منادياً فنادى : ايها الناس ، لاتتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا منزلا ، وامر بان يحملوا هودج عائشة من بين القتلى .

ثم قال لاخيها محمد بن ابي بكر ، وهو من رجاله : اضرب على اختك قبة وانظر في امرها .

فأدخل محمد رأسه في الهودج ، فقالت : من انت ؟

قال : أبغض اهلك اليك ...

قالت : ابن الخثعمية ؟

— . نعم !

قالت : الحمد لله الذي عافاك ..

وقال لها عمار بن ياسر : كيف رأيتِ ضرب بنيك اليوم يا اماه ؟

قالت لست لك بأم .

قال : بلى وان كرهت .

فقالت وصوتها يرتجف : فخرتم ان ظفرتم ، واتيتم مثل الذي نقمتم ، والله لن يظفر من كان هذا دأبه .

ثم جاء علي فقال : كيف انت ؟

قالت : بخير .

قال : يغفر الله لك .

قالت : ولك .

واقبل الليل ، فأدخلها اخوها محمد البصرة ، وانزلها في دار عبدالله بن خلف الخزاعي ، على صفية بنت الحرث . وكان طلحة قد مات ، وقد مر به ، قبل موته رجل من اصحاب علي ، فقال له طلحة : انت من اصحاب أمير المؤمنين ؟

قال : نعم .

قال : امدد يدك ابايعك له ، فاني اخاف ان اموت وليس في عنقي بيعة .. اني لم ارَ شيخاً اضيع دماً مني .

اما الزبير ، فمر بعد خروجه من الساحة ، بجيش الاحنف بن قيس ، فخبر القوم الاحنف بذلك فقال : من يأتيني بخبره ؟

فأجابه رجل يقال له عمرو بن جرموز قائلاً : انا !

ولحق به فنظر اليه الزبير ثم قال : ما وراءك ؟

قال : اريد ان اسألك عن خبرك .

فقال غلام للزبير : هذا من معدّ .

قال : لا اخافه .

وحضرت الصلاة ، فقال ابن جرموز : الصلاة !

فقال زبير : الصلاة .

فلما نزلا وقف ابن جرموز وراءه ، ثم طعنه طعنة لفظ معها الروح ، واخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلّى عن الغلام . فدفنه ذلك الغلام بوادي السباع .

ورجع القاتل ينقل الخبر الى الاحنف ، فقال له : والله لا ادري أحسنت ام اسأت .

فأتى ابن جرموز علياً وقال لحاجبه : استأذن لقاتل الزبير بن العوام. فقال علي : ائذن له وبشره بالنار .

ودفع سيف القتيل الى علي ، فنظر اليه ثم قال : طالما جلّى به الكرب عن وجه رسول الله .. خذوه الى عائشة .

واقام أمير المؤمنين بظاهر البصرة ثلاثة ايام، واذن للنـــاس في دفن القتلى وجعل يطوف بينهم ، وهو يسأل لهم الرحمة حتى مر بتلك الدار الخربة التي مات فيها طلحة .

فلما رآه وهو صريع قال : لهفي عليك يا ابا محمد ، انا لله وانا اليه راجعون ، والله لقد كنت اكره ان ارى قريشاً صرعى انت والله كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعـــده الفقر

وصلى عليهم جميعاً وكانوا عشرة الاف من الفئتين .

وبعد بضعة ايام ، جهز عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب ومتاع وزاد ، وبعث معها كل من نجا ، ممن خرج معها من الحجاز ، الا من احب البقاء . وكان القوم في البصرة قد بايعوه . فاختـــار لعائشة اربعين امرأة من النساء المعروفات وامر اخاها محمداً بان يرتحل معها الى الحجاز .

فلما كان اليوم الذي خرجت فيه ، اقبل علي ، وحضر النـــاس، فخرجت فودعتهم قائلة : يا بني ، لا يعتب بعضنا على البعض الآخر . انه والله لم يكن بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وبين انسباء زوجها .

فقال علي : صدقت والله ما كان بيني وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة

وخرجت يوم السبت غرة رجب ، وقد شيعها علي بضعة فراسخ وامر بنيه بأن يرافقوها يوماً كاملاً . وكانت وجهتها مكة ، فأقامت بها حتى كان الحج ، ثم رجعت الى المدينة .

* * *

- ٨٣ -

زفت اليتيمة الى طارق في ذلك الليـــل ، وقد كتبت البهجة سطورها على وجهي العروسين ...

على ان الناظر اليهما ، كان يرى الكآبة تبدو بين هذه السطور ثم تختفي . انها لساعة هناء وساعة شقاء ..!

الزواج قد تم ، وقد كان طارق يعلل النفس به ، ولكن ذلك الضعف الجائر الذي ينهش جسم اليتيمة نهشاً ويذيب جسدها الغض ، كان مظهراً رهيبـــاً لا يطيق الفتى ان ينظر اليه .

واما اليتيمة فكانت تبتسم ، في تلك الساعة للأمل العذب ، ثم لا تلبث حتى ترخي نظرها مضطربة خائفة ، من ذلك الموت الذي ترى صورته . أجل ، كان اسم الموت في فمها ، وذكره في قلبها ، وشبحه المروّع امام عينيها الذابلتين . وهي لا تخاف الموت الا لانه يفصل بينها وبين طارق .

فلما انتهى الليل خرج الاثنان يريدان بابان ، موضع قبر الملك ، والفتى يحاول ان يضيم هم زوجته ، وهي تحاول ان تضيع همه ، بالابتسامات والتعلل بالامال الضاحكة .

وخرج الاحنف وقومه من الناحية الاخرى يريدون البصرة ، وقد فعـــل الاحنف ما فعل ، كما قرأت .

ولم تكن بابان بعيدة عن مرو الروذ . فلما امسيا فيها ، طلب طارق الى غلام من اهلها ان يدله على القبر ، ومشى الثلاثة وقد بسط الليل جناحيه ، وارخى وشاحه الاسود ، على ذلك المكان الذي يرقد فيه حفيـــد الاكاسرة ، المنكود الحظ . فجثت اليتيمة على ركبتيها عند باب القبر ، وهي تترنح كما يترنح السكران ،

وتكاد تسقط على الارض . ثم جعلت جبهتها على الباب الحجري ، وهمت بان تخاطب اباها فلم تستطع ، فقد خنقتها الدموع ، واهتز جسدها كالغصن النضير تهزه العاصفة .

فضمهـــا طارق اليه وجعل يقول : يكفي ، فقد انتهت الزيارة ... واني اخشى ...

فتمتمت قائلة : لا تخشَ شيئاً ... ان الموت لا يفاجئني وانا في بابان ...

وانطرحت بين يديه وقد تلاشت قواها .

فقال وهو يمسح دموعه : قومي نهرب من هذه الوحشة القـــاتلة التي تسود القبور .

– ولكنني اريد ان اقول للملك كلمة قبل ان افارق قبره.

قال : لا يطيب للاحياء ان يحدثوا الاموات ..

فرفعت رأسها قائلة : ليس الملك ميتا بل هو حي في هذا القلب .

وادنت فمها من الحجر وهي تقول : لهفي عليك يا يزدجرد وقد قتلوك قبل ان اراك ... ولهفي على هذه الاعوام التي طويتها وانت مضطرب خائف بعيد عن عرشك ... أتقتل امي ... وشهريار الذي رباني ... واحبك ؟! نعم ... احبك ... فانا لا استطيع ان انسى انك ابي وان تكن قاتلاً .

ثم نهضت قائلة : لنرحل ايهـــا الحبيب فانا لا اصدق نفسي اني احب يزدجرد ابن شهريار ...

فمشى طارق وهو لا يقول كلمة ، وقـــد استندت الى ذراعه وهي ترسل الزفرات .

وباتا ليلتهما في دير هناك ، وهي تحدثه بأمر الحب ، كأن تلك اللوعة التي رافقتها منذ عرفت سرها ، لم يبق لها أثر . وطابت لهما الاقامة ببابان فلم يخرجا منها الا بعد عشرة ايام ، وقد خيل الى طارق ان النضارة تعود الى ذلك الوجه. وكان يذكر تلك الكلمات القليلة التي خاطبت بها اباها في ذلك الليل ، وقد قام في ذهنه ، انهـــا نسيت يزدجرد ، عندما ذكرت امهـــا وهي جاثية عند باب القبر . ولعلها ندمت على زيارة قبره ، وهو القاتل ...

* * *

بايع علياً بالبصرة ، طائفة من اصحاب النفوذ والجاه ، من جميع القبائل التي شهدت واقعة الجمل ، الا بني امية فلم يبـــايعه منهم احد ، بل خرجوا جميعهم يلتمسون لهم مكانا يلجأون اليه .

خرج عتبة بن سفيان ، وعبد الرحمن بن الحكم واخوه يحي - شقيقا مروان ابن الحكم، فساروا في البـــلاد لا يعرفون اي بلد ينزلون. فلقيهم عصمة بن أبير التميمي فقال لهم : هل لكم في الجوار ؟

قالوا : نعم!

فأجارهم وانزلهم حتى برأت جراحهم ثم سيرهم الى الشام في اربعمائـــة من الرجال ، خوفاً من ان يعرض لهم احد من جماعة علي .

فلما وصلوا الى دومة الجندل قالوا لعصمة :

لقد وفيت ذمتك وقضيت ما عليك فارجع .

واما عبدالله بن عامر صاحب البصرة في أيام عثمان، فقد خرج هارباً كما خرج هؤلاء حتى لقيه رجل من بني حرقوص يدعى « مري » فأجاره ثم بعث به مع رجال من قومه الى معاوية . كذلك خرج مروان بن الحكم واستجار بمالك بن مسمع واستخفى عبدالله بن الزبير في دار رجل في البصرة من الأزد يقـــال له وزير ، وهو من اتباع عائشة . وذلك قبل ان تخرج عائشة الى الحجاز . فقال له عبدالله : اذهب الى ام المؤمنين فاعلمهـــا بمكاني ولكن احذر ان يعلم محمد بن ابي بكر .

فأتى الرجل عائشة فخبرها ، فقالت : عليّ بمحمد !

فقال الرجل : لقد اوصاني عبدالله بان اكتم اخاك الخبر . فلم تعبأ بقوله ، بل بعثت محمداً فقالت له : اذهب مع هذا الرجل حتى تأتيني بابن اختك عبدالله بن الزبير ، فهو في منزله .

ففعل ما امرته به ، واقبل عبدالله الى دارها ثم رحل معها الى الحجـــاز وهو آمن .

وهكذا تفرق اعداء أمير المؤمنين ، يعدون له العدة ، ويتهيأون لحربه من

جديد ، وقد كان قادراً على الاحتفاظ بهم اسرى حرب ، ريثما ينتهي الامر بينه وبين معاوية .

فلمـــا فرغ من بيعة اهل البصرة ، نظر في بيت المـــال وقسم ما فيه على اصحابه .

ثم أتاه الاحنف بن قيس في بني سعد واولئـك الذين اعتزلوا معه فاراد امير المؤمنين ان يختبر رباطة جأشه . فقال له : اعتزلت يا ابن قيس ؟

فقال : لقد احسنت فيما صنعت ، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين فارفق فان الطريق الذي سلكت بعيد .

قال : وما معنى ذلك ؟

– معنـــاه انك احوج الي غداً منك بالامس .. فاعرف احساني واستبق مودتي لغد ولا تقل مثل هذا فاني لم ازل لك ناصحاً .

فضحك علي واظهر له الرضى ثم قـــال : ما رأيك لو جعلت الكوفة داراً للخلافة ؟

قال بلد طيب تجتمع فيه العرب .. وتترك المدينة ؟

– اجل فذلك خير للمسلمين .

– ومتى ترحل اليها ؟

– انظر في جميع امور البصرة حتى يستقيم لي الأمر ثم أسير الى الكوفة لانظر في امر معاوية قبل كل شيء .

– وهل تظن يا أمير المؤمنين ان معاوية يمضي في عصيانه الى النهاية ؟

– هذا ما اراه وقد بلغني انه يدعو انصاره من جميع النواحي ويقول لهم : تهيأوا للحرب بيننا وبين علي .

– وماذا تصنع وانت ترى سيوف اعدائك تشهر في وجهك ؟

– اقاتل السيف بالسيف ، واستعين بالله على هؤلاء الطامعين بالدنيا ، الذين ينفخون في الاسلام روح الفتنة والحرب .

– وهل تأذن لي ان اسألك سؤالا ؟

– افعل .

– من هو الرجل الذي توليه امر البصرة ؟

فابتسم قائلاً : أتطمع في الامارة وانت من قواد الاسلام .

– لا يا أمير المؤمنين ، اني لا اريدها ولكني اريد ان تختار لها رجلاً صادقاً في دينه ، بعيداً عن دنياه ..

قال : سأولي ابن عباس واجعل زياداً على الخراج وبيت المال .

– زياد بن ابي سفيان ؟

– نعم .

– وانت واثق من اخلاصه ؟

– اجل فهو ممن اعتزل الحرب مثلك ولم يشهد المعركة .

قال : اني اخشى هؤلاء القوم المترددين في الطاعة .

– لقد بايع زياد مع الذين بايعوا ولم تبدر منه بادرة وسأوصي ابن عباس بان يشاوره في كل امر .

ثم قال : اين اخوك عبدالله؟

– هنا يا أمير المؤمنين .

– واعتزل مثلما اعتزلت ؟ ..

– نعم ، وهو على الطاعة ، وسنلحق نحن الاثنين بأمير المؤمنين الى البلد الذي يختار ونكون من رجاله .

قال : يكفي ان يكون ورائي رجال مثل الاحنف بن قيس... تهيأ للرحيل بعد بضعة ايام ..

– وهل كتبت يا مولاي الى عاملك بالكوفة ؟

– اكتب اليه الساعة ... ونادى عبدالله بن رافع قائلاً له : اكتب .

من عبدالله عليّ أمير المؤمنين .

اما بعد فانا التقينـا في النصف من جمادى الآخرة بالخريبة – فناء من افنية البصرة – فاعطاهم الله عز وجل سنه المسلمين وقتل منا ومنهم قتلى كثيرة واصيب ممن اصيب منـا ثمامة بن المثنى وهند بن عمرو وعلبـاء بن الهيثم وزيد بن صوحان واخوه .

ثم قال لغلامه : عليّ بزفر بن قيس .

فلما اقبل قال له : تحمل كتابي هذا الى الكوفة وتنقـــل بشرى الظفر الى اهلهـــا ، وهم في المسجد وتقول لهم : سيقدم أمير المؤمنين الكوفة بعـــد بضعة ايام .

وامر غلمانه بان ينـــادوا : من كانت له حاجة فليذكرها لأمير المؤمنين قبل خروجه .

فاقبل الناس يسألون خليفتهم قضاء الحاجات حتى انه لم يبق في البصرة كلها رجل لم يذكر حاجته .

وقبل ان يغادر البصرة كتب الى جرير بن عبدالله البجلي ، وكان عاملاً على همذان ايام عثمان والى الاشعث بن قيس عامل ازربيجـان يأمرهما بأخذ البيعـة والمجيء الى الكوفة .

ثم رحل ولم يلبث حتى نزل الكوفة والناس فيها على طاعته ، وحوله قبائل كثيرة تهتف له .

* * *

- ٨٥ -

كان عمرو بن العاص ، قد ترك المدينة قبل ان يقتل عثمان ولجأ الى فلسطين كما قرأت . وسار معه ولداه عبدالله ومحمد .

فبينا هو جالس مع ولديه بعجلان مرّ به راكب من المدينة فقال له : ما وراءك ، قال : تركت عثمان محصوراً ..

ثم مر به راكب آخر بعد ايام فقال له : ما الخبر ؟

قال : قتل عثمان .

قال: انا أبو عبدالله.. انا قتلته وانا بوادي السباع.. ان يلِ هذا الامر طلحة فهو فتى العرب ، وان يلهِ ابن ابي طالب فهو أكره من يليه .

ثم مرّ راكب آخر فسأله قائلا : ماذا جرى في المدينة ؟

قال : بايع الناس علياً ..

فاضطرب واكفهر وجهه ثم قال : ستكون حرب من حكٍّ فيها قرحة نكأها .. رحم الله عثمان .. ورضي عنه .. وغفر له ... !

فقال سلامة بن زنباع الجذامي وكان حاضراً : يا معشر قريش كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا بابا غيره ..

واقام ابن العاص ينتظر ما يصنع الناس حتى بلغه مسير طلحة والزبير وعائشة الى البصرة . ثم خبروه بواقعة الجمل فلعن الاقدار التي مهدت لعلي سبل الظفر وجعل يفكر في امره حتى اتاه معاوية في الشام لايبايع علياً وأنه يعظم شأن عثمان . وكان معاوية احب اليه من علي .. بل كانت غايته احب اليه من الرجلين ... فدعا ابنيه وقال لهما : ما تريان .. اما علي فلا خير عنده وهو لن يشركني في شيء من امره ..

فقال ابنه عبدالله : توفي النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وهم عنك راضون ، فارى ان تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس .

وقال ابنه محمد : انت ناب من انياب العرب ، واني لا ارى ان يجتمع هذا الامر وليس لك فيه صوت ..

فقال : اما انت يا عبدالله فقد أمرتني بما هو خير لي في ديني ، واما محمد فقد امرني بما هو خير لي في دنياي وشرٌّ لي في آخرتي . وكان قد عرف ، وهو الخبير الداهية ، ان معاوية لن يعود الى الطاعة ، فآثر ان ينضم اليه ، فيأخذ حصته من الغنيمة ، اذا فازت الشام ، على ان ينضم الى علي ولا يأخذ شيئا ، اذا كتب لعلي النصر .

ان علياً رجل دين وزهد لا يبالي بمظاهر المجد والعظمة الجوفاء ، ومعاوية رجل دنيا يمشي الى غايته في بحر من الدماء ..

وهذا ما يريده عمرو بن العاص ، فقال لولديه : الى الشام فلا حياة لنا اذا بقينا داخل الجدران .

وارتحل راجلا ، وهو يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه .. أنعي الحياء والدين .. !!

حتى قدم الشام وهو على ما رأيت ، وأهل الشام يحضون معاوية على الطلب

بدم عثمان . فجعل يقول : ايها الناس انتم على الحق ، فاطلبوا بدم الخليفة المظلوم !!

ومعاوية لا يلتفت اليه ..

فقال له ولداه : هذا معاوية لا يلتفت اليك فانصرف الى غيره ..

قال : بل اخاطبه وارى رأيه ثم انظر في الامر .

ودخل الى مجلس معاوية وعنده الناس فقال : لي كلمة اقولها لك يامعاوية ليسمعها الناس ولا اقول سواها فان سمعتها فيدي بيدك والا رجعت ...

قال : هات !

قال : عجب لك ، قدمت من فلسطين لأكون عوناً لك وانت معرض عني كأني غير موجود ..

- وماذا ايضاً ؟

- وانت تعلم اننا اذا قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، ففي النفس من ذلك ما فيها ، حيث نقاتل من تعلم فضله وقرابته ، ولكن انما اردنا هذه الدنيا ...

فمد اليه يده قائلاً : رضيت ، فلا تزد ... وصالحه وعطف عليه ، وبدأ الاثنان ، وهما أدهى رجال العرب ، بأن يكيدا امير المؤمنين ...

* * *

- ٨٦ -

انتهى الى الكوفة جرير بن عبدالله والاشعث بن قيس الكندي كما امرهما أمير المؤمنين . ومثلا بين يديه فخبراه انهما اخذا البيعة من اهل ناحيتهما ، وانهما على طاعته .

فقال : امكثا .

ثم اراد ان يرسل رسولا الى معاوية ، فقال له جرير : ارسلني اليه فانه صديق لي ..

فقال الاشتر لعلي : لاتفعل يا امير المؤمنين فان هواه مع معاوية ..

قال : دعه حتى ننظر ما الذي يرجع الينا به ..

وبعثه ومعه كتاب الى معاوية يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير وما كان من الحرب ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه الانصار والمهاجرون ، حقناً لدماء الابرياء من المسلمين . فسار جرير ، فلما قدم الشام ، ماطله معاوية ودعا اليه عمرا فقال : ما رأيك في هذا يا ابن العاص ؟

قال : ارى ان تجمع اهل الشام وتلزم علياً دم عثمان وتندب القوم الى حربه بعد حين .

ففعل معاوية ما اشار به ، ودعا الناس . وكان اهل الشام ، منذ قدم النعمان ابن بشير بقميص عثمان مخضباً بدمه ، وباصابع نائلة ، يبكون عند ذلك القميص ، وهو على المنبر ، والاصابع معلقة فيه ، وقد أقسم بعضهم ان لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، ومن ساعدهم في ذلك القتل .

فلما حدثهم معاوية بأمر الكتاب المرسل من عليّ ، قال قوادهم : ان عليا قتل عثمان ، وآوى قتلته فنحن لاننتهي عنه حتى يقتلنا او نقتله مع أصحابه .

فقال معاوية عندئذ لجرير : ارجع وخبر عليا بما سمعت ورأيت ..

فعاد جرير وقص الخبر على امير المؤمنين .

فقال الاشتر : قد كنت نهيتك عن ان ترسل جريراً وخبرتك بعداوته وغشه ولو كنت ارسلتني لكان خيراً من هذا الذي اقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فتحه الا فتحه ولا باباً نخاف منه الا اغلقه ...

فقال جرير : لو كنت هناك لقتلوك فقد ذكروا انك من قتلة عثمان .

قال : والله لو اتيتهم لحملت معاوية على امر اعجله فيه عن التفكير ولو اطاعني امير المؤمنين لجعلك في السجن حتى يستقيم هذا الامر ...

فسكت جرير ولم يجب ، ثم لم يلبث حتى خرج الى قرقيسياء وكتب الى معاوية يقص عليه ما جرى له فأمره معاوية بالقدوم ، وكان انصار بني امية يفدون الى الشام من كل ناحية حتى غصت بهم الاسواق .

وعلي يعرف ذلك ولم يشأ ان يمنع جريراً من الخروج ، لانه كان يريد ان يغزو معاوية بالانصار المخلصين ، حتى انتهى اليه ان جيش الشام قد تهيأ ، وان عمراً

ابن العاص اشار على معاوية بان يسير بنفسه على رأس ذلك الجيش ، ثم بلغه ان عمراً كان يقول لاهل الشام : لقد ضعف عليّ واصحابه ، وان اهل العــراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، واهل البصرة مخالفون لابن ابي طالب لايمشون تحت لوائه لانه قتل ابطالهم يوم الجمل ...

ثم بلغه انه يقول : لقد اتاكم علي في طائفة قليلة من قومه ، وقد قتل خليفتكم ، والله والله في حقكم ان تضيعوه ، وفي دمكم ان تبطلوه . وكان عبدالله ابن عباس قد قدم الكوفة بجيش البصرة فقال علي عندئذ لاصحابه : اتركوا الكوفة وتوكلوا على الله . وخرج مع انصاره فعسكر بالنخيلة ، ثم بعث زياد ابن النضر الحارثي في ثمانية آلاف طليعة له ، وشريح بن هانىء في اربعةآلاف، وسار هو يريد المدائن حتى دخلها ، ونهض معه من فيها من الرجال يريدون الشام .

فلما عبروا الفرات ، كان زياد وجريح قد انتهيا الى سور الروم ، ولقيهما هناك ابو الاعور السلمي في فرقة من الجيش الشامي . فارسلا الى علي فأعلماه ، فقال للأشتر : تعجل في المسير ، فاذا قدمت فانت على القوم ولكن اياك ان تبدأ اهل الشام بقتال قبل ان يبدؤوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم ولا يحملك بعضهم على قتالهم واجعل على ميمنتك زياداً ، وعلى الميسرة شريحاً ولا تدنو منهم دنو من يريد ان ينشب الحرب ، ولا تتباعد تباعد من يهاب البأس حتى اقدم عليك ان شاء الله .

وكتب الى زياد وشريح بذلك وأمرهما بطاعة الاشتر . فسار الاشتر حتى اقبل اليهم واتبع ما امره به علي وكفّ عن القتال ، حتى كان المساء ، فحمل عليهم ابو الأعور ، فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم انصرف اهل الشام ولم تهرق الدماء .

وعند الصباح ، خرج من جند الكوفة هاشم بن عتبة الزهري وخرج اليه ابو الاعور فاقتتل الجيشان يومها ، تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال وقد صبر بعضهم للبعض الاخر حتى غربت الشمس ، وقد قتل من رجال معاوية عبدالله بن المنذر التنوخي وكان قاتله فتى من تيم يقال له ظبيان بن عمارة .

وأخذ الاشتر يقول : ويحكم أروني ابا الأعور ! فتراجع ابو الاعور فجعل رجاله وراء المكان الذي كان فيه ، وتقدم الأشتر فصفّ اصحابه في ذلك المكان. ثم قال لسنان بن مالك النخعي وهو فتى حدث السن : انطلق الى أبي الأعور فادعه الى البراز .

فقال : الى مبارزتي او مبارزتك ؟

قال : لو امرتك بمبارزته فعلت ؟

– نعم والله لو أمرتني ان اعترض صفهم بسيفي لما ترددت في ذلك.

قال : لقد عرفت مقامك فادعه الى الخروج إليّ !

فذهب الفتى حتى قارب اهل الشام فقال : أمنوني فانا رسول .

فأمنوه ، فمثل بين يدي أبي الأعور وقال : ان الاشتر يدعوك الى ان تبارزه فاطرق ملياً ثم قال : ان خفة الأشتر وسوء رأيه ، حملاه على إجلاء عمال عثمان عن البلاد وتشويه محاسنه ، وعلى السير اليه في داره حتى قتله فأصبح متبعاً بدمه لاحاجة الى مبارزته ؛ فهمّ بالجواب فأسكته قائلاً : ولا حاجة الى جوابك فاذهب عني ...

وصاح به أصحاب ابي الاعور يأمرونه بالانصراف .

فرجع الاشتر فخبّره فقال : نبيت ليلتنا ثم ننظر في الامر عند الصباح .

ولكنهم عندما اصبحوا لم يجدوا اثراً لأبي الاعور وجيشه،فقد تراجع الجميع الى الموضع الذي اقام به معاوية .

وبينا هم يتشاورون في الامر ، اقبل امير المؤمنين ، فقال له الأشتر : لقد عاد أبو الاعور لينضم الى معاوية وانا ارى أن الحق به .

قال : افعل ، وسأجيء في الاثر .

وكان معاوية قد سبق فنزل منزلاً واسعاً يجري فيه الماء وليس في ذلك السهل ماء غيره .

وأقبل عليه أبو الاعور يحميه ويمنعه .

وطلب اصحاب علي ، عند وصولهم ، ماء غيره فلم يجدوه ، فأتوا علياً فخبروه بهذه المصيبة ، وعطش الناس ..

فاستدعى صعصعة بن صوحان فأرسله الى معاوية يقول : سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم ، فقدمت الينا خيلك ورجالك فقاتلتنا مع انا كارهون لذلك ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه اخرى قد تجبرتم ومنعتم الناس من الماء والناس غير منتهين ، فابعث الى اصحابك ليتنحوا عن الماء لننظر فيا بيننا وبينكم وفيا قدمنا له ، فان اردت ان نترك ما جئنا إليه ونتحارب من أجل الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا .

قال معاوية لاصحابه : ما ترون ؟

قال الوليد بن عقبة وعبدالله بن سعد : نمنعهم الماء كما منعوه ابن عفان واقتلهم عطشاً قتلهم الله .

قال عمرو بن العاص : خلِّ بينهم وبين الماء فانهم لن يعطشوا وانت ريّان وعملك هذا بينك وبين الله ..

قال الاثنان : بل يمنعهم اياه الى الليل فانهم ان لم يقدروا عليه رجعوا وكانت الهزيمة .. امنعهم الماء ايها الامير منعهم الله اياه يوم القيامة ..

قال صعصعة : انما يمنعه الله الفجرة وشربة الخمر . عليك لعنة الله ، ولعن هذا الفاسق .. « وهو يعني الوليد بن عقبة » .

فشتموه وتهددوه ومعاوية يفكر في الأمر ، ثم قال : سيأتيكم رأيي يا ابن صوحان في هذا المساء . فخرج صعصعة فخبَّر علياً . فلما كان المساء ، بعث معاوية الخيل الى أبي الاعور ليمنعهم الماء . فلما سمع علي ذلك قال لقومه : السيف السيف ..

فقال له الاشعث بن قيس الكندي : انا اسير اليهم .

فأذن له في ذلك ، فلما دنا منهم ، ثاروا في وجوه أصحابه ورموهم بالنبل ساعة ، ثم تطاعنوا بالرماح ، ثم عمدوا الى السيوف ومعاوية وعلي يرسلان الرجال والخيل حتى قدم أخيراً من جيش الشام عمرو بن العاص ، ومن جيش علي الأشتر ، واشتد القتال ، وكان عبدالله بن عوف الأزدي ، وهو من اصحاب علي يقول :

خلّـــوا لنا ماء الفرات الجاري او اثبتوا لجحفل جـــرار
لكل قرم مستميت شـــاري مطـــاعن برمحه كرار
ضرّاب هامات العدى مغوار لم يخشَ غير الواحد القهار

حتى تراجع اهل الشام عن الماء والذعر يملأ القلوب . وارتفعت اصوات القوم من جيش علي يقولون : والله لا نسقي اهل الشام .

فأرسل امير المؤمنين الى اصحابه : خلّـــوا عنهم فأن الله نصركم ببغيهم وظلمهم ..

ففعلوا ما امرهم به ، قائدهم الظافر الصالح ، وباتوا ليلتهـــم وهم ينشدون اناشيد الظفر . ثم مكث علي يومين لا يرسل الى القوم أحداً ولا يأتيه منهم احد حتى رأى اخيراً ان يبعث الى معاوية يدعوه الى الطاعة . وارسل من اجل هذه الغاية بشير بن عمرو الانصاري ، وسعيد بن قيس الهمذاني ، وشبث بن ربعـي التميمي قائلاً لهم : اذهبوا فادعوا هذا الرجل الى الله .

فقال له شبث : يا أمير المؤمنين، الا تعده بسلطان توليه اياهأو منصب يكون له فيه منزلة ، ان هو بايعك ؟

قال : انطلقوا اليه وانظروا ما رأيه .

فاتوا معاوية فدخلوا عليه وجعل بشير بن عمرو يقول : يا معاوية ، ان الدنيا عنك زائلة، وانك راجع الى الآخرة والله محاسبك بعملك ومجازيك عليـــه فلا تفرّق جماعة هذه الامة ولا تسفك دماءها بينها .

فاسكته معاوية قائلاً : هلاّ اوصيت بذلك صاحبك ؟

قال : ان صاحبي احق البرية كلها بهذا الامر ، في فضله ودينه وسابقتـــه في الاسلام ، وقرابته برسول الله ..

– وماذا يقول ؟

– يأمرك بتقوى الله ، وان تجيبه الى ما يدعوك اليه من الحق فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة امرك .

– ونترك دم ابن عفان ؟! لا والله لا نفعل ذلك ابداً .

فقال شبث بن ربعي : قد فهمت يا معـــاوية ما رددت على ابن محصن، انه

والله لا يخفى علينا ما تطلب وانك لم تجد شيئاً تستغوي به النـــاس وتستميل اهواءهم الا قولك : قتل خليفتكم مظلوماً ونحن نطلب بدمه ... وقد علمنا انك ابطأت عنه بالنصر وأحببت له القتـــل لتكون لك الخلافة بعده ، فاتق الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأمر اهله .

فقال : كذبت ايها الاعرابي في كل ما ذكرت ، انصرفوا من عنـــدي فليس بيني وبينكم الا السيف .

فرجعوا الى علي يقصون عليه ما سمعوه ، فكره ان يلقى جيشه كله ، جيش الشام كله ، خوفاً من ان يكون في هذا اللقاء فناء الجيشين . فجعل يأمر الفارس البطل من اصحابه ، فيخرج الى القتال ومعه جماعة من قومه ، ويخرج اليه آخر من اصحاب معاوية فيقتتلان. حتى انقضت ايام ذي الحجة كلها وهم يفعلون ذلك. ثم دخلت السنة الســـابعة والثلاثون واقبل الشهر المحرم ، فرأى أمير المؤمنين ومعاوية ان يتركا الحرب ريثما ينقضي ذلك الشهر .

* * *

- ٨٧ -

حلوان بلد فسيح طيب الهواء ، فيه الطوائف الكثيرة من العرب والفرس ، وفيه الاسواق تغص بالنـاس من كل قطر وقد امسى بعـد الفتح ، اعظم شأناً واكثر عمراناً ، منه في ايام الاكاسرة ، وايام حفيـدهم يزدجرد . والفرس فيه ، راضون بما قسم لهم الله مقيمون على عهد الفـاتحين ، لا يحملون في وجه الاسلام سيفاً ، ولا يخرجون عن الطاعة .

حتى ليخيل اليك ، ان الشعبين شعب واحد ، في ظل الراية العربية راية الاصلاح والهـدى ، والسلام والهدوء . وانك لتجـد عشائر كاملة ، من عشائر فارس ، دخلت في الاسلام منذ عهد الفتح الاول ، وشاركت المسلمين في الحرب والسلم ، والنفوذ والسلطان .

وموقع حلوان ، موقع فتان هادىء ، البسته الطبيعة ثوباً خلاباً من الجمال ،

ووهبت له جميع اسباب الفتنة والسحر . والناس يخرجون في معظم الايام ، عند المساء ليستعيدوا بالطواف حول المدينة الزاهية تلك القوى التي يذيبها العمل الشاق . وقد يمر الهزيع الاول من الليل وهم في حضن الطبيعة الضاحكة ، وقد استسلموا الى المرح واللهو .

وكان خبر خروج عائشة من الحجاز ونزولها في البصرة مع طلحة والزبير قد انتهى الى القوم . ثم انتهى اليهم بعد أيام ، ان أمير المؤمنين لحق بهم اليها ؛ ولم يلبث حتى استعاد حرمة الخلافة التي انتهكوها دون ان يكون لهم عذر. فاهتزوا فرحاً لهذا الخبر ، وظهرت الابتسامات على الثغور. وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فأهل حلوان جميعهم ، عربهم وفرسهم ، انصار لعلي يبغضون من يبغض ، ويحبون من يحب . بينهم رجل في الخمسين من عمره ، تغلغل حب امير المؤمنين في صدره ، وهو لا يعرفه ، وحمل لواء الدفاع عنه ، خفاقاً في مجالس القوم . وهو عربي يدعى صالح بن حجر، من بني رياح، وقد خسر عينه اليسرى في حرب جلولاء ، ورجله اليمنى في خانقين .

وانه ليطيب لكل فارسي وعربي، ان يحادث صالحاً عمره كله ويسمع دفاعه عن علي ، وعلي لا يحتاج في حلوان الى من يدافع عنه . ومنزل صالح في اول حلوان . وله فناء واسع يجلس عند بابه كل مساء ، بين المغرب والعشاء ، ليصف لغلام له ، او لجليس غيره ، زهد امير المؤمنين ، وعظمته في دينه واخلاقه . ثم يأوي الى فراشه مستنداً الى غلامه الفارسي . وقد جعل منزله ، منزلا لكل غريب ، وهو يبعث ذلك الغلام ، الى السوق ليبحث له عن الغرباء اللاجئين الى البلد ، ويدعو بعضهم اليه .

فبينا هو في مساء يوم ، على مقعده الذي ذكر لك ، رأى فتيين على فرسين لها يدنوان منه ، وهما يتهامسان . ثم رأى اصغرهما ، فتاة تلبس لبس الرجال . وقد عرف انهما غريبان ، انتهيا الى حلوان في تلك الساعة . فرفع رأسه وجعل يبتسم لهما حتى وصلا ، فقال : أهلاً بالفتيين الغريبين ... انزلا ..

فقال الفتى : ومن قال لك اننا من الغرباء ؟

– هذه العين الباقية لي فهي تعرف وجوه جميع اهل حلوان ..

وكان طارق بن عبدالله هو الذي يخاطبه فقال : حفظ الله لك عينك التي تعرف كل هذا ... أفلا تدلنا على منزل نبيت فيه الليلة ؟

قال : اسألك عن هذه الفتاة قبل ان اجيب ..

– انها زوجتي ..

قال : خيل لي انها ملكة من ملكات الروم ...

ثم اومأ الى منزله قائلاً : هذا هو البيت الذي تنزلان فيه .

قال : اؤثر ان الجأ الى الاماكن التي تنزل فيها الناس .

– لقد اعددت بيتي لهذه الغـاية فليس لك ان تخطو خطوة واحـدة الى الامام ...

– واذا خطر لي ان افعل ؟

– لا اصدق انك تفعل هذا فاشراف العرب لا ينتهكون الحرمات .

فنزل عن فرسه وهو يقول : لو كان لأمير المؤمنين بيت في حلوان ودعاني الى النزول فيه لما آثرته على منزلك، انك احسن ما رأيت في هذه الرحلة وسأجعل دارك مقاماً لي .

ومد يده فأنزل اليتيمة ، ثم صافحا الرجل وهما يشكران له مروءته وأدب نفسه . وكانت الشمس قد احتجبت عن العيون ، فاستند صالح الى عصـاه من هذه النـاحية والى غلامه من النـاحية الاخرى ، وتقـدم الاثنين الى المنزل ، والابتسامة على شفتيه .

ثم أعدّ لهما احدى الغرف ، وجلس عند بابهـا قائلاً : اما الآن فأنا اسألك عن حاجتك .

– ولا تسألني عن اسمي ونسبي ؟

– كن من شئت فانا لا ابالي وحسبي اني ارى وجهي عربيين يتلألأ عليهما الجمال والشرف .

– اما انا فأسألك عن اسمك لانه لا يطيب لي ان انزل ضيفاً على رجل لا اعرف من هو ؟

– اني صالح بن حجر ، من بني رياح ، وانا هنا منذ الفتح

- وقد خسرت في الفتح عينك ورجلك ؟

- اجل .

فتظاهر طارق بانه يجهل اسماء القواد الذين فتحوا حلوان فقال : اذن انت تعرف جميع الرجال الذين فتحوا هذا القطر .

- كما اعرف ابي وامي وقد مشيت في صفوفهم من القادسية الى المدائن ، الى جلولاء ، الى خانقين، الى حلوان .

- وكانوا كثاراً ؟

- معظم رجال العرب ابطال يحسنون قيادة الجيوش كما تعلم ، على ان القائد الاكبر الذي دخل حلوان ظافراً، كان اطولهم سيفاً واعظمهم شأناً.. وهو ينتمي الى اعز العشائر ، في بلاد نجد والعراق ...

- من هو هذا ؟

القعقاع بن عمرو التميمي ، الذي قال فيه الخليفة أبو بكر : لا يهزم جيش فيه مثل هذا .

قال : كنت صغيراً فلم أشهد حروب القعقـــــاع الذي تدعوه العرب سيد الميادين .

- ولكنك ستشهدها في هذا الزمان فالقعقاع مثل جميع الرجال من عشيرته لا يترك السيف حتى تعجز يده عن حمله .

- وتعرف تميمياً غيره ؟

- أعرف أخاه عاصماً، وعبدالله بن قيس ، وقد حاربت تحت لوائهما، واسمع الشيء الكثير عن الاحنف اخي عبدالله ... ومن تعرف انت من هؤلاء ؟

- أعرف الرجلين الاخيرين ..

- وأين رأيتهما ؟

- في مرو الروذ وفي بعض حروبهما في خراسان .. وقد قص عليّ عبدالله الذي ذكرت حكاية جرت له في هذه المدينة ليلة الفتح .

قال : أذكرها لي فقد أعرفها كما تعرفها أنت .

- انها حكاية تتعلق برجل فارسي .

– من رجال يزدجرد ؟
– نعم وقد كان مع مولاه في حلوان قبل فراره .
– وما هي الحكاية ؟
قال : أتذكر ليلة دخل المسلمون حلوان بعد فرار الملك ؟
– أذكر تلك الليلة كأنها أمس .
– وشهدت فيها مجلس الأمراء الفاتحين ؟
– أجل !
– وتذكر ان ذلك الفارسي مثل بين ايدي أولئك الامراء وسألهم ان يرحموا طفلة خسرت أمها يوم خرجت الى هذا العالم ؟
فأطرق ملياً ثم قال : لقد ذكرت الآن . .
– ماذا ؟
– ان والد الطفلة كان ذا يد واحدة .
– وماذا ايضاً ؟
– وانه كان يبغض يزدجرد بغضاً قرأه القعقاع واركان حربه في عينيه ، وقد طلب في ذلك الليل ان يدخل في دين الاسلام .
– والطفلة ؟
– أخذها عبدالله بن قيس وسلمها لزوجته لتكون مرضعاً لها .
– ووالدة الطفلة ؟
– دفنها الرجل بين الصخور القائمة جنوبي حلوان ودلنا على قبرها في اليوم الثاني وهو يرثيها بدموعه .
– والقبر باق ؟
– نعم وقد كثرت القبور حوله من جميع النواحي الا ناحية الوادي .
– اذن فأنت تعرف موضعه؟
– اعرفه ، واذكر رثاء ذلك الرجل الحزين كلما مررت بالقبر .
فتلألأت الدموع في عيني اليتيمة ولكنها لم تقل كلمة .
فقال طارق : لم يبق اذن الا ان اذكر لك حاجتي .

– ما هي ؟
– هي ان ترافقنا غداً الى القبر الذي وصفت .
– وهل كانت المرأة نسيبة لك ؟
فتملمت اليتيمة قائله : انها امي ..
فجعل ينظر اليها والى طارق وهو لا يصدق ما سمع .
ثم قال: وأنت هي الطفلة ؟
– نعم انا هي الطفلة المنكودة الحظ ..
– وزوجك ... من هو ؟
– هو طارق بن عبدالله بن قيس.
فرفع يديه الى السماء قائلاً :
أحمدك اللهم فقد وهبت لي ما كنت اسألك اياه .

فقال طارق : اكنت تسأل الله ان يعيد الطفلة الى حلوان ؟
– بل كنت اطلب اليه تعالى ان تقع عيني ، قبل ان أموت ، على عبدالله بن قيس ، او على واحد من اهل بيته ..
– ولمَ ذلك ؟
– لان عبدالله انقذني في خانقين من الموت ولم اكن استطيع قبل خروجه من حلوان ان اعترف بجميله.
وسكت قليلاً ثم قال :
اني هنا عبد من عبيدك ايها الامير ، وبيتي هذا هو لك ، فاسأل ما تشاء وافعل ما تشاء .

قال : ليس لي في حلوان غير الحاجة التي ذكرت ، فاما ان تزور اليتيمة قبر امها غداً ثم ننصرف بعد بضعة أيام ، واما ان تطيب الاقامة لها فنمكث شهراً ...
قال : اتدعى زوجتك اليتيمة ؟
– نعم فهو الاسم الذي اختاره لها الرجل الذي عرفت .
قال : يظهر انها لم تكن ابنته .

ــ لا .. انها ابنة رجل اعظم منه بل هو اعظم رجال هذا الشرق ...

ــ وهذا الرجل يدعى يزدجرد ؟!

ــ أجل يزدجرد الذي كانت فارس كلها لا تتسع لعظمته .

وقص عليه حكاية جهان روز منذ عرفها شهريار ، وحكاية اليتيمة منذ عرفها وهو على شاطىء المرغاب .

وضاق صدر اليتيمة فخرجت الى الفناء .

فقال طارق عندئذ :

أخشى ان يمد الموت يده اليها بعد هذا الشقاء الذي عرفت حكايته ... واني خائف ...

قال : ان الله القادر على كل شيء ينقذها من مخالب الموت .. على ان انصح لك بالا تحدثها بمثل هذا فالذكرى قاتلة .

فنهض قائلاً : كنت الان مكرها على ما فعلت .

ثم لحق بزوجته الى الخارج ، ولم يلبثا حتى رجعا الى الغرفة .

فقال الرجل : أين أبوك اليوم ؟

ــ كان يهمّ بالذهاب الى البصرة ، مع عمي الاحنف عندما تركت مروالروذ

ــ ودعي الى الحرب ؟

ــ نعم !

ــ وهل هو من صف عائشة ؟

فتردد قليلاً ثم قال : خيّل الي انه من انصار أمير المؤمنين .

فبرقت عيناه قائلا : وأنت ؟

ــ اما انا فلا اعرف عائشة ولا اعرف علياً ، ولكني اشعر بان هذا القلب لا يحب اولئك المتمردين الذين سعروا نار الحرب وانتهكوا حرمة الخلافة بعد ان بايعوا علياً .

قال : بارك الله فيك ، وهل تعلم ماذا جرى في البصرة ؟

ــ سمعت ، وانا في ظاهر الكوفة ان الفشل كان من نصيب عائشة وان طلحة والزبير قتلا .

– ذلك صحيح وقد انتهت اخبـاره الى حلوان ، ولكن القوم يقولون ان معاوية لم يبايع الخليفة وانه يتهيأ للحرب .

– ولكنه لن يكون اسعد حظاً من عائشةفهو يطلب الخلافة لنفسه كما يقول ابي ولا يبالي بهؤلاء المسلمين الذين يدفعهم الى لجة الفناء .

– وماذا تصنع انت اذا اقتتل الاثنان ؟

– احمل السيف لادافع عن خليفة رسول الله، الذي يصفونه لي بقولهم : انه اشجع المسلمين وازهدهم في الدنيا ، وأقربهم الى النبي .

قال : وانا أفكر في الخروج الى القتال يوم يتلاحم الجيشان .

– انت ؟

فارتجفت شفتاه وجعل يقول : نعم انا فقد شهدت لي الميـادين من قبـل ، واعترف قومك بنو تميم الذين هم ابطال الحرب ، بأني خلقت للسيف .

– ولكنك خسرت رجلك فلا تستطيع الركوب ..

قال : لقد فكرت في أمر آخر ابلغ معه الغاية ..

– ما هو ؟

– هو ان اختار اربعـة من الرجال الاشداء ، يحملوني في محفـة ويقفون في ناحية بعيدة ، من نواحي الميدان .

– اي انك تكتفي بان تشهد المعركة ..

– بل اشترك في القتال كما يشترك فيه انصار علي .

– وكيف ذلك ؟

– احمل قوسي ثم ارسل سهامي الى صدور اهل الشام ..

– واذا تراجعت الفرسان وانت لا تستطيع الفرار ..

– ارمي بآخر سهم لي، ثم اغمض عيني مستسلماً الى الاعداء وانا اهتف قائلاً : يعيش أمير المؤمنين !!!

واستوى عندئذ في مجلسه وجعل يصف علياً ويذكر اعماله في سبيل الاسلام حتى انقضى الهزيع الاول من الليل .

فقال له طارق : لو كان في الاسلام الف رجل يحبون أمير المؤمنين كما تحبه

انت لحملوه على اعناقهم الى الشام وقتلوا معاوية وهو في قصره ...
قال : ان لم يقتل اليوم قتل غداً فطالب الدنيا لا يحبه الله .
ونادى غلامه قائلا : هات يدك فقد أتت ساعة الرقاد .

وابتسم لضيفيه ابتسامة الابتهاج والرضى ثم انصرف الى حجرته وهو يردد اسم علي واسم عبدالله بن قيس الذي أنقذ حياته في خانقين ، وهو تحت حوافر الخيل ...

* * *

- ٨٨ -

لقد طابت الاقامة لي بحلوان ، كما طاب لي حديث هذا الرجل . وكأن اليتيمة كانت تخاطب نفسها .. وهي ذاهلة ..
فقال طارق : ولكنك لم تعرفي حلوان بعد .
- يكفي ان فيها عظام المرأة التي ولدتني ..
وتردد في صدرها البكاء
فقال : عديني بأنك ستزورين القبر كل شهر وانا اعدك باننا سنمكث بحلوان سنة كاملة .
- من يعلم ، فقد امكث بها العمر كله .. بل أمكث الى الابد .
- وما معنى هذا ايتها الحبيبة ؟
- معناه ان هذا الجسم ستصرعه اللوعة ، فيهوي عند القبر .. ولا يبقى الا أن تستعين بالحفار فيفتح لك بابه وتجعل جثتي فيه .
- بل استعين بهذا الخنجر فأغمده في صدري كي لا اسمع مثل هذا .. انهذه اللوعة ستذهب غداً بعد أنتذرفي الدمع.
- ولكني احس بقشعريرة الموت تدب في جسدي .. وأرى امي ضحية الظلم والعظمة الجوفاء .. تفتح ذراعيها لتضمني اليها غداً عند .. الفجر .
فجعل يكفكف دموعه وهو يقول : ستضم اذن جسدين اثنين .. ويدل

الستار على هذه الحياة التي انفتحت اعيننا فيها على العذاب والشقاء .

– بل اذهب انا وتبقى انت .. ولكني اسألك بأسم هذا الحب ، ان تكتب على القبر هذه الكلمة : هنا ترقد ابنة يزدجرد في حضن امها .. ولكن لا .. لا تذكر اسم يزدجرد .. بل قل ابنة الملك وهذا يكفي .

فانطرح المسكين على فراشه وهو يندب حظه .. فمسحت دمعها ، وجعلت تناديه بالالفاظ العذبة وتقول : انها كلمة خطرت لي فلن اعود الى مثلها . وكأنها نسيت حزنها في تلك الساعة .

فتنهد قائلا : الحياة اذا اردت الحياة ، والموت عندما تريدين الموت ... !

وسكت الاثنان .. وباتا ساكتين كأنهما نائمان حتى بزغ الفجر .

* * *

– ٨٩ –

كان الشهر المحرم شهر المفاوضات ، يبعث علي رجالا من جيشه ، ويبعث معاوية رجالا ينظرون في هذا الامر الذي انتهى اليه المسلمون ، ولكـــن هذه المفاوضات لم تثمر غير الفشل .

فلما كانت الايام الاخيرة من الشهر، دعا امير المؤمنين اربعة من رجال الرأي قائلا لهم : هذه هي المرة الاخيرة التي تسألون فيها معاوية ان يرجع عن ضلاله .. فان رجع فقد انتهى الامر والا فالقتال . وبين هؤلاء الاربعة عدي بن حـــاتم الطائي وزياد بن خصفة .

فدخلوا على معاوية فقال عدي : اتيناك ندعوك الى امر يجمع الله به كلمتنا وامتنا ونحقن به الدماء... ان ابن عمك سيد المسلمين.. افضلهم سابقة واحسنهم في الاسلام اثراً وقد بايعه الناس ولم يبق غيرك وغير من معك ، فاحذر يامعاوية فانا اخشى ان يصيبك واصحابك مثل يوم الجمل فتندم على ما كان منك .

قال : جئت يا عدي متهدداً ولم تأت مصلحاً ، انك من قتلة عثمان وانا ارجو ان تكون ممن يقتله الله به . فقال زياد : دع ما لا ينفع يامعاوية .

وقال يزيد بن قيس وهو في القوم : اتقِ الله ولا تخالفه فوالله ما رأينا في

الناس رجلا أعمل بالتقوى وازهد في الدنيا ، وأجمع لخصال الخير كلها من علي.
فقال معاوية : اما الجماعة فهي معنا ، واما الطاعة لصاحبكم فنحن لانراها لان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وهو يزعم انه لم يقتله ، فليدفع الينا اذن قتلة عثمان ونحن نجيبكم الى الطاعة .

ثم دعا زياد بن خصفة فخلا به قائلا : يا اخا ربيعة : ان علياً قطع ارحامنا وقتل امامنا واني اسألك النصر عليه بعشيرتك ولك عليّ عهد الله وميثاقه اني اوليك امر مصر أو العراق .
قال : اني على بيّنة من امر ربي وما انعم الله عليّ فلن اكون عوناً للمجرمين ..
فقال لعمرو بن العاص : لانسمع غير جواب واحد من هؤلاء .
ثم دعا حبيب بن مسلمة ، وشرحبيل بن السمط ، ومعن بن يزيد بن الاخنس ، فقال انطلقوا الى علي فحدثوه بما تعلمون .
فخرج القوم واقبلوا الى مجلس علي فقال حبيب : اما بعد ، فان عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله ، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، فادفع الينا قتلته ان زعمت انك لم تقتله .. ثم اعتزل امر الناس فيكون امرهم شورى بينهم ! فانتهره امير المؤمنين قائلا : اسكت ، انك لست اهلا لما تحدثنا به .

فقال شرحبيل : كلامي مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير ما قلت ؟
– ليس عندي جواب غيره ، لقد ولّى المسلمون عثمان فعمل باشياء عابها الناس فساروا اليه فقتلوه، ثم جاؤوا اليّ فقالوا لي: قم لنبايعك فان الامة لا ترضى الا بك، وانّا نخاف ، ان لم تفعل ان يتفرق الناس، ففعلت، فما راعني الا شقاق رجلين قد بايعاني ، هما طلحة والزبير ، وخلاف معاوية الذي لم يجعل له سابقة في دينه .. معاوية الذي لم يزل حرباً لله ورسوله هو وابوه حتى دخلا في الاسلام كارهين . وإني لأعجب من انقيادكم اليه ، وترككم كتاب الله وسنة نبيه واماتة الباطل . اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين...
قال : تشهد ان عثمان قتل مظلوما ؟

ـ لا اقول انه قتل مظلوما او ظالما .

فقالوا جميعهم : من لم يزعم انه قتل مظلوما فنحن منه براء .

وانصرفوا راجعين الى معاوية .

فقال علي لمن حوله : لا يكن هؤلاء ، وهم على ضلال ، احرص منكم على الأمر ، وانتم على حق .

ثم انقضى الشهر ، فأمر امير المؤمنين مناديا فنادى : ياأهل الشام : لقد سألتكم ان ترجعوا الى الحق فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا الى مادعوتكم اليه . ان الله لا يحب الخائنين ..

فاجتمع اهل الشام الى امرائهم ورؤسائهم ، وخرج معاوية وعمرو بن العاص ينظران في امر الجيش ، وكذلك فعل امير المؤمنين . وكان يقول لاصحابه: لاتقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فانتم بحمد الله على حجة ، وترككم قتالهم حجة اخرى ، فاذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، واذا وصلتم الى رجال القوم ، فلا تهتكوا سترهم ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئا من اموالهم ولا تهيجوا النساء وان شتمن اعراضكم ، ثم قال : عباد الله ، اتقوا الله ، وغضوا الابصار ، واخفضوا الاصوات ، واثبتوا للخيل واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، واصبروا ان الله مع الصابرين .. اللهم ، الهمهم الصبر ، وانزل عليهم النصر واعظم لهم الاجر .

وأصبح القوم فجعل علي على خيل الكوفة ، الاشتر ، وعلى المشاة ، عمار ابن ياسر وعلى جند البصرة سهل بن حنيف ، وعلى مشاتها قيس بن سعد وهاشم ابن عتبة المرقال ومعه الراية. وكان الاحنف واخوه عبدالله في الجيش فتركها ، وترك طائفة من الابطال احراراً في القتال .

وبعث معاوية الى الجناح الايمن ، ابن ذي الكلاع الحميري والى الجناح الايسر حبيب بن مسلمة والى المقدمة ابا الاعور السلمي ، وجعل عمرو بن العاص على خيل دمشق ، وعلى مشاتها مسلمة بن عقبة المري . وجعل على الناس جميعهم الضحاك بن قيس .

وخرج الناس في اليوم الاول من صفر ، على أهل الكوفة الاشتر وعلى اهل

الشام حبيب بن مسلمة . واقتتلوا يومهم قتالا شديداً ثم تراجعوا عند المســاء والحرب بينهم سجال . ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال، وخرج اليه من اهل الشام أبو الاعور السلمي وقد انطرحت جثث الرجال من الجيشين . وبرز في اليوم الثالث عمار بن ياسر ، يقابله من الناحية الاخرى عمرو ابن العاص .

فلما تلاحمت الصفوف قال عمار : يا أهل العراق ، أتريدون ان تنظروا الى من عادى الله ورسوله ، وبغى على المسلمين ... انه هذا ..

واشار الى ابن العاص وجعل يقول : اثبتوا له وقاتلوه . ثم قال لزياد بن النضر وهو على خيله : احمل على اهل الشام . ففعل ، وقاتله القوم وصبروا له .

ثم حمل عمار فازال عمراً عن موضعه واقبل المساء . فلما كان الغد ، مشى الى الساحة محمد ابن الحنفية « ابن علي» وخرج اليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جيشين عظيمين ودارت رحى الحرب . حتى كثر القتل وسالت دماء الابرياء .. فارسل عبيد الله الى ابن الحنفية يدعوه الى البراز ٠ فهمز محمد فرسه يريد ان يفعل . فدنا امير المومنين منه فرده وبرز هو . ولكن عبيدالله تراجع خوفاً .

فقال محمد لابيه : لو تركتني لقتلته فكيف تبرز انت يا امير المؤمنين الى هذا الفاسق ؟

قال : كنت أرجو ان أؤدبه لو لم يرجع .

وجاء دور عبدالله بن عباس في اليوم الخامس وكان قائد جيش الشام الوليد ابن عقبة ، ، فاهان الوليد بني عبدالمطلب ، وسبهم ، فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى ، فقاتل ابن عباس قتالاً شديداً آثر فيه الموت على البقاء .

وانقضى الاسبوع كله ، والنصر يلمع على رايات علي ثم يلمع على رايات معاوية ، دون ان يبلغ احدهما غايته .

فقال امير المؤمنين عندئذ لقومه : سنناهض غداً بأجمعنا هؤلاء القوم . وقام فيهم خطيباً ، يدفعهم الى التضحية ، ويستحث هممهم وقضى ليلته وهو يطوف بين الصفوف ويلمس بيديه السلاح الذي يحملون حتى كان الصباح . فزحف

معاوية بأهل الشام ، ووقفت العشائر في المواضع التي عينت لها على كل عشيرة منها رئيس وفي جيش علي ، طائفة من هذه العشيرة ، يقابلها في جيش معاوية طائفة اخرى من العشيرة نفسها . وقد عرف امير المؤمنين مواقف العشائر في اهل الشام ، فقال لبني الازد ، الذين يحاربون تحت لوائه : اكفونا الازد الذين يحاربون تحت لواء معاوية . وقال لخثعم : اكفونا خثعم . وامر كل قبيلة ان تكفيه اختها من جيش الشام. ثم امرت الصفوف فزحفت الى الموت.. ونشرت المنية جناحيها فوق المتحاربين حتى اقبل المساء ، دون ان يستطيع احد الفريقين ان يقول : انه غالب .

فلما كان صباح الخميس ، صلّى امير الموءمنين بالناس عند الفجر وتقدم جيشه الى ساحة القتال وهو موءمن بان النصر سيتم له . وكان على ميمنته عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وهو من ابطال المسلمين ، وعلى ميسرته ابن عمه عبدالله بن عباس والناس على راياتهم التي عرفت ، وامير الموءمنين في القلب ، وحوله أهل المدينة ، بين اهل البصرة والكوفة ، وطائفة من بني خزاعة وكنانة .

وقد رفع معاوية قبة عظيمة ألقى عليها الثياب ، وبايعه اكثر اهل الشام على الموت ، وأحاطت بقبته الخيل .

واشتد القتال .. ثم رأى القوم عبدالله بن بديل يمشي برجال الجناح الايمن ، الى ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة ، مشي جبار قاهر ، وهو يحمل سيفين يقتل كل من يتصدى له من جيش العـــدو . حتى انتهى الى حبيب وهو يحرض اصحابه .

فدفع جيشه بصدور الخيل واكرههم على التراجع عند الظهر الى قبة معاوية وكان يقول وهو على فرسه : الا ان معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الحق اهله وعاند من ليس مثله واستعان عليكم بالاعراب الذين زين لهم الضـــلال وزرع في قلوبهم حب الفتنة .. فقاتلوا هؤلاء الطغام الجفاة ولا تخشوهم .. قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وينصركم عليهم .

وكان علي يقول وهو في القلب :

يا رجال الاسلام ، سوّوا صفوفكم كالبنيـــان المرصوص ، وقدموا الرجال الذين يلبسون الدروع ولا تتراجعوا حتى تفرقوا شمل عدوكم . واما الرايات فلا تميلوها ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم واستعينوا دائماً بالصبر .

وسمع يزيد بن قيس الارحبي يقول : ان المسلم من سلم في دينه ورأيه وان هؤلاء القوم لا يقاتلوننا على اقامة دين ضيعناه واحياء حق أمتناه ، انهم يقاتلونا على هذه الدنيا ليكونوا ملوكا فيها ...

وكانت الصفوف قد انفرجت لعبدالله بن بديل ، عند القبة ، ثم لم تلبث ان تلاصقت وأحاطت برجاله من كل ناحية . ومعاوية يقول لأولئك الذين بايعوه على الموت: اثبتوا في وجه هذا الرجل الذي فرق الناس. وهوت السيوف..ووضعت الاسنة في الظهور والصدور فأمسى عبدالله داخل نطاق ضيق لا يستطيع النجاة منه ، ولم تكن الا ساعة حتى تفرق اصحابه من اهل العراق ولم يبقَ منهم غير ثلاثماية من الرجال .

فقال علي لسهل بن حنيف : رجالك يا سهل. فمشى ذلك القـــائد برجاله ، ولكن اهل الشام ، كانوا كثاراً ردوه الى المكان الذي زحف منه . ثم هزموا اهل اليمن، القائمين بين القلب، موقف امير المؤمنين وبين الجناح الأيمن وارجعوهم الى الوراء .

فصاح علي برجاله قائلاً : الحقوا بي الى الجناح الايسر .

وكان بنوه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد وراءه والسهام تمر بين عاتقه ومنكبيه واولئك البنون الاطهار يحاولون ان يجعلوا اجسامهم دروعاً له . حتى بصر به رجل يقال له احمر ، هو من موالي عثمان .

فمشى اليه يريد ان يقتله . فتصدى له مولى لعليّ فقتل .

فدنى أمير المؤمنين من احمر والنار تتقد من عينيه ومد يده الى جيب درعه فجذبه ثم رفعــه وضرب به الارض . ودنا منه اهل الشام في تلك الساعة . فما زاده دنوهم الا قوة .. فقـــال له ابنه الحسن : ارجع يا أمير المؤمنين الى هؤلاء القوم من اصحابك .

فابتسم قائلاً : ان اباك والله لا يبـــالي أوقع عـلى الموت ام وقع الموت

عليه !!! ...

وزحف الى الامام حتى وصل الى مواقف بني ربيعة فنـــادى بصوت عال وهو غير مكترث لما فيه الناس : لمن هذه الرايات ؟

قالوا : لربيعة .

قال : انها رايات عصم الله اهلها فثبت اقدامهم .

وكان الحصين بن المنذر بالقرب منه ، وهو صاحب راية ، فقال له : يا فتى ، ألا تدني رايتك هذه ذراعاً ؟

قال: بلى والله عشر اذرع. وادناها حتى استوقفه أمير المؤمنين. ثم ارتفعت اصوات بني ربيعة يقول بعضهم للبعض الآخر : يا ربيعة .. ان اصيب فيكم أمير المؤمنين وفيكم رجل حي افتضحتم بين العرب ... !!! فقــاتلوا في ذلك اليوم قتالاً ما قاتلوا مثله قط .. وبينما القوم على ما رأيت ، مر الاشتر بعـلي ، وهو يريد الميسرة ليمنع الفرار ، فقال له : يا مالك ..

قال : لبيك يا أمير المؤمنين !

قال : ائتِ هوءلاء القوم فقل لهم : أتفرون من الموت الى الحياة التي لاتبقى لكم ؟ فركض فرسه فاستقبل الناس المنهزمين ، فأعاد عليهم كلام علي ثم قال : انا الاشتر . اليّ اليّ ... فاقبل الناس ، فقال اين بنو مذحج ؟

فأقبلت مذحج فقال : ما أرضيتم ربكم ولا نصحتم له في عدوكم ... انتم ابناء الحرب ، واصحاب الغارات ، وفرسان الطراد فاصدقوا عدوكم اللقاء ان الله مع الصادقين . فقالوا جميعهم : الى الموت في سبيل أمير الموءمنين ...

واستقبلته طائفة من شباب همدان ، قتل منهم احد عشر رئيساً من اصحاب الرايات فقالوا له : ليت لنــا من العرب من يحالفنــا على الموت فنرجع الى الساحة ..

فقال : انا حليفكم على ان لا نرجع ابداً حتى نظفر او نموت . وهمزوا خيلهم فلم يرَ الاشتر كتيبة الا فرقها ولا جمعاً الا رده حتى اعاد الصفوف جميعها الى قبة معاوية بين صلاة العصر والمغرب . وكان عبـدالله بن بديـل ورجاله قد ابصروا الموت وهم يدفعون القوم بالسيوف .

فلما تفرق عنهم اهل الشام ، رأوا اخوانهم ، فقال عبدالله : ما فعل أمير المؤمنين ؟

فقال الأشتر : هو حي في الميسرة يقاتل الناس ..

قال : الحمد لله قد كنت ظننت انه قد هلك وهلكتم ... امشوا الى القبة فوالله لا ارجع حتى اضع هذا السنان في صدر معاوية .

قال : لا تفعل واثبت مع الناس فذلك خير لك . فأبى ومضى يريد معاوية والسيفان في يديه ...

وحول معاوية جبال من الرجال . فجعل يقتل من يدنو منه حتى قتل اكثر من عشرين فارساً وكاد ينتهي الى معاوية نفسه !!!

فنهض اليه الناس من كل ناحية وأحاطوا به وبطائفة من اصحابه ، فقاتل قتال الأسد الجريح حتى قتل .

وكان معاوية قد رآه وهو يقاتل فقال : أترونه كبش القوم ؟ اني لا اعرفه . فلما قتل ، دنا منه ، فلما ابصره عرفه فقال : هذا عبدالله بن بديل والله لو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا ...

واقبل الأشتر عندئذ بأبطال قومه ، فأزال اهل الشام عن مواضعهم حتى الحقهم بالصفوف التي تحيط بالقبة ، ثم حمل عليهم حملة اخرى فصرع اربعة صفوف. فدعا معاوية فرسه فركبه وهم بالفرار .

فقال له عمرو بن العاص : اليوم صبر وغداً فخر .

فقال : صدقت وسأصبر ..

ورجع جناح علي الايمن الى موقفه الاول ، فطابت نفس أمير المؤمنين ، وجعل يطوف في القوم ويدعوهم الى الصبر . ثم بلغه بعد لحظة ، ان عماراً بن ياسر ، قتل وهو يقتحم الخيل ، والسيف في يده – واسم الله تردده شفتاه. فاسود وجهه واختلجت عيناه .. ولولا عزة الملك ، وحرمة الخلافة لبكاه .. ثم قال لناقل الخبر : أكنت تحارب في صفه؟

– نعم يا أمير المؤمنين .

– وماذا كان يقول ؟

ليت لنا من العرب من يحالفنا على الموت فنرجع الى الساحة ..

فقال : انا حليفكم على ان لا نرجع ابداً حتى نظفر او نموت . وهمزوا خيلهم فلم يرَ الاشتر كتيبة الا فرقها ولا جمعاً الا ردّه حتى اعاد الصفوف جميعها الى قبة معاوية بين صلاة العصر والمغرب . وكان عبدالله بن بديل ورجاله قد ابصروا الموت وهم يدفعون القوم بالسيوف .

فلما تفرق عنهم اهل الشام ، رأوا اخوانهم ، فقال عبدالله : مافعل امير المؤمنين؟

فقال الاشتر : هو حي في الميسرة يقاتل الناس

قال : الحمد لله قد كنت ظننت انه قد هلك وهلكتم ... امشوا الى القبة فوالله لا ارجع حتى اضع هذا السنان في صدر معاوية .

قال : لاتفعل واثبت مع الناس فذلك خير لك . فأبى ، ومضى يريد معاوية والسيفان في يديه ...

وحول معاوية جبال من الرجال . فجعل يقتل من يدنو منه حتى قتـــل اكثر من عشرين فارساً وكاد ينتهي الى معاوية نفسه !! فنهض اليه الناس مــن كل ناحية وأحاطوا به وبطائفة من اصحابه ، فقاتل قتال الأسد الجريح حتى قتل .

وكان معاوية قد رآه وهو يقاتل فقال : أترونه كبش القوم ؟ اني لاعرفه . فلما قتل ، دنا منه ، فلما ابصره عرفه فقال : هذا عبدالله بن بديل والله لـــو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا ..

واقبل الاشتر عندئذ بأبطال قومه ، فأزال اهل الشام عن مواضعهم حتى الحقهم بالصفوف التي تحيط بالقبة . ، ثم حمل عليهم حملة اخرى فصرع اربعـــة صفوف . فدعا معاوية بفرسه فركبه وهمّ بالفرار .

فقال له عمرو بن العاص : اليوم صبر وغداً فخر .

فقال : صدقت وسأصبر ..

ورجع جناح علي الايمن الى موقفه الاول ، فطابت نفس امير المؤمنين ، وجعل يطوف في القوم ويدعوهم الى الصبر . ثم بلغه بعد لحظة ، ان عماراً بن ياسر ، قتل وهو يقتحم الخيل ، والسيف في يده واسم الله تردده شفتاه . فاسود وجهه

واختلجت عيناه .. ولولا عزة الملك وحرمة الخلافة لبكاه .. ثم قال لناقل الخبر : أكنت تحارب في صفه ؟

– نعم يا امير المؤمنين .

– وماذا كان يقول ؟

– سمعته يقول قبل ان ركض فرسه : اللهم ، اني لو اعلم ان رضاك في ان اقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته . اللهم اني لو اعلم ان رضاك في ان اضع ظبة سيفي في بطني ثم انحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت .. ألا واني لا اعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين .

– ثم ماذا ؟

ثم همز فرسه وكان يقول : من يبتغي رضوان الله ربه ولا يرجع الى مال او ولد فليتبعني ، فأتته عصابة من الابطال ، فقال لها : اقصدوا بنا هوءلاء القوم الذين يطلبون بدم عثمان وهم والله ما ارادوا الطلب بدمه ، ولكنهم قوم ذاقوا الدنيا وعلموا ان الحق اذا لزمهم ، حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه ...!

فتمتم علي قائلاً : رحم الله الرجل الصالح الذي آثر آخرته على دنياه ..

والتفت الى من حوله من ربيعة وهمدان فقال : انتم درعي ورمحي فسيروا معي ..

فدفعوا الخيل ، وتقدمهم هو على بغلة له وقد حملوا حملة رجل واحد ، فلم يبق صف من صفوف اهل الشام الا تضعضع . ولفت نظر علي ، وهو في ذلك الاتون الملتهب ، فتى في زهرة عمره ، على مهر له احمر ، يطعن الصدور امام أمير المؤمنين ، ويفرق الناس عنه ، وهو ساكت لا ينتسب ولا يقول كلمة ...

فقال لربيعة : أهو من فتيانكم ؟

قالوا : لا !

فقال لهمدان : أهو منكم ؟

قالوا : لا نعرفه ولم نره من قبل !!

فناداه قائلاً : ارجع ايها الفتى ولا تقذف بنفسك الى الهوة . فنظر اليه وابتسامة الالم على شفتيه ، ثم قال : لقد طاب لي الموت يا أمير المؤمنين ..

قال : ارجع الى صفك ..

قال : لا صف لي !

- اذن فكن مع ربيعة ..

- أؤثر ان اكون حراً ...

وغاص في اللجة حتى كاد يحتجب بين الصفوف !

فقال علي : انقذوا الفتى فستمزقه السيوف .

فتبعه اربعة من همدان يضربون القوم وراءه ..

وتقدم علي ، من الناحية الاخرى ، مع قومه حتى بلغوا قبة معاوية وأمير المؤمنين يقول : اقتلهم ولا أرى معاوية ، الجاحظ العين المظيم الحاوية .

ثم رفع سيفه وهو عند القبة فنادى : يا معاوية ، علام يقتل الناس بيننا ؟.. هلمّ احاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقام له الامر .

فقال عمرو بن العاص لمعاوية : انصفك عليّ .

فقال له : اما انت فلم تنصف .

- لماذا ؟

- لانك تعلم انه لا يبرز احد الى علي الا قتله !

- ولكن لا يليق بك ترك البراز .

قال : لقد عرفت الآن انك تطمع بالامارة بعدي

واختلط بالناس يدعوهم الى الدفاع ، ولم يبرز اليه . وقد رأى أمير المؤمنين النصر ، فجعل يقاتل ويقول لرجاله : لا ترجعوا حتى تبلغوا الغاية من هؤلاء .

وكان هاشم بن عتبة في صف آخر يقول للناس وقد اقبل المساء : من كان يريد الله والدار والآخرة فليتقدم .. ان هؤلاء على ضلال وانكم على حق ، فاحملوا . ففعلوا ما امرهم به ، وفرقوا الكتائب، حتى التقوا عند المغرب كتيبة التنوخ ، فقتل هاشم تسعة من رجالها ثم تغلغل بين صفوفها فطمنه الحرث ابن المنذر التنوخي فسقط .

ومر امير المؤمنين بكتيبة من اهل الشام لا تترك مواقفها ، فقال : من

هوءلاء ؟

قالوا : غسان .

قال : ان هوءلاء لا يزولون الا بطعن وضرب يفلق الهام .. اين اهل النصر والصبر طلاب الاجر ؟

فأتته طائفة من عشائر كثيرة ، فقال لابنه محمد: تقدم مع هوءلاء ، نحو هذه الراية مشياً على مهل، حتى إذاشرعت في صدورهم الرماح فامسك حتى يأتيك امري. ففعـــل محمد ، ثم اتاه امر ابيه فحمل عليهم فأزالهم عن موقفهم . ومر الأسود بن قيس المرادي في تلك الساعة بعبدالله بن كعب وهو من عشيرته فرآه صريعاً يكاد يلفظ الروح . فنزل اليه وقال : لقـــد عز علي مصرعك ، أوصني رحمك الله .

قال : اوصيك بتقوى الله ، وأن تناصح امير الموءمنين وتقاتل معه هوءلاء المتمردين حتى تظفر أو تلحق بالله ، وقل له : قاتل على المعركة الى الصبـــاح تجعلها خلف ظهرك فان من يصبح غداً والمعركة خلف ظهره كان الظافر .. ثم لم يلبث حتى مات . فأقبل الاسود الى امير الموءمنين فخبّره فقال : رحمـه الله ، جاهد عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة. ثم رفع صوته قائلاً: لا ترجعوا ايها الناس حتى نأذن لكم

واقتتلوا تلك الليلة كلها الى الصباح . تطـاعنوا حتى تكسرت الرماح وتراموا حتى نفد النبل . فلجأوا الى السيوف ، وعلي ينتقل من الجناح الأيمن الى الجناح الايسر ويأمر كل كتيبة أن تقدم على الكتيبة التي تليها ، حتى اصبح والمعركة كلها خلف ظهره .

وابن عباس في الميسرة ، والاشتر في الميمنة وهو يقـاتل ويقول لاصحابه : ازحفوا قيد هذه القوس ، حتى مل الناس الاقدام وهو لا يمل ! فلما رأى ذلك دفع رايته الى حيان بن هوذة النخعي ، وخرج يسير في الكتـائب ويقول : من يشتري نفسه ويقاتل مع الاشتر ؟

فانضمت اليه طوائف النـاس . فرجع الى المكان الذي كان فيه وقال لهم : لقد كتب لنا النصر . وضرب وجه فرسه ثم قال لصاحب الراية : اقدم بها .

وحمل على القوم ، وحملوا معه ، فضرب أهل الشام ضرب بطـــل تلتحى السيوف عنه حتى انتهى بهم الى المعسكر .

وقتل هنالك حامل رايته ، فأمده علي بالرجال . وكان عمرو بن العاص في تلك النـــاحية ، وقد رأى ان أمر أهل العراق قد اشتد وان الشام ستخسر فمشى يفتش عن معاوية حتى رآه فقـــال : هل لك في أمر يزيدنا اجتماعاً ويزيدهم فرقة ؟

قال نعم فما هو ؟

قال : نرفع المصاحف ثم نقول : هذا حكم بيننا وبينكم ، فان أبى بعضهم ان يقبلها ، رأيت فيهم من يقول : ينبغي لنا ان نقبل ، وهذه هي الفرقة !

– وأن قبلوا جميعاً ؟

– رفعنا القتال عنا الى أجل .

قال : افعل وتعجل في الامر .

فرفع اهل الشام المصاحف على الرماح وقالوا : هذا كتاب الله عز وجل ، حكم بيننا وبينكم .. من لثغور الشام بعد اهله ، من لثغور العراق بعد اهله ...

فلما رآها الناس قال بعضهم : نجيب الى كتاب الله .

فقام علي فيهم خطيباً فقال : يا عباد الله ، امضوا على حقكم ، وقتال عدوكم فان معاوية وعمرا ، وابن مسلمة وعبدالله ابن ابي سرح ، والضحاك ابن قيس ، ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ... انا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم اطفـــالا ورجالا فكانوا شر اطفال ، وشر رجال ... ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ووهناً ...

قالوا : لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى .

قال : اني انما اقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فهم قد عصوا الله فيما امرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه .

فقال مسعر بن فدك التميمي، وزيد بن حصين الطائي ، وقد أمسيا بعد ذلك من الخوارج ، يا علي ، أجب الى كتاب الله اذا دعيت اليه ، والا دفعناك الى القوم او نفعل بك ما فعلنا بابن عفان .

قال : احفظوا عني نهيي اياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، فان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فافعلوا ما بدا لكم .

قالوا : ابعث الى الاشتر ليكفّ عن القتال .

فبعث اليه يزيد بن هانىء يستدعيه .

فقال الاشتر : ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك فيها ان تزيلني عن موقفي اني قد رجوت ان يفتح الله لي . فرجع يزيد فخبّر علياً .

فارتفعت اصوات القوم وجعلوا يقولون : ما نراك الا أمرته بأن يقاتل ..

قال : بل امرته بأن يرجع وانتم تسمعون ..

قالوا : ابعث اليه فليحضر والا اعتزلناك ..!

فقال : ويلك يا يزيد ، قل له ان الفتنة قد وقعت فليأت .

فنقل يزيد ذلك الى الاشتر فقال : ألرفع المصاحف ؟

– نعم .

– والله قد ظننت ان الفتنة ستقع.. انها مشورة عمرو بن العاص ابن العاهر ألا ترى الفتح يا ابن هانىء، ألا ترى ما يلقون.. ألا ترى ما صنع الله لنا .. لا . لن ادع هوءلاء وانصرف عنهم .

– وهل تحب ان تظفر ، ويسلم أمير المؤمنين الى عدوه ؟

فتردد في الجواب ثم قال : لا والله .. سبحان الله !

وأقبل اليهم فقال : يا أهل العراق ، يا اهل الذل والوهن .. أحين علوتم القوم وظنوا انكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا امر الله ... امهلوني ساعة فقد احسست بالفتح .

قالوا : لا !

– امهلوني لحظة فاني قد طمعت بالنصر .

– دعنا منك يا اشتر ، فقد قاتلناهم لله ، وندع قتالهم لله .

قال : خدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يا اصحاب الجباه السود.. كنا نظن صلاتكم زهداً في الدنيا وشوقاً الى لقاء الله ، انكم لا ترون بعدها عزاً ابداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . فسبوه ، وسبهم ، ثم ضربوا وجه فرسه

سياطهم ، وضرب هو وجه افراسهم بسوطه ، فصاح به وبهم علي : كفوا ، ولنسمع ما يقوله الناس .

فقالوا : رضينا ان نجعل القرآن حكماً بيننا وبينهم .

فأقبل الأشعث بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد رضي الناس بما دعوهم اليه فابعث بي ان شئت الى معاوية لأسأله عما فعل .

قال : أذهب .

فأتى الأشعث معاوية فقال له : لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟

ـ لنرجع نحن وانتم الى ما امر الله به في كتابه .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ تبعثون رجلاً ترضون به ، ونبعث نحن رجلاً نرضى به ، ونأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله ثم نتبع ما يشيران به .

قال : هذا هو الحق .

ورجع فاعاد الى امير المومنين قول معاوية .

فقال الناس : قد رضينا فليختر معاوية رجلاً من اهل الشام .

وبلغ القوم ذلك فقال الاشعث : اما نحن فقد اخترنا ابا موسى الاشعري .

وكذلك قال القوم الذين خالفوا امير المومنين في رأيه .

فقال علي عندئذ : عصيتموني في اول الامر فلا تعصوني الآن .

ـ وماذا ترى ؟

ـ لا ارى ان أولي ابا موسى .

فقال الاشعث ، وزيد بن حصين ، ومسعر بن فدكي : لا نرضى الا به فهو قد حذرنا ما وقعنا فيه .

ـ ولكني لا اثق به ، فهو قد فارقني وخذل الناس ، ثم هرب مني حتى أمنته بعد اشهر ، اني اولي ابن عباس ..

قالوا : والله ما نبالي انت كنت ام ابن عباس .. لانريد الا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ..

ـ اذن اختار الاشتر ..

– ومن سعر الأرض غير الاشتر !
قال : قد أبيتم الا أبا موسى ؟
– نعم !
– اصنعوا اذن ما اردتم ولكن احفظوا قولي .
فبعثوا الى ابي موسى وقد اعتزل القتال يقولون له : قد اصطلح الناس
قال : الحمد لله .
– وقد جعلوك حكما ..
فقال . انا لله وانا اليه راجعون .

وجاء حتى انتهى الى معسكر علي . فدخـــل الاحنف بن قيس على علي فقال : يا امير الموءمنين ، لقد خبرت ابا موسى فوجدته ضعيف الرأي متردداً في امره لا يصلح لهوءلاء القوم ، فابعث رجلاً يدنو منهم حتى يصير في اكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم ، فان ابيت ان تجعلني حكما فاجعلني ثانياً ، او ثالثاً فان ابن العاص لا يعقد عقدة الا حللتها ولا يحل عقدة الا عقدت اخرى احكم منها .. فأبى الناس الا أبا موسى . فقال : ان ابيتم الا ابا موسى فاجعلوا وراءه الرجال ... فلم يسمعوا له .

وفي تلك الساعة اقبل عمرو بن العاص ، الى مجلس علي ، وحضر وجوه الناس ليكتبوا التحكيم ، فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه امير الموءمنين .

فقال عمرو : انه اميركم وليس اميرنا .

فقال الاحنف لعلي لاتمحُ اسم امير الموءمنين فاني اخاف ان محوتها ان لا ترجع اليك ابداً .. لاتمحها وان اقتتل الناس .

قال : لقد محا النبي بيده اسم « رسول الله » يوم الحديبية وانا افعل الان مثلما فعل .

ثم محاه ، فكتبوا : هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، علي على اهل الكوفة ومن معهم ، ومعاوية على اهل الشام ومن معهم ، اننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، وان لا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله

...نا من فاتحته الى خاتمته ، نحيي ما احيا ، ونميت ما امات فما وجد الحكمان في كتاب الله ، – وهما ابو موسى الاشعري وعمرو بن العاص – عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . واخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين ، من العهود والمواثيق انهما آمنان على انفسهما واهليهما والامة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى ابي موسى وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة لا يردانها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء الى رمضان وان أحبا ان يؤخرا ذلك أخراه ، وان مكان قضيتهما مكان عدل بين اهل الكوفة واهل الشام .

وشهد بعض رجال علي وبعض رجال معاويه وقيل للأشتر ليكتب فقال : لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي ان فعلت ، ثم قال : ألم تروا اني كنت ظافراً ؟

فقال الاشعث : والله ما رأيت ظفرا هلمّ الينا لارغبة بك عنا .

فأجابه قائلاً : بلى والله ، الرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة ، ولقد سفك الله بسيفي دماء رجال ما انت خير عندي منهم . فغضب ، ولكنه ظل ساكتاً ... ثم خرج بالكتاب يقرؤه على الناس .

فلما انتهوا من ذلك قيل لعلي : ان الاشتر لا يقر بما كتب ولا يرى الا قتال القوم وقد ترك امرك .

فقال : وانا والله ما رضيت ولا أحببت ان ترضوا ، وأمـا ان الاشتر ترك امري وما انا عليه فذلك امر لا اصدقه .. ياليت فيكم مثله اثنين .. ياليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوي ما أرى .

ورجع الناس عن صفين . والافكار مضطربة ، وفي القوم طوائف غير راضية بما جرى ، كما سيجيء وكان ذلك يوم الاربعاء ، في اليوم الثالث عشر من شهر صفر في السنة السابعة والثلاثين للهجرة .

* * *

احملوا الجرحى الى الخيام ، وادفنوا القتلى ، قالها امير المؤمنين ، والكآبة على جبينه وفي عينيه ، والحزن على اولئك الابطال الذين صرعهم السيف ، يملأ نفسه . ثم قال لفتيان همدان : ماذا جرى لذلك الفارس الفتى الذي كان يقتحم الصفوف امامي وانا عند قبة معاوية ؟

فقال احدهم : تخطفته السيوف يا امير المؤمنين كما قلت .

- وعرفت من هو ؟

- سنعثر على جثته فيعرفه القوم .

قال : نصحت له بان يرجع فلم يفعل ، فلهفي على الفتيان الأبطال الذين تحصدهم الحرب ... اخرجوا وادفنوا المسلمين الصادقين . فخرج القواد وشيوخ العشائر يتبينون الجثث ، وجعلت كل عشيرة تحمل ضحاياها الى المكان الذي تختار . واثنان من بني همدان ، يبحثان عن الفتى الغريب الذي قتل بين صفوف اهل الشام ، وهما ينظران اليه . حتى أبصرا جثته بين طائفة من جثث الاعداء .

فقال احدهما للآخر : لقد قتل اثني عشر رجلاً قبل ان يسقط ، ثم حملا الجثة الى المعسكر ليراها الناس . والساحات بين الخيام تغص بالجثث والجنود .

واذا هنالك رجل كهل ينادي : لاتدفنوا القتلى فقد ضيعت جثة فتى وارجو ان اجدها الساعة . وهو على محفة يحملها اربعة رجال والى جانبه فيها قوسه وجعبة سهامه والدموع تجول في عينيه .

وجعلوا يطوفون به ، حتى انتهوا الى الهمدانيين ، وعند اقدامهما جثة فتاهما الذي عرفت ، فصاح الرجل قائلاً : انزلوني فهذه جثته .

ثم جلس على الارض وأخذ رأس الفتى بين يديه وجعل يقول : آثرت الموت على الحياة وانت في فجر العمر فلا كانت حلوان . وكان يبكي كأن الفتى قطعة من قلبه .

فقال الناس : من هو القتيل ومن انت ؟

قال : احملوا الفتى الى الاحنف بن قيس تعرفوا كل شيء .

فقال احدهم : ان الاحنف في خيام قومه بني تميم وهو يبكي اخاه عبدالله الذي قتل هذا الصباح !!

فاطرق ملياً ثم قال : احملوني ، فقد قتل فارس تميم وقتل ولده في ساعة واحدة . فحمله رجاله والجثة وراءهم .

وكان الاحنف يرثي اخاه بالدموع الغزيرة والكآبة الصامتة . وقد قتل من ابناء قومه في ذلك اليوم ، بضعة وعشرون رجلاً . فلما انتهى اليه ان جثه اخرى حملت الى الخيام ، خفق قلبه وأحس ان الارض تدور به .

ثم قيل له : ادفن الوالد والولد في حفرة واحدة . فحنى ذلك البطل العظيم رأسه ، وعرف ان الجثة جثة طارق .. ثم شعر بضعفه .. فمسح دموعه ونهض قائلاً : طارق ابن اخي انه في حلوان .

وكان صاحب الحفة بين يديه ، فقال : لقد كان في حلوان يامولاي كما تقول. فمشى دون ان يلتفت اليه ، واستقبل الجثة فأبصر طارقاً .. فوقف يرثيه .

يا ابن اخي ، قتلت وقتل ابوك في صفين وانتما تدافعان عن الحق . .فلتستقبل ام شهيديها النازلين الى القبر ، كما كانت تستقبلهما وهما راجعان من ميادين الظفر ... طارق ... ان موتك فخر للعشيرة فعار على بني تميم ، وانا سيدهم ، ان يبكوك ، ان الرجال في ساحات القتال لاتعرف البكاء ..

وأومأ الى الناس قائلاً : ادفنوا شهداء بني تميم جميعهم في هذه الساعة وابنوا لحد العشيرة كما بنوا .

ورجع الى خيمته وهو ينظر الى الارض ، وشفتاه ترجفان .. كأنه يخاطب القتيلين . ثم دعا صاحب الحفة فقال له : كنت في حلوان ؟

– نعم ايها الأمير .

– وممن انت ؟

– من بني رياح واسمي صالح بن حجر .

– بنو رياح سكان حلوان وجلولاء .. وكيف عرفت طارقاً .

– رأيته في حلوان يا مولاي مع زوجته الحسناء المنكودة الحظ ، التي

لفظت الروح وهي بين يدي .

قال : خبرني كل شيء فان طارقاً حي في هذا الصدر .

قال : عرفت أخاك قبل ان اعرف ولده وكان ذلك في فتح خانقين ، ولقد انقذني من الموت .

واوماً الى رجله المقطوعة قائلا : وهذا أثر المعركة في ذلك اليوم .

– وانت في حلوان منذ الفتح ؟

– اجل ، ففي مساء يوم ، اقبل طارق واليتيمة ، فدعوتها الى منزلي وانا لا اعلم شيئاً عنها ، ولكني عرفت في ذلك الليل ان الله شرفني بوجود تميمي هو ابن الحسن الي .

– وبعد ذلك ؟

– ارادت اليتيمة ان تزور قبر امها في صباح اليوم الثاني ، ففعلنا ، وبينا هي عند باب القبر ، فاجأها الموت كأنه كان كامناً لها وراء الصخور القائمة بالقرب منه .

– ولم تقل شيئاً ؟

– بلى ، رددت كلمة قالتها لزوجها عند الصباح .

– ما هي؟

– اجعل جثتي فوق عظام المرأة التي ولدتني .

– وكيف احتمل طارق موت زوجته ؟

– لا ادري يا مولاي ، ولكن خيل الي ان صمته الرهيب الدائم ، كان مظهراً من مظاهر الجنون ...

– وهل ذكر يزدجرد ؟

– لم يذكر احداً ولم يرثِ زوجته بكلمة واحدة .

– ثم ماذا ؟

– ثم قضى بضعة ايام ساكتاً كأنه ابكم وهو يصارع الحمى التي انشبت مخالبها فيه ، وانا أحاول ان اعيده الى الرشد فلم استطع حتى كان اليوم السابع فسمعت صوته !!

- وماذا قال :

- طلب الي ان احفر على باب القبر كلمة أملاها عليّ ففعلت ، ثم امرني عند المساء ان اتهيأ للرحيل قائلاً : لم يبق الا ان الحق بأمير المؤمنين ..

- وكانت الاخبار قد انتهت الى حلوان ان أمير الموءمنين في صفين ??

- نعم يا مولاي ، وقد قام في ذهني في تلك الســـاعة ، انه يريد ان يقتحم الخيل دفاعا عن علي ، ثم يغوص في صفوف اهل الشـــام ليقتلوه ، وقد صح ما خطر لي .

- ولكني لا اغفر لك هذا الخطأ .

- اي خطأ يا مولاي ؟

- لقد كنت قادراً على المثول بين يدي قبل ان يخوض طارق المجال .

- لا يا مولاي ، لم اكن قادراً على ذلك لانا بلغنا صفين والحرب قائمة .

اليوم ؟

- عند الفجر يا مولاي ولم يكن هنـــالك امل بالوصول اليك وانت تدافع الخيل ، كما ان طارقاً لم يرد الا ان يدفع مهره الى الصفوف ، وكان يسأل النـــاس عن أمير الموءمنين حتى دلوّه عليه .

وانت ؟

- جلست في محفتي في الجانب الايسر ، وصرعت بالسهـــام التي كانت لي ، مع رجال من اصحاب ابن مسلمة .

فرفع عينيه الى العلاء كأنه يخاطب اخاه قائلاً : لقد اراد الله يا عبدالله الا يدر عليك صفو العيش ، فصرعك الموت وانت واثق بان طارقاً حي ..

وغلبت عاطفة العم عندئذ، ارادة البطل الحديدي، فجعلت الدموع تنحدر من عينيه وهو لا يكفكفها ولا يطرف له جفن حتى جف الدمع ..

ثم قال : اتريد الرجوع الى حلوان ؟

- لا يطيب لي عيش يا مولاي وانا فيها ..

- وتقيم بيننا ؟

- افعل اذا اراد مولاي !

فتمتم قائلا : ابق ، فكلما نظرت اليك ذكرت طارقاً وعبدالله .

ونهض وهو يقول : ارحم اللهم الوالد والولد ، وجميـــع التميميين الذين شرفوا قومهم .

ومشى الى خيمة علي ، كأن اخاه وابن اخيه لم يقتلا .

وكان الهمدانيون قـــد خبروا امير المؤمنين بموت ذلك الفتى الغريب ، واطلعوه على نسبه .

فلما انتهى الاحنف الى خيمته ، أقبل يعزيه ويذكر بلاء عبدالله في صفين ، وكان الاحنف يقول : جعلنا الله جميعاً فداء لأمير المؤمنين ..

* * *

- ٩١ -

دبت الفرقة في صفوف علي ، بعد التحكيم الذي قرأت . وخرج عن الطاعة جماعة كبيرة ، بلغ عددها اثني عشر الف رجل ، فهم الابطال البسلاء، ورجال الميادين . على انه لم يكن لهؤلاء الخوارج عذر . كانوا يقولون لامير المؤمنين لقد مللنا الحرب فارض بالتحكيم ..

ولم يكن هو راضياً به ، ولكنهم اكرهوه على ذلك بقولهم : ان لم تفعـــل اعتزلناك ..

ثم قالوا : اجعل ابا موسى الاشعري حكما ، فقال : بل اختار غيره فهو غير أهل ولا يصلح لمثل هذا !

فلحوا في الطلب ، فرضي . فلما كتب الفريقـان ما كتبوه ، انكروا ذلك وكرهوا ان يحكم الرجال بامر الله ، وجعلوا يقولون : لا حكم الا الله !! وانــ ، لعذر اقبح من الذنب !

وانت ترى ان امير المؤمنـــين ، كان قادراً على المضي في امر الحرب حتى يستقيم له الأمر ويخضع معاوية وابن العاص بقوة السيف ولكنه لم يفعل خوفا من الفتنة ، وهو الامام الورع ، الكبير في نفســه ، وفي خلقه وزهده .

رجع عن صفين ، ورجع الخوارج مع صفوفه ، والقوم اعداء متباغضون وقد فشت الفتنة في نفوسهم .

يقول الخوارج : يا اعداء الله حكمتم الرجال في كتاب الله ..

ويقول هوءلاء : فارقتم خليفتنا وفرقتم جماعتنا ..

وكانوا يتشاتمون ويتضاربون بالسياط !

حتى انتهوا الى النخيلة ورأوا بيوت الكوفة ، فاذا بشيخ في ظل بيت ، عليه اثر المرض ، فقال له علي : أرى وجهك متغيراً أمن مرض ؟

قال : نعم !

– وقد كرهته ؟

– لا احب انه بغيري .

قال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك ؟

– بلى يا أمير الموءمنين !

قال : فابشر برحمة ربك وغفران ذنبك .. من أنت ؟

– صالح بن سليم .

– وقومك ؟

– اما الأصل فمن سلامان طيء .

– وهل شهدت معنا غزاتنا هذه ؟

– لا والله ، ولقد أردتها فمنعني عنها ما تراه من أثر الحمى .

قال : خبرني ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين اهل الشام ؟

قال : فيهم الراضون وهم القوم الذين يخدعون الناس ، وفيهم الآسف الحزين على ما كان بينك وبينهم واولئك نصحاء الناس الك .

فجعل يهز رأسه ويقول : صدقت يا عبدالله ..

ومشى ، فلقيه عبدالله بن وديعة الانصاري ، فدنا منه وسلم عليه ، فقال له: ماذا يقول الناس في امرنا يا ابن وديعة ؟

قال : منهم المعجب به ، ومنهم الكاره له .

– وما قول ذوي الرأي ؟

- يقولون يامولاى ، ان علياً كان له جمع ففرقه ، وكان له حصن حصين فهدمه ، فمتى يبني ما هدم ويجمع ما فرق ، ولو كان مضى ، بمن أطاعه ، فقاتل حتى يظفر او يهلك كان ذلك هو الحزم ...

قال : انا هدمت ام هم هدموا ؟ انا فرقت ام هم فرقوا ؟ واما قولهم ، لو كان مضى بمن اطاعه فقاتل حتى يظفر او يهلك ،فوالله ما خفي عني ذلك، واني لسخي بنفسي عن الدنيا طيب النفس بالموت ، ولقد هممت بالاقدام على القوم فخفت ان تحصد الفتنة المسلمين ، ثم نظرت الى هذين قد أحاطا بي ، « وهو يعني الحسن والحسين » فعلمت انهما اذا هلكا انقطع نسل رسول الله من هذه الامة.. وأيم الله ، لئن لقيت القوم بعديومي هذا لألقينهم واولادي ليسوا معي في عسكر ولا دار .

ثم اقبل حتى قارب الكوفة ، فسمع البكاء ، فقال : ما هذه الاصوات ؟

فخرج اليه حرب بن شرحبيل فقال النساء يبكين قتلى صفين ..

فقال أيغلبكم نساؤكم ، الا تنهونهن عن هذا ؟

قال : يا امير المؤمنين ، لو كانت داراً او دارين او ثلاثاً قدرنا على ذلك ، ولكن قتل من هذا الحي وحده مئة وثمانون رجلاً فليس فيه دار الا وفيها البكاء

فاطرق ملياً ثم قال: رحم الله قتلاكم وموتاكم. ولم يزل يذكر الله حتى دخل قصره في الكوفة

ولم يدخل الخوارج معه ، بل فارقوه واتوا حروراء ، ونادى مناديهم : ان امير القتال شبث بن ربعي ، وامير الصلاة عبدالله بن الكوّا اليشكري، والامر شورى ، والبيعة لله عز وجل ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وبلغ ذلك علياً واصحابه ، فقامت شيعته فقالوا : نحن اولياء من واليت ، واعداء من عاديت

قال: عليّ بعبدالله بن عباس.

فلما مثل بين يديه قال : سر الى الخوارج ولا تتعجل في امر خصومتهم حتى آتيك .

ثم بعث بزياد بن النضر قائلاً له : انظر أي رؤوسهم اعظم شأناً وابعد صوتاً .

ففعل ، ثم عاد فخبره انه لم يرهم عند رجل ، اكثر منهم عند يزيد بن قيس، فخرج عندئذ في الناس حتى اقبل اليهم ودخل فسطاط يزيد بن قيس فصلى فيه ركعتين ، وجعل يزيد عاملاً له على اصبهان والري . ثم خرج حتى انتهى اليهم وهم يخاصمون ابن عباس فقال : من هو رئيسكم ؟

قالوا : ابن الكوا .

– وما اخرجكم علينا ؟

– حكومتك يوم صفين ..

قال : الم أقل لكم ، عندما رفعوا المصاحف ، وقلتم نجيبهم ، اني اعلم بالقوم منكم ، وانهم ليسوا باصحاب دين ؟؟

ثم قال: لقد اشترطت على الحكمين ان يحييا ما احيا القرآن، ويميتا ما أمات، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا ان نخالف ، وان أبيا فنحن من حكمها برآء .

– وهل ترى من العدل ان نحكم الرجال في الدماء ؟

– لقد حكمنا القرآن ولم نحكم الرجال كما تقولون .

– ولماذا جعلت الأجل بيننا وبين أهل الشام ؟

– لعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الامة ...

فسكتوا ، ولكن سكوتهم لم يكن عن رضى .

وقيل ، ان الخوارج قالوا عندئذ لعلي : صدقت، لكن كان ذلك كفراً منا وقد تبنا الى الله فتب انت نبايعك ، والا فنحن مخالفون ، فتاب فبايعوه ، ثم قال لهم : امكثوا ستة اشهر حتى يجبى الخراج فنخرج الى عدونا ، ذلك ما يقوله الخوارج انفسهم وقد كذبوا فيه .

* * *

- ٩٢ -

دنا اليوم الذي يجتمع فيه الحكمان . فأتى رجلان من الخوارج ، هما زرعة

ابن البرج الطـــائي – وحرقوص بن زهير السعدي فقالا لأمير المؤمنين : لا حكم الا الله .

فقالابن زهير : تب عن خطيئتك وارجع عن التحكيم واخرج بنا الى عدونا نقاتله حتى نلقى ربنا .

قال : اردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتـــاباً واعطيناهم عهوداً وقد قال الله تعالى : وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم .

قال : ذلك ذنب ينبغي ان تتوب عنه .

– ما هو بذنب ولكنه عجز عن الرأي وقد نهيتكم عنه .

فقـــال زرعة : يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجـال لا قاتلنّك طالباً وجه الله تعالى .

قال : بؤساً لك ما اشقاك فكأني أراك قتيلاً ..

قال : وددت لو كان ذلك . وخرجا وهما غاضبان .

فاختار علي عندئذٍ اربعمئة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثي وقال له : اذا اتيت ابن العاص فقل له :

« يقول لك عليّ ، ان أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق احبّ اليه وانك لتعلم موضع الحق فلا تتجاهل . ثم قل له : ان أوتيت طمعاً يسيراً كنت لله به ولأوليائه عدواً فـــلا تكن للخونة عونا وللظالمين نصيراً .. انه سيأتي يوم هو يوم وفاتك تتمنى فيه انـــك لم تظهر لمسلم عداوة ، ولم تأخذ على حكم رشوة ... » .

ثم قال لابن عباس : اذهب مع القوم ، فأنت أميرهم وصلّ بهم . فانصرفوا جميعهم ومعهم أبو موسى .

وارسل معاوية ابن العاص ، في اربعمائة من أهل الشام ، واجتمع القوم في اذرح ، من دومة الجندل .

فلقي شريح بن هانىء عمراً فنقل اليه كلام امير المؤمنين، فتغير وجه الرجل ثم قال : متى كنت أقبل مشورة علي ، او انتهي الى أمره أو أعتد برأيه ؟

قال : وما يمنعك ان تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته. فقد

كان من هو خير منك ، أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه ..

قال : ان مثلي لا يكلم مثلك !

قال : بأي ابويك ترغب عني ؟ ابأبيك الوسط ام بأمك النابغة ؟

فقام عمرو وخرج وكأنه لم يشأ ان يسمع اكثر مما سمع .

وكان قد اتى اذرح ، طائفة من قريش ومن غير قريش ، من الذين اعتزلوا الحرب بينهم ابن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام وعبد الرحمن بن عبد يغوث ، وابو جهم بن حذيفة ، والمغيرة بن شعبة .

فقال المغيرة لرجال من قريش : ماذا تقولون ، أيتفق الحكمان ؟

قالوا : لا نعلم .

– اما انا فسأعلم ذلك منهما .

ودخل على عمرو بن العاص فقال : كيف ترانا نحن الذين اعتزلنا الحرب ؟

قال : اراكم خلف الابرار امام الفجار .

فانصرف الى ابي موسى فقال له مثل ذلك ، فقال أبو موسى : أراكم أثبت الناس رأياً .

فعاد المغيرة الى اصحابه وقال لهم : لا يجتمع الاثنان على رأي واحد .

فلما اجتمع الحكمان ، قال عمرو : يا أبا موسى ، الا تعلم ان عثمان قتل مظلوماً ؟

قال : بلى !

– الست تعلم ان معاوية وآل معاوية اولياؤه ؟

– بلى ...

قال : فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت ، فان خفت ان يقول الناس ليست له سابقة فقل وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير ، وهو اخو ام حبيبة زوج رسول الله وكاتبه . ووعده بان يوليه امراً يكون له فيه سلطان .

قال : يا عمرو ، اتق الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس

بشرف ، ان الشرف لاهل الدين والفضـــل . وأفضل قريش شرفاً علي بن ابي طالب ، واما قولك ان معــاوية ولي دم عثمان فولــّه هذا الأمر ، فلم اكن لأوليه وادع المهاجرين الاولين ، وأما وعدك اياي بالسلطان فوالله لو خرج معــاوية لي عن سلطانه كله لما وليته وما كنت لأرتشي في حكم الله ، ولكنك ان شئت أن تحيي اسم عمر بن الخطاب رحمه الله ، « اي ان يولي ابن عمر » .

قال : فما يمنعك من ابني وانت تعلم فضله وصلاحه ؟

قال : ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة .

قال : ان هذا الأمر لا يصلح الا لرجل يأكل ويطعم ...

فقال : يا ابن العاص ، ان العرب قد اسندت اليك امرها بعدما تقارعوا بالسيوف فلا توقد نار الفتنة .

وكان عمرو قد عوّد ابا موسى ان يقدمه في الكلام بقوله : انت صاحب رسول الله واسنّ مني فتكلم .

وتعود ذلك ابو موسى .

فلما اراد ان يولي ابنه أو معاوية فأبى ، واراد أبو موسى ان يولي عبدالله بن عمر بن الخطاب ، ولم يتم له ذلك . قال له عمرو : وما الرأي الآن ؟

قال : ارى ان نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختـــار المسلمون لأنفسهم من أحبوا ..

فأجابه الداهية قائلاً : الرأي ما رأيت .وخرجا الى الناس وهم مجتمعون .

فقال عمرو : يا ابا موسى ، اعلمهم اننا قد اتفقنا .

فقام ابو موسى فقال : قد اتفقنا على امير نرجو ان يصلح هذه الامة .

فقال عمرو : صدق ، تقدم يا ابا موسى فتكلم .

فتقدم الرجل ، فقال له ابن عباس : ويحك ، والله اني لاظنه قد خدعك ، فان كنتما اتفقتما على أمر فليتكلم به قبلك ثم تكلم انت بعده فانه رجل غادر ..

وكان أبو موسى مغفلاً فقال له : قد اتفقنا ...!

ثم رفع صوته قائلاً : ايها الناس ، انـّا قد نظرنا في امر هـــذه الامة فلم نرَ اصلح لأمرها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع علياً ومعاوية

ويولي الناس امرهم من أحبوا ، واني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه اهلاً . ثم تنحى .

واقبل عمرو فقال : لقد قال ابو موسى ما سمعتموه وخلع صاحبه فأنا أخلع صاحبه كما خلعه هو وأثبت صاحبي معاوية فانه وليُّ ابن عفان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه ..!

فقال سعد بن ابي وقاص وكان حاضراً : ما اضعفك يا ابا موسى عن عمرو ومكائده ..

قال : فما اصنع ؟ وافقني في الأمر ثم غدر ..

فقال ابن عباس: لا ذنب لك يا أبا موسى ، الذنب لمن اختارك لهذا المقام.

وقال عبدالله بن عمر بن الخطاب: انظروا الى ما صار أمر هذه الامة ، صار الى رجل لا يبالي ما صنع والى آخر ضعيف ..

وقال عبد الرحمن بن ابي بكر : لو مات الاشعري قبل هذا اليوم لكان خيراً له .

فقال أبو موسى لعمرو : لا وفقك الله غدرت وفجرت .

وحمل شريح بن هانيء على عمرو فضربه بالسوط ، وحمل ابن لعمرو على شريح فضربه بالسوط ايضا .

وحجز الناس بينهم . وكان شريح يقول بعد ذلك : ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط وكان علي ان أضربه بالسيف ..

وركب ابو موسى فلحق بمكة حياء من الناس ورجع شريح وابن عباس الى علي . وانصرف ابن العاص واهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة .

وعظم شأن معاوية ، من ذلك الحين ، وجعل يحرض قومه على الحرب وهم يسمعون له ، وعلي يحرض قومه وهم يتقاعدون . والقدر يمد اصبعه في كل امر ، ويساعد معاوية في بناء ملكه ، ووضع دعائم العرش الاموي .

* * *

كان لعلي ، العراق ومصر ، وفارس وخراسان والحجاز وليس لمعاوية غير الشام . ولكن معاوية وعمراً ، كانا ينظران الى الاقاليم التي قرأت ، نظرات الطمع والشهوة ، ويضعون في ظلام الليل، مناهج الاستيلاء عليها بقوة السيف. ولم يكن ذلك صعباً ، على ذينك الرجلين ، اللذين هما ادهى رجال الاسلام ، واحيلهم ، وأشدهم غراماً وشغفاً بالمجد والسلطان .

عمرو بن العاص يريد مصر لا يريد سواها ، ولكنه لا يستطيع ان يجلس في عرش فرعون ، ويمتع الطرف كل صباح بالنيل الفياض، الا اذا انتهى امر الخلافة الى ابن أبي سفيان .

فليمت علي اذن واتباعه جميعهم ، من المسلمين ، وليكن معاوية خليفة ليستقيم له الأمر في مصر ، ولتسقط السماء بعد ذلك على الارض فهو لايبالي . كما ان معاوية لم يكن يبالي ، أتأتيه الخلافة صاغرة ، ام يمشي اليها على جثث الأبرياء ..

اجل ، كان الاثنان رجلي دنيا كما مر ، وكان علي رجل زهد ودين ، ومع ذلك فقد ساعدهما الحظ وخانه ، ومشى القدر في ركابهما ، عبداً طائعاً يرفعهما بيديه الحديديتين الى العلاء . وكثيراً ما نرى هذا القدر الطائش يرفع الفجار، ويحط الابرار .

بعث معاوية رسله الى الاقاليم الخاضعة لعلي ، ليتبينوا مواضع الضعف فيها قبل ان يفاجئها بالخيل . وكذلك يفعل من يطمع بالخلافة ، ويريد ان يستولي على هذا الشرق ، بالحيلة والسيف . على ان علياً لم يكن خائفاً . كان يعلم ان انصار معاوية يؤثرون الباطل على الحق ، ويبيعون الآخرة بمظهر من مظاهر العز ، وانهم كثار ينشرون دعوتهم في كل قطر ، ويستغوون الاعراب المترددين في الطاعة ، الطامعين بالسلطان . ومع ذلك ، فايمان علي وشجاعته ، كانا اعظم من ان ينال الخوف منهما ، ووثوقه بالله وبنفسه ، كان يدفعه الى خوض الميادين ، والوثوق بالظفر .

وهو لم يستغرب خداع عمرو بن العاص ، في التحكيم ، وما بدا من ضعف أبي موسى . إن أبا موسى كان في نظره ضعيفاً مغفلاً ، كما كان عمرو بن العاص محتالاً ماكراً .

ولم يبالِ الا بهذه الدماء التي تهرق من اجل الخلافة ، وبهذه الثورة ، التي يحمل الخوارج لواءها ، ويشعلون نارها . اجل ، كان صعباً عليـــه ، ان يغض طرفه عن هذه الثورة التي لم يكن لاصحابها عذر ، وان يصبر على ما يسمع من اقاويل ، وما يرى من مظاهر العصيان . وقد اشتد ساعد الخوارج بعد اجتماع الحكمين ، وجاهروا اصحاب امير المؤمنين بالعداوة ، حتى رأى العقـلاء ان الحرب ستقع وان الصاعقة ستنقض .

ولم يكن من الرأي ان يقيم الخوارج بالبلد الذي يقيم امير المؤمنــين بالقرب منه فاجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب، وطلب اليهم ان يخرجوا من حروراء، ويلجأوا الى بلد آخر يعالجون فيه امرهم . فقال حمزة بن سنان الاسدي : هـذا هو الرأي ، ولكن ولّـــوا امركم رجلاً منكم فلا بدّ لنا من مرجع نرجع اليه وراية تحفون بها وتمشون في ظلها . فعرضوا الامارة على زيد بن حصين الطائي فأبى وعرضوها على حرقوص بن زهير فأبى ، وعلى حمزة بن سنان وشريح بن اوفى العبسي فلم يقبلا .

فقالوا : لم يبقَ إلا عبدالله بن وهب .

فقال : هاتوها فوالله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها خوفاً من الموت ، فبايعوه لعشر خلون من شوّال .

ثم اجتمعوا في منزل شريح فقال ابن وهب : اخرجوا بنا الى بلد نجتمع فيه لانفاذ حكم الله فانكم اهل الحق .

فاجابه شريح قائلاً : نخرج الى المدائن، فننزلها ، ونخرج اهلها منها ،ونبعث الى اخواننا من اهل البصرة فيجيئون .

فقال زيد بن حصين : اذا خرجتم مجتمعين ، لحق بكم جيش عليّ ، ولكن اخرجوا منفردين عندما يجنّ الليل ولا تأتوا المدائن فان فيها من يمنعكم .

– والى اين نسير ؟

– نسير حتى ننزل جسر النهروان ونكاتب اخواننا من اهل البصرة فلا تترددوا في هذا .

فقال اميرهم : نفعل ، ونكتب الليلة الى من بالبصرة .

وكان على المدائن ، سعد بن مسعود . فارسل اليه عدي بن حاتم يحذره أمر الخوارج ، فلحق بهم الى الكرخ ، ومعه خمسمائة من الرجال ، فعبر عبدالله بن وهب دجلة ، وسار الى النهروان . وانتهى كتاب عبدالله الى البصرة ، فاجتمع الخوارج فيها وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي وهمّوا بالرحيل فعلم بهم ابن عباس ، امير البصرة ، فأمر أبا الأسود الدؤلي بان يتبعهم ، فخرج في الجيش ولكنهم سبقوه وانضموا الى اخوانهم . وعرف امير المؤمنين كل شيء ، فقام في الكوفة خطيباً فقال : اما بعد فان المعصية تورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت امرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة امري ولكن أبيتم الا ما اردتم فكنت انا وانتم كما قال اخو هوازن :

امرتهم امري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

الا ان هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد ، فاستعدوا وتأهبوا للمسير الى الشام واصبحوا في معسكركم يوم الاثنين ان شاء الله .

ثم كتب الى الخوارج :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله علي امير المؤمنين الى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس : امـــا بعد فأن هذين الرجلـــين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما نبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون ، فاذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا الينا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الامر الذي كنا عليه .

فكتبوا اليه : اما بعد فانك لم تغضب لربك ، وانما غضبت لنفسك ، فــان

شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، والا فقد نبذناك .

فلما قرأ كتابهم ، رأى ان يدعهم ويمضي بمن معه حتى يلقى اهل الشام .

ثم رأى ان يستعين بأهل البصرة فكتب الى ابن عباس : لقد خرجنا الى معسكرنا بالنخيلة ، واجمعنا على المسير الى عدونا ، فاندب الناس حتى يأتيك رسولي ، واقم حتى يأتيك امري .

فقرأ ابن عباس الكتاب على القوم ، وندبهم للقتال تحت لواء الاحنف بن قيس ، وكان في البصرة ، فلم يحمل السيف غير الف وخمسمائة من الناس .

فملأت الكآبة نفس ابن عباس وخطب فقال : اتاني كتاب امير المؤمنين ، فأمرتكم بالخروج الى قتال عدوه فترددتم في الامر ولم يخرج غير الف وخمسمائة وانتم ستون الف رجل ، فأنا ادعوكم الآن الى الخروج بقيادة جارية بن قدامة السعدي ، ولا يجعلن رجلا على نفسه سبيلا فاني موقع بكل من وجدته متخلفاً عن الدعوة وعاصياً امير المؤمنين .

فطاف جارية في القوم فلم يجتمع اليه غير الف وسبعمائة !! فسيرهم ابن عباس الى الكوفة وهم ثلاثة الاف رجل ومئتان .

فدعا امير المؤمنين وجوه الناس ررؤوس اهل الكوفة ثم قال : يا اهل الكوفة ، انتم اخواني وانصاري واعواني على الحق واصحابي في الجهاد ، وقد استنفرت اهل البصرة فأتاني منهم من ترون ، فليكتب لي رئيس كل عشيرة ما ما في عشيرته من رجال الحرب ومن الفتيان الذين ادركوا سن القتال والموالي والعبيد الذين عنده . فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال : سمعا وطاعة يا امير المؤمنين ، أنا اول من أجاب ، وكذلك قال معقل بن قيس وعدي بن حاتم وزياد بن حصفة وحجر بن عدي واشراف الناس . وكتبوا اليه ما طلب ، وأمروا ابناءهم وعبيدهم ان يخرجوا معهم .

فاجتمع في ساحات الكوفة أربعون الف رجل من ابطال الميادين وسبعة عشر الفاً من الفتيان وثمانية الاف من الموالي والغلمان ، أضف اليهم اهل البصرة الذين عرفت وهم ثلاثة آلاف ومئتان. فكان جيش الكوفة ما عدا البصرة خمسة

وستين الفـــا . ثم كتب علي الى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بأن يبعثه بجيش المدائن كله الا المكلفين حراسة الاقليم .

ثم بلغه ان الناس يقولون : لو سار أمير المؤمنين الى قتال الخوارج قبل قتال اهل الشام .

فقال للقوم : بلغني انكم تريدون ان تحاربوا الخوارج قبل معاوية ، فأنا ارى ان تسيروا الى قوم يقاتلونكم لكي يكونوا ملوكا ويتخذوا عباد الله عبيداً .

فناداه الناس : سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت .

وقام صيفي بن قسيل الشيباني فقال: يا أمير المؤمنين، نحن حزبك وانصارك، نعادي من عاداك ، ونشايع من اطاعك ، من كانوا واينما كانوا ..

فاجابهم قائلا : بارك الله فيكم تهيأوا للرحيل .

وجعل ينظر في امر الجيش ، وقد عول على الخروج بعد بضعة ايام ...

* * *

- ٩٤ -

عندما اقبل الخوارج من البصرة يريدون النهروان، رأت عصابة منهم رجلا ، يسوق حماراً عليه امرأة .

فانتهروه ثم قالوا له : من أنت ؟

قال : انا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله .

قالوا : لقد افزعناك ؟

قال: نعم !

قالوا : لا روع عليك فحدثنا عن ابيك حديثـــا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به .

قال : حدثني ابي عن رسول الله انه قال : ستكون فتنة يموت فيهـــا قلب الرجل كما يموت فيها بدنه ، يمسي فيهـــا مؤمناً ويصبح كافراً ، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً .

قالوا : عن هذا سألناك ، فما تقول في أبي بكر وعمر ؟

فأثنى عليهم خيراً .

– وما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟

– انه كان محقاً في اولها وفي آخرها .

– فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟

– انه أعلم بالله منكم واشد توقياً على دينه ..

فقالوا : انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها ووالله لنقتلنك قتلة ما قتلنا مثلها أحداً .

واخذوه ، واقبلوا به وبأمرأته وهي حبلى تحت شجرة نخل، فسقطت رطبة من نخلة فأخذها أحدهم وجعلها في فيه ، فقال اخر : اخذتها وهي ليست حلالا وبغير ثمن !! فألقاها .

ثم مر بهم خنزير لرجل من اهل الذمة ، فضربه أحدهم بسيفه فقالوا له: هذا فساد في الأرض ! فلقي الرجل صاحب الخنزير فأرضاه .

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما ارى فما علي من بأس .. اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثاً وقد امنتموني ، فاضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء ..

واقبلوا الى المرأة فقالت : أنا امرأة ألا تتقون الله ؟

فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نساء من طيء .

وانتهى الخبر الى علي فبعث اليهم الحرث بن مرة العبدي ليأتيهم وينظر فيما بلغه عنهم . فلما اتاهم الحرث ليسألهم قتلوه ، ورجع بعضهم فخبر علياً . وكان يتهيأ للزحف الى الشام كما قرات .

فقال النـــاس : يا أمير المؤمنين ، كيف نترك هوءلاء القوم وراءنا ونترك أموالنا وعيالنا ، فسر بنا اليهم فاذا فرغنا منهم سرنا الى عدونا. وقال الاشعث ابن قيس مثل ذلك .

والاشعث هو القائل يوم صفين : لقد انصفنـــا اهل الشام الذين يدعون الى كتاب الله .

فلما رأى أمير الموءمنين رغبة الناس في الخروج الى قتال الخوارج ، زحف

اليهم حتى دنا منهم فبعث اليهم يقول : ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم لأقتلهم ثم اكف عنكم .

فأجابوه : كلنا قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم .

وخرج اليهم قيس بن سعد بن عبادة فقال : عباد الله ، اخرجوا الينا قتلة اخواننا وادخلوا في هذا الامر الذي خرجتم منه وعودوا بنا الى قتال عدونا وعدوكم .

فقال عبدالله بن شجرة السلمي : ان الحق قد أضاء لنا فلسنا براجعين .

قال : نشدتكم في انفسكم ان تهلكوها فاني لا ارى الفتنة الا وقد غلبت عليكم ...

وقال ابو ايوب الانصاري: اننا واياكم على الحال الاولى التي كنا عليها ليست بيننا وبينكم فرقة فعلام تقاتلوننا ؟

قالوا : لو تابعناكم اليوم حكمتم غداً ..

ثم اتاهم علي فقال : ايتها العصابة التي اخرجها الهوى عن الحق ، اني نذير لكم ان تصبحوا غداً صرعى في هذا الوادي، ألم تعلموا اني نهيتكم عن التحكيم وخبرتكم انها مكيدة وان القوم ليسوا باصحاب دين فعصيتموني ؟

قالوا: حكمنا ائمتنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا الان الى الله فتب معنا فنحن معك وان ابيت فنحن اعداؤك .

قال : اتريدون ان اشهد على نفسي بالكفر بعد ايماني بالرسول وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله؟ قالها وامر اصحابه بأن يسكتوا ورجع معهم الى المعسكر وهو يقول : لم يبق الا السيف .

ثم انه عبّى اصحابه ، فجعل على ميمنته حجر بن عدي ، وعلى ميسرته معقل بن قيس الرياحي ، وعلى الخيل أبا ايوب الانصاري وعلى المشاة ابا قتادة ، وعلى اهل المدينة ، وهم ثمانمائة رجل ، قيس بن سعد بن عبادة .

وكان على جناح جيش الخوارج الأيمن زيد بن حصين الطائي ، وعلى الجناح الأيسر شريح بن اوفى العبسي ، وعلى الخيل حمزة بن سنان الاسدي ، وعلى المشاة حرقوص بن زهير الذي انتصر لعلي في البصرة قبل يوم الجمل .

وأعطى امير المؤمنين ابا ايوب راية الأمان فنادى الخوارج قائلا : من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ، ومن لم يقتل ، ومن انصرف منكم الى الكوفة او الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد ان نقتل قتلة اخواننا منكم .

فقال فروة بن نوفل الاشجعي وهو من الخوارج : والله ما ادري على اي شيء نقاتل علياً ، ارى ان انصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله . وانصرف في خمسمائة رجل من قومه . ثم خرجت طائفة اخرى فنزلت الكوفة ، وانضم الى علي منهم مائة رجل . وكان جيشهم اربعة الاف ، فلم يبق مع عبدالله بن وهب غير الف وثمانمائة يريدون الحرب . وزحفوا الى جيش علي ، فقال علي لاصحابه : كفوا عنهم حتى يبدأوا .

ولكنه لم يقل كلمته حتى حملوا عليه من كل ناحية . فأومأ امير المؤمنين الى رجاله بان يستقبلوا خيلهم بالنبال والرماح ، وافترقت عندئذ خيل علي فرقتين مشت احداها الى الجناح الايمن والاخرى الى الايسر ، وقام الرماة يرسلون مع سهامهم الموت الاحمر ، ثم احاطت بهم الخيل من الجهات الأربع ، وراءها المشاة بالسيوف والرماح. ومرّت ساعة .. ساعة واحدة ليس غير، فاذا الدائرة تدور على القوم ، واصوات الاستغاثة ترتفع من الميدان .

فلما رأى حمزة بن سنان انه سيهلك مع اصحابه ناداهم قائلاً : تنحوا على الساحة ..

فذهبوا يريدون الوادي .. فجاءتهم الخيل من جيش علي وهوت السيوف ، فكأنما قيل لهم موتوا ، فماتوا جميعهم .

واقبل ابوايوب الانصاري الى علي فقال: يا أمير المؤمنين قتلت زيد بن حصين بطعنة واحده في الصدر ، وقد خرج السنان من الظهر ..

– وماذا قلت له ؟

– قلت ابشر يا عدو الله بالنار فقال: ستعلم غداً أينا أولى بها فقال علي : هو بها أولى .

ثم جاء هاني بن خطاب الازدي، وزياد بن حصفة وهما يقولان: قتلنا عبدالله ابن وهب ..

قال : وكيف صنعتما ؟

– رأيناه فعرفناه ، فطعناه طعنتين ..

قال : كلا كما قاتل .

ثم مثل جيش بن ربيعة بين يدي الخليفة قائلاً : قتل حرقوص بن زهير وانا قاتله ..

قال : بارك الله فيك .

وقال عبدالله بن زحر الخولاني : قتلت عبدالله بن شجرة السلمي .

قال : لقد فني الجيش كله فلا حول ولا قوة الا بالله .

وكان شريح بن أوفى يقاتل وهو مستند الى جدار عند الساحة، فحمل عليه قيس بن معاوية فقطع رجله ، فقاتل على رجل واحدة حتى صرعه السيف . وانجلى غبار الموت .

فمشى علي بين الجثث ينظر اليها ويقول : بوءسا لكم لقد ضركم من غركم .

قالو : ومن غرهم يا أمير الموءمنين ؟

قال : الشيطان والنفس الامارة بالسوء ..

ثم طاف عدي بن حاتم في القتلى يبحث عن ولده طرفة حتى ابصر جثته ، فحملها الى حفرة اعدها لها وكان يقول : انا لله وانا اليه راجعون .

ولم يقتل من اصحاب علي غير سبعة رجال، بينهم يزيد بن نويرة الانصاري، وكان من اصحاب النبي . وكان يوم الخوارج في السنة الثامنة والثلاثين .

* * *

٩٥

مرّ على الواقعة يومان فلما كان اليوم الثالث قال علي للقوم : ان الله قد حسن بكم واعز نصركم فازحفوا الان الى الشام ...

فقال الاشعث بن قيس : يا امير المؤمنين ، قد نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت اسنة الرماح ، فارجع الى الكوفة لنتهيأ ، ولعل امير المؤمنين يزيد في عدتنا فذلك أقوى لنا على العدو .

فتردد في الأمر ، ثم رأى ان القوم يرغبون فيما ذكره الاشعث ... فقال : اذن فارجعوا .

فلما انتهوا الى النخيلة ، امر الناس ان يلزموا المعسكر ويتهيأوا للزحف الى قتال معاوية بعد بضعة ايام . وجعل يعد العدة من جديد .

وبينما هو يفعل ذلك ، بلغه ان طوائف كثيرة من رجال الجيش ، تركت المعسكر ولجأت الى الكوفة بدون اذنه ؟ الا رجالا من وجوه الناس .

فلما رأى انهم افسدوا عليه رأيه، غادر النخيلة راجعاً الى الكوفة، ثم سألهم فيها ان يستعدوا ..

ولكنهم لم يفعلوا ..!!

فتركهم اياماً ثم دعا وجوههم ورؤساءهم فسألهم رأيهم فأحسّ بان حميّة العرب قد ضعفت في الصدور ، فقال : أرضيتم بالحياة وتركتم الآخرة ، وآثرتم الهوان والذل على العز ؟! وكلما ناديتكم الى الجهاد دارت اعينكم كأنكم في سكرة الموت ؟! لله انتم ، ما انتم إلا اسد الشرى في أيام السلم ، وثعالب رواغة حين تدعون الى الحرب .

ثم قال : ان لي عليكم حقاً ولكم عليّ مثله ، واما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتعليمكم كي لا تجهلوا ، وتأديبكم كي تعلموا، واما حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة والنصح لي في كل موقف ، والاجابة حين ادعوكم ، والطاعة حين آمركم ... وسكت حتى يسمع الجواب .

فاطرقوا كأنهم يفكرون في الامر ، وهم لا يفكرون .. ثم اعتذروا له قائلين :

خير لنا ولك ان نبقى في الكوفة وليفعل معاوية ما يشاء ... فتألمت نفسه ولم يستطع الا ان يصبر على ما يراه ، حتى تخلق الحادثات ما لا يعلم .. وكانت يد القدر تمتد من وراء الحجب لتعكر على الخليفة العظيم صفو خلافته ، ومعاوية ،

معاوية الداهية الطامع بالملك يمد يديه الاثنتين ، الى ذلك القدر الجائر ، ليساعده في جوره ، ويمهد له اسباب الجفاء ...

* * *

- ٩٦ -

كان محمد بن أبي بكر ، عاملاً لعلي على مصر ، كما علمت . وكان معاوية ، ينظر الى مصر ، نظره الى أعظم اقليم في دولة علي . وقد وعد ابن العاص ، بأنه سيوليه امرها ، اذا استطاع ان يظفر بابن ابي بكر ، ويضمها اليه . فلما بايعه أهل الشام بالخلافة ، بعد فشل التحكيم ، وقام الخوارج في العراق يدعون الى الخلاف ، انتهى اليه ان معاوية بن خديج السكوني ، خرج عن طاعة علي في مصر ، وقام يطلب بدم عثمان ، وهو يدعو الناس الى الثورة . وقد فسدت مصر على محمد بن ابي بكر . فقال في نفسه : لقد أتت الساعة التي استولي فيها على هذا القطر القريب ، الفياض بالبركات والنعم .

وجعل يفكر في الأمر ، ويتهيأ له ، ثم ارسل جواسيسه الى الكوفة يحصون عليه انفاس أمير المؤمنين .

وكان أمر مصر قد بلغ علياً ، فقال لرجاله : ما لمصر الا احد الرجلين ، صاحبنا الذي عزلنا « وهو يعني قيس بن سعد ، الذي كان عاملاً على مصر ، قبل محمد بن ابي بكر » او الأشتر .

والأشتر في ذلك اليوم مقيم بنصيبين ، فبعث اليه يستدعيه . فلما أقبل قال له : ليس لمصر غيرك ، فاخرج اليها فاني اكتفي برأيك . فخرج يعد عدة الرحيل.

وأتت معاوية جواسيسه فخبروه ، فعلم ان الاشتر اذا قدم مصر ، افسد عليه أمره ، وكان أشد عليه من ابن أبي بكر . فبعث الى صاحب الخراج بالقلزم يقول له : ان الاشتر قد ولي مصر ، فان قتلته قبل ان يدخلها لم آخذ منك خراجاً ما بقيت .

واقبل يقول لأهل الشام: ان علياً قد وجه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه. فكانوا يدعون كل يوم .

فلما خرج الاشتر من العراق ، وانتهى الى القلزم ، استقبله ذلك الرجــل ، دعـاه الى النزول ، فنزل في بيته . واتاه بطعام . فلما أكل أتاه بشربة مـن عسل جعل فيها سماً ، فسقاه اياها ، فمات .. فأتى الشــام حاملاً البشرى الى معاوية .

فقال معاوية لقومه : كانت لعلي يمينان ، قطعت احدهما بصفين « وهو يعني عمار بن ياسر » وقطعت الاخرى اليوم ، وهو يعني الاشتر .

فلما بلغ علياً موته قال : انا لله ، لو كان الاشتر من حديد لكان قيداً ، او من حجر لكان صلداً ، على مثله فلتبكِ البواكي . ولم يكن في ذلك الحين همٌّ لمعاوية الا مصر ، كان يخاف أهلها لقربهم منه وشدتهم على انصار عثمان ، وقدقام في ذهنه ، انه اذا استولى عليها ظفر بعلي .

فدعا عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن ابي أرطاة والضحاك ابن قيس وعبد الرحمن بن خالد ، وابا الاعور السلمي ، وشرحبيل بن السمط الكندي ، وهؤلاء اركان حربه وقال لهم : أتدرون لماذا دعوتكم ؟

قالو : لا !

فقال عمرو بن العاص : أما انا فقد علمت .

— ماذا ؟

دعوتنا لتسألنا رأينــا في مصر ، واني اقول لك ان في فتحهـا عزك وعز اصحابك .

— وكيف اصنع ؟

— تبعث جيشاً كثيفاً عليه رجل حازم تعرف ماضيه ، وتثق به ، فاذا أتى مصر ، أتاه فيها اتباع عثمان وساعدوه في القتال حتى يتم لك الامر .

قال : بل نكاتب انصارنا فنمنيهم ونأمرهم بالثبات ، ونكاتب اعداءنا فندعوهم الى صلحنا ونخوفهم ، فان استقام لنا الأمر بغير قتال فذاك الذي أردنا والا كانت الحرب .

— افعل ما تشاء فأنا ارى ان الحرب ستشعل نارها .

فكتب معاوية ، الى مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج اللذين خرجا عـن

طاعة علي ، يشكرهما على ذلك ويدعوهما الى الشدة في الطلب بدم عثمان . وبعث كتابه مع مولى له يقال له سبيع .

فلما اطلعا عليه ، اجاباه : اما بعد ، فان الأمر الذي بذلنا له انفسنا واتبعنا به امر الله، امر نرجو به ثواب ربنا وتعجيل النقمة على من قتل عثمان ، فعجل الينا بخيلك ورجلك فان عدونا قد اصبح خائفاً . وورد عليـــه الكتاب وهو بفلسطين ، فأمر عمرو بن العـــاص بالزحف الى مصر ، واختار له ستة الاف رجل ، وأوصاه بالتوءدة وترك العجلة . فسار عمرو ، حتى نزل أول أرض من ارض مصر .

فاجتمع اليه حزب عثمان، فأقام بهم أياماً ثم كتب إلى محمد بن ابي بكر : اما بعد ، فتنحّ عني بدمك يا ابن أبي بكر ، فاني لا أحب ان يصيبك مني سوء ، ان الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك ، فاخرج من مصر اني لك من الناصحين .

وأرسل مع كتابه كتاب معاوية في المعنى نفسه ، فبعث محمد الكتابين الى امير المؤمنين ، وخبره بنزول عمرو في أرض مصر ، وسأله ان يوجه اليه طائفة من جند العراق . فكتب اليه علي يأمره بان يضم شيعته اليه ، ويعده بارسال الجيوش ، ويأمره بالصبر على قتال عدوه.

وقام ابن ابي بكر في الناس ، يندبهم الى القتال مع كنانة بن بشر . فخرج مع كنانة الفان . ثم خرج محمد بعده في الفين ، وجعل كنانة على المقدمة .

فلما اقبل ابن العاص ، جعل يسرح كتائبه كتيبة بعـد كتيبه ، وكنانة لا تأتيه كتيبة الا حمل عليها وأعادها الى عمرو . فلما رأى عمرو ذلك ، بعث الى معاوية بن حديج فأتاه مع رجاله المغاوير الذين يؤثرون الموت على الحيـــاة . واحاطوا بكنانة واصحابه . ثم احاط بهم اهل الشام من كل جانب . فعرف كنانة ان الموت لا بد منه . فنزل عن فرسه ، ونزل معـه اصحابه ، وخاضوا المجال .

ولكنهم مـا لبثوا حتى تخطفتهم السيوف . ثم ارتفعت اصـــوات القوم تنادي :

قتل كنانة بن بشر ..

وكان محمد بن ابي بكر في الناحية الاخرى . فلما بلغه ان كنانة قتل قال لاصحابه : قاتلوا حتى يتم لكم الظفر او تموتوا .

وحمل والسيف في يده يقاتل قتال اليائس حتى خسر فرسه وتفرق اسحابه عنه فلم يرَ الا ان يخرج من الصفوف ويختار له ملجأ يحجبه عن العيون .

وأقبل يمشي في طريق بعيدة عن الجيش . فانتهى الى منزل سقط سقفه وبقيت جدرانه ، فآوى اليه ، وهو يرى ان مصر ستدين لعمرو بن العاص وان امر امير المؤمنين فيها قد انتهى . ومرت ساعة ... فسار ابن العاص يريد الفسطاط وألوية النصر تخفق فوق جيشه ، وخرج معاوية بن خديج في طلب محمد والموت يبسم على شفرة سيفه . حتى انتهى الى ذلك الطريق الذي مرَّ به، وقد وقفت هنالك طائفة من الرجال فقال لهم : ألم تروا ابن ابي بكر ؟

فقال احدهم : رأيت رجلاً جالساً وراء هذه الجدران . وأومأ الى الخربة التي لجأ اليها محمد . فقال : هو هو فاقبضوا عليه فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً .

واقبلوا به الى معاوية فقال : الى الفسطاط . وسار رجل من القوم ينقل البشرى الى عمرو بن العاص .

وكان عبد الرحمن بن ابي بكر في مجلسه ، وهو من خصوم علي وقد قدم مصر ، في جيش عمرو .

فلما خبر ذلك الرجل عمراً ان معاوية قبض على محمد قال : اتقتل اخي صبراً يا ابن العاص ؟ ابعث الى ابن حديج فانهه عنه . فبعث اليه يأمره بان يأتيه بمحمد، فقال معاوية : قتلتم كنانة بن بشر واخلي انا محمداً؟ هيهات هيهات!

فقال له محمد : اسقوني ماء .

فأجابه معاوية قائلاً : لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ... انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم .

قال : يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي

اولياءه ويظمىء اعداءه انت وامثالك ... اما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا .

قال : اتدري ما اصنع بك ؟

– اصنع ما شئت فانا لا ابالي .

قال : ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار ..

قال : ان فعلت بي ما تقول فلطالما فعلتم ذلك باولياء الله ، واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى معاوية وعمرو بن العاص ناراً تلظى ، كلما خبت زادها الله سعيراً ..

فغضب الرجل ، وأمر رجاله فضربوه حتى قتلوه . ثم القاه في جوف حمار واحرقه بالنار كما قال . فلما بلغ ذلك اخته عائشة ، جزعت عليه جزعاً شديداً وجعلت تدعو على معاوية وعمرو ، ولم تأكل من ذلك الوقت شواء حتى توفيت.

وكان امير المؤمنين ، يندب الناس في الكوفة للدفاع عن مصر ، فلا يأتيه أحد . فعل ذلك غير مرة ، والناس يترددون !

فدعا اشرافهم وهو كئيب ، فقال : الحمدلله على ما مضى من امره ،وابتلاني بكم ايها القوم الذين لا تطيعون اذا امرت ، ولا تجيبون اذا دعوت .... أليس عجيباً ان معاوية يدعو الجفاة الطغام، المرة والمرتين والثلاث الى اي وجه شاء، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة وانا ادعوكم ، وانتم اولو النهى وبقية الناس فتتفرقون عني وتعصونني وتختلفون عليّ ؟!

فقام كعب بن مالك الارحبي فقال: اندب الناس يا امير المؤمنين فلهذا اليوم كنت ادّخر نفسي .

ثم قام فيهم خطيبا فقال : اتقوا الله ، واطيعوا امامكم ؛ وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوه .

فخرج مع كعب الفان ليس غير . فسار بهم خمس ليال ، فلما كانت الليلة السادسة ؛ اقبل من مصر ، الحجاج بن غزية الانصاري فخبر عليا بقتل محمد ..

ثم أقبل عبد الرحمن بن شبيب من الشام ، وكان عيناً لأمير المؤمنين فيها ، فقال له عليّ : ما وراءك يا عبد الرحمن ؟

قال : وردت البشارة من ابن العاص بقتل ابن أبي بكر .

فارسل فاعاد الجيش الذي بعث به وجعل يقول : الا ان مصر قد افتتحها الفجرة اهل الجور ، الذين مشوا في غير سبيل الله ، واني والله ما الوم نفسي على تقصير ، ولكني اتقدم على الأمر ، واعرف وجه الحزم ، واقوم فيكم بالرأي المصيب ، واناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امراً حتى تصير بي الامور الى ما ترون ، فانتم القوم لا يدرك بكم الثار ولا تنفض بكم الاوتار ... دعوتكم الى غياث اخوانكم في مصر منذ بضع وخمسين ليلة ، فتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر ، ثم خرجت اليّ منكم طائفة مترددة كانما تساق الى الموت ... وملأ الحزن قلبه ، وآلمه ذلك التردد الذي يراه من القوم كلما ندبهم الى حرب .

* * *

- ٩٧ -

دانت مصر لمعاوية ، فعظم شأنه ، وذهب له في الاقطار العربية صيت وذكر !

ومصر ، في نيلها وخراجها ، ورجالها ، ركن من اركان الخلافة ، ودار رحبة لكل مسلم ضاقت به الارض وجار عليه الزمان .

ولكن معاوية لا تكفيه مصر .. فهي وحدها لا تشبع جوفه الجائع ، ولا ترضي فيه طموحه الى المجد . وقد رأى ، وهو الحكيم الداهية ، ان الحظ يخدمه ويخون علياً ، وان القدر الذي لا عهد له ، عبد من عبيده . فاغتنمها فرصة يضع يده فيها ، على اقليم آخر ، من تلك الاقاليم الكثيرة الخاضعة لأمير المؤمنين. ومعاوية اذا نظر في الامر ، لا يتردد فيه ..

ففي مساء يوم ، دعا رجلاً من اركان حربه يقال له عبد الله الحضرمي فقال له :

ما رأيك في البصرة ؟

قال : أتحدثني بأمر الفتح ؟

- اجل !

- ان الرأي في ذلك رأيك انت .

قال : معظم اهل البصرة يرون رأينا في عثمان ، وقد قتلوا وهم يطلبون بدمه ، فهم لذلك خصوم علي .

ولكنهم متفرقون كما ترى .

- نعم ، وهم يحتاجون الى رجل يجمع كلمتهم وينهض بهم في الطلب بدم الامام القتيل الذي حاربوا علياً من اجله .

إذن لم يبق الا ان تختار هذا الرجل .

- لقد اخترته فأنت هو .

قال : وكيف اصنع اذا دخلت البصرة ؟

قال : تنزل في الأزد فكلهم معك ، وتدع ربيعة فلن ينحرف عنك احد سواهم لانهم جميعهم انصار علي فاحذر ..

- وبنو تميم ؟

- لا اجد خيراً في بني تميم الذين يرأسهم الاحنف .

قال : سألمس هوى القوم ثم افعل ما اراه .

قال : إذا اصبت فتهيأ للرحيل واعدّ رجالك .

فانصرف عبد الله ، واقبل منذ تلك الليلة يعد عدته حتى تم له الامر بعدثلاثة ايام ، ثم خرج يريد البصرة وهو واثق بالنصر . وكان عبدالله بن عباس قد خرج الى امير المؤمنين بالكوفة، واستخلف على البصرة، زياد بن ابيه . فلما قدم عبدالله لقيه قوم من بني تميم يدعونه الى النزول في حيّهم وهم لا يعلمون غايته . ثم اتاه انصار عثمان مسلمين . فجعل يهامسهم قائلاً : ان عثمان إمامكم امام الهدى قتله علي ظلماً فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيراً . ثم رفع صوته ليسمعه القوم الذين حوله .

فقام الضحاك بن قيس الهلالي ، وكان على شرطة ابن عباس فقال : قبّح الله ما جئتنا به وما تدعونا اليه ، اتيتنا والله بمثل ما اتانا به طلحة والزبير ، وكنا قد بايعنا علياً ، واستقامت امورنا فحملانا على الفرقة حتى قتل بعضنا

البعض الآخر ونحن الان مجتمعون على بيعته، وقد اقال العثرة، وعفا من المسيء، أفتأمرنا ان نجرد السيوف ليكون معاوية اميراً ؟؟! والله ليوم من ايام علي خير من معاوية وآل معاوية !.

فقال له عبدالله بن خازم السلمي : اسكت فلست بأهل ان تتكلم، ثم قال لابن الحضرمي : نحن انصارك ويدك، والقول قولك فأقرأ كتابك ..

فاخرج كتاب معاوية اليهم، يذكرهم فيه آثار عثمان فيهم، ويذكر قتله ويدعوهم الى الطلب بدمه، ويعدهم بأنه يعطيهم في السنة عطاءين .

فلما فرغ من قراءته، قال الاحنف وكان حاضراً: لاناقتي في هذا ولا جملي.. وكان قد مل الحرب بعد موت اخيه وابن اخيه .

واعتزل القوم . وقام عمرو بن مرحوم العبدي فقال : ايها الناس، الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا تنكثوا البيعة فتقع بكم الواقعة . وكان عباس بن صحار العبدي، مخالفاً لقومه، وهو يحب معاوية ويؤثره على علي فقال لعبدالله : لننصرنّك بايدينا والسنتنا ... فقال نسيب له : والله يا عبدالله، لئن لم ترجع الى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك باسيافنا ورماحنا ولا يغرنك هذا الرجل الذي يتكلم الآن، وهو يعني ابن صحار .

فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان، وهو من الأزد : انت ناب من أنياب العرب فانصرني .

قال : لو نزلت في داري لنصرتك. فخاف زياد بن أبيه ان تشتعل نار الفتنة. فاستدعى حصين بن المنذر، ومالك بن مسمع فقال لهما : انتم يا معشر بكر ابن وائل انصار امير المؤمنين وثقاته، وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون، واتاه من أتاه من القوم فامنعوني حتى يأتيني امر امير المؤمنين.

فقال ابن المنذر : سأفعل .

وقال مالك، وكان يميل الى بني امية : هذا امر لي فيه شركاء اشاورهم وانظر فيه .

فارسل الى صبرة بن شيمان يطلب اليه ان يجيره ويحفظ بيت مال المسلمين، فقال صبرة : اذا حمل ما في بيت المال الى داري، فعلت .

فنقل زياد بيت المال الى دار صبرة ، ثم قال لجابر بن وهب : اني لا ارى ابن الحضرمي يكف عن الشر ، وانا اظن انه سيقاتلكم ولا ادري ماعند اصحابه، فانظر في الامر واقرأ اسرار القوم .

فلما صلى زياد ، جلس في المسجد واجتمع اليه الناس فقال جابر : يا معشر الأزد ، ان تميماً تزعم انهم هم الناس ، وانهم اصبر منكم عند الشدة ، وقد بلغني انهم يريدون ان يسيروا اليكم ويأخذوا جاركم زياداً. ويخرجوه قسراً فكيف انتم اذا فعلوا ذلك وقد اجرتموه ؟

فقال صبرة : ان جاء الاحنف نفسه جئت ، وان جاء رؤساء بني تميم جئت وان جاء شبابهم ففينا شباب ..

فطابت نفس زياد وكتب الى امير المؤمنين يقص عليه كل شيء ، فأرسل علي الى البصرة ، اعين بن ضبيعة المجاشعي التميمي ،ليفرّق بني تميم عن ابن الحضرمي، فان اقتنعوا قاتل بمن اطاعه من عصاه . فقدم اعين ، حتى اتى زياداً ، فنزل عنده ، ثم اتى قومه فطلب اليهم ان يساعدوه في أمره . فشتموه ، فانصرف عنهم .

فلما كان الليل ، دخل عليه قوم من الخوارج ، وقيل من رجال ابن الحضرمي فقتلوه غيلة .

فأراد زياد عندئذ ان يشهر السيف ،فأرسلت تميم الى الازد يقولون: لم نعرض لجاركم فلا تعرضوا انتم لجارنا . فكرهت الأزد ان تقاتلهم وكانوا يقولون : اذا عرضوا لجارنا منعناه . وكتب زياد ثانية الى علي يخبره بقتل الرجل .

فبعث علي بجارية بن قدامة السعدي ، وهو من بني تميم ، ومعه خمسمائة من رجال الحرب . فقدم جارية البصرة ، فحذره زياد من القوم ، فقال : لا ابالي بهم .

وجزى بني الازد خيراً قائلاً لهم : عرفتم الحق اذ جهله غيركم .

وقرأ كتاب علي الى اهل البصرة يوبخهم ويتهددهم ، بالمسير اليهم والايقاع بهم وقعة لا تذكر معها وقعة الجمل .

فقال صبرة بن شيبان : سمعا لامير المؤمنين وطاعة ، نحن حرب لمن حاربه، وسلم لمن سالمه .

ثم سار جارية الى قومه وقرأ عليهم الكتاب ، فأجابه اكثرهم . فأقبل الى ابن الحضرمي ومعه الازد ، ومن تبعه من قومه وعلى خيل عبدالله ، عبدالله بن خازم السلمي .

فاقتتلوا ساعة تم النصر بعدها لجيش امير المؤمنين . ففرّ عبدالله وابن خازم الى قصر في ضواحي البصرة يتحصنان به ، فاقبلت والدة ابن خازم ، وكانت حبشية ، فأمرته بالنزول فابى ، فقالت : والله لتنزلنّ او لأنزعن ثيابي .

فنزل ونجا ، وقدم جارية فأحرق القصر بمن فيه ، فهلك ابن الحضرمي ومعه سبعون رجلاً من رجال الشام فيهم بعض بني تميم .

فقال احد شعراء الازد :

رددنا زياداً الى داره وجار تميم دخاناً وذهب
لحى الله قوماً شووا جارهم ولم يدفعوا عنه حر اللهب !

وقال آخر :

غدرتم بالزبير فما وفيتم وفاء الازد اذ منعوا زيادا
فأصبح جارهم بنجاة عز وجار مجاشع أمسى رمادا

وكان ذلك ، في السنة نفسها التي قتل فيهـا محمد بن ابي بكر ، اي السنة الثامنة والثلاثين .

* * *

- ٩٨ -

الفتنة وراء الفتنة ، والقتال يتبع القتال ، وأمير المؤمنين ، يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ... ومعاوية ، واهل الشام ، ينفخون في الصدور ، روح الثورة والعصيان .

في كل بلد لهجة عتاب ولوم ، وفي كل اقليم اصـوات تدعوا الى الشورى ،

والفوضى تنشر ظلها في كل قطر .

وقد اقبل رجل من بني ناجيـــة يدعى الخريت بن راشد فقــال لعلي : يا علي ، والله لا اطيع امرك ، ولا اصلي خلفك ، واني غداً مفارق لك !!

فقال : ثكلتك امك.. تعصى ربك، وتنكث عهدك،فلا تضر الا نفسك.. خبرني لِمَ تفعل ذلك ؟

– لانك حكمت الرجال وضعفت عن الحق ووثقت بالقوم الذين ظلموا ... فأنا خصم لك ولهم .

قال : اني اعلم بالامور منك فهلمّ افسر لك كتاب الله فلعلك تعرف ما انت منكر له الان ، فأبى وخرج من عنده . فلما جنّ الليل ، جمع اصحابه ، وهم ثلاثمائة ، وقد شهدوا مع امير المؤمنين ، الجمل وصفين، وخرج بهم مفارقين علياً. فلما بلغ امير المؤمنين خروجهم قال لزياد بن خصفة البكري : لقد استهواهم الشيطان وأضلهم فنكثوا عهدهم بدون عذر .

قال : انهم لا يزيدون في عددنا اذا اقاموا ، ولا ينقصون منه اذا خرجوا ، ولكننا نخاف ان يفسدوا علينا الناس من اهل طاعتك فاذن لي في اللحاق بهم حتى اردهم عليك .

– أتدري اين توجهوا ؟

– لا ، ولكني اسأل واتبع الأثر .

قال : اخرج رحمك الله وانزل دير أبي موسى حتى يأتيك امري .

فانصرف زياد على رأس مئة وثلاثين رجلاً من بكر بن وائل حتى اتوا دير ابي موسى فأقاموا به ينتظرون امر علي .

واتى علياً كتاب ، من قرظة بن كعب الأنصاري يذكر له فيه المكان الذي انصرفوا اليه، ويخبرهم انهم قتلوا رجلاً فارسياً اعتنق الاسلام . فكتب الى زياد يأمره بان يلحق بهم ويردهم اليه ، واذا ابوا فالسيف .

وحمل عبدالله بن وال كتابه الى زياد ، فلما انتهى اليه ، زحف برجاله حتى ادرك القوم ، وهم نزول في موضع يقال له المذار .

وكان اصحابه قد تعبوا ، فلما رآهم الخريت ، امر رجاله بان يركبوا خيلهم وقال لزياد : ما تريد يا ابن خصفة ؟

وزياد من الرجال المجربين اهل الدهاء ، فقال : قد ترى ما بنا من التعب ، والذي اتيناك من اجله لا يصلحه الكلام القليل ، ولكن ننزل ، ثم نخلو جميعاً فننظر في امرنا ، فأن رأيت فيما نقوله لك حظاً لنفسك قبلته ، وان رأينا فيما نسمع منك امراً ترجو فيه العافية لم نردّه عليك .

قال : انزل .

فنزل مع اصحابه على ماء هناك ، واكلوا شيئاً وعلقوا دوابهم ، وهـذا ما كان يريده زياد . ثم وقف في خمسة رجال ، بين اصحابه وبين القوم وجعل يقول لمن حوله : ان عدتنا كعدتهم وأرى ان امرنا يصير الى القتـال فلا تكونوا اعجز الفريقين . ثم سمع اصحاب الخريت يقولون : جاء القوم وقد نهك التعب اجسامهم فتركناهم حتى استراحوا ... هـذا والله سوء الرأي ... فقال زياد للخريت : اي شيء دعاك الى الخرووج عن طاعة امير المؤمنين ؟

قال : لا ارى صاحبكم إماما ، ولا سيرتكم سيرة ، وقد رأيت ان اعتزل واكون مع من يدعو الى الشورى .

– وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبنا الذي فارقته ، علما بالله وسنّته وكتابه ؛ مع قرابته من النبي ؟

– لا !

– وفيما قتلت ذلك الرجل الفارسي الذي امسى من المسلمين ؟

– لست قاتله وانما قتلته طائفة من أصحابي .

قال : ادفعهم الينا .

– ما لي الى ذلك سبيل .

فقال زياد : لم يبق إلا السيف فتهيأ .

فدعا الخريت اصحابه ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى لم يبق رمح ؛ وتضاربوا بالسيوف حتى انحنت وعقرت الخيل .

وجاء الليل ؛ ففر الخريت مع طائفة من رجـــاله حتى أتى الاهواز ، وقد انضم اليه فريق آخر من اعداء التحكيم.

وكان زياد قد جرح ، فكتب الى علي يخبره بفرار عدوه ، وانه مقيم فيناحية من نواحي البصرة يعالج الجرحى .

فلما قرأ علي كتابه ، قام معقل بن قيس فقال : يا امير المؤمنين ، كان ينبغي ان يكون ، مع من يطلب هؤلاء ؛ عشرة رجال ، مكان كل رجل منهم .

– لماذا ؟

– ليستأصلوهم اذا لحقوا بهم .

قال : لقد جاء دورك الان فاستعد .

وندب معه الفي رجل من اهل الكوفة ؛ وعوّل على ان يضرب اهل الفتنة ضربة لا يكون لهم بعدها شأن . وكتب الى ابن عباس في البصرة ، يأمره بان يبعث رجلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألفي رجل الى معقل . ثم كتب الى زياد ابن خصفة يشكره ويدعوه الى الرجوع . فارسل ابن عبـاس الى معقل ، خالد ابن معدان الطائي في جيش مـن اهل البصرة ، ومشوا جميعاً يريدون الأهواز .

وكان الخريت في جبل من جبال ذلك القطر ؛ وقد اجتمع اليه من العرب من يرى رأيه ، ولصوص من اهل الأهواز ارادوا ان يحتفظوا بمال الخراج .

فلما التقى الجيشان صفّ معقل اصحابه فجعل على ميمنتـه يزيد بن المعقل الأسدي وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي، وكان على ميمنة الخريت اصحابه من العرب ، وعلى الجناح الآخر اهل البلد والاكراد .

وحرّك معقل رأسه مرتين ، ثم حمل في الثالثة . فصبروا له ساعة ثم انهزموا وقد قتل معقل منهم ، سبعين رجلاً جميعهم من بني ناجية انسباء الخريت وقتل اصحابه طائفة كبيرة من اهل فارس ورجال الاكراد . ولحق الخريت « باسياف البحر » وفيها جماعة كثيرة من قومه . فمـا زال يسير فيهم ، ويدعوهم الى العصيان والى قتال علي ، حتى تبعه منهم اكثر من الفين .

وكان معقل قد كتب الى امير المؤمنين بالفتح . فأستشار علي اصحابه فقالوا: نرى ان تأمر معقلاً بان يتبع آثار الفـــاسق فيقتله ، فانا لا نأمن ان يفسد عليك الناس .

فكتب علي الى معقل يثني عليه وعلى من معه ؛ ويأمره بأن يلحق به حتى يقتله او ينفيه . فمشى معقل عندئذ الى اسياف البحر ، وقد بلغه ان الرجل رد القوم عن طاعة امير المؤمنين ،وافسد من عنده من بني عبد القيس ؛ ومن حولهم من العرب . وكان قوم الخريت ، قد منعوا الصدقة في ذلك العام والعام الذي قبله لا يبالون بأمر امير المؤمنين . وهم مزيج من الخوارج وانصار عثمان .

فقال للخوارج : انا على رأيكم وان علياً اخطأ في التحكيم .

وقال لاتباع عثمان : ان علياً قتل عثمان ظلماً ..

وقال لمن منع الصدقة : شدوا ايديكم على الصدقات .

وهكذا ارضى بالقول جميع الذين انضموا اليه . واقبل معقل ، فنصب راية الامان قائلاً : من اتى هذه الراية من الناس فهو آمن الا الخريت واصحابه الذين حاربونا في المرة الأولى . فتفرق عن الخريت معظم من كان معـــه من غير قومه .

ثم حمل معقل وهو يقول : ايها الناس ان الله ساقكم الى قوم منعوا الصدقة وارتدوا عن الاسلام ونكثوا البيعة ظلماً فقاتلوهم حتى لا تبقوا منهم احداً . واقتحمت الخيل الخيل،ودارت رحى الحرب. ثم ان النعمان بن صهبان الراسي ابصر الخريت يجول في الساحة ويحرض قومه . فطعنه طعنة ازاله بها عن فرسه. ثم شهر السيفان فكان سيف النعمان اسبق الى عنق الخريت فخر على الارض مضرجا بدمه وجعل النعمان ينادي : هـــذا الخريت الفاسق قد قتل . فدب الذعر في القلوب ولوت الخيل اعناقها فراراً من السيف ، وقتل بعد الخريت مئة وسبعون رجلا من الخوارج واتباع رأيه . وقضت الحال بان يلجأ فريق من هؤلاء القوم الى معاوية في الشام ويبايعوه على الموت . وعلي يرى انه خير للخلافة ان ينصرف عنه هؤلاء المترددون ، ليعرف اعداءه ويحذر الخارجين عن طاعته ...

* * *

معاوية واهل الشام من هذه الناحية والخوارج واتباعهم من الناحية الاخرى يخلقون الحادثات في الاقاليم الآمنة ، ويعكرون على امير المؤمنين صفو العيش . وامير المؤمنين رضي الله عنه جبار صلب العود يستهين بالاخطار ويخمد النار مسترشداً برأي اصحابه مستعيناً بالله . اجل كان على علي وهو خليفة المسلمين وسيدهم الاكبر ان يثبت في وجه العداوتين القاهرتين عداوة الخوارج وعداوة الشام ويقابل الدهاء بالدهاء والسيف بالسيف . على انه كان يؤثر القضاء على الخوارج قبل ان تجمعه الميادين بجيوش معاوية في الشام او العراق .

ان الخوارج خطر على الخلافة ، لا يستهان به . يحتجبون زمناً وراء الجدران ، حتى اذا اشتد ساعدهم خرجوا والسيوف في الايدي ليقرضوا اركان الملك . وكيف يصبر الخليفة على هؤلاء الرجال ، الذين كانوا اتباعاً له فامسوا بين ليلة وضحاها ، شر الاعداء ..

يحارب الخوارج ويقضي على تلك الدعوة الغريبة التي حملوا لواءها ، ودعوا اليها المسلمين ، ثم ينظر وهو عزيز في الكوفة وله العراق والحجاز وفارس واليمن في أمر القضاء على العدو الاخر ، الذي يحاول ان يسلبه الخلافة ، ويستولي على الملك قطعة بعد قطعة . وقد خيل اليه ، ان البقية الباقية ، من طائفة الخوارج ، لن تحمل سيفا بعد واقعة النهروان ، وقد تسكت على غل الى الابد . ولكنها لم تسكت ، فقد خرج أشرس بن عوف الشيباني وهو منها ، حاملاً في الانبار ، علم الحرب .

فوجه اليه امير المؤمنين ، قائداً من قواده ، يدعى الابرش بن حسان في قطعة من الجيش . واقتتل الفريقان في الانبار ، فقتل أشرس . ثم خرج هلال بن علفة « من تيم الرباب » ومعه اخوه مجالد ، فأمر علي معقل بن قيس بان يبرز اليه . ولم يلبث هلال حتى قتل .

وبينا القوم يظنون ان الامر قد انتهى خرج رجل ثالث يقال له الاشهب بن بشر من بني بجيلة ، ومعه رجاله . ولم يشأ الا ان يجول في الساحة التي قتل فيها هلال واصحابه . فأتاه جارية بن قدامة السعدي ، فقتله وقتل اصحابه ، ورجع

جيش امير المؤمنين ، وهو ينشد اناشيد النصر . ولكن الامر لم ينته ، فقد بلغ علياً ، ان خارجياً رابعاً يدعى سعيد بن قفل من تيم الله ، يصول ويجول عنـد المدائن ، ووراءه طوائف من العرب . فبعث علي الى سعد بن مسعود يأمره ان يضع فيهم السيف ، فقتلهم سعد في السنة الثامنة والثلاثين ، في شهر رجب ، وبعث برسله الى الكوفة يحملون البشرى الى علي .

ولكن حدث بعد شهر ، ما لم يكن يخطر لأحد ، فقـد برز الى الميدان ، خارجي آخر هو ابو مريم السعدي ، ورفع صوته بالدعوة الى القتال .. وليس غريباً ، ان ينتصر الرجل لأصحابه ، ويحمل السيف كما حملوه ، بل الغرابة ، في تلك الجرأة ، التي هي مظهر من مظاهر الجنون .. رفع صوته ، في ناحية من نواحي فارس ثم مشى وهو لا يبالي، حتى قارب الكوفة عاصمة الخلافة ،مستخفاً بأمير المؤمنين وابطال المسلمين !!

فأرسل اليه علي ، يدعوه الى البيعة ودخول الكوفة، فقال للرسول : ليس بيننا وبين علي غير الحرب !! وهي جرأة لم يرَ مثلها من خارجي ..

فقال امير المؤمنين لشريح بن هانىء : اتكفيني هذا المجنون ؟

— اجل ، وسأحمل اليك رأسه .

قال : اخرج اليه غداً في سبعمائة من الرجال .

فزحف شريح ، في اليوم الثاني ، ولم يلبث حتى لقي الخوارج ، بعد خمسة فراسخ من الكوفة ، وهم اربعمائة . وقبل ان يخاطبهم بالحسنى ، ويدعوهم ثانية الى الدخول في الطاعة حملوا عليه ، وفاجأوه بالسيوف والرماح !!! فثبت لهم في وضح النهار ولكن اصحابه تراجعوا عنه قبل ان يجن الليل ولم يبق منهم حوله غير مائتين !

وأكرهه ابو مريم ، على الالتجاء الى قرية صغيرة مع بعض اصحابه واكره البعض الاخر على الفرار ، راجعين الى الكوفة .

فرأى امير المؤمنين الشجاع ان يخرج بنفسه، وكان يقول: لقد طمع الخوارج حتى ارادوا ان يغتصبوا دار الخلافة .

وأمر جارية بن قدامة ان يمشي في الطليعة .فسار جارية ودعاهم الى الطاعة، وحذرهم القتل .

ثم قدم علي فدعاهم مثله ، فلم يجيبوا ، وأبوا إلا القتال ، فأحاط بهم عندئذ جيش علي ووضع فيهم السيف حتى قتل ابو مريم وقتل رجاله لم يسلم منهم غير خمسين . وكان ذلك في شهر رمضان .

وصفا العراق بعد ذلك لعلي ، من هـــذه الناحية . ولم يبق الا ان يستعين بالقوة والدهاء ليصفو له الجو من الناحية الاخرى ، ناحية الشام . وقد عظم شأن معاوية وبعدت هيبته .

* * *

- ١٠٠ -

دخلت السنة التاسعة والثلاثون .وقد رأى معاوية ان الحظ بسم له في مصر ، فمن الرأي ان يمديده الى الاقطار الاخرى فقد يبسم له هذا الحظ في كل قطر . نعم ، ان معاوية الطامع بالعرش لا تكفيه مصر والشام ، وليس من العدالة والحكمة ان تضيق به الارض فيكون له اقليمان... وتتسع لعلي فيكون له بضعة اقاليم !!! العراق وفارس ، والحجاز واليمن ملك واسع فسيح الجوانب ، يعز على معاوية ان يكون كله خاضعاً لعلي .

وكيف يستقيم له امر الخلافة اذا هو لم يسلب علياً حقه ، ويجعل السيف رسوله، الى هذه البلاد الآمنة التي تخفق فيها اعلام أمير المؤمنين. وما هو الحق في نظر معاوية ؟ ان الحق للسيف..وللقوي ان يصعد الى العلياء على جثث الابرياء. اذن فليزرع معاوية الموت في كل بلد ، ليحصد المجد .. وليجري الدم البريء في كل قطر ليتم له امر الملك .

بدأ بالعراق ، فأرسل النعمان بن بشير ، في الف رجل الى عين التمر ، وفيها مالك بن كعب في الف رجل من رجال علي .

وكان مالك قد أذن لاصحابه فأتوا الكوفة ، ولم يبق معه غير مئة رجل . فلما عرف ان نعمان زاحف اليه ، كتب الى امير المؤمنين يستمده ، ويسأله ان يتعجل في ارسال الجيش . فأمر علي الناس بالخروج ، فتثاقلوا ...

وأقبل النعمان الى عين التمر ، وليس عند مالك غير من ذكرنا من الرجال ، فلم يستطع الا ان يستعين ، بمخنف بن سليم ، وهو قريب منه ، ويجعل سور البلد وراء اصحابه ، ريثما يصل اليـــه جيش امير المؤمنين . وسعَّر النعمان الحرب ، فقاتل مالك وهـو مستند الى السور ، ثم اقبل عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً ، وقد كسروا اغماد سيوفهم واستقتلوا . فلما رآهم اهل الشام ، انهزموا عند المساء ، وهم يظنون انهم نجدة بعث بها علي من الكوفة . فتبعهم مالك حتى خرجوا من ارضه ، وامعنوا في السهل .

وأمير المؤمنين في الكوفة ، يخطب الناس ويقول :

يا اهل الكوفة ، كلما سمعتم بجمع من اهل الشام لجأ كل رجل منكم الى بيته واغلق عليه بابه ... لا احرار عند النداء ، ولا اخوان عند النجاء ... عمي لا يبصرون ، وبكم لا ينطقون.. وصم لا يسمعون.. انا لله وانا اليه راجعون .. حتى انتهى اليه ان رجال عين التمر ظفروا بعدوهم .. ولكن بلغه من الناحيـة الاخرى ، ان سفيان بن عوف ، من قواد الشام ، زحف الى الانبار في ستة الاف رجل .

وعامل علي على الانبار ، كميل بن زياد ، وقد بلغه ، قبل مجيء سفيان بن عوف ، ان قوماً من العرب زاحفون اليه فسار اليهم ، ليوقع بهم ، بغير امر امير المؤمنين .

فلما قدم جيش الشام ، كان كميل غائباً ، وليس في الانبـــار غير مئتين من الرجال فطمع سفيان باصحـــاب علي لقلتهم ، وأحاط بهم بجيشه الكثير من النواحي الاربع ، ففرقهم ، وقتل سيدهم وهو اشرس بن حســـان البكري ، وثلاثين من رجـاله . واحتمل مـا في الانبار من امـوال اهلها ، ورجـع الى معـاوية .

فغضب امير المؤمنين على كميل بن زياد ، وكتب اليه ينكر عليه خروجه من

الانبار ، بدون اذنه . ثم امر رجاله بان يتبعوا اهل الشام ويسترجعوا ما اخذوه ففعلوا ولكنهم لم يدركوهم .

وبعد ايام أقبل عبدالله بن مسعده الى تيماء ، بأمر معاوية، يضم اليه من يمر به من اهل البادية ، ويقتل من عصاه . واجتمع اليه بشر كثير . فارسل علي ، المسيب بن نجبة في ألفي رجل ؛ فلحق بعبدالله بتيماء وتلاحمت سيوف الجيشين، عند غروب الشمس . وكان المسيب بطلاً شجاعاً تعرفه العرب ، فحمل على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله وهو يقول له : النجاة ....

فدخل ابن مسعدة وطائفة من جيشه ، حصناً هناك ، وهرب الذين نجوا من السيف الى الشام . ومرّ على اهل الحصن ثلاثة ايام ، ألقى المسيب بعدها الحطب في الباب وأضرم النار يريد ان يحرق من فيه . والمسيب من بني فزارة ، وابن مسعدة من هؤلاء ... فلما رأى القوم انهم اشرفوا على الهلاك ، اطلوا حتى اشرفوا على الجيش وجعلوا يقولون : يا مسيب قومك .. فرق لهم . وامر بالنار فاطفئت ثم قال لاصحابه : خبرني جواسيس الجيش ان جنداً من الشام سيفاجئنا غداً ...

فقال له عبد الرحمن بن شبيب : انا اكفيك امر هذا الجند اذا اردت . فأبى ذلك عليه ، فقال له عندئذ : غششت امير المؤمنين وداهنت في الأمر . فتراجع المسيب ولم يبال بقوله .

وعندما بلغ علياً ذلك ، انتهى اليه ان معاوية وجه الضحاك بن قيس الى نواحي الحيرة ، وامره بأن يغير على الاعراب الذين هم في طاعة علي ، وجعل وراءه ثلاثة آلاف من رجاله . ففعل الضحاك ما امره به ، ووضع سيفه في اعناق الناس ويده على اموالهم حتى اغار على موضع يقال له القطقطانة . فارسل اليه علي ، حجر بن عدي ، في اربعة آلاف ، اعطى كل واحد منهم خمسين درهماً ، وامرهم بأن يضربوا الضحاك ضربة لا يجسر غيره بعدها ، على الزحف الى العراق .

ومشى حجر حتى وقعت العين على العين، واقتتل الجيشان . فرأى الضحاك ان الفرار خير له من القتال . وتراجع الى تدمر ، فلحق به حجر فقتل من

اصحابه بضعــة عشر رجلاً ثم حجز الليل بين الجيشين . وعندما طلع الصباح كان الضحاك ومن معه في طريقهم الى الشام راجعين الى سيدهم فراراً من السيف. فرأى معاوية ان يسير بنفسه الى حدود العراق فيتبين قوى امير المؤمنين ويغزو اذا طاب له الغزو . ولم يلبث حتى غادر الشام ، ولكنه عندما انتهى الى دجلة ملأت هيبة امير المؤمنين نفسه فرجع دون ان يشهر سيفاً .

ثم دعا اليه وهو في دمشق ، يزيد بن شجرة فقال له : اريد ان ابعث بك الى مكة لتقيم الحج للناس ، وتأخذ لي البيعة ، وتنفي عن مكة عامل علي ا
قال : والرجال ؟
– ثلاثة آلاف .
قال : اني فاعل فجهز الجيش .
فاختار معاوية رجاله ، وامر الجيش بالمسير ، وكان عامل علي ، على مكة قثم بن عباس . فلما بلغه خبر يزيد ، أعلم اهل مكة بالامر ودعاهم الى حرب اهل الشام فلم يجيبوه ا..
فقال شيبة بن عثمان : سمعنا واطعنا .
فعول ابن عباس على ترك مكة والالتجاء الى بعض الشعاب . وكتب الى امير المؤمنين يسأله ان يمده بالجيش ، فاذا فعل قاتل الشاميين والا كان له عذر..
فنهاه رجل ، يدعى ابا سعيد الخدري ، عن ترك مكة وقال له : اقم فان رأيت منهم القتال وعندك قوة، فاعمل برأيك والا فانت قادر على الفرار عندما تشاء.
فأقام وقد تهيأ لما اشاروا عليه به . وقدم اهل الشـــام فلم يعرضوا لقتال احد وكان يزيد بن شجرة ينادي في الناس : انتم آمنون الا من قاتلنا ..

ثم استدعى ابا سعيد الخدري وقال له : اريد الالحاد في الحرم ولو شئت لفعلت لما في اميركم من الضعف ، فقل له يعتزل الصلاة بالناس واعتزلها انا ويختار الناس رجلاً يصلي بهم .
فنقل ابو سعيد ما قاله يزيد الى ابن عباس . فاعتزل الصلاة واختار الناس شيبة بن عثمان فصلى وحج بهم . فلما قضى الناس حجهم غادر يزيد مكة راجعاً الى الشام وقد رأى ان لا يعرض لامر البيعة .

واقبلت بعد خروجه خيل علي وعليها معقل بن قيس . فقص عليهم القوم ما فعله يزيد . فادر كوهم وقد رحلوا عن وادي القرى فظفروا بطائفة منهم فأخذوهم اسرى واخذوا ما معهم ورجعوا بهم الى امير المؤمنين . فكتب معاوية الى امير المؤمنين يسأله ان يطلق اسراه ويطلق هو له سبعة رجال من تغلب اسرهم الحرث التنوخي .ففعل وانصرف كل اسير الى بلاد قومه .

وقام في اذهان الناس عندئذ ان معاوية سيكف عن القتال ولكنه لم يهدأ بل كان يسير رجاله الى جميع النواحي ليسعروا النار . بعث بعبد الرحمن ابن قباث إلى بلاد الجزيرة وعليها شبيب بن عامر من أنصار علي . وكان شبيب يومئذ في خراسان . فكتب إلى كميل بن زياد يطلب اليه أن يقاتل عبد الرحمن ويقف في وجهه ريثما يعود .

فمشى ابن زياد برجاله حتى لقي جيش الشام ، فقاتله قتالا شديداً بسم له بعده النصر . ونقل رجاله البشرى إلى أمير المؤمنين فرضي علي عنه وأجابه جواباً حسناً ، وكان ساخطاً عليه ، كما قرأت .

ثم أقبل شبيب من نصيبين ، فرأى أن الأمر قد انتهى فهنأ ابن زياد بالنصر ، ودفع خيله يريد أن يلحق بأهل الشام ، فلم يستطع ، فعبر الفرات ، وأغار على أنصار معاوية حتى بلغ بعلبك . فوجه اليه معاوية حبيب بن مسلمة فلم يدركه .

وقد أغار شبيب ، وهو راجع ، على الرقة وما حولها ، فلم يدع لأهل الشام ماشية إلا استاقها ، وأخذ الخيل والسلاح وعاد إلى نصيبين . فكتب إلى علي ، ينهاه عن أخذ أموال الناس ، إلا الخيل والسلاح الذي يقاتلون به ، وجعل يقول لمن حوله : رحم الله شبيباً فقد أبعد الغارة ، وعجل الأنصار .

وكان زهير بن مكحول العامري ، يأخذ صدقات الناس بأمر معاوية في ناحية أخرى من الجزيرة . فأرسل علي اليه ثلاثة من القواد : جعفر بن عبد الله الأشجعي وعروة بن العشبة ، والجلاس بن عمير الكلبي ، ليكونوا اعواناً لأهل طاعته . فوافى الثلاثة زهيراً فاقتتلوا . ولكنهم فشلوا ، وقتل جعفر بن عبد الله ، وفر الجلاس وابن العشبة راجعين إلى الكوفة ، وابن العشبة ، على فرس من أفراس زهير بن مكحول .

فقال له علي : ليست هذه الفرس لك ....

قال : انها من أفراس زهير .

فقال : يحملك عدونا على فرس له وتمثل بين يدي أمير المؤمنين زاعماً انك عجزت عن الدفاع ؟..

وأقبل يعنفه ويلومه ، ثم ضربه بالدرة التي في يده وكان يقول : لقد بلغنا انك عاهدت عدونا على الفرار ..

فغضب عروة ولم يلبث حتى غادر الكوفة لاحقاً بمعاوية عارضاً عليه سيفه ، ومن معه من قومه . وكان أهل دومة الجندل ، قد امتنعوا ، من بيعة علي ومعاوية واعتزلوا الجيشين المتحاربين لا يجردون سيفاً . فجاء مسلم بن عقبة المري ، يدعوهم إلى طاعة معاوية فلم يجيبوه . ثم لم يشعر مسلم ، الا وقد وافاه ، مالك بن كعب الهمداني في جيش من الكوفة ففر من وجهه ، وهو واثق بأن الفرار ينقذه وأصحابه من الموت .

وأقام مالك بدومة الجندل ، أياماً ، يدعو أهلها الى بيعة علي وهم يقولون له: لا نبايع حتى يجتمع الناس على خليفة .. فانصرف راجعاً وهو لا يرى ان يخضعهم بالسيف .

وقبل ان تدخل السنة الاربعون ، انتهى الى علي ، ان اهل فارس وكرمان، كسروا الخراج ، واخرج اهل كل ناحية عاملهم ، وطرد اهل فارس ، العامل الاكبر ، سهل بن حنيف . فاستشار الناس ، فقال له جارية بن قدامة : الا ادلك يا امير المؤمنين ، على رجل صلب الراي ، عالم بالسياسة ، يكفيك امرهم ، ويكون عند حسن ظنك به ؟

قال : من هو ؟

قال : زياد بن امية .

وكان زياد في البصرة .

فأمر علي ، عبد الله بن عباس ، امير البصرة ، ان يولي زياداً . فسيره ابن عباس الى فارس ، في جيش كثير .

فوطىء بذلك الجيش ، ذلك القطر الواسع ، وكان قد اضطرب ، وجعل

يعد من يقاتل تحت لوائه ويمينه ، ويخوف من امتنع ، ثم امعن في الدهاءفضرب بعضهم بالبعض الآخر واقبلت هذه الفئة تدل على عورة الفئة الاخرى حتى صفت له فارس واستقام له الامر . فطابت نفس امير المؤمنين ، وعول على اتخاذ جميع الوسائل التي يقضي معها على معاوية الذي ينازعة السلطان .

* * *

- ١٠١ -

اقبلت السنة الاربعون ، والسيوف لم تغمد ، ودماء الابرياء لم تجف عن وجه الارض ، والناس في خوف مستمر من الحرب . وكان مجلس معاوية يضم قواده وانصاره ، وهم ينظرون في امر انتزاع الخلافة من امير المؤمنين . ومعاويةمطرق لا يقول كلمة . ثم رفع راسه قائلا : اين بسر بن ابي ارطأة ؟

فقال بسر : اني هنا يا مولاي .

قال : لقد راينا ان نبعث بك الى الحجاز واليمن .

قال : اما الحجاز فقد بعثت اليه يزيد بن شجرة فلم يفعل شيئا ، واما اليمن فأنا لهـــا .

قال : لو فعل يزيد شيئا لما خطر لنا ان نوجهك اليوم ، تذهب الى المدينة ، ومنها الى مكة ، ثم تأتي اليمن فتصنع ما يطيب لك على ان يبايعنا الناس .

قال : اقتل من اساء وابقي على من اشاء ؟

— اجل ، ونك ان تجعل صدور الناس ، من انصارعلي ،غمداً لسيفك فنحن لن نسألك عما تفعل .

قال : رضيت ، وسأسير بعد بضعة ايام .

وما لبث حتى خرج من الشام يريد المدينة، فلما قدمها ،فرابوايوب الانصاري عامل علي ، الى علي بالكوفة ، وهو شاعر بأنه عاجز عن قتال بسر. وخلا الجو لابن ابي ارطأة ، ولم يقاتله احد.

فصعد منبر المدينة فنادى عليه : شيخي شيخي عهدته هنا بالامس فـأين هو اليوم ؟ وهو يعني عثمان بنعفان .

ثم قال : والله لولا ما عهد الي معاوية ما تركت بالمدينة صبيا .. !

ثم ارسل الى بني سلمة فقال : والله ما لكم عندي امان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله . وجابر هذا من وجوه الناس .

فانطلق الى ام سلمة زوج النبي فقال لها و ماذا ترين ؟ ان ابن ابي ارطـــأة يريد ان ابايع معاوية وهي بيعة ضلالة وقد خشيت ان اقتل .

قالت : ارى ان تبايع فقد امرت ابني عمر وابن زمعة ان يبايعا .

فأتاه جابر فبايع ، ثم عمد الى الشدة ، فهدم منـــازل القوم الذين فروا من المدينة دون ان يبايعوا مولاه . ومكث اياما ثم سار الى مكة . فخاف ابوموسى الاشعري ان يقتله فهرب منه .

وجعل هو يكره الناس ، على البيعة والناس يبايعون خوفا من السيف حتى لم يبق منهم احد . فلما راى ان امره في مكة قد انتهى ، مشى الى اليمن ، وعامل علي عليها ، عبيد الله بن عباس ، شقيق عبد الله . ففعل عبيد الله كما فعل ابوايوب الانصاري .. اي انه لجأ الى الكوفة . واستخلف على اليمن ، عبد الله بن عبد المدان الحارثي . فأتاه بسر فقتله وقتل ابنه .

ثم اخذ ابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس وكانا بالبادية عنـــد رجل من بني كنانة وطاب له ان يقتلهما ، فقال له الكناني : لماذا تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ اقتلني معهما . فجرد سيفه ، وجعل يضربه حتى قتله !! ثم جعل يلهو ، بالنظر الى دماء الغلامين تسيل عند قدميه .. ثم أمر بهما فدفنا !

فخرجت نساء بني كنانة يندبن ، وقامت امراة منهن تقول له : قتلت الرجال فعلام تقتل الغلمان ؟ والله ما كانوا يفعلون هذا في الجاهلية والاسلام والله يا ابن ابي ارطاة ، ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير لسلطان سوء ...

وقتل بسر في غزوته ، جماعة من شيعة علي في اليمن . وكان الخبر قد بلـغ عليا . فأرسل جارية بن قدامة السعدي في الفين ، ووهب بن مسعود في الفـين وامرهما بأن يتبعا آثار بسر . فسار جارية حتى اتى نجران ، فقتل من فيها من شيعة عثمان ، وهرب بسر واصحابه منه .

فلحق به جارية الى مكة ، فهرب منه ، فقال عندئذ للقوم : بايعوا امـــير

المؤمنين .

فقالوا : قد هلك امير المؤمنين ... فمن نبايع ؟

بايعوا الحسن ابنه .

فبايعوا مكرهين . ثم رجع حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي الناس . فلما عرف ان جارية قد أقبل ترك المدينة واستخفى .

فقال جارية : لو وجدته لقتلته ، ثم طلب الى أهل المدينة ان يبايعوا الحسن ففعلوا : ولم يبق الا ان ينصرف الى الكوفة .

وكان علي ينتظر رجوعه ، فلما مثل بين يديه قال له : خبرني كيف قتل ابن أبي ارطاة ، ابني عبيد الله ؟

فنقل اليه ما سمعه من القوم ، فجزع امير المؤمنين جزعاً شديداً ودعا على بسر فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله . ففقد بسر بعد ذلك عقله ، فكان يهذي بالسيف ، ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ، ويجعل بين يديه زق منفوخ يضربه به ، ولم يزل كذلك حتى مات .

وذكر ابن الأثير وسواه ، ان عبيد الله ابن عباس دخل على معاوية ، بعد ان استقام له الأمر ، وعنده بسر بن أبي أرطأة ؛ فقال لبسر : وددت ان الارض انبتتني عندك حين قتلت ولدي .

فقال بسر هاك سيفي . .

فاهوى عبيد الله ليتناوله فأخذه معاوية وقال لبسر : أخزاك الله شيخاً قد خرفت ، والله لو تمكن منه لبدأ بي .

قال عبيد الله : « اجل ، ثم ثنيت به .....»

وعند ما رأى المسلمون ، ان الأمر قد اشتد ، بين معاوية وأمير المؤمنين ، سعى عقلاؤهم ليجعلوا هدنة بين الاثنين ، ووضعوا الحرب ، على ان تكون الشام لمعاوية ، والعراق والأقاليم الأخرى ، لعلي ، دون ان يدخل احدهما بلد الآخر غازيا . وتنفس المسلمون الصعداء ، وامسوا احراراً في الرواح والمجيء ، ينشر الأمن ظله في جوهم . ويمد السلام فوقهم رواقه ، والاقدار ، تمشي الى هدفها ، جائرة ، طائشة ، لا ترحم الابرياء ولا تلوي على أحد ...

* * *

في هذه السنة خرج عبدالله بن عباس من البصرة ، ولحق بمكة ، وهو يأبى ان يكون عاملاً لعلي . وسبب خروجه ، انه مر وهو في البصرة ، بأبي الأسود الدؤلي ، ولم يكن من المقربين اليه ، فقال له : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، ولو كنت راعياً لما بلغت المرعى ..

فكتب ابو الاسود الى علي : اما بعد فان الله عز وجل جعلك والياً مؤتمناً وقد بلوناك فوجدناك عظيم الامانة ناصحاً للرعية ، تكف نفسك عن دنياهم ولا تأكل اموالهم ولا ترتشي في احكامهم ، وان ابن عمك قد اكل ما تحت يديه بغير علمك ولم يسعني كتمانك رحمك الله فانظر في الأمر واكتب الي برأيك .

فكتب اليه علي : اما بعد ، فمثلك نصح الإمام والامة ، ووالى الحق ، وقد كتبت الى صاحبك فيما كتبت الي .

وكتب الى ابن عباس في ذلك ، فأجابه ابن عباس : اما بعد فان الذي بلغك باطل ، واني ضابط لما تحت يدي وحافظ له فلا تصدق الناس ..

فكتب اليه : خبرني ما اخذت من الجزية ومن اين أخذت ؟

فغضب ابن عباس ، وتناول قلمه فكتب : اما بعد فابعث الى عملك من احببت فاني تارك البصرة والسلام .

ودعا اخوانه ، من بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : هذه ارزاقنا اجتمعت .

فتبعه اهل البصرة يريدون استرجاع المال ، فقال بنو قيس : والله لا يوصل اليه وفينا عين تطرف .

فقال صبرة بن شيمان : يا معشر الازد ، ان بني قيس اخواننا وجيراننا واعواننا على العدو ، وان الذي يصيبكم من هذا المال لقليل وهم لكم خير منه فارجعوا . فانصرفوا ، وانتهت منذ ذلك اليوم ، ولاية ابن عباس . وكانت الليالي تتمخض ، لتلد حادثا يهتز له الاسلام .

* * *

اقام الخوارج بالكوفة وغيرها ساكتين لاجئين الى الهدوء. على انهم لم يكونوا من اهل الطاعة ، وانما كان يخشون ان يضع أمير المؤمنين سيفه في رقاب البقية الباقية . كانوا مخلصين في الظاهر ، واشراراً خونـة ، وراء الجدران . انهم لا يحبون احداً ولا يريدون الا ان ينقذوا الاسلام من كبار الامراء ورجال الحكم فيه ! وكلما ذكروا واقعة النهر ، ذكروا اخوانهم الذين قتلهم جيش علي ، وغلت الصدور حقداً وغضباً . اي ان النار كانت تحت الرماد .

وكان بينهم رجال يطيب لهم الموت ، في سبيل المبدأ الذي اعتنقوه . منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والبرك بن عبدالله التميمي ، وعمر بن بكر التميمي السعدي .

وقد اجتمع هؤلاء الثلاثة ، فذكروا قومهم وعابوا عمـل امرائهم وكانوا يقولون : لا خير في الحياة بعد اخواننا فلو اشترينا انفسنا وقتلنا أئمة الضلال ، وارحنا منهم الاسلام ...

فقال ابن ملجم ، وكان من اهل مصر : انا اكفيكم علياً !

وقال البرك ابن عبدالله : وانا اكفيكم معاوية !

وقال عمرو بن بكر : وانا اقتل ابن العاص .

وتعاهدوا الا يرجع احدهم عن صاحبه الذي اختاره ، حتى يقتله او يموت .

واخذوا سيوفهم فسموها « سقوها السم » وجعلوا ١٧ رمضان ، موعـداً لتنفيذ الحكم الذي اجمعوا عليه . ثم سار كل واحد منهم الى الناحيه التي اختار. والخوارج في الكوفة ، يعرف بعضهم البعض الآخر . فأتاهم ابن ملجم ، ولكنه كتمهم امره ، ولم يشأ ان يبوح به ، الا لمن يثق به من هؤلاء . ثم لقي اصحابا له من تيم الرباب ، وكان علي قد قتل منهم يوم النهر ، بضعة عشر رجلاً ، وفيهم امرأة يقال لها قطام ، قتل ابوها واخوها في ذلك اليـوم وهي آية من آيات الجمال . وكانت تبغض علياً ، ولا تطيق ان يذكر احد اسمه ، وهي حاضرة .

فلما رآها ، فتن بها واحس ان قلبه يخفق على الغرام ، فاراد ان يخطبها فقالت له : لا اتزوجك حتى تشتفي لي .. !

قال : وما تريدين ؟
قالت : ثلاثة آلاف .
— وماذا ايضاً ؟
— وعبدا وقينة ..
— وهل بقي شيء ؟
— بقي ان تقتل علياً .
فقال : لم تذكري قتل علي الا لأنك لا تريدينني .

قالت : بـــلى ، التمس غرته ، فان اصبت شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معي ، وان قتلت ، فالله خير من الدنيا وما فيها .

قال : اتعاهدينني على الوفاء اذا بحت لك بأمري ؟
— لقد عاهدتك .
— اذن فاعلمي اني لم اجيء الى الكوفة الا من اجل هذه الغاية .
— غاية زواجك ؟
— لا ، ان الزواج لم يخطر لي من قبل ، وانما غايتي قتل علي ، الذي وضع سيفه فينا يوم النهر ، وقبل ذلك اليوم .
— اقسم لي انك ستفعل !
— اقسم بالله الذي لا إله الا هو اني تركت مصر من اجل هذا .

فأطرقت ملياً كأنها تفكر ثم قالت : ولكني لا اريد ان تقذف بنفسك الى الهوة .

قال : أتخوفينني الآن وانت التي طلبت إليّ ان اقتل علياً .

قالت : لقد دفعني الحقد على علي منذ ساعة ، الى ان اقول ما قلت ، واما الان ...

— وماذا حدث الان ؟
— حدث ان عاطفة اخرى غلبت عاطفة الحقد ... هي .. عاطفة ...الحب الذي خفق في هذا الصدر .

فبرقت عيناه لحظة ، ثم تجهم وجهه قائلاً : انها لهجة استهزاء ..

– بل هي كلمة املاها عليّ الهوى فأنا لا ارضى بأن تتصدى لعلي ولو كان في قتله بلوغ المنى !..

– ومعنى ذلك ؟

– معناه اني اخاف ..

فقهقه ضاحكا ثم قال : لقد فهمت .

– ماذا ؟

– تخافين ان ترتجف يدي ساعة القتل فينجو علي ...

– بل اخاف ان تضربه فتتخطفك بعدها السيوف ..

فقال وهو لا يبالي : اقتله وليقتلوني بعده ..

– وهذا ما لا اريده ..

قال : أتأذنين لي ان اتحدث بجلاء .

– افعل .

– ألم تقولي الان « لا اتزوجك حتى تشتفي لي ؟ »

– بلى !

– ألم تطلبي رأس ابن ابي طالب مهراً لك ؟

– بلى ! وكنت قد اقسمت اني لا اتزوج الا الرجل الذي يحمل اليّ هذا الرأس .

– لم انس ، ولكن الحب الذي فاجأني الساعة حجب بغضي كما قلت.. لا لا ، لم يحجبه ، ولكنه اوحى اليّ بان عاقبة القاتل ، الموت !

– ومع ذلك فأنت تريدين ان يموت علي ..

– نعم !

فقال في نفسه : انها داهية ولكنها حسناء ..

وكان جمالها قد استهواه ..

ثم قال : ان علياً سيموت ، وليس في الكوفة قوة تنقذه من هذا السيف الذي ترين ..

قالت : لقد رأيت الآن رأيا ..

ـ ما هو ؟

ـ هو ان افتش عن رجل يساعدك في ذلك ... ويكون وراءك عندما تجرد السيف ...

ـ وهل تظنين ان هذا الرجل يدفع عني الموت ؟

ـ يكفي ان يدافع عنك حتى تفرّ ..

قال : اخشى ان يفضح سري فتسوء العاقبة .

ـ بل هو يكتمه جميع الناس ولو قتلوه ..

ـ ومتى أراه ؟

ـ في هذا الليل .

وبعث الى رجل من قومها يدعى وردان ، فأتاها في تلك الليلة يحجبه الظلام عن العيون .

فقالت له : اتعرف عبد الرحمن بن ملجم ؟

ـ اسمع انه من اخواننا وهو في مصر .

ـ ولكنه قدم عند الصباح ؛ وهذا هو .

فتصافح الرجلان. ثم قالت قطام : وهو لم يترك مصر ، الا لغرض هو غرض الخوارج المقيمين بالكوفة ... ويرجو منك ان تكون عوناً له .

قال : أيريد ان يسعر نار القتال .. ؟

ـ بل يريد ان يضرب ضربة يهتز لها العراق وفارس ، والحجاز والشام .

ـ فتمتم قائلاً : يقتل الامام ؟؟

ـ نعم تكون أنت من ورائه !

فوضع يده علي سيفه قائلاً: ليمت هذا الامام الذي قتل قومنا ونفى اخواننا الى كل قطر .

ولكن أرى ان نكون ثلاثة ..

ـ وهل تعرف فتى شجاعاً من قومنا يرضى بما ترضيان به ؟

ـ اعرف رجلاً من بني أشجع اسمه شبيب بن بجرة .

ـ ويرغب في قتل علي ؟

- لا أعلم ؟

فقال عبد الرحمن : عرفت الرجل ، وهو صديق لي .

- اذن يجب ان تراه الليلة وتخاطبه بالأمر .

- وأين هو ؟

- في الناحية التي تلي المسجد .

فنظر الى قطام كأنه يسألها رأيها ، فقالت : خير لنا ان تراه في منزله فأنا لا أعرفه .

- في هذا الليل ؟

- بل في هذه الساعة وانا بانتظارك .

فنهض عبد الرحمن وهو يقول : سأعود بعد ساعة .

وخرج يتقدمه وردان حتى دخلا بيت شبيب . وكان الرجل جالساً في بهو داره وعنده عم له. فلما رأى الرجلين مد يده الى ابن ملجم قائلا: مرحباً يا عبد الرحمن .. متى قدمت ؟

في صباح هذا اليوم .

- وأي بلد احسن من الآخر ، مصر ام الكوفة ؟

قال : تجد في مصر ما لا تجده في الكوفة وتجد في الكوفة ما لا تجده في مصر .

- وهل كان محمد بن ابي بكر احب اليك من عمرو بن العاص ؟

- لم يكن لي صحبة مع محمد وليس لي صحبة مع عمرو .

- ولكنك تؤثر احدهما على الآخر ..

قال : اؤثر الرجال الذين يبذلون دنياهم في سبيل الاسلام ...

والتفت الى عم ابن بجرة ، كأنه يخشى ان يبوح بما في صدره وهو حاضر

فقال شبيب لعمه : اتأذن لنا يا عم في الخروج الى ساحة المسجد ؟

قال : افعلوا ما يطيب لكم فأنا ذاهب . وقام فانصرف .

فقال ابن بجرة : يظهر ان عهد امير المؤمنين في مصر كان احب اليك من عهد معاوية .

فخفض صوته قائلاً : ليس في العهدين ما يستحق هذا الحب .!! علي يحكم الرجال بكتاب الله ولا يبالي ومعاوية لا ينظر الا الى مقعد الخلافة ، ولا يعبأ الا بالمجد الذي يمشي اليه في طريق مصبوغ بالدماء .

فسمع ابن بجرة لهجة ثائر فقال : اذن فالرجلان لا يصلحان للامر ..

– لا ، ولا يصلح غير الرجل الذي تختاره الأمة ..

– وهل نسيت ان المسلمين بايعوا علياً ؟

– بايعه الناس والسيف فوق الرؤوس ..

قال : لم يبق الا ان تبايع مصر عمرو بن العاص ، فينتهي كل شيء ...

– ان عمراً يؤثر دنياه على الآخرة ..

فضحك قائلاً : يخيل اليّ ، وانا اصغي الى ما تقول انك تريد ان يكون المسلمون فوضى لا امير لهم ...

– بل اريد ان يتولى امر المسلمين رجل يعمل بكتاب الله .

وسكت قليلاً ثم قال : ألست من الخوارج ؟

– بلى !

– وكيف تدافع عن علي ؟

– لا ادافع عنه بل احارب رجاله اذا طاب لكم ان تلجأوا من جديد الى السيف وابرز انا نفسي الى علي !

– فآنس فيه اللين ، فقال : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟

قال : ماذا ؟

قال : قتل علي !!

ثكلتك امك .. لقد جئت شيئاً غريباً .. كيف تقدر على قتله ؟

– اكمن له في المسجد فاذا خرج الى صلاة الفجر شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا انفسنا ، وان قتلنا فالله خير من الدنيا وما فيها ...

قال : ويحك ، لو كان غير علي كان اهون .

– واي شيء يصعب عليك في ذلك ؟

قال : عرفت فضله وبلاءه في الاسلام وما اجدني استلذ قتله وافرح لموتـه..

– وكيف استلذ هو قتل اهل النهر ، العباد الصالحين ؟
– كان ذلك في الحرب .
قال : يجوز القتل في المسجد ، كما يجوز في الميدان .
– ولكن علياً اقرب الناس الى رسول الله .
– لا يلومنا رسول الله اذا فعلنا فنحن انمـــا نقتله بمن قتل من اصحابنا في ذلك اليوم ولم يزل يغريه ويعده الوعود حتى حنى راسه راضياً .
فقال له : موعد القتل ١٧ رمضان .
– عند صلاة الفجر ؟
– اجل ويقتل في الساعة نفسها عمرو بن العاص ومعاوية .
– ومن يقتلهما ؟
– يقتل الأول عمرو بن بكر ، ويقل معاوية البرك بن عبدالله .
قال : وهل رضيت بهذا يا وردان ؟
– ليس هنالك شيء احب الي من هذا ..
– وانت باق في الكوفة يا عبد الرحمن حتى يجيء اليوم الذي ذكرت ؟
– نعم وسأحتجب في احد المنازل ولا اظهر في البلد الا عندما تأتي الساعة .
وصافحه قائلاً : اتقسم الان انك ستكون عونا لي على قتل الرجل ؟
– اقسم اني سأفعل .
فانصرف ووردان معه فأتيا المرأة .
وجعل عبد الرحمن يقص عليهـا حديث ابن بجرة وهي ترتجف غضباً حتى خبرها بوعده ، فابتسمت وجعلت تناجي اباها واخاها قائلة : ان الدم البريء الذي سفكه علي يوم النهر سيكون ناراً عليه .
وكانت تقول لابن ملجم، في نهارها وليلها: اقتل علياً اكن لك الى الأبد...

* * *

– ١٠٤ –

اقبلت ليلة ١٧ رمضان ، وابن ملجم ووردان فيمنزل قطاموالثلاثةمطرقون لا يقولون كلمة .. وكان الناظر الى وردان ، يرى وجهاً اصفر ، وعينين غائرتين

جامدتين ؛ وجبيناً مكفهراً كتب الخوف عليه سطوره . وكانت قطام ، ترفع نظرها من حين الى آخر ، لتقرأ ملامح الرجلين، وتتبين العزيمة البادية في العيون وقد قرأت الهدوء في ملامح عبد الرحمن ، والاضطراب في ملامح رفيقه ، وبدا لها بوضوح وجلاء ، ان قلب الرجل المرادي ، اشد صلابة من الحديد .

فقالت له وهي تبتسم : انها ساعة رهيبة يا عبد الرحمن ..

قال : لا ابالي بها ولو كان وراءها الموت !

– وفي اي شيء تفكر اذن ؟

– في هذا الرجل الذي ستضطرب الكوفة لقتله .

– وهل مسّت الرحمة قلبك ؟

– لا ، ولكني استعرض في مخيلتي ، هذا الموقف الذي سأقفه عند الفجر ، والسيف في يدي ، وانا انتظر خروج علي الى الصلاة !

– وهـذا معنـاه انك تخاف ان تضرب ضربة واحدة بذلك السيف !

قال : ليس لك ان تتهمي ابن ملجم بما هو بريء منه ،اني لا اعرف الخوف، ولا يخطر لي ان اتراجع عما اهمُّ به ..

– وهذا التفكير ؟

– هذا معناه اني اتصور السدة التي يخرج منها علي وانا متردد في أمر الوقوف عند بابها الخارجي .

– خير لك ان تكمن هنالك لتفاجئه بسيفك .

– وأين يقف وردان وابن بجرة ؟

– عن الجانبين .

قال : أرى ان اقف بباب المسجد من الداخل .

قالت : بين السدة والباب بضع خطوات، وقد يخرج القوم وراء علي فيصبح داخل نطاق من الرجال .

ثم قالت :ألق علياً وجهاً لوجه،فاذا اخطأه سيفك لم يخطئه السيفان الاخران.. ماذا تقول انت يا وردان ؟

وكان وردان ذاهلا فقال : اما انا فعبد امتثل ما تأمريني به ..

لكنه كان يقول في نفسه : ان الله ينهانا عن ان نقتل بريئاً .

قالت : وصاحبك ابن بجرة ؟

– واما ابن بجرة فعبد يمتثل ما يأمره به عبد الرحمن ..

قالت : يطيب لي ان اراه ، فهو من قوم يقال لهم بنو اشجع وقد يكون شجاعاً .. اين هو الان ؟

– في منزله لا يخرج منه .

– اذهب وقل له ان عبد الرحمن يدعوه اليه .

فخرج الرجل وهو يلعن تلك المرأة التي اوغرت صدره، ودفعته بدهائها الى تلك الهوة البعيدة الغور .

حتى دخل على شبيب فقال له : اين سيفك ؟

فوضع يده على سيفه قائلاً : هذا هو .

قال : اتمضي في امرك ام ترجع عنه ؟

– اني ماض فيه الى النهاية .

– : لقد دنت ساعة القتل .

– وانا انتظر هذه الساعة لإنقذ الاسلام من الفتنة الدائمة ..

– اذن فاحمل سيفك ، واغلق بابك واتبعني .

– الى اين ؟

الى منزل قريب يقيم به صاحبك .

قال : خير لي ان آوي الى فراشي بضع ساعات .

– ولكن الرجل الذي يهم بقتل امير المؤمنين بعد بضع ساعات لايستسلم الى الكرى ..

فاضطرب ، وخفق قلبه ، ثم لم يلبث حتى استعاد هدوءه ونهض وهو يقول: ان الذي يهم بقتل امير المؤمنين لا يستسلم الى الكرى . ومشى وراءه وعيناه تنظران الى منزله .

فلما انتهى إلى دار قطام ، رأى حسناء فتانة ، ترسل عيناها السحر .. وابن ملجم جالساً بالقرب منها ، على وسادة من الخز ، ونور الغرام يتلألأ على وجهه.

فعرف انها قطام بنت شحنة وكان قد رآها اكثر من مرة .

فسلّم وقال : ها أنذا يا عبد الرحمن .

قال : أتعرف هذه المرأة ؟

– ومن لا يعرف الحسناء التي استهوى جمالها قلوب الناس في الكوفة ؟.. انها قطام من تيم الرباب .

فقالت : اما انا فلم أرك من قبل ، ولم يخطر لي ، ان في القوم الذين خرجوا على علي رجلاً له هذه الجرأة التي حدثني بها عبد الرحمن الان .. اتذكر قتلى النهر من قومك ؟

اذكر ذلك ، واسمي اولئك الأبرياء الذين قتلوا باسمائهم ، ولا يصفو لي العيش الا اذا قتلت علياً بهم !

والتفت الى ابن ملجم قائلاً : يظهر انها تعرف كل شيء .

– اجل ، وهي ترأس اليوم جميع خوارج الكوفة والاخوان المقيمين بمصر ، دون ان يكون فيهم رجلاً يخالفها فيما تسأل :

قال : وانا من هؤلاء ، وليس لها الا ان تأمر فأطيع .

قالت : بارك الله فيك فعبد الرحمن ، لم يغال بما ذكره لي عنك ، والان .. أمستعد انت ؟

– نعم وستكون الضربة الاولى من هذا السيف !

فقالت وهي تضحك : اخشى ان تسبق عبد الرحمن الى قتل علي ؟ فيغضب ، ونحن بحاجة الى رضاه ..

فقال عبد الرحمن : ليمت علي ، وليكن قاتله ابليس فأنا لا ابالي .

باتوا يتحدثون حتى بزغ الفجر ، فهامست عندئذ عبد الرحمن قائلة : لا تنس انك ستكون عند الصباح زوجا لي ..

ودفعته بدلال الى الباب وهي تبتسم له ابتسامة الحب ، فخرج وهو يقول : حسبي وحسبك ايتها الحبيبة ، اني سأنقذ المسلمين ، بعد ساعه ، من الفتنة الطائشة التي تسيل معها الدماء ...

* * *

كان فجر ١٧ رمضان ، فجراً رهيباً ، حدثت فيه حادثات ثلاث ، لأمير المؤمنين في الكوفة ، ولمعاوية في الشام ، ورجل آخر في مصر ، هو غير عمرو ابن العاص .

وقد ردّدت العرب اخبار هذه الحادثات في كل قطر ، ونقلتها كتب التاريخ الى الاجيال .

قعد البرك بن عبدالله لمعاوية ، في الرواق الذي ينتهي الى المسجد ويده على قبضة السيف ، والظلام يخفي ملامح وجهه . ودنت ساعة الصلاة ، فخرج معاوية ، الى ذلك الرواق ، على عادته في كل يوم ، ووراءه بعض الامراء ، من انصاره وبني قومه . وقد تعجل في مشيه كأنه كان يفكر في أمر تمنعه صلاة الفجر من التفكير فيه ..

فخطا البرك بضع خطوات ، وضربه من الوراء ...

فوقع السيف في عجيزته .. ولم تلبث الايدي حتى امتدت اليه ، وانتزع السيف من يده ، فقال معاوية : خذوه الى القصر .

وساعدوه في الرجوع حتى جلس في مقصورته فقال : عليَّ به .

فلما مثل بين يديه قال : ما اسمك ايها الرجل ؟

فأجابه ، وهو هادىء : البرك بن عبدالله .

– ولماذا أردت قتلي ؟

قال : نحن ثلاثة رجـــال ، عاهدنا الله على ان نقتل علياً ومعاوية وعمرو بن العاص ! وقد قتل علي في هذه الساعة .

قال : لعل أخاك الذي اراد قتله لم يقدر على ذلك ..

– بل ، فليس مع علي احد من الحراس .

فقال لمن حوله : اقتلوه فليس من الحكمة ان يبقى حيا ...

وبعث الى رجل يقال له الساعدي وكان طبيباً .

فلما تبين جرحه قال : ان ضربتك مسمومة ، فاختر اما ان احمي حديدة

فأضعها موضع السيف وإما ان أسقيك شيئاً لا يولد لك بعده ..

قال : اما النار فلا صبر لي عليها ، واما الولد ، فان في ولديّ يزيد وعبدالله ما تقر به عيني .

فسقاه دواء فبرىء ولم يولد له بعد ذلك .

وأمر عندئذ بأن يكون في القصر وحول القصر حراس لليل ، وأمر الرجال بأن يقوموا على رأسه اذا سجد . وهو اول من فعل ذلك في الاسلام .

وكان عمرو بن بكر ، قد جلس في الساعة نفسها لعمرو بن العاص عند باب المسجد .

على ان عمراً لم يخرج الى الصلاة في ذلك الفجر لألم في بطنه وكان قد مرّ بضعة أيام وهو لا يصلي بالناس . وكان خارجة بن ابي حبيبة صاحب شرطته « مدير البوليس في مصر » فبعث اليه يأمره بان يصلي. وهو من بني عامر بن لؤي. فأتى خارجة المسجد والناس قد وقفوا للصلاة ، فلم يستطع ابن بكر ان يضربه عند الباب ، فدخل مع المصلين وهو يحسبه عمراً .

وقبل ان يبدأ خارجه بصلاته ضربه ذلك الخارجي بسيفه فقتله وقد قام في ذهنه انه قتل عمراً . فقبض عليه القوم ، ثم حملوا قتيلهم الى عمرو وسلموا عليه بالامارة ، وابن بكر يرى ويسمع ، فقال : اي أمير هذا ؟

قالوا عمرو بن العاص .

فاضطرب قائلاً : ومن هو الرجل الذي قتلته ؟

– خارجة بن ابي حبيبة صاحب الشرطة .

فنظر الى ابن العاص وقال : والله يا فاسق ما ظننته غيرك ..

فار تجفت شفتا عمرو وتمتم قائلاً : أردتني واراد الله خارجة ..

ثم قال : اضربوا عنقه وانقذوا الاسلام من شره . فقتلوه وكانت الاقدار كما رأيت عوناً لمعاوية وانصاره وقد نجا هو ، ونجا أمير مصر من الموت .

* * *

كانت احياء الكوفة واسواقها ، في شهر رمضان المبارك ، تغص بالوفود من اهل العراق والحجاز ونجد .. اقبلوا جميعهم يجددون عهد الطاعة لأمير المؤمنين ويعاهدونه على الدفاع عن الخلافة وقد بايعه منهم أربعون الفا على الموت .. وكان قد عول ، رضي الله عنه على الزحف بذلك الجيش الكثير الى الشام ليضرب معاوية الضربة القاضية ، ويسترجع القطر الشامي بقوة السيف . ثم يسير بعد ذلك الى مصر . ولم تكن هنالك قوة تضعف عزيمته ، وتثنيه عن المضي في امره .

رفعت المصاحف في صفين ، وطلب جيش الشام التحكيم ، فأراد وهو الخليفة الصالح الزاهد في الدنيا ان يحقن الدماء .. وأملى عليه وجدانه الطاهر ، وعظمة نفسه ان يجيب اهل الشام وهم من المسلمين ، الى ما طلبوه .. ولكنهم جعلوا الحيلة سلاحاً لهم ، ونكثوا العهد الذي كتبوه .

ولم ينظروا الا الى الخلافة يستولون عليها بالا كاذيب والرياء ، وقد بهر عيونهم نور المجد الباطل ، واستهوت نفوسهم العظمة الجوفاء . وانت قد رأيت ، اي حدث أحدثه التحكيم في صفوف المسلمين . خليفة في الكوفة ، هو ابن عم الرسول وصهره ، ينزه نفسه عن كل قبيح ، وامير في الشام يستحل ما لا يحله الله ، ليسلبه الخلافة ، ويضع يده على كل شيء !

وكيف يصفو العيش لأمير المؤمنين ، ووراءه عدو صلب العود جبار ، هو أدهى رجل في العرب ، وابعد امراء المسلمين صوتا ونظراً ؟

ان الفتنة لا تخمد نارها ، والخلافة في خطر ، فعلى علي ان يمنع هذا الخطر ويخمد تلك النار . على انه لم يكن يطيب له ان ينفرد برأيه . كانت داره في الكوفة ، واسعة رحبة ، تتسع للوفود ورؤساء العشائر ، الذين قدموا يسألونه رأيه ، ويعرضون عليه السيوف . وهم يقضون ليالي رمضان ، في تلك الدار ، يحدثونه بأمر الحرب التي لا بد عنها ، وقد وثقوا بالنصر . وهم الحرب ، ومشاغل الدولة الكثيرة ، لم تكن تمنع امير المؤمنين من الصلاة والصوم .

يؤذن المؤذن ، فيركض القـــوم ركضاً الى المسجد ، ليسمعوا كلام ذلك الخطيب العظيم الذي لم يقم في الخلفاء والأمراء ابلغ منه . فاذا انتهى من الصلاة مشى الى داره وبينها وبين المسجد ، باب هو باب السدة يدخل منه . ومشت خلفه وفود الامراء معها بنوه واهله واركان دولته . حتى يجلسوا ويتحدثوا بما يطيب لهم ،وقد تمر الساعات وهو ساكت ، يفكر في هذه الدماء البريئة ، التي ستخضب ارض الشام اذا قدم الشام غازيا . وكان صدره يضيق ، كلما خطر له ان القوم الذين بايعوه على الموت ، سيبذلون انفسهم في سبيله، بل كان يضطرب والبكاء يتردد في صدره ، عندما ينظر ، بقوة التصور الى جثث الناس تدوسها حوافر الخيل في ساحة القتال دفاعاً عنه ..

ولا يتعزى الا اذا رجع الى ايمانه ، وقام في ذهنه ، ان الحرب دفاع عـــن الخلافة التي سلمها اليه المسلمون . وانك لتستطيـع ان تتبين ، ما في صدر امير المؤمنين من خوف !! اجل ، كان الخوف يملأ قلب علي ! وماذا يخـاف ، وهو الفارس الباسل الشجاع الذي يقتحم الاهوال ، ويستهين بالموت ؟

انه يخاف الله ، ويخشى ان يأتي في خلافتهامراً لا يرضيه عزّ وجل .. وذلك شأن الرجال ، اصحاب الخلقالنبيل ، والضمائر الطاهرة ..

دخل رمضان ، وهـــو يستقبل الوفود ويبتسم لأنصاره ، ويقضي فروض دينـــه صادق العقيدة ، مؤمناً بالله ، ولكن نفسه كانت تحدثه بأن حياته في خطر !!.

وكان يتعشى ليلة عند الحسن ، وليلة عند حسين ، وليلة عند جعفر لا يأكل غير ثلاث لقم ثم يقول : احب ان يأتيني امر الله وانا جائع ..

فلما كانت ليلة ١٧ رمضان ، تعشى القوم جميعهم في منزله ، وهو لا يأكل الا قليلاً والناس ينظرون اليه ، وقد ملأت هيبته النفوس . وكأنه كان عالماً ان امر الله سيأتيه . ولم ينم تلك الليلة الا غراراً ، والموت ، بصورته الرائعة ، ماثلامام عينيه ، ولكنه لم يكن خائفاً .

* * *

بزغ الفجر ، فخرج عبد الرحمن بن ملجم ، وشبيب بن بجرة ، ووردان من منزل قطام بنت شحنة ، يريدون المسجد . وسمعوا وهم ذاهبون أذان السحر ، فتعجلوا في مشيهم حتى يدخلوا المسجد قبل دخول امير المؤمنين . وكان عبد الرحمن ملثما ، تستر جسمه عباءة فضفاضة يخفي تحتها سيفه المسموم ، والاثنان الاخران سافرين ، وسيفاهما داخل الثياب . فلما انتهوا الى باب السدة ، وقف ابن ملجم على بعد بضع خطوات ، ووقف رفيقاه عن الجانبين وقد استند كل منهم الى الجدار . ووردان يضطرب كما يضطرب المحموم ، ويستعين بالجدار كي لا يسقط على الارض .

والصمت الرهيب يسود المسجد فلا يسمع فيه غير همس المجرمين .. ومرت لحظة ، كانت في نظر الثلاثة أطول من عام .

عبد الرحمن وابن بجرة يريدان ان يخرج الامام ليقضيا عليه ، ووردان لا يصدق متى يضرب رفيقاه ضربتيهما ليفرّ . ان الخوف قد استولى عليه وهو يخشى ان يقتله . وكان امير المؤمنين قد خرج من منزله . فأقبل الاوز يصيح في وجهه ...

فطردوهنّ عنه فقال : دعوهنّ فانهن نوائح !!

ومشى على مهل ، وامامه ابن النباح المؤذن ووراءه ولده الحسن وبعض رجال مشورته ؛ حتى انتهى الى باب السدة . ففتح ، ودخل منه ، ثم وقف وجعل ينادي : ايها الناس ، الصلاة .. الصلاة . فوثب ابن بجرة ، من الجانب الذي احتجب وراءه ، وضربه ضربة كان يظن انها ستبري عنقه . ولكن السيف وقع بعضادة الباب . فالتفت علي وابن النباح الى ذلك الجانب ، ومشى الحسن ومن معه الى الامام وهم لا يعلمون اي حادث حدث لأمير المؤمنين .

وبينا بعضهم ينظر الى البعض الآخر ، والعيون تسأل العيون ، .. دنا ابن ملجم من امير المؤمنين ، ورفع سيفه قائلاً : الحكم لله لا لك يا علي .. وأهوى بالسيف ، فأصابت الضربة جبهة الامام وتفجرت الدماء ..

فصاح قائلا : لا يفوتنكم الرجل . فأخذوه بالأيدي ، وانتزعوا سيفه ، وهو رابط الجأش . ثم أبصروا رجلين يخرجان من الباب وفي يد أحدهما سيف ، وهما وردان وابن بجرة .

فلحق بهما رجل من حضرموت يقال له عويمر ، ولم يلبث حتى أدرك شبيباً فأخذ سيفه وجلس على صدره يهم بان يضربه به .

واقبل الناس في تلك الساعة يطلبون ابن بجرة. فلما رآهم الحضرمي ، وسيف ابن بجرة في يده خاف ان يظن الناس انه هو القاتل فهرب ونجا شبيب متغلغلاً في الصفوف . وكان وردان قد انتهى الى منزله . فأتاه رجل عن أهله فقال له : ماذا جرى في المسجد ؟

قال : ضرب عبدالرحمن بن ملجم امير المؤمنين .

– وقتل عليّ ؟

– ارى انه سيموت .

وكيف جرؤ ابن ملجم على ذلك وأمير المؤمنين بين امرائه وبنيه ؟

– ساعده اثنان ، احدهما شبيب بن بجرة ، والآخر أنا ... ولكني فررت ولم اجرد السيف ولم يخطر لي ان اضرب عليا ..

– ولكنك كنت عوناً للقاتل ...

– أجل !

فانصرف الرجل وهو لا يقول كلمة ..! ثم رجع ومعه سيفه فجعل يضرب به وردان حتى قتله !.. ورددت الكوفة خبر ذلك الحادث الغريب ومشت صفوف أهلها الى منزل خليفتهم يسألون الله ان يشفيه ...

–* * *–

–١٠٨–

قال امير المؤمنين ، لجعدة بن هبيرة ، وهو ابن اخته : تقدم وصلّ بالناس.

وقال لمن حوله : خذوا الرجل اليّ بعد الصلاة . ورجع الى منزله ، فعصبوا جبهته ، وجلس في فراشه .

فلما صلّى الناس حملوا ابن ملجم والقيد في يديه ، حتى دخلوا على عليّ ، وعنده اولاد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وام كلثوم ، وعبدالله ابن أخيه جعفر وطائفة من أهله واصحابه ، فقال له : اي عدو الله ألم احسن اليك ؟

قال : بلى !

– فما حملك على هذا ؟

قال : شحذت سيفي اربعين صباحاً وسألت الله ان يقتل به شرّ خلقه !!

فقال : لا أراك الا مقتولاً به ولا اراك الا من شرّ خلق الله .

ثم قال: النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وان بقيت رأيت فيه رأيي .. يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين وانتم تقولون قد قتل امير المؤمنين .. ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

وقال لابنه الحسن : انظر يا بني ، ان أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلنّ به فاني سمعت رسول الله يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .

فقالت ام كلثوم لابن ملجم : لا بأس على أبي يا عدو الله والله مخزيك ..

فأجابها وهو يبتسم هازئاً : فعلى من تبكين ، والله ان سيفي اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم احد ... وهو يعني ان السم سيقتل علياً .

واقبل جندب بن عبدالله في تلك الساعة يقول : يا امير المؤمنين ، ان فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن ؟؟

قال : ما آمركم ولا أنهاكم انتم أبصر .

وامر ، فدنا ولداه الحسن والحسين فقال لهما :اوصيكما، بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شيء ، زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، واعينا الضائع ، وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ، ولا تأخذ كما في الله لومة لائم ....

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما اوصيت به اخويك يا بني؟
قال : نعم .
قال : فاني اوصيك بمثله واوصيك بتوقير اخويك العظيم حقهما عليك ولا تقطع امراً دونهما ، ثم قال لهما : اوصيكما به فانه شقيقكما وابن ابيكما وقد علمتما ان اباكما يحبه وقال للحسن: اوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكتبت وصيته رضي الله عنه وجعل يردد : لا إله الا الله ... حتى مات .

فارتسمت الكآبة على الوجوه ، ومد الحزن رواقه فوق الكوفة وقد احس اهلها انهم خسروا بموت امير المؤمنين ركناً قويا من اركان الدين ، وخليفة جباراً في عظمة نفسه ، جباراً في زهده وخلقه ؛ وبطلاً تنحني له رؤوس الابطال في الميادين .. وخطيباً عظيما لم يقم في ذلك الزمن اعظم منه ، وقائداً شريفاً نبيلاً حمل بعد النبي والخلفاء الثلاثة علم النور والهدى ، يدعو الناس اليه . وقد قام في اذهانهم ان العين لن تقع في جزيرة العرب بعد ذلك على رجل مثل علي . اجل لقد شعر المسلمون في الكوفة ان الحجاز ونجد، والعراق واليمن ستضطرب لتلك الضربة التي ضربها ابن ملجم ، وان مصر والشام وفيهما الامراء الذين خرجوا عن طاعته ، ستبكيان ذلك المسلم العظيم الذي قتل في المسجد من يد خارجي .

ايه عليّ، لقد مر على موتك زهاء ثلاثة عشر جيلاً، وانت ملء اذهان الناس في الشرق والغرب ، وذكرك في كل قلب ، وعظماء العالم في كل زمان ، يعلمون اي رجل انت .

* * *

- ١٠٩ -

غسل الحسن والحسين جثة ابيهما امير المؤمنين ، يساعدهما في ذلك ابن اخيه

عبدالله بن جعفر ، وكفن بثلاثة اثواب . ثم دفن والقلوب تخفق في الصـــدور واللوعة في العيون .

ولم يرجع القوم حتى أمر الحسين فأحضر ابن ملجم وعيناه تنظران إلى الناس نظرات الاستخفاف ، والابتسامة لا تفارق شفتيه . فهم القوم بـــأن يفاجئوه بالسيوف . ولكنهم خافوا أن يغضب الحسن ، وهو الذي أمر بإحضاره .وكان أبناء علي مطرقين ، وعلى الخدود آثار الدمع . فرفع الحسن رأسه يريد أن يتكلم

فقال ابن ملجم : لقد أقسمت أن لا أعاهد عهداً إلا وفيت به ،واني عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بيني وبين معاوية فلك الله علي إن لم أقتـله ثم بقيت ، ان ارجع اليك حتى أضـــع يدي بيدك .

فقال الحسن : لا والله حتى تعاين النار .

وأومأ إلى الغلمان فجاءوا بنار في وعاء ، والجاني اللعين لا يعبأ بمايسمع ،ولا يبالي بما يراه .

حتى قام الحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وعبد الله بن جعفر ، فقـالوا : نطلب أن يسلم القاتل الينا لتشتفي أنفسنا منه . وانتظروا جواب الحسن فـلم يجب ، وكان سكوته دليلاً على رضاه .

فعمد عبد الله بن جعفر إلى خنجره ، ودنا من القاتل وعيناه تتقدان ،ثم قال له : اصبر يا عدو الله إن كنت قادراً على الصبر .

وقطع بخنجره يده اليمنى وهو ينظر إلى الخنجر يمزق لحمه ولا يطرق له جفن ولا يبدو على وجهه دليل واحد من دلائل الألم .. وقطع الخنجر يـده الأخرى وهو لا يقول كلمة .

ثم قطعت رجله اليسرى فلم يجزع ، ولم يلبث عبـد الله حتى قطـع الاخرى والناس لا يسمعون له صوتاً !! وكأن النفوس لم تشتف بما جرى .فألقى القوم إلى النار ، بقطعة من الحديد ، وصبروا حتى تلظت لهباً .

فتناولها عبد الله وكحل بها عينيه .. فجعل يقول : انك لتكحل عيني عمك

علي بمكحول محمى... ولم يجزع ..!

وقد رأى الناس ، في تلك اللحظة ، مشهداً غريباً لم يروا مثله من قبـــل . رأوا عينيه تذوبان ، وشفتيه تنفرجان عن ابتسامة لا لون لها . ثم سمعوه يقول: « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وهي سورة من سور القرآن حتى أتى إلى آخرها دون أن يتلجلج لسانه او ينسى منها كلمة .

وهموا بعد ذلك بأن يقطعوا لسانه ، فخاف ، فقالوا له : قطعنا يديك ورجليك ، وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تخف فلما أردنا ان نقطع لسانك خفت. قال : لست خائفاً ولكني اكره ان اكون في الدنيا فواقاً لا اذكر الله .

فقطعوا لسانه ، ثم احرقوه ، وجلال الموت يبسط جناحيه في فضاء الكوفة والناس يتحدثون بأمر الخلافة ، وقد عولوا أن يبايعوا الحسن بن علي .

* * *

- ١١٠ -

عندما بلغ عائشة قتل علي ، قالت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

وقال ابن أبي مياس المرادي ، وهو من قوم ابن ملجم :

فنحن ضربنا يا لك الخير حيدراً أبا حسن مأمومة فتفطرا
ونحن خلفنا ملكه من نظامه بضربة سيف إذ علا وتجبرا
ونحن كرام في الصباح اعزة إذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وقال ايضاً:

ولم ار مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام بين عرب ومعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمم
فلا مهر اغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقال ابو الأسود الدؤلي في قتل علي:

الا ابلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا

افي شهر الصيام فجعتمونا | بخير الناس طراً اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا | ورحلها، ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها | ومن قرا المثاني والمبينا
إذا استقبلت وجه ابي حسين | رايت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت | بأنك خيرها حسباً ودينا

وقال بكر بن حسان الباهري :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة | هدمت للدين والاسلام اركانا
قتلت افضل من يمشي على قدم | واعظم الناس اسلاماً وايمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما | سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره | اضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه، على رغم الحسود له | مكان هرون من موسى بن عمرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر | فقلت سبحان رب العرش سبحانا
اني لأحسبه ما كان من انس | كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا الله عنه سوء فعلته | ولا سقى قبر عمران بن حطانا
يا ضربة من شقي ما اراد بها | الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي اوردته لظى | وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصداً بضربته | الا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

وكان عمر علي ثلاثاً وستين سنة وخلافته خمسة اعوام الا ثلاثة اشهر .

* * *

نظرة عامة

الناس يذكرون عليا ، رضي الله عنه ، منذ رافق النبي العربي الكريم إلى ذا اليوم ، كما يذكرون نوابغ الأمم واعاظم الرجال .

وقد كتب المؤرخون اخباره في كتبهم ووضعت الفصول الطويلة ، في سيرة

حياته وذكر اخلاقه وعلمه وبسالته وعدله حتى انك قد لا تجد اليوم كتابا في البلاغة والانشاء الا وفيه للامام العظيم اثر من آثاره التي لا تبلى .

كان زاهداً كما قرات ، وعادلا باسلا لا يتراجع عند الشدة ولا يلوى له عود وكان حراً عزيز النفس ، بعيداً عن الأكاذيب والرياء ، لا يعمد إلى وسيلة فيها ذل ، ولا يبيع آخرته بدنياه .

وكان في اخلاقه ، مثلاً عاليا نقله اهل ذلك الزمان ، إلى ابناء هذا الجيل وسينقله هؤلاء الى الأجيال التي ستجيء فيما يكتبون عنه .

وهو السخي الجواد الكثير الرفق بالرعية يبذل المال كل يوم للمعوزين الذين تكبهم القضاء ، ويوصي عماله بأن يعرفوا حق رعيته فلا يضربوا رجلاً في جباية، ولا يبيعوا للناس رزقا ولا كسوة ...

وذكر المسعودي ، انه لم يلبس في ايامه ثوبا جديدا ، ولا اقتنى ضيعـــة ولا ريعا ، وكان جليلا له تأثيره وهيبتـــه ، حتى ان جلساءه لم يجسروا مرة على ان يبتدئوا بقول .

وقد اعترف له كبار المسلمين ، ووجوه الصحابة والقواد بالشجاعة والجراة وآثروه بالعلم والفضل والاخلاق ، وعظمة النفس ، على جميع اهل النفوذ والجاه ولكن بعضهم كان يتمثل بقول ابن عباس ، وهو ابن عم علي :

« يا امير المؤمنين ، انك رجل شجاع ولست صاحب راي » .

وعلي ، هو الذي امر ابو الاسود الدؤلي بوضع علم النحو ، ووضع له اساسه، وابو الاسود ، هو الذي تولى القضاء في البصرة بأمر امير المؤمنين .

قال ابو الاسود :

« دخلت على امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا امير المؤمنين ؟ قال : اني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء « وهو يعني الاعاجم » فأردت ان اضع شيئا يرجعون اليه ، ثم القى إلي الرقعة وقد كتب فيها :

الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما انبأ عن المسمى، والفعل ماانبىء

به ، والحرف ما افاد معنى ، وقال لي : انح هذا النحو واضف اليه ماوقع اليك واعلم يا ابا الاسود ان الاسماء ثلاثة ، ظاهر ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر .

وهو يريد بذلك الاسم المبهم .

وانك لتقرا في كتاب « نهج البلاغة » التي جمعت فيه رسائله واقوالهوخطبه ما لا تقرؤه في كتاب آخر .

وهذا معناه ، ان عليا ، كان فيلسوف العرب ، وعالمها الاكبر ، وخطيبها العظيم ، الذي لم تعرف منابر الجزيرة كلها خطيبا مثله .

بعض اقواله

قال رضي الله عنه ، يوم صرع الموت زوجته فاطمة ابنة النبي :

«السلام عليك يا رسول الله. عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي ، الا ان لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز .

وسدتك في قبرك ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، انا لله وانا اليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة واخذت الرهينة .

اما حزني فسرمد ، واما ليلي فمسهد ، الى ان يختار الله لي دارك التي انت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فاسألها واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا من ملالة وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

وقال يذم اهل البصرة يوم اتبعوا عائشة :

كنتم جند المراة ، واتباع البهيمة « وهو يعني الجمل » رغا فأجبتم وعقر فهربتم ، اخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، ودينكم نفاق ، المقيم بين اظهركم

مرتهن بذنبه ، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه ، بلادكم انتن بلاد الله تربة قربها من الماء ، وابعدها من السماء ، وبها تسعة اعشار الشر ، كأني أنظر الى بتكم هذه قد طبقها الماء حتى ما يرى منا الا شرف المسجد كأنه جؤجؤ طير لجة بحر .

وكتب يوماً الى معاوية : ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة امرالامة، بغير قدم سابق ولا شرف باسق ، لقد دعوت الى الحرب ، فدع الناس جانباً واخرج اليّ واعفُ الفريقين من القتـــال . فأنا ابو حسن قاتل جدك وخالك واخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي .. ما استبدلت ديناً، ولا استحدثت نبياً، واني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه مكرهين . زعمت انك جئت ثائراً بعثمان ، ولقد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك ان كنت طالباً ، فكأني رأيتك تضج من الحرب اذا عضتك ضجيج الجمال بالانتقال ، وكأني بجماعتك ، تدعوني ، جزعا من الضرب المتتابع والقضاء الواقــع ، الى كتاب الله ، وهي كافرة جاحدة ، او مبايعـة حاقدة ...

حكمته

ونحن نكتب لك الان ، شيئاً من حكمته وامثاله :

السلطان وزعة الله في أرضه .

رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك .

لكل امرىء في ماله شريكان ، الوارث والحوادث .

ما ظفر من ظفر الاثم به ، والغالب بالشر مغلوب .

عاتب اخاك بالاحسان اليه ، واردد شره بالانعام عليه .

ما اكثر العبر واقلّ الاعتبار .

ما قال الناس لشيء طوبى له ؛ الا وقد خبأ له الدهر يوم سوء .

الناس ابناء الدنيا ، ولا يلام الرجل على حب امه .

مودة الاباء قرابة بين الابناء والقرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة .
من كتم سره كانت الخيرة بيده .
من شاور الرجال شاركها بعقولها
ترك الذنب أهون من طلب التوبة .
يوم المظلوم على الظالم اشد من يوم الظالم على المظلوم .
لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكا .
حسد الصديق من سقم المودة .
اذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة .
من اشرف افعال الكريم غفلته عما يعلم .
كم من اكلة منعت اكلات ...
من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن .
ما اختلفت دعوتان الا كانت احداهما ضلالة .
الطمع رقٌ مؤبد .
يا ابن آدم ، كن وصي نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر ان يعمل فيه من بعدك .
احسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم .
من كساه الحياء ثوبه لم يرَ الناس عيبه .
في تقلّب الاحوال علم جواهر الرجال .
افضل الاعمال ما اكرهت نفسك عليه .
المرأة شر كلها ، وشر ما فيها انه لا بدَّ منها
آلة الرياسة سعة الصدر .
اذا علمتم فاعملوا ، واذا تيقنتم فاقدموا .
اذا ارذل الله عبداً احظر عليه العلم .

وكتب الى جيش أرسله الى حرب : اجعلوا لكم رقباء في مغاور الجبال ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن .

اعلموا ان مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم .

اياكم والتفرق ، فاذا نزلتم فانزلوا جميعاً واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً .
اذا غشيكم الليل فأجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم الا غراراً .
وكانت خلافته خمس سنين الا ثلاثة اشهر وتوفي وهو في الثالثة والستين من العمر .

- * * * -

- ١١١ -

بايع الناس في الكوفة ، بعد قتل علي، ولده الحسن . واول من بايعه ،قيس بن سعد الانصاري . قام فقال : ابسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال اعدائك الذين احلوا ما لم يحله الله .

فقال الحسن : على كتاب الله وسنة رسوله فانهما يأتيان على كل شرط . ثم جعل يقول والناس يبايعون : انكم مطيعون ، تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت .

فخاف الناس ، وتهامس الذين يميلون الى مبدأ الخوارج قائلين : ليس الحسن بصاحب لنا ؛ وما يريد الا القتال .

وبلغ الخبر معاوية، فملأت الغبطة نفسه، وكان واثقاً بان الحسن ، لايستطيع ان يثبت في المجال: الذي ثبت لهفيه أبوه عليّ .وخطر له ان يظهر بمظهر جديد. فخرج من دمشق يريد فلسطين، ووراءه طائفة من قواده وأركان حربه ،المخلصين له ، المدافعين عنه

فلما انتهى الى بيت المقدس ، قام اهلها واولئك القواد يدعون الناس الى ان يبايعوه بالخلافة . . فعلوا ذلك باشارة منه ... وكان القوم من قبل ، قد بايعوه في الشام بعد اجتماع الحكمين . وذكر بعضهم ، انهم كانوا يدعونه الامير قبل قتل عليّ ، فلما قتل هذا ، دعي بأمير المؤمنين .

وبذل دهاءه كله في ذلك الزمن ، ليستقلّ بالسلطان ، وينحي آل علي بن ابي طالب ، عن العرش . . بل كان همه ان ينحي بني هاشم عن الحكم ، ويحول بينهم وبين التفكير في الخلافة . . ! ثم لم يلبث حتى تمادى في طمعه، ،أمعن في الجرأة ،

فخطر له ان يجعل الملك لذريته كما هي الحال في دولة الروم وهي بدعة في الاسلام لم تخطر قبله لواحد من الخلفاء الاربعة الذين تقدموه ·

واي وسيلة يستطيع معها معاوية ان يستأثر بالامر ؟ ان الدهاء اذا لم يرافقه السيف لا يكفيه ... فمن الرأي ان يفاجيء بسيفه ذلك الخليفة الجديد الذي بايعوه في العراق بعد قتل ابيه .. وحسبه ، ان لم تتلاحم السيوف ، انه يهدده بتقويض اركان خلافته .

يزحف بجيشه الى العراق ، ويدعو الحسن الى البراز ، فاذا تردد فهو الخليفة الضعيف الجبان الذي لا يحسَن الاحتفاظ بالملك ؛ واذا برز الى الساحة حاملاً سيفه ، حاربه معاوية في نهاره وليله ، حتى يصرع رجاله واحداً بعد واحد او يستسلم اليه .

ونضجت هذه الفكرة الجريئة في دماغه ، فجعل يمهد اسبابها ، وهو في فلسطين ، وطاف رجاله في الاحياء يندبون الناس للقتال ، والناس يطيعون ، وقد طابت لهم الحرب تحت لواء خليفة الشام العظيم الداهية . ومعاوية ، من اولئك الافراد النوابغ ، الذين يعرفون كيف يستغلون الموقف ، ويمشون في طريق المجد . يخطر له خاطر ، فيبذل الدهاء والمال ، ثم يبذل دماء الرجال ، ليستقيم له ، وهو في كل ذلك لا يتردد ولا يتراجع الى الوراء .. قلب من الحديد ، في مواقف الروع ، وارادة ثابتة لا تلين .. وطموح الى العلياء لم يعرف المؤرخون له حداً .

معاوية ، داهية العرب ..وانها لكلمة حق، تناقلتها العرب في ذلك الزمان، ونقلتها الكتب الى هذا اليوم . حتى ان بني هاشم جميعهم ، وشيعة علي جميعاً ، اعترفوا بدهاء معاوية ، ورحابة صدره ، ونبوغه في السياسة والحلم . كريم جواد عند الحاجة ، لايذكر معه حاتم الطائي ، كبير في مطامعه وعظمة نفسه ، يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ، وشديد المراس بطاش ، اذا اكرهته غايته على البطش وخانه الدهاء . ولكن سيد بني امية ، كان رجل دنيا ؛ كما ذكرنا ، لا رجل دين .

* * *

كان اربعون الفاً من رجال امير المؤمنين علي،قد بايعوه على الموت ، كماقرأت في الجزء السابق . وكان يهمّ ، قبل موته ، بالزحف معهم الى بلاد الشام . فلما قتل وبويع الحسن ، انتهى اليه ان معاوية خرج الى فلسطين ، لأمر لم يعرفه غير رجاله . ثم بلغ الحسن والناس ، في الكوفة ، انه رجع الى دمشق عاصمة ملكه وانه يتهيأ للمسير بجيشه الى العراق ، وهو يريد الحرب .

ومرت خمسة اشهر على خلافة الحسن ، فقيل له : هـــذا معاوية قد أقبل . فأرسل مناديه ينادي :

سيوفكم يا انصار امير المؤمنين فقد زحف اليكم جيش الشام . فلبى الجنود النداء ، ومشوا تحت لوائه .. وفيهم بعض المترددين الذين لا وفاء لهم ولايثبتون على امر .. وذلك كان شأن اهل الكوفة واهل البصرة يظهرون الطاعة ويحملون السيوف ثم يتراجعون وهم في الطريق .. !! ثم يدعون الى الفتنة ، فاذا استعرت نارها ، خرجوا من صفهم إلى صف آخر ، أو اعتزلوا !! وتلك شيمة الجبناء الذين صغرت نفوسهم ، وفسدت اخلاقهم ..

ساروا تحت لواء الحسن ، يريدون لقاء معاوية ، وكان قد نزل بلداً يقال له مسكن . حتى انتهوا الى المدائن ، فجعل الحسن ، عبيدالله بن عبـــاس ، على مقدمته ، في اثني عشر الفاًمن الرجال ، وأمره بان يتقدم الجيش فجعل عبيدالله بدوره ، قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ، على الطلائع ، وخرج من المدائن ليلقى معاوية ، والحسن في أثره . وقيس بن سعد ، من دهاة الناس ، وابطال العرب .

وكان الحسن ، في ايام خلافة علي ، لا يحب اهل العراق ، بل كان يخافهم لاسباب كثيرة أهمها انهم خانوا اباه ، وترددوا اكثر من مرة ، في الطاعة والوفاء له . والخوارج منهم ، وهم الذين رأوا ذلك الرأي في الاسلام ، وخرجوا مـن الكوفة يوغرون الصدور على علي الذي رضي بالتحكيم . وكان قيس بن سعد ، يكره امارة معاوية ، ولا يطيق ان يتولى ابن ابي سفيان ، امور الاسلام . فلما

انقضت بضعة ايام ؛ على خروجه في الطلائع ، مع عبيدالله بن عبـــاس ، خرج منادٍ ينادي في المدائن : ان قيساً ابن سعد قتل فانفروا ....

وهو خبر لا صحة له ، اراد بعضهم من اصحاب الخلق الفاسد ، ان ينشره في الجيش لغرض له ، ولأمر يريده الله .. فنفر الجيش ، ثم اقبل بعضهم ينهبون متاع البعض الآخر حتى أتواخيمة امير المؤمنين فنهبوا ما فيها ..! وكان تحتـه بساط فنازعوه اياه !! فرأى الخليفة ابن الخليفة ان الامر قد خرج من يده، وان اولئك الذين بايعوا اباه على الموت، بايعوه بالشفاه .وقام فدخل المقصورة البيضاء في المدائن وكان امير المدائن ، سعد بن مسعود الثقفي ، عم المختار بن ابي عبيد. فقال له المختار ، وهو شاب :

هل لك في الغنى والشرف ؟

قال : وما ذاك ؟

قال : تستأمن بالحسن الى معاوية !

فقال له : عليك لعنة الله .. أثب على ابن بنت رسول الله وأوثقه ؟؟ بئس الرجل انت .

ودخل على الحسن فقال : مرني يا امير المؤمنين بما تشاء .

– وبماذا يأمر امير المؤمنين وقد دبت الفرقة في الصفوف . دعني انظر في الامر من جميع نواحيه .

فانصرف ، فكتب الحسن الى معاوية ، كتاباً يسأله فيه ان يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، ومبلغه خمسة الاف الف « خمسة ملايين » وخراج دارابجرد من بلاد فارس ، وان لا يشتم علياً ، وجاء في آخر كتابه : « ان انت اعطيتني هذا فأنا سميع ومطيع وعليك ان تفي لي بـه . وبعث اليـــه بالكتاب والناس لا يعلمون .

ثم دعا أخاه الحسين ، وابن عمه عبد الله بن جعفر وقال لهما : لقد راسلت معاوية في الصلح !

فقال الحسين : انشدك الله ان لا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب احدوثة أبيك .

قال : اسكت فانا اعلم بالامر منك .

وكان معاوية ، من ناحيته ، قد ارسل الى الحسن ، عبدالله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة ، ومعهما صحيفة بيضاء عليها خاتمه ، وكتب اليه : اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما شئت .. وكان ذلك قبل وصول كتاب الحسن اليه .

فلما مثل الاثنان بين يدي الحسن اشترط اضعاف الشروط التي كتبها الى معاوية ولكن معاوية كان قد احتفظ بكتابه ، ولم يجبه الى الكف عن شتم علي .

فطلب الحسن ان لا يشتم وهو يسمع ، فأجابه الى ذلك ، ولكنه لم يفِ له به ..

وخطب الحسن في الناس قائلاً : «انا والله ما يثنينا عن اهل الشام شك ولا ندم ، وانما كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر فأمست السلامة عداوة والصبر جزعاً ، سرتم الى صفين ودينكم امام دنياكم ، ولكنكم أصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم ، وانكم اليوم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره... الا وان معاوية دعانا الى امر ليس فيه عز ، فان أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه الى الله عز وجل بظبا السيوف ، وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا..»

فناداه الناس من كل جانب : البقية ، البقية ، وامض الصلح ..

فلما عوّل على تسليم الامر الى معاوية ، خطب ثانية فقال : ايها الناس ، انما نحن امراؤكم واهل بيت نبيكم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .. وجعل يعيدها حتى لم يبقَ رجل الا بكى .

وخرجت الرسل بعد ذلك تحمل الخبر الى معاوية ، فأقبل معاوية مع جيش الشام والتقى الاميران امير المؤمنين الهاشمي وامير الشام الاموي وتم الصلح . ثم سلم ابن علي الامر الى ابن ابي سفيان .

وكانت خلافة الحسن ، على قول بعضهم ، خمسة اشهر وبضعة عشر يوماً ، وستة أشهر وبضعة ايام على قول البعض الاخر . وهنالك من يقول انها كانت سبعة اشهر وبضعة ايام ؛ وان التسليم الى معاوية جرى في شهر جمادى الاولى من السنة الحادية والاربعين .

ورأى معاوية ان يتعجل في امره ، فسأل الحسن ان يبايعه على مرأى من القوم ، ففعل ، ومشى امير المؤمنين الجديد ، الى الكوفة فبايعه الناس .

ثم بدأ الدهـاء .. فقال معاوية للحسن : وقيس بن سعد الذي جعلتـه على الطلائع ؟

قال : يبايع .

وكتب اليه يأمره بالدخول في طاعة معاوية .

فقام قيس في الناس فقال : ايها الناس، اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة او القتال مع غير امـام ، فقال بعضهم : بل نختار الدخول في طاعـة امام ضلالة .. وبايعوا معاوية .

فانصرف قيس فيمن تبعه من القوم ، وقد عاهدوه على قتال معاوية ، حتى يشترط لشيعة علي ، على دمائهم واموالهم وما اصابوه في الفتنة .

فلما انتهى الخبر الى معاوية قال : سننظر في امره ، في وقت آخر ، ثم قال لعمرو بن العاص ، وهو معه : اترون ان نبقى في الكوفة ؟

قال : نبقى حتى يخرج منها الحسن واهل بيته وانا ارى ان تخطب اليوم في الناس ثم تأمر الحسن ان يخطب بعدك ..

– لماذا ؟

– ليرى القوم انه عاجز عن الخطابة .

فخطب معاوية ثم امر الحسن بان يفعل مثلما فعل .

فقام ذلك الخليفة المنكود الحظ فحمد الله ثم قال : ايها الناس ، ان الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وان لهذا الامر مدة ، والدنيا دول وان الله قال لنبيه : « ولعله فتنة لكم ومتاع الى حين . »

فقال له معاوية : اجلس .

وحقدها على عمرو بن العاص وكان يقول له : هذا من رأيك .

ولم يلبث الحسن حتى رحل الى المدينة مع جميع الذين ينتمون اليه ، وقام الناس حوله يذكرون اباه ويبكون . وخطر لأحدهم ساعة الرحيل ، ان يقول له : ما حملك على ما فعلت ؟

قال : كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة لا يثق بهم أحد أبداً إلا ُغلب . ليس فيهم واحد يوافق آخر في رأي انهم مختلفون لا نية لهم في خير وشر ، لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً ، فليت شعري لمن يصلحون بعدي والكوفة أسرع البلاد خراباً ؟

وبعد خروجه من الكوفة ، لقيه رجل فقال : يا مسوّد وجوه المسلمين . . .

فقال : لا تعذلني فان رسول الله رأى في المنام بني امية ينزون على منبره رجلاً فرجلاً فساءه ذلك ، فانزل الله عزّ وجلّ : «انا اعطيناك الكوثر» ، وهو نهر في الجنة و «انا أنزلناه في ليلة القدر» الى قوله تعالى :

« خير من ألف شهر » يملكها بعدك بنو امية .

وخلا الجو لمعاوية ، فكتب الى قيس بن سعد يدعوه الى الطاعة ، وبعث اليه بصحيفة بيضاء عليها خاتمة ليكتب فيها ما يشاء . وكذلك فعل الداهية مع الحسن .

فقال له عمرو بن العاص : خير لك ان تقاتل الرجل .

قال : على رسلك ، فانا لا نقتلهم حتى يقتلوا مثل عددهم من اهل الشام فليس في العيش خير بعد ذلك .. اني والله لا اقاتله ابداً حتى لا اجد بداً من قتاله ..

فلما انتهى كتابه الى قيس ، اشترط له ولشيعة علي الامان ، على ما اصابوا من الدماء والاموال ولكنه لم يسأل معاوية ان يعطيه مالاً . وتلك شيمة النفس الأبية التي لا يحطها القدر ، وان جار ، عن مواقف العز .

فاعطاه معاوية ما سأل ، دون ان يتردّد في الأمر ، وكان يقول لمن حوله من قواد وانصار : ان قيساً يساوي الفاً من الرجال .

ودخل قيس ومن معه في الطاعة ، وكان القوم في ذلك الزمن ، يعدون خمساً ، ومعاوية وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعبدالله بن بديل الخزاعي دهاة العرب ، وذوي الرأي . وقيس وابن بديل من انصار علي ، اما المغيرة فقد كان معتزلاً بالطائف .

على ان معاوية ، لم يكن في نظر الوجوه من الصحابة والانصار ، اميراً

للمؤمنين ، بل كان ملكاً ، بدليل ما قاله له سعد بن أبي وقاص .

دخل عليه يوماً فقال : السلام عليك ايها الملك ! فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت : يا أمير المؤمنين . قال : أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب اني وليتها بما وليتها به ..

* * *

- ١١٣ -

كان فروة بن نوفل الاشجعي ، وهو من الخوارج ، قد اعتزل حرب علي ، ولجأ مع خمسمائة من الرجال ، الى شهر زور . فلما قتل علي . وسلم الحسن الامر الى معاوية قال لمن معه : لقد جاء الان ما لا شك فيه فسيروا الى معاوية فجاهدوه . فأقبلوا وعليهم فروة ، حتى نزلوا النخيلة وهي عند الكوفة .

وكان الحسن قد خرج يريد المدينة ، كما قرأت ، فكتب اليه معاوية يدعوه الا قتال القوم . وقد اتاه رسوله وهو قريب من القادسية . فكتب اليه يقول : لو آثرت ان اقاتل احداً من اهل القبلة لبدأت بقتالك .. اني تركتك لصلاح الامة وحقن دمائها . فبعث اليهم معاوية بطائفة من اهل الشام . ولكن الخوارج هزموا القوم ، فرجعوا الى الكوفة والذعر يملأ القلوب .

فدعا معاوية وجوه الكوفة فقال : والله لا امان لكم عندي حتى تقاتلوهم. فخرجوا يريدون القتال ، ووقعت العين على العين .

فقالت الخوارج: أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كفيناكم هذا العدو وان اصابنا كفيتمونا .

قالوا : لا بد لنا من الحرب فمعاوية لا يلين .

فأخذ بنو اشجع صاحبهم فروة فحادثوه ونصحوا له فلم يرجع. فحملوه قهراً وادخلوه الكوفة . فجعلت البقية من الخوارج ، عبدالله بن ابي الحوساء ، وهو من طيء ، اميراً عليها ، واشتعلت النار . فقتل ابن ابي الحوساء وتفرق رجاله، ثم ولوا حوثرة بن وداع بن مسعود الاسدي ودعوه الى القتال . وكان ابوحوثرة

في الكوفة ، وهو شيخ كبير ، وعنده حفيده ابن حوثرة ، وهو غلام صغير .

فقال معاوية للشيخ : اخرج الى ابنك فعله يرق اذا رآك ويترك القتال . فخرج اليه وحدثه بالامر فأبى ان يغمد السيف ، فقال له : الا اجيئك بابنك فلعلك اذا رأيته ، كرهت فراقه ؟

قال : انا الى طعنة من يد كافر برمح اتقلب فيه ساعة اشوق مني إلى ابني !.

فرجع ابوه فخبر معاوية ، فسير اليه عبدالله بن عوف الاحمر في الفين ، وخرج ابو حوثرة معه ، فلما انتهو الى الميدان، دعا أبو حوثرة ابنه الى البراز..

فقال : يا ابت ، لك في غيري سعة... وركض فرسه فبارز عبدالله . فطعنه عبدالله فقتله ثم قتل اصحابه لم يبق منهم غير خمسين رجلاً دخلوا الكوفة استخفوا في المنازل . وبينا في مجلسه ، وقد نقلوا اليه اخبار الظفر ، دخل رجل يستأذن على امير المؤمنين .. فإذن له معاوية قائلاً : من انت ؟

قال : شبيب بن بجرة !

فساد الصمت، وحبست الانفاس .

ولكن معاوية لم يفطن لاسمه ، فقال : ومن هم قومك ؟

– بنو اشجع وانا وابن ملجم قتلنا عليا ..

فوثب الخليفة من مجلسه مذعوراً حتى دخل منزله ثم بعث الى بني أشجع يقول لهم: لئن رأيت شبيباً مرة ثانية او بلغنى انه ببابي لأقتلنكم جميعاً ..اخرجوا من بلدكم .. ولكنهم لم يستطيعوا ان يقبضوا عليه ليخرجوه ، فقد كان يخرج كلما جنّ الليل فلا يلقى احداً الا قتله .

حتى ضجت الكوفة ، وطلبته الخيل اكثر من مرة فلم يقفوا له على اثر .

فأوصى معاوية رجاله بان يكونوا جيعهم عيونا عليه ،ثم ولى عبدالله بن عمرو بن العاص ، امر الكوفة . فدخل عليه المغيرة بن شعبة فقال : أي شيء اتى بك يا ابن شعبة ؟

– أتيت اسأل امير المؤمنين أن ينظر في امر الكوفة .

قال : من اي وجه ؟

- لقد جعلت عبدالله بن عمرو اميراً على الكوفة وليس هذا من حسن الرأي في سياسة الملك .

فابتسم قائلاً : هذا معناه انك اشتهيت الولاية .

قال : قضيت معظم ايامي اميراً فليس بي شهوة الى ما ذكرت ، ولكني كرهت ان تقذف بنفسك الى مواقف الخطر وانت الداهية التي تسترشد الرجال برأيك .

- وكيف ذلك ؟

-استعملت عمرو بن العاص على مصر ، وولده عبدالله على الكوفة فأنت في هذا بين نابي الاسد ..

فأطرق ملياً ثم قال : اصبت وكنت انا المخطىء

ثم قال : لقد عزلت عبدالله ووليتك .

فانصرف عبدالله بن عمرو فخبر أباه ، فاتى عمرو فدخل على معاوية فقال : ماذا صنعت يا امير المؤمنين وليت المغيرة امر الخراج ؟

قال : اجل !

- ولكنه سيغتال المال ولا تستطيع ان تأخذه منه .. أستعمل على الخراج رجلاً يخافك ويتقيك .

قال : اصبت . وبعث اليه يعزله عن الخراج ويستعمله على الصلاة . فلما انتهى اليه الامر ، بلغه في الوقت نفسه ، ان شبيباً ابن بجرة برز الى الساحة في موضع قريب من الكوفة يقال له الطف . فأرسل اليه خيلاً عليها خالد بن عرفط فقتله وقتل اصحابه . وكان ذلك في السنة الحادية والاربعين .

* * *

- ١١٤ -

عندما صالح الحسن بن علي معاوية ، وثب رجل يدعى حمران بن ابان على البصرة فأخذها . وكان زياد ابن ابيه على فارس ، وقد ارسله اليها علي . فدعا

..وية بسر بن ابي أرطاة فقال له : لقد جعلتك اميراً على البصرة ، فاذا اتيتها ...نم علياً واقتل بني زياد .

فلما قدم البصرة ، خطب على منبرها وشتم علياً ثم قال : من يعلم اني صادق يصدقني او كاذب فليكذبني .

فقال ابو بكرة ؛ وهو شقيق زياد لأمه : اللهم انا لا نعلمك الآكاذبا . فأمر .. يقبضوا عليه. فقام ابو لؤلؤة الضبي فمنعه، وللاثنان منزلة في البصرة .فرأى .. ان يتناسى امره ، واقام بالبصرة ينتظر امر معاوية .

فأرسل معاوية الى زياد : ان في يدك مالا من مال الله فأبعث ما عندك منه. فكتب اليه زياد : لم يبق عندي ، ولقد صرفت ما كان عندي في وجهه ..تودعت بعضه لنـازلة ان نزلت ، وحملت ما فضل الى امير المؤمنين رحمة ..له عليه .

فأجابه قائلاً : نأمرك بالمجيء الينا لننظر فيما وليت ، فان استقام بيننا الامر ..جعت الى بلدك فامتنع زياد في فارس ولم يعبأ به . وكان له بالبصرة ثلاثة من ..يه هم عبد الرحمن وعبيد الله وعباد ، فأخذهم ابن ابي ارطاة و كتب اليه : ان لم ..تثل امر امير المؤمنين قتلت بنيك ..

فكتب اليه : لست تاركاً مكاني حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك وان قتلت ..دي فالمصير الى الله ومن ورائنا الحساب وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون. ..عول بسر على قتلهم . فتصدى له ابو بكرة فقال :اخذت ابناء اخي بغير ذنب ..يس عليهم ولا على ابيهم سبيل ؟

قال : وكيف ذلك ؟

قال : صالح الحسن معاوية على ما اصاب اصحاب علي حيث كانوا .

فأصرّ على القتل ، فاستمهله اياماً حتى يأتيه بكتاب من معاوية . ثم ركب ابو بكرة الى الكوفة. فلما دخل على معاوية قال له والمجلس يغص بوجوه الناس: يا معاوية ، ان الناس لم يعطوك البيعة على قتل الاطفال ...

قال : وما ذاك ؟

قال : ابن ابي ارطاة يريد قتل ابناء اخي زياد .

فكتب اليه يأمره بان يكف عنهم ، وحمل ابو بكرة كتـابه راجعاً حتى انتهى الى البصرة في اليوم الذي جعله بسر موعداً للقتل. وكان القوم قد اجتمعوا ليمتعوا العيون بذلك المشهد الغريب الذي تسيل فيه دمـاء الاطفال الابرياء . فنزل ابو بكرة عن فرسه وكبرّ وكبرّ بعض الناس . ثم أقبل يسعى على رجليه فادرك بسراً قبل ان يقتلهم . فدفع اليه الكتاب ، فأطلقهم .

وكان معاوية ، قد كتب الى زياد ، يتهدّده بعد قتل علي . فقام زياد خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الاكباد ورئيس الاحزاب ، يتهدّدني وبيني وبينه الحسن بن علي في سبعين الفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم ؟ اما والله لئن اتاني ليجدني أحمر ضراباً بالسيف .

وقبل ان تنتهي السنة الحادية والأربعون ، خطر لمعاوية ان يعزل ابن ابي ارطاة عن الولاية ، ويوليّ عتبة بن ابي سفيان . وذلك لانه كان يخاف ان يوقد بسر في البصرة نار الفتنة . فأتاه عبدالله بن عامر فقـــال : بلغني انك تريد ان تولي عتبة .

قال : هذا ما خطر لي .

قال : ان لي بالبصرة ودائع واموالاً ، فان لم تولـّني انصرفت . . .

فرأى من الحكمة ، وقد بايعه الحسن ووجوه الناس ، ان يخمد نار الطمع التي تتأجج في صدور اصحابه ، فولاه . ورجع الى دمشق وقد دخلت السنة الثانية والأربعون . .

— ✲ ✲ ✲

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٠ ل.ل.